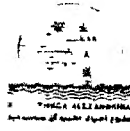


عالم الفكر

المجلد الخامس العدد الأول - ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٤

فلسفة التاريخ

- التاريخ ومشاكل اليوم والغد
- التاريخ والمؤرخون
- صناعة التاريخ
- التاريخ هل هو علم؟
- أحدث النظريات في فلسفة التاريخ



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

رئيس التحرير : أحمد مشاري العدواني

مستشار التحرير : دكتور أحمد أبو زيد

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * ابريل - مايو - يونيو - ١٩٧٤
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية * وزارة الاعلام - الكويت : ص ٠ ب ١٩٣

المحتويات

فلسفة التاريخ

٣ بقلم التحرير	التمهيد
١١ الدكتور محمد الطالبي	التاريخ ومشاكل اليوم والغد
٤٧ الدكتور حسين مؤنس	التاريخ والمؤرخون
١١٥ الدكتور محمد عواد حسين	صناعة التاريخ
١٦٧ الدكتور شاكرا مصطفى	التاريخ هل هو علم
٢١٥ الدكتور عبد الرحمن بنوي	احداث النظريات في فلسفة التاريخ

★ ★ ★

آفاق المعرفة

٢٤٥ الدكتور توفيق الطويل	لقطات علمية من تاريخ الطب العربي
-----	----------------------------	----------------------------------

★ ★ ★

ادباء وفنانون

٢٨٩ الاستاذ صدى خطاب	ارنولد توينبسي
-----	------------------------	----------------

★ ★ ★

عرض الكتب

٣١١ عرض وتحليل الاستاذ صفوت كمال	الفولكلوريون البريطانيون
٣٢١ عرض وتحليل الدكتور عبد الباسط محمد حسن	السياسة الحضرية

الدراسات التي نشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم .

فلسفة التاريخ

تقديم

في أيامنا هذه ، ونحن نسير في سرعة تصعب على العقل ملاحقتها نحو القرن الحادى والعشرين ، تدخل الانسانية كلها عصرا جديدا يختلف عن كل ما سبقه ، حتى ليعجز الانسان عن تصور المصير الذى ستصير اليه ، فى ذلك العصر الحافل بالمفاجآت والهزات والاضطرابات تدخل علوم البشر جميعها فى طور جديد جداً ، يمتاز بالدقة المتناهية والعمق البالغ ، والشمول البعيد المدى ، والسرعة التى جعلت حقائق العلم تتجاوز حد الخيال ، حتى ان شطحات رجل مثل **جول فيرن** ، التى كانت تعتبر فى الماضى طرائف نتسلى بها فى اوقات الفراغ ، أصبحت اشياء بالية قديمة تخطاها العلم بمراحل شاسعة ، واين حديثه عن معجزة الطواف حول الارض فى ثمانين يوما ؟ واين تصوراتهِ للغواصات والطائرات مما نحن فيه اليوم من رحلات الفضاء والتجول على سطح القمر ؟

* اشرف على اختيار موضوعات هذا العدد وراجع مادته العلمية الاستاذ الدكتور حسين مؤنس .

في هذا العصر كان لا بد للتاريخ ايضا ان يساير هذا التطور ، والا انتهى امره وانصر الناس عنه ، واصبح جزءا من حطام العلوم البائدة كالسيميائ التي كانت تسعى الى تحو الحديد والرصاص الى ذهب ، وبالفعل ارتفعت اصوات كثيرة بعد الحرب العالمية الاولى -تھا- التاريخ وتنكر عليه مكانه بين العلوم ، وزادت الحملة بعد الحرب العالمية الثانية على التاريخ واصبح مصيره في الميزان فعلا، لولا حركة التجديد التي ادخلها على مفهومه ومناهجه علماء افذاذ ومؤرخون من ذوى الجد والبصر ، والعلم الواسع بشئون البشر ، فاخرجوا التاريخ من نطاق المرويات واساطير الاولين ، وادخلوا عليه مناهج البحث والاستقصاء ، ومدوا نطاقه حتى شذ الحاضر والمستقبل ، وجعلوا منه دراسات اجتماعية وسياسية وفكرية ، وفتحوا له بذا آفاقا جديدة ، فبعثوه بذلك حيا من جديد ، ودمعوا كل امة الى ان تعيد النظر في تاريخها وتار البشر جميعا لتفهم نفسها وغيرها فهما جديدا ..

وهذا هو الذى حدا « بعالم الفكر » الى ان تخصص للتاريخ عددا من اعدادها ، يصور ازمة علم التاريخ وخروجه منها بشرح مفهومه الماضى والحاضر ، وتفسيره الكثيرة عند كبر المؤرخين . ويلقى نظرة على مستقبل هذا العلم وماذا يرجى منه فى قابل الايام حتى لا يفقد مكانه كعلم له اصول ومناهج ووظيفة فى الحياة .

وقد حدا « بعالم الفكر » الى تخصيص هذا المجلد لعلم التاريخ لان تاريخنا الاسلام نفسه يعانى فى ايامنا هذه ازمة ربما كانت اخطر على مصيره عندنا من ازمته فى بلاد الغرب ، لا صورة التاريخ عندنا جمدت من زمن طويل عند قوالب جامدة لا تتصل بالحاضر الا من بعيد ، ان الكثيرين استخدموا التاريخ كوسيلة للوعظ والتوجيه الفكرى بل السياسى ، واقتحم ميدان الكثيرون ممن لا يعرفون اصله ومناهجه كعلم له اصوله ومناهج بحثه المقررة ، وما اكثر اه الادب الذين حاجهم موضوع يكتبون فيه فما لوالى بحر التاريخ واغترفوا منه اغتراف حاط الليل ، تم مضوا يؤلفون كتباً هى فى حقيقتها مؤلفات ادبية او نظرات شخصية لا تنفع التاريخ او قارئه فى شىء ، فتكدست كتب التاريخ عندنا على غير طائل ، وفى غمار هذا الاندفاع نحو التاريخ كاد المنهج التاريخى نفسه يضيع حتى عند نفر من اساتذة الجامعات ممن اكثروا من التأليف فى التاريخ دون تمحيص او صبر او تنقيب مستبلف فى الاصول ، ولا روية فيما يقرأو ويكتبون ، مما هون امر التاريخ على الناس وقلل الفائدة منه .

لهذا يجيء هذا العدد من « عالم الفكر » وكأنه وقفة تأمل وتدبر ومحاولة للعودة بالتاريخ الى اصوله ومناهجه ، وتذكير بما أهملناه من مسئوليات المؤرخ ودوره فى المجتمع . ثم دعوا الى اعادة النظر فى مفهوم التاريخ عندنا والاجتهاد فى تقويمه - او اعادة بنائه بتعبير ادق - حتى يصبح التاريخ كما ينبغي ان يكون علما نافعا يعين الامة على ادراك حقيقة نفسها وحقائقها غيرها من الأمم ، ويمكن لنا من ان نتخذ من الماضى نبراسا يضيء لنا زوايا الحاضر وطريق المستقبل ، لان الماضى فى ذاته لا يفيد الا اذا كان له انعكاس على الحاضر . ولا قيمة لدراسة التاريخ الحاضر او الجارى الا اذا كان وسيلة لانارة طريق الغد امامنا ، والاعصر تتغير ولكم الانسان واحد ، وهو لا يتعلم الا من التجارب وكلما كانت احاطنه بتجارب الماضى اشمل كان ذلك اعون على شق طريقه الوعر الى الغد ، وقد قال اسلافنا ان الخيول على اعراقها تجسر؛

ونحن في هذه الابحاث نريد أن نقول أن الامم على هدي من تجاربها في الماضي تسير وترقى ، وأن التاريخ لا يدرس للعبرة ، لأن الحقيقة أن احدا لا يعتبر بما يقرأ من أخبار الماضين كما سنرى فيما بعد ، وإنما نحن ندرسه على أنه تجارب الماضين أو تجارب الأمم كما قال ابن مسكويه ، فتتسع معارفنا بتجاربهم ، وتزداد بصيرة بالدينا وحوالها ، ولا يهم هنا أن نتعظ أو لانتعظ ، بل المهم أن نعلم والحال هنا كحال رجل ينتقل من بلاده الى بلاد اخرى ، فيرى لطبيعتها صوراً واشكالا تختلف عما ألفه في بلاده فتزداد معرفته بالارض وما فيها دون أن يحاول تحوير مناظر الطبيعة في بلاده الى صورته تشابه ما رآه في غيرها . وهذا في ذاته مستحيل استحالة الاتعاظ بتجارب الآخرين ، لان الانسان جزء من تجربة حياته ، ولهذا فلا يمكن لانسان آخر أن يقوم بنفس التجربة ، ومن هنا فهي لا تنفع غير صاحبها الا في القليل النادر . وكذلك يصعب أن نتصور امة تقوم بنفس التجربة التي قامت بها اخرى ، وتصل الى نفس النتيجة فيما عدا بعض النتائج العامة لتجارب الامم مثل ضرورة ضبط الاداره ، ووضع قواعد لها ، والتدقيق في مصارف الاموال والحرص على اقامة علاقات طيبة مع الامم الاخرى ، واقامة الحكم على اساس الشورى والنراضي ، وهي اديمقراطية ، وما الى ذلك من البديهيات .

وهذا الكلام الذي نقوله يبدو للغالبية العظمى من القراء وكأنه مناقض للحقيقة بسبب تعودهم السماع عن عبر التاريخ ودروسه . وقد يستنكر كلامنا هذا نفر من الواغليين في التاريخ ، الداخليين ميدانه من غير باب ، لان اهم كتبنا ستى في التاريخ يقبل الناس على قراءتها فيتوههم اصحابها انهم يكتبون تاريخاً ربما هم في الحقيقة الا اهل ادب أو تأملات أو فلسفات . والكثير من هذه المؤلفات جيد وممنوع ، ولكنه ليس بتاريخ ولا فائدة فيه للمؤرخ المنقطع لهذا الفن وطلابه الذين يدرسون عليه .

وهذا المجلد من « عالم الفكر » يحاول أن يوضح هذه النواحي ويعرف الناس بتاريخ ، أى شيء هو وما منهجه وكيف يكون ، وكيف يتأتى لنا فهمه على الوجه العلمي المضبوط ، لهذا فقد تعاونت على كتابته جماعة من أساتذة التاريخ الذين قضوا أعمارهم في خدمته باحثين ومؤلفين ومعلمين وموجهين لابنائهم من الباحثين ، واتجه الاهتمام الى تقسيم موضوعات العلم التاريخي بينهم على نحو يمكن القارئ من أن يلم بهذا العلم وخصائصه ومدارسه الماما عاما ، فتفتح أمامه موضوعاته لكي يستزيد منها اذا شاء المزيد .

وقد قصرنا معظم الابحاث على علم التاريخ عامة دون أن نطيل الوقوف عند علم التاريخ عند العرب ، لان هذا في ذاته بحث طويل يستحق أكثر من اشارات ولحاحات ، وربما أعان الله ومد في الاجل حى يفرد لعلم التاريخ عند العرب مجلد قائم بذاته ، وهو في الحق جدير بمجلدات عدة .

البحث الأول من هذا المجلد وموضوعه « التاريخ والمؤرخون » كتبه د. حسين مؤنس مدخلا عاما لهذا العلم . تناول فيه مباحث شتى مثل ماهية التاريخ ولماذا ندرسه ، وتطوره في الغرب خلال العصور الحديثة ، وأهم نظرياته ومراحل تطوره ، وشمل الحديث بناء علم التاريخ الحديث وأهم اعمالهم . وقد اتجه الجهد في هذا البحث الى التبسيط والتقريب ، لأن الآراء في تعريف التاريخ وتحديد

ماهيته وفائدة دراسته كثيرة جدا ، وبعضها ماعقد لا يفهم في سطور ، وبعضها الاخر يقوم على نظريات معروفة في علم الاجتماع أو علم النفس وما إليها ، ولهذا فقد اجتهدنا في التوضيح وتغريب المعاني أكثر من اجتهدنا في التفصيل والتفريع حتى يستطيع الافادة من البحث رجل التاريخ المنقطع اليه وطالب التاريخ المبتدئ فسهوا قارئ العادي الذي يقرأ ليتشقق ويوسع أفقه .

ولهذا فقد طال الكلام بعض الشيء في بعض الفقرات . ولكن لم يكن من ذلك مفر اذا أريد لهذا الكلام أن يكون عميم النفع . . وقد تطلب الامر أحيانا مقارنة بعض النظريات الفرعية بمذاهب وآراء مؤرخين من العرب مثل **ابن خلدون وشمس الدين السخاوي** .

ومن الواضح أننا عندما نتكلم مثلا عن الغرض من دراسة التاريخ فاننا لا بد أن نشير الى آراء أئمة العلم التاريخي عندنا الى جانب من نذكر من آراء غير العرب في هذا الموضوع .

وتعرض البحث بعد ذلك لتطور الدراسات التاريخية في الغرب من مطالع العصر الحديث ، ولم يتسع المجال للكلام عن أنظار اليونان والرومان وأهل العصور الوسطى في هذا العلم ، لأن الحقيقة أن علم التاريخ ، الذي تقرأ المؤلفات فيه اليوم ، إنما هو من عمل طائفة من اعلام المفكرين الغربيين المحدثين ، ما زالوا يعملون حتى أعطوا علم التاريخ شخصيته المميزة له ، وحددوا له الفايات التي يسعى إليها ، ورسموا له مناهج البحث الخاصة به . وقد تتبعنا عمل أولئك المفكرين ، وعرضنا وجوه انظارهم وخاصة ذلك الرأي الطريف الذي يقول أن التاريخ حوار بين الماضي والحاضر ، حوار بين الاجيال ، بين الانسان والزمان ، بين المؤرخ والقارئ ، وانتهينا من عرض هذه الآراء الى القول بأن كل عصر ينبغي أن يكتب التاريخ من وجهة نظره ومفهومه الخاص وعلى ضوء ظروفه . ومن هنا فلا يمكن أن يكون لاي بلد من البلاد ، أو للعالم كله تاريخ واحد ، بل تواريخ متعددة ومعنى هذا أن عملية إعادة كتابة التاريخ ينبغي أن تكون متجددة ومسيرة للتطور الفكري والحضاري .

وانتقلنا بعد ذلك الى الكلام على الاتجاهات السائدة في كتابة التاريخ في عصرنا هذا ، فبدأنا بالكلام على بحث الدراسات التاريخية نتيجة لتنبيه الناس لمجموعات الوثائق الضخمة التي احتفظت بها الكنائس ، ودور محفوظات الدول ، ومكتبات البلديات ، وما الى ذلك ، وانكبنا المؤرخين على تنظيم هذه المجموعات وقراءتها لاستخلاص المادة التاريخية منها ، وتكلمنا عن التيارات المختلفة لكتابة التاريخ نتيجة لظهور هذا القدر الضخم من المادة التاريخية الخام أو الاصلية ، وفصلنا أمر الواقعية الموضوعية والايجابية التاريخية ، تم النسبية التاريخية ونظريه ارتباط الماضي بالحاضر . وأعقبنا ذلك بالكلام على تطور العلم التاريخي على أبهى النابيين من أصحاب هذه الاتجاهات ، بادئين بفولتير ثم تحدثنا عن ادوارد جيبون والموسوعيين الفرنسيين ، وديفيد هيوم ، وآدم سميث ، وليوبولد فون رانكه ومدرسته ، وجوهان جوتفريد هيردر ، وبارتولد جيورج نيبوهر ، وجيزو ، وأوجستان فيري ، وبوركهارت ميشليه . ووقفنا طويلا عند هيجل والمثالية التاريخية . وانتقلنا بعد ذلك للكلام على مذهب المادية التاريخية الذي ابتكره كارل ماركس وفريدريش انجل وفصلنا الكلام فيه . وختمنا

هذا الكلام عن المذاهب التاريخية بالكلام عن مذهب جديد في التاريخ يؤمن به الكثيرون من أئمة علم التاريخ في عصرنا وهو مذهب التاريخ الكلي . ويراد به التأريخ للعصر الذي نؤرخ له بصورة كاملة تتناول كل نواحيه سياسية كانت أم اقتصادية أم فكرية ، لأن هذه النواحي مجتمعة تعطي الصورة الحقيقية للعصر الذي نؤرخ له . ثم تكلمنا عن اعلام التاريخ في عصرنا مثل كولنجود وكروسى وشبنجلر وتوينبي ، وشرحنا مذهب كل منهم شرحا وافيا ولكنه مبسط على نحو يستطيع معه أى قارئ متقف أن يفهمه فهما صحيحا ، لأننا لاحظنا أن معظم النظريات العلمية والأدبية لا يفهمها القارئ العربي فهما صحيحا ، لأن الذين يتولون تقديمها اليه لا يقدمونها اليه تقديما صحيحا أولا ، ثم أنهم يصوغون كلامهم على نحو لا يستطيع القارئ العادى معه أن يدرك حقيقة هذه النظريات والآراء ، وخذ مثلا نظريات داروين وانظر كيف يفهمها الناس عندنا .



وتناول د. شاكى مصطفى موضوع « التاريخ بين العلوم » تناولا جديدا من كل ناحية . وجعل مقاله مقدمة للموضوع نفسه الذى تصدى له ، فطاف بنا طوافا بعيدا فى موضوع علم التاريخ بادئا بالكلام على الانسان نفسه وهوصانع التاريخ ، او أداة تنفيذ الحوادث بتعبير أدق ، ثم وقف طويلا عند الاجابة على سؤال رئيسى هو : **هل التاريخ علم ؟** فعرض آراء الكثيرين من أساتذة ذلك العلم فى الغرب ، وتحدث عما سماه « ثورة التاريخ » فى عصرنا ، وهى نوره حفيفة تشمل الانسانية كلها وعلومها ومن بينها التاريخ . وتناول أسباب هذه الثورة ومداهها وقال ان ثورة التاريخ اليوم رغم أنها تجرى فى « الصمت الاخرس » ، تسهم فى الانقلاب الجذرى للفكر الانسانى ، وقال ، « انها فاعلة منفعله » بهذا الانقلاب فى وقت معا ، أبعادها تتناول مادة التاريخ تناولها لمناهجه ومساره فى العمق والشمول » وتناول بالمناقشة عوامل تلك الثورة فى ميدان التاريخ فنحدث عن تضخم مادته فى عصرنا الراهن بزيادة عدد الأمم التى بلغت الوعى واخذت تكتب توارىخها ، ثم تناول الثورة من ناحية المنهج وذكر كيف أن التاريخ ما كان يمكن أن يظل بعيدا عن الثورة العامة التى تشمل مناهج العلوم جميعا .

ثم نحدث عن التاريخ « لا كأحداث نعبر الزمن ، ولكن كممارسة فكرية وجهد تكوينى » وهما يتناول موضوع التاريخ بتفصيل طويل بعد أن يعرض لآراء عدد كبير من المشتغلين بهذا الموضوع من شيوخ الفن . ثم يقف وقفة طويلة عند موضوع « الزمان » وتحديد معناه ، وهو فصل طويل من فصول الفلسفة . ولكنه فى نفس الوقت موضوع أساسى من موضوعات التاريخ . لأن التاريخ يدور فى الزمان ، وبلا زمان فلا تاريخ . ويعقب ذلك بالحديث عن الماضى وامكان معرفته ، ووسائل هذه المعرفة ، وهل يمكن أن تكون كاملة . ويقف طويلا عند سؤال شغل بال الكثيرين من المؤرخين وهو : الى أى حد نستطيع القول بأن التاريخ الذى نقرؤه هو الصورة الحقيقية لما مضى من الاحداث ، وبنتهى الى القول بأن معرفتنا التاريخية لا بد أن تكون جزئية ومحدودة .

وعلى هذا النحو الفلسفى الرفيع يمضى شاكى مصطفى فى تناول موضوعه الواسع العسير . وهو بغف عند كل صغيرة ويناقشها مناقشة فلسفية مدعمة بالحجج مما قرأ من أصول التاريخ وكتب المؤرخين وما عاناه هو نفسه كمؤرخ نشيط لا يكف عن التنقيب فى نواحي

ذلك الميدان الواسع من ميادين المعرفة الانسانية، ويستوقف النظر كلامه عن « الحادث . وما يراد به ثم حركة التاريخ وما هي « وميكانيكية العملية التاريخية » وهنا يعرض عشرات من آراء اعلام التاريخ في تلك المشاكل التي تعرض لها وخاصة المعرفة التاريخية وطبيعتها وحدودها وينتهى بأن يضعنا على عتبة موضوع دراسته وهو «مكان التاريخ بين العلوم . . فيتحدث طويلا عن عملية التاريخ ، ثم عن الموضوعية وما هي وما حدودها ، والنقد التاريخي والذاتية التاريخية والسببية التاريخية وما الى هذه من الموضوعات التي يثيرها في ذهن القارئ ذلك البحث الممتع .



وننتقل بعد ذلك الى المقال الثالث وهو الذي كتبه د. عبد الرحمن بدوي عن احداث النظريات في فلسفة التاريخ . . وعبد الرحمن بدوي فيلسوف أصيل ألف في الفلسفة ما يمكن أن يوصف بأنه موسوعة كاملة تتناول كل مسائلها وعصورها ، وهو يتناول الموضوع هنا تناول الخبير العارف بكل كلمة يكتبها ، وهو يسير في موضوعه سيرا منهجيا دقيقا يضع السؤال ويجب عليه ثم ينتقل الى الذي يليه ، وهكذا حتى يستوفي بحثه على أحسن وجه يكون .

وهو - كفيلسوف - يبدأ بالكلام عن الزمان ، ويعطينا في سطور آراء أهم الفلاسفة الذين تعرضوا لذلك الموضوع الذي تعرض له شاكر مصطفى في بحثه من وجهة نظر المؤرخين . ثم ينتقل الى الكلام عن مسار التاريخ وهل هو يسير في خط مستقيم أو في دوائر . ويتحدث عن كثير من المشاكل التي تناولها شاكر مصفى ولكن في أسلوب فلسفي كمسألة النسبية التاريخية ، والعلة التاريخية وامكان التنبؤ بما سيكون عليه التاريخ، ومن تعرضوا لبحثها من اعلام فلسفة التاريخ . ويقف عند البكسيس دى توكفيل ويعقوب بوركارث وفريدريش نيتشه، وكارل ياسبرز .

ثم يخصص فصولا ضافية حافلة بالعمق لعدد من فلاسفة التاريخ في العصر الحديث وهم فلهم دلتاي ورأيه في تاريخية الانسان . ثم يتحدث عن جورج زمل ونظريته في نسبية المعرفة التاريخية . ورأيه في امكان وجود قوانين تحكم سير التاريخ .

وبعد ذلك يتحدث د. بدوي عن بندنو كروتشي وفلسفته التاريخية ، ويعطينا عرضا شاملا موجزا لآراء هذا المفكر الايطالي الذي يعتبر في طليعة فلاسفة التاريخ في عصرنا هذا . وليس من اليسير ايجاز كلام بدوي هنا ، لأنه في ذاته خلاصة دقيقة لدراسات واسعة في كروتشه وكتبه، وخاصة ما يتعلق منها بالتاريخية المطلقة.

ويقف بدوي بعد ذلك عند كارل ياسبرز وهو من أكثر فلاسفة التاريخ تعقيدا ، ولكنه استطاع أن يشرح لنا آراءه شرحا وافيا ، يوضح جوانبها ، وخاصة فيما يتعلق بالموضوعات الرئيسية التي تعرض لها مثل حدود التاريخ ، والتراكيب الأساسية للتاريخ ، ووحدة التاريخ والوعي التاريخي ، والعلو على التاريخ ، والتاريخ والكون والوراثة والمنقول والفردى والكل .

وقد استطرد بدوي عن الكلام عن اشبنجلر لأن له عنه كتابا كاملا ، ولم يطل الوفوف عند آرنولد توينبي لأنه في الحقيقة مؤرخ لا فيلسوف تاريخ ، وقد شرحنا ذلك بتفصيل في المقال الأول من ذلك المجلد .

ونصل الى المقال المتمتع الذي كتبه د. محمد عواد حسين عن صناعة التاريخ الى كتابته ، فقدم لنا دراسة منهجية ذات أهمية كبرى في المنهج الامثل لكتابة التاريخ . وهذه الدراسة ذات قيمة عظيمة لأي مشغول بهذا العلم . واذا كان طالب التاريخ في الجامعة ، وخاصة طالب الدراسات العليا في التاريخ ، يفيد أعظم الفائدة من هذا المقال فان كل مؤرخ - حتى أولئك الذين تمكنوا من المنهج التاريخي ، وألفوا كتباً تعتبر عيوناً من مؤلفات هذا الفن ، يفيدون من ذلك المقال ويجدون متعة وفائدة في قراءته ، اذ ان كاتبه خبير بذلك الموضوع سواء بما ألف ونشر من الكتب عن الاغريق والرومان ، أم بما تولى من تدريس هذا الموضوع لطلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ في مصر والكويت .

ولقد قرأته في امعان وروية وخرجت من قراءتي بمعرفة ادق وبطريقة مثلى في التجويد في الصنعة التاريخية ، لأن د. عواد يسير بنا خطوة خطوة من جمع المادة الى ترتيبها وتصنيفها ، الى صياغتها في صورة مقال أو كتاب ، وأحسب أن هذا المقال ينبئ أن يكون في مقدمة ما ينصح أهل التاريخ جميعاً بقراءته ، والتفكير فيه وتطبيقه تطبيقاً دقيقاً .



ونصل أخيراً الى مقال : **التاريخ ومشاكل اليوم والغد** الذي يهديه إلينا د. محمد الطالبي وسط هذه المجموعة من الأبحاث والدراسات عن علم التاريخ .

و د. الطالبي طراز فريد من مؤرخي العرب المعاصرين ، فهو تونسي من نفس المدرسة التي أخرجت لنا ابن خلدون التونسي الأصل مثله ، ودراسته عربية فرنسية ، تجمع بين أصالة العلم التونسي التي تتجلى في أعمال مفكرين تونسيين مثل سعيد بن عبد السلام المعروف بسحنون - درة التاريخ الفكري التونسي الخالص في العصور الوسطى ، ومحمد بن أبي زيد الفيرواني الذي شأى أضراجه من فقهاء المالكية برسائلته الصغيرة حجماً العظيمة قدراً والتي تعتبر - في رأيي - من أجمل وأدق ما كتب في الفقه على مذهب مالك امام دار الهجرة .

وتقافة د. الطالبي بعد ذلك فرنسية ، وقارئه يستمتع وهو يقرأ بهذه الطلاوة التي يعرضها كل مطلع على الكتابات الفرنسية ، فان الفكر الفرنسي عادة دقيق في تفكيره ودقيق في تعبيره ، وهذه الدقة لا تحول دونه ودون العمق والشمول والنظرة الواسعة ، وهذا بالضبط هو ما يجده القارئ في مقال د. الطالبي الذي يحمل إلينا جدّة في الأسلوب وأصالة في التفكير . ومع أن الموضوع الذي طلبنا إليه الكتابة فيه موضوع عسير وهو « التاريخ ومشاكل اليوم والغد » إلا أنه عرف كيف يتناوله تناول أستاذ جمع أطراف الفن التاريخي في يديه ، ومضى بنا في مباحث ومسارات من التفكير تحمل إلينا طعم الفكر الفرنسي وما يمتاز به من ذكاء وحدة .

وأقرأ مثلاً كلامه البديع عن موقف الانسان والتاريخ اليوم ، واستمع إليه يجيب عن سؤال عظيم الأهمية وهو : « هل الحوادث أي الهزات العظيمة التي اعتاد أن يسجلها التاريخ هي حقيقة أجل ما يواجهه مصيرنا ؟ وجوابه » ان الزلازل التي اعتاد أن يسجلها الانسان في عصر

وفزع لا تزيد على أن تخذش وجه الارض خدشالا يبقى له اثر ، بينما التعاريخ الوديعه الخفيه عن العيان هى التى تكيف الجبال والادويه والبحار .. وهذه مقالة مؤرخ مفلسف أدبب اريب تعطينا فكرة عن المستوى العالى الذى ارتفع اليه فى كتابة موضوعه الممتع .

والقضايا التى يتناولها محمد الطالبى هنا كثيرة ومثيرة ، والاستئلة التى يطرحها هم يجيب عليها تثير فى الذهن دوامات من اتفكير ، فقد تحدثنا مثلا فى المقال الاول عن رأى بعض المؤرخين فى أن التاريخ حوار بين الانسان والرمز ، ونجد الطالبى هنا يضع الموضوع وضعا آخر ويتحدث عن الحركة الجدلية بين الانسان والتاريخ، فالتاريخ يصنع الانسان ويكفيه ، والانسان هو الذى يصنع التاريخ ويصوره . وفى سياق بحثه يتعرض الطالبى لابن خلدون وهو من أحسن من درس هذا المفكر العظيم الذى لا يزال الى يومنا هذا يطل بقامته المديدة على نهر الفكر العربى السائر الى الابد باذن الله .

تم يسأل بعد ذلك : هل يعين التاريخ على حل مشاكل اليوم ؟ وللإجابة على هذا السؤال يطوف بنا مع نفر من اعلام التاريخ عندنا من أمتال الطبرى وابن الاثير وابن خلدون . ويربط بين ابن خلدون وهيجل ربطا بديعا ويشير الى جول فاليرى . وفى اثناء كلامه يجيب عن سؤاله بقوله « ان التاريخ لا يمدنا بحلول لمشاكل الحاضر لانه لا يعيد نفسه ، ولكنه مع ذلك يعيننا اعانة جذرية على فهم واقعنا » . ويختم بحثه بعبارة جميلة ربما كانت تعبيرا بليغا عن موقفنا نحن أهل التاريخ من علم التاريخ وصلته بالانسان ومستقبله ، قال : « خلاصة القول اننا من المتفائلين بمستقبل التاريخ العلمى . وان كانت الصعوبات لاتخفى علينا ولا تأمن الاخيبات ، وذلك لاننا نؤمن بالتقدم ، ذلك التقدم الذى تقر اخطوطه واضحه فى سجل الخليقة ، ذلك السجل الذى اعاننا ، وسيعيننا التاريخ اكبر فأكثر على سبر صفحانه : « أفحسبتم أننا خلقناكم عبنا وانكم الينا لا ترجعون ؟ » .



ذلك هو الزاد الوافر من العلم بالتاريخ الذى يضعه هذا المجلد من عالم الفكر بين يدي القارئ العربى الذكى ، المتطلع الى المعرفة ، الباحث عن كل ما يعينه على حل مشاكله كممثل لشعب من أكبر الشعوب التى حملت مشعل الحضارة ووجهت سير التاريخ . وهو زاد فيما نعتقد غنى ووفير يحتاج منا الى أن نستوعبه فى هدوء ، ونتمنله فى صبر ، ونقدمه الى أمتنا المجيدة فى تواضع ، ولنضيف به الى بناء الفكر العربى الشامخ لبنة صغيرة « وخيركم من جاد بما عنده » والله الموفق سبحانه .



محمد الطالبي *

التاريخ ومشاكل اليوم والغد

ما فائدة التاريخ بالنسبة لمشاكلنا اليوم وغدا ؟ وما هو مستقبله في عالم التقنيات والعلوم التجريبية ، والقوانين الكونية التي تضع بيد الإنسان مقاليد التحكم في المصير وتكييف العالم الحاضر والقادم ؟ انه يحسن بالمؤرخ ، وبكل ذي علم على الاطلاق ، ان يقف من حين الى حين وقفة تأمل ونسأل عن جدوى العلم الذي وهب له حياته . ولعل هذه الوقفة اوكد ما تكون في ايامنا هذه التي اخذت فيها البشرية تخرج من جلودها ، وتقفز في الاجواء العليا محققة ما انبا به التنزيل - « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان » (١) - وما ورد في الأنر : « لو تعلقت همّة بنى آدم بما وراء العرش لنالته » . فاليوم اعطيت البشرية سلطانا عظيما ، وناقت همتها الى ما وراء العرش ، وقبلت

* الدكتور محمد الطالبي استاذ التاريخ الاسلامي في كلية الاداب بالجامعة التونسية . يمتاز بثقافة واسعة وعلم غزير بتاريخ الاسلام العام والقرب خاصة معظم مؤلفاته بالفرنسية . آخرها عن ابن خلدون وفلسفته التاريخية والاجتماعية نشره بالفرنسية .

(١) الرحمن ، سورة ٥٥ ، آية ٣٣ .

التحدى . فما سيكون المصير ؟ وما دور المؤرخ والتاريخ في هذا الوضع الجديد والانقلاب الحاسم .

فالانقلاب اليوم اجسم واهول بكثير مماشاهده في زمانه مؤرخ عربى فذ ، حضرمي النسب ، اندلسي الاجداد ، تونسسي المنبت ، مغربي التجربة والتنقل ، ومصرى الخاتمة والمنقلب ، اعنى **ولسي الدين عبد الرحمن بن خلدون** (٧٣٢ - ١٣٣٢/٨٠٨ - ١٤٠٦) حيث كتب في ذلك الاسلوب المحكم الصادر عن وضوح الملاحظة وعن نفاذ بصيرة مدهش : « واذا تبدلت الاحوال جملة فكانما تبدل الخلق من اصله ، وتحول العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث . فاحتاج لهذا العهد من يدون احوال الخليقة والافاق (٢) » .

ولمهدنا هذا الذى نعيش فيه فنحن ايضا فى اوكد حاجة الى من « يدون احوال الخليقة والافاق » ، احوال الخليقة عامة ، لا احوال بعض الجماعات المنفردة مهما كانت هامة فى حد ذاتها ، او عزيزة على نفوسنا لسبب من الاسباب ذلك ان « الخلق الجديد » الذى نعيشه ، حسب عبارة ابن خلدون ، ان لم يكن اول خلق للبشرية من نوعه ، فهو بدون منازع اجسم من كل ما سبق ، وهو احسم من عرج من تلك المنعرجات العديدة التى تسوق حتما الخليقة نحو مصيرها .

نم ان البشرية ، ان كانت قديما تساق نحو مصيرها فى غيبوبة بين الفغلة والوعي ، فهي اليوم يزداد وعيها وضوحا اكثر فاكثر ، وهي تعالج فى نعتز توجيه خطاها عن يقظة وتبصر نحو اهداف لم تتضح لها بعد كامل الوضوح ، يطفى عليها ذلك الجانب المادى الصرف الذى حذر منه ابن خلدون (٣) . فالوعى البشرى الجماعى اخذ يفتق من اكمامه ، اكمام الحدود العديدة ، حدود الانحياز ، وضيق الازهان ، والتعصب الطائفي او الاقليمي ، او الجنسى ، وغير ذلك مما يسد الافق ويحول دون الشمول ووضوح الرؤية .

الانسان والتاريخ اليوم :

ان الكائن البشرى يمتاز من بين كل الكائنات بالذاكرة ، ذاكرة فردية وذاكرة جماعية ان التاريخ هو ذاكرة الجماعات هكذا كان قديما ، وهكذا هو اليوم . غير اننا اليوم توغلنا فى منعرج سوف يصبح فيه التاريخ ، عندما يبلغ التطور غايته ، ذاكرة الجنس البشرى بدون حصر او تقييد .

والحقيقة ان هذا التطور الذى سيجعل فى النهاية من التاريخ ذاكرة الجنس الذى ننتمى اليه بدأ منذ احقاب او قرون ، لكن بصفة بطيئة وثيدة ، لا يسلك سبيلا واضحة سوية ، بل كثيرا ما يتيه فى ادغال التعصب والتحزب والشعوبيات ، قبل ان يعود الى الجادة على يد بعض الرواد الافذاذ الذين لم تنطمس امامهم السبيل مهمانسجتها من جنوب وشمال . واننا الى هذه الناحية من البحث عود .

وريشما يتم التطور الذى نعتقد ان التاريخ سوف يصبح فى نهايته علما حقيقيا - وان اختلف عن علوم الطبيعة - فما نشاهد اليوم ؟ ما التاريخ ، وما علاقته بالانسان فى يومنا هذا ، وفى هذه

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ص ٥٣ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٥١ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ .

المرحلة الحاسمة التي نقطعها بين ماضٍ يزداد تشعباً كلما زدنا في درسه تعمقاً ، ومستقبل نحن على أبوابه في منزلة بين المنزلتين ، يتفاذفنا الوجع والأمل ؟ ان كل من اعتاد تقليب الصفحات الصفراء ، صفحات تواريخنا القديمة ، وكل من راض نفسه على سبر بطونها ، ونفض غبارها ، واستكشف ما احتوت عليه من افراح واتراح ، لعله يجنح الى الظن الى ان كلمة تاريخ انما هي مرادف كارثة او عجيبة .

هكذا فهم اجدادنا التاريخ عندما كان في طور الطفولة ، لم يتخلص بعد من خضم الاساطير التي منها طفا شيئاً فشيئاً . كان بعضهم يقصدهم التسلية ، وبعضهم يسجل به مفاخر القبيلة ، او مآثر الآلهة ، وهذا يجعل منه مدرسة عظة وارشاد ، والاخر يضعه للملوك كي يكتسبوا من خلاله ما يحتاجون اليه من خبرة سياسية او يستغلوه لتدعيم ملكهم وسلطانهم . وهكذا اتت التواريخ تدوى بصليل السيوف ، وتقطر دماء ، وتضج بالتهليل والتكبير ، او بالنديب والعيول . وهكذا وردت في شكل حوليات شحنت بكل حادثة جلية اعتبرت جديرة بأن تسجل على صفحات التاريخ الغراء او السوداء . فاذا بصفحات هذا التاريخ تكاد تكون خالية من وصف الانسان في حياته اليومية ، واذا بك تلمس الانسان الهادي الذي تنبض فيه الحياة ويكسوه اللحم والدم ، وتبحث عنه في بطون هذه السجلات القديمة ، فلا تكاد تعثر له على اثر . هنا ايضا كما هو بالنسبة لعلوم اخرى ، طفى الفريب والولوع بالشاذ على ما به العمل وعليه المعول . الحوادث احتلت كل مكان ، وطردت في النهاية الانسان . وبقيت هذه النزعة العتيقة التي لا ترى في التاريخ الا وعاء لاهم الحوادث وذكرها مفصلاً لها مهيمنة على كثير من العقول الى يومنا هذا ، اذ انصارها المخلصون لها لم ينقرضوا بعد ولم يستسلموا ، وان فلت صفوفهم وخفتت اصواتهم .

ذلك انه قويت نزعة اخرى جعلت التاريخ يعبر اكثر عناية للانسان العادي ويوجه نحوه الانوار التي كانت مقصورة على الحدث البارز الذي كثيراً ما كان اروقة البلاط او ساحة الوغى . وهذه النزعة اكثر كشفاً عن واقع الانسان ، واجزل فائدة بالنسبة اليها ، بالنسبة لعقليتنا ، ومتصوراتنا ، وحاجات يومنا ، فنحن لا ننكر - وهذا ما يجب ان نؤكد حتى لا نتخلص من تطرف لنقع في تطرف معاكس - ما للحوادث الحاسمة من قيمة ممتازة . غير ان هذه الحوادث ، مهما كانت جسيمة ، فهي لا تزيد على ان تكون شبيهة بتلك التجاميد التي تكسو سطح البحار . فهي وليدة ما يجري في الاعماق ، وتلك الاعماق هي ، بالنسبة لنا ، بواطن روح الانسان العادي ، وصروف حياة الشعوب الكادحة ، وما يطرأ على المحيط التي يحويها من تفير وتفاعل يهتز له بعنف ، من حين الى حين سطح التاريخ . لقد اعتاد التاريخ التقليدي ان يسجل الهزات السطحية ، واصبحنا نبحث عن اسبابها البعيدة واسرارها الدفينة . ذلك هو التغير الجذري الذي طرأ على العلاقة الجدلية التي تربط الانسان ، انسان اليوم ، بتاريخه . فمن موقف الاندهاش امام الرجات التي كان يكتفي بتاريخها ، اى بضبط زمانها ، خرج الى البحث عن اسبابها . ومن أدراك ؟ لعله اذا ما اهتدى الى الكشف عن العلة وجد السبيل الى تفادي ما يتبعها من محن واحن ، او حال دون وقوعها ولنا الى هذا عود .

بم لنا سؤال آخر ، هل الحوادث ، اى الهزات العظيمة التي اعتاد ان يسجلها التاريخ مهما بدت ممتازة ، هي حقيقة أجل ما يوجهه عجلة مصيرنا ، واجدر ما يستوجب عنايتنا ؟ واذا ما اردنا ان نضرب مثلاً قلنا : اى شيء أشد اثراً في تكييف وجه البسيطة ، الهزات العنيفة

التي ترتعد لها الفرائص والقلوب ، أم التعاريخ الهادئة البطيئة التي لا نشر الانتباه ولا يحسب لوجودها أدنى حساب ؟ الجواب أصبح اليوم يسيرا لأن الجيولوجية علمتنا ان الزلازل النني اعتاد ان يسجلها الانسان في ذعر وفزع لا تزيد على ان تخدش وجه الارض خدشا يكاد لا يبقى له أثر ، بينما التعاريخ الوديعة الخفية على العيان هي التي تكيف الجبال والادوية والبحار .

فهذا الاكتشاف جعل الانسان اليوم يقيّم الدوافع التاريخية - او الاسباب ان شئت - فقيما جديدا . اننا اصبحنا لا نقيس هذه القيمة بمقياس خطورة الكارثة ، وشدة المحنة ، وعدد القتلى . فكم من كارثة رهيبة ، او انتصار باهر ، لم يغيرا مجرى التاريخ بقدر انملة ، وكم من دقيفة لطيفة ، لم ينتبه لها أيام ظهورها لدقتها ، اسفرت عن جسيم العواقب . فاكشف العجلة ، واكتشف صنع الفولاذ - وليس من الحوادث التاريخية بالمفهوم العادي القديم - غيرا وضع البشرية . وكذلك اكتشف العالم الجديد ، وسق السبيل الى الهند عن طريق البحر ، قد عملا لتقويض قاعدة العرب الاقتصادية ولتدهورهم وانحطاطهم ، ما لم تعمله الحروب الضوارس . فالحوادث اذن ، جليها ودقيقها ، لبنة لا يستغنى عنها طبعها التاريخ ، الا انها ليست التاريخ كله .

فليس التاريخ اذن ، في نظر انسان اليوم ، كما كان الشأن بالنسبة لانسان الامس ، سلسلة من حوادث متعاقبة في زمن مضى ومنسوبة الى الأهمية بوجه وبدون وجه . فاذا خرج التاريخ ان يكون هذا تعريفه ، فما هو اذن ؟ فلقد عرفه بعضهم بأنه « علم الماضي » غير ان هذا التعريف لا يرضى تماما ايضا ، لان الماضي وعاء لكل مظاهر الكون . بمختلف اشكالها والوانها ، يتسع للجيولوجية ، ولعلم تطور الحياة ونشوتها وارتقاها ، ولعلم الفلك وغيره . فلكل صنف من اصناف الكائنات ، من جماد ونبات وحيوان تاريخ وهذا التاريخ له علماء وله اختصاصيوه .

وكذلك للكائن البشرى تاريخه - في جملة الكائنات - اذ ان هذا الكائن لا نستطيع ان نتصوره الا في محيط وفي وضع وحالة . فالتاريخ اذن علم الانسان في وضعه واحواله المتبدلة دائما ابدا . فهو علم نطلب منه ان يساعدنا على حل لغز الحياة ، وفي حله طبعاً حلّ للفر الكائن البشرى على العموم . وهذا العلم لا يبسط سلطانه طبعاً الاعلى الماضي ، الا ان هذا الماضي التاريخي من نوع خاص . فهو ليس بماضٍ قارئ ذي حدود معينة ثابتة . هو ماضٍ في امتداد مستمر . فهو كالظل يأكل في كل آن ولحظة الحاضر ويتحفّز ليرخي سدوله على المستقبل . فالتاريخ اذن ليس علم ماضي الانسان ، بل هو علم تطور الانسان بلا انقطاع على مدى الزمان . فهو علم يعدو وراء الانسان محاولا ان يدركه وان يفهمه ويفهمه ، وان يشره لنا في مختلف المراحل المتتابعة المنداخلة التي مر بها ، ويتجه نحوها ويداب على المرور بها وطبها في طبها التاريخ .

غاية التاريخ اذن وهدفه ان يشرح لنا الانسان . وهكذا يتضح لك ان الحوادث - بارزها وما خفي منها في الاعماق - ليس لها في حد ذاتها ، من حيث هي حوادث مجردة كبير قيمة ما لم تتفاعل مع الفكر الانساني . ذلك انما تصبح الحوادث ذات قيمة عندما ينطقها المؤرخ بعد خرس باستفساره اياها والحاحه في سؤالها عن قدر مسئوليتها ومدى تأثيرها في تغيير وضع الانسان وتوجيه مصيره . فالتاريخ اذن غايته وضالته ان يفهم ، ان يربط العلل بالمعللات والاسباب بالمسببات ، وان يجعل من كامل الواقع المتشعب والمترامي الأطراف شيئا له نظامه

التاريخ ومشاكل اليوم والغد

وانسجامة اضطرابا والراما بحكم التسلسل والتوالد المنطقي. التاريخ بناء منطقي لعالم الانسان. واذا كان الامر كذلك فانه ينبغي - كي يكون البناء متين الاسس وفي مأمن من مزالق الخيال - ان لا يهمل المؤرخ أى مظهر من مظاهر الواقع ، اذ هذا الاغفال قد يؤدي الى عدم الفهم ، او الى شرّ من ذلك ، الى سوء الفهم واشادة قصور من ورفى سرعان ما تنهار ونسلم اصحابها الى اوخم العواقب . انه يستحيل عليك مثلا ان تفهم الانسان فهما صحيحا مفيدا اليوم وغدا - الانسان هو موضوع علم التاريخ - اذا اكتفيت باحصاء الكوارث ، واذا اجتهدت في وضع قوائم الحوادث . اذ الانسان كل لا نفهمه ما لم نعتن ايضا بحياته الاقتصادية ، والاجتماعية والتشريعية والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته . ولذا ترى المؤرخ اليوم يلجأ الى تخصص أدق فأدق حتى يتمكن من أداء رسالة التاريخ على وجهها ، أى حتى يتمكن من اعانتنا على فهم ذاتنا أكثر فأكثر . وذلك أن سبل التاريخ في تشعب مستمر كلما ازداد موضوع بحثه تعمقا وانساعا وكلما ازداد وضع الانسان تعقدا ، أى كلما ازدادت انسانية الانسان تكاملا على مر التاريخ وبفضله .

فهناك حركة جدلية بين الانسان والتاريخ . فالتاريخ يضع الانسان ويكيّفه ، والانسان هو الذى يصوغ التاريخ ويصوره . لا تاريخ لو لم ينقش الانسان التاريخ على صفحات ذهنه قبل ان ينقشه على صفحات ابقى على مر الزمان . فالانسان ، في علاقته مع تاريخه ، فاعل منفعل . فهو يجلي هذا التاريخ في مرآة فكره ويقلبه الى متصورات محكمة الهيكل ينعكس تأثيرها بدورها على اتجاه مصيره . فلا وجود للتاريخ . كما لا وجود للزمن الذى هو وعاء التاريخ ، اى لا وجود للظروف والمظروف لولا الفكر الذى يفكر التاريخ والزمن . انما التاريخ من خلق فكر الانسان فليس الانسان اذن ريشة تسير في اتجاه ربح التاريخ ، انما هو يريد ان يكون ارادة تحاول ان تجرى الرياح بما تشتهي السفن ، فبعكس المتل ويخضعه لعزيمته .

لكن التجربة البشرية التي بلغها علمنا حتى الآن نعلمنا ايضا ان سيل التاريخ يجرف الانسان في تياره . فهل لهذا السيل اتجاه وغاية ، وهل يوجه الانسان ، او يوجّه من طرفه ؟ هذا مشكل من أشد المشاكل تعقدا واستعصاء على الحل انكب عليه فلاسفة ومؤرخون عديدون ، وبالرغم مما أسال من حبر فهو لم يزل الى يومنا هذا قائما ، شائك الجوانب ، حافزا للنحس . بل قل للتعصب ، في اتجاهات متناقضة (٤) ، وسوف لن يزال كذلك الى أمد بعيد . ذلك أن

(٤) انه يعسر الاستيعاب في هذا الصدد . لكن يمكن ان نحيل القارئ على المصادر التالية التي هي من اهم ما كتب حول الموضوع :

L'homme et l'Histoire, Acts du VIe Congres des sociétés de Philosophie de Langue Française (Strasbourg 10-14 Septembre 1952) P.U.F., Paris 1952.

في هذا العدد يبسط المؤتمر آراء أهم القدام والمحدثين ، من فلاسفة ومؤرخين في الفقيه

L'Histoire et ses interprétations ; Entretiens au tour de Arnold Toynbee, sous la direction de Raymond Aron, Paris 1961.

في هذا المؤلف نجد نقاشا لآراء ارنولد توينبي - بحضور الكاتب نفسه - وكثير من هذه الآراء تدور حول اتجاه التاريخ وعلاقته بارادة الانسان

Janus, No. IV, Paris Décembre 1964 — Janvier 1965, Ansacré a la question,, L'Histoire a-t-elle un sens ?

Rene Sédillot, L'Histoire n pas de sens, Paris, A. Fayard, 1965.

M. Talli, Ibn Khaldun et l'Histoire, Maison Tunisienne de L'Edition, Tunis 1973.

جدلية ارتباط الانسان بالتاريخ لعلها في قراراتها لتتحقق بجدلية الجبر والاختيار التي أعيت كل العقول ، لانها ولا شك تتعدى الادراك الذي يحشرون استيعاب كل اطراف القضية - وهو شرط لعلها - في مرحلتنا هذه التي وصلها نمونا الفكري وبلغتها قدرتنا على الامام . فالامر بالنسبة للقول بحتمية اتجاه التاريخ لا يختلف في جوهره عن الاعتقاد في ابرام القضاء والقول بالجبر . واذا ما اعتقد المرء هذا اعتقادا صادقا لا لبس فيه ، اذاه حتما هذا الاعتقاد ، بحكم التولد المنطقي الاضطراري ، الى اسلام امره الى أعينة القضاء المبرم التي تقود التاريخ ، فتقوده بالتبعية ، فيما ومن تقود ، الى ما لا يعلمه ولا يتحكم فيه . ان هذا التصور مثير ، وهو ، كالقول بالجبر ، يدك ويقوؤ من الأساس اركان الجهد والاجتهاد والمسئولية . أو هو ، في بعض الاحيان ، يخدم سياسة او مذهبية معينة تدعي انها منتصرة ، لاريب في ذلك ، لانها في اتجاه التاريخ ، ولأن تطور العالم يدأب حتما نحوها . لكن هذا ليس من التاريخ في شيء ، وانما هو ضرب من التزييف والتزوير سوف نعود اليه في حينه .

والذي نذهب اليه هو أن اقرب المواقف الى الصواب في هذه المسألة ، كما هو بالنسبة لمسألة الجبر والاختيار ، هو موقف الاعتدال . ان الانسان في تفاعله مع التاريخ موجئه وموجئه . انه لا شك في نظرنا ان التاريخ لا يخطط خبط عشواء في ليلة دكناء . ان ما نعلمه عنه يفيدنا أنه يسير ، عن طريق لعلها ليست بالسوية كرمية قوس نحو المرمى ، لكنها تقصد ، مهما كانت منحرجاتها المثيرة للحيرة ، هدفا وغاية . لكن هذه الغاية التي نحوها يسير بنا ركب التاريخ ، ليست في نظرنا ، كما اعتقد البعض نظاما اجتماعيا معيناً ، ولا مذهبية سياسية دون غيرها ، انما هي أسمى من كل ذلك ، أسمى وأبقى من كل هذه الجزئيات الفانية التي لا تريد - اذا ما نظرت اليها من زاوية التاريخ - على ان تكون أعراضا متغيرة بتغير الظروف ، زائلة بزاولها . ان الغاية التي يسير بنا - او بفضلنا - نحوها التاريخ انما هي نفس الغاية التي تحرك كل الخليقة من النشوء الى الارتقاء . ان عجلة التاريخ تدفعنا ، بوسائل شتى نخلف باختلاف الظروف ، وكثيرا ما تكون اليمة قاسية ، نحو انسانية اكمل ، تخلق لنفسها ، في كل مرحلة من مراحل سيرها الى الامام ، الاطار الاجتماعي ، والاقتصادي والسياسي الملائم لوضعها ولنضجها . ان حركة التاريخ الوحيدة التي لا جدال فيها ، هي حركة النشوء والارتقاء ، ذلك هو اتجاهه ، وتلك هي غايته .

ويتضح لنا هكذا ان التاريخ ، اذا ما وضعناه في هذه الأبعاد ، لم يبدأ من يوم نقش الانسان مآثره على المدر او الورق ، أو حتى من يوم انضج الخزف أو سن الحجر وصقله بل من يوم نفخ الله فيه روح الانسية ، وفصله وفضله بذلك عن سائر الحيوان . « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، ان الله على كل شيء قدير » (٥) . لقد سار العلماء في الارض واجتهدوا كي ينظروا كيف بدأ الله الخلق ، واتضح لهم بصفة لا تقبل الشك ان الانسان في تطور لم يزل مستمرا ، ويؤمل أن يستمر . ان لم تكن كارثة واجهاض .

والحقيقة ان هذا الاكتشاف ليس بجديد تماما في خواتمه ونتائجه . ذلك ان الانسان ان لم يقم عليه الدليل العلمي قديما كما هو الشأن الآن ، فقد انتهى اليه بمجرد التأمل ، قبل أن

بهديه السير في الارض ، وفحص أديمها ، الى العثور على حلقات السلسلة التي تربط أوله بحالة اليوم . ومن بين المفكرين العرب الذين كان لهم - قبل داروين بقرون - القسط الأوفر في هذا الصدد ، يجدر أن نخص بالذكر أخوان الصفا (٦) ، ومسكويه (٧) (توفي سنة ٤٢١ / ١٠٣٠) وابن خلدون ، الذي يلاحظ فيما يخص نشوء الانسان وارتقائه في سلم الكائنات :

« واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه ، وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والرؤية ، ترتفع اليه من عالم القرود (٨) الذي اجتمع فيه الحس والادراك ، ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل . وكان ذلك أول أفق من الانسان وبعده . وهذا غاية شهودنا (٩) » .

ويضيف ابن خلدون : « .. فوجب من ذلك ان يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات في لمحة من اللمحات ، وذلك بعد ان تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ، ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها ، شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه (١٠) » .

وهكذا يصبح التاريخ وعاء لحركة تقدم جدلية يتوق الانسان من خلالها ، وبفضل الانتصار على تناقضاته المتجسمة في اجهاضات الحضارات المتتالية ، الى انسانية اكمل فاكمل . فهو في كل يوم يبني ، بالتغلب على خيباته المتكررة ، انسانيته ، وما الخيبات في هذا الصدد الا جملة من الانحرافات التي ، ان عاقت السير في طريق الارتقاء ، لا تقطعه ولا تغير اتجاهه . وهذه الطريق تؤدي الى الأفق الذي يلي ، أفق يكون فيه - حسب تعبير ابن خلدون - « الانسلاخ من البشرية الى الملكية » ، أي الاقتراب من عالم الروحانيات . ومن يدريك ؟ لعل في خاتمة مطاف هذه المرحلة ينشئ الله يوما الانسان نشأة اخرى ، لا تقل خطورة عن تلك التي فصله بها وفضله على عالم الحيوان ؟ فالتاريخ اذن ليس بالنسبة للانسان تسلسلا زمنيا تعدد دقات الحوادث ، انما هو حركة تطورية جدلية ، يستمر بها الخلق .

هذه الحركة توجه الانسان بلا ريب . لكن هذه الحركة ، في نفس الوقت ، لم يكن ليكون لها وجود لولا الانسان ذو اليد والرؤية ، لأن الانسان هو نقطتها المركزية ومحركها الدافع لها . لا اتجاه

(٦) انظر رسائل اخوان الصفا ، ط . بيروت ١٩٥٧ ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ، وانظر ايضا المؤلف التالي

S. H. Nasr, An introduction to islamic cosmological doctrines, Conceptions of Nature and Methods used for its study by the Ihwan El-Safa, Al-Birun and Ibn Sina, Harvard University Press, 1964.

(٧) انظر الفوز الاصغر ، ط . القاهرة ١٣٢٥ هـ ، ص ٧٦ - ٨٣

(٨) الرواية التي اخترناها هنا هي التي اثبتها كاترمار Quaternere في طبعه للمقدمة ، باريس ١٨٥٨ ، ج ١ ص

٩٧٤ ، وهي التي اعتمدها ايضا روزانتال Fr. Rosenthal في ترجمته الانجليزية للمقدمة (ج ١ ص ٤ و ٩ و ج

٢ ص ٤٢٣) عملا بما ورد في مخطوط المقدمة الذي راجعه ابن خلدون بنفسه وبقلبه والمحتفظ به في استنبول

وهذه الرواية هي الوحيدة التي تنسجم مع السياق . اما الطبقات الاخرى المتعددة للمقدمة ، فاننا نقرأ بها عوض

« القرود » « الفدر » وهذا اختيار لا يتماشى مع السياق ويأسف له ساطع الحصري في دراساته عن مقدمة

ابن خلدون ، بغداد ١٩٥٣ ، ص ٣٠٢ .

(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٧ .

(١٠) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٨ .

للتاريخ لو لم يكن ذلك الاتجاه في خلد الانسان الاول كالتسجيرة في النواة . التاريخ انما هو التجلي التدريجي لحاجات الانسان الكامنة في بنيته الاولى ، واتخاذ الوسائل المؤدية لتحقيقها . فهو خروج مستمر من القوة الى الوجود ، وتحقيق متواصل للغاية التي يحمل سرها الانسان في غيب تكوينه وفي الطاقات المودعة فيه ، وان كان لا يدرك دائما على حقيقتها ، وفي كل وضوح تلك الغاية ، وان كثيرا ما اشتبهت عليه السبل ، وانحرف وتاه في معارجها ، واساء استعمال طاقاته ولم يحسن تقييمها وتوجيهها . غير ان الطاقة الموجهة للتاريخ كامنة فيه بلا منازع . فتاريخ الانسان في الانسان من اول الخليقة .

لكن ان كانت القوى الدافعة للتاريخ كامنة في الانسان ، هل هي متساوية فيه من حيث هو انسان على العموم ، أم هل هي تختلف باختلاف الافراد ، فيكون لبعضهم دور أحسم ووزن أجسم في توجيه عجلة التاريخ ؟ أنكر بعضهم - خاصة بعدما ظهرت المنهجية الماركسية في التاريخ - ان يكون للفرد دور يذكر حقيقى في التطور التاريخي ، اذ الدوافع الحقيقية كامنة في الجماعات وما يحدث في حياتها من تغير . فهي الأعماق التي تتكون في صلبها التعاريج العظمى التي تغير وجه الكون ، والهزات التي يرتجف لها من حين لحين . غير ان هذه النظرية - على ما فيها من حقائق لا تجحد - تمثل تطرؤا جديدا في التفسير والفهم يمثل رد فعل معاكس ضد تطرف آخر طفى على التاريخ قرونا طويلة وجعل منه مجرأ ملحمة - وردية تارة وسوداء تارة اخرى - لبعض الابطال المتوجين وغيرهم . والصواب في نظرنا في الابتعاد عن كل انواع التطرف ، وفي التقييم السليم لكامل العناصر ، اذ تفاعل الانسان بتاريخه ، على مستوى الافراد والجماعات ، شديد التعقد كثير التشابك ، فمن ينكر الدور الذي لعبه « أنف كليوبترا » أى سحر شباكها ، في تاريخ مصر ورومه ؟ وهل تاريخ انجلترا كان يكون على ما كان عليه لو حذفنا كروموويل (١٥٩٩ - ١٦٥٨) Cromwell ؟ وما قولنا في هتلر Hitler هل حال عالمنا اليوم كان يكون على ما هو عليه ، لولا هذا الرجل الغريب ، بشذوذ عقليته ، واحتدام مزاجه ، واختلال توازنه ، وقدرته على الهاب الجماهير وتجنيدتها ؟ طبعا يمكن ان نلاحظ انه لو لم يجد خطبا جزلا ، لما استطاع ان يبعث الحريق . لكن يمكن ايضا ان نعكس الآية ونقول : لولا قدرته العجيبة على قدح الزناد ، لما اضطرم الحطب ، وما شب الحريق بتلك الصورة التي نعرفها على الأقل . وهكذا نجد دائما في طريقنا تداخل العوامل وتشابكها ، وتفاعل الانسان ، على مستوى الافراد والجماعات ، مع تاريخه . فهو مؤثر مؤثر فيه ، فاعل منفعل على الدوام بصور وأشكال مختلفة تعجز الحصر والاحاطة والاحصاء .

وخلاصة القول ان صلة الانسان بالتاريخ وفهمه له قد تغيرا تغيرا بعيدا منذ تلك الايام الاولى التي لم يكن التاريخ فيها سوى ضرب من الميثولوجية أو قصص اساطير الاولين . وان العرب قد لعبوا دورا حاسما في تقدم العلوم التاريخية وكان دورهم في عصورهم الذهبية يفوق بكثير دور الأمم الاخرى . فمن طريق منهجية الحديث ، أدخلوا في التاريخ الاعتناء بالموضوعية ، والتأكد من صحة الأخبار المروية بفضل قواعد الجرح والتعديل ، والاعتناء بنقد السند والرجال ، أى بما نسميه اليوم النقد الخارجى . وبهذا جعلوا من التاريخ علما حقا ، ذا جدية ومنهجية . وكذلك قد حاولوا ان يخرجوا به من حدود الاقليمية الضيقة الى حدود اوسع هدفها ان تشمل العالم المتحضر المعروف في زمانهم .

التاريخ ومشاكل اليوم والغد

ثم ظهرت مقدمة ابن خلدون التي شكلت منعرجا حاسما في كيفية فهم الانسان لتاريخه وتقييمه له ، وما يرجو منه من كشف ، لا عن ماضيه فحسب ، بل خاصة عن تطور الجنس الذي ينتمى اليه ومصيره . لقد سبق أن بينا كيف اعتبر الناس - قبل ابن خلدون وحتى بعده بقرون - أن التاريخ إنما هو رواية صادقة ، مرتكزة على قواعد سليمة ، عند أهل الجدل من المؤرخين ، غايتها الإلمام بحوادث الماضي والاحصاء العددي لها . لقد حاول الانسان أولا أن يؤرخ للحوادث البارزة ، أي أن يكون لنفسه ، ولعشيرته ، ولقومه ذاكرة تحفظ المفاخر خاصة ، وتضبط ازمانها حسب السنوات ، من دون أن يحاول أن يفهم فهما عقليا عميقا ضرورة بروزها في زمن وبئة ما و سرًا تداخلها ، ومدى تأثيرها على جنسه كأنسان بقطع النظر عن الشعوبية الضيقة . وأول من شدَّ عن هذه القاعدة اليوناني **توسيديد** Thucyolide الذي عاش بين سنة ٤٦٠ و ٣٩٥ قبل المسيح . فلقد حاول التحليل والتعليل . لكن رغم الومضات الصادرة من حين إلى حين عن بعض الأفذاذ فان التاريخ بقي ، بصفة عامة حتى القرن التاسع عشر مجرد دفتر به تضبط الوقائع حسب وقوعها ، مع توخى الصدق والتحرى في الرواية إذا كان المؤرخ أمينًا . وهذا ما جعل **ايف لاکوست** Yves Lacoste يجزم « أن قبل القرن التاسع عشر لم يكتب لأحد أن يفوت **توسيديد** سوى **ابن خلدون** : فالأول قد اخترع التاريخ ، وعلى يد الثاني اكتسب هذا التاريخ صبغته العلمية » (١١) .

فكيف أصبح ياترى التاريخ علمًا - بالمعنى المعاصر للكلمة - على يد ابن خلدون ؟ كان ذلك قبل كل شيء عن طريق فهم ابن خلدون للعلاقة الجدلية الخلاقة التي تربط الانسان بتاريخه . ويتخلل ذلك بكل وضوح في تعريفه له حيث يكتب :

« حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني ، الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، واصناف التغلبات للبتر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومسايعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال » (١٢) .

فهذا التعريف للتاريخ يدهشنا ، إذ هو تعريف له كما نفهمه نحن اليوم ، بل كما يفهمه انصار الحركة التجريدية الذين حملوا حملة شعواء في مؤتمر سنة ١٩٥٠ بباريس ، على من بقي من المؤرخين متمسكا بالطريقة التقليدية في رواية الحوادث واعتبار التاريخ يكفي أن يكون سجلا لها . فابن خلدون يريد عكس ذلك ، فهو يريد أن يجعل من التاريخ أداة كشف عن سر « الاجتماع الانساني » ، وعن خروج هذا الانسان من « التوحش الى التأنس » بفضل الصراع الجدلي الذي يُعبَّد سبيله ، عبر عقبات متجددة ، نحو انسيئة اكمل ، عن طريق الرقي المستمر الناشئ حتما عما « ينتحله البشر بأعمالهم ومسايعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال » ، وطبيعة الأحوال هذه التي يشير اليها

(١١) Yves dacoste, Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire, passe du tiers-monde, Paris, F. Maspero, 1966, p. 187.

(١٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٧ .

ابن خلدون ، ويعتبرها القانون الذي بمقتضاه يسير التطور الضروري الذي لا يعاند ، انما هي سنة الله « التي توجهه شراع الخليفة ، لينة تارة عنيفة اخرى ، والتي اشار اليها القرآن في اكر من آية . وهكذا يصبح التاريخ استكتشافا كليا لتطور الانسان ، ومحاولة حل للفر وضعه اليوم في هذا الكون ، ولمصيره العاجل او الاجل .

وان لم يطبق ابن خلدون آراءه هذه الطموحة الجريئة في كتاب العبر ، فان ذلك لا يسلبه فضل التعبير عنها بفاية الدقة والوضوح . وبعد فانه يستحيل عمليا لا سيما في زمانه ، تطبيقها من طرف باحث واحد ، في موسوعة فتحت صفحاتها لتاريخ العالم الاسلامي بأكمله . ولعل استعصاء تطبيق هذه الآراء في كتاب العبر هو الذي جعل ابن خلدون يضمن خلاصة أفكاره وعبره واعتباراته خاصة في المقدمة . وهكذا فتحت ابوابها للاجتماع والاقتصاد والمؤسسات ، وضروب الثقافات والعلوم ، لان كل ذلك ان لم يكن تاريخا صرفا بالمعنى الضيق فلا غنى للمؤرخ عنه ولا سبيل لفهم الانسان بدونه .

هل يعين التاريخ على حل مشاكل اليوم ؟

لقد حاولنا فيما سبق أن نعالج بعض القضايا الناشئة عن تفاعل انسان يومنا بتاريخه ، وأن نستكشف أبعادها ، ودورها في هيكلية كيانه ومحيطه . ولقد اتضح لنا ان الانسان ، ان كان كما قيل قديما « حيوانا اجتماعيا » فهو ايضا ، والى درجة ابعد ، « حيوان تاريخي » فالتاريخ يغدئ ويكيف بصفة أعمق فأعمق على مر الزمان ، شعوره والاشعوره .

فهل لهذا التاريخ - الذي اخذ الانسان يشعر اليوم بوضوح لم يسبق له مثيل يوزنه - فائدة عملية ، وهل يمكن أن نفهم منه غنما يلهم بصفة واقعية حسية لحل مشاكل الساعة ؟ أم هل هو علم مجاني ، لا مقابل من ورائه سوى مجرد المعرفة ولذة البحث ؟

هذه قضية قديمة ، وهذا السؤال ليس وليد مشاغل اليوم . ولقد اختلفت الاجابة عن هذا السؤال باختلاف الأوضاع والابسات ، وباختلاف الأمم والشعوب ، وتغير الزمن والعقليات . لكن ، ان اختلف الناس قديما رحدبنا في نفاصيل الجواب ، فهم متفقون بدون استثناء ان للتاريخ فائدة .

ورأوا أولا فوائده في جوانبه الدينية . كان التاريخ يعتبر علما تكميليا للعلوم الدينية التي كانت تحتل مركز الدائرة بالنسبة للعلوم الأخرى الملتفة حولها ، السابحة في فلكها . كانت وظيفته بالنسبة للحضارة الاسلامية في أيام نشوئها ، اناة ظروف البعثة المحمدية ، وما نشأ عنها من غزوات وفتوحات ، وما نشأ عن الفتوحات من مشاكل فقهية تتعلق بنظام الارض حسب فتحها حلما أو عنوة ، وبالجزية والخراج ، وقانون أهل الذمة ، كما يطلب منه تفصيل ما ورد في القرآن من اشارات إلى الانبياء ، والرسل والامم القديمة وما الى ذلك . التمس اذن السلف في التاريخ حلا للمشاكل التي كانت قائمة في أيامهم ، ووفقوا في ذلك الى حد بعيد .

وتظهر هذه النزعة بوضوح في تاريخ الطبري (٢٢٤ - ٨٣٨/٣١٠ - ٩٢٣) ، وتبرز من أول وهلة جلية ، في عنوان الكتاب « تاريخ الرسل والملوك » ، كما تجدها مفصلة في المقدمة التي قدّم له بها مؤلفه ، الذي كان في نفس الوقت محدثا ومفسرا . ولعله يحسن أن نذكر هنا ان التاريخ بدأ عند العرب أشبه ما يكون بعلم الحديث ، في منهجه وأسلوبه وطرق روايته . كانت هكذا غاية التاريخ لا تختلف كثيرا عن غاية الدين في حل مشاكل المجتمع والفرد .

ويؤكد ابن الاثير (٥٥٥ - ١١٦٠/٦٣٠ - ١٢٣٢) على هذه الناحية ايضا ، غير أنه أصبح يلج خاصة على الجوانب السياسية التي اخذت تحتل المكانة الاولى عندما انقلبت الخلافة الى الملك ، حسب تعبير ابن خلدون (١٢) . ومعنى ذلك ان التاريخ الذى كان فى أول أمره فى خدمة الدين أصبح فى خدمة السياسة . ففي وعائه افرغ مسكويه (٣٢٠ - ٩٣٢/٤٢١ - ١٠٣٠) وغيره « تجارب الامم » ، كي يغترف من معينها أولو الامر الحلول الملائمة لما يحدث لهم من مشاكل فى سياسة التسعوب التي يديرون شؤونها . وهذا ابن الاثير يعبر عن ذلك بكل وضوح فى تاريخه الكامل الذى وضعه **لبدر الدين أوّلؤ بن عبد الله الأتابكي ، الملقب بالملك الرحيم** (١٤) ، صاحب الموصل (توفي ٦٥٧ - ١٢٥٦) فهو يبين ما نصه :

فمن فوائد التواريخ : « أن الملوك ومن اليهم الأمر والنهي اذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ، وأروها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس ، فيرونها خلف عن سلف ، ونظروا الى ما اعقبت من سوء الذكر ، وفيح الآحادونة ، وخراب البلاد وهلاك العباد ، وذهاب الاموال ، وفساد الاحوال ، استقبحوها ، واعرضوا عنها واطروحها . واذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وممالكهم عمرت واموالها درئت ، استحسنا ذلك ورغبوا فيه ، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه . هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الاعداء وخلصوا بها من المهالك ، واستعانوا نفائس المدن وعظيم الممالك . ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخرا .

ومنها ما يحصل للانسان من التجارب والمعرفة بالحوادث ، وما تصير اليه عواقبها ، فانه لا يحدث امر الا قد تقدم هو أو نظيره ، فيزداد بذلك عقلا ، ويصبح لان يقتدى به اهلا (١٥) .

لا شك أن ابن الاثير ، عندما كان يكتب هذه الأسطر ، كان يفكر فى الملك الرحيم ولى نعمته ، الذى استفاد من دروس التاريخ وعظته ، واستعان بها فى سياسة ملكه . وهكذا حدث تطور فى فهم فوائد التاريخ وغاياته ، فاعتبره معاصرو مسكويه ، وابن الاثير ، ومن اتى بعدهم ، زيادة على اغراضه الدينية ، مدرسة لتخريج الاطارات السياسية ولتخريج الملوك منهم خاصة . وتتخلى هكذا متانة الصلة التي تربط التاريخ ، فى نظر هذا الجيل من المؤرخين والقادة ، بمشاكل الحين والساعة .

(١٣) انظر الفصل الثامن والعشرين من الباب الثالث الذى عقده ابن خلدون بمقدمته (ص ٣٦٢ - ٣٧٤) تحت عنوان : « فى انقلاب الخلافة الى الملك » .

(١٤) خير الدين الزركلي ، الاعلام ، الطبعة الثالثة ، بيروت ج ٦ ص ١١١ . ويذكر ابن الاثير تأليف الكامل فى التاريخ لبدر الدين فى الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٥ . ويلاحظ أن هذا الملك ، الذى ألف له ابن الاثير كتابه : كان من احسن الملوك سيرة ، مما يثير ما يذكر صاحب الكامل من فوائد التاريخ لسياسة الدولة . ولعله يحسن ان نثبت نبذة مما يروى ابن تفرى بردى فى شأنه فى النجوم الزاهرة (ط . دار الكتب ، القاهرة ، ج ٧ ص ٧٠) وهذا نصها : « ... وكان شديد البحث عن اخبار رعاياه ، ما يخفى عنه من احوالهم الا ما فل ، وكان يفرم على القصاد والجواسيس فى كل سنة مالا عظيما . وكان اذا عدم من بلاده ما قيمته مائة درهم هان عليه ان يبذل عشرة آلاف دينار ليبلغ غرضه فى عوده ، ولا يذهب مال رعيته . قلت : لله در هذا الملك ، ما احوج الناس الى ملك مثل هذا يملك الدنيا بأسرها . وكانت وفاته بالموصل وهو فى عمر التسعين سنة » .

(١٥) ابن الاثير ، الكامل ، بيروت ١٩٦٥ ، ج ١ ص ٧ .

ولم يتخذ ابن خلدون في هذا الاتجاه العام ، واعتبر هو بدوره التاريخ حقل تجارب فريد ، ومجال تأمل واعتبار ، وبرز ذلك بصفة جليسة في جبهة موسوعته التاريخية التي اخنار لها ، عن قصد وروية (١٦) ، اسم « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » فهو ايضا حرص على بيان ونوضح فوائد التاريخ بالنسبة لأهل العصر وما يحدث لهم من قضايا فكتب مُنَبِّهًا :

« اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم ، حتى نتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا » .

لكن رغم هذا الانفاق العام حول فوائد التاريخ ، وعدم مجانيته بالنسبة لشئون الحياة العاجلة والآجلة ، فانه حدث تغير جوهري في فهم نوعية هذه الفائدة وكيفية استنمارها . لقد رأينا منذ حين أن ابن الأثير كان يرى « انه لا يحدث امر الا قد تقدم هو او نظيره » أى حسب العبارة التي شاعت ، وما زالت شائعة في اذهان الكثير من ابناء يومنا « أن التاريخ يعيد نفسه » .

وركز كل من يرى هذا الرأي فائدة التاريخ على امكانية الحصول من حوضه على حلول جاهزة ، برهنت على نجاعتها قديما ، لمشاكل متكررة هي بعينها ، او نظائرها . . . ويجمع المؤرخون اليوم ، وكل اهل الفكر ، أن هذا وهم وخطأ محض ، وسوء فهم للتاريخ . . . ومن العجيب ان ابن خلدون قد سبق - قبلنا بقرون - الى نفس ما انتهينا اليه من نتائج ونبه الى ما أشرنا اليه من خطأ ، بفضل ما أوتي من عبقرية ، ونفاذ ملاحظة ، ودقة بصيرة ، وقدرة نادرة على التأليف والتحليل . فلقد اهتم الى ان التاريخ لا يعيد نفسه ، وأوضح ذلك ايضا حالا لبس فيه . فكتب في هذا الصدد ما نصه :

« ومن الغلط الخفي في التاريخ الدهول عن تبدل الاحوال في الامم والاجيال ، بتبدل الاعصار ومرور الايام . وهو داء دوى ، شديد الخفاء ، اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة ، فلا يكاد ينفطن له الا الاحاد من اهل الخليقة . وذلك ان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم ، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر . انما هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الاشخاص والاقوات والامصار ، فكذلك يقع في الافاق والاطوار والازمنة والدول . سنة الله التي قد خلت في عباده (١٧) » .

ويعتمد ابن خلدون في استنتاجاته هذه على الحضارات العديدة البائدة او القائمة في زمانه ، كحضارات الفرس الاولى ، والسريانيين ، والنبط ، والتبابعة ، وبني اسرائيل ، والقبط ، والروم ، والفرنجة ، والترك ، والبربر ، وسائر العجم ، والعرب من مضر وغيرها . . . فهذه الحضارات كلها تقيم الدليل القطعي - كما سبق أن بينا - ان التاريخ ليس تكرارا وعودا متواصلا على بدء ، انما هو تطور وخلق . وهذا الخلق لا يزال يرتقي في سلم « التدريج في المخالفة حتى ينتهي الى المبانية بالجملة (١٨) » . وهكذا ينتهي ابن خلدون الى خاتمة ما كان لينكرها لا هيجل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) ولا پول فاليري P. Valéry (١٨٧١ - ١٩٤٥) خاتمة تمثل

(١٦) المقدمة ، ص ١٢ .

(١٧) المقدمة ص ٢٦ ، انظر ايضا ص ٤٨ .

(١٨) المقدمة ص ٤٧ .

خلاصة تجربته الطويلة ونعكيره في جدوى التاريخ بالنسبة لحل قضايا اليوم والساعة ، وهي انه « لا يقاس شيء من احوال العمران على الآخر ، اذ كما اشتبهها في أمر واحد ، فلعلهما اختلفا في أمور (١٩) » . ونتيجة هذا هي « أن العلماء من بني البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها (٢٠) » . ويعمل ابن خلدون استنتاجه هذا ، الذي جعله عنوانا لفصل من الفصول الاخيرة التي يختم بها مقدمته ، والذي يمثل عصارة ما انتهى اليه في خاتمة مطافه في مجالي المفارقة والتأمل ، « بأن العلماء - لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام ، وقياس الأمور بعضها على بعض - اذا نظروا في السياسة ، افرغوا ذلك في قالب انظارهم ونوع استدلالهم ، فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم (٢١) » . ومعنى هذا ان التاريخ يتحدى المنطق وأن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس (٢٢) « اذا ما انحمت قهرا في حقله وطبقت عليه اعتبارا ، وكل ذلك لان التاريخ - خلافا للاعتقاد الذي ما زال سائعا في كثير من الاذهان - لا يعيد نفسه ، وذلك لانه خلق متجدد .

لكن اذا خرج التاريخ كما بينا أن يكون يعيد نفسه ، وان يكون وعاء حلول جاهزة أو على الأقل جملة من الأمثلة تحتلب منها بالاستقراء المنطقي النظائر والتبائنه ، هل تبقى له مع ذلك فائدة تذكر لحل ما نعرض لنا من مشاكل في كل حين وساعة من حياتنا اليومية أو السياسية ؟ أم هل هو بالعكس ، لا يرجي من ورائه نفع يلمس ، ولا يزيد على أن يكون عبئا يثقل عبئا الذاكرة ، أو في أحسن الحالات انما هو زينة يتحلى بها الرجل المتنفذ والأديب الأريب ؟ .

لقد سبق أن قطعنا ، بدون تردد ولا توقف ان التاريخ ليس بعلم مجاني ، وان له نفعاً وفائدة . في هذا جملة لا يختلف انان ولا بتناطح عنزان . لكن الاختلاف يظهر عند التفصيل وحصر مواطن النفع والفائدة . لقد عرضنا - لنحسن ضبط القضية وفهمها - لبعض آراء القدماء من بين أهم مؤرخي العرب . ولنا الآن على نور ما تقدم ، أن نضبط أبعاد القضية بالنسبة لوضعنا اليوم .

اننا اصبحنا اليوم لا نعتقد ان التاريخ يمدنا بحلول ، لانه لا يعيد نفسه . لكننا اصبحنا نعلم علم اليقين انه يعيننا اعانة جذرية على فهم واقعنا ، بل انه لا فهم لهذا الواقع ما لم نستعن بنوره الذي لا يعوض . والفهم الصحيح شرط أساسي لالتماس الحل الناجح . لهذا نحن نعتقد اليوم ، كما اعتقد اسلافنا ، مع الاختلاف في التقدير ، أن التاريخ مدرسة لتخريج الاطارات السياسية ، أو على الأقل انه لا غنى عنه في تكوين الرجل السياسي الذي بيده الحل والعقد .

فكيف يتأني مثلا لصاحب الامر ان يفهم العالم الحديث ، وتوازن القوى المتصارعة حتى يحسن التصرف والسير بامته في طريق السلامة ، اذا ما جهل كيف كوّن هذا العالم في ارحام التاريخ القريب منه والبعيد ؟ انه من البديهي ان نقول ان تصرفات العالم القريب ، واخيارات قادته ، وملابس سياستهم ، تكمن في ذلك الماضي الذي شهد تكون الرأسمالية وانبثاق الثورة الصناعية ، وما تبعها من تسابق نحو مواطن الطاقة والمواد الأولية ، وما نشأ عن ذلك كله من توسع ،

(١٩) المقدمة ص ١٠١٩ .

(٢٠) المقدمة ص ١٠١٨ .

(٢١) المقدمة ص ١٠١٩ .

(٢٢) المقدمة ص ١٠١٩ .

واكتساح اراضي الفير واطنانهم بالقوة ، ومزاحمات ، ونزاعات مسلحة وانشادات داخلية تزيد وتقل عنفا ، وظهور مذهبيات اجتماعية نورية ، وما تبع ذلك كله من انعكاسات اليمية على ما نسميه اليوم بالعالم الثالث ، وعلى وطننا العربي بالخصوص ، الذي ذاق الأمرين نتيجة لانعزاله التدريجي عن حظيرة التاريخ ، بعدما كان ، في القرون التي خلت ، مركز دائرته والمحرك الدافع لمجتمعه .

ولقد كون الغربيون ، لدعم سياستهم المولدة عن الانفجار الصناعي والتقني الذي شهدته ربوعهم مستشرقين عديدين ، وكثيرا من المختصين في شؤون البلاد التي اخذوا بغزونها بسلحهم وتقنياتهم ، وامداد حضارهم ولغاتهم ، سواء كانت تلك البلاد في اميركا ، أو افريقيا أو آسيا ، علما منهم أنه لا تحكم في الواقع بدرن فهمه جيدا . وهكذا يتضح لك لم كتب تاريخنا - أول ما كتب بصفة علمية في عصرنا - في لغات الحضارات الغربية الغازية . لم يكن ذلك عملا مجانيا صرفا ، مهما كان حب العلم والاطلاع داعيا اليه . وفي هذا دلالة واضحة بينت التجربة نجاعتها ، على أهمية التاريخ بالنسبة لشؤون الوقت والساعة . ونتيجة هذا هي اننا اذا ما اردنا اليوم ان نحكم سياستنا نحو العرب ، ونجح في علاقاتنا معه ، وجب علينا الا نكتفي بدرس تاريخنا - وهو ما نحرص عليه كامل طافاتنا اليوم - بل ان ندرس ايضا تاريخ وحضارات الأمم الأخرى التي نعامل معها أكثر فأكثر . أي أنه يجب علينا ان نكون - اذا صح التعبير - « مستشرقين » مختصين في تاريخ الغرب وشؤونه . ولا يذهبن بكم الظن ان ما نعرفه من لغات القوم ، وما نقراه مما صنفه علماءهم في تاريخهم ومختلف شؤونهم يعني من ذلك ويجزي . فان المثل يقول : « ما حك جلدك مثل ظفرك » . ولعل فنمل سياستنا اليوم وسليبيتها في كثير من الاحيان يعزيان الى انعدام المختصين في صفوفنا في شؤون الأمم التي نتعايش معها او نتصادم . لقد سبق أن قلنا ان التاريخ بقي ايضا بالنسبة اليينا ، لكن بمفهوم جديد ، مدرسة لتخريج الاطارات السياسية . وليس معنى ذلك ان رجل السياسة ينبغي ان يكون مؤرخا . ان التاريخ اختصاص يفني - كغيره من العلوم - الأعمار ، ولا يترك المجال للاستغلال بما سواه . لكن يجب ان يجد القائد السياسي من بني جلدته وحوله ، من المؤرخين الكفاء ، ومن الدراسات التاريخية المتينة ، ما ينير له السبيل ، ويمكنه من ادراك الوضع بوضوح ، حتى يحسن الخطاب والتصرف ، ويحقق النجاح لا لأنه ، كما توهم القدماء ، يستطيع ان يفترف حلولا جاهزة من الماضي يطبقها على الحاضر - مما قد يؤدي الى الكوارث الجسام - بل لأن الحكم على الشيء ، كما بين ذلك المنطقيون فرع تصوره . وفي التاريخ عون عظيم على التصور الصحيح . واذا صح ما قدمنا من مقدمات ، فانه يصح ايضا ان نقول ان اخفاق السياسة في معالجة شؤون اليوم ، انما هو الى حد بعيد اخفاق الجامعة قبل كل شيء .

وللتاريخ دور آخر في معالجة شؤون اليوم يلعبه على المستوى الداخلي لامتتنا العربية . ان هذه الأمة تفتتت منذ قرون ، وتجرعت كأس الانحطاط ، وعرفت ذل الخضوع الى الفير ، وهددها الذوبان ، وجربت مرارة الهزيمة . فهل لكل هذه الادواء في التاريخ اعانة على العلاج ؟ طبعاً ليس التاريخ عصاً سحرية تحقق المعجزات . لكن - على هذا البساط ايضا - في التاريخ اعانة على الفهم ، والفهم الصحيح طريق الحل .

ان التاريخ من أهم مقومات الشخصية . فالفهم الصحيح له يعين على بنائها ، ووقايتها من الذوبان الذي يهددها ، وعلاجها من الامراض النفسية التي تعترضها ، وتشمل طاقاتها . فكما

التاريخ ومشاكل اليوم والغد

ان الانسان يحتاج الى ذاكرة ، فهو يحتاج الى تاريخ ، لأن التاريخ هو ذاكرته الفومية ، وعلماء النفس يعلمون الاختلال الذي يطرا على التوازن العقلي والنفسي اذا ما فقد المرء ذاكرته . فكما يمرض الأفراد لفقدان الذاكرة او اضطرابها ، كذلك تمرض الشعوب لضياح تاريخها او دخول التشويه والتشويش عليه .

وان شئت أن نفهم قيمة التاريخ بالنسبة لحياة الأمم ، وتوازن ذاتياتها الذي هو شرط نجاحها في معركة الحياة ، فما عليك الا ان تلقي بنظرة على من لم يمنحهم القدر - او الحظ - تاريخا مرموقا او عريقا ، فهم كثير . فسترى العديد منهم يتألمون - عن شعور أو عدم شعور - من نقص وبتر ، كثيرا ما يرى قوما ، عظم شأنهم أو قل ، يبحثون عن قاعدة قارة متينة يضعون عليها أرجلهم ، وبشيدون عليها بنيانهم ، ويستمدون منها قواهم في صراعهم اليومي . فهم تارة يخلقونها من عدم ، ويحصون كل كبيرة وصغيرة لوضع أسسها الحديثة التي لا عمق لها في صاب الأرض . وقد يرمي اليأس بالضعفاء منهم في أحضان تاريخ غيرهم ، فيفضلون هكذا الدوبان في معين غير معينهم ، والسباحة في مaelis بمائهم ، على البقاء بدون تاريخ . فكأن الكائن البشري الذي لا تاريخ له كائن عارٍ لا يجسر ان يظهر للناس .

غير أنك تسمع ايضا المثل الفائل أن الامم السعيدة لا تاريخ لها . كلا ان هذا المثل يشرح بالاستسلام ، وينبئ عن الضعف ، وينم عن الخوف ، والكبت ، والميل الى التوارى والنعاس اللذيد على هامش الحياة ، والفشل والخمول والخذلان . هو مثل المقيهورين الذين عضهم الزمن بنابه ومال عليهم بكل كفه . كأن المحن والاحن ليست لازمة ، كالأفراح والنجاح ، لتكوين الكائن الحي حقا ، شحذ العزيمة فيه ، وتدريبه على المغالبة والانتصار بفضل رياضة طويلة عسيرة لا ندرک دائما سرها . وبعد فلقد سبق أن بينا أن التاريخ ليس هو حتما ودائما تاريخ الكوارث والفلك تارة ، والنواح وتضميد الجراح تارة اخرى . ونحن نعتقد أن أهم ما فيه ليس من هذا القبيل . ثم اننا نأمل ان يصبح يوما تاريخ عالمنا تاريخ عزة المعرفة ، والتقدم عن الكمال والسعادة عن طريق السلامة ، طريق آمنة من حوادث المرور .

ومهما يكن الامر فالتاريخ مدرسة نتعلم من خلالها الاطوار التي مررنا بها في طريق تكويننا ونضجنا ، مدرسة تعيننا أن ندرك ذاتيتنا ، وان نخرج ذلك الادراك من حيز التصور الغامض الى حيز الشعور الواضح البين . خذ مثلا من نفسك . انت عربي ، تدرك أنك عربي لا بحكم الرقعة التي تحتلها من ارض الله ، بل لأن لك ذاتية خاصة تميزك عن غيرك من أهل البلاد الاخرى ، لانك تعرف وجهك فيما يحيط بك ، لأنك تحس ان هناك سببا يربط بينك وبين من سبقك على سطح هذا الوطن من الاجيال المتتابعة . ان ذلك السبب هو سبب التاريخ . فلو قطعت هذا السبب لأضعت قاعدة ذاتيتك . كما أنك ، اذ سبرت اعماق تاريخك، وتصورت تصورا واضحا جليا نوع الروابط التي تربط بينك وبين من غبرودثر من بني جلدتك ، تمكنت من تعزيز ذاتيتك . . كما تتمكن ايضا من شذبهها اذا ما احتاجت الى شذب وتهذيب ، كي يسرى فيها الماء من جديد بفضل بتر الاغصان التي لا خير فيها ، وتستعيد هكذا شبابا متجددا ابدا ، وتستعيد القوى التي تمتصها من اعماق تربتها . والذاتيات الفوية الاصلية الواعية هي التي تخلق العزائم الصادقة التي تستطيع ان تثبت في رياح الدهر ، وتتابع السير الى الامام باعتزاز وكرامة واحترام للغير .

لقد قلنا ان التاريخ يعين على التشذيب لاستعادة شباب ذاتياتنا اذا ما دعت الظروف الى ذلك . وهذا ما قد يففل عنه الكثيرون لأن الرأي السائد هو ان التاريخ لا يزيد عن شحن وعاء

الذاكرة بمواد تزيد وتقل قيمة . وقل ما يهتدى المرء الى أن التاريخ كثيراً ما يكون ، لا شحنا ، بل طرحاً للأعباء التي لا خير فيها ، الأعباء أو الانقراض التي تتراكم على الذاتية ، وتفشيها بالادراغ التي تتوالى عليها عبر القرون ، فتخففها ، ويعشش في زواياها الكبت وأنواع العقد العائقة عن الانطلاق . فتمرض نفسيات الجماعات كما تمرض نفسيات الافراد ، فتسرى فيها المركبات سريان السرطان ، ويخل بتوازنها الدهان ويشلها العصاب ويدخل عليها الارتباك . وفي التاريخ بمفهومه العلمي الصحيح علاج لهذه الادواء ، لانه يلعب بالنسب لنفسيات الأمم والجماعات ، الدور الذي يلعبه التحليل النفسي بالنسبة للافراد .

ولنضرب لذلك مثلاً حسياً . أتذكر انك انتبهت اكثر من مرة - وقد ضربت في الأرض شوطاً ومر عليك زمن منذ نزلت من الحافلة - انتبهت وانت تضم يدك ، وتعتقد اناملك عقداً على التذكرة التي ابتعتها عند ركوبك ، وأمرت ان تحتفظ بها كي تدلي بها عند الحاجة ، وتأمين المراقبة والحساب ؟ هل تساءلت عن السر في احتفاظك بتذكرة أصبحت عديمة الفائدة بعد نزولك من الحافلة ، واخذك طريقك نحو غايتك على الأقدام ؟ هذه التذكرة فقدت صلاحيتها ، وأصبحت مجرد ثقل يثقل يدك ، ويعوق حركتك ، وانت تحتفظ بها ، فهل مر بخلدك ، وطرق ذهنك ، أن السر في ذلك هو أن الامر الذي صدر عن وعيك الباطن ليذكرك بالاحتفاظ بالتذكرة لم يرفع بعد ؟ . فاستمرت الانامل المأمورة على الامتثال للأمر . . وان رفعت الاسباب التي من أجلها صدر ذلك الأمر . بقي الأمر مرسوماً في طيات ، بل في طيات أعماق نفوس وعيك الباطن وأقصاها ، بقي في غضون اللا شعورك كما لو رسم في ناظمة آلية ، فبقيت تمتثل اليه وانت لا تشعر به شعوراً واضحاً . حتى اذا انتبهت ووعيت أن الظروف قد تغيرت واستحالت ، صدرت عندها الأوامر بالتخلي عن التذكرة التي أصبحت عبئاً لا نفع وراءه . فتنبسط اذراك كفك ، وتنطلق اناملك وتسقط التذكرة ، وتشعربنوع من الانفراج ، وبأن عائقاً قد رفع ، وأن عقدة قد حلت ، وأنت أصبحت قادراً على أن تصرف قواك التي كانت معطلة الى ميدان آخر ، هو أكثر نفعاً ، في الظروف الجديدة القائمة . فخلاصة القصة هي أن نسيانك التذكرة لم يخلصك من عبئها غير الصالح ، وأن الخلاص لم يتج ، والعقدة لم تحل الا عندما أدركت ، وتذكرت ووعيت .

وكذلك شأننا مع التاريخ ، فنسياننا اياه ، وتنكرنا له ، واعراضنا عنه ، وغض الطرف لا يعيننا كل ذلك لا قليلاً ولا كثيراً على الانفلات من شبكته . فنحن ، ما دمنا نحمله في غضون اللا شعورنا دون فرز وتقييم وتمييز ، فاننا نظل نجر قيوداً عديدة من عقائد بائدة ، ورواسب بالية ، وأقشاش فانية ، تشوش شخصيتنا ، وتعطل حركتنا وثقلها مع انها قد فقدت الحاجة اليها ، ولا نستطيع أن نتخلص منها وننتقل الى طريق الاضطلاع البصير والوعي الجريء الذي يمكن من طرح ما ينبغي طرحه ، وايداع ما ينبغي ايداعه في خزانة المحفوظات ايداعاً مرتباً منظماً . وهكذا نمكن من شلذ ذاتيتنا كي تبقى فتية أبداً ، تؤدي أكلها وافرأ جيداً ، من دون أن نتنكر الى عودنا ، ولا نجتث أرومتنا . . واجتثاث الأرومة يميئ الشجرة ويذهب بالذات ، بينما التشذيب يزيد قوة ويضمن لها الحياة . ان التاريخ عملية تطهير . فالوعي التاريخي السليم يقوم اذن مقام الوعي الذاتي بالنسبة للافراد : فيه سلامة روح الأمة عن طريق الوعي . فعندما نرتب عن علم

تاريخنا ، نرب في نفس الوقت عن وعي مابأنفسنا . و « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يفروا ما بأنفسهم » (٢٣) ، ولقد قيل ان الأمم المتخلفة اقتصاديا انما هي في الحقيقة متخلفة تحليلا . وهكذا نجد التاريخ في صلب مشاكل اليوم .

ولننظر الآن - على سبيل المثال ، ومع ترك الباب طبعاً مفتوحاً في وجه التأويل والتحليل - من بين قضايا الساعة في قضية واحدة وهي قضية الوحدة العربية ... وقضية وحدة الأمة العربية هي قضية أمم كثيرة تبحث اليوم عن الوحدة وتشعر بالحاجة الماسة اليها على جميع المستويات . ومن بين هذه الأمم ، المعطيات الخام التي تمكن من بناء قاعدة هذه الوحدة ، لعلها أوفر عند العرب مما هي عند غيرهم . ولعل الحاجة اليها أيضاً تؤكد وأمسُ بالنسبة إلينا . لكننا نتوق الى الوحدة بصدق ، ونسلك اليها عن طريق تؤدي الى التفرقة . لم ؟ انه يستحيل علينا ان نجيب عن هذا السؤال ، وان نفهم السر في هذا التوق الصادق وهذا التناقض المضني - والفهم كما قدمنا طريق ضرورة نحو الحل - ما لم نستعن بمشعل التاريخ نهتدي في ظلمات اخفاقتنا كي نسير السبيل نحو النجاح والوصول الى الأهداف .

طبعاً انه يمكن ان نقتنع باليسير من التفسير ، فنقف عند قول عثمان لأصحابه قبيل ان يدخل عليه في بيته ، ويسفك دمه بغير حق : « لئن قتلوني لن يصلوا بعدى جميعاً ابداً ولن يقاتلوا عدواً جميعاً ابداً » ، فيذهب بنا الظن الى ان دعوة الخليفة الشهيد قد استجيب ، والى ان العرب لم يزالوا ، ولن يزالوا يحملون دم عثمان على مر الأيام ، اذ بذلك قضى القدر . فهذا تفسير ما ورائي لا نطمئن اليه .

غير انه يحمل ضرباً من الحق انه ينبغي ان نبحت عن توق العرب الى الوحدة ، وانهماكهم في الانقسام ، في تلك الفترة التي عاشها العرب أيام الفتنة الكبرى ، فتنة صدمت وحدتهم صدماً لم يجبر بعد .

لقد مر عليهم ، من قبل ، ردح من الزمن نعموا فيه بحرية مطلقة ، حرية الفضاء الفسيح حرية المغامرة والغزو والنهب والأخذ بالثأر ، حرية الخيام التي ترفع قصد التوغل في الصحارى المقفرة بين الأودية والرمال ، حرية الطفينة النائية ، والانافي الباقية ، والقلوب المكلومة الباكية على الأطلال . دهر اباء يشبه اباء الضواري ، قضى عندما ظهر فجر الاسلام ... غير أنه ترك في النفوس والعقول آثاراً لم يعف رسمها مهما نسجتها رياح الدين الجديد . ولعل هذه الآثار مازالت كامنة في طيات اللا شعورنا الى اليوم .

ولقد حاول الاسلام ان يجعل من المسلمين اخواناً ، وان ينزع ما في قلوبهم من غل ، ويمحو حمية الجاهلية . فسعى الى تأليف قلوبهم حول اله واحد ، وكتاب واحد وقبله واحدة . وسوَّى بينهم ، سوَّى صفوفهم في الصلاة ، وسوَّى طوافهم في ازار واحد محلقي الرؤوس حول الكعبة ، وخفف من التفاوت الاجتماعي بأن جعل - عن طريق الزكاة - حقاً للفقير على الغني . وهكذا من هباء القبائل والعشائر والافراد ومن الفل والبغضاء خلق أمة موحدة تربط بين افرادها لحمة الأخوة وتضمن سلامتها عدالة التشريع وتوفير المساواة .

ودارت عجلة التاريخ دورتها . فاذا العصبية تبعث من رسمها - أو قل تستيقظ بعد اغفاء - واذا الحمية تحترق ، واذا دم عثمان يسفك ، والشمل يمزق تمزيقاً لم يلتئم بعده التئاماً حقيقياً

الى اليوم . لكن بذرة الاخاء والوحدة التي بذرها الاسلام لم تمت ايضا ، فبقيت كامنة في النفوس ، لا تورق وتثمر ، ولا تزول وتفنئ ، وذلك لأسباب يجب أن يميظ عنها اللثام التاريخ ، اذا ما اردنا ان نهيب للبذرة الظروف الملائمة لازدهارها الدائم . لأن السبيل التي اعتمدت الى اليوم لم تات بباطل ولم تسفر عن نتائج قارئة ، بل انتهت بنا في آخر الامر الى عكس ما اليه نفصد .

لقد عمد الأمويون الى لم شعت الأمة ، فاعتمدوا في الجملة على السيف الا شذوذا ، ونفخوا في العصبية ، وحاولوا اخضاع شق الى شق ، أو شق بشق . فتتابعت العتق والنورات وأودت في النهاية بملكهم . وحاول ان يلم شعت الأمة العباسيون ، فاستعانوا بالخراسانية وأوكلوا أمرهم الى المرتزقة من أصناف الجند ، واحكموا نظام البريد والاستعلامات . فلم يفن عنهم ذلك شيئا ، ولم يجنوا من الاعتماد على القوة والبأس شيئا ما ، سوى انقسام دار السلام الى ممالك عديدة ، فلم يبق في يد الخليفة المقفص بين وصيف وبغا شيء يذكر .

وبقيت دار السلام والعروبة مفترقة الشمل ، بل حربا على بعضها بعض . ومرت القرون . وحاول بعض الفقهاء - **كالمأوردى** (٣٦٣ - ٩٧٤/٤٥٠ - ١٠٥٨) و**ابن تيمية** (٦٦١ - ١٢٦٣/٧٢٨ - ١٣٢٨) وغيرهما - ان يبرروا الانقسام أو ان يخفوه وراء ستور من الصيغ القانونية الملائمة . وقد يخال للانصار ان الشعور بالوحدة ، بعد هذا كله ، قد طوى في طيات التاريخ وقضى أمره . فاذا بقرار إلغاء الخلافة - الصادر في ٣ مارس ١٩٢٤ يحدث رجة عميقة في القلوب وأزمة في الضمائر . واذا الكتب تنشر حول هذا الموضوع ، تسيل أسى تارة - ككتاب **مولوى محمد بركات الله** ، الهندي الأصل - وتصف الدواء تارة أخرى ككتاب **رشيد رضا** الشهير في الخلافة .

وفي هذا دلالة واضحة على ان اللحمة التي نسجت لفة القرآن بين كل الناطقين بها خاصة لم تبل بالرغم عما تعاقب عليها من أحداث . تمزقت الأمة العربية على المستوى السياسي وبقيت حية على المستوى الحضاري والعاطفي . وفي بقائها حية ، وفي صمودها طوال العرون المتتالية في وجه كل دواعي التلاشي ، دلالة على انها تملك ارضية يمكن أن نطمئن للبناء عليها .

لكن ليم لم ننجح في اشادة هذا البناء بالرغم من كل المحاولات المعاصرة التي لا نتسك في صدقها ، هذا يحتاج الى تحليل تاريخي عميق ودقيق لا يتسع له طبعاً هذا المقال ، اذ يجب ان نخصه بعديد الدراسات التي تثير المشكل من جميع البواحي . اننا اخفقنا الى اليوم في حل أهم قضية من قضايا عصرنا لأننا لم نحسن تصور كامل أبعادها ، ولم نحسن ذلك النصور لأننا لم نحسن التحليل التاريخي ، ولم نمد رجال السياسة منا بما يضمن لمساعدتهم النوفيق .

وعندى - اذا كان لي عند - ان السر في فشلنا يكمن في أننا ما رلنا ، بصفة وبأخرى بطرق مفعنة أو صريحة ، نسعى الى الوحدة من تلك الطريق التي جربها الآباء في غير نجاح ، طريق القوة ، والاخضاع ، والهيمنة ، وتفوق عصبية على عصبية ، وشق على شق . ولقد اقام التاريخ دليله القطعي ان هذه الطريقة تنتهي الى رتج (٢٤) : ان نسفك دم عثمان أو أن نطالب به ، أى أن كل اصناف العف ، ما يدعى منها بالثورى وما يدعى بالرجعي ، الفعل ورد الفعل ، كل ذلك لا يعزل المشكل ولا يجمع شملا . ألم تر أن الغرب ، عندما شعر بالحاجة الملحة الى الوحدة في ايماننا هذه ، اخذ يسعى اليها عن طريق توحيد المصالح وتأليف العقليات ؟

لقد مر علينا دهر ونحن نتأرجح بين قطبي الوحدة والتفرقة ، واعتقادي انه يستحيل علينا أن نخرج من هذا التأرجح الى الانطلاق الا اذا وعينا تاريخنا وأحسننا تحليله وفهمه ، وفهمنا دروسه . ولا يمكن أن نفك الدائرة الموبوءة الا اذا غسلنا ايدينا من دم عثمان - اى من وسائل العنف بكل انواعه - ولا يكون ذلك الا بتطهير ضمائرنا من بقايا حمية الجاهلية - التي مازالت ولا شك تختلج في اعماق الاشعورنا - فنقلب فينا باعانة الوعي والارادة الصادقة ، المبادئ التي بلدها في قلوبنا الاسلام ، تلك المبادئ الخالدة لكنها لما تينع ايضا لعدم صفاء تربة ضمائرنا . ان التحليل التاريخي الصحيح يمكن ان يحدث ثورة في نفوسنا لا لأن فيه عمارة للذاكرة وانقال لها ، بل لأنه كثيرا ما يكون ، كما قدمنا ، عملية شذب وطرح للأعواد اليابسة ، ورفعنا للكايح الذي يعوق الانطلاق .

هذا كله معناه ان التحليل التاريخي فيه فك للقيود التي تعوق حل مشاكل الساعة . فينبغي إذن ان نحذر ان نفع في الخطأ الذي حذر منه ابن خلدون ، وحذرنا منه بدورنا ، اى ان نعتبره خزاننا لحلول جاهزة . ولقد وقعنا في هذا الخطأ فعلا ، فلم ننجح في نهضتنا التي سبقت نهضة اليابان زمنا ، وتأخرت عنها تحقيقا وانجازا بهوة ساحقة ، هي هوة تخلفنا الدائم . ولعل السرف في ذلك هو ان حركة الاصلاح التي انبعثت فينا كانت تدعو الى الرجوع الى السلف الصالح - وهل كان كل السلف صالحين ، فلنقلب صفحات التاريخ عن صدق - وكان شعارها : « لا يصلح حال حاضر هذه الامة الا بما صلح به اولها » . فلم نوفق الى السبيل التي جعلت من اليابان ثالث قوة في عالمنا ، وما ذلك الا لأننا لم نعلم انه : « لا يقاس شيء من احوال العمران على الآخر » ، كما علم التاريخ ذلك ابن خلدون ، فعلمنا اياه ، فلم نفقه . فحاولنا ان نقلد السلف عوض ان نبتكر ونخلق ، أو على الأقل كونا في انفسنا علفية تبعث على التقلد اكثر مما تبعث على الابداع والابتكار .

لذا يجدر بمؤرخينا اليوم ان يعتبروا كل هذا حتى لا يكون التاريخ ، اما علما مجانيا لا فائدة ما ترجى من ورائه سوى مجرد المعرفة ، واما سجل تمجيد نعالج به - بصفة غير ناجعة في الحقيقة - مركبات النقص ، ولا نجني منه في النهاية سوى التخدير ولذيد النعاس على فراش مجد أسلافنا . يجب ، كي نعين على حل مشاكل اليوم ، ان نعطي الأولوية في بحوثنا الى تلك الفترات المظلمة في تاريخنا ، تلك الفترات التي انتهت بنا الى ما نقاسيه من تخلف وحرمان . الى هذا الحقل يجب ان نوجه جهود شبابنا من الباحثين . وبهذه الصورة نرجو ان يكون في التاريخ عون على الاقلاع الذهني الذي هو شرط ضروري للاقلاع في بقية الميادين .

تزوير التاريخ

لكن التاريخ لا يؤدي على الوجه الاكمل وظيفته هذه ، التي تخرجه من أن يكون علما مجانيا (٢٥) ، الا بشرط : شرط مطابقته للواقع حتى لا يكون بناء الحاضر والمستقبل على مقدمات واهية . ولسوء الحظ فإن توفر هذا الشرط ، الذي يحلم به كل مؤرخ مخلص لعلمه ، ليس عسيرا فقط ، بل هو مستحيل تماما في كامل العلوم الانسانية اطلاقا ، وفي التاريخ على وجه الخصوص ، وذلك لاتحاد المنظور بالناظر . لقد سبق أن قدمنا اننا نصنع التاريخ بقدر ما يصنعنا . فكل كتابة للتاريخ إذن ، مهما احططنا ، تزوير بوجه من الوجوه وبدرجة من الدرجات .

ذلك ان التاريخ الذي نكتبه ليس ابدا عين الحقيقة في ذاتها المجردة ، انما هو صورة ننتزعها من ذهننا نتهم بصدق أنها تعكس عين الحقيقة . فكل كتابة للتاريخ مبنية في قراراتها على هذا الوهم .

ثم ان هناك مشكلة الوثائق التي نعتمدها في كتابة التاريخ . فهذه الوثائق لا تمثل ابدا كامل أوجه الواقع . مهما كان التاريخ الذي نكتبه قريبا او بعيدا ، وخاصة اذا ما كان بعيدا ، فان ما يبلغنا من وثائق لا يحيط بجميع نواحيه . ذلك ان يد الدهر ويد الانسان وانواع الصدق في النهاية تضمن البقاء للبعض وتلف البعض الآخر لافلا بلا رجعة . وهكذا تكتسي كتابتنا للتاريخ صبغة اعتباطية تميز بعض الظواهر دون بعض وما ذلك الا لجهلنا ، وعدم شمول وثائقنا ، التي تترك في نسيج التاريخ ثقبوا تكثر وتقل ويتسع خرقها ويضيق . وكل هذا يختم في النهاية بالوان من التحريف ، لا سيما عندما يستعين المؤرخ بالخيال ليرتق الفتق ، ويملا البياض ، وبرفو الثقب .

أضف الى ذلك كله وهن الملاحظة . فما يكون قد شاهد الجندي الذي شارك في واقعة واترلو (Waterloo ١٨١٥/٦/١٨) التي اودت بمجد نابوليون Napoléon وما قد يستطيع ان يحكي عنها ؟ ان ابعاد الحادث واتساع رقعته تعجز المشاهدة وتفوتها . وعندما تتسع المشاهدة للحادث وتستطيع الالام به ، فان ذلك لا يقيها انما النقص والخطأ . خذ ، ليتضح لك الامر ، مثلا بسيطا ، مثل حادث مرور ، يرويهِ عدد من شهود عيان كلهم بقات . فانك واجد لا محالة اختلافات تزيد وتقل أهمية في الرواية ، وستجد البون يتسع بين الرواة عند تقدير المسؤوليات وتقييم الأسباب . وفي هذا دلالة على استحالة التقاط صورة صادقة كل الصدق للحادث مهما كانت الظروف ملائمة . فما بالك عندما يكون النقاط الصورة في ظروف سيئة يختلط فيها الحابل بالنابل ، وتتصادم فيها المصالح ، وتحتدم فيها الأهواء ؟! وهذه هي أغلب الحالات التي تسجل خلالها وقائع التاريخ . وفي كم من مرة نحن نكتب التاريخ اعتمادا على روايات غير مباشرة لاكتها الالسن احقابا بل قرونا قبل ان تسجل لا ندرى كيف على وجه التحقيق واليقين !

كل هذا يؤدي اضطرارا الى اضطراب الصورة التي نحاول ان نرسمها للتاريخ ، والى عدم امانتها امانة تامة تطمئن لها القلوب اطمئنانا لا يكدركه شك . ففي كل هذه الاحوال التي استعرضناها ، على سبيل المثال من دون استيعاب ، يصطدم المؤرخ بانواع متنوعة من الهنات والملاسات التي تعوقه دون بلوغ الحقيقة ، من غير ان يقصد حتما الى التلبيس قصدا ، والى التزوير عمدا ، في أي مرحلة من مراحل تسجيل الحادث او تأليف البحث . انما هي صعاب وتقصيرات ملازمة لطبيعة التاريخ . وهذا ما يجعل التاريخ ، وان كان واحدا في قرارة ذاته التي يخرج عن قبضة ادراكنا ، متعدد في تأويلاته التي تصوغها عقولنا انطلاقا من قواعد تزيد وتقل ثبوتا . وليس من تأويل ، عندما تكون خاصة هذه ملابساته ، في مأمن تام من الانحراف والزيغ .

لكن هناك اخطر من هذا كله ، قد يقصد احيانا ، لاسباب عديدة ، الى التزوير عن قصد وروية بطرق شتى ، تتراوح من التدليس الصراح والافتراء السافر ، الى الاغفال المدبر وفض الطرف واسدال الستر . والامثلة على هذا لسوء الحظ اكثر من ان يحيط بها عد او حصر ، تجدها في اقدم عصور البشرية ، عندما كانت تسجل المآثر على المدر والخزف ، كما تجدها في عصرنا هذا ، عصر الوسائل السمعية والبصرية . فماذا نعلم عن جهنم بن صفوان ؟ لا شك انه كان احد اعلام التفكير الاسلامي في ايامه الاولى . لكن لم يبلغنا عنه الا ما كمال له معارضوه من انواع الثلب والتحامل . وفيما يخص الأمويين هل نحن على يقين تام ان تاريخهم كان يكون على الصورة التي

نكتبها لو بلفتنا المصادر التي ألفت في أيام قيام دولتهم ؟ أو لم يبلغ التزوير المدير المنظم في أيام العباسيين الى تدليس وثيقة ، شهد على صحتها ثقات اليهود ، تدنس نسب الفاطميين ؟ ثم أنظر ما كتبه السنيون والشيعة في شأن عبد الله الداعي ، القائم بدعوة الفاطميين بأفريقيا والباقي لدولتهم . أى صورة نصدق ؟ وكيف نفرق الحقيقة من التمجيد أو صريح الافتراء فيما كتبه القاضي النعمان - وكان منقطعا للمعز لدين الله الفاطمي ومتحزبا لمذهبه - أو فيما وصلنا متفرقا من تاريخ الرقيق ، الذي كان من رجال دولة الزيريين ، أى من رجال السياسة في عصرهم ؟ وفي أيامنا هذه ، ماذا كان يكون تاريخ النازية لو انتصرت هذه النزعة وكتب تاريخها مؤرخون متحزبون لها ؟ ثم ألسنا نعلم ان تاريخ الحزب الشيوعي تعاد كتابته كلما تغير ذوق الساسة فيسطع نجم البعض من رجالاته ويأفل نجم الآخرين ؟ وهلم جرا .

وكل انواع التزوير هذه ، التي تزيد وتقل سفورا ووقاحة وتحديا ، فان تعددت وسائلها وتحسنت واحكمت على مر الایام بفضل التقدم التقني لأجهزة قلب الحقائق ، فانها بقيت واحدة في غاياتها ودواعيها . وهذه الدواعي هي التي نقصد عموما الى ان تجعل من التاريخ خادما طيعا لسياسة الساعة . فعوض أن يكون التاريخ بحائزها وعسيرا عن الحقيقة ، ومحاولة فهم صادق لوضعنا ، يصبح سلاحا مجردا لمناهضة سياسة ومناصرة أخرى . ويستحيل ان يكون ذلك بدون تحزب الى شق على شق ، وبدون انحياز الى هؤلاء على أولئك . فان الالتزام في التاريخ - ما لم يكن في خدمة الحقيقة - يجر حتما الى التزوير . فالأولى اذن بكل رجال السياسة ، على اختلاف مشاربهم ، ألا يكون المؤرخ متحزبا ، حتى لا يكون حربا ، وحتى يتمكن من أداء رسالته العسيرة بأكثر ما يمكن من أمانة . ولقد رأينا ان ذلك ليس بهين حتى في أحسن الظروف ، فما بالك اذا ما تراكمت العقبات ؟! ولقد رأينا ايضا ان في البحث التاريخي الصادق عوننا لكل رجال السياسة الذين يكرسون جهودهم عن اخلاص للتقدم بشعوبهم .

غير أن هناك من يدعو جهرا الى تحزب المؤرخ وانحيازه في تأويله الى فريق او مذهب . ويعلمون هذا بأن التاريخ تصور ذهني . يستحيل ، مهما بدلنا من جهد ، ان يكون نسخة صادقة مطابقة للواقع . ونحن نعلم هذا ، ونظن اننا اكدنا عليه تأكيدا كافيا فيما سبق . لكننا نعتقد ايضا ان هذا التعليل ، وما يتسرب عليه من تزيف متعمد مدبر للحقيقة ، انما هو ، كما قال علي ، « كلمة حق أريد بها باطل » . حق ان الواقع في قرارة ذاته لا يدخل تحت قبضة ادراكنا . وباطل ان نتخذ من ذلك ذريعة كي نشوه الواقع عن روية ، ونكفيه ، ونؤوله حسب ما يرتضيه حزبنا ، او ولي نعمتنا ، او ما تمذهبنا به من مذاهب . فان كان الواقع صعب المراس مستحيل المنال ، فانه لا عذر في ذلك للمؤرخ ان يفقد الايمان ويصبح من المرتزقة . بل يجب ان يدعوه ذلك الى المزيد من الحذر واليقظة حتى يتجنب اكثر ما يمكن من الشراك الباطنية والخارجية . وذلك ارا موضوعية المطلقة ، ان كانت غاية يستحيل تحقيقها لعدد من الأسباب التي تعرضنا لبعضها ، فمحاولة الموضوعية في امكان كل مؤرخ صادق العزيمة ، مخلص لعلمه ، واع لمسئولياته ومتمكن من منهجية صناعته . كي نأمن التزوير ، الضر في النهاية بالمزور والمزور له ، يجب اذن ان نوفر للبحوث التاريخية أكثر ما يمكن من الحرية : حتى تتلاقح الآراء ، ويكشف هذا عما يغيب عن ذاك .

وهناك ضرب آخر من التزوير نكاد نجد انفسنا امامه عزلا من كل سلاح ، بل نكاد لا نتوهمه ولا يخطر لنا على بال ، لأنه يندس اليناعن طريق التكيف الذي لا ينفلت من قبضة اي

إنسان يعيش في مجتمع متحضر . ذلك اننا ، في كل القضايا التي نعالجها ، نلقى على الماضي ما بأنفسنا وما يشغل عصرنا . ونفعل ذلك عامة في كل شئوننا . وهذا ما ادركه الوعي الشعبي ولخصه في المثل القائل ان « كل اناء بما فيه يرشح » وهكذا يصبح التاريخ - رغم ارادتنا وفي دون وعي واضح منا - رشح شواغلنا وشواغل بيئتنا . فهذا ما وقع قديما وحديثا ، وما سيقع ايضا مستقبلا ، ريتما يصبح التاريخ في يوم من الايام علما صحيحا - اذا ما افترضنا حصول ذلك ممكنا - أو ان يقترب على الأقل أكثر فأكثروا من العلوم الصحيحة ، بفضل ازدياد الوعي بالمشاكل وبفضل ما تقوم به من نقد ، ونبدله من جهود منهجية . ولنكتف الآن ببعض الامثلة على هذا الضرب الخفي من التحريف الصادر عن رشح اناء التاريخ بما في نفس المؤرخ المكيف بشواغل عصره .

اننا نجد **حسان بن النعمان** (٢٦) (توفي حوالي ٦٩٩/٨٠ - ٧٠٠) بعد هزيمته امام الكاهنة بافريقية ، يصف البربر الى **عبد الملك بن مروان** كما يلي : « ان أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف احد منها على نهاية . كلما بادت أمة خلفتها أمم ، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم (٢٧) » هكذا انعكست صورة البربر على مرآة ضمير حسان المنهزم . فهو لم ير فيهم ، عن صدق ، سوى قطيع من « سائمة النعم » لا يتميز الا بالكثرة والجهل . ولم يخطر له على بال انهم أمة ابية ، قاومت طوال قرون عديدة الاحتلال الاجنبي بنبات وعزيمة ، واستماتة . ان حسانا كان في حكمه ، من حيث لا يشعر مكيفا .

وهكذا نجد الوعي الجماعي لبعض الأوساط العربية، لما كان يقلب عليها من تكيف بروح العصر، تفرز هذه الاحاديث الملفقة التي تطفح بالاحتقار وتنافي تماما تعاليم الاسلام . يروي **ياقوت** (٢٨) ما يلي :

« وذكر **محمد بن احمد الهمداني** في كتابه ، مرفوعا الى **أنس بن مالك** قال : جئت الى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعي وصيف بربري فقال : يا أنس ما جنس هذا الفلام ؟ فقلت : بربري يا رسول الله . فقال : يا أنس ، بهه ، ولو بدينار - فقلت له : ولم ؟ يا رسول الله - قال : انهم أمة بعث الله اليهم نبيا فذبحوه وطبخوه واكلوا لحمه ، وبعثوا من المرق الى النساء فلم يتحسوه . فقال الله تعالى : لا اتخذت منكم نبيا ولا بعثت فيكم رسولا » .

ويضيف **ياقوت** (٢٩) : « ويروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - انه قال : ما نحت أديم السماء ولا على الارض خلق شر من البربر . ولئن اتصدف بعلاقة سوطي في سبيل الله أحب الي من ان اعتق رقبة بربري » .

وتدور عجلة التاريخ دورتها ، وتمر القرون ، وتنقلب الاوضاع ، وتحتل الجيوش الفرنسية المغرب ، وينظر الفاتحون الجدد الى اهل البلاد من وراء عدسة تكيف جديدة . ويؤلف **هنري**

Les Arabes d'hier a demain Chap. I.

(٢٦) انظر كتابه

Lo rupture de l'homme traditionnel, P. 13-30, ed. du seil Paris 1960.

انظر دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة .

(٢٧) ابن عذاري ، البيان ، ط كولان وليفي - بروفسا (لين (هولندا) ١٩٤٨ ، ج ١ ص ٣٦ .

(٢٨) معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٤/١٩٥٥ ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢٩) معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٦٩ .

فورنال Henry Fournel مؤلفه الضخم في تاريخ المغرب ، ويشرح اهدافه هكذا في مقدمته (٢٠) :

« اثناء السنوات ١٨٤٣ - ١٨٤٦ التي كرستها للمهمة التي كلفني بها السيد وزير الحرب قصد الكشف عن الثروات المعدنية التي قد تحتوى عليها ارض الجزائر .. فانه قد جلبت انتباهي الفروق العديدة التي تفرق بين الجنسين البربري والعربي .. وتساءلت عندئذ كيف ، ازاء جنسين توجد بينهما هذه الفروق ، نستطيع ان نتمادى اكثر في التصرف نحوهما تصرفا واحدا من دون ان نفكر في البحث ، اليس من واجبا ان نبدي شيئا من التفضيل يكون ، في صالح الجميع ، الغالبين منهم والمفلولين ، قاعدة لسياسة يبدوانها تعوزنا تماما » .

وهكذا يبدو التكيف بالظروف السياسية واضحا . ويظهر هذا التكيف في عنوان كتاب فورتل « البربر » ، وفي عناوين الكتب التي تلتها ، وكان اساسه التفضيل العنصري . لكن في هذه المرة عكست الآية ، وكان تفضيل البربر على العرب ، وأول كل تاريخ المغرب على هذا الاساس ، اساسا لاحتساب العرب لارض كانت ، عن طريق رومة ، تابعة للغرب وملتحمة بحضارته . وادى هذا الاغتصاب ، الذي غير مجرى التاريخ الطبيعي ودحا طويلا من الزمن الى دول بلاد البربر في حندس تلك « القرون المظلمة » التي حاول جوتي E. F. Gautier في كتاب هذا عنوانه ان يشرحها للفاتحين القادمين بحضارة ودين يعيدان الامور الى نصابها الطبيعي ، بعد الفساد الطويل الذي تسبب فيه العرب .

وهذا التكيف بالوضع ، الذي يؤدي المؤرخ الى التزوير بصفة تكاد تكون غير شعورية تعسر مفاصلها ، خطير جدا . فينبغي ان نتنبه اليه بصفة خاصة ، وان نحذره ونحذر منه ، وان نتعظ بالأخطاء التي وقع فيها من سبقنا عندما وقعوا في حباله . قلنا انه خطير جدا وذلك لانه يؤدي بدوره عن طريق كتابة التاريخ وتدريسه الى تكييف الاجيال الصاعدة ، ونقع هكذا في دور تسلسل يعسر الانفلات من ربقته ومما ينجر عنه من وخيم العواقب . فهذا موريس كروبيلي Maurice Crubellier يكتب في هذا الصدد ، ضاربا المثل بمعركة بلاط الشهداء التي استشهد فيها والي الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الفافقي عندما اصطدم بجيوش شارل مارتيل Charles Martel (رمضان ١١٤ / اكتوبر ٧٣٢) قرب مدينة بواتي Poitiers بفرنسة : « ان الصيغة التي تقدم بها معركة بواتي قد اثرت زمنا طويلا في الصورة التي ارتسمت في قلوب الشباب الفرنسي من الاسلام والمسلمين (٢١) . وهذه الصورة لم تكن طبعا تخدم التأخي والتفاهم . وهكذا يصبح التاريخ عن طريق القديم والتأويل المفروض للحوادث - وهو تزوير كثيرا ما يكون غير شعوري ناشئا عن التكيف بملابسات البيئة والعصر ، او عن الميل الاعتقادي والمذهبي - مدرسة تبث سم العداوة والبغضاء في نفوس الصبيان الطاهرة اللينة ، وتجعل منهم في النهاية تلك

H. Fournel, Les Berbers, Paris 1875-1881, Vol. I, p. 1.

(٢٠)

(٢١) Maurice Crubellier, Enseignement de l'histoire et formation humaine, dans l'histoire et L'Historien, col. Recherches et Debate du centre catholique des Intellectuals Français, Fayard, Paris 1964, p. 66-7.

الأمم الضاربة التي يدفع بها سكر المجد او الحق في حروب لا تنتهي ولا تعود بالخير على جنسنا . وكل من فكر في هذا لا يستطيع عدم مشاطرة **بول فاليري** Paul Valery رايه المتشائم في التاريخ الذي يعبر عنه هكذا :

« ان التاريخ اخطر انتاج انجته الكيمياء الذهنية . . فهو بهيج الاحلام ، وبئمل الشعوب ، ويولد لهم ذكريات موهومه ، وبزيد ردود فعلهم حدة ، ويفذي جراحهم القديمة ، ويعكر عليهم صفو راحتهم ، ويقودهم الى الهذيان بالمجد او بالاضطهاد ، ويحمل الامم تشعر بالمرارة والعجب ، وبصرها لا تحمل زهوا بنفسها (٢٢) . »

ما العمل اذن ؟ هل يجب ان نكسر كواب التاريخ الذي « يشمل الشعوب » ؟ اننا لن نستطيع ذلك حتى لو عقدنا العزم عليه . اننا لا نستطيع سلب جنسنا الذاكرة . فالطريق الوحيدة المفتوحة امامنا اذن هي طريق تطهير هذه الذاكرة ، وانارتها وصقلها . لقد راينا ان هذه الطريق عسيرة ، كثيرة الانحراف ، والزيف والشراك . لكن هذا كله يجب الا يسلمنا الى الفشل والخذلان والاستسلام . وذلك لاننا مهما كانت الخيبات ، نشعر اننا في النهاية نتقدم . ان الحقبه التاريخية في جوهر ذاتها لا تدرك . لكننا نقرب منها . ان باب الغد ، الذي نرجوه بفضل ما حصل وسيحصل لنا من يقظة متزايدة ، مفتوح امامنا .

التاريخ والغد :

قلنا ان باب الغد مفتوح امامنا . لكن ماسيكون عليه هذا الغد ؟ كيف ستكون ملامحه ؟ لقد راينا - وذلك ما جعل بول فاليري يدين التاريخ - اننا كثيرا ما زرنا الرياح عن طريق تزوير الماضي ، وسوء فهمه وتأويله ، فحصدنا العواصف ، وما زلنا نحصدنا . ذلك معناه ان تصورنا للأمس يؤثر في صورة الغد . وذلك معناه ايضا اننا اذا ما تحكمنا في الماضي ، سوف يعيننا ذلك لا محالة على التحكم في المستقبل ، وعلى اعطائه صورة اقرب مما نأمل ونرتضي . ان الغد يمرر يقطفها الخلف ، ويبذر بذرنا السلف ، ويعتهد بها برعايته وميض الحاضر . اننا الى اليوم لم نحسن علم زراعة غدنا ، فقطفنا التموك اكثر مما قطفنا الورود . لكن علمنا في نمو ، وهذا هو الأهم .

وربما يزيد علمنا نموا ونجاعة ، لعله يحسن ان نحدد نقطة وضعنا اليوم ، وان تلقى هذا السؤال : هل يمكننا التاريخ ، في هذه المرحلة التي بلغها علمنا ، من ان نرسم خطا بيانيا يكشف لنا عن الاتجاه الذي تتجه نحوه سفينتنا ، وعماسيكون عليه غدنا ؟ انه من البديهي ان التاريخ ليس ضربا من الكهانة او التنجيم ، وانه ليس من دور المؤرخ ان يتنبأ مسبقا بدقائق ما سيقع من الحوادث في مستقبل قريب أو بعيد . لكن المؤرخين وفلاسفة التاريخ حاولوا منذ القدم ان يستنبطوا بالماضي لثقب حجب المستقبل ، وانتهوا الى نظريات متفائلة واخرى متشائمة وحيث انه من المستحيل ان نفصل القول في كل هذه النظريات ، فاننا اخترنا ان نستعرض بسرعة آراء مؤرخ تجريبي ، **ارنولد توينبي** Arnold Toynbee وكاهن مسيحي ، **تيسار دي شاردان** Teilhard de Chardin وفيلسوف صوفي مسلم ، **محمد اقبال** .

يحتل **أرنولد توينبي** ، الذى ولد ببريطانيا سنة ١٨٨٩ ، مكانة سامية فى التفكير المعاصر ، اذ قد احدثت آراؤه فى التاريخ عامة ، وفى الحضارة الغربية خاصة ، ضجة كبرى قبيل الحرب العالمية الثانية ، وأصبح اليوم من المستحيل ان يتحدث متحدث عن تأويلات التاريخ المختلفة من دون ان يذكر اسمه وبحيل على مؤلفاته . ان كتاب أرنولد توينبي فى « دراسة التاريخ » (٢٢) A Study of History اذا ما لجأنا الى التعريف به فى عبارة وجيزة لا تخلو من ادخال الضيم على المعرف به لايجازها ، قلنا انه كتاب فى فلسفة التاريخ ، اى انه يحاول ، من خلال فحص الحوادث - لا ان يصف الماضي - بل ان يستنتج منه عبرة وفلسفة ، وجملته من القوانين التى تسيّر الكون ، وتدفع التيار البشرى ، وترسم الخط البياني لما سيكون عليه الغد . هذا الاتجاه ليس جديدا فى ذاته . انما أرنولد توينبي يذهب أبعد فى طريق قد سلكت من قبل ، ويعتمد فى ذلك منهجا بريطانيا صمما ، هو المنهج التجريبي الذى ينطلق من طرق المشاهدة كي يصل الى نتائج تفرضها التجربة فرضا ، وتنتهي بنا الى تصور عام لغاية التاريخ ومآل الحضارات .

ولقد حاول علماء كثيرون ان يفحصوا الماضي البشرى ، كي يستخلصوا منه فلسفة أو قوانين تزيج الستار قليلا أو كثيرا عن سر الغد . ويرجع تأويل هؤلاء المفكرين الى معطين اثنين لا بد من ضبطهما لايضاح ما يلي :

النمط الأول هو الذى يمكن ان نسميه : بالنمط الخطي المسترسل التصاعدي ابدا . ومعنى هذا هو انهم يؤولون التاريخ كخط مستقيم متصاعد دائما نحو اكتمال مسترسل لا ينتهي . وهذه النظرية نتيجتها - وقاعدتها ايضا - الايمان المطلق بالرقى . فهي تأويل متفائل .

النمط الثاني هو الذى يمكن ان نسميه : بالنمطي الدورى . ومعنى ذلك هو انهم يؤولون التاريخ كحلقة ، بل قل كجملة حلقات متناهية زمنا ومكانا ، منفصلة بعضها عن بعض ، تمثل كل حلقة منها حضارة ، من يوم نشوئها عند ابتداء الحلقة الى يوم وفاتها الحتمية عند انغلاق الحلقة . فكل حضارة اذن حلقة لها بداية ونهاية ، حلقة متناهية تمر باطوار أربعة : التكوين ، فالنمو ، فالجمود ، فالانحلال والاضمحلال . فهي فى هذا تشبه كل الكائنات الحية : فهي تولد وتموت .

ولقد أول التاريخ التأويل الأول جماعة من أهمهم **هيجل** (١٧٧٠ - ١٨٣١ Hegel) و **اوجوست كونت** (١٧٩٨ - ١٨٥٧ Auguste Comte) و **كارل ماركس** (١٨١٨ - ١٨٨٣ Karl Marx) وذهب الى التأويل الثانى قوم آخرون أهمهم **سبنجلر** (١٨٨٠ - ١٩٣٦ Spengler) صاحب « افول الغرب » ، وفى أيامنا هذه الاستاذ **تيجارت** Teggart من جامعة كاليفورنيا ، فى مؤلفه « تطور التاريخ » The Proecessus of History الفه سنة ١٩١٨ ، و « نظرية التاريخ » The Theory of History الفه سنة ١٩٢٥ . وذهب هذا المذهب ايضا **سوركين** Sorokin فى كتابه فى « الحركية الاجتماعية والثقافية » Social and Cultural Dynamics الذى نشر بين سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٤١ .

خلاصة القول ان النقاش فى شأن التاريخ والغد - الذى هو ليس بالجديد فى الحقيقة اذ نجد اثره عند القدماء ايضا - قد استرعى اكثر اهتمام المفكرين ابتداء من اوائل القرن التاسع

(٢٣) صدر هذا الكتاب فى عشر مجلدات ، واعيد طبعه مرارا ، واختصره سنة ١٩٤٧ سماروال sommerwell وظهر سنة ١٩٥١ له اختصار آخر فى اللغة الفرنسية تحت عنوان (التاريخ) اخرجته بباريس الناشر جليمار Gallimard

عشر ، واستفحل واحتدم قبل الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة ، وزاد اخذاما في السنوات التي نلتها . والسبب في ذلك هو القلق الذي اخذ يساور مفكرى الغرب عندما شعروا فجأة ان حضارتهم ليست في مأمن من أن يصيبها ما أصاب الحضارات السابقة ، وأن الغد ليس حتما مضمونا .

في هذا الجو فكر ارنولد توينبي واراد أن يكون منهجه تجريبيا بحثا ، يذهب راسا من وصف الواقع من دون رأى مسبق فيه . فأخذ يستعرض لوحة كامل التاريخ ، لوحة ارادها مستوعبة لكامل الحضارات الماضية - : حضارات آسيا ، وافريقيا ، وامريكا واوروبا . وكانت نتيجة استعراضه هذا للتاريخ ، وتفكيره فيه عملا بمنهجه التجريبي ، ان الحضارات لا يمكن ان تفهم الا في نطاق النمط الدورى ، أى أنها ككل كائن حي - وهي في نظره اكمل الكائنات الحية حياة - تمر بكامل مراحل الحياة بدون استثناء الموت والانقراض ، وهكذا يلتقي **ارنولد توينبي** بمفكرين آخرين ، نخص بالذكر منهم **عبد الرحمن بن خلدون** ، الذى كان المؤلف من المعجبين به (٢٤) .

ولقد كان لآراء ارنولد توينبي ، لما اكتسبته من جدية ، صدى بعيد مريع في ربوع الغرب . لان الغرب اخذ يدرك ان غده ليس مضمونا ، بل ان كل القرائن تدل على انه دخل منعرج الهرم . ولقد عيب هذا الرأى على المؤلف لما فيه من تشاؤم بمستقبل الحضارة التي ينتمي اليها فأجاب بما نصه : -

« لقد اضطرب عدد كبير من ابناء عصرى عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى ، فادركوا ان الموت ينالنا نحن ايضا . ان هذه التجربة القاسية ، اظنها فيما يخصني ، قد وجهت موقفي في شأن مستقبل حضارتنا الغربية . غير أني شعرت ايضا ، من الناحية العملية ، انه من الحسن بالنسبة للمجتمعات ، أو قل بالنسبة لأعضاء تلك المجتمعات ، ان يدركوا ان الموت ينالهم .

« ففيما يخص حياتنا الفردية ، فاننا لاحيلة لنا . فنحن نقبل ، برباطة جأش تقل وتزيد ، ان يحل أجلنا بعد ربح من الزمن . غير انني لا اعتقد - وانا في هذا الصدد اخالف مخالفة تامة **شبنجلر** Spengler - ان المجتمعات من هذه الناحية - وهي ناحية هامة جدا - شبيهة بالافراد البشرية . ان الكائن البشرى كالحيوان والنبات ، كتب عليه الموت بعد أجل أقصى معلوم . فاني لا ارى لماذا يكون كذلك المجتمع ، قد كتب عليه هو أيضا الموت . اني أو من ايماننا راسجا بالاختيار ، وبأن المستقبل مفتوح . اني الاحظ طبعاً ان جل المجتمعات البشرية ، لما ارتكبت من أخطاء وحماقات ، قد اندثرت كلها بعد عصور متفاوتة الطول . غير اني لا اعتقد ان مجتمعا واحدا من هذه المجتمعات قد كتب عليه هذا المآل . هذا هو الفارق الجوهرى بين نظرتي ونظرية **شبنجلر** . فانا اذن أقف موقفا من الحضارة الغربية ، غير اني لا أقف منها موقفا متشائما (٢٥) .

هكذا اجاب ارنولد توينبي . غير أن جوابه هذا ، المقام على فكرة الجبر والاختيار لم يكن

(٢٤) لقد خص ارنولد توينبي في كتابه في « دراسة التاريخ » عبد الرحمن ابن خلدون بصفحات ملؤها الإعجاب . انظر A Study of History, 6th ed. 1955, III, 321, 8, 473-5.

(٢٥) L'Histoire et ses interprétations. Entretiens au tour de Arnold Toynbee, sous la direction de R. Aron, Cerisy-la-Salle 10-19 1958, ed. Mouton et co. Paris — La Haye 1961, p. 19-20.

مقنعا تماما . وذلك ان كامل كتابه انما هو دليل طويل الذيل على الجبر . فكتابه سلسلة من الأدلة على ان كامل حضارات العالم السابقة ، مهما بلغت من القوة والشمول وطول الحياة ، كان مآلها حتما ونهايا الموت ، وانها لم تستطع ان تختار لنفسها البقاء وتضمن الغد . فاذا ما كان الأمر كذلك فيما مضى ، فلماذا هو سيختلف يا ترى ، ويتغير ؟! ارنولد توينبي يجيب : « ان المستقبل مفتوح » ، وان تاريخ الماضي لا ينبئنا بصفة قطعية ثابتة بما سيكون عليه الغد . غير أن النمط الدورى الذى يهيمن على كامل حضارات الماضي يجعلنا نتصور مآل حضارة اليوم ، أى بصفه اخص حضارة الغرب التى تحتل مركز النقاش . ان مثل ارنولد توينبي فى ايمانه بإمكانية خلود الحضارة التى ينتمى اليها والفوز بضمان الغد . مع اقامته الدليل على ان كل الحضارات التى سبقت لم تستطع ان تضمن لنفسها ذلك ، هواذن كمثل الفقيه الذى يقيم الدليل على الجبر ، ثم يؤمن لأسباب نفسية بالاخيار . ولقد لخص هو نفسه موقفه فى هذه العبارة :

« اني حقا اقم الدليل على ان الحضارات زائلة لا محالة ، بصفة اكثر اقناعا من اقامة الدليل على استحالة التنبؤ بالمستقبل . غير ان هذا لا يمنع من ان الانسان يمكنه دائما ان ينفلت من الجبر ، ومن انه يمكنه دائما ان يوجه تاريخه فى الطريق التى يشتهيها . لكن - فى الواقع - ليس من اليسير على الكائن البشرى ان يكون بشرا حقا ، ولا على الحضارات البشرية ان تسلم من الموت » (٢٦) .

وهكذا تصبح مشكلة التاريخ والغد مشكلة ما وراثية . وهكذابقى المسألة مطروحة والقلق قائما . قد زالت كل الحضارات ، كحلقات كلما استكملت الدورة انتهت . فماذا سيكون غد الحضارة التى تهيمن على عالمنا اليوم ؟ هل ستخضع لحكم الحضارات التى سبقت أم هل ستشدد عنها لأول مرة فى تاريخ البشرية ؟ ارنولد توينبي يجيب : « ان الانسان يستطيع ان ينفلت من الجبر » .

لكن هذا معناه اننا اذا اردنا ان نتحدث عن التاريخ والغد بصفة تجعلنا نتجاوز الخيبات المتمثلة فى مقابر الحضارات المتتالية ، يجب ان نخرج بالمشكل من اطاره الذى وضعه فيه ارنولد توينبي ومن حذا حذوه ، وهو اطار الحضارات المنفصلة المتتالية يخلف بعضها بعضا على مر الزمان ، الى اطار اوسع ، وهو اطار غد الانسان عامة . ذلك ان مشكل التاريخ والغد لا ينحصر فى مستقبل هذه الحضارة او تلك ، وان وضع السؤال على هذا المستوى هو الذى اثار حماس مفكرى الغرب وقسمهم الى متفائلين ومتشائمين بمستقبل حضارتهم . فاذا ما اردنا اذن ان نتقدم فى البحث وجب ان نفلق قوسي التساؤل بقلق عن مستقبل حضارة الغرب ، أى ان نكسر حدود بقايا القبلية ، كي نفرض الى سؤال أهم وهو : هل فى التاريخ ما يزيح لنا الستار عن غد الانسان ؟

هذا ما فعله تيار دى شاردان (٢٧) (١٨٨١ - ١٩٥٥) Teilhard de Chardin
كان الرجل يسوعيا ، وكان فى نفس الوقت عالما احياء وانثروبولوجي ، اثار اكتشافاته

(٢٦) Op. Cit., p. 22.

(٢٧) انظر من بين مؤلفاته :

Le phénomène humain, éd. du senil, Paris 1955,

-L'apparition de l'homme, ed. du senil, Paris 1956 ; Le Milieu divin, ed. du Senil, Paris 1957. On pent également consulter, Cl. Tresmontant, Introduction a la pensee de Teilhard de Chardin.

وآراؤه صدى بعيدا ، قبل ان يصبح اليوم محل احراز ونقد من طرف كثير من العلماء .. لاحظ تيار دى شاردان كفيره ان الحضارات الى فناء وزوال . لكن ان بادت وزالت الحضارات ، فان الانسان باق ، وهو في تقدم مطرد . وذلك ما يستخلص من علمي الاحياء والاناسة . لكن هذه النتيجة ، التي لا يختلف فيها انان اليوم ، قد اولت تأويلات مختلفة حسب العائلات الفكرية المتباينة التي ينتمي اليها المفكرون . كانت الارض في نظر القدماء مركز العالم ، والأفلاك حولها مرتبة في نظام . فأتت العلوم الحديثة فبددت هذا الوهم وحطمت هذا الامتياز . واذا بكرتنا الارضية لا تزيد عن ذرة مبعثرة في محيط لا ساحل له من عديد العوالم . ونشبت الانسان بعد ذلك بفكرة اخرى وجد فيها عوضا عن مركزية الارض ، وهي مركزية البشرية anthropocentrisme . لكن هذا ايضا وهم جديد في نظر عدد كبير من علماء الحياة الذين نجد تعبيراً واضحاً عن آرائهم في مؤلف **جان روستان** Jean Rostand «عبر احيائي» *Pensees d'un Biologiste* فهو لاء لا يعتبرون الجنس البشري الا عرضاً سبوزول بدوره كما زالت من قبله بلا شك انواع اخرى من الحياة تولدت عن الصدفة في زاوية من زوايا الكون العديدة . وتطورت في احضان الآمال والآلام ، ثم انقرضت انقراضاً لا رجعة فيه . ولعل هذه العملية ستتجدد تحدوها دائماً نفس الأوهام ، وتفضي في النهاية الى العت والبطالة « اذ هي فد اهلت حتما من الأساس الى الخيبة في الحتام والى ظلمات لا ساحل لها » . وفد أول بعضهم هكذا ظاهرة الحياة تأويلاً متشائماً حالاً الأفق ، كله ولادة واجهاض ، حسب ذلك النمط الدوري الذي وصفناه والذي يهيمن على كثير من المفكرين في تأويلهم لتعاقب الحضارات . فهو لاء لم يزدوا في تفكيرهم هذا على ان نقلوا النمط الدوري المنتائم من سلمه الارضى الى سلم كوني .

ان تيار دى شاردان لم يسلك هذه السبيل المتولدة عن الاكتشافات الحديثة الباهرة في ميدان علوم الفضاء والحياة والتي هي اقصى سبيل التفكير المعاصر نشاطاً ، اذ تنقل العبث والقلق الى مدار كوني . ان الانسان في نظريته لم ينشأ عبثاً من تفاعل « الصدفة والاضطرار » ، ولن يزول باطلاً في محيط لا ساحل له من الظلمات تطفو على سطحه الحياة وتفور . ان الملاحظة الدقيقة اليعظة في اعماق الماضي السحيق جعلته يتبين « خطوط انفلتات » *des lignes de fuite* نحو الغد ، خطوطاً يبدو ان اتجاهها قد ضبط مسبقاً ابتداء من نقطة الانطلاق ، ويكفي اذن ان نطيلها في اتجاه غايتها كي نحدد نقطة البلوغ . اننا اذن ، انطلاقاً من ملاحظة الماضي ، نستطيع ان ندرك الغد . هذا الماضي يفيدنا ان الحياة ، من أول ظهورها في ابسط تركيب الودقة الأولى ، لم تزل تدفع دفعا نحو تعقد متزايد ، وتخصص ادق الوظائف ، وهيكلية اشد احكاماً واكثر تشعباً . تبدو لنا هكذا القوى الحيوية كخط موجه نحو الانسان الذي يمثل القمة الحالية للحياة على وجه الارض . وهذه القمة لم تزل تزداد ارتفاعاً منذ ظهور الانسان الأول البدائي ولا شك ان ارتفاعها لم يكتمل بعد ولم يبلغ غايته . لكنه في امكاننا ان نتصور من الان تلك الغاية ، اى نقطة البلوغ . تلك النقطة التي تجذب التيار الحيوي نحوها ، يسميها تيار دى شاردان نقطة « اوميغا » * معطياً اياها اسم آخر حروف الهجاء عند اليونان ، رامزاً بذلك الى انها نقطة الغاية والنهاية التي تكسب الحياة معناها وتبررها . وهكذا يكشف لنا التاريخ اذا ما

وضعه في أحداثياته ، أن العبرة ليست في تعاقب الحضارات مونا وحياة ، إنما هي في ارتفاع الحياة ارتفاعاً مسترسلاً مطرداً نحو ما سميته نيار دي شاردان نقطة « أومجا » أي في اعتفاده - نحو المسيح أو الله . والحياة إذن سهم موجه يرنفينا نحو الله ، أي نحو عالم الروح . وهذا عين ما يفعله ابن خلدون الذي هو أيضاً - كما رأينا سابقاً - وضع تفكيره في التاريخ في نطاق أحداثية كونه قاطعها ومقطوعها النشوء والارتقاء ، ومحركها « الانسلاخ من البشرية إلى الملكة » (٢٨) « الله بدأ الخلق ، ثم يعيده ، ثم إليه يرجعون » (٢٩) .

إن هذا التصور لنقطة الغد ، اعتماداً على إطالة خطوط التاريخ ، يركز على افتراض وجود قصد أو مشروع ، أي على وجود خالق ، فهو إذن ، أن أرضى المعتقدين ، لا يرضي من لا يعتقد . ولعل أحسن معبر عن هذا الصنف الأخير من المفكرين هو **جاك مونود** Jacques Monod المدير لمعهد باستور Pasteur بباريس الآن ، والذي أحرز سنة ١٩٦٥ جائزة نوبل في الفيزيولوجيا * والطب . فهو طبعا لا يذهب بذهب نيار دي شاردان بل يزدري ذلك المنهج وكتب : أن فلسفة تيار دي شاردان الإحيائية ليست جديدة بأن نستوقفنا لولا الصدى المدهش الذي أثارته حتى في الأوساط العلمية ، ذلك الصدى الذي يعرب عن القلق ، وعن الحاجة إلى تجذير المعهد (٤) . « . وحيث لم يكن **جاك مونود** في حاجة إلى تجديد العهد أراد أن يضع تفكيره على بساط موضوعي بحث ، البساط الوحيد الذي يلقى بالعلوم . وأداه هذا التفكير في آخر اكتشافات الإحيائية إلى أنه ليس هناك من شيء يندر بانفجار الحياة في صلب المادة . فالحياة إذن لم تنشأ عن قصد أو مشروع مسبق . فلم يبق إذن إلا أنها وليدة محض الصدفة . هذه النتيجة الأولى التي يفضي إليها جاك مونود هي وليدة المنهجية التي اختارها ، وهي الموضوعية العلمية التي يعرفها كما يلي : « هي الرفض المنسحق لاعتبار إمكانية حصول أي معرفة حقيقية عن طريق تأويل الظواهر تأويلاً يصاغ في عبارات علل غائية (٤١) » .

غير أن جاك مونود يلاحظ « أن الموضوعية تجربنا أيضاً أن نعرف بأن الكائنات الحية لها صبغة « تطورية مقننة » téléonomique وأن نسلّم بانها في هيكلتها وانجازاتها تحقق مشروعاً وتفصّد نحوه . فهناك إذن - على الأقل بصفة ظاهرية - تناقض منهجي عميق . فمشكل الإحيائية المركزي هو هذا التناقض ذاته الذي ينبغي ، أما أن نحله ، في حالة أنه لا يزيد على أنه ظاهري محسب ، وأما أن نقيم الدليل على أنه يستعصي جذرياً على كل حل إذا ما كان الأمر في الحقيقة كذلك » (٤٢) .

(٢٨) المقدمة ، بروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٨ . انظر أيضاً ما سبق ص ٧ - ٨ من هذا البحث .

(٢٩) الروم رقم ٣٠ ، الآية رقم ١١ ، وقد ورد الرجوع إلى الله في أكثر من آية . انظر محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس للغات القرآن الكريم ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

* الفيزيولوجيا أو علم الفروقات .

(٤٠) Jacques Monod, Le Hasard et la nécessité, éd. du senil, Paris 1970, p. 44.

(٤١) Jacques Monod, Le hasard et la nécessité, p. 32.

(٤٢) نفس المصدر ص ٣٣ .

ان جاك مونود لا يعتبر طبعا المشكل غير قابل للحل . فهو يحاول في كتابه اعتمادا على آجيين معطيات الكيمياء ، والاحيائية ، وغيرهما ان يبين كيف نحضع الكائنات الحية ، من ناحية الى الثابتية invariance التي تحفظ لها خصائصها ، اي خصائص جنسها ، ونضمن لها تواربها ، ومن ناحية اخرى الى التطور المقنن télonomie الحاصل عن طريق ما يحدث - صدفة في نظريته - من تغير في مورثاتها ، او جيناتها ، نغير ينطبع فيها بدوره بصفة عارة فيصبح بابتية . وهكذا يفك لفر الثابتية والانتخاب الطبيعي المتواصل الذي هو محور الاحيائية ، ويترج شرحا علميا موضوعيا . ويلاحظ جاك مونود ان من بين كل العمليات الممكنة - وهي لا تحصى عدا - يقع التغير الحاصل في المورثات دائما في اتجاه يضمن الانتخاب الطبيعي ، او تطور الحياة الى اشكال ارقى فارقى . « قال فمن ربكما يا موسى قال :ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٤٢) .

لكن جاك مونود يرفض وجود هداية او هاد (٤٤) . فهو يبين ان الثابتية تخضع لقانون يجد العلم سره مكتوبا في المورثات ، وان الانتخاب الطبيعي له ايضا قانونه الذي يحول دون التقهقر مثلا، لكنه يرفض وجود مقنن مفارق، عملا بالفرض الاولى الذي فرضه وهو فرض الموضوعية التي عليها اقيم العلم الحديث. وهكذا يفضي بنا في النهاية الى فلسفة مقامه على وحدة الوجود ، هي ايضا احيائية كفلسفة يار دى شاردان ، غير انها « نغائية » (٤٥) ، اذ ترفض رفضا باتا التعليل الفائي ونعوضه بالصدفة .

ولقد اثارت آراء جاك مونود هذه ردود فعل كثيرة نذكر منها على الخصوص ما ورد في مؤلفين : الاول عنوانه « الصدفة والحياة » (٤٦) Le hasard et la vie وصاحبه مارك اوريزون Marc Oraison كاهن اختصاصي في الطب النفساني ، والثاني صدر تحت عنوان « مذهب الصدفة والاضطرار » (٤٧) : L'idéologie du hasard et de la nécessité وهو بقلم السيدة مادلين بارتيليمي - مادول Madeleine Barthelemy — Madaule المتخصصة في الفلسفة . اما مارك اوريزون فانه يقبل الى حد ما نظرية الصدفة فيما يخص ظهور الحياة ، باعتبار ان هذه النظرية لا تزيد على انها تعبر في لغة خاصة على ان ظهور الحياة ليس حادثا ضروري الوقوع بذاته ، وانما هو جائز ومحتمل فقط ، اي انه في الامكان ان لم

(٤٣) طه رقم ٢٠ ، الاية ٤٩ - ٥٠ .

(٤٤) انظر مؤلفه المشار اليه ص ٣٧ - ٤٦ ، ١٨٢ - ١٩٥ .

(٤٥) وردت كلمة نفاة ، ج ناف ، للتدليل على وجود الله . قال ابو العلاء المعري

اثبت لى خالفا حكيم

ولست من معشر نفاة

انظر اللزوميات ط . صادر ، بيروت ١٩٦١ ، ج ١ ص ٢٢٩ . ونحن نستعمل هنا عبارة « نغائية » كمقابل للكلمة athéisme

éd. du senil, Paris 1971.

(٤٦)

éd. du senil, Paris 1972.

(٤٧)

يكن . وأما فيما يخص الاضطرار ، الذى يضمن للكائنات الحية نابتية الجنس والارتقاء فى نفس الوقت عن طريق التطور المقنن ، فانه يلاحظ بحق ان من قال ارتقاء او « انتخابا » قال حتما **تحجيرا** « (٤٨) ، **تحجير حدوث ما يخالف الانتخاب** . « فالحياة إذن ، فى شكلها هذا الذى بظهر عليه وتلتئم ، **نحجر بصورة من الصور حدوث شئ آخر (٤٩) »** فيعين اذن الا نرى فى كل هذا قصدا *une intentionnalité* بل « رسالة » *message* و « معنى » *sens* .

وتلاحظ السيدة ماديلين بارتليمي - مادول بدورها فى مؤلفها الذى هو اعمق تحليل فلسفي لنظريات جاك مونود أن تفكير هذا العالم لا يخلو من تناقض اذ هو يعترف من ناحية باخلاص : « أنه من المستحيل ان نتخيل تجربة فى وسعها ان تقيم الدليل على عدم وجود مشروع ، او هدف مقصود ، فى اى ناحية من نواحي الطبيعة (٥٠) ومن ناحية اخرى يقطع بعدم وجود هذا المشروع ، وبأن الحباه خضع لمجرد الصدفة وهكذا يستدرجنا نحو فلسفة مركزة على وحدة نفائية . وتعتبر المؤلفة بجدارة انه ليس من اللائق ان نستدرج هكذا ، بدون بيئة كافية ، من نفائية منهجية - كثيرا ما ينطلق منها العلماء كقاعدة فى ابحاثهم - الى نفائية كائنية *ontologique* او ما وراثية عقائدية . وأخذ على جاك مونود اشياء اخرى منها انه يستخف بغير حق بتيار دى شاردان فى حال انه يدين له باقتباسات كثيرة منها بعض المصطلحات .

ان التفكير فى تاريخ الانسان وعده انسح كما رايانا الى تفكير فى نشوء الحياة وغايتها حتى من طرف من ينكر المشروع والغاية . ذلك ان التاريخ صنفان : فهو عندما يكون غير شعورى ، تاريخ طبيعي للأجرام السماوية ، والفضاء والجماداعامة ، والنبات والحيوان . ذلك لان لكل شئ تاريخا ، اذ كل شئ يتغير ويتحول على مر الزمان ، ويرتقي الى هيكليات اكثر فاعثر تشعبا واحكاما . ان قافلة الزمان ، اى حركة التاريخ ، تسير بكل شئ فى طريق التطور ، وعندما تصبح هذه الحركة شعورية ، عندها تصبح تاريخا بالمعنى المصطلح عليه عند المؤرخين . فالتاريخ اذن هو وعي التطور والاضطلاع به ، والانسان هو الكائن الذى بفضل ينقلب التطور الشامل لكل الطبيعة تاريخا بالمعنى الاصطلاحي .

ففى هذا الاطار وضع **محمد اقبال** (١٨٧٣ - ١٩٣٨) تفكيره فى التاريخ . ففكر فيه كفيلسوف (٥١) ، وفكر فيه كصوفي فى شعره . فهو **كجلال الدين الرومي** (٦٠٤ - ١٢٠٧/٦٧٢ - ١٢٧٣) الصوفي الشاعر ، وكابن خلدون ، المفكر الاجتماعى ، يعتقد أن الحياة لا نهقر ولا تكرر

(٤٨) Marc Oraison, *Le hasard et la vie*, p. 142.

(٤٩) op. cit., p. 142-3.

(٥٠) Jacques Monod, *Le hasard et la nécessité*, O. 33.

(٥١) انظر تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ترجمة عن الانجليزية ، عباس محمود ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٥٥ - ١٢٤ .

فيها . انما هي نمو ، وانما هي رقى مطرد متصاعد ابدا من المادة الى اكمل الكائنات التي يقع عليها حسنا : الانسان . فهذا الانسان بصنع غده ، ويناجي الله هكذا :

حوار بين الله والانسان (٥٢)

الله

اني صنعت هذا الكون من ماء وطين
وصنعت ايران ، وبلاد التتر وزنجبار
من الارض صنعت حرف الفولاذ ،
وصنعت السيف والنبيل والبندقية
وصنعت الفأس لشجرة المروج
وصنعت القفص لفرد الطيور .

الانسان

صنعت الليل ، وصنعت القنديل
صنعت الطين ، وصنعت الكوب
خلقت الصحارى والادوة والجبال
وانشأت الرياض والحدائق والورود
فانا الذى اخرجت من الحجر البلور
ومن السسم الترياق



وهكذا تبدو لنا من خلال هذا القصيد الصوفي الفناي وظيفة الانسان فى الكون وظيفه سامية . فهو يضطلع عن وعى بدوره الخلاق اذ تحولت فيه حركة التطور الى حركة شعورية اى انه اصبح فى تفاعله مع حركة التاريخ او الخلق فاعلامنفعلا. وهذا الانسان ليس قمة ، انما هو رمية نحو مرمى ، نحو هيكلية اكمل ، نحو انسان الفدالدى يدعو محمد اقبال فى لهجته الصوفية الفنايية هكذا :

اقبل ، انت ، يا فارس القدر
اقبل ، يا نور ظلام عالم التحول !
فالبشرية حقل بر، وانت حصادها .
انت هدف قافلة الحياة (٥٣)

فالتاريخ اذن اماننا اكثر مما هو خلفنا .

(٥٢) هذا القصيد يوجد فى ديوان محمد اقبال فى اللغة الفارسية وعنوانه « بياص - ي - مشرق » اى « رسالة الشرق » . ترجم هذا الديوان لاول مرة باكملة الى لغة اوروبية - وهى اللغة الفرنسية - بعناية ايفا مايروفيتش Eva Meyerovitch ومحمد اشنا ، نحت عنوان Message de l'Orient, Paris 1956 وقد عربنا هذا القصيد عن الفرنسية ، وهو يوجد بالطبعة المذكورة ص ١١٠ - ١١١ .

(٥٣) نفس المصدر ص ١٥

وإذا ما اردنا الآن أن نتكهن بما سيكون عليه غد حضارة اليوم ، اى الحضارة الغربية التى تكتسح اكثر فأكثر عالم ما تحت القمر وما فوقه ،وجب أن نضع السؤال فى احداثيات ما سبق . يقول ارنولد توينبي ، الذى أقام الدليل اكثر من كل من سبق على ان كل الحضارات عرضة للزوال : « ان المستقبل مفتوح » نعم ، هو مفتوح . لكن على اى غد ؟ ان كل الحضارات السابقة ارنكت « اخطاء وحماقات » انتهت بزوالها . فالامر اذن يرجع الى قدرة حضارة اليوم على تجنب الاخطاء والحماقات . فالحضارة هى الصورة التى يستكمل فيها الانسان يوما بعد يوم انسانيته . فاذا ما « فسد الانسان فى قدرته على اخلاقه ودينه ، (و) فسدت انسانيته ، وصار مسخا على الحقيقة » حسب عبارة ابن خلدون (٥٤) ، فذلك يؤدى حتما الى زوال الحضارة المعنية ، لانحرافها عن جادة التطور المقتن « téléonomie » الذى يوجه الحياة . فما دامت اذن حضارة اليوم تسير و « وخطوط الانعلات » نحو نقطة اومقا التى يتحدث عنها تيار دى شاردار ، اى ما دامت تسير فى سبيل الانتخاب الطبيعي ، حسب لغة جاك مونود ، فان ستبقى لادائها لوظيفة الحياة . واذا ما فشلت فى ذلك فانها ستقرض كما انقرضت قبلها حضارات عديدة . لكن ان انقرضت هذه الحضارة وخلت ، كما خلت قبلها حضارات وامم ، فان الحضارة باقية ، وستجد البشرية عندها كما وجدت قديما ، فى خزانات امم اخرى لم تفسد انسانيته ، سواعد جديدة نذهب بمشعل الحياة اشواطا اخرى الى الامام حتى يبلغ التطور غايته ويتم الله نوره .

مستقبل التاريخ

بقى لنا الان ان نتساءل سؤالا اخيرا : ماذا سيكون مستقبل التاريخ ؟ لقد رأينا أنه كتب الى حد الآن باقلام مختلفة وأول تأويلات عديدة . وقيل فيه وعليه كثيرا . هل يجب اذن ان نياس - والرجال تلك العين - الوصول الى حقيقة مشتركة ، ان لم تكن مطلقة ، وان نشاطا شبتجلر فى رايه الذى يعبر عنه هكذا : « الحقائق انما هى حقائق بالنسبة لفريق من البشر فقط . فان فلسفتي الشخصية مثلا لا تعكس الا الروح الغربية فى اختلافها عن الروح الكلاسيكية ، او الهندية ، او غيرها (٥٥) .

ان هذا لصحيح . لكن اذا ما ظل الامر كذلك وجب ان نياس من مستقبل التاريخ وان نفلس ايدينا منه ، وان نوصد ابواب مدرسته التى لا نتلقى فيها الا شبه حقائق مزعومة ونسبية ، ودروسا خطيرة فى الشعوبية . واذا ما اردنا ان نترك التشاؤم - الذى لا طائل وراءه - جانبا ، وجب ان نخرج من سجن التكيف بالبيئة الذى يجعل من الحقائق « حقائق بالنسبة لفريق من البشر فقط » . ومعنى ذلك هو ان مؤرخ المستقبل يجب ان يسعى جهده وأن يضع تفكيره ، لا فى نطاق قومي شعوبي بل فى احداثيات عالمية . ان هذا ليس طبعيا بالهين لكنه اصبح تقنيا ممكنا .

ان النظمات الآلية اخذت اليوم نفوذ كامل وطاعات الحياة ، حتى مطابخ البيوتات الفردية . وسوف يزيد سرعه نطاق انتشارها في مستقبل اقرب مما قد نظنه وتكهنه . وليس من شك في ان انتشار النظمات الآلية ، ومرونتها المتزايدة ودقة التحكم فيها ، ستفتح امام التاريخ آفاقا يعبر تصورها من قبل . وستتغير طبعاً منهجية التاريخ بغيراً تاماً ، اذ لا بد لكتابتة بصفة عصرية من الاستعانة بخبرات عديدة ، لتزويد النظمات بالمعلومات اولا ، وحسن استنطاقها ثانياً . ولعل تفاوت المؤرخين حذقاً في المستقبل سيفاس بتفاوت قدرتهم على ابتكار الاسئلة الراشقة ، وعلى مهارة استنطاقهم للنظمات . . ومهما يكن من أمر فإن هذه النظمات سوف تمكننا من الشمول ، والخروج من حدود الاقليمات الضيقة ، وتعودنا ان نعتبر التاريخ ليس بتاريخ أمة دون أمة ، او حضارة دون حضارة ، وانما هو تاريخ الانسان عامة . وإذا خلقت بيننا هذه العقلية نكون قيد خطونا خطوة شاسعة نحو الموضوعية ، وابتعدنا من تلك الحقائق الجريئة او النسبية التي يتحدث عنها سينقار ، والتي كثيرا ما زيفت (٥٦) وجه التاريخ سابقا . فلعل النظمات وشبكة التنقل التي تزيد سرعة وشمولا ، والتحاكك المتزايد بين الاجناس وتلاقح الافكار وعبور الآراء ، يمكن في المستقبل من كتابة تاريخ الانسان في كامل اوضاعه واصقاعه دون تحيز وتميز وتعصب . انه لا بد ان يأتي يوم طال الزمان ام قصر - تصبح فيه قوله مونتسكيو (١٦٨٥ - ١٧٥٥) Montesquieu هذه : « اني انسان اولا وفرنسي بالصدفة » ، شعار كل مؤرخ . لعل هذا المستقبل بعيد ، ولعل دونه عقبات كأداء ، لكن النجوم على بعدها تهدي السائرين وجنبهم الضلال . ومهما يكن الامر فان التاريخ لن يتقدم الا اذا ما اصبح علما حقيقيا من علوم الانسان ، وخرج من القبلية التي ما زالت تهيمن عليه حتى اليوم ، بصفة تزيد وتقل غلوا ، وتختلف سفورا وتقتنا ، وتشرب بالوان المركبات غرورا ونقصا .

لكن هل يصبح التاريخ يوما علما حقيقيا ؟ ان من ينسك في ذلك كثيرون ومن يشكهم بول فاين Paul Veyne الذي يقطع بدون تردد « ان التاريخ لن يكون ابدا تاريخا علميا » (٥٧) . ان هذا القول الفصل - الذي ينم عن وثوق بالغ بالنفس ويظهر في لهجة كامل الكتاب ، وكثيرا ما يخرج المطالع - ناشيء في نظرنا

(٥٦) انظر ، فيما يخص تزوير التاريخ المغالات النالسة الواردة في مجلة « الاصاله » التي تصدر بالجزائر العاصمة ، في عدديها ١٤ و ١٥ سنة ١٩٧٣/١٩٧٣ : سعد الله ، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر ، ص ٧ - ٢٧ ، عبد الجيد مزبان ، النظريات التاريخية بين التفسير والتحريف ، ص ٢٧ - ٣٥ ، محمد ابراهيم البلي ، نماذج من تشويه المؤرخين الاجانب لتاريخ الجزائر ، ص ٥٧ - ٦٥ ، المهدي ابو عبدلي ، موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر عبر العصور ، ص ١٢٥ - ١٣٩ ، عبد الرحمن الجيلالي ، من بواعث الاستشراق واهداف المستشرقين ، ص ١٥٥ - ١٦١ ، الطاهر فيفة ، تاريخنا يحتاج الى اعادة نظر ، ص ١٧٣ - ١٧٧ ، اسماعيل العربي ، مساهمة المؤرخين الفرنسيين وهل تصلح اساسا لتنمية تاريخنا القومي ، ص ١٨٧ - ١٩٩ . وفي القسم الفرنسي من هذه المجلة :

Yvonne Turin, L'histoire et sa nationalité, p. 13-22, Charles Robert Ageron, Simple note en faveur de la décolonisation de l'histoire algerienne . . . p. 23-26.

Paul Veyne, comment on écrit l'histoire, éd. du senil, Paris 1971, p. 205 et. suiv.

(٥٧)

التاريخ ومشاكل اليوم والغد

عن مركب وخلق . فاما المركب فهو ذلك الذى تتألم منه كل العلوم الانسانية عامة امام العلوم المدعوه بالصحيحه والتي من الاصح ان نسميها بعلوم الطبيعة - لما حققته هذه العلوم من انجازات غيرت وجه حياتنا المادية وتحديث اعتقادنا الروحية . وهذا المركب هو الذى يجعل كثيرا ممن يشتغلون بعلوم الانسان لا يكادون يفكرون فى علومهم الا وقارنوها - بصفة شعورية او غير شعورية - بعلوم الطبيعة ومناهجها . وهذا طبعا يقضى الى الخلط ، اذ يجعل دائما العلوم الانسانية موضوعة ، بوجه من الوجوه ، على كفة ميزان هو غير ميزانها ، وهذا عين ما نلمسه فى صفحات عديدة من كتاب بول فاين ، مما يؤدى الى استطرادات كثيرة تضل عن الموضوع اكثر مما تهدى اليه .

كل يعلم منذ قرون ان التاريخ ، كغيره من علوم الانسان ، ليس بعلم ناموسي nomologique وان غايته ليست فى تجريد نواميس من نوع اذا دخلت حامضا على قاعدة اصبحت ملحا ، وانما هى الفهم . الم يقل لنا ابن خلدون انه « لا يقاس شيء من احوال العمران على الآخر (٥٨) » . وهذا معناه طبعا ان التاريخ لا يفرض بنا الى نواميس تاريخية ، ولا يقصد الى ذلك . واما النواميس التي كد فى استخلاصها بعض المؤرخين المعاصرين فانها ليست ناموسية فى شيء . وذلك لسبب بسيط ، وهو ان النواميس العلمية مقامة كلها على تكرار الظاهرة كلما توفرت شروطها . وهذا لا يتوفر الا فى عالم تكرار الظواهر ، وهو عالم الطبيعة . والتاريخ ، كما بينا ، وكل ما واكبه من نشاطات الانسان لا تكرر فيه ، اذ هو حركة خلق مستمرة . لذا فانه من المستحيل ان نتصور تجربة تاريخية من نوع تجارب الكيمياء والفيزياء التي يفام بها فى المخبر . كل هذا مفروغ منه منذ زمان ، وليس فى حاجة الى زيادة تدليل .

لكن ، ان كان التاريخ ليس من العلوم الناموسية ، فليس معنى ذلك حتما انه ليس بعلم فهو علم بهدوه ، اذ هو ككل العلوم يسعى وراء الحقيقة ، وهو علم بمنهج الذى لم يفتأ على مر العصور يتطور ويزداد احكاما . فخلافا لما يزعمه بول فاين فاننا نرى التاريخ يصير يوما بعد يوم علميا اكثر فاكثرا ، وليس هناك من مرجح كى تهدأ هذه الحركة او تكف ، بل كل شيء ينذر انها ستزداد سرعة . انا نرى التاريخ اليوم يستنجد باحدث اكتشافات الكيمياء او الفيزياء وسوف يستخدم غدا بدون شك الاجهزة والعقول الالكترونية كي يسيطر اكثر فاكثرا على الواقع . ولعله يوفق يوما فى تسجيل ذاكرة جسننا فى ناظمة آلية واحدة .

هل سيمكن ذلك المؤرخ يوما من استيعاب كل المعطيات حتى يتمكن من تاويل اثبت للواقع وفهم ادق ؟ الامر يختلف طبعا باختلاف العصور والميادين . لكن يمكن ان نقول ان الاستيعاب المطلق للمعطيات يبدو لنا فى كل الحالات عسيرا ، وفى بعضها مستحيلا غير ان هذا ليس له فى الحقيقة من الاهمية ما قد نتخيله اولا ، اذ يمكن ان نحصر الحقيقة التاريخية ونضيق عليها الخناق بوسائل شتى حتى نظفر بها بدون حاجة الى الاستيعاب . ثم اننا لسنا فى حاجة الى ان نعلم كل

شيء من شئون الماضي . ومهما يكن الامر ، فانه ليس من الضروري كي يكون العلم علماً ، ان يميظ اللثام عن كل خفية ودقيقة ، بل يكفي ان يبلغ الحقيقة في الميادين التي بلوغها فيها يكون ممكناً . وهذه الميادين كثيرة بالنسبة للتاريخ وستزيد اتساعاً وعدداً في المستقبل .

وخلاصة القول اننا من المتفائلين بمستقبل التاريخ العلمى ، وان كانت الصعوبات لا تخفى علينا ولا نأمن الخيبات ، وذلك لاننا نؤمن بالتقدم ، ذاك التقدم الذى نقرأ خطوطه الواضحة في سجل الخليفة ، ذاك السجل الذى اعاننا ، وسيعيننا اكثر فأكثر التاريخ على سبر صفحاته .
 ((افحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم اليينا لاترجعون)) (٥٩) .



حسين مؤنس *

التاريخ والمؤرخون

ماهية التاريخ ولماذا ندرسه - تطوره في الغرب في خلال العصور الحديثة -
اهم نظرياته ومراحل تطوره وبناءة علم التاريخ الحديث واهم اعمالهم .

الخلاف حول اهمية التاريخ ومكانته بين العلوم :

يحتل التاريخ بين فروع المعرفة الانسانية مكانا صديرا ، وتشغل المؤلفات فيه نسبة عالية من الكتب التي تصدر في الشرق والغرب على السواء . والى ما قبل الحرب العالمية الاولى كانت المؤلفات في التاريخ وما يتصل به من تراجم وقصص تاريخي وآثار وسياسة ومذكرات تكون خمسن الكتب العالمية . وفي ايامنا هذه ، ورغم اتساع ميادين المعارف وغلبة الاهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية والطبية والهندسية على الاهتمام بما عداها لا زالت مؤلفات التاريخ تحتل جانبا ضخما مما ينشر كل عام ، وخاصة اذا اضفنا اليها ذلك النوع الجديد من الكتب

* الدكتور حسين مؤنس استاذ التاريخ الاسلامي بجامعة الكويت مؤرخ واديب وقصاص له مؤلفات كثيرة وخاصة بالمغرب الاسلامي . آخر مؤلفاته « الاسلام والحضارة » .

الذى يؤلفه نفر من اذكى اهل الصحافة والادب عن حوادث التاريخ الجارى current history ورجاله ، ويكفي ان نشير الى العدد الضخم من المؤلفات التي صدرت خلال السنوات الاخيرة عن قضايا فلسطين وفيتنام والأمن الاوروبى والاستعمار الجديد والشيوعية والاشتراكية وتحرر العالم الثالث وما الى هذه من موضوعات التاريخ المعاصر ورجاله من امثال **لينين وستالين وماو - تسي - تونج وهو - شي - منه وونستون تشرشل وشارل دى جول وجمال عبد الناصر وايرنستو (تشيه) جيقاترا وجون كينيدي وغيرهم** ، وكل هذه كتب صحفية الطابع فى التاريخ المعاصر تنشر وتباع بعشرات الالوف بل مئاتها ، مما يدل على أن التاريخ لا زال من اكثر فروع المعرفة الانسانية قربا الى قلوب الناس .

ومع ذلك فلا زالت حقيقة « التاريخ » ومكانته بين العلوم وطبيعته وفائدته موضع شك ونقاش طويل بين المؤرخين والفلاسفة والمفكرين عامة . وقد عرض **شمس الدين السخاوى (٨٣١ - ١٤٢٧/٩٠٢)** فى كتابه المشهور « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » بعض جوانب مشكلة علم التاريخ عند المسلمين ، واعطانا صوراً من المآخذ التي كان علماء عصره يوجهونها الى أهل التاريخ وحاول الدفاع عنهم ، وهو لم يوفق لا فى العرض ولا فى الدفاع ، فقد كان اقصى ما قاله فى مدح التاريخ ان جعله احد العلوم المساعدة لعلم الحديث ، ولكنه على أى حال اعطانا فكرة واضحة عن مشكلة علم التاريخ عند العرب والاختلاف بينهم فى تقديره والحكم عليه .

وتتلخص آراء الناقدين لعلم التاريخ من المسلمين فى انه علم لا ينفع ، اذ هو يشغل الانسان باخبار الماضين واساطير الاولين عما ينفع الانسان فى اخراة من علوم الدين ، ثم انه يعرض صاحبه للكذب عن علم او غير علم ، فهو لا يدري ان كانت الاخبار التي يسوقها صحيحة ام غير صحيحة ، ورأى بعض نقاد التاريخ من المسلمين انه غيبية ، لان المؤرخ يتناول الغائبين بالذم والنقد ويكشف عن عيوبهم ، والاسلام ينهى عن الغيبة ، ثم ان بعض المؤرخين يقعون فى اعراض الناس ويسيتئون اليهم ، ولهذا تحامى الكثيرون من اهل الخلق والتصاون الكلام فى التاريخ حفاظاً على خلقهم .

ولكننا نعلم الماضين من اهل الفكر عندنا فيما وجهوه للتاريخ من نقد ، لانه لا زال بين اهل عصرنا من كبار المفكرين - والفلاسفة خاصة - من ينكرون وجود التاريخ اصلاً ، ويقولون ان التاريخ يعنى بما مضى وانقضى من الاحداث ، وما دامت قد مضت فهي غير ذات وجود حقيقي ، وهي لا تبعث الى الحياة الا فى ذهن المؤرخ . فالمؤرخون وحدهم - فى رأى هؤلاء - هم الذين يشعرون بوجود التاريخ لانه صنعتهم ومدار حياتهم ، امامن عداهم فلا وجود للتاريخ فى حسابهم ، وهم لا يحسون بالحاجة الى معرفته ، ويحلوا لكثير من اهل العلم ان يرددوا قول **هنرى فوردي « التاريخ لغو History is bunk »** .

ولكن التاريخ كما سنرى ليس لغواً ، فهو لا يقتصر على اخبار الماضين واساطير الاولين ، بل هو يدرس التجربة الانسانية او جوانب منها ، ويسمى الى فهم الانسان وطبيعة الحياة على وجه الارض ، واذا نحن اعتبرنا الحياة طريقاً يقطعها الانسان ، فلا شك فى ان معرفتنا بما قطعناه من الطريق تعيننا على قطع ما بقي منه . وسنأتي فيما بعد بفقرة طويلة وافية عن فائدة التاريخ وضرورة دراسته ومعرفته .

مثل من اختلاف الناس حول طبيعته والتاريخ ووظيفته : رأي ابن خلدون ونظرية هيجل :

ولا زال تعريف **ابن خلدون** للتاريخ في فائحة مقدمته يعتبر من ادق ما قيل في هذا العلم ، وهو تعريف اعجب به وأشار اليه نفر من كبار المؤرخين في الغرب من امثال كولنجود وتوينبي رغم انه لم يترجم الى الانجليزية ترجمة دقيقة الا على يد فرانتس روزنتال في السنوات الاخيرة . وترجمته دقيقة ولكنها خالية من الروح ، وافضل منها واكثر حيوية الترجمة الفرنسية التي صنعها فنسان مونتاي ، وسنشير اليها فيما بعد .

قال ابن خلدون بعد مدخل بلاغي : « أما بعد ، فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الامم والاقبال ، وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوق والغفال ، وتنافس فيه الملوك والاقبال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال ، اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول ، والسوابق من القرون الاول ، تنمو فيها الاقوال ، وتضرب فيها الامثال ، وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال ، وتؤدي اليها شأن الخليفة كيف تقلبت بها الاحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمرها الارض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال . وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لهذا اصيل في الحكمة عريق » .

وهذه عبارة تدل على فهم ذكي لطبيعة التاريخ ووظيفته فهو « في باطنه نظر وتحقيق » اى تفكير في طبائع البشر وتكوين مجتمعاتهم ، وبحث عن اسباب الحوادث وتحليل لنتائجها ، فهو على هذا - كما يقول ابن خلدون - « اصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها خليق » والحكمة في المفهوم العربي هي اعلا مراتب العلم ، وقد قرنها الله سبحانه وتعالى بالكتب السماوية في القرآن الكريم ثماني مرات ، وعبارة « الكتاب » والحكمة عبارة قرآنية لا تزال تتردد في الاسماع والقلوب .

ولكن يستوقف النظر ان ابن خلدون ينظم التاريخ في سلك الفنون لا العلوم ، والفن بمعنى « الضرب من الشيء » كما جاء في « لسان العرب » اقل منزلة واهمية من العلم الذى هو معرفة اكيدة . نعم ان ابن خلدون عاد فعقد فصلا عن فائدة التاريخ سمّاه « في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من اسبابها » ولكنه يبدأ هذا الفصل ذاته بقوله : « أعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب » فكأنه غير مقتنع تماما بأن التاريخ علم مستكمل لاشراط العلوم .

وهذا الفصل الذى نشر اليه يدور حول وظيفة التاريخ او فوائده ، وهو يعطينا فكرة عن رأى ابن خلدون في قيمة التاريخ وفضائله في نظر ذلك المفكر الكبير ، قال : « أعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم ، والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في احوال الدين والدنيا ، فهو محتاج الى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق ، وينكبان به عن المزال والمغالط » .

وخلاصة هذا الكلام هي ان التاريخ ينفع في العظة والعبرة ، فنحن ندرس تواريخ الدول والملوك لتعلم ، وندرس سير الانبياء لتأسى بهم ، وندرس تجارب الامم ونرى ما وقعت فيه من الاخطاء لننحو بانفسنا عن المزال ومواطن الضرر ، وهذه في رأينا هي اعظم فوائد التاريخ في نظر دارسيه من العرب . ولهذا نجد ابن خلدون يسمى تاريخه الكبير « كتاب العبر » .

ولا ندرى كيف غاب عن ابن خلدون ان احدًا لا يعتبر بما يقرأ من التاريخ . ولقد كان الملوك في الماضي من اكثر الناس مطالعة للتاريخ . ومع ذلك فما اتعظ احد منهم بما قرأ ، فنجدهم جميعا يقعون في نفس المغالط التي يقرأون عنها في الكتب ، وهم يرون انها أدت بالملوك السابقين الى التلغف ومع ذلك يسيرون في نفس الطريق ، وكل الظلمة في تاريخنا كانوا من المشغوفين بالتاريخ فأين فائدتهم من ذلك ، والسخاوى نفسه يحدننا عن شقف نفر من سلاطين الممالك وامرائهم بالتاريخ ومع ذلك فقد كان اولئك الممالك من اجهل الناس بالسياسة والحكم واقلمهم معرفة بتجارب الامم واكثرهم اسرافا في العدوان على اموال الناس وابشارهم ، فأين استفادتهم مما قرأوه ؟

والحق ان الكثيرين يقرأون التاريخ ليتعلموا منه وليوعظوا به ولكنهم لا يتعلمون ولا يوعظون ، لأن الانسان قد يمجب بما يقرأ ويجد فيه متعة ولكنه لا يتعظ به ، لأن الموعظة لا دخل لها في التجارب الانسانية . فمهما حذرت ابنك من الاندفاع وراء النساء فان تحذيرك لن ينفعه ، لأنه لا بد ان يجرب بنفسه .

واسأل نفسك : اننا معاصر العرب من اكثر الامم تأليفا في التاريخ وقراءة له حتى ان مناكيننا لننوء لنقل ما نحمل من اعباء التاريخ فقيم نفعا ذلك ؟ وها نحن منذ الدهر الابد نقع في نفس الاغلاط ببلاهة تدعو الى العجب .

ثم اننا نرى في كلام ابن خلدون عن فائدة التاريخ ابهاما لا نرتضيه ، فما المراد مثلا بقوله ان التاريخ « عزيز المذهب شريف الغاية » ؟ لقد اختلط امر معنى « عزيز » و « شريف » على **فئسان مونتاني** مترجم المقدمة الى الفرنسية في سلسلة الروائع الانسانية التي تنشرها منظمة اليونسكو ، وترجمهما بلفظ واحد هو noble وهو لفظ فرنسي مبهم المعنى ايضا ، مثله في ذلك مثل مقابلة في العربية : « نبيل » .

ونحن لا نلوم ابن خلدون في لجوئه الى هذا التعريف غير الدقيق لطبيعة التاريخ ووظيفته ، فبعد وفاة ابن خلدون باربعة قرون وربع القرن (توفي في ١٧ مارس ١٤٠٦) القى **جيورج فلهلم فريدرش هيجل** محاضراته المشهورة في فلسفة التاريخ في شتاء سنتي ١٨٣٠ - ١٨٣١ وقال فيها ان تاريخ البشر كله يمكن ان يوصف بأنه عملية طويلة استطاعت البشرية خلالها ان تحرز تقدما روحيا واخلاقيا ، وهذا التقدم هو ما استطاع العقل البشرى ان يحرزه في طريق معرفته لنفسه ، وقال ان التاريخ يسير وفقا لخطة Plan ومهمة الفيلسوف هي معرفة هذه الخطة . ولقد عجز الكثيرون من المؤرخين المبرزين عن الكشف عن أى خطة واكتفوا برواية الاحداث ، ووجد آخرون مفتاح التاريخ في قوانين مختلفة ذهبوا الى ان الطبيعة تعمل بموجبها . اما تفكير هيجل فيقوم على الايمان بأن التاريخ هو تحقق الغاية التي ارادها الله من وراء الخلق ، وان الانسان وصل في بداية القرن التاسع عشر الى درجة من التقدم تمكنه من الكشف عن هذه الغاية وهي تحقيق حرية البشر تحقيقا تدريجيا . والحرية التي يعيها هيجل هي تحرر الانسان من عقال الجهل والخوف والظلم .

وفي رأى هيجل ان الخطوة الاولى في هذا الطريق كانت الانتقال من حالة التوحش الطبيعية الى مستوى النظام والقانون . خلال هذه المرحلة كان لا بد من انشاء الدول ، وكان على اولئك الذين انشأوا هذه الدول ان يستعملوا القوة والعنف ، ولا سبيل غير القوة والعنف لالزام الناس بطاعة القانون قبل ان يصلوا الى درجة كافية من التقدم العقلي تجعلهم يلزمون النظام

والقانون من تلقاء انفسهم . وهذه العملية لا يمكن ان تتم بالنسبة لكل البشر في نفس الوقت ، فهناك مرحلة يصل فيها بعض البشر الى هذا الادراك لقيمة القانون واحترامه فيصلوا بذلك الى الحرية في حين لا يستطيع بعضهم ادراكها فيظلوا عبيدا ، وذهب هيغل الى ان الانسانية وصلت الى مستوى من الفهم يجعلها توقن بأن البشر جميعا احرار نظريا وان واجبنا ان ننشئ النظم التي تجعل هذه الحرية حقيقة .

وفد وقعنا عند هيغل هذه الوقفة القصيرة في كلامنا عن ماهية التاريخ لكي نضرب للغاريء مثلا من الاختلاف الواسع المدى الذي يمكن ان يقع بين فلاسفة التاريخ حول طبيعة التاريخ ووظيفته ، فان ابن خلدون كما نعلم وضع نظرية دورة العمران ، وقال ان مسار التاريخ دائرة مغلقة سيئة ، لا يزال الانسان يدور فيها حتى يطوى الله الارض وما عليها . اما هيغل فيرى ان هذا المسار نمط مستقيم يبدأ عند البداوة والتوحش ولا بد ان ينتهي يوما ما الى تحرر البشر جميعا وعيشهم في سلام في ظل القانون .

وقد نبعت فلسفة كل من ابن خلدون وهيغل من تجربته الخاصة والطريق الذي سارت فيه تجربة الامة التي انتسب لها ، فقد عاش ابن خلدون في عصر شقي مضطرب ، وتلفت الى ورائه فرأى ان تاريخ أمة العروبة يتلخص في سلسلة من التجارب الحزينة الفاشلة ، فسأه ظنه بالدنيا والناس ، وصور تاريخ البشر في هذه الصورة اليائسة ، اما هيغل فقد كتب في عصر وصل الغرب الاوربي فيه الى استقرار نسبي ورخاء وغمى وسيادة ، فامتألت نفسه بالتفاؤل وقال ان الانسانية تسير من حسن الى احسن ، وانها ستصل في يوم ما الى هدفها الاسمي الذي ذكرناه .

وقد كان هيغل يحسب انه قال آخر كلمة في فهم التاريخ وانه وضع يده على الخطأ او الخط الذي رسمه الله سبحانه لمسيرة البشر على وجه الارض ، ونسب اليه نفر من خصومه عبارة ساذجة تنطوى على غرور كثير وهي قوله : « عندى ينتهي التاريخ » والحق ان الرجل لم يقل شيئا من ذلك كما اثبتته تلميذه ومجدد فلسفته **فلهام دلتاي** Wilhelm Dilthey وانما زعمه خصومه من الماركسيين ، ومن المعروف ان كارل ماركس واتباعه اجتهدوا في هدم آراء هيغل ، وقد ابفضوه لايمانته الشديد بالمسيحية ولما صرته للدول والنظم الرأسمالية التي سادت الغرب في ايامه .

ما هو التاريخ

بعد هذه المقابلة في الراى في علم التاريخ بين اثنين من اكابر فلاسفة التاريخ ، وهي مقابلة اردنا من ورائها ان نستلقت النظر الى صعوبة ادراك حقيقة التاريخ وفائدته نعود فنسأل : ما هو التاريخ ؟

والجواب : هو دراسة الحوادث او هو الحوادث نفسها .

والحوادث جمع حادث ، والحادث هو - من وجهة نظر المؤرخ - كل ما يطرأ من تغير على حياة البشر ، وكل ما يطرأ من تغير على الارض او في الكون متصلا بحياة البشر .

والحادث قد يكون مفاجئا كوقوع زلزال يهدم المدن وقد يكون عنيفا مثل قيام حرب وقد يكون بطيئا غير محسوس كعمليات التطور البطيئة التي لا يفتن الانسان الى حدودها الا على المدى الطويل . ومثال ذلك تطور المرأة العربية وخروجها من عزلة البيت الى الحياة العامة ومساهمتها في كل ميادين

النشاط الاجتماعي والثقافي والسياسي ايضا ، فهذه عملية طويلة بدأت من اواخر القرن الماضي ولا زالت مستمرة الى اليوم . وهي في مجموعها أحداث تاريخي خطير بعيد المدى . وقد يقع الحادث دون ان يفتن اليه احد ثم تتجلى خطورته فيما بعد مثل ميلاد طفل يصبح في يوم من الايام قائدا كبيرا او مفكرا عظيما او سياسيا ماهرا ، اى يصبح من صناع التاريخ .

وسواء اكانت الحوادث صغيرة او كبيرة ، محسوسة او غير محسوسة ، قصيرة الامد او طويلة ، فان الجامع بينها هو ان الحال قبلها يختلف عنه بعد وقوعها ، فالعالم قبل نابليون يختلف عن العالم بعده ، والدنيا قبل الحرب العالمية الثانية تختلف عنها بعدها ، والمفكر الانساني قبل جورج برنارد شو يختلف عنه بعده ، وهكذا ، فالعبرة في الحوادث التي هي مادة التاريخ هي ان تعني تغيرا في الاحوال . سواء اكان هذا التغير كبيرا او صغيرا ، محليا او عالميا ، وحوادث التاريخ اذن هي تغيرات . والحادثة الآن هو التغير . واذا نحن اردنا ان نتيبن اهمية حادث ما فنحن نقارن الاحوال قبله وبعده . وعلى هذا الاساس فنحن نعتبر ظهور من نسميهم بعظماء الرجال او صناع التاريخ حوادث . فيوليوس قيصر حادث ، وخالد بن الوليد حادث ، والشيخ محمد عبده حادث ، وهكذا ، وواضح اننا اذا اعتبرنا كلا من أولئك الرجال حادثا فنحن نأخذه في مجموعه وننظر الى حجم التغير الذي أحدثه في مسيرة البشر .

ولكننا اذا فكرنا مليا وجدنا ان التغير في حقيقة الامر مستمر وهو لا يتوقف على ظهور اشخاص باعيانهم ، ولا ينتج عن تجمع ظروف تؤدي الى قيام دول او نشوء حروب او وقوع تطورات وما الى ذلك ، بل ان التغير في احوال الارض والناس مستمر منذ ان انشا الله الخلق الى ان يطويه ، واذا نحن اخذنا حقبة من الزمن من تاريخ امة لاحظنا ان مجرد مرور الزمن يحدث تغيرا الى الاحسن او الى الاسوأ ، ولكنه تغير على اى حال . وهذا التغير يحدث نتيجة لسير الزمن نفسه . فما دامت الشمس سائرة في فلكها ، والارض في مدارها فلا وقوف للتغير . ونحن نحس في انفسنا ذلك ، فنحن نتغير مع مرور الليالي والايام وننتقل من الطفولة الى الشيخوخة دون ان تكون لنا يد في ذلك . ولقد قالت سيمون دي بوفوار تلميذة جان بول سارتر : ان اقوى عامل في حياتنا هو ذلك الشيء الذي لا يحس ولا يرى ولا يدرك له وزن : الزمن . انني احس الآن بوطائه على كتفي » والحق ان الزمن نفسه هو الحادث الاكبر ، واذا استطينا ان نتصور ان الزمن يمكن ان يتوقف لرأينا ان الحوادث هي الاخرى يمكن ان تتوقف . والحق ان الشاعر الذي قال :

الليالي من الزمان حبالى مثقلات يَلِدْنَ كل عجيب

لم يفتن الى عمق الحقيقة التي توصل اليها في هذا البيت .

فاذا كان التاريخ في حقيقته هو الحوادث ، وكانت الحوادث هي التغيرات ، والتغيرات وليدة الزمان او سير الزمان انتهينا الى ان التاريخ هو الزمان . ويكون ميدان اهتمام المؤرخ على هذا هو دراسة كل تغير طرأ على الكون والارض وكان له تأثير على حياة البشر . ثم دراسة كل تفسير طرأ على حياة البشر انفسهم ، مهما كان هذا التغير صغيرا او غير ظاهر الاهمية . فالحقيقة انه لا توجد حوادث صغيرة واخرى كبيرة ، لان الحوادث الكبيرة انما هي تجمع حوادث صغيرة بعضها الى بعض في نطاق مكاني وزماني ضيق . وكما ان السيل الجارف ينشأ من تجمع ذرات صغيرة من البخار فان وقوع حرب عالمية مدمرة يكون في الغالب نتيجة تجمع قوى بشرية وتراكمها في دولة

من الدول او اكثر . فيؤدي هذا التجمع الى الاحسكالك نم الانفجار ، وكذلك الحال بالنسبة لمن نسميهم عظماء الرجال ، فهم في ذاتهم لا قيمة لهم الا بالرجال الذين ساروا وراءهم وايدوهم ، وما فيهم نابليون بدون جنوده وما قيمة المتنبي بدون قرائه ؟

لقد سبهوا سير التاريخ بسير الماء في مجرى طويل يتسع حيناً ويضيق حيناً ويستقيم حيناً ويتعرج حيناً وينبسط مرة ثم ينحدر في صورة سلاسل مرة أخرى، وقد تعترضه الجنادل والصخور ، والماء - الذي هو التاريخ - يسير بحسب حالة المجرى ، فاذا اتسع المجرى انساح الماء وبطأت حركته، واذا استقام انساب الماء رقيقاً حتى لا تحس بانسيابه ، واذا نرج بلوى معه الماء وتراخى سيره او اندفع بحسب المنعرجات ، ونفس هذا الماء الهادئ يتحول الى شلال رهيب فينصب انصباباً يحطم اقصى الصخور اذا انحدر المجرى انحداراً عنيفاً ، واذا احسن التحكم فيه اطلق قوى كهربائية ضخمة من عقالها ، وهذا هو سير التاريخ او سير الزمان بعصور هدوئه وعصور فورانه ، ومصدر القوة والخير والري والكهرباء هو ذلك الماء الهادئ الصامت الذي تحفن منه في كفيك وتنظر فلا نرى شيئاً ، وهذا هو الزمان الذي شكت منه سيمون دي بوافوار ونعجبت من انه صنع بها ما صنع ومع ذلك فهو لا يرى ولا يحس ولا يدرك له وزن . واذا كان نهر الماء يتكون من سيئين : الماء والمجرى فان نهر التاريخ يتكون من عنصرين : البشر والزمان ، ويضاف اليهما عنصر ثالث وهو المكان .

وفي بداية التاريخ اى في عصور توحش الانسان الأولى ، كان الانسان يعيش تحت رحمة الرمان والمكان . فلما نما ذهنه واتسعت نجاربه بدأ يتأمل ما حوله واخذ يحاول التحكم في الزمان والمكان ، ولكي يحمي نفسه من عبث الزمان وتحكم المكان تعلم كيف يتخذ اسلحة واكسية ، وسكن المغارات ثم تعلم كيف يبني الكوخ . وعندما اهتدى الى فضل النار وعرف كيف يوقدها خطا خطوة فسيحة الى الامام ، ثم تعلم كيف يدخر غذاءه ثم كيف ينتجه عن طريق الزراعة وهكذا مضى في طريق التحكم في ظروفه الزمانية والمكانية عن طريق التفكير والتجربة ، وعندما فطن الى فكرة الكتابة دخل عصور التاريخ ، لأن الكتابة مكنت له من ان يختزن معلوماته وثمرات تجاربه عن طريق التدوين لينتفع بها فيما بعد .

وهذا الطريق الذي سار فيه الانسان منذ عصور البداوة والتوحش الى عصور الكتابة وما تلا ذلك من عصور هو الذي يسمى بالتاريخ السياسي والحضارى . فاما السياسي فهو جانب الصراع الذي خاضه ويخوضه الانسان لتأمين نفسه ومجتمعه من العدوان الخارجي ثم تنظيم هذا المجتمع على نحو يوفر له اكبر جانب من الأمان والرخاء ، واما الحضارى فهو صراعه للارتقاء بنفسه وبمستواه المعاشي من الناحيتين المادية والمعنوية . ومن الواضح ان الجانبين السياسي والحضارى متلازمان ولا يمكن دراسة واحد منهما دون دراسة الآخر ، ولا يمكن الفصل بين التاريخ السياسي والحضارى ، وانما يمكن الاهتمام في بعض المؤلفات بجانب السياسة اكثر من الاهتمام بجانب الحضارة او العكس .

ولماذا ندرس التاريخ ؟

وهذا الكلام يوهم بأن ميدان التاريخ هو الماضي وحده او حكاية ما انقضى وفات وطواه الزمان في سيرة الأبد من الأحداث ، وليس هذا بصحيح ، لأننا اذا قلنا ان التاريخ هو نهر الحياة فان هذا النهر متصل السير قبلنا وفي زماننا وبعده زماننا ، واذا كنا عندما نكتب التاريخ فمعنى ذلك اننا نسجل التجربة الانسانية . وهذه التجربة لا زالت سائرة متصلة الحلقات ، والتاريخ على هذا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل معاً، ونحن عندما ندرس الماضي فاننا في نفس الوقت ندرس

الحاضر والمستقبل ، لأننا اذا دققنا النظر تبيننا الا شيء في الوجود ينلاشى ويضيع مع الزمن ، وفي علم الطبيعة يقولون ان المادة لا تفنى ، اما في علم التاريخ فنحن نقول الا شيء يزول زوالا تاما . وانما هي الاشياء نفسها تأخذ مع الايام صورا شتى ، فلو انك نظرت الى صورة نفسك وانت طفل رضيع وقارنتها بصورتك في يومك لهالك الفرق ولحسبت انكما انسانان مختلفان ، والحقيقة ان هذا الطفل هو انت في صورة اخرى والفرق الذى نراه هو فعل الزمان ، ومن هنا فان الذين ينظرون الى كتاب في تاريخ مصر القديمة مثلا ويحسبون انه تاريخ مضى وانقضى يخطئون ، لأن شعب مصر القديمة لا زال حيا في كيان شعب مصر الراهن ، وحضارتها لا زالت قائمة في الكثير من مظاهر حضارتنا الراهنة ، ونحن العرب أولى من غيرنا بالاحساس بحيوية الماضي ، فان اسماء عمر بن الخطاب ، وعلي بن ابي طالب ، وهارون الرشيد ، وابي بجر عمرو بن عثمان الجاحظ ، اسماء معاصرة تتردد في اذهاننا وكلامنا كل يوم ، لأننا نعيش تاريخنا الماضي فعلا . بل ان بعضنا يذهب به الحماس الى درجة انه يؤمن بأنه من الممكن ان نعود الى هذا الماضي فنعيشه كما كان . حقا لقد دخلت الانسانيه كلها طورا من التقدم جديدا من كل ناحية من اوائل القرن التاسع عشر ، وظهرت نتيجة لذلك صور للمجتمع البشرى تختلف كل الاختلاف عن صوره الماضية ، ولكن ليس معنى ذلك ان الماضي قبل ذلك اختفى بحدافيه ، بل لا زال حيا في كل ناحية من نواحي حياتنا الراهنة ، واذا كنا نحن احفاد من عاشوا قبل القرن التاسع عشر نحمل في كياننا الكثير من خصائصهم المميزة ، بل لا زلنا نتكلم لفنهم ونؤمن بنفس العقائد التي آمنوا بها ، فان كل معالم حياتنا هي ايضا حفيدة معالم حضارتهم ، وان اختلفت المظاهر لأن الماضي لا يموت ، او قل انه ليس هناك شيء ماضٍ تماما .

نم اين هو الفاصل بين الماضي والحاضر والمستقبل ؟ انك لا تكاد تفكر في لحظة « حاضرة » حتى تجد انها قد اصبحت ماضيا في طرفة عين ، وهذه السطور التي تقرأها الآن ماضية بالنسبة لي ، لأنني كتبتها من زمن ، ولكنها « حاضرة » بالنسبة لك لأنك تقرأها اول مرة وهي « مستقبل » لمن سيقراها في قابل الايام ، والمسألة هنا مسألة نسبية تختلف من انسان لانسان ، بل يختلف الحكم عليها بحسب اختلاف حالة الانسان نفسه من زمان لزمان ، وقد قالت بهذا مدرسة كاملة من مدارس المؤرخين المعاصرين وهي مدرسة النسبيين . وسنقف عندها فيما بعد وقفة طويلة بعض الشيء .

وعلى هذا فالمؤرخ ليس ذلك الرجل العنيق الطويل اللحية الفارق في غبار الماضي ولا هو ذلك الشيخ الذى حنت ظهره السنون التي قضاها زاحفا بين الاسفار العتيقة والاضابير المتراكمة في كهوف المكتبات ، وانما هو على العكس من ذلك تماما ، انه دارس حياة البشر كلها قديمها وحديثها ومستقبلها ، وهو يدرس الماضي ونظره متجه الى المستقبل ، بينما تقف اقدامه نابتة على ارض الحاضر ، وهو يعتبر تاريخ الانسانية كلها تجربة واحدة بدأها آدم وسار فيها اولاده ، وهو يرقبها ويحللها ويستخرج حقائقها لعله يخرج بشيء من الحكمة ينفع الانسانية في تجاربها الكثيرة . واذن فالمؤرخ ليس مسجل احداث الماضي فحسب ، بل هو رفيق الانسانية في حاضرها وهو من قادة الانسانية في سيرها الطويل نحو الغد .

ومع هذا الجهد الذى يبذله المؤرخ لينير لآخوانه البشر الطريق - مثله في ذلك مثل غيره من اهل العلوم النافعة - فقد تعرض المؤرخون دائما للنقد بل للسخرية . وفي ايماننا هذه يلاحظ

بصورة عامه انصراف الكثيرين من اذكباء التسلسل عن دراسة التاريخ على اعتبار انها دراسة عقيمة لا ينحقق من ورائها نفع واضح، الا اذا كان الغرض من دراسته الاشتغال فيما بعد بتدريسه في المدارس او التخصص فيه في الجامعات . ومن هنا فانه يلاحظ تضخم اقسام التاريخ في جامعات البلاد الفقيرة لأن ذلك طريق سهل نوعا للحصول على درجة جامعيه يفتح امام صاحبها ابواب التدريس ، وهو عمل مطلوب دائم ومأمون رغم قلة مكاسبه . اما في البلاد الميسورة الحال او الفنية فان الطلاب ذوي الحس التاريخي يتجهون الى دراسة علوم منصلة به ، ولكنها تفتح سبلا اوسع للصعود الاجتماعي كالعلوم السياسية والاجتماع .

ونحن الذين ندرس التاريخ نجد انفسنا في احيان كثيرة مضطرين الى الدفاع عن العلم الذي نخصصنا فيه وتبرير اشتغالنا به ، لأن الكثيرين من الناس لا يزالون مثل **دوق كامبرلاند** الذي مر بالمؤرخ المشهور **ادوارد جيون** وهو غارق في العمل في كتابه عن اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها فقال له ساخرا : ما اراك الا منصرفا ما تزال الى الحرفة القديمة : تنبش تم تنبش تم تنبش « (١) .

وقد تصدى **شمس الدين السخاوي** (٨٣١ - ١٤٢٧/٩٠٢ - ١٤٩٧) للرد على خصوم التاريخ في كتابه المعروف « التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ولكنه هو نفسه لم يعرف كيف ينصفهم ، لأن السخاوي لم يكن مؤرخا او صاحب ملكة تعينه على ادراك حقيقة التاريخ ، انما كان السخاوي حافظا اثقل راسه بحفظ عشرات المجلدات ، فغلبت على ذهنه الملكة الواعية على الملكة المفكرة ، وتلك ظاهرة نلاحظها عند الكثيرين من الحفاظ الذين حولوا اذهانهم الى مكاتب متنقلة وتعطلت عندهم ملكة التفكير والتأمل ، ومن هنا فان مفهومه للتاريخ ضيق جدا بل يخلو تماما من الحس الانساني والحضاري ، فالتاريخ عنده « في الاصطلاح التعريف بالوقت الذي تضبط به الاحوال من مولد الرواة والائمة ووفاة صحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتدقيق وتجريح ، وما اشبه هذا مما مرجعه الفحص عن احوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ، يلتحق به ما يتفق في الحوادث والوقائع الجليلة ، من ظهور ملية ، وتحديد فرض ، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة . وربما يتوسّع فيه لبناء الخلق وقصص الانبياء ، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية ، واحوال القيامة ومقدماتها كما سيأتي ، او دونها كبناء جامع او مدرسة او قنطرة او رصيف او نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد ، او خفي سماوي كجراد وكسوف وخسوف ، او ارضي كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان وغيرها من الايات العظام والعجائب الجسم . والحاصل انه فن يُبحث فيه عن وقائع الزمان من حينئذ التعيين والتوقيت . بل عما كان في العالم » .

وهذا في رأينا اضعف ما يمكن ان يقال في التعريف بالتاريخ ، فهو سقيم سطحي من كل ناحية ، بل ان اسلوبه رديء غير متماسك .

وفي كلام السخاوي عن « فائدة التاريخ » نجده يحدد افق هذا العلم الى درجة انه يجعله علما فرعيا مساعدا لعلم الحديث وجعل مزيته الكبرى تحقيق سنوات ميلاد الرواة ووفاتهم حتى

نتأكد من امكانية لقاء بعضهم ببعض ورواية بعضهم عن بعض . ومدار كلامه في هذا الشأن قول سفيان الثوري : لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ .

ثم ذكر السخاوي بعد ذلك فوائد شتى تدل على انه هو نفسه كان بعيدا عن ادراك حقيقة التاريخ والامام بفضائله . فهو يرى فيه اولامقياسا للتحقق من صحة رواية الناس للاحداث بعضهم عن بعض . ثم يرى فيه ثانيا موضعا للعبرة : « وكذا ما يذكر فيه من اخبار الملوك وسياساتهم ، واسباب مبادئ الدول واقبالها ، ثم سبب انقراضها ، وتدمير اصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الاحوال التي يتكرر مثلها واشباهها في العالم ، غزير النفع كثير الفائدة ، بحيث يكون مَنْ عَرَفَهُ كمن عاش الدهر كله ، وجرب الامور باسرها ، وباشر تلك الاحوال بنفسه ، فيغزر عقله ويصير مجربا غير غرولا غمر ، كما سيأتي في نظم بعضهم وانه ايضا جم الفوائد كثير النفع لدوى الهمم العالية والقرائح الصافية ، لما جبلت عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الاخبار الى التشبّه والافتداء باربابها . ليصير لهم نصيب من حسن التناء وطيب الذكر الذي حرص عليه خلاصة البشر ، واخبر الله تعالى عن امام الحنفاء الخليل عليه الصلاة والسلام انه قال : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين (الشعراء ٨٤) وامتن على غير واحد من رسله عليهم الصلاة والسلام بقوله « وتركنا عليه في الآخرين » (الصافات ٧٨) وعلى خيرته من خلقه عليه افضل الصلاة والسلام بقوله : « ورفعنا لك ذكرك » (الشرح ٤) و « انه لذكر لك ولقومك » (الزخرف ٤٤) .

ولكننا نحمد للسخاوي انه جمع في « الاعلان والتوبيخ » طائفة من احسن ما قال العرب في التاريخ . وكلامهم في مجموعه لا يخرج عما ذكرناه من فضائل التاريخ عند كتاب المسلمين وهي انه يساعد على تحقيق تواريخ ميلاد الرواة ووفاتهم ، فيعين هذا على التثبت من صحة رواية الحديث او عدم صحتهم ، ويقدم لنا مادة نافعة في تفسير القرآن الكريم ، ثم هو الى جانب ذلك حافل بالعبر والمواعظ ، اى ان للتاريخ في الجملة فائدتين رئيسيتين : الاولى دينية والاخرى تعليمية . وهناك على اى حال اجماع بين قدامى المؤرخين ومحدثيهم عن القيمة التعليمية للتاريخ .

ذم التاريخ وأهله

ونحمد للسخاوي ايضا انه اتانا باطراف مما قال خصوم دراسة التاريخ من كتاب المسلمين ، وقد اشرنا الى ما ذهب اليه بعض اهل الغرب من عقم الدراسة التاريخية وقلة جدواها ، ونضيف هنا ان سجل تاريخنا الفكرى لم يخل ممن راوا في دراسة التاريخ هذا الراى وقالوا فيها (ان غاية فائدتها انما هو القصص والاخبار ، ونهاية معرفتها الاحاديث والاسمار . ومنهم من نسب بعضهم الى القصور ، حيث لم يتعرض للجرح وضده ، مع كونه اعظم فوائده ، ولا على اخبار الائمة والزهاد والعلماء الذين بذروهم تنزل الرحمة ، ولا على شرح مذاهب الناس مع عموم الحاجة اليه ، بل اقتصر على الحروب والفتوحات ونحوها ، مع ان مَنْ اتصف يعلم انه ليس من العلم فتح البلد الفلاني في سنة كذا ، ولا ان عددا للجيش كان كذا) .

« ومنهم من نسب المتعرض منهم للتجريح في الازمان المتأخرة الى ارتكاب المحرم لانه غيبة ، وان الاخبار المرخص له من اجلها قد دونت وما بقي له فائدة ، وممن صرح بهذا ابو عمرو بن الرباط ، وقال ان فائدته انقطعت من رأس الاربعمائة ، ودندن هو وغيره ممن لم يتدبر مقاله بعيب المحدثين بذلك ، وصرح بعضهم بأن ما يقع في كلام جماعة من المتأخرين القائمين بالتاريخ وما

اشبهه كالذهبي ثم شيخنا من ذكر المعائب - ولو كان المعاب من اهل الرواية - غيبة محضة . ونحوه تعقب **التقي ابن دقيق العيد بن السمعاني** (٢) في ذكره بعض الشعراء وقدح فيه بقوله : اذا لم يضطر الى القدح فيه للرواية لم يجز .

« ومنهم من نسب بعضهم (اى بعض المؤرخين) الى التقصير والتعصب . حيث لم يستوعب القول فيمن هو منحرف عنهم ، بل يحذف كثيرا من ثناء الناس عليهم ، ويستوفي الكلام فيمن عداهم غير مقتصر عليهم » .

« ومنهم من الحامل له على الذم مجرد الجهل ، فاما الاول ، فلا شك في تحريم الاقتصار عليه حسبما قررناه ، واما الثاني فقد رواه ابن الاثير بما حاصله انه ظن من اقتصر على القشر دون اللب ، واختصر فلم ينظر ما فيها من الجواهر لما عنده من التعصب . ومن رزقه الله تعالى طبعاً سليماً وهذاه صراطاً مستقيماً علم ان فوائده كثيرة ومنافعه الدنيوية والاخرية - يعني كما قدمنا - جمة غزيرة » .

« واما الثالث فليس الاقتصار على ما ذكرنا نقص ، فالمؤرخون مقاصدهم مختلفة ، فمنهم من اقتصر على ذكر الابتداء ، او على الملوك والخلفاء ، واهل الاثر يؤثرون ذكر العلماء والزهاد ويحيون احاديث الصالحاء ، وارباب الادب يميلون الى اهل العربية والشعراء » .

« ومعلوم ان الكل مطلوب والجميع محبوب وفيه مرغوب ، وكل من التزم شيئاً فالغالب عدم خروجه عن موضوعه وان لم يمكنه الاستيفاء لمجموعه ، والسعيد من جمعه في ديوان وأودعه من غير كبير خلل ولا نقصان والكمال لله » .

« واما الرابع فقد اجبناهم بأن الملحوظ في تسويغ ذلك كونه نصيحة ولا انحصار لها في الرواية (٣) . فقد ذكروا من الاماكن التي يجوز فيها ذكر المرء بما يكره ولا يعد ذلك غيبة ، بل هو نصيحة واجبة ان تكون للمذكور ولاية لا يقوم بها على وجهها ، اما بأن لا يكون صالحاً لها ، واما بأن يكون فاسقاً او مغفلاً او نحو ذلك ، فيذكر ليزال بغيره ممن يصلح ، او يكون مبتدعاً من المتصوفة وغيرهم ، او فاسقاً ويرى (٤) من يتردد اليه للعلم او للارشاد ويخاف عليه عود الضرر من قبيله ، فيعلمه ببيان حاله . ويلتحق بذلك المتساهل في الفتوى او التصنيف او الاحكام او الشهادات او النقل او الوعظ حيث يذكر الاكاذيب وما (لا) أصل له على رؤوس العوام ، او المتساهل

(٢) في الاصل الذى نشره د . الصالح العلي ورد لفظ ابن بدون الف مما يفهم منه ان تقي الدين بن دقيق العيد انكر على ابن السمعاني وهو غير صحيح . والصحيح كما اعتقد ان تقي الدين بن دقيق العيد انكر على ابن السمعاني قدحه لبعض الشعراء ويرى ان هذا القدح لا يجوز ، لان القدح لا يجوز الا اذا كان نقداً لرواية من رواة الحديث غير الوثوق فيهم .

(٣) يريد ان يقول انه بين ان المهم في اباحة نقد الناس وتجريحهم ان يكون ذلك على سبيل النصيحة والتحذير والتنبيه ، لا ان يكون مجرد ذم وتجريح ، ومواطن النصيحة فيما يتعلق برواية الاحاديث كثيرة لا تحصر .

(٤) الفاعل هنا هو المؤرخ .

※ ساقطة من الاصل والسياق لا يستقيم بدونها .

في ذكر العلماء او في الرثى او الارتساء ، اما بتعاطيه له او باقراره عليه مع قدرته على منعه ، او اكل اموال الناس بالحيلة والافتراء ، او الفاصب لكتب العلم من اربابها او من المساجد بحيث تصير ملكا ، فضلا عن الاوقاف التي لاحقية للمسوغ فيها ، او غير ذلك من المحرمات . فكل ذلك جائز او واجب ذكره ليحذر ضرره . وبهذا ظهر أن الجرح لم ينقطع ، وانه والحالة هذه من النصيحة الواجبة المناب فاعلمها ، وقد قال من لم يشك في ورعه **الامام احمد لأبي تراب النخشي** حين عزله علي (٥) الجرح بقوله « لا تفتب الناس وبحك » : هذه نصيحة وليست غيبة « (٦) » .

ولا ينبغي ان تطول دهشتنا من طول وقوف السخاوى عند موضوع الغيبة ، لأن نقد رجال الحديث الى رواته وهو المسمى بالجرح والتعديل كان يقوم على اصدار احكام على الرواة ، فهذا صدوق وهذا عدل او من اهل الضبط والتحرى ، وذلك كذاب او مدلس او فاسق او ضعيف او متروك . وكانوا قليلا ما يمتدحون احدا ، الكثير من كلامهم نقد وتجريح واتهام لاسباب شخصية في الغالب . وقل من سلم من لسانهم ، ولهذا ذهب اهل الصادق منهم الى تحريم مثل هذا التجريح للناس وقالوا انه غيبة ، واباحه بعضهم كما رأينا هنا على انها نصيحة . والامر في ذلك مقتصر على اهل الحديث ، ورواة الاخبار المتعلقة بالسيرة والصحابة ، ومن هنا فهو لا ينطبق على المؤرخين عامة ، ولا يمكن بداهة ان يرمى المؤرخ بالغيبة لأنه نقد هارون الرشيد او المأمون او ابن طولون او نابليون فذلك موضوع آخر يختلف تماما عما كان يدور في اذهان السخاوى وامثاله من الشيوخ .

وقد كتب في علم التاريخ وفوائده كثيرون من المسلمين ، ومعظم كلامهم يجيء في فوائج كتبهم على سبيل التمهيد او على سبيل تبرير اشتغالهم بالتأليف في هذا العلم او اعتذارهم عن انفاق الوقت فيه ، اذ كان التاريخ في حسابهم من « الفنون » اى العلوم الفرعية او الثانوية المحدودة النفع ، ومن ثم فلا محل لانفاق الوقت فيها فيما خلا ما يمكن ان ينفع المحدث او مفسر القرآن من تفاصيل تاريخية . ولكن كل كلامهم في تعريف التاريخ او مفهومه او فوائده او تقسيمه لا يخرج عما اورده السخاوى ، وهو كلام ، كما رأينا ، بعيد عن ادراك حقيقة هذا العلم او موضوعه او مقاصده كما نراها اليوم ، ولكنه كلام يتفق مع عقلية العصور التي كتبت فيها ومفهوم العلم كله في نظر اهلها ، ونستثنى من ذلك ابن خلدون ، فقد كان بالفعل مفكرا سابقا لأوانه ، وعالما من طراز نادر في تلك العصور .

ضرورة الدراسة التاريخية واهميتها وفوائدها

من اواخر القرن الثامن عشر كثر في الغرب التأليف في علم التاريخ وموضوعه ومناهجه وتفسيراته ومذاهبه . وظهرت من ذلك الحين نظريات وآراء كثيرة جدا في هذه الموضوعات . وسنعرض لأهم هذه النظريات والآراء في فقرة خاصة من هذا البحث . ولكنني اورد هنا ترجمة

(٥) الاصل : عن ، والسياق يقضي ابدالها بعلى .

(٦) شمس الدين السخاوى ، « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ » نشره ضمن ترجمته العظيمة القيمة لكتاب تاريخ التاريخ عند المسلمين . وقد أتى د . صالح العلي في ترجمته بكل النصوص التي رجع اليها المؤلف وهو فرانس روزنتال . ص ٤٦٢ .

لفقره من أهم ففراث دراسة جامعة مختصرة ضمنها المؤرخ الانجليزى آرثر هارفيك Arthur Marvic فى كتابه المسمى « طبيعة التاريخ The Nature of History » (٧) وهو من الكتب الدراسية الجامعية المعتمدة Text-Books الواسعة الانتشار فى جامعات اوروبا وامريكا وهو يمتاز بالايجاز والشمول والوضوح . والفقره تتناول ضرورة الدراسة التاريخية واهميتها . قال بعد بمهيد صفير (ص ١٤ وما يليها) : « واذن فالتبرير الاساسي للدراسة التاريخية هو انها ضرورية . فهي تسد حاجة غريزة انسانية اساسية تفى بحاجة اصيلة من حاجات البشر الذين يعيشون فى المجتمع » .

« وضرورة التاريخ لها وجهان ، فالتاريخ يقوم للانسان والجماعة البشرية بوظيفة فعلية functional بمعنى انه يسد حاجة المجتمع الى معرفة نفسه ورغبته فى ان يفهم علاقته بالماضي وعلاقته بالمجتمعات الأخرى وثقافاتها ، وهو - اى التاريخ - شاعرى او عاطفى Poetic بمعنى ان كل فرد تقريبا يضم فى كيانه تطلعا مركبا فى طبعه وشعورا بالعجب من أمر الماضي ، وهذا التطلع هو وعي" عبّر عنه جورج ماكولي تريفيان George Macaulay Trevelian بقوله : « انه وعي الى حقيقة كأنها عجيبة وهي انه فى وقت مامشى قبلنا على ظهر الارض رجال ونساء ، ناس حقيفيون مثلنا اليوم ، تشغل اذهانهم افكارهم الخاصة بهم وتحركهم حوافظهم الخاصة بهم ، وان هؤلاء الناس قد مضوا جميعا الى سبيلهم ، واختفى جيل منهم فى اثر جيل وانتهوا تماما كما سنختفى نحن ايضا فى القريب كما لو كنا اشباحا فى ظلام الفسق » . ففي اعماق الخيال الانساني ترقد رغبة غريزية فى تحطيم حواجز الزمن والموت ومدد حدود الوعي الانساني بهذه الطريقة الى ما وراء عمر الانسان الواحد (٨) . وهذه الغريزة شبيهة بهذا الشعور الذى يملأ نفس الانسان فى ايام الخريف عندما يحس برائحة دخان الخشب تملأ الهواء من حوله ، وعندما يجتاح الدهن شوق غريب مضطرب ، وهذه الغريزة شبيهة ايضا بالاحاسيس التي يثيرها فى النفس رنين اجراس الكنائس فى صباح يوم أحد ساكن (٩) .

« وسواء اكان المؤرخ يهتم اكثر بالناحية الشاعرية او العملية من التاريخ فانه يخدم حاجة انسانية ، واذا هو قال - كما لا يزال الكثيرون من المؤرخين يقولون - انهم انما يدرسون الماضي لذاته فهو اما ان يكون مؤرخا جيدا يؤمن من زمن طويل بالحاجة الواضحة لدراسة التاريخ ايمانا كاملا ، وسلّم بها كما هي ، أو يكون مؤرخا سيثامن طراز خاص . وحال المؤرخ فى هذا شبيهة

(٧) طبعته الزهيدة الثمن كثيرة اهمها طبعة دارماكيلان ودار بتجوين ، ونحن نتابع هنا طبعة ماكيلان سنة ١٩٧٠ .

(٨) May Mackisack, History as Eudcuation (1956), p. 10.

(٩) G. J. Renier, History, its purpose and method (1950) p. 29.

والتشبيهان يشران الى تطلع الانسان الى تعرف ما حوله واحساسه وهو فى وحدته بان هناك اناسا كثيرين يعيشون بعيدا عنه دون ان يراهم ، وهم الذين يوقدون النار فينبعث منها الدخان الذى يصل اليه ، وهم الذين يدقون اجراس الكنائس فتنرامى اليه اصواتها وهو قابع فى بيته . هذه الاحاسيس تشبه احاسيس الانسان نحو الاجيال الماضية التي ذهبت وخلفت آثارها . وهذه الآثار تثير فى نفسه التطلع الى معرفة أخبارها وما فعلت .

بحال الفنان ، ففي احيان كثيرة تتجلى لنا الحقيقة التي تقول بأنه على قدر ما يقل شعور المؤرخ بأهميته في المجتمع تزداد قدرته على القيام بواجبه كمؤرخ ، وهو تشبيه بالفنان في انه يكون فنانا حقا عندما يترك جانبا الاهتمام الظاهر بالفايات التي يتوخاها من وراء عمله . فان المجتمع يحتاج الى التاريخ لا الى المؤرخ ، والمؤرخ الذي يحس أكثر مما يجب بحاجة المجتمع اليه قد يكتب (نتيجة لهذا) تاريخا سيئا ، لأنه على الرغم من ان التاريخ له ذلك العنصر الاجتماعي القوي الخاص به الذي يعتبر تبريرا لوجوده فانه يشترك مع غيره من العلوم الانسانية في انه جزء من الهجوم العام الذي يقوم به الانسان على المجهول الذي لم يكشف النقاب عنه بعد . والمؤرخ شريك في صراع الانسان ليفهم بيئته من النواحي الطبيعية والزمنية والاجتماعية . فالتاريخ اذن - بالاضافة الى المبررات الأساسية لدراسته والخاصة بهذه الدراسة - له نصيب في المبرر العام لكل نشاط ذهني يرمي الى توسيع آفاق العلم الانساني (وليس من الضروري ان يكون هذا الدافع الى دراسة التاريخ اقوى من الدوافع التي يمكن ذكرها فيما يتصل بميادين اخرى من الجهد الانساني) .

« وما ذكرناه هنا ان هو الا تبرير بدائي جدا لدراسة التاريخ ، وهو ليس التبرير الذي يقدم دائما او في غالب الحالات ، ولكن قبل ان نحاول ان ندلل على ان كل التفسيرات الاخرى هي في صميمها تفسيرات فرعية او مصاحبة للتبرير الاساسي قد يكون من المفيد ان نذكر هنا تحديدا او تحديدين ، فان لفظ التاريخ يستعمل عادة في ثلاثة مستويات من المعاني : الاول : ان التاريخ يمكن ان يعرفنا (**بماضي البشر كله كما حدث**) . ولا شك ان الحياة تكون ابسط اذا نحن استطعنا ان ندع هذا التعبير جانبا وتأخذ بدلا منه لفظ « **الماضي** » الذي يحمل في طياته أكثر من معنى . ولكن اللفظة ملك للجميع ، وهي احيانا تفهم فهما خاطئا او يستعملها الناس استعمالا سيئا ، ولكن لا يمكن ان يكون استعمالها وتفسيرها تحت رحمة جماعة الاكاديميين المتحلقين (١٠) . وحتى اولئك العلماء الذين اعلنوا على الملأ انهم كفوا عن استعمال لفظ التاريخ في هذا المعنى سيجدون انفسهم في مرحلة ما من مراحل عملهم يخونون انفسهم ، لأنه من العسير جدا ان يتجنب الانسان استعمال عبارات ثقيلة الوزن مثل قولنا : ليس التاريخ من عمل شخصيات الأبطال او « لقد حان الوقت لأن نتخذ من التاريخ ذخرا » .

« والاستعمال الثاني والاكثر فائدة هو ان التاريخ يعني ايضا محاولة الانسان وصف الماضي وتفسيره ، وهو - كما قال الاستاذ **باراكلاف** Barraclough - « المحاولة التي تبذل للكشف عن الاشياء المهمة في الماضي على أساس من شواهد جزئية ماضية » . وهذا هو التاريخ الذي نعنيه عندما نتحدث عن التاريخ كضرورة اجتماعية او عن التاريخ كصناعة (١١) وهذا هو اقرب المعاني الى المفهوم الاصلي للفظ التاريخ عند الاغريق وهو « الاستعلام او الاستفهام » . وواضح ان بعض محاولات الكشف او الاستعلام أكثر توفيقا من غيرها ، وقد أعطت بعض عصور التاريخ اهمية لمسائل نضعها نحن الآن في نطاق الخرافات والاساطير او نجعلها موضع مناقشة . اننا نستطيع

(١٠) يريد ان المؤرخ لا يستطيع في كثير من الاحيان مغالبة التحذيق والادعاء بأنه يعالج بعلم التاريخ قضايا خطيرة مثل اهمية الابطال في صناعة التاريخ او ان الاوان قد أنليتبين الناس ان التاريخ كنز من كنوز المعارف .

(١١) بالانجليزية history being an industry وستحدث عن هذه النقطة فيما بعد .

ان نستمتع او نستفيد من مؤلفات تاريخية ظهرت على طول تاريخ النشاط الادبي الانساني مثل مؤلفات **توكيديد** Thucydides (١٢) **او سوما-تشيين** Ssuma Chien (١٣) **او بيد** Adam Bede (١٤) **او ماكيافيلي** Machiavelli (١٥) ، ولكننا ينبغي ان نلاحظ ان الدراسة المنهجية للتاريخ ، اى دراسة التاريخ كعلم discipline (وهذا هو الاستعمال الثالث للتاريخ) ظاهرة حديثة تقرر في جامعات غرب اوربا وشمال امريكا في القرن التاسع عشر فقط متأخرة بذلك تأخرا كبيرا عن دراسات الفلسفة واللغات القديمة والرياضيات والعلوم الطبيعية (١٦) . وفي كتابنا هذا سنهتم بصورة خاصة بتطور الدراسات التاريخية الحديثة ، ولكننا سنتعرض لموضوع هام وعسير ومثير للجدل في نفس الوقت هو موضوع النزاع بين من يعتبرون التاريخ علما اكاديميا - يميل الى التعامل والتفهيقي في احيان كثيرة - . والقائلين بأن التاريخ انما هو وجه اساسي من وجوه التجربة الانسانية » .

« وما دمنا قد عرضنا بالمعاني الثلاثة التي يستعمل التاريخ فيها فان الوجوه الثلاثة التي يستعمل فيها لفظ « التاريخ » لا تبدو غير ذات معنى كما قد يظن ولو انه ربما بدا محيرا في بعض الاحيان . . » .

(١٢) يمكن كتابة اسمه ايضا توسيديد بحسب النطق الفرنسي لحرف C اليوناني واللاتيني . هو اكبر المؤرخين اليونان وقد عاش في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد وهو مشهور بالتاريخ الذى كتبه للحروب البلوبونيزية التي شبت بين الدولات الافريقية على ايامه ، وقد بدأت سنة ٤٣١ ق . م . وكانت السن قد تقدمت به اذ ذاك فتنبه الى اهميتها وتوقع ان تكون طويلة المدى وشرع في كتابتها . وترجع اهمية كتاب توكيديد الى انه يصف الحرب التي شنتها اثينا وحلفائها ضد اسبرطة التي كانت تسود بلاد الافريق الى ذلك الحين بفضل تفوقها العسكري وتمكنها من انقاذ بلاد اليونان من اجتياح الفرس اياها وانتصار اثينا وديموقراطيتها بفضل رجال من امثال بيريكليس وديموستين . والكتاب حافل بالملاحظات ذات العمق والصدق ولهذا يعد توكيديد تاليا لهيرودوت في انشاء علم التاريخ عند الغربيين .

(١٣) صوما - شيان Ssu-Ma Chien ولد فيما بين ١٤٥ و ١٣٥ ق . م . وتوفي ٩٠ ق . م . اكبر المؤرخين الصينيين القدماء وهو مشهور بكتابه المسمى شيه - تشي Shih-Chi اى سجلات المؤرخ وقد اتمه بعضهم بعد وفاته في سنة ١٠٠ ق . م . وقد عاش في بلاط الامبراطور (دو) من اسرة هان Han وكتابه يغطي ٢٠٠٠ سنة من تاريخ الصين من بدايته الى حياة المؤلف وقد جرؤ صوما - تشي في اواخر ايامه على الدفاع عن قائد مقصوب عليه فعاقبه الامبراطور بخصائه . وكانت عادة الناس ان من جرى عليه هذا العقاب الشنيع ينتحر بعده ، ولكن صوما فضل الحياة على الموت حتى يفرغ من تاريخه . وهو يهتم اهتماما خاصا بتراجم الرجال وما اثر عنهم من الاعمال والافعال الحكيمة .

(١٤) آدم بيد Adam Bede ليس من المؤكد ان اسمه آدم ، ولقيه يكتب احيانا Baeda او Beda وهو راهب انجليزى عاش فيما بين سنتي ٦٧٢ (او ٦٧٣) و ٧٣٥ وكتب باللاتينية كتابا في التاريخ الكنسي للشعب الانجليزى Historia Ecclesiastica Gents Anglorum وهو من اقدم المؤلفات في تاريخ انجلترا ولهذا يلقب بيد بابي التاريخ الانجليزى ، وهو من اوائل العلماء في التاريخ الانجليزى كله وله فصل كبير في نشر المذهب الكاثوليكي في الجور البريطانية .

(١٥) هو نيقولو مكيافيلي Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) مفكر وفيلسوف سياسي ايطالي من اهل فلورنسا ، وهو مشهور بكتابه المسمى « الامير » الذى يرشد الامراء فيه الى اسرار السياسة ، والسياسة عنده انتهازية لا ضمير لها ولا اخلاق فيها ، وقد وصف مكيافيلي بانه خبيث وصولي مع انه في الحقيقة كان رجلا سليم الطوية ، ودليل ذلك انه فشل في ميدان السياسة ولم يصل الى شيء يذكر .

(١٦) الحكم هنا ينصب فقط على الغرب اما بالنسبة للعرب فان التاريخ كعلم كان مقروا ومعترفا به وكان يدرس ويدرس منذ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى لضرورته لتفسير القرآن والحديث ومعرفة رجال السند .

« وعندما نتحدث عن فلسفة التاريخ تطفر امامنا صعوبات اخرى متصلة بالتحديد او التعريف . وهذا الاصطلاح « فلسفة التاريخ » يمكن ان تكون له ثلاثة معان رئيسية .

فاما المعنى الاول فهو ان فلسفة التاريخ تعني بالنظريات العالية المسنوى الخاصة بالتيارات التحتية او القوى الاساسية للتاريخ باعتباره حقيقة موضوعيه (هي الماضي) .

« وهناك معنى ادنى من ذلك لفلسفة التاريخ وهي انها تصف لنا النظرة العامة الاساسية والمفاهيم الاساسية ايضا التي يأتي بها مؤرخ او تأتي بها مدرسة من المؤرخين متعلقة بالمشاكل التاريخية التي يعالجونها متضمنة النظريات الخاصة بتعليل الحوادث أو مفهوم التقدم وما الى ذلك » .

« واخيرا من الممكن ان يستعمل مصطلح فلسفة التاريخ مرادفا على وجه التقريب للمنهج التاريخي historical methodology اى العملية الفعلية التى يسلك المؤرخ فى شعبها » .

وحيث اننا لا نستطيع من الناحية العملية ان نقول : « ان هذه الكلمة سيكون لها هذا المعنى ولا معنى غيره » فانه من المهم دائما ان نتأكد من المعنى الذى نريده ونميزه عن غيره . ومن سوء الحظ ان كثيرا من المصطلحات التي تستعمل في علم اصول التاريخ او مراجعته المسمى باسم historiography او في الصور المختلفة لفلسفة التاريخ مصطلحات مبهمه يحمل الواحد منها اكثر من معنى . ومن الامثلة البيئة لذلك هذا المصطلح الهجين historicism (بالعربية : الفكر التاريخي) وقد نشأ هذا المصطلح فى المانيا Historismus اشتقاقا من اللفظ الايطالي storiciemo وسنحاول فيما بعد ان نقدم مصطلحات بديلة له ولكن خیر ما نفعله به الآن هو ان نتجنب استعماله » .

« ويذهب نفر قليل من المؤرخين الى ان الدراسة التاريخية ينبغي ان تطلب لذاتها ، ولما تبعته فى النفس من متعة ، وليس فى ذلك غرابة فقد قال الرياضيون وعلماء الكيمياء الحيوية والمثالون ذلك عن ميادين نشاطهم ، ويمكن من ناحية ان تعتبر مسألة المتعة فى الدراسة التاريخية تابعة للنقطة الاساسية المتعلقة بشوق الانسان الغريزي الى التاريخ ، وهو شوق يحس به فى اقوى صورة طالب التاريخ الملتزم به (سواء كان محترفا او غير محترف) ومن ناحية اخرى يمكن ربط هذه المتعة بالمبدأ القائل بأن الشيء الذى يعطي المتعة للفرد يمكن ان يكون مفيدا من الناحية الاجتماعية اى مفيدا للجماعة . وقد لجأ عدد قليل جدا من المؤرخين عندما ارهقهم التساؤل عن فائدة التاريخ الى انكار وجود اى فائدة فى دراسته . ولكننا اذا تمسكنا بالرأى القائل بأن التاريخ يدرس لذاته كما ان المعرفة تطلب لذاتها فاننا فى هذه الحالة نكون قد قلنا كل شيء او لم نقل شيئا على الاطلاق . فان المعرفة اذا لم تنقل من انسان الى انسان فان دراسة التاريخ لا تكون لها فائدة البتة (١٧) اما اذا نقل العلم من انسان الى انسان فان ذلك يحقق هدفا انسانيا واجتماعيا . وعلينا ان نقارن ونقابل بين الخدمة التي يؤديها التاريخ وما تؤديه الفروع الاخرى من النشاط الفكرى . وعندما يقوم اهل التاريخ بتلك المقارنة فانهم يهتمون بابرار الناحية التعليمية من التاريخ كوسيلة لتمارين الذهن او كدليل عملي على تشابه مشاكل المجتمع الانساني ومعضلات

(١٧) اى اننا اذا كنا ندرس العلم لذاته ونطلب المعرفة ارضاء لنفوسنا فحسب دون ان نعى بنقل ما ننقل الى الناس فان دراسة التاريخ تظل قصرا على اصحابها ولايتأتى منها اى نفع للآخرين .

السياسة . والمشكلة فيما يتعلق بالقول بأن الاشتغال بالتاريخ فيه تمرين للذهن هو انه يتوقف كثيرا على درجة الحزم او التركيز التي يلتزمها القائم بالدراسة التاريخية ، ثم انه يصعب تطبيقه على اولئك الذين لم تسبق لهم الا معرفة عابرة بمؤلف او مؤلفين من المؤلفات الكبرى في التاريخ» .

« ان من يقوم بدراسة تاريخية مركزة مكنته سيجد دون شك ان ذهنه قد تحسن بذلك . وفيما يتعلق بالحالة الخاصة للتاريخ فمن المعروف الشائع ان دراسته احسن صور التعليم الحر . وقد تعرضت هذه العبارة للمبالغات من جانب من يتناولون التاريخ على سبيل الهواية . والمستغلين بالادب التافه ، وذلك لا مبرر له ولا معنى على الاطلاق ، اما اذا اريد من وراء دراسة التاريخ ان نفهم الانسان من شتى نواحيه المختلفة فان دراسة التاريخ تصبح عنصرا مصاحبا او مكملا لرأى الذين يبررون دراسة التاريخ فانها وسيلة ضرورية لتذكر تجارب الناس والجماعات الماضية على نحو يعين الفرد والجماعة على توجيه جهوده وجهودها توجيهها سليما وسط تيارات الحياة الانسانية المتضاربة . ولقد اتخذ الناس اساليب شتى في تصوير هذه الحقيقة ، فقليل ان التاريخ رحلة في الزمان تزيد في معارف الانسان وتوسيع افقه كما هو الحال في الرحلات الاخرى ، وكان من القائلين بهذا و . هـ . وولش W. H. Walsh الذي قال مرة ان من وظائف التاريخ الكبرى هو انه يعرف الناس بزمانهم عن طريق رؤيته مقارنة بزمان آخر . وقال المؤرخان الفرنسيان لانجلوا وزينوبوس Seignobos, Langlois « ان التاريخ يعرفنا بالاختلاف في صور المجتمعات ويشفيها من مرض الخوف من التغيير » .

« اما القول بأن التاريخ دليل عملي للجماعات للسير في مجاهل التجربة الانسانية فهو استمرار واكمال لنظرية القائلين بأن التاريخ مدرسة للبشر ، وانه اذا كان البشر يشعرون بالرغبة في معرفة ماضيهم للاسترشاد به فان قادتهم ومديري امورهم احوج الى ذلك . وقد ادى هذا الرأى بكثير من المؤرخين الى قول اشياء بالغة السخف في تعظيم فائدة التاريخ وكما ان هناك من ينكرون انكارا تاما فائدة التاريخ ، فان فائدته ووظيفته الاجتماعية وجدت في السنوات الاخيرة من يبالغ فيها ، ولكن المؤرخ المحدث المعتدل في تفكيره الذى يزن ما يقول وزنا جيدا يكتفي بتحديد ما قاله الاستاذ ستراي Strayer من ان « دراسة التاريخ تعين الانسان على مواجهة المواقف الجديدة لا لانها تقدم له اساسا للتنبؤ بما سيكون ، ولكن لأن الفهم الكامل للسلوك الانساني في الماضي يتيح الفرصة للعثور على عناصر مشتركة بين مشاكل الحاضر والمستقبل مما يجعل حلها حلا ذكيا امرا ممكنا . وليس معنى هذا ان دراسة التاريخ الحديث وحده هي التى تعود على الانسان بالفائدة بالنسبة للحاضر والمستقبل ، لأن التاريخ كله مادة واحدة . ودراسة قديمه لا تقل فائدة عن دراسة حديثه ، فكلها جوانب من التجربة الانسانية المتعددة الصور . فمع ان التاريخ لم يكن يدرس في جامعات العصور الوسطى الا انه كان دائما معتبرا موضوعا اساسيا في تعليم الامراء ورجال الدين ، ولهؤلاء - ولهذا الغرض - ألف الاسقف بوسويه Bossuet تاريخه للعالم الذى سماه : Discours sur l'histoire universelle سنة ١٦٧٩ » .

وقد قال الاستاذ ستيورات هيوز ان التاريخ كان يعد نفسه دائما « علما شاملا وعلما وسيطا » ، وقد كان التاريخ في الماضي يربط الشعر بالفلسفة ، وهو اليوم يربط الادب بعلم الاجتماع . وربما يكون المؤرخون قد اغضبوا غيرهم احيانا بالمبالغة في الدور التحليلي الذى يقوم به علمهم . ولكن سواء استطاع التاريخ ان يقوم بدوره كوسيط ام لم يستطع ، فان التاريخ لا يستطيع ان يتخلص من دوره كعلم وسيط ، ومادام لكل شيء تاريخه فان التاريخ كعلم يشمل كل

شيء ، حتى الكاتب الصغير الذي يدرس مبادئ التأمين يجد نفسه يدرس الى حد ما تاريخ التأمين . والتاريخ يكون جزءا من عمل الناقد الادبي وجزءا من عمل دارس العلوم الذي يدرس تطور علمه . واذن فالتاريخ يصبح ميدان التقاء كثير من العلوم وهذا هو ما يجعل التاريخ دراسة فائنة ، ومع ذلك فان كل ما نفعله الآن هو ان نجيد صياغة مبررات دراسة التاريخ : ان الانسان ينبغي ان يعرف ماضيه ولهذا فعليه ان يقف على ما يضمه الماضي من غنى وتنوع لا حد لهما سواء في الفن والعلم والتنظيم الاجتماعي والسياسة . هذا الغنى وذلك التنوع هما في الحقيقة مادة التاريخ » (١٨) الى هنا ينتهي كلام آرثر مارفيك .

التاريخ حواد بين الماضي والحاضر

يقول كثير من العلماء ان كل عصر ينبغي ان يكتب التاريخ من وجهة نظره لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة له يختلف عن تقدير العصر الآخر ، وكل عصر كذلك يحاول ان يرى الماضي من خلال اهتماماته والافكار السائدة فيه ، و من هنا قال كثيرون من المؤرخين ان التاريخ حوار بين الحاضر والماضي ، وهذا في ذاته يكشف لنا عن جانب من جوانب المتعة في الدراسة التاريخية، فان التاريخ بطبعه - كدراسة للانسان واعماله تتأثر صورته التي يراها المؤرخ تأثرا واضحا بالاحوال المادية والمعنوية في الوسط الذي كتبت فيه ، وليس في هذا عيب او مأخذ على التاريخ ، فكل العلوم الاجتماعية تخضع لهذا التأثير ، وصورة المتنبي كما يرسمها مؤرخ ادب في القرن الثامن عشر مثلا تختلف عن صورته كما يرسمها مؤرخ ادب اليوم ، وكذلك الحال مع الدولة الاموية مثلا فان تصوير الجاحظ لها يختلف تماما عن تصويرنا نحن لها . بل ان نظريات العلوم الرياضية والدقيقة والطبيعية كثيرا ما تكون وليدة الظروف التي احاطت بمن ابتكروها ولفتت انظارهم اليها ، فلولا ان **توماس مالتوس** Thomas Malthus قد عاش في عصر انفجار سكاني لما تنبه الى ظاهرة زيادة السكان ولما ابتكر نظريته المشهورة في العلاقة - او بتعبير ادق - انعدام العلاقة بين زيادة الموارد وزيادة السكان ، ولولا نظرية مالتوس هذه لما توصل شارلس داروين الى ضبط نظريته عن « صراع البقاء » ، واعتقد ان احدا لا يناقش في ان سنوات الحروب تكون في الغالب سنوات اسراع في الاختراع والابتكار ، لأن ظروف الخطر ورغبة الجماعات في النصر والتخلص من الاخطار تشجذ القرائح الى ابعد حد . وليس هناك عالم رياضي او طبيعي الا

Robert V. Daniels, Studying History. How and Why, 1966.

(١٨) انظر :

Richard Pares, The Historian's Business (1961) p. 5.

Robert K. Merton, Social Theory and Social Structure (1957) p. 16.

C. L. N. Brooke, The Dullness of the Past. 1957.

May Mackisack, History as Education (1956) p. 10.

G. J. Renier, History, its purpose and method (1950) p. 29.

Geoffrey Barraclough, History in a Changing World (1955) p. 29-30.

Marra Komarovsky, Common Frontiers of the Social Sciences (1957) p. 264.

H. Stewart Hughes. The Historian and the Social Scientist in American Historical Review, LXVI (1960) p. 46.

وهو متأثر الى حد بعيد في آرائه بالظروف المحيطة به . والعالم الذى ينكسر اما مخطيء او مخادع لنفسه ، واذن فلماذا بُوجّه اللوم الى التاريخ وحده ويقال انه يتأثر دائما بعصر المؤرخ وظروفه ومزاجه ؟

ومن الواضح ان اهتمامات المؤرخين في عصر ما تختلف عن اهتماماتهم في عصر آخر ، ومن ادلة ذلك ان الاهتمام بالسيرة النبوية وشرحها وتفصيلها عندنا نشط جدا في القرنين السادس والسابع الهجريين ، لأن نوالي الاخطار على المجموعة الاسلامية دفع المؤرخين المسلمين الى الارتداد الى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسون فيها الحل او المخرج او مجرد نقوية الروح المعنوية ، فظهرت كتب مثل الاكتفاء في مغازى رسول الله ، والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الاندلسي ، وتاريخ الخميس للديار بكرى ، ودلائل النبوة للبيهقي ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ، و « الروض الأنف » في شرح سيرة ابن هشام لأبي زيد عبد الرحمن السهيلي ، و « شرح السيرة » لأبي ذر الخشنى و « شرح المواهب اللدنية » للزرقاني و « الدرر في اختصار المغازى » والسير لابن عبد البر و « الشفا في التعريف بحقوق المصطفى » للقاضي عياض بن موسى السبتي و « عيون الاثر » لابن سيد الناس و « كنوز الحقائق » للمناوى ، وكلها كتب في سيرة الرسول ، وليس من المصادفة ظهورها كلها في هذه الفترة التي توالى فيها الاخطار على المجموعة الاسلامية .

ومن الملاحظ ان اهتمام الناس في الغرب بدراسة التاريخ واجتهاد الكثرين من العلماء في تحويل هذه الدراسة الى علم مستقل مستكمل لاشتراط العلوم تبع الى حد ما من قيام القوميات والدول الكبرى في اوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وواضح أن الاجيال التي قامت بانشاء هذه الدول والامبراطوريات شعرت بالحاجة الى معرفة الماضي ربما لتستنير به ، اذ لا شك في ان معرفتك بما قطعت من الطريق تعينك على معرفة الباقي ، ومن هنا اخذ نيبوهر ورافكه وبوركهارت وغيرهم اهميتهم كمؤرخين واهتمت الدول بتيسير عملهم ففتحت لهم دور المحفوظات لكي يستخرجوا ما يستطيعون من حقائق الماضي . وهذا يؤكد لنا الحقيقة التي لا زال الكثيرون يجادلون فيها ، وهي ان الماضي لا يدرس لذاته بل للحاضر والمستقبل ، وان كتابة التاريخ انما هي صورة من الحوار الذى لن يتوقف بين عصرنا والعصور التي سبقتة . ومن المؤكد على اى حال أن المؤرخ مهما بلغ نجرده لا يستطيع التخلص من روح عصره . وفي بعض الاحيان نشعر أن المؤرخ يبحث عن حاضره في الماضي الذى يدرسه ، فاجتهاد رافكه في دراسة تاريخ الرومان راجع الى ايمانه العميق بالدولة البروسية التي كان يخدمها ورغبته في التماس الأدلة على صواب رأيه المحافظ بقوة الدولة في صفحات تاريخ روما في ازهى عصورها عندما كانت الدولة الرومانية تهيمن على كل شيء .

وبديهي ان اى مؤرخ ذكى يتحرى دائما ان يكتب ما يكتب من التاريخ على صورة نفع معاصريه او تكون ذات قيمة ونفع لهم على الاقل ، ومن هنا كانت كتابة سير عظماء الرجال موضوعا مطلوبيا دائما ، لأن النفس الانسانية تميل دائما الى معرفة تفاصيل حياة اولئك الرجال ، ولهذا فكتب التراجم دائما كتب ذات معنى للحاضر . والهدف الرئيسي من الحوار التاريخي او من النظر الى التاريخ كحوار بين عصرنا والعصور الماضية هو ان نرى أين اخطأوا لكي لا تقع فيما وقعوا فيه . وفي العصور الوسطى ، حينما كان شعوب الناس متجهة نحو الحياة الاخرى وحدها دون امل في صلاح الحاضر كان افق اصحاب المدونات التاريخية ضيقا جدا ، فلم يكن يهمهم من الماضي الا ملوكه وامراؤه وكبار علماء الدين والصلحاء فيه . ومن عدا هؤلاء فلا وجود لهم في

حسابهم ، ولا يمكن ان يكون لهم في التاريخ دورولا ذكر . ومن هنا يجوز لنا ان نقول ان الماضي كما يراه جيلنا يختلف عن نفس الماضي كما رآه الجيل السابق علينا ، وكما سيراه الجيل الذي سيأتى بعدنا ، ومن هنا يصدق القول بأن للامة الواحدة اكثر من تاريخ ، ولا بد - لهذا - لكل عصر ان يكتب التاريخ من وجهة نظره ، وكما اننا نتعجب من السخافات التي ملأ بها ابن اياس « بدائع زهوره » فان الاجيال القادمة دون شك ستتعب من نظرتنا لماضيها بل اغلب الظن ان عجبها سيكون اشد من نظرتنا الى حاضرها .

ويرى كثيرون من المؤرخين ان ذلك ينفوئى حجة القائلين بأن التاريخ لثغور ، فما دامت صورة نفس الشيء تتغير بحسب العصور فلا يمكن ان يكون التاريخ علما ، لان العلم يفوم على نبات الحقائق ولو لفترة طويلة من الزمن ، فقد ظلت نظريات علم الطبيعة ثابتة قرونا متطاولة ولم يدخل التغيير عليها الا بعد ان اتسعت آفاق العلم الانساني الى حد استلزم اعادة النظر في كل حقائق العلوم ، نم ان عالم اليوم يملك من الادوات ووسائل القياس والحساب والتحليل ما يمكن من الحصول على رؤيا جديدة تزعزع الثقة في قواعد الماضي الثابتة . ومن العجيب ان هذا التزعزع في حقائق التاريخ ونظرته بحسب الاجيال والاشخاص يعجب الكثيرين من المؤرخين القائلين بأن دراسة التاريخ لا فائدة فيها وانما هي تمارس للمتعة الشخصية ليس غير .

ويوجه الكثيرون الى التاريخ كعلم نقداشديدا بسبب ارتباطه الدقيق بالمجتمع الذي يكتب فيه . ولكن هؤلاء النقاد ينسون ان ذلك ينطبق ايضا على كل اوجه النشاط الفكرى الذى يقوم به الانسان ، وان الظروف التي تحيط بالمشغل بالعلوم الانسانية جميعا هي التي توجي اليه بما قد يتكر من آراء ونظريات ، ومثال ذلك ما ذكرناه من ان توماس مالتوس Thomas Malthus طليعة علماء الديموجرافيا (علم السكان) لم يقم باجراء دراساته البالغة الدقة في شئون السكان الا بسبب ما كان يلاحظ حوله من زيادة مضطردة في اعداد السكان من حوله ، وكان المفهوم الذى انتهى اليه مالتوس وهو مفهوم الصراع للبقاء struggle for survival هو الذى عجل بتبلور آراء داروين ونظرياته عن النشوء والارتقاء والتطور على اساس من نظريته القائلة بأن البقاء للأصلح survival of the fittest وعلى هذا فان قوانين مالتوس وداروين ومن في طبقتهم من اهل العلم ناتجة عن التأثير بالبيئة والظروف التي كانوا يعيشون فيها . ومن هنا فان نقد علم التاريخ لان حقائقه كما يعرضها المؤرخون تكون دائما متأثرة بالظروف التي يعيشون فيها نعد لا محل له . ولا يمكن القول قط بأن اهل العلوم والباحثين في العلوم الاجتماعية عندنا اليوم متحررون تماما فيما يصدر من الاحكام على الافكار المستتبقة والآراء الشائعة في عصورهم ، وهذا لم يمنع من القول بأن المؤرخين ربما كانوا اكثر تأترا بهذه الظروف والآراء من غيرهم من اهل العلوم .

وقد لاحظ آرثر مارفيك في كتابه المشار اليه (سابقا) ان مؤرخي القرن التاسع عشر في الغرب الاوروي و امريكا كانوا يوجهون اهتمامهم بصورة خاصة نحو اعمال الحكومات وعظماء الرجال وتطور الوعي القومي ونحو الحريات السياسية في حين ان مؤرخي القرن العشرين يوجهون عناية اكبر نحو الاقتصاديات والديمقراطية الاجتماعية ، وهم يصرفون جهدهم الى التاريخ الاقتصادي مهتمين بالجماهير دون الافراد . وابدئ نفس المؤرخ ملاحظة اخرى لها اهميتها : وهي ان المؤرخين في غرب اوربا كانوا يهتمون بصورة تقليدية بحضارات بلادهم وحدها ، وكانوا اذا التفتوا الى تاريخ اقليم آخر او حضارته لم يروا من هذا التاريخ وتلك الحضارة الا ما كان صدى اورد فعل للحضارة الغربية فيه . اما الآن فقد ظهرت قوميات اخرى كثيرة جديدة وأخذ اهلها

في العمل على استلفات الانظار نحو تواريخ بلادهم وحضاراتها . ومن هنا فقد أدت دراسات التاريخ الافريقي وتاريخ امريكا اللاتينية ، واهم من ذلك تاريخ الصين وشرق آسيا الى تغير الصورة العامة لتاريخ البشر والاتجاه الغالب في ايامنا هذه « التي تهدم فيها عالم الاستعمار وامبراطورياته » يقصد الى دراسة تلك الحضارات غير الغربية من ناحية تطورها المحلي الخاص بها لا من ناحية علاقتها بالغرب وصراعها معه فحسب كما كان الحال قبلا . وهذا وسّع آفاق الدراسات التاريخية ، وسيؤدي حتما الى تغير الصورة التقليدية التي تعودناها فيما يعرف بالتواريخ العالمية الكثيرة المتداولة اليوم . وكلها اوروبية او مكتوبة من وجهة نظر غربية ، فالاهتمام فيها منصب نحو الغرب وحضارته وحدها ، فهي في الواقع تواريخ للغرب الاوروبي لا تواريخ عالمية . والتواريخ العالمية الجديدة بهذا الاسم لم تكتب بعد ، وعلينا نحن اهل العالم الثالث الذين ام يحسب لهم حساب فيما يتداول الناس من تواريخ عالمية ان نعيد كتابة تاريخ البشر وحضارتهم ، بادئين بدراسة تاريخنا نحن ، لكي يتسنى لنا وضعها في مكانها الصحيح في سلسلة التاريخ العالمي .

واذا نحن اعتبرنا التاريخ حوارا بين اجيالنا والاجيال السابقة فينبغي ان نتسع مائدة الحوار حتى يكون فيها لكل قوم من اهل الارض مقعد وصوت . هنا فقط يمكن ان يقال اننا نستطيع كتابة تاريخ عالمي . أما ان يكون التاريخ العالمي قصة الصراع بين دول اوروبا على سيادة العالم فهذا زيف مقصود او غير مقصود .

الاتجاهات السائدة في كتابة التاريخ في عصرنا الراهن

ويتحدث علماء التاريخ في الغرب عن طفرة الدراسات التاريخية في الغرب ويرجعون بهذه الطفرة الى النصف الاول من القرن التاسع عشر عندما فتحت دور المحفوظات الاوروبية ابوابها لأهل العلم فاخذوا يستخرجون كنوزها وينشرونها على الناس ، فكانت هذه الثروة الضخمة حافزا للكثيرين على الاتجاه نحو دراسة التاريخ على اساسها . ومن ثم حدث ما يسمى عادة بالانفجار الواسع المدى في الدراسات التاريخية .

وسنرى في الفقرة التالية كيف ظهرت مجموعات الوثائق الكبرى ووضعت مقاييس دراستها ، دراسة علمية دقيقة على يد اقطاب العلم التاريخي من امثال ليوبولد فون رافكه ، ولكننا سنمر هنا مسرعين بأهم تيارات الدراسات التاريخية في عصرنا وقبله بقليل .

ساد في الغرب الاوروبي خلال القرن التاسع عشر تياران رئيسيان : **الاول** تيار الواقعية الموضوعية objective empiricism الذي يقول اصحابه بأنه من الممكن ان نكتب الحقائق التاريخية بالضبط كما كانت في الماضي ، **وتيار** القائلين بتوالد احداث التاريخ بعضها عن بعض واصحابها الذين كانوا يستعملون ذلك المصطلح البغيض The genetic view of history « الهيستوريستيزم historicism اي الفكرة التاريخية - يرون ان التاريخ عملية توالد مستمرة ويؤمنون باضطراب التوالد من عصر الى عصر . وكلا التيارين ثمرة من ثمرات تلك الثقة البالغة في النفس التي ملأت نفوس اهل العلم في الغرب في القرن التاسع عشر ، حتى ليشعر من يقرأ لهم انهم كانوا يحسبون انهم جمعوا العلم كله من اطرافه جميعا . ويدخل في هذا النطاق ايضا فريق التقريرين المقتنين او الايجابيين من المؤرخين positivist historians اولئك الذين حسبوا انهم يستطيعون ان يوجزوا التاريخ كله في سلسلة من القوانين العامة . ويمكننا ان ندخل في زمرة

اولئك التفريريين المقتنين ابن خلدون الذي اوجز تاريخ العالم في قانونه المشهور من « دورة العمران » ، وعلى الرغم من انه عاش في القرن الرابع عشر الميلادي الا اننا نستطيع ان نضعه على رأس هذه المدرسة الهامة من علماء التاريخ .

اما مؤرخو القرن العشرين الذين يكتبون متأثرين بنظريات **فرويد** و**اينشتاين** و**كارل ماركس** فقد صرفوا النظر الى حد كبير عن الموضوعية التاريخية وابسكروا ما يعرف عادة بالنسبية التاريخية *historical relativism* . وفي ايامنا هذه يتجه نفر من اكابر المؤرخين الى صرف النظر عن النظريات والتيارات جملة والعكوف على دراسة الحروب والانقلابات الاجتماعية كلا على حدة صارفين النظر تماما عن نظرية « الاسنمرافي التاريخ » التي كانت اساسا متينا لكتابة التاريخ ارمانا متطاولة . وسنشرح النسبية التاريخية بشيء من التفصيل فيما بعد .

وكما انصرف المؤرخون عن البحث عن قوانين وضوابط تحكم سير التاريخ ، فكذلك انصرفوا عن قواعد كبرى كانت تعد الى حين قريب من الاسس التي لا يملك اى مؤرخ ان يتخلى عنها، مثل قولهم : كلما قرب المؤرخ من العصر الذي يتحدث عنه ، كان كلامه اصدق ، فقد تبين ان مسألة القرب او البعد عن الحوادث هذه لا تعنى شيئا كثيرا بالنسبة لصدق الفهم وكثيرا ما نجد مؤرخا يكتب عن عصره نفسه وعن حوادث مرت امام عينيه فلم يدرك من حقيقتها شيئا وجاءت روايته هي الغباء بعينه . وفي نفس الوقت نجد مؤرخا يكتب عن نفس الحوادث ، بعده بعدة قرون ، فيرى بالفهم ودقة الحس العلمي ما لم يره هذا المعاصر ، وخذ مثلا كتاب « الفتح القسى في الفتح القدسي » الذي حاول فيه **عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني** وصف استعادة صلاح الدين لبيت المقدس ، واسأل نفسك بعد قراءته ان كان هذا الرجل الذي توفي سنة ١٢٠١/٥٩٧ اى بعد استعادة القدس باربع عشرة سنة فقط قد رأى او فهم شيئا . ولا بد لهذا من ان نتخلى بعض الشيء عن قاعدة القرب من الحوادث هذه ، لأن العبرة في التاريخ بالفهم والادراك والاحساس ، ومن دلائل ذلك انك نقرأ كتاب ادوارد جيون عن الدولة الرومانية فلا يخالجك شك في ان هذا الرجل عاش في عصور الرومان بقلبه وذهنه فعلا وهو يكتب هذا التاريخ . وفي بعض الفقرات التي كتبها عن عصر الانطونيين تشعر وانت تقرأ انك نسمع جلبة الجيش الروماني الخارج للفتوح وقعقة العجلات على صخور الطرق الرومانية وصهيل الخيل وجلجلة السلاح .

وفي ايامنا هذه يسلم المؤرخون جميعا بأن المؤرخ مهما فعل فهو لا يرى الماضي الا من خلال عصره ، أي انه لا يستطيع التخلي عن مفهومات مجتمعه والآراء السائدة فيه ، وفي هذا خير كثير للتاريخ والمؤرخين ، فان المؤرخ بصفته خادما للجماعة الانسانية ينبغي ان يكتب تاريخه في صورة ذات معنى واهمية ، لأبناء عصره وهذا المعنى وتلك الاهمية يعبر عنهما المؤرخون بما يسمى بارتباط التاريخ بالحاضر *the relevance of history to the present* فاذا لم يكن الحوادث التاريخية الماضي ذا اثر في الحاضر *relevant to the present* فلا قيمة حقيقية له ، وهو اشبه باناء قديم محطوم في البيت ، كانت له اهمية في حينه ايام كان نافعا ، ثم نقادم به العهد وتحطم ، فلم يعد اكثر من ذكرى ماضية ، ومن الصالح التخلص منه ، لأن هذه الذكرى نفسها غير ذات قيمة . وهنا يقول آرثر مارثيك : « وما دامت للتاريخ تلك الاهمية بالنسبة للمجتمع فان أحسن تاريخ يمكن كتابته ، ينبغي ان يكون اقرب ما يستطيع الى الحقيقة . والمؤرخ الواعي

للعجز المفروض عليه بسبب وضعه مكانا وزمانا (بالنسبة للأحداث التي يؤرخ لها) ينبغي عليه ان يجتهد في تلافي التشوبه والحوير الذين ينتجان عن اختلاف الزمان والمكان » (١٩) .

وقد كان لجهود اصحاب نظرية النسبية التاريخية (٢٠) أثر طيب في تخفيف ثقل المدرسة الالمانية التي قادها رافكة والتي ظنت انها تستطيع اعتمادا على الوثائق ان تكتب التاريخ بالضبط كما حدث منذ مئات السنين او آلافها . وكان من رأى اصحاب هذه المدرسة ان المؤرخ نفسه لا يقول شيئا وانما هي الوثائق التي نقول كل شيء ، وعلى هذا فلا فرق بين مؤرخ ومؤرخ الا فيما يتعلق بدرجة القدرة على استخدام مناهج البحث . وهذا غير صحيح فان موهبة المؤرخ لا يمكن اغفالها ، والمؤرخ ليس كما قال **كونيارز ريد** Conyers Read رجل يقضي عمره لاهثا بين مكتبة ومخزن الوثائق ودهاليز المخطوطات المثقلة بالغبار . ليس هذا هو المؤرخ الوحيد الجدير بالاعتبار ، لأن المؤرخ الجيد ليس عبد الوثائق والمخطوطات وانما هو ناقد حصيف يختار منها ويكتب كلاما حيا يخاطب عقول الناس في كل عصر . وكم من مؤرخ كتب من عشرات السنين نحس ونحن نقراه انه اقرب الى نفوسنا من مؤرخ معاصر لموت الحوادث بين يديه قبل ان يكتبها ، ومؤلفاته ان هي الا اكفان لما يكتب .

فاذا صدف هذا استطعنا ان نقول ان التاريخ على الحقيقة انما هو اعادة كتابة واعادة تفسير مستمرتان ، وهذه العملية المستمرة تلقى ضوءاً على الطريق الذي نسير فيه . فنحن عندما نرى كيف كان اجدادنا أسرى أوهام عصورهم استطعنا ان نتجنب أوهام عصرنا ، وفي هذه الحالة نكون دراسة التاريخ قد نفعتنا وارتقت بمستوى ادراكنا ولو الى حد ضئيل . ومن هنا بجىء فائدة قراءة ما كتب الماضون من صفحات التاريخ ، فان المؤرخ الذي لا يفعل ذلك لا يقل بعدا عن المنهج الصحيح من ذلك المؤرخ الذي يقدر قيمة الكتب بدرجة صفرية ورقها ، ويؤمن بكل ما طبع على ورق اصفر مجرد انه اصفر .

اذن فالتاريخ كما قلنا ينبغي ان يكون حوارا بين الماضي والحاضر ، ولا بد ان يكون كذلك حوارا بين المؤرخ وقارئه ، والكلمة الاخيرة في تاريخ اى عصر او اى حادث لم تقل بعد ولا يمكن ان يقال ابدا ، وهذا يضع يدنا على ممكن الخطأ الاكبر في اعمال رافكة ومدرسته ، اولئك الذين بلغ بهم الفرور بوثائقهم التي اعتمدوا عليها حداثاً جعلهم يتصورون انهم وصلوا الى كبد الحقيقة في كل ما كتبوه .

تطور الدراسات التاريخية :

كل تاريخ لتطور علم التاريخ بقراه في كتاب غربي لا بد ان يكون بالضرورة ناقصا ، اذ ان هذه الكتب نسقط من الحساب - كليا او الى حد كبير - الدور الضخم الذي قام به المؤرخون المسلمون في تطوير هذا العلم ، وما نقول هذا مجاملة منا للسابقين من مؤرخينا بل نقوله لانه حق ، واذا كان من الممكن الجدل في قيمة ما وصل اليه علماء العرب في الطبيعة والكيمياء بالنسبة لحالة هذين العلمين اليوم فانه لا جدال في ان المؤرخين العرب والمسلمين قد وصلوا في هذا العلم الى شأور بضارع أحسن ما وصل اليه الغربيون الى اواخر القرن التاسع عشر على الاقل . بل اذا

Arthur Marwick, The Nature of History p. 21.

(١٩)

(٢٠) هم المعروفون باسم relativists وقد اشرنا اليهم .

كانت مدرسة الوثائقيين واهل التوثيق الكامل في الغرب وهي مدرسة **ليوبولد فون رافكه وياكوب يوركهارت** هي ذروة ما وصل اليه العلم التاريخي في القرن التاسع عشر فان مؤرخينا المسلمين بدأوا بالذات من هذه النقطة : بدأوا على طريقة المحدثين المدققين الذين لا يروون خبرا الا اعتمادا على سند متين موصول من رواة ذوى صدق وأمانة ، وساروا بعد ذلك على مناهج علمية جديرة بكل تقدير . ولهم ، نتيجة لهذا ، فضل كبير جدا في تطوير هذا العلم ، ولكن مؤرخي الغرب ساروا على مبدأ ان العلم كله غربي . وفي ميدان التاريخ يبدأون عند **هيرودوت وتوكيديد** وينتهون عند **توينبي وهويتسنجا** Huitsinga ومن اليهما من معاصرنا .

ومن العسير لهذا ان نوسع في هذه العجالة مكانا مناسباً لما قمنا به في تاريخ هذا العلم . ولهذا فسنسندع جانباً لكي نخصص له دراسة قائمة بذاتها ، ونكتفي هنا بأن نروى للدارس العربي تاريخ هذا العلم كما يروونه في كتب الغرب .

وقد كان من المناسب لهذا البحث ان نروى في ايجاز تاريخ تطور علم التاريخ من بداياته الاولى عند هيرودوت الى اليوم ، ولكننا رأينا اننا اذا قصصنا هذا التاريخ بحسب المفهوم الغربي جاءت القصة ناقصة ، لأنها ، كما ذكرنا ، لا نحسب حساب الدور الكبير الذي قام به العرب والمسلمون في تطوير ذلك العلم والسير به الى الامام ، ثم ان هناك - خارج النطاقين الاوروبي والعربي - مؤرخين ومدارس تاريخية لها اهميتها عند الصينيين والهنود خاصة ، فاذا كان ولا بد من ايجاز تاريخ علم التاريخ فلا بد ان يتضمن ذلك الموجز حديثاً عن نصيب تلك الامم في تطوير علم التاريخ بدلاً من الاقتصار على متابعة اهل الغرب فيما يقولونه والاكتفاء به ، ومن آفات الفكر الغربي انه لا ينظر الا الى نفسه ولا يكاد يحسب لغيره حساباً ، وفي اعماق كل مفكر غربي ان الحضارة الجديرة بالاهتمام هي الحضارة الغربية وحدها ، وان الفكر هو الفكر الاوروبي ولا غير ، فاذا ظهر خارج النطاق الاوروبي افذاذ من امثال ابن خلدون وطاغور مثلاً فهذه نواذر بل طرائف تقرأ ، ويهتم بها لغرابتها أو لطرافتها ، لا لانها تكون جزءاً اصيلاً من الخط الرئيسي .

ولهذا وحتى يمكن تعديل التاريخ التقليدي لعلم التاريخ على نحو يجعله انسانيًا عاملاً لا اوروبياً فحسب ، فاننا سنكتفي هنا بأن نعرض تطور هذا العلم خلال العصر الحديث من اواخر القرن الثامن عشر الى اليوم ، وهي فترة حاسمة في تاريخ تطور التاريخ ومفهومه ومناهجه .

تطور علم التاريخ خلال العصر الحديث :

الى منتصف القرن السابع عشر كان التاريخ في الغرب فرعاً ثانوياً قليل الأهمية من العلم يهتم به بصورة خاصة الرهبان وخواشي الملوك ، فأما الرهبان فقد كان همهم موجهاً الى شئون الدين وتواريخ البابوات واخبار القديسين وما يقال من اجرائهم المعجزات او الكرامات ، وربما اشاروا في اثناء ذلك الى بعض ما يهم غير رجال الدين من الحوادث . ومراكز المخطوطات في مكتبات الغرب مثقلة بهذه التواريخ التي كتبها الرهبان في صمت صوامعهم على ضوء الشموع على سبيل التسلية احياناً وقطعا للوقت وهروباً من الملل وتقرباً الى الله في اكثر الاحيان .

ومعظم هذه المدونات مكتوب باللاتينية ، والقليل منها بلغة اهل البلد من فرنسية او المانية او انجليزية وما اليها ، ولكنها كلها تشترك فيما يسودها من ثقل وتشابه وإيمان بالخوارق والمعجزات وقلة ما يجده المؤرخ فيها من مادة تاريخية نافعة .

واما ما كتبه حواشي الملوك من سيبرسادتهم وما قاموا به من اعمال فاكثر قيمة من الناحية العلمية وان كان يقلب عليها الملق والمبالغة والاكاذيب ، ولكنها على اى حال تضم مادة تاريخية يمكن استخلاص حقائق نافعة منها بعد جهد قليل او كبير .

والخلاصة هنا انه لم يكن في الغرب الى ذلك الحين شيء يمكن تسميته علم التاريخ ، انما كانت هناك المدونات Cronica التي ذكرناها وبيننا قلة قيمتها كأصول تاريخية ، وفيما عدا مؤرخي العصور القديمة ما بين افريق ورماني من امثال هيرودوت وتوكيديد وبوليبيوس وتيتوس ليفيوس ومارسيلوس اميانوس لم يكن هناك الا اصحاب مدونات اشهرهم رجال مثل اجينهارت Eginhardt مؤرخ شلمان وفرواسسار Froissart ودي جوانفيل De Joinville اللذين أرتخا لبعض الحملات الصليبية .

ولهذا فعندما نشر فولتير مؤلفه الاول في التاريخ عن حياة واعمال شارل الثاني عشر ملك اسكنديناوه وحروبه مع الروس Historie de Charles XII سنة ١٧٣١ رأى الناس فيه لونا جديدا من التاريخ لم يعرفوه الى ذلك الحين ، فعلاوة على تحقيق فولتير لاعمال هذا الملك الاسكنديناوي الشاب واجتياحه للقوات الروسية كانه شهاب ثاقب ، معتمدا في ذلك على دراسة نستطيع ان نصفها بانها وثائقية نجد ان فولتير عرف كيف يتأنى في الحكم ويحسن المقارنة بين ذلك الملك الشاب المغامر ومنافسه العنيد بطرس الاكبر قيصر الروس . فقد رأى فولتير ان شارل الثاني عشر ، رغم انتصاراته العسكرية ، شاب متهور مخرب في حين ان بطرس الاكبر رغم قسوته وعنفه رجل مصلح استطاع ان ينشئ امبراطورية شاسعة متحضرة وايد فولتير بعد ذلك ملكته التاريخية في كتابه البديع « خطابات فلسفية » Lettres Philosophiques الذي يدخل في نطاق المؤلفات الفلسفية ولكنه حافل بالآراء والملاحظات على مسار التاريخ وتصاريه الزمان . وبعد ذلك بست سنوات نشر فولتير كتابه المشهور عن عصر لويس الرابع عشر Le Siècle de Louis XIV الذي ابدى فيه براعة فائقة في تحليل الاحداث والاشخاص ، واعطى للمرة الاولى في تاريخ الفكر الغربي الحديث صورة بديعة لعصر اشتهر بما زانه من مظاهر الحضارة . وقد اغراه نجاح كتابه هذا بالتفكير في كتابة تاريخ عالمي ، ولكنه لم يستطع السبر في عمل ضخم كهذا ، واقتصر على تحرير خلاصة صغيرة اسمها « مقال عن الاخلاق والعادات » Essai sur les moeurs وهو كتاب طريف يجدا المؤرخ لذة في قراءته نظرا لما فيه من محاولة لتعمق في فهم الجماعة البشرية وتركيبها ، وبعض صفحات هذا الكتاب تذكر احيانا بصفحات مما كتب المسعودي في مروج الذهب ، وحيانا اخرى بما اورده ابو حيان التوحيدى في « الامتاع والمؤانسة » .

ولهذا كله يميل الكثيرون من المؤرخين الى اعتبار فولتير مؤسس العلم التاريخي بمفهومه الحالي في الغرب . ولكن فولتير لم يكن على الحقيقة مؤرخا ، وانما كان من هواة التاريخ ، وقد كتب التاريخ على انه لون من الادب او الفلسفة ، وهو يمثل القمة التي وصل اليها لون من الوان الفكر الغربي نشأ في عصر النهضة وجمع اصحابه في مؤلفاتهم اطرافا من الفلسفة واخرى من التاريخ وازادوا الى ذلك فيضا من التأملات والآراء الصائبة او غير الصائبة .

ولا بأس هنا من الاشارة الى بعض كتاب عصر النهضة هؤلاء ممن صدرت عنهم مؤلفات اصبحت فيما بعد من ذخائر المكتبة التاريخية ، واولاهم بالتنبية هنا نيكولو ميكافيلي Nicolo Machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) صاحب كتاب « الامير » المشهور ، وهو كتاب فلسفة وسياسة في ظاهره ، ولكنه قائم في صميمه على فهم سليم للتاريخ وخاصة لتاريخ

ايطاليا في عصره وهناك ايضا **فرانشيسكو جيتشيارديني** Francesco Guicciardini (١٤٨٣ / ١٥٤٠) الذي كتب تاريخا لاطاليا لا يخلو من تعمق ونظر تاريخي ، **وليوناردو بروني** Leonardo Bruni (١٣٧٤ - ١٤٤٤) صاحب كتاب تاريخ فلورنسا Storia Fiorentina الذي يعد من احسن المؤلفات التاريخية التي خلفها عصر النهضة . وقريبا منه ذلك الكتاب الذي ألفه السر **والتر رالي** Walter Raleigh وسماه تاريخ العالم History of the World ونشره سنة ١٦١٤ فلم يلق كبير نجاح رغم انه لا يخلو من قسمة علمية .

وفي نفس الوقت كان نفر من الرهبان في الأديرة يحاولون الخروج من سامة المدونات التاريخية والبحث عن طرق جديدة لدراسة التاريخ وفهمه . وقد التفت بعضهم الى اهمية مجموعات الوثائق المقدسة في الاديرة وامكانية استخدامها كمادة تاريخية اذا هي درست الدراسة العلمية الكافية ، واهم هؤلاء الرهبان هم البندكتيون في دير **سان مور** Saint Maur في فرنسا، ويشبههم في ذلك نفر من رهبان الجيزويت في بلجيكا على رأسهم الراهب المؤرخ المشهور **يوحنا بولاند** Jean Bolland (١٥٩٦ - ١٦٦٥) الذي اصبح علما على مدرسة جديدة في دراسة وناقى الأدبرة واستخراج المادة التاريخية منها ، ولا زالت جمعية البولنديين Les Bollandistes الى يومنا هذا من اكبر الجمعيات التاريخية واكبرها مكانا من احترام الناس . وقد أدت دراسات اولئك الرهبان الى الكشف عن حقائق ازلت من النفوس كثيرا من الأوهام ، ومن ذلك ما كشف عنه الراهب **فالا** Valla (١٤٠٧ - ١٤٥٧) من ان الوثيقة المشهورة المسماه بهبة **فستظنين** Doratio Constantini التي كانت تعتبر مقدسة لان البابوات كانوا يقولون ان **الامبراطور قنسطنطين الكبير** وهب فيها اراضي ايطاليا للكرسى البابوى على اعتبار انها ارث **الرسول بطرس** اخذه عن السيد المسيح مباشرة . فقد انب هذا الراهب ان هذه الوثيقة زائفة وان رجال الكنيسة زيفوها ووضعوا عليها خاتم قنسطنطين وان **السيد المسيح** لم يمنح الحوارى بطرس سيفا في ايطاليا او غيرها . وقد احدث هذا الكشف زلزالا عنيفا في اوساط العلم والسياسة والدين في أوروبا ، وهوجم الراهب فالا هجوما عنيفا .

وكان هذا النجاح الذى لقيه فالا مغربا للكثيرين من الرهبان على الانكباب على مجموعات الوثائق التي تحت ايديهم فاقبلوا يدرسونها ويمحصونها ، فبدأت اصول علم الوثائق تظهر وهو العلم الذى عرف فيما بعد باسم الباليوجرافية Paleography ووظيفته دراسة الكتابات والمخطوطات ، وتفرع عنه علم النقوش المعروف باسم الابيجرافية Epigraphy ووظيفته دراسة النقوش والرسوم على الاحجار وغيرها وتفسيرها واستخراج المادة التاريخية منها ثم لم يلبث ان ظهر علم الآثار او الاركيولوجيا Archeology ووظيفته دراسة كل ما خلفته العصور الماضية من ابنية واسماء مصنوعة او ادوات او قطع او نقوش او بقايا عمران .

وهكذا وسيئا فسيئا من اوائل القرن الثامن عشر اخذ العلم التاريخي يستقر على قواعد واصول فنية علمية خرجت به - شيئا فشيئا ايضا - من مجال الادب والفلسفة والناملات واساطير القديسين ومدائح الملوك الى ارض العلم الصلبة ، وولد علم التاريخ في الغرب ، ونضع خطأ عريضا تحت عبارة **((في الغرب))** لان التاريخ عندنا - معاصر العرب - ولد من أول الامر علما دقيقا قائما على النقد والتحقيق ، فان شجرة التاريخ عند العرب نبنت في تربة علم الحديث ، وعلم الحديث علم يقوم على الدقة والتحري والضبط بالنسبة للحديث المروى وعلى نقد الرجال - وهو علم الجرح والنعديل - فيما يتصل برجال السند وهم قواعد الرواية وعمدها.

وقد ارتبط ميلاد هذا العلم التاريخي في الغرب باسماء لا زلنا نقرأ مؤلفات اصحابها باجلال عميق : هناك **دوشيسن** Duchesne الذي كتب تاريخا ضخما للكنيسة الكاثوليكية تحرى فيه الدقة والصدق وتسليح بشجاعة نادرة كشف بها عن مساوئ الكثير من البابوات وزيف بعض كبار الرهبان ، **وبالوز** Baluze و**مابيون** Mabillon و**مونفوكون** Montfaucon الذين اقبلوا على دراسة مجموعات الوثائق المحفوظة في الاديرة والبلديات وخزائن الدولة واجتهدوا في جمع ما لدى الافراد من وثائق لا يداعها في المكتبات الوطنية وجعلها في متناول الناس .

ادوارد جيبون ودوره في تطور علم التاريخ في الغرب - معاصرو جيبون .

ووسط ذلك الحماس للتاريخ والاهتمام بجعله علما محترما ظهر **ادوارد جيبون** Edward Gibbon (١٧٣٧ - ١٧٩٤) الذي يعتبر من اعظم المؤرخين واساتذة هذا العلم على مر العصور رغم أن كتابه الأشهر : تاريخ اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها The History of the Decline and Fall of the Roman Empire حافل بوجوه النقص ، ولكنه عمل علمي رائع كتبه صاحبه عن ايمان عميق باهمية ما يعمل ، وانفق في كتابته معظم سنوات عمره تقريبا كما فعل مؤرخنا العظيم ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ومهما تقادم به العهد فسيظل دائما من درر المكتبة التاريخية في كل عصر ولغة ومكان ، ولقد قال المؤرخ الانجليزي الأشهر **ج . ب . بيوري** J. B. Bury : انك لن تكون مؤرخا حتى تقرأ جيبون ، وهي قالة حق ، لأن جيبون عاد بالفعل بنفسه الى ايام الدولة الرومانية وقرأ كل ما تيسر له من كتابات اهلها وكتب تاريخا لها لا نمل الانسان من قراءته . واذكر انني في سنوات الدراسة الاولى في جامعة القاهرة كنت احفظ عن ظهر قلب تقريبا اربعة فصول من كتاب جيبون هذا ، نثروها في طبعة ميسرة للطلاب هي الفصول الخاصة بعصر الانطونيين The Age of the Antonines

واجمل ما في **جيبون** انه كان رجلا ميسورا الحال طول حياته ، وكان في صباه مبتلى بالامراض مثقلا بالمتاعب بسبب اهمال امه اياه ، ولكنه كان انسانا غني النفس ذكي القلب ، فهذا الصبي الذي لم تمكنه صحته من الدراسة المنتظمة الا بعد ان ادرك سن الرشد وتخطى الخامسة عشرة لم يلبث ان قرر بعد تفكير طويل ان يتخلى عن العقيدة الانجليكانية ويعتنق الكاثوليكية . وهو أمر افزع اياه ، لأن معناه حرمان ابنه ما عاش من الوصول الى اي وظيفة محترمة في الدولة او مكانة مرموقة في المجتمع . ولكن ادوارد جيبون سار في طريقه غير هيب ، وعندما ابعد ابيه الى جنيف ، حتى يعود الى عقله ويتترك الكاثوليكية ، اقبل على دراسة الفرنسية وبرع فيها واخذ يؤلف بها ، واتصل بعولتير واصحابه ، واصبح شخصية لها مكانتها واقبل على قراءة الآداب اللاتينية في نهْم بالغ . وعندما اشتركت انجلترا في حرب السنين السبع دخل الجيش ووصل الى درجة كابتن ، ثم ذهب الى باريس سنة ١٧٦٣ وتعرف على الموسوعي الأشهر **ديدرو** Denis Diderot وصاحبه دالامبير Jean D'Alembert ثم ذهب الى ايطاليا ، وفي منتصف اكتوبر ١٧٦٤ وبينما كان ينتقل بين آثار روما خطرت بباله فكرة كتابة تاريخ شامل للدولة الرومانية . ومن ذلك الحين الى آخر حياته أصبح هذا التاريخ شغله الشاغل ، وقد ظهر مجلده الاول في ١٦ فبراير ١٧٧٦ ومجلده الاخير في ٨ مايو ١٧٨٨ ، وتوفي جيبون نفسه بعد ذلك بست سنوات في ١٦ يونيو ١٧٩٦ وقد ترهل جسده وحطت عليه الامراض وتكاثرت عليه الآلام بموت خيرة اصحابه واصدقائه .

لا يتميز كتاب جيبون بفلسفة خاصة للتاريخ . بل ان الدقة والضبط والاستفادة الكاملة من المراجع تنفصه في احيان كثيرة ، ولكنه كان اول غربي كتب في العصر الحديث دراسه تاريخية لدولة كبرى ، قص فيها تاريخها كاملا . وحاول ان يسنقضي اسباب ضعفها وانهيارها ، وكان اقبال الناس على هذا الكتاب وتقديرهم اياه كافيا لرفع قدر التاريخ الى مستوى اهم فروع العلم واجدرها بالعناية . ومن حسن الحظ انه كان رجلا بليغا فخم العبارة عظيم الهمه وان كان هو نفسه رجلا صغير الحجم دميم الشكل ، وقد نجح الى حد كبير في أن يضع قارئه في العصر الذي يتحدث عنه حتى انك لتسمع ، وانت تقرا وصف خروج جيوش قيصر من روما للحرب ، قعقه العجلات وصلصلة السيوف وصهيل الخيل ، ولم يحاول ان يفلسف الاحداث او ان يجهد نفسه في البحث فيما وراءها .

والاجماع منعقد على ان تاريخه للقرون الثلاثة الاولى من تاريخ روما عمل رائع ، ولكن النقد كثير لما كتبه عن تاريخ الدولة البيزنطية اى عن الالف سنة الاخيرة من تاريخ الدولة الرومانية ، وقد سخط عليه الكثيرون لتحرر فكره وقلة ايمانه بالمسيحية ، ولهذا كرهه وحمل عليه الدكتور صمويل جونسون وصاحبه بوزويل ، ولكن هذا بالذات اعطى ذلك الرجل الفرصة ليفهم الدبانات الاخرى ، ولهذا فادوارد جيبون من الاوروبيين القلائل الذين قدروا الاسلام ورأوا بعض جوانب عظمة الرسول الكريم وهنا نجد جيبون اوسع ذهنا واكثر نحررا من فولتير الذى لم يستطع ، رغم تحرره المعروف ، التخلص من اسار التعصب الكاثوليكي ، بل لقد حاول جيبون ان يفهم الزردشتية والمانوية وما اليهما من العقائد غير السماوية ، وهذا فضل يذكر له . لم يكن جيبون صاحب مدرسة في التاريخ - مثل رافكه مثلا - ولكنه ارتفع بالتاريخ كله الى مستوى لم يعرفه الغرب قبل ذلك .

لقد عاش جيبون في صميم عصر التنوير The Enlightenment وعاصر فولتير ومونتسكيو Montesquieu وچان چاك روسو وغيرهم من اعلام ذلك العصر . ويحس الانسان وهو يقرأه انه اكثر الجميع استنارة ، لا نستثنى من ذلك چان چاك روسو . وهو دون شك اقرب الى الروح الانساني ، وادق فهما للتاريخ من معاصره الفرنسي الاسقف چاك بنين بوسويه Jacques Benigne Bossuet (١٦٢٧ - ١٧٩٤) الذى يحتل مكانا كبيرا بين المؤرخين بكتابه المسمى مقال عن التاريخ العالمي Discours sur l'histoire universelle الذى جعل الكنيسة الكاثوليكية فيه محور التاريخ الانساني كله وفسر التاريخ كله تفسيرا دينيا صرفا بل مسيحيا كاثوليكيا فحسب .

في ذلك العصر ارتفع مقام المؤلفات التاريخية واقبل عليها الناس حتى ان ديفيد هيوم David Hume الفيلسوف صرف جزءا كبيرا من وقته في التأليف التاريخي ، والى تاريخا لانجلترا في ستة مجلدات ، كسب من المجلد الاول وحده الفي جنيه وكانت مبلغا ضخما بحسب تلك الايام .

ولا يمكننا ان نترك عصر التنوير ومؤرخيه دون وقفة صغيرة عند آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) الذى يعتبر مؤسسا لعلم الاقتصاد بكتابه المشهور عن «ثروة الامم Wealth of Nations» وهو كتاب تاريخي في صميمه وفي طريقته ، وفضيلة آدم سميث انه لفت الانتظار الى اهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ ، وهي كما نعرف من اهم العوامل اولاهما بالاهتمام . ويكفي ان نذكر ان جيبون في بحثه الطويل عن اسباب سقوط روما لم يتنبه الى العامل

الاقتصادي . انما تنبه اليه المؤرخون بعد ان كشف آدم سميث عن اهمية العامل الاقتصادي في بناء الدول والجماعات ، وقد افاض كارل ماركس بعد ذلك في هذه الناحية ، ولكن آدم سميث يعتبر صاحب الفضل الاول في استلفات انظار الناس الى اهمية العامل الاقتصادي .

واذا كان مؤرخو القرن الثامن عشر وعلى رأسهم ادوارد جيبون قد لفتوا انظار الناس الى اهمية دراسة التاريخ دراسة علمية وقيمتها الكبرى ، كدراسة انسانية اصيلة ، فانهم رغم ذلك لم يصلوا الى تثبيت اقدم التاريخ كعلم له اصول ومناهج مقرر في البحث . فعلى الرغم من ان جيبون وهب حياته كلها لدراسة التاريخ الا انه ظل يعتقد انه ضرب من الادب وقال عنه انه « اذيع ضروب الأدب » : The most popular of all forms of literature

وهي عبارة انكرها عليه مؤرخو القرن التاسع عشر انكارا شديدا ، والحق ان الذي يقرأ جيبون وفولتير على انهما اديبان ، يقدرهما بأكثر مما يفعل من يقرأهما على انهما مؤرخان . ومن عباراته المبدعة التي كتبها في مقدمته لكتابه عن اضمحلال الدولة الرومانية قوله : « ان كل صفحة من صفحات التاريخ ملطخة بدماء البشر وعنف الصراع بين الناس وغرور النصر واليأس من التوفيق وذكرى المظالم الماضية والخوف من الاخطار المقبلة ، وهذه كلها امور تثير العقل ولكنها تستكت صوت عاطفة الاشفاق » وهذه مقالة أديب وشاعر وليست قطعاً عبارة مؤرخ محترف ، لأن المؤرخ الممارس يعرف ان هذه كلها اشياء طبيعية داخلية في تكوين بنية الحياة على الارض . فكما ان عالم الحيوان لا يستنكر افتراس الذئب للارنب ، لأن الذئب بطبيعته يعيش على الافتراس ، فان المؤرخ لا يستنكر الحروب او المظالم او المآسى التي ينزلها الناس بالناس لأن هذه هي طبيعة الحياة .

ويؤخذ على مؤرخي القرن الثامن عشر كذلك قلة تنبهم الى تطور الانسان ومجتمعه . فانسان عصرهم في نظرهم هو نفس انسان العصور القديمة دون ادنى تطور في عواطفه او سلوكه . ومن هنا فانهم جميعاً يجمعون على سوء الظن بالناس وتصرفاتهم . والسخرية من البشر واعمالهم ، وهم بهذا اقرب الى الاخلاقيين منهم الى العلماء أو المؤرخين المحترفين . ولهذا فانهم لم يستطيعوا ان يصلوا بالتاريخ الى مرتبة العلوم التي تدرس في الجامعات .

ليوبولد فون رانكه ومدرسته :

ولكن وضع التاريخ هذا والنظرة اليه كان لا بد ان ينالهما تغيير حاسم خلال القرن التاسع عشر الذي تميز بتزاحم الاحداث الضخمة التي احدثت في الذهن الاوروبي ما يشبه الزلازل العنيفة العميقة المدى ، وقد احدث هذا الزلازل ثورة حقيقية في كل ميادين العلوم تقريبا ، وكان لا بد ان يكون للتاريخ نصيب من هذه الثورة ، فانتقل التاريخ من نطاق الهوايات او الآداب الى نطاق العلوم ذات الاصول والمناهج .

ونمثلت هذه الثورة في ميدان التاريخ في الحركة الشاملة البعيدة المدى التي قامت بها مدرسة برلين وطلبتها نيبوهر Niebuhr وقائدها ليوبولد فون رانكه .

ولكن الفضل في هذا التطور الشامل في علم التاريخ لا يرجع كله الى الالمان ، بل سبقهم اليه مفكرون اوروبيون آخرون اشهرهم جامباتيستا فيكو Giambattista Vico (١٦٦٨ - ١٧٧٤) وهو مفكر ايطالي من نابولي تشوب تفكيره فوضى جعلت البعض يتهمون به بالجهل ، ولكن الرجل كان ذا فكر لحاح مكث له من ان ينظر في التاريخ نظرة هي اعظم مما فعله الكثيرون من مشاهير رجال

عصر التنوير ، فقد نظر الى التاريخ نظرة عامة وأخذة في مجموع عصوره وقسمها الى ثلاث حقبة ، الاولى « الهبة » اي العصر الذي كان الناس يردون كل الحوادث الى صنع آلهة ، والثانية « بطولية » كان التاريخ فيها سردا لاعمال وعظماء الرجال ، والثالثة « انسانية » وهي التي انتبه المؤرخون فيها الى أن التاريخ الحقيقي هو الذي تصنعه الجماهير والشعوب . وعلى الرغم من بساطة هذا التقسيم وسذاجته ، فان فيكوي يعتبر في الغرب أول من نظر الى التاريخ العالمي نظرة عامة فلسفية . لقد عاش بعد ابن خلدون بثلاثة قرون (عاش ابن خلدون فيما بين سنة ١٣٣٢ - ١٤٠٦) ، وكان ينبغي ان يعتبر تابلا له في سلسلة فلاسفة التاريخ ، ولكن اهل الغرب نادرا ما يفكرون تفكيراً عالمياً حقيقياً ، وهم نادرا ما يوسعون لغير غربي مكانا في تاريخ الفكر العالمي .

ولقد كان لكتاب فيكو اثر بعيد في اوساط المؤرخين الى نهاية الحرب العالمية الاولى على الاقل ، وربما كان اثره مباشرا عند رجل مثل يوهان جوتفريد هيردر Johann Gottfried Herder (١٧٤٤ - ١٨٠٣) الذي يعتبر بحق مؤسس المدرسة الالمانية في علم التاريخ . كان هيردر في اساسه أدبيا وناقدا أدبيا ، وتكوينه الاول لاهوتي كلاسيكي ، وهو يحتل مكانا ضخما في تاريخ الأدب الالمانى ، فهو صديق جيته معظم ايام عمره ، وهو من مؤسسي حركة الاقتحام والاندفاع Strum und Drang ذات الانر البعيد في تاريخ الفكر الالمانى ، ولكنه صرف الى التاريخ جانبا من عنايته وألف فيه كتبا تعتبر معالم على طريق علم التاريخ الحديث وخاصة كتابه « آراء في فلسفة تاريخ البشر : Ideen Zur Philosophie der Egeschichte der Menschheit » ورسالته المسماة « وكذلك فلسفة لتاريخ بناء الانسانية » Auch eine philosophie der geschichte zur bildung der Menschheit غير أن آراء هيردر في التاريخ متناثرة في أعماله الكثيرة في الادب وعلم اللغة والدراسات القديمة ، فقد كان الرجل موسوعيا بحق سواء في ثقافته الخاصة او ميادين دراساته وتواليفه .

وتقوم فلسفة التاريخ عند هيردر على القول بأننا لا بد ان ندرس الماضي لنفهم مشاكل اليوم والفد ، وقد نسبته ابن خلدون في تشبيه الجماعات الانسانية بالمخلوقات الحية وقال ، بأن لها هي الأخرى اعمارا من الطفولة والصوبة الى الشيخوخة ، وابدى ذكاء بعيدا في فهم التاريخ الاوروبي المعاصر له ، وقد قال ان المؤرخ ينبغي ان « يحس » العصر الذي يؤرخ فيه احساسا مباشرا ، وابتكر لذلك فعلا في اللغة الالمانية هو einfuehlen وقال ان هذا الاحساس المباشر هو الحاسة التاريخية ، ولهذا فأن لفظ الحس او الاحساس das gefuehle له عند هيردر معنى خاصا ، وهو ممن قالوا بأن المؤرخ الحق هو الذي يستطيع ان يكون فكرة او صورة عامة Gestalt عن العصر او الشخص او الظاهرة التي يكتب عنها . وقد حاول ان يثبت في كتابه المسمى « آراء عن فلسفة تاريخ الانسانية » ان التاريخ يخضع لقوانين كتلك التي تخضع لها الاشياء والطبيعة ، وقد قال بأن التاريخ يسير في خط تقدمي واحد ، وتحدث عما سماه التوازن الداخلي للجماعات ، وان كل جماعة حية سليمة ينبغي ان تحافظ على هذا التوازن ، وان الاضطرابات والفوضى وعهود الظلم والتأخر تنتج عن فقدان هذا التوازن ، وكان يؤمن بأن لانسانية ستصل يوما ما عن طريق العقل والتجربة الى حالة من التوازن تستقر معها أسس العدالة والنظام .

وكان هيردر بعمله هذا فاتحا لعصر جديد زاهر في تاريخ العلم التاريخي انتهى باعتباره علما قائما بذاته له اصوله وقواعده وكراسيه واقسامه في الجامعات ، والفضل الأكبر في ذلك يرجع الى ليوبولد فون رانكه Leopold Von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦) الذي عمّر فوق التسعين

سنة ، عاملا نشيطا في ميدان التاريخ ، وهو من أوائل من قصروا جهدهم كله على التاريخ ووصفوا في الغرب بأنهم مؤرخون . ولد رانكه في ٢١ ديسمبر ١٧٩٥ في بلدة فيهي Wiehe في مقاطعة تورينجن في مملكة سكسونيا وتخصص أولا في الدراسات القديمة واللاهوت ، ثم دخل في خدمة ملوك بروسيا وانتقل الى برلين حيث عين استاذا مساعدا للدراسات القديمة في جامعته سنة ١٨٢٥ ثم أصبح استاذا وظل في هذه الوظيفة الى وفاته في ٢٣ مايو ١٨٨٦ في برلين .

كان رانكه عميق الإيمان بالمشيحية على المذهب اللوثرى (البروتستانتى) وكان مثاليا على مذهب فيخته ، وتأثر باتجاه هيردر نحو الاعتراف بالجانب الانساني اى البشرى في التاريخ وقال بفكره التطور العضوى للجماعات وكذلك بأهمية العامل الفردى Das Individualistische في توجيه الاحداث ، ولكنه انكر استخدام التاريخ للغة والعبرة ، وهو مذهب مؤرخي العرب ومعظم مؤرخي القرن الثامن عشر في اوربا ، وقال ان التاريخ ينبغي ان يدرس لذاته لا كوسيلة للتعليم والتهديب .

واهم ما تميز به رانكه ودعا اليه قوله بأننا ينبغي قبل كل شيء ان نعرف الاحداث والاحوال الماضية كما كانت بالضبط ، ودفعه هذا الى الاهتمام بالوثائق ومخلفات الماضي اهتماما بالغا . فلكني نعرف عصرا ينبغي ان نراه في الاصول التى كتبت خلاله لا تلك التى كتبت عنه ، أى شيء هو اصدق من الوثائق الرسمية ومكاتبات الدول والافراد وسجلات الحكومات والكنائس والمذكرات الشخصية ؟ وقد بلغ من حماس رانكه ولامبذه لهذه الاصول ان انتشروا في الارض ينقبون في كهوف المحفوظات ورفوف الاديرة باحثين عن الوثائق في حماس جعل الدول والامارات والكنائس وغرف التجارة وبيوت الاشراف نهتم بتلك الاضابير وتنظيمها فنشأ علم الوثائق واخذت قواعده تستقر ، وقامت دور المحفوظات ومجموعات السجلات في اوربا كلها ، واقبل طلاب التاريخ بدرسونها وكأنهم - كما قيل يومئذ - فبران يقضي الليل في قضم صفحات الكتب « وكان كتابه الاول المسمى تواريخ الشعوب اللاتينية والجرمانية Geschichten der Romanischen und Germanischen Volker طرازا جديدا من التأليف التاريخي يقوم على الاعتماد على الاصول . وقد بسط فيه رانكه آراءه التى ذكرناها . ولكنه وقع فيما وقع فيه ابن خلدون عندما عجز في تاريخه عن أن يطبق نظرياته التى بسطها في « المقدمة » فقد كان - مثلا - ناقدا حسيفا لأصوله التى اعتمد عليها ولكنه كان شخصا غير موضوعي في الكثير من احكامه ، وانكر على هيجل تأملاته وتصوراته غير التاريخية تم ملأ هو كتبه بالتأملات والنظريات الخاصة ، ومن اكبر وجوه النقص في تفكيره انه في حماسه للنظام البروسي لم ير الحد الفاصل بين سعي بروسيا نحو الوصول الى القوة واستخدام هذه القوة للعدوان بعد ذلك . وقد رأى في « الدولة » مفهوما اخلاقيا شبيها بالكنيسة ، ووقع بذلك في الانحراف الذى وقع فيه الكثيرون من مفكرى الالمان الذين نحسوا للنظام البروسى واعتماده على القوة والنظام حماسا يعتبر تمهيدا لقيام دولة الحديد والنار على يد بسمارك .

وكان اهتمام رانكه بالوثائق الرسمية ومكاتبات الدول سببا في اهتمامه الشديد بالتاريخ السياسي والعسكرى فلم ينتبه كثيرا الى النواحي الاجتماعية والاقتصادية . وقد وجه معظم اهتمامه الى قيام النظم السياسية الاوروبية وما كان يقوم بينها من صراع . ولكن غاب عن ذهنه تماما ان يفتن الى اهمية قيام الدولة السلافية الكبرى وهي روسيا وتوسعها البطيء

الذى سيجعل منها فى المستقبل اكبر قوة فى اوروبا . وكان ايمانه شديدا بنظام المجتمع الالماني الذى عاش فيه والنظام البروسي الذى حكم ذلك المجتمع ، فكان شديد الإعجاب بالطبقة الوسطى الالمانية - وهو منها - وكذلك بالطبقة الارستقراطية الالمانية التى انتسب اليها فيما بعد . وهذا كله حال بينه وبين ان يقدر نظم المجتمعات الاخرى خارج اوروبا ويفهم حضارنها ، واذا كان قد اجاد فهم تاريخ بروسيا فى الكتب التسعة التى كتبها عنه Neun Bucher preussischer Geschichte (١٨٤٧ - ١٨٤٨) وتاريخ انجلترا فى كتابه عنه Englische Geschichte (١٨٥٩ - ١٨٦٨) وكذلك تاريخ فرنسا فى كتابه Fransoesische Geschichte (١٨٥٢ - ١٨٦١) فانه لم يوفق فيما كتبه عن موضوعات تاريخية غير اوروبية . ومثال ذلك مقاله عن محمد صلى الله عليه وسلم الذى نشره فى المجلة التاريخية التى سنشئ اليها ، وهو دليل واضح على قلة علمه فى ذلك المجال وقصوره عن ادراك حقيقة الاسلام ورسوله . وكذلك فهمه قليلا بالحركة الصناعية فى اوروبا كلها وما كان لها من نتائج ، ولم يكتب شيئا ذا قيمة عن الولايات المتحدة .

ولكن الذى اعطى رانكه مكانه الكبير فى تاريخ علم التاريخ هو اهتمامه بالوثائق والمنهج الدقيق الذى وضعه لتنظيمها ودراستها ، وكانت الوثائق تسمى بالدبلومات ولهذا فان مدرسة رانكه تسمى بالمدرسة الدبلوماسية ومن الخطأ تسميتها بالمدرسة الدبلوماسية . فلا علاقة لعمله بالدبلوماسية بمفهومها الشائع اليوم . ومما يذكر له بالخير اسفاره المتعددة الى بلاد اوروبا لفحص مجموعات الوثائق وتقارير السفراء والمكاتب الرسمية . واليه يرجع الفضل فى انشاء اللجنة التاريخية اكااديمية بافاريا للعلوم Historische Kommission bei der Bayrischen Akademie der Wissenschaften . وقامت هذه اللجنة بنشر الوثائق العامة ووثائق الدولة والمدونات والخطابات . وعلى مثال هذه اللجنة انشئت فى نواحي اوروبا كلها هيئات قامت بهذا العمل فى كل ناحية ، فتهيأت السبل بذلك امام المؤرخين ليقوموا دراساتهم على الاصول . وانشأ كذلك المجلة التاريخية السياسية Historische-Politische Zeitschrift . فكانت من طلائع الدوريات التاريخية التى قامت ولا زالت تقوم بالدور الذى نعرفه فى ميدان الابحاث التاريخية .

والنظرية الاساسية التى جاء بها هي قوله باننا ينبغي ان نصور الماضي كما كان بالضبط wie es eigentlich gewesen وهي غاية عسيرة كل العسر ، لم يوفق اليها هو نفسه فى الكثير من كتبه ، ثم اننا لا نعرف كيف كان الماضي بالفعل حتى نحكم اذا كان المؤرخ قد وفق الى تصويره تصويرا دقيقا ام لم يوفق ، ولكن مذهبه هذا دفع بالمؤرخين الى الانصراف عن التصورات المثالية او التخيلية للماضي والبحث عن الحقيقة كيفما كانت على قدر ما تساعفهم ملكاتهم .

وكان رانكه كذلك مولعا بتنسيق المادة التى يحصل عليها والبحث عن التوازن فى تصويره للحوادث او المجتمعات ، ولهذا فانه لم يوفق الى فهم الثورة الفرنسية مثلا لانه لم يجد فى حوادثها ذلك التوازن الذى كان يلتزمه دائما . وقد كان مغاليا ولا شك فى تقدير مهمة المؤرخ عندما قال فى مقدمته لكتابه عن تاريخ الامم اللاتينية والجرمانية : « ولقد وضعت على عاتق التاريخ مهمة الحكم على الماضي وافهام الحقائق لاهل الحاضر بما يعود بالخير على اهل الاجيال القادمة . وكتابي هذا لا يسمو الى تحقيق هذه المطالب الرفيعة وكل ما يسعى اليه هو ان يعرض ما حدث فعلا بالضبط كما كان بالفعل » . ولقد كان لهذا المبدأ اثر سيء فى اعمال الكثيرين من المؤرخين الذين تابعوا رانكه ، فجعلوا من انفسهم قضاة للماضي وحكاماء على اهله ، ومضوا يصدرن احكاما تضمنت خطلا كثيرا ، وجعلت الكثير من هذه الكتب اشبه بالهراء ، لأن مهمة المؤرخ الاساسية ليست الحكم على الماضي وانما فهمه ، وعند الفهم الصحيح للماضي ينتهي مهمة المؤرخ كمؤرخ ، فاذا تعدى مهمته ونصب نفسه قاضيا تعرض للخطأ .

على أى حال يعتبر رانكه بشخصيته وحماسه ونشاطه ودأبه على العمل فاتح عصر جديد فى تاريخ التاريخ ، فقد نقل التاريخ من ميادين الادب والفلسفة والتأملات الى ميدان خاص به ، فتقرر بصورة نهائية مكانه كعلم له شخصيته وحدوده ومناهجه وأهدافه وفائده . واقبلت الجامعات تخصص له الكراسي ، عامة اولا ، ثم مخصصة بعد ذلك ، فانشئ فى الجامعة الواحدة اكثر من كرسي للتاريخ ، وانشئت دور المحفوظات ، ورثبت فيها الوثائق ، ووضعت تحت تصرف الباحثين ، وظهرت وظيفة خاصة جديدة هي وظيفة قَيِّم المحفوظات Archivist بل انشئت كما سنرى معاهد خاصة لعلم الوثائق . وقد بلغ من تقدير الناس لعمل رانكه أن قال اللورد آكتون استاذ التاريخ الانجليزى المعروف : ان رانكه هو كولبوس العلم التاريخي .

ولا يمكن ان نفعل ذكر **نيبوه** Barthold Georg Niebuhr فى هذا المجال . كان هذا الرجل دانماركى الاصل ولكنه دخل فى خدمة الحكومة البروسية من سنة ١٨١٠ حيث عين محاضرا فى التاريخ فى جامعة برلين ، وفى تلك الجامعة القى سلسلة محاضرات عظيمة القيمة فى تاريخ روما نشرت فى مجلدين سنة (١٨١١ - ١٨١٢) وقد اتيت فى هذين المجلدين واعتمادا على الوثائق والسجلات زيف مؤرخ كان له مقام كبير فى دراسات تاريخ الدولة الرومانية وهو **تيتوس ليفيوس** Titus Livius وقد اتبع نيبوه فى دراسه منهجا غاية فى الدقة والاحكام تمكن به من استخلاص الحقيقة من كل ما وقع تحت يده من وثائق ونقوش وسجلات وخطابات . وقد تأثر رانكه نفسه بمنهج نيبوه فى الاستفادة الكاملة من المذكرات واليوميات والمراسلات الدبلوماسية وروايات شهود العيان وما اليها من المراجع الاصلية المباشرة .

وعقب ذلك مباشرة قام المؤرخ الفرنسي **فرانسوا جيزو** Guizot (١٧٨٧ - ١٨٧٤) الذى اصبح وزيرا فيما بعد باصدار اوائل مجلدات مجمعة وناق تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى المعروفة باسم Monumenta Historiae Germaniae التى بلغت مجلداتها فيما بعد بضع مئات ضمت مجموعة هائلة من الوثائق والمذكرات والمكتابات ونصوص المعاهدات وما اليها . ثم قام المؤرخ الفرنسي **اوجستان تييري** Augustin Thierry (١٧٩٥ - ١٨٥٦) باصدار كتابه المعروف « تاريخ الغزو النورماندى لـ إنجلترا » (١٨٢٥) معتمدا على الوثائق الأولى فحسب ومثقلا بالهوامش واشارات المراجع . وفى سنة ١٨٢١ انشئت فى فرنسا مدرسة الوثائق المعروفة باسم Ecole des Chartes التى لا تزال الى اليوم من اعظم معاهد أوروبا لدراسة علم الوثائق والمخطوطات وما الى ذلك . وكل هذه نتائج مباشرة للحركة التى ادخلها رانكه ونيبوه على دراسات علم التاريخ .

ولم يقتصر عمل رانكه ونيبوه ومدرستهما على تقرير اصول البحث التاريخي ومناهجه ووضع الاسس العلمية للنقد التاريخي واكمال تكوين التاريخ كعلم سوي قائم بنفسه مستقل الشخصية . بل انهم عملوا كما قال **ايمرى نيف** فى كتابه عن « شاعرية التاريخ » : على توكيد مفردى الاحداث واستمرارها وادراك حركة التطور التاريخي وفهمها « (٢١) .

وقد اتهم رانكه ، من بعض معاصريه ومؤرخي الجيل التالي عليه ، بأنه جرد التاريخ من شاعريته وجعله سجلا جافا للحقائق المدعمة بهوامش ضخمة من الاشارات الى الاصول ، والمراجع ، واخذ عليه ايضا ايمانه القومي المتعصب بالدولة البروسية واسلوبها المحافظ فى

الحكم ، ومن هنا كان رانكه معاديا لكل حركات التحرر التي قامت في أوروبا في عصره ، ومن الواضح ان محافظته حالت بينه وبين فهمها . ومن هنا كانت الحملة عليه شديدة من جانب مؤرخين مثل **دورنيج** Duuring **ولورنتس** Lorentz **ولامبرخت** Lamprecht **ويوهان چوستاف درويسن** Johann Gustav Droysen (١٨٠٨ - ١٨٨٤) الذي وصف موضوعه رانكه بأنها سلبية .

ولكن اكبر ناقد رانكه كان **يعقوب بوركارت** Jacob Burckhardt (١٨١٨ - ١٨٩٧) وهو من اصل سويسرى ، ولكنه تتلمذ لرانكه وتخرج عليه في برلين وقد نفر من جمود رانكه وقضائه على الجانب التساعرى من التاريخ . وبلغ من استنكاره لمذهب رانكه هذا ان رفض ان ينولى كرسي التاريخ بعده في جامعة برلين ، ثم قام بتأليف ثلاثة من احسن ما كتب في التاريخ على المذهب الجديد وهي : عصر قسطنطين الكبير Die Zeit Konstantin des Grossen (١٨٥٣) وحضارة عصر النهضة في ايطاليا Die Kultur der Renaissance in Italien (١٨٦٠) وتاريخ النهضة في ايطاليا Die Geschichte der Renaissance in Italien (١٨٦٨ - ١٨٧٣) ثم اتبعها بكتابه المشهور : تأملات في التاريخ العالمي Weltgeschichtliche Betrachtungen وكلها كتب تجمع بين المنهج التاريخي الدقيق الى جانب الاحساس الانسانى والجمالى . وجدير بالذكر ان آدم ميتز الذى كتب كتاب نهضة الاسلام Die Renaissance des Islams الذى اشتهر عندنا بترجمته العربية التى عملها د . محمد عبد الهادى ابو ريده ونشرها باسم « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع » هذا الرجل كان تلميذا لپوركارت وهو سويسرى مثله ، وقد كتب كتابه على مال كتاب استاذه عن تاريخ عصر النهضة في ايطاليا .

وقد اشرنا الى بعض ممثلي هذه الحركة الجديدة في فرنسا من امثال جيزو وفيرى ولكن اكبر اولئك الممثلين وابعدهم اترا كان **چول ميشيليه** Jules Michelet (١٧٩٨ - ١٨٧٤) الذى جمع الى ضبط المدرسة الجديدة ودقتها وقدرتها على الاستفادة من المراجع روحا شاعرية رومانتيكية ، وحماسا قوميا يساير حركة الثورة الشعبية التى استمرت في فرنسا طوال القرن التاسع عشر . لقد اشتهر ميشيليه بتاريخه المطول لفرنسا الذى يقع في سبعة عشر مجلدا (١٨٣٣ - ١٨٦٧) الذى يعتبر دون شك من اعظم الاعمال العلمية في تاريخ التاريخ ، ولكن جهود ميشيليه في اصلاح مناهج علم التاريخ في المدارس الثانوية لا تقل اهمية عن ذلك . لقد تولى ميشيليه التدريس في مدرسة المعلمين العليا في باريس L'Ecole Normale وفي السوربون وفي الكوليج دى فرانس Le Collège de France ولكن ذلك لم يصرفه عن تأليف كتب مختصرة في التاريخ لينتفع بها المدرسون في المدارس مثل مختصر للتاريخ الحديث Précis de l'Histoire Modern (١٨٢٧) ومقدمة للتاريخ العالمى Introduction à l' Histoire Universelle (١٨٣١) وكلها مؤلفات كان لها ابعاد اثر في وضع الأسس للكتاب المدرسى في مادة التاريخ .

هيجل والثالثة التاريخية :

ولا بد من الاشارة هنا الى العلاقة بين آراء هيجل في التاريخ وما حققه رانكه ومعاصروه . لقد سبق ان اشرنا الى بعض نظريات جيورج فلهلم فريدريش هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣٠) ولكننا حريون الآن بان نلقي نظرة على مجمل آرائه قبل ان ننقل الى دراسة آراء مدرسة الماديين اى

اصحاب التفسير المادي للتاريخ ، وهم الذين زعموا الثقة في قيمة فلسفة التاريخ عند هيجل . ووضح ان هيجل سابق على رانكه بجعل كامل فقد ولد هيجل سنة ١٧٧٠ وولد رانكه بعد ذلك بخمس وعشرين سنة (١٧٩٥) وعندما توفي هيجل سنة ١٨٣١ كان رانكه في مطالع نشاطه الواسع المادي ، ولكنه نشأ على أى حال في جو مشبع بالهيجلية التي ظلت تسيطر بقوة على الفكر الاوروبي حتى تمكن الماديون من زحزحتها عن مكان الصدارة في عالم الفكر الاوروبي .

يعتبر هيجل في جملة المثاليين الذين يقولون ان الفكر او الفكرة اساس كل ما هو موجود . ويستعمل هيجل هنا مصطلحا خاصا هو *der Geist* الذى يمكن ترجمته ايضا بعبارة الروح او ما يسمى في الانجليزية *Spirit* وفي الفرنسية *Esprit* ولكن هيجل كان يعني به العقل او الفكر ، ولكنه ليس العقل او الفكر الانسانيين العاديين وانما هو العقل الأعلى الذى يوجه الكون ، وهذه الفكرة نبعت من ايمان هيجل الوثيق بالمسيحية وقد بسط فكرته تلك في كتابه عن روح المسيحية *Das Christliche Geist* وهو يرى في المسيحية او روح المسيحية اجتماع العنصرين الالهي والانساني ، اى الروح والبدن ، اى الكنيسة والدولة ، والعبادة والحياة ، والتقوى والفضيلة ، وهذه الثنائية المسيحية كان هيجل يراها في الكون كله . وقد كان المفكرون الماديون يقولون ان الفكر يحكم الدنيا *L'Opinion gouverne le Monde* فكانوا بهذا يعطون العقل الانساني اكثر مما يستحق او يستطيع ، وكانوا بذلك واحدين او *monists* في تفكيرهم . اما هيجل فكان ثنائيا يؤمن بأن هناك عنصرين متميزين يختلف كل منهما عن الآخر وهما الروحي والمادي وهما يجتمعان في روح او فكر واحد *Geist* يعتبر القوة العليا التي تحرك كل شيء ، وهذا هو العقل المطلق ، ويعتمد هيجل في التدليل على ذلك بنوع خاص من الجدل او الحوار يسمى عادة باسم *Dialektik* وعن طريق هذا الجدل وصل الى القول بأن العقل او الفكر الانساني يسمى دائما نحو التقدم ليصل الى العقل او العلم المطلق الذى يعتبره مثالا يحتذيه ، ومن هنا يوصف هيجل بأنه مثالي ، بل يعتبر في طبيعة المثاليين الالمان وهم خصوم الماديين *the materialists* الذين سنتحدث عنهم في الفقرة التالية . وقد شرعنا فيما مضى كيف طبق هيجل هذا المبدأ في فلسفته للتاريخ وهي تلخص في سعي الجماعات الانسانية للانتقال من حالة الهمجية والوحشية الى مستوى الدولة ذات النظام والقانون . وقد وفق هيجل في ميدان فلسفة التاريخ توفيقا جعل الناس يضعونه دائما في عداد المؤرخين . وبالفعل كان هيجل مؤرخا واسع الفهم والادراك التاريخي . وبفضل هذا الادراك وصل بفلسفة التاريخ على مذهب المثاليين الذين يؤمنون بالفكر او العقل المطلق الذى يسير الاحداث في الكون ويعتبرونه مثالا او مثالا أعلى ، وان التاريخ على هذا الاعتبار ان هو الا عملية طويلة مقدرة بقدر *Vorsehungsprozesse* يأخذ فيها كل حادث او ظرف مكانه ومبرراته على ضوء مسار التاريخ في مجموعه . وقد اهتم هيجل اهتماما خاصا بالتطور الانساني للدولة وهنا يتفق هيجل مع رانكه الذى قال ان الدول افكار الله *Gottesgealanken* ويريد بذلك انها تقوم بتقدير الله سبحانه (٢٢) .

Fritz Stern, *The Varieties of History* (1956) p. 61-62.

Arthur Marwick, *The Nature of History*, p. 37.

وقد اخذنا آراءنا عن فلسفة التاريخ عند هيجل من كتابه المشهور عن فلسفة التاريخ واحسن ترجمة انجليزية له

هي التي عملها J. Sibree ونشرها سنة ١٩٥٦ .

التفسير المادى للتاريخ :

ولكن مثالية هيغل لا تعين الانسان على تفسير الحركة الدائمة للتاريخ . انها ترضي الفيلسوف او العقل الفلسفي الذى يفتنه منطق هيغل الدقيق ، وطريقته فى الجدل ، التى تكشف عن ذكاء خارق ، ودقة ذهن لا تجارى ، ولكننا عندما ننتهي من استيعاب مذهبه ونفهم ان الفكر او الفكرة او العقل المطلق او المثال هو اساس كل موجود او روحه بتعبير أدق ، وان المادة نفسها ليست الا صورة من صور وجود العقل المطلق او الفكر نجد انفسنا قد خرجنا من ميدان التاريخ تماما ، واننا عاجزون عن الاستفادة من هذا التفلسف الرفيع فى فهم اى حادث كبير من حوادث التاريخ . ان الفيلسوف يجد متعة كبرى عندما يجد هيغل يقول : ان التاريخ انما هو تفتح ذلك العقل الكوني (المطلق) وانبساطه فى الزمان . ولكن المؤرخ لا يدري ماذا يفعل بهذه العبارة .

ولقد قال هيغل ان فلسفة التاريخ هي التاريخ منظورا اليه بذكاء . وبالفعل يرى القارئ كتاب هيغل فى فلسفة التاريخ انه نظر اليه بذكاء ، فالتقى نظرات بالغة الصدق على حضارات العصور القديمة ، ولكنه عجز تماما عن ادراك العوامل التى ادت الى سقوط روما مثلا . وهذا هو الذى جعل رائكه ومدرسته يجهدون انفسهم فى جمع الوثائق والمخلفات والمخطوطات ودراساتها بعناية ، باحثين عن العوامل التى حركت تاريخ البشر شأنهم فى ذلك شأن المحقق الجنائي الذى يفحص كل صغيرة وكبيرة يعثر عليها فى مسرح الجريمة بحثا عن ادلة توصله الى الحقيقة ، ثم يعد ملفا كاملا للقضية ، ويضعه بين يدي القاضي . هذا الملف يصف بفاية الدقة كيف وقعت الجريمة ، ولكنه فى الغالب لا يصل الى مرتكبيها الحقيقي ، وبوقع القاضي بذلك فى حيرة كبرى ، والقاضي هنا هو القارئ الذى يهلك فى قراءة مؤلفات المؤرخين الذين ألفوا على مذهب رائكه ، متأثرين بمثالية هيغل ، وانتقلوا كتبهم بهوامش واشارات الى المراجع تزيد حجما على النص نفسه ، ولا يصل فى نهاية الامر الى حقيقة الواقعة التاريخية التى يقرأ عنها .

ولكن نفرا آخر من المؤرخين اتجهوا من اول الامر اتجاها ماديا فى دراسة التاريخ ، اذ انهم اعتبروا الانسان حيوانا كغيره يسعى لرزقه وحماية نفسه . وجعلوا دأبهم البحث عن العوامل الداخلية التى تدفع الانسان او الجماعات البشرية الى الحركة ، وكلها فى نظرهم عوامل مادية . اى انهم نظروا الى التاريخ وكأنه فرع من فروع التاريخ الطبيعى فكانت مؤلفاتهم اكثر واقعية واقرب الى حقيقة الواقع ، وهؤلاء هم الماديون الذين تركوا جانب العامل الروحي او الديني او الفكرى ونظروا الى المادى وحده ، فعرفوا باسم الواحديين Monists او اصحاب المذهب الواحد ، بخلاف المتاليين او الثنائيين الذين فسروا حركة التاريخ على انها بحث عن التوازن بين توجيه العقل المطلق الرفيع ونزعات البشر .

ولن نستطيع دراسة جميع اولئك الماديين ومذاهبهم . فذلك مطلب يطول . ثم ان الكثيرين منهم تهادوا فى هذا الاتجاه الى درجة التبذل والسخف ، ولهذا فاننا سنكتفى بالظاهرين منهم ، الذين يحددون معالم الطريق الذى وصل فى نهايته الى كارل ماركس وفريدريش انجلز .

نبدأ عند **سان سيمون** Saint Simon الذى يعتبر من المع رجال الفكر الثورى فى فرنسا بل اوروبا كلها . عاش سان سيمون فيما بين سنتي ١٧٦٠ و ١٨٢٥ فهو من الممهدين للثورة الفرنسية وصانعي فلسفتها ، وهو يحسب فى العادة بين علماء الاجتماع او الاقتصاديين . وهو

نفسه كان يقول ان ميدانه هو الفيزياء الاجتماعية *la physique sociale* وكان يحسب انه يستطيع بتحليل المجتمع تحليلًا فيزيائيًا ان يجعل من التاريخ علماً يقينياً كغيره من العلوم الطبيعية. ولكي يصل الى ذلك عكف على دراسة تاريخ أوروبا منذ سقوط الامبراطورية الرومانية . واهتدى الى ان هذا التاريخ يتلخص في صراع متصل بين العاملين (من زراع وصناع) ويسميههم بالطبقة الثالثة *tiers-état* والطبقتين المتنازعتين اللتين تستفيدان من جهود العاملين ، وهما طبقة النبلاء (الملوك ورجال الاقطاع) وطبقة كبار رجال الدين أو الاكليروس . وقد ابدى سان سيمون ذكاء بعيداً في دراسته تلك . وشرح لنا كيف ان الملوك ايدوا الطبقة الثالثة في صراعه مع امراء الاقطاع خلال العصور الوسطى . ومن مظاهر هذا التأيد تلك الحقوق التي منحوها لسكان المدن من تجار وصناع الذين كانوا يكرهون امراء الاقطاع الذين كانوا يستغلونهم ، وكانت نتيجة ذلك ظهور المدن الصناعية الفنية *les bourgs* وسكانها وهم البورجوازيين *les bourgeois* الذين تزعموا الطبقة الثالثة في نضالها مع امراء الاقطاع . ثم قادوها بعد ذلك في صراعها مع الملوك (الثورة الفرنسية وما تلاها) .

وبذلك يكون سان سيمون اول من تنبه الى ان صراع المصالح الاجتماعية ، او مصالح الطبقات الاجتماعية هو السبب الرئيسي في الحركة التاريخية ، واول من تنبه الى حرب الطبقات وحرب المصالح ودورها الكبير في حركة التاريخ .

وفي هذا الطريق سار احد نبهاء تلاميذ سان سيمون وهو **أوجستان تيري**

Augustin-Jacques Nicolas Thierry (١٧٩٥ - ١٨٥٦) الذي يعد من المؤرخين الرومانتيكيين بسبب بلاغته وقدرته على صب رؤيته في قالب درامي يذكرنا بأدوارد جيبون . وكان الى جانب اهتمامه بالتاريخ والاجتماع قصاصاً . ويعتبر كتابه عن « الفوز النورماني لبريطانيا » من أحسن ما كتب في الموضوع معتمداً على المراجع الأولى ، وقد كلفه هذا الكتاب بصره ، فما زال يضعف حتى عمي تماماً سنة ١٨٣٠ ولكنه ظل نشيطاً في عالم البحث التاريخي حتى توفي سنة ١٨٥٦ .

وفد عاش تيري بعد أحداث الثورة الفرنسية وتحمس لمبادئها تحملاً شديداً واستهواه نظام الكومون *la commune parisienne* أي الحكومة المحلية الاشتراكية التي قامت في العاصمة الفرنسية في اثناء الثورة ، وهي اول تجربة في تنظيم الحكم على اساس اشتراكي متطرف ، فأخذ يدرس تاريخ جمهور الناس او ما يسمى بالطبقة الثالثة *tiers-état* وألف في ذلك كتاباً من اربعة مجلدات سماه « مجموعة وثائق غير منشورة عن تاريخ الطبقة الثالثة (١٨٥٠ - ١٨٧٠) *Recueil des monuments inédits de l'histoire du Tiers-état* فسّر فيه التاريخ على انه صراع بين الطبقات ومصالحها ، وقال فيه ان الطبقة العاملة هي اساس الانتاج ومصدر الثورة ، وانها كانت دائماً كفاح مع الطبقات القوية المستبدة للوصول الى حقوقها ، وهاجم الفكرة القائلة بأن التاريخ من صنع الابطال وعظماء الرجال وتساءل : « أتريدون ان تعلموا على وجه الصحة من الذي انشأ مؤسسة ما ، او من الذي وضع خطة مشروع عظيم ؟ اذن فابحثوا عن الذين احتاجوا اليه بالفعل ، اولئك هم اصحاب فكرته الأولى وارادة العمل من اجله ، وهم اصحاب الفضل الاكبر في تحقيقه » . وعلى هذا الاساس لا يكون وليام الفاتح بطل الفوز النورماني لانجلترا وانما الابطال الحقيقيون هم الزراع النورمان الفقراء في شمال غربي فرنسا ، الذين دفعتهم حاجتهم الى الارض الى الاندفاع نحو انجلترا باحثين عن مجال حيوى فسيح . وهنا فقط تصدى وليام لقيادتهم .

وشبيه بهذا ما نقرأه عند معاصر تييري وهو **فرانسوا مينييه** François Auguste-Marie Mignet (١٧٩٦ - ١٨٨٤) الذي كان مؤرخاً، وأمين محفوظات ، وصحفيًا ثورياً مناضلاً . كان زميلاً وصديقاً لـ **أدولف تيير** Adolphe Thiers الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية الفرنسية . كتب مينييه كثيراً جداً ولكن تاريخه للثورة الفرنسية الذي صدر في مجلدين سنة ١٨٢٤ يفسرها على أنها صراع طبقات . صراع بين العاملين المنتجين والطبقتين المستفيدتين من ثمرات جهود العاملين ، فهو يقول مثلاً عن دستور سنة ١٧٩١ الذي أصدرته حكومة الثورة الفرنسية : كان هذا الدستور من صنع الطبقة الوسطى la bourgeoisie التي كانت أقوى الطبقات في ذلك الحين . اذ أن القوة السائدة - كما هو معروف - تسيطر على المؤسسات والنظم . وكان يوم ١٠ أغسطس انتفاضة جماهير الناس ضد هذه الطبقة الوسطى وضد الملكية الدستورية . كما كان يوم ١٤ يوليو انتفاضة الطبقة الوسطى ضد الطبقات المتميزة وضد الحكم الملكي المطلق .

وهذه العبارة تهمنا هنا بصفة خاصة لانها ترينا ان كارل ماركس لم يكن اول من تنبه الى الدور الحاسم لحرب الطبقات وصراعها على السلطان في توجيه التاريخ .

فمن المعروف أن الثورة الفرنسية التي قامت في ١٤ يوليو ١٧٨٩ قادها رجال الطبقة الوسطى ، الذين كانوا قد اثروا وتمولوا في عهد الملكية ، وعندما تكدست ثرواتهم شعروا بقوتهم وتطلعوا للسلطان ، فنادوا بالثورة على الملكية واستخدموا جماهير الناس في ذلك . فلما انتصرت الثورة تربع رجال هذه الطبقة الوسطى أي البورجوازيون في دست الحكم واصدروا دستور ١٧٩١ الذي يؤمن اموالهم وامتيازات طبقتهم . وانزلوا بجمهور الناس مظالم شتى .

وكان هذا هو الذي دفع بجماهير الناس في باريس بالثورة على البورجوازية المتحكمة وانشاء الحكومة الاشتراكية المتطرفة la commune في ١٠ أغسطس ١٧٩٢ والغاء دستور ١٧٩١ ومواصلة الثورة الى نهايتها .

كارل ماركس والتفسير المادي للتاريخ :

لم يكن كارل ماركس اذن اول من تنبه الى ان التاريخ لا يسيره العقل المطلق وحده ولا يصنعه عظماء الرجال بعقرياتهم ، وانما تصنعه عملية تطور اجتماعي داخلي في كيان كل امة ، وصراع طبقات للوصول الى الحكم والسلطان ، وان العامل الرئيسي الذي يقرر المصير في النهاية هو الانتاج ، هو الثروة ، وان من يملك وسائل الانتاج يستمتع بثمراته ويفرض سلطانه . والذي فعله ماركس انه نص على العامل الاقتصادي الاجتماعي في تحريك التاريخ نصا شديدا وصاغ منه نظرية متكاملة الاطراف .

وكارل هاينريخ ماركس Karl Heinrich Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) المانياً من اصل يهودي ، وقد تنصر والده على المذهب البروتستنتي ، ونشأ اولاده كلهم على هذا المذهب ، ولكن كارل ماركس يبدو لنا من اول الامر عريق الالحاد . درس الفلسفة والتاريخ في جامعتي بون وبرلين ، وتأثر تأثراً عميقاً بأراء فلهلم فريدريخ هيغل « وبعد حصوله على الدكتوراة من جامعة يينا كان يستطيع اتخاذ السلك الجامعي ، ولكنه خلق مقاتلاً فاتخذ الصحافة عملاً ، واصبح رئيس تحرير جريدة الراين Rheinische Zeitung في كولونيا ، ولكنه لم يكن صحفي أخبار ، بل كان صحفي رأي ، وصحافة الرأي فلما توتى صاحبها مالا ،

ولهذا ظل كارل ماركس حياته كلها فقيرا . بل مرت به فترات من الفقر المدقع ، وكان يعتمد دائما على المعاونات المالية التي ظل يقدمها له عمره كله صديقه وزميله **فريدريخ أنجلز** Friedrich Engels وهو قسيمه في معظم افكاره ومؤلفاته وكفاحه .

وقد ظهرت آراء ماركس في التفسير المادى للتاريخ في رسالة صغيرة نشرها سنة ١٨٤٧ في بروكسل بعنوان *بؤس الفلسفة* Misère de la philosophie ردا على رسالة بعنوان *فلسفة البؤس* Philosophie de la misère كتبها فيلسوف مثالي تقليدى هو **ب . ج . برودون** P. J. Proudon الذى كان يعتبر كبير فلاسفة ذلك العصر . وفي سنة ١٨٤٨ نشر ماركس في بروكسل ايضا بالاشتراك مع صاحبه أنجلز البيان الشيوعي Manifest des Kommunistischen Partei وهو دعوة صريحة للعمال في العالم كله الى الثورة وانتزاع السلطة وانشاء الدولة الاشتراكية او الشيوعية ، وتجلى بوضوح ان ماركس لم يكن فيلسوفا من اصحاب الراى والقلم فحسب بل داعية لانقلاب سياسي اجتماعي كبير ، ودليل ذلك انه انشأ في سنة ١٨٦٨ اثناء وجوده في لندن الجمعية الدولية للعمال : International Workingmen's Association التي تعرف عادة باسم « **الدولية الاولى** The First International » تميزا لها عن جمعيتي العمال الدولية الثانية والثالثة اللتين قامتتا على يد **لينين** واتباعه فيما بعد .

وكان كارل ماركس يشرح في كتبه طريقة اخراج افكاره الى حيز التنفيذ ، اى طريقة احداث الثورة الاشتراكية او الشيوعية ، ولهذا تعتبر كل كتبه اسسا للعمل عند أتباعه ، واهمها بالنسبة لموضوعنا هنا : صراع الطبقات في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠ (نشر فيما بين سنتي ١٨٥٠ و ١٨٥٩ Klassenkaempfe in Frankreich 1848 bis 1850 و « في نقد الاقتصاد السياسي » Zur Kritik der politischen Oekonomie (١٨٥٩) ثم كتاب رأس المال Das Kapital الشهر الذى ظهر جزؤه الاول سنة ١٨٦٧ ونشر الجزء الثاني والثالث بعد موته في سنتي ١٨٨٥ و ١٨٩٤ وفي هذا الكتاب يقدم ماركس نظرية كاملة عن طبيعة رأس المال والنظام الرأسمالي ويظهر كيف انه نظام هدام يخرب نفسه بنفسه، وسنتحدث عن هذه الآراء في الفقرة التالية .

ويجهل كثير من الناس ان **ماركس** الذى اشتهر بالدفاع عن الحرية وحرية المستضعفين بصورة خاصة كان يؤيد الامبراطورية البريطانية ويدعو الى تقويتها وتثبيت اقدامها في المستعمرات، ويذهب انصاره الى انه كان يقول بذلك لانه كان يكره روسيا القيصرية ويرى انها الاعداء الحرة في اوربا ، وانه كان يرى في مساندة الامبريالية الانجليزية اضعافا لروسيا القيصرية ، وهذا غير صحيح ، والصحيح الذى يجهله الكثيرون انه كان رغم تظاهره بالاحاد يهوديا في الصميم ، وكانت انجلترا اذ ذاك موئل اليهود وسندهم الاكبر الى جانب هولندا . وذلك قبل ان ينتقل مركز الثقل اليهودي بصورة نهائية الى الولايات المتحدة . بل كان **كارل ماركس صهيونيا** وله كتاب لا يذكر الا في النادر اسمه « **الدولة اليهودية** Der Judische staat » وهو الاصل الذى استلهمه **تيودور هيرتسل** عندما ألف كتابه الذى يحمل نفس الاسم .

وينبغي الحذر عند الكلام على آراء ماركس، لأن الكثير مما ينسب اليه ليس له ، وانما وضعه الشيوعيون فيما بعد ونسبوه اليه . وجدير بالذكر ان امر ماركس لم يشتهر في عصره بل غطى عليه في فرنسا في ميدان التاريخ وفلسفته **برودون** الذى اشرنا اليه ، وفي المانيا **فردينان لاسال** Ferdinand Lavallo ولم يكن لاسال خصما لماركس بل شارحا لآرائه . ولم تشتهر آراء

ماركس ومؤلفاته الا على يد الثوريين الروس وخاصة لينين ، الذى وجد فى كتابات ماركس مصدرا لالهامه ، واساسا فكريا للثورة الروسية الشاملة التي كان يدعو لها . وسنحاول ان نعرض هنا اهم آراء ماركس فيما يتعلق بموضوعنا وهو التاريخ وفلسفته .

يرى ماركس ان التاريخ تحكمه قوانين يدرکها العقل الانساني ، وهذه القوانين حتمية اى انها تفرض نفسها لأنها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه . واذا ادرك الانسان هذه القوانين استطاع ان يقرر صورة مستقبل الجماعة الانسانية : وهذه القوانين ليست مثل قوانين العلوم البحتة ، وانما هي حقائق متعلقة بطبيعة العمل والانتاج ، وطريقة توزيع الثروة بين المواطنين ، فان الثروة تنتج عن العمل ، والعمل يقوم به من يعملون بأيديهم او بعلمهم ومواهبهم ، فلا بد ان تعود ثمرته حتما على اولئك العاملين انفسهم . فاذا استولى عليها منهم غير العاملين من اصحاب السلطة او الطبقات غير المنتجة كالاشراف ورجال الدين والوسطاء التجاريين والمضاربين ، اختل توازن المجتمع واصبح من الضروري اعادة التوازن اليه اما عن طريق ثورة هادئة تتم شيئا فشيئا بفضل ادراك اصحاب السلطان لطبيعة الاشياء (كما فى انجلترا) او ثورة عنيفة تحطم نظام المجتمع القائم وتقيم محله نظاما جديدا . واذا لم تنجح الثورة الاولى فى الوصول الى النظام السليم الذى يشترك اعضاؤه جميعا فى الانتاج ويستمتعون معا بثمرات الانتاج . فلا ينال انسان الا بحسب عمله ولا يصيب الاحاجته دون زيادة ، فلا مفر من ثورة جديدة كما حدث فى الثورة الفرنسية الاولى ، التي جنى ثمراتها البورجوازيون من مياسير اهل الحرف والصناعات والمتاجر وهم فى رأى ماركس ليسوا بالمنتجين الاصليين بل مجرد وسطاء ، فقامت بعد ذلك الثورات المتوالية على النظام البورجوازي : ثورة الكومون سنة ١٧٩٢ ثم ثورة ١٨٤٨ التي اسقطت الملكية الثانية ، ملكية لويس فيليب وماتلاها من احداث .

وقد تولت شرح تلك النظرية الحتمية **روزا لوكسمبورج** (١٨٧٠ - ١٩١٩) Rosa Luxemburg وهي امرأة بولندية يهودية ذات نزوع ثورى مخرب ونشاط عجيب وذهن وقاد . واليها يرجع جانب كبير من الفضل فى دفع الثورة الشيوعية الى الامام ، وهي لم تأخذ المذهب الشيوعي عن ماركس وانما عن كبار تلاميذه من الروس من امثال **ج . ف بليخانوف** G. V. Plekhanov و**بافل اكسلرود** Pavel Axelrod و**فيرا تسازوليك** Vera Zasulich وهم من **اكابر شيوخ لينين** . وكثير من الآراء التي تنسب الى ماركس يرجع الى روزا لوكسمبورج وخاصة فى كتابها المسمى « تراكم رأس المال Die Akkumulation des Kapitals » .

وقد قال بعض الماركسيين الحتميين بأنه اذا كان هذا التفسير حتميا أى لا مفر منه فلماذا يتعين على العمال القيام بالثورة وتعرض انفسهم للاسراع به ، ويرد الماركسيون المحاربون Militant Marxists على ذلك بالقول بأن التضحيات التي يقدمها العمال عند القيام بثورتهم اقل بكثير من خسائرهم اذا تركت العملية تتم من تلقاء نفسها ببطء . وهنا نقطة من نقط الخلاف بين الماركسيين .

ويقول ماركس ان الاحوال او الاوضاع الاقتصادية لأى جماعة هي التي تحدد صورة نظامها وكل مظاهر حضارتها . فاذا اردنا ان نفهم نظام أى مجتمع ونظامه السياسي ، او حتى طبيعة عقيدته الدينية ونتاجه الفني والفكرى ، فلننظر اولاً الى نظامه الاقتصادى . واساس النظام الاقتصادى هو الانتاج ونوعه واساليبه وطريقة استعمال او توزيع ثمراته . والانتاج نفسه ، سواء

أكان يدويا بدائيا أو آليا متطورا لا يظل دائما على مستوى واحد واسلوب واحد . فهو يتطور دائما ، أو على الأقل متطور باستمرار ، ادواته وصورته وطريقة توزيعه . وهذا التطور للانتاج أى للوضع الاقتصادى مستمر وحتمي مهما كان بطيئا ، وتطوره هذا هو الذى ينتج عنه تطور المجتمع الذى يقوم عليه . وكل نظمته institutions وقوانينه وما يقوم على ذلك كله من افكار وعقائد وآداب وفنون ، وكل ما يسميه الماركسيون المظهر الخارجى العلوى للمجتمع Super structure .

ويقول ماركس فى شرح نظريته تلك : « ان الناس فى اثناء قيامهم بانتاجهم لمعيشتهم يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية لهم ، ولا مفزلهم من اقامتها ، لأنها مرتبطة أشد الارتباط بانتاجهم نفسه . وعلاقات الانتاج هذه تطابق درجة معينة من تطور قواهم الانتاجية المادية .

ومجموع علاقات الانتاج هذه يشكل صورة البناء الاقتصادى للمجتمع ، أى انه الاساس الواقعى الذى يقوم عليه المظهر الخارجى العلوى Super structure الذى ذكرناه ، وهذا المظهر الخارجى العلوى يشمل القوانين والنظام السياسى واشكالا معينة من الوعي الاجتماعى التى تسود فى أى مجتمع من المجتمعات . ومعنى ذلك ان الانتاج المادى لجماعة ما هو الذى يحدد صورة نظامها الاجتماعى والسياسى والفكرى بصورة عامة ، فليس وعى الناس هو الذى يحدد صورة حياتهم ومستواها الاجتماعى . بل العكس هو الصحيح . . صورة حياة الناس ومستواهم الاجتماعى هما اللذان يحددان درجة وعيهم .

وعندما تبلغ الطبقة المنتجة فى الجماعة درجة من القوة فى تطورها يزداد وعى افرادها باحوالهم وحقوقهم ، ويحفزهم هذا الوعي الى الدخول فى نزاع مع الطبقة الحاكمة ، اذا كانت هذه الطبقة الحاكمة تستولي على معظم ثمرات الانتاج بمقتضى التشريعات او التقاليد التى وضعتها ، لتضمن استمرار احتكارها لهذه الثمرات ، وفى العادة تكون هذه الطبقة مالكة لاحسن الاراضى والعقارات ومنابع الثروة ومحصنة لهذه الملكية بتشريعات تمكنها من احكام قبضتها على الاراضى ومنابع الثروة والعقارات ، وحصرها فى ايدى افرادها . ولا بد فى هذه الحالة من وقوع الصراع بين قوى الانتاج وتنظيمات الملكية السائدة ، لان هذه التنظيمات انما هي فى الحقيقة قيود تكبل الطبقة المنتجة وتعزل تطورها وتحول بينها وبين الاستفادة من ثمرات جهدها .

وهنا يبدأ عهد بورات اجتماعية وسياسية ، لأن تغير الاساس الاقتصادى يزعزع كل البناء العلوى الهائل (السوبر ستركتشر بكل نظمته وقوانينه واخلاقياته) على درجات مختلفة من العنف والسرعة .

وعند دراسة هذه التغيرات او الانقلابات او الثورات ينبغى دائما التمييز بين اساس الموضوع ومظهره . فاما الاساس هنا فهو التغير المادى للاوضاع الاقتصادية للانتاج ، وهذا التغير المادى حقيقى يمكن تقديره بدقة علمية ، واما المظهر فهى الاشكال القانونية والاضاع السياسية والدينية والفكرية والفلسفية ، وهذه الاشكال الظاهرية هي التى تسمى فى مجموعها بأيدولوجية النظام القائم ، وهي ، كما رأيت ، نتيجة لا سببا ، وطبقة علوية خارجية Super structure وليست اساسا ، ولكننا تعودنا على أن نعتبرها الاساس ، ونعطىها اكبر جانب من الاهمية ، والسبب فى ذلك ان المفكرين والفلاسفة اهتموا بتركيز الضوء عليها لأنهم هم أنفسهم فى جملتها ، فهيجل مثلا وغيره من المثاليين قالوا ان الفكر هو الذى يوجه التاريخ ، لأنهم هم أنفسهم كانوا جزءا من النظام القائم ، وكانوا قادة الفكر فيه ، وتفكيرهم كله تأيد له ولاوضاعه ، ومن العسير

عليهم ان يتصوروا انهم في جملة الصورة الخارجية لنظام الجماعة . ورجال القانون يتصورون ان قوانينهم هي اساس سلامة المجتمع واستقراره ويفوتهم ان هذه القوانين نفسها لم توضع الا لصيانة شكل معين للمجتمع ، حتى عيوب ذلك المجتمع ونقائصه تحميها هذه القوانين ، وكل من يحاول اصلاح هذه العيوب يعتبر معتديا على نظام المجتمع . ولا بد ، حسب رأيهم ، ان يقع تحت طائلة القانون . ومن هنا فمن الممكن جدا ان تكون مجموعة الافكار المتداولة بين المفكرين واهل القانون والنظام مليئة بالاططاء ولكنهم يدافعون عنها في اصرار ، ودفاعهم هذا لا يمكن ان نقبله على انه حقيقة لانك لا تستطيع ان تحكم على انسان بحسب ما يقوله عن نفسه .

وعندما تتغير اوضاع الانتاج تغيرا بعيد المدى ، يظهر بوضوح التناقض بين الحقيقة والمظهر ، بين الأساس والبناء القائم فوقه . ومن المعروف ان هذا التناقض لا يظهر بصورة حاسمة الا اذا تحركت الطبقات المنتجة لتطالب بتغيير الاوضاع ، وهنا تظهر المشاكل الاجتماعية ، وهذه المشاكل الاجتماعية الكبيرة لا تظهر الا عندما تكون الظروف المادية كلها قد وجدت ، او اخذت في التكون .

ويذهب كارل ماركس الى ان اوضاع الانتاج وعلاقاتها هي التي تحدد جميع العلاقات الاخرى التي تقوم بين الناس في مجتمع ما . وخاصة اوضاع الملكية ، ملكية الارض والعقار والمال والمقولات ، فاذا كان المنتج يحصل على اكبر جانب من ثمرة انتاجه لم تكن هناك وسيلة لتكدس الاموال في يد البعض ، ولكن ذلك يحدث عندما تستولي طبقة الاقوياء والوسطاء على ثمرات الانتاج . وتكدس الاموال يظهر حتما في صورة ملكيات كبيرة او صغيرة ، ففي مجتمع الصيادين ، حيث يتقاسم الصيادون لحم الفريسة التي صادوها معا ، فانه لا يبقى لرئيس القبيلة فائض من نصيبه يمكن تحويله مع الزمن الى ملكية ، اما في المجتمعات الزراعية فان السلطة الحاكمة تعطي قطعا كبيرة او صغيرة من الارض لانصارها . وهذه الملكية لا قيمة لها الا اذا وجد الفلاح او الزارع الذي يستطيع زراعة الارض واخراج ثمراتها . وما دام الفلاح في حاجة الى ارض يزرعها فهو مضطر الى التفاهم مع مالك الارض على ان يُسمح له بزراعتها ، وهو في الغالب يتفاوض فرديا فيضطر الى قبول شروط المالك . وهي في العادة لا تعطي الزارع الا الكفاف ، والباقي يتوزع بين صاحب الارض والوسطاء بينه وبين الفلاح المفرد الصغير . وشيئا فشيئا يقل نصيب الفلاح من ثمرة انتاجه ، ويزداد تبعا لذلك نصيب الآخرين ، فتزداد مساحات الملكيات وثمراتها ، وتسن القوانين ، وتوضع النظم لحماية هذه الملكيات ، ولقد صدق **جيزو** عندما قال : ان اوضاع الملكية في اى مجتمع تشرح لنا طريقة تكوينه .

ويطبق الماركسيون هذا القول على الصناعة فيقولون ان الصانع الذي يوفق في صناعته ، ويتمكن من جمع رأس مال يمكنه من توسيع نطاق صناعته ، يفرض شروطه على العامل المفرد الذي يدخل في خدمته . وكما ان مالك الارض الزراعية يجتهد دائما في ان يحصل من المزارع الصغير على اكبر قدر من ثمرة عمله ، فكذلك صاحب المصنع . فنصيب العامل دائما اقل في حين ان رأس مال صاحب المصنع في زيادة دائما ، وفي وقت ما ينعدم التوازن بين المنتج والمتمتع بثمرة الانتاج . ولا سبيل في هذه الحالة امام العمال ، ليعيدوا هذا التوازن الى حد معقول ، الا بأن يفاهموا جماعيا مع صاحب رأس المال ، وما دام عملهم هو اساس ثروته فهو مضطر الى التفاهم معهم ، وهذا هو اساس البيان أو «المانيفستو الشيوعي» الذي نشره ماركس وانجلز سنة ١٨٤٨ وبدأه بقوله : يا اعمال العالم اتحدوا .

ومعنى هذا ان ماركس واتباعه يقولون ان الظروف المادية للمجتمعات هي التي تحرك التاريخ ، فالثورات والانقلابات السياسية سواء كانت عنيفة سريعة ، او هادئة بسيطة ، ترجع في نهاية الامر الى اوضاع العمل والانتاج والملكية ، وسلامة هذه الاوضاع او عدم سلامتها هي التي تعين قوة النظام القائم عليها او ضعفه . وقونه تحول دون العدوان الخارجي عليه ، وضعفه يشجع الآخرين على العدوان عليه . اى ان الاوضاع المادية للمجتمعات هي في النهاية من اكبر اسباب الحروب . بعبارة مختصرة : الاوضاع المادية ، واحوال الملكية ، وصراع الطبقات ، بعضها مع بعض ، هي العوامل التي تدفع حركة التاريخ كله ، وهذا هو ما يسمى بالتفسير المادى للتاريخ .

ولا يقول ماركس بأن الافكار لا دور لها اطلاقا في توجيه التاريخ ، بل هو يعترف بقوتها وفعاليتها ، ولكنه ينكر انها عوامل مستقلة بنفسها . وانما هي ناتجة عن الاوضاع المادية ، وهي في رايه وسيطة بين التغير الاقتصادى والمظهر الخارجى للحوادث . وفي هذه الحدود يقول ماركس ان الافكار يمكن ان تكون ذات قوة كبيرة . ولا يقول ماركس بأن الانسان لا تحركه الا الدوافع المادية الانانية ، فهو يعترف بوجود عواطف الايثار ، والحماس الديني ، والوطنية وغيرها من الخصال المثالية ، ولكنه يردّها بدورها الى الاوضاع الاقتصادية واثرها المباشر او غير المباشر على العقل الانساني .

وهو يقول ان التطور التكنولوجي يؤدي بطبيعته الى انشاء مصانع اكبر فاكبر ، وان ذلك سيستلزم بالضرورة رؤوس اموال اضخم مع الزمن ، وكلما زاد حجم المنشأة الصناعية تضاعف حجم العامل بالنسبة لرأس المال الضخم واصحابه ، وهذا يؤدي الى استبداد رأس المال بالعمال ، ومن هنا تبدأ مشاكل الصراع بين العمال واصحاب رؤوس الاموال ، وهو صراع يحول بين الجماعة والاستقرار المنشود ، ويعرض مصالح العمال للخطر ، ولا حل في هذه الحالة الا ان نضع الجماعة يدها على مصادر الانتاج وادارتها جماعيا ليعود خيرها كله على الجميع .

وقد لاحظ معظم نقاد التاريخ والاقتصاد ان هناك نقطة ضعف كبيرة في تلك النظرية وهي غموض مفهوم « التغير الاقتصادى The economic change » التي جعلها ماركس اساسا لكل فلسفته التاريخية الاجتماعية ، وجدير بالذكر انه لم يقدم في اى كتاب من كتبه عرضا واضحا متكاملا لتفسيره المادى للتاريخ ، انما جاء هذا العرض مفردا ومتنابرا في مؤلفاته الكثيرة . وقد اجتهد انجلز وماركس معا في لَمْ اطراف هذه النظرية في رسالة كتبها في الرد على ناقد ثورتها يسمى **اويجن دورنج** Herr Eugen Dührings revolution in science ولكن حتى هنا لا نجد ذلك العرض المتكامل الذى يتحدث عنه الماركسيون في حماسهم للتفسير المادى للتاريخ .

والحق اننا لا نستطيع الفصل بين الانتاج والفكر في مجتمع معا ، ولا يمكن ان نقول ان صورة الانتاج هي التي تعطي الصورة الظاهرة لنظام المجتمع وفكره وذوقه ، او ما يسميه الماركسيون بالظاهر الخارجى super structure لأن الانتاج نفسه يخضع في جانب كبير منه لهذا الظاهر الخارجى . واكثر من نصف الانتاج في اى مجتمع معاصر يوجه لارضاء مطالب نفسية واجتماعية وذوقية وفنية للمجتمع . فان الانتاج لا يقتصر على الزراعة وصناعة الضروريات ؛ بل يشمل ايضا الاقمشة الفاخرة ، والسيارات الفاخرة ، والاثاث النفيس ، والعطور الفاخرة ، وادوات التجميل ، وملابس السيدات ، والخمور والسجائر ، وغير ذلك مما يدخل ضمن الكماليات ، ولكنه يصنع خاصة لارضاء مزاج وذوق اهل الطبقة الظاهرة الخارجية اى السوبر - ستراكر ، وهنا يتجلى لنا كيف ان هذا الظاهر الخارجى للمجتمع هو نفسه يعتبر من اساس الانتاج .

ولكن ، لا شك ان تطور الانتاج عامل حاسم في تطور الجماعات وسير تاريخها ، وحتى لو سلمنا انه في اساسه يعتمد على القدرة البدنية والتقدم التكنولوجي ، فلا بد ان نسلم بأنه مستمر ولا يمكن إيقافه . صحيح انه في كثير من الاحيان تقف النظم والقوانين والمصلحة المتشابكة لأهل نظام معين سائد في وجه هذا التطور ، ولكن مع تقدم العلم والتكنولوجيا يصبح الانتاج المادى قوة لا تقهر ، وهنا نضع يدنا على الجانب الصحيح من النظرية الماركسية ، وفي ايامنا هذه نلاحظ ان تطور الانتاج ومستواه وكميته وتنوعه هو العامل الحاسم في سير مجتمعتنا الحاضر .

ان التفسير الاقتصادى للتاريخ لا ينطبق بصورة ملموسة الا على عصرنا هذا الذى تقدمت فيه العلوم والتكنولوجيا الى درجة جعلت الاقتصاد (وأساسه الانتاج) الشغل الشاغل للمجتمع كله ، ولكن لا يمكن القول مثلاً بأن ذلك العامل كان العامل الحاسم في توجيه التاريخ في العصور الوسطى ، لأن رجال الدين والمفكرين والملوك كانوا هم الذين يحركون التاريخ في تلك العصور ، ثم ان الذين خرجوا بالغرب من ركود العصور الوسطى ، وفتحوا له آفاق النهضة والاكتشافات والتقدم الفكرى والعلمى . كانوا المفكرين واصحاب الآراء والنظريات ، لا العمال او الزراع . وهنا يبدو لنا جانب ضعيف من جوانب التفسير المادى للتاريخ . ولكننا ينبغي ان نسلم بأن تمسك الماركسيين بأهمية الانتاج افاد الطبقات العاملة ، ورفع مستواها ، وفتح لها ابواب المشاركة في الحكم ، وهذه خطوة الى الامام لا شك فيها . وهي الجانب الايجابى الذى لا يناعز فيه في آراء الماركسيين .

ولا بد مع ذلك ان نلاحظ انه لا علاقة بهذه الآراء الماركسية التي تسمى في مجموعها احيانا بالمادية التاريخية Historical materialism لا علاقة لها بما يسمى في الفلسفة بالمادية الفلسفية Phiosophical materialism .

ويته الماركسيون في اثبات صحة نظرياتهم تلك الى استخدام طراز خاص من الجدل يسمى بالجدلية المادية Material dialectic وهو جدل يعتمد في طريقته على الاسلوب المنطقي المحكم الذى وضعه هيجل والمثاليون ، ولكنهم يستخدموه لتحقيق اهدافهم الخاصة ، ويقول هذا الجدل الماركسي ان كل التقدم التاريخي يتم عن طريق صراعات شاملة بين أسس قديمة للتنظيم الاجتماعي . وهم يرون ان الصراع ينبغي ان يكون شاملاً وعنيفاً ، وان الاصلاحات الجزئية للنظم العتيقة تعوق عملية التحول التاريخي و احياناً تجهضها . وكذلك يرون ان التطور التدريجي لا يمكن ان يؤدي الى نتيجة حاسمة ، وان الاصلاحات لا تكون لها فائدة الا اذا اقحمت في بدن النظام القديم على نحو يسرع بموته . وحيث ان الماركسيين لا يوافقون على الاصلاحات التدريجية التي لا تقضي على النظام القديم بل تكتفي بتحويله او تعديله فان الطريق الوحيد للتغيير الشامل عندهم هي الثورة وهم يقولون ان الآلام والتضحيات التي تسببها الثورات هي الثمن الذى لا بد من ادائه في مقابل الوصول الى اى تقدم . ومن الغريب ان يصر الماركسيون على ذلك مع علمهم بأن بلاداً كثيرة تم فيها التغيير الشامل ، والانتقال من القديم الى الجديد عن طريق عملية اصلاح تدريجية طويلة المدى ، واكبر مثال لذلك انجلترا واليابان .

ومن تفاصيل النظرية الماركسية التي لارالت موضع الجدل بين مفكرى الماركسية انفسهم هو قولهم بأنه لا توجد مصالح مشتركة بين الطبقات المتصارعة ، ويرى ماركس ان كل مذهب من مذاهب التنظيم الاجتماعي تمثله طبقة معينة ، فالنظام الاقطاعي يمثله الاشراف ، والنظام الرأسمالي يمثله الماؤلون او اصحاب الاعمال entrepreneurs والنظام الاشتراكي يمثله العمال ، ولا توجد مصلحة مشتركة بين هذه الطبقات ، ومن ثم فهي لا تستطيع ان تتعايش ، والصراع بينها ينبغي ان يكون حاسم النتيجة ، فلا يتوقف حتى تموت الطبقة القديمة تماماً ، وهم

يرون ان هذا الصراع لا يمكن ان يأخذ صورة ديموقراطية اى لا يمكن ان يعتمد على الانتخابات او الاستفتاءات ، لأن هذه القواعد الديموقراطية تنص على ضرورة احترام آراء الخصوم ، والخصوم فى رأى الديالكتيكيين الماركسيين لا احترام لهم ، بل ينبغي الا يكون لهم وجود . وهم يرون ان انتصار النظام الجديد على القديم ينبغي ان يتبعه القضاء على الخصوم بكل انواع العنف ، وفرض ما يسمى بالحكم المطلق للطبقة العاملة او دكتاتورية البروليتاريا dictatorship of the Proletariat ويستمر هذا طوال فترة الانتقال من النظام الرأسمالي الى الشيوعي .

وواضح ان هذا المنطق ملء بالمتناقضات ، لأن فرض دكتاتورية طبقة من الطبقات على غيرها ، والقضاء على الخصوم بالعنف لا يتفقان مع ماينادى به الماركسيون من عدالة فى الحقوق ، ثم انه ثبت بالفعل ان الرأسمالية يمكن ان تتعايش مع الشيوعية كما هو الحال فى الوفاق الحالي بين السوفييت والامريكيين ، وفى يوغوسلافيا اليوم صبغة من الشيوعية تسمح بالتعايش مع الرأسمالية وهذه بعض صور ما يسمى بالماركسية الجديدة Neo-marxism التي ينتهجها الروس بعد ستالين ، وينكرها ماو - تسسي - تونج واتباعه ممن يرون انهم يسرون على خط ماركس - أنجلز بكل امانة .

وواضح من العرض السريع الذى قمنا به ان الماركسية سواء كمذهب فى تفسير التاريخ ، او فى تغيير قواعد علم الاقتصاد مليئة بالمتناقضات ووجوه الضعف ، ولكنها على اى حال حققت بصفتها فلسفة اجتماعية نجاحا لم تحققه اى فلسفة اخرى مماثلة ، ولقيت من كثير من الناس وشعوب الارض اقبالا فاق كل تصور ، واصبحت نظام الحكم والعمل الوحيد فيها ، ويرجع ذلك لانها اظهرت الى الوجود الاهمية الكاملة للعمل والعمال ، حتى فى البلاد غير الشيوعية قفز العمال الى الصدارة وشاركوا فى الحكم وانتقلوا من اجراء الى اصحاب رأى وقوة واثار سياسي فعال يتمثل فى احزاب قوية يسارية او تميل الى اليسار ، ونقابات ذات قوة سياسية حقيقية . ومن الواضح انه لولا الالحاد ، والاصرار على انكار الاديان ومحاربتها ، لكان للماركسية نجاح اكبر ، ولكن ذلك الالحاد جزء لا يتجزأ من الآراء الماركسية نفسها . فهي ترى فى الدين اساسا من أسس النظام القديم الذى يجب القضاء عليه . ومع ذلك فقد أدت مبادئ الماركسية الى تغير حاسم فى الاوضاع الاجتماعية والفكرية للطبقة العاملة ، فتطلعت آمال نبيه العمال الى ان يستزيدوا من العلم ويدخلوا ضمن التكنولوجيا ، وهذا بدوره رفع المستوى الفكرى للعمال فى الدنيا كلها ، وادى ذلك بطبيعة الحال الى ارتفاع المستوى الاجتماعى للامة كلها .

وجدير بالملاحظة ان معظم الفضل فى النجاح الذى حققته الماركسية يرجع الى اعتناق الثوار الروس اياها ، وخاصة فلاديمير اوليانوف المعروف باسم لينين ، فهذا الرجل هو الذى تمكن من ان يحول آراء ماركس الى ثورة دموية وحولت امبراطورية من اضخم دول الارض الى دولة شيوعية ومركزاً لنشر الشيوعية فى العالم ، ولولا لينين لما كان لماركس هذا الاثر كله فى التاريخ .

التاريخ الشامل واهم شيوخ مؤرخي عصرنا

انتقل علم التاريخ اذن خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى اوربا من فرع ثانوى من فروع المعرفة يمارسه بعض الناس على انه هواية او وسيلة للتقرب من الله برواية اخبار الصالحين او للتزلف الى الملوك بكتابة تراجمهم الى علم مقررا لاصول والمناهج ، تخصص له الكراسي والاقسام فى الجامعات ، ويقوم بالعمل فى ميدانه مؤرخون اجلاء ، ويدرسه طلاب كثيرين على انه عِماد من

عُمِد المعرفة الإنسانية ، ونشأت عن ذلك العلم التاريخي علوم أخرى مساندة له أو مساعدة كالآثار ، وعلم النقوش أو الديجرافية ، والخطوط والكتابات القديمة أو الباليوجرافية ، وعلم الوثائق والمحفوظات ، وما إلى ذلك مما انشئت له المعاهد والمراكز والمجلات في كل بلد من البلاد. بل كان علم التاريخ سببا في أكبر حركة سياسية واجتماعية بعد الثورة الفرنسية وهي الثورة الماركسية ، وما كان لها من اصداء بعيدة في كل ناحية من نواحي الحياة في عالمنا المعاصر .

وعلى اثر ذلك اخذ نفر من اساتذة المادة يتساءلون عما اذا كان لا بد ان يوجد لعلم التاريخ منهجية methodology خاصة به الى جانب ما لا بد للمؤرخ من التمسك به من مناهج الدقة والاستيفاء والبحث والتحليل التي تشترك فيها العلوم جميعا . هنا لا بد من الوقوف قليلا عند كتاب من احسن ما كتب في ذلك الموضوع في نهاية القرن الماضي (سنة ١٨٩٨) وهو الذي كتبه المؤرخان الفرنسيان **لانجلو وزينبوس** عن علم التاريخ ومنهجه :

C. V. Langlois et Charles Seignobos : **Introduction à l'étude de l'histoire**

في هذا الكتاب وفق العالمان الفرنسيان اكثر من غيرهما الى رسم ما يمكن ان يسمى بدستور المؤرخ ، وقالوا ان التاريخ ربما كان احوج فروع العلم الى الالتزام التام بالامانة ودقة المنهج ، لان التاريخ كما يبدو ميدان سهل للبحث والتأليف ولكنه في الحقيقة من اصعبها . لان البحث التاريخي ينبغي ان يكون اصيلا وصادقا وقائما على حقائق ، وفي كثير من الاحيان يصعب ذلك لاسباب نفسية او عاطفية او عقائدية وربما شخصية ، ولهذا فلا بد من ان يتكون المؤرخ تكوينا منهجيا دقيقا حتى يخرج شيئا له قيمة . وقالوا ان الجانب الاكبر ممن يتناولون التأليف في التاريخ لا يعرفون لماذا يتخذون التاريخ عملا ، وربما كان السبب في ذلك انهم كانوا اقوياء في مادة التاريخ في المدرسة الثانوية او يحسبون ان التاريخ ميدان سهل نسبيا . وربما كان دافع الانسان الى العمل في التاريخ نزعة عاطفية رومانتيكية كما كان الحال مع اوجستان تييري .

وقال لانجلو وزينبوس ان التغير الحاسم في تاريخ العلم التاريخي تم حوالي سنة ١٨٥٠ عندما استقل التاريخ بنفسه ولم يعد فرعاً من الادب ، وهما يريان ان المؤرخ لا ينبغي ان ينفق الوقت في بحث المسائل الصغيرة لمجرد تكديس المعلومات وقالوا : « انه ليس من هدف التأليف في التاريخ جلب المتعة الى القارئ او استخراج قواعد عملية للسلوك او اثارة المشاعر ، وانما الهدف الحقيقي هو المعرفة الخالصة البسيطة (la connaissance pure et simple) للموضوع الذي يدرس .

وفي نهاية القرن التاسع حفلت اوروبا بنفر من اعظم المؤرخين الذين افادوا من صراع سابقهم في وضع التاريخ في مكانه بين العلوم ووضعوا مناهجه ، ومن اكابر هؤلاء **تيودور مومسن** Theodor Mommsen (١٨١٧ - ١٩٠٣) الذي وضع اساسا متينا للدراسات الرومانية بفضل معرفته الوثيقة باللغات القديمة ، وتمكنه من منهج العمل التاريخي ، وتضلعه في قراءة النصوص القديمة واستخدام ادوات التاريخ جميعا ، وهومن المؤرخين القلائل الذين حصلوا على جائزة نوبل .

وفي انجلترا كثر المؤرخون الذين ساروا على نهج **رانكه** ومدرسته من امثال **وليام ستانز** William Stubbs صاحب الكتاب المشهور عن تاريخ الدستور الانجليزي و **ج. ب. بيوري** J. B. Bury الذي افاد في كل عصر من عصور التاريخ ، وله كلمة مأثورة في فضائل علم التاريخ القاها عندما خلف **اللورد اکتون** في استاذية علم التاريخ في كيمبردج ، قال : « واذا

كان علم التاريخ يصبح عاما بعد عام واكثر فاكثر قوة عظيمة تعمل على نزع غشاوات الخطأ ، وتعين على تكوين الراى العام ، وعلى السير الى الامام بقضية الحربة الفكرية والسياسية ، فان ذلك العلم سيعمل جاهدا على تكوين طلابه على نحو يمكنهم من القيام بذلك الواجب لا للانتفاع به في سد مطالب الاسبوع التالي او العام القادم او حتى القرن الذى سيجىء ، ولكن لكي يذكروا دائما ان التاريخ ، وان كان يقدم مادة للتاريخ الادبي او للتأمل الفلسفي ، الا انه علم قائم بذاته لا اكثر ولا اقل ، وينبغى الحذر من تطويع ذلك المثل الاعلى لحاجات اللحظة ، ولا يجوز كذلك تحديد مجال ذلك العلم وآفاقه .

وقد تغيرت نظرة بيورى مرارا فيما بعد ، وذلك يصدق على الكثيرين من كبار المؤرخين ولكنهم جميعا متفقون على ان مواصلة العمل العلمي في ذلك المجال للكشف عن الحقائق وعرضها عرضا أميناً سيؤدي حتما الى اعطائنا صورة أمينة للماضي . وفي اثناء ذلك حرص المؤرخون على ان يفيدوا من كل المذاهب والنظريات التي جدت في ميادين العلم الاخرى من آراء نيوتون في الطبيعة الى نظرية اينشتاين في النسبية ، لان هذا كله يوسع أفق المؤرخ ويزيد فهمه لما يقرأ ، ورجل مثل بيورى هذا كان واسع العلم والافق يتكلم بثقة في كل موضوع من موضوعات العلوم ، ولهذا فهو يعتبر بحق من اعمدة الفكر الانجليزى في عصره ، وقد كان يكتب الى جانب ذلك في اسلوب ادبي رفيع مما جعل له مكانا محترما في عالم الادب . ومثل ذلك يقال ، وبدرجات متفاوتة ، عن **فريمان** Edward A. Freeman و**جرين** G. R. Green و**سيلي** Seelay في انجلترا و**جيبوتي** في ايطاليا و**جورج بانكروفت** George Bancroft (١٨٠٠ - ١٨٩١) مؤسس مدرسة المؤرخين الامريكيين ، وتاريخه للولايات المتحدة كان ولا يزال مدرسة يتخرج فيها المؤرخون هناك .

ويضارع بيورى في المكانة وفي الجمع بين صفات المؤرخ والفيلسوف والاديب **جورج ماكولي تريفيليان** George Macaulay Trevelian (١٨٧٦ - ١٩٦٢) الذى يعتبر كتابه عن التاريخ الاجتماعي لانجلترا نموذجا يحتذى في هذا المجال العسير من علم التاريخ ، وله مقال بديع عن طبيعة علم التاريخ وحدوده جعل لها عنوانا طريفا هو : « Clio, a Muse » (كليو الهة التاريخ ، الهة فن) « خلاصتها ان التاريخ لا يمكن ان يكون علما دقيقا ، او واضح المنفعة كما هو الحال في العلوم الطبيعية ، ولكنه علم في حدود معينة هي الدقة والاستقصاء في جمع المادة ، والدقة كذلك في الموازنة بين الادلة وقال : « وحتى عندما يعالج المؤرخ موضوعا واضح الوقائع نسبيا كالثورة الفرنسية ، فانه من المستحيل ان يتعرف الانسان على حقيقة الحالة النفسية لخمسة وعشرين مليون انسان (هم سكان فرنسا اذ ذاك) يختلف كل منهم عن الآخر ، اختفوا جميعا في ظلام ليل التاريخ فيما عدا بضعة مئات او آلاف هم الذين نعرف كيف كانوا يحسون وماذا فعلوا . وعلى هذا فلا احد يستطيع ان يقدم عرضا كاملا شاملا للثورة الفرنسية . ولكن قراءة الدراسات التاريخية الناقصة خير من لا شيء على اى حال ، والمؤرخ الذى يستطيع ان يزن كل الادلة التي في متناول يده وزنا دقيقا ومعقولا يستطيع ان يستلطف اهتمام العقول بكلامه ويشير احدى العواطف الانسانية ويفتح الباب امام قوى التخيل والتصور .

وذهب تريفيليان الى أن **توماس كارلايل** Thomas Carlyle وفق الى ذلك بكتابه عن الثورة الفرنسية ، فعرف كيف يصف ببيانه المبدع ، وقدرته على فهم طبيعة البشر ، مشاعر الجماهير الفرنسية ، وتمكن كذلك من ان يعطينا صورة حية لكثير من شخوص الثورة . وقد وفق كارلايل الى ذلك بأكثر مما استطاع اى مؤرخ محترف . جمع من الادلة اضعاف ما جمع كارلايل

ولكنه عاجز عن فهم طبيعة البشر . ولتريفيليان كلمة بالغة الصراحة وان كانت ثقيلة على نفس المؤرخ ، وذلك حين يقول : « وفي الجزء الأهم من عملية التأريخ نجد ان التاريخ ليس استنتاجا علميا ، وانما هو حدس قائم على التخيل ، ومبني على اساس اقرب التعميمات الى الامكان . .

In the most important part of its business, history is not a scientific deduction, but an imaginative guess at the most likely generalisations.

وفي نفس الوقت الذي اتجه فيه الانجليز الى الاقتصاد في تقدير التاريخ وحدوده ومكانته بين العلوم نجد ان الالماني والفرنسيين ساروا في طريق العمل التاريخي المحكم الدقيق ، محاولين ان يثبتوا اهمية التاريخ عن طريق اخراج اعمال تبهر العقول بدقتها وذكاء اصحابها ، وقدرتهم على الاستخراج والاستنتاج ، وتصوير الماضي كما كان على صورة تحقق ما كان يريجه **ليوبولد فون رانكه** الى حد بعيد . ففي الجانب الالماني نجد كثيرين سنقف لحظة عند واحد منهم فقط هو **فريدرش ماينكه** Friedrich Meinecke (١٨٦٢ - ١٩٥٤) وهو من عظماء رواد التاريخ على مذهب رانكه ويوركهارت ، وقد وجه اهتمامه الى دراسة الافكار وتطورها ، وقد شغل ماينكه اعلا مراكز الاستاذية في جامعات المانيا ، وظل اكثر من اربعين سنة (١٨٩٣ - ١٩٣٥) رئيسا لتحرير المجلة الالمانية التاريخية Historische Zeitschrift وهو مشهور بكتب ثلاثة تعتبر نماذج تحتل في دراسة الفكر السياسي وتطوره اولها : المواطنة العالمية والدولية القومية Weltbürgertum und Nationalstaat (١٩٠٨) وفيه يؤيد فكرة الدولة القائمة على الاساس القومي والعدالة وخدمة الحضارة . و « فكرة صالح الدولة » Idee der Staatssaison (١٩٢٤) وفيه يكشف النقاب عن الصراع والتناقض بين الاخلاق وسياسة القوة ويهاجم الماكيافيلية في عنف معتمدا على حقائق التاريخ . وكتابه الثالث الكبير « قيام الحركة التاريخية Entstehung des historismus » (١٩٣٦) يتبع فيه قيام علم التاريخ الحديث ويؤيد فيه نظرية اعتماد التاريخ على افراد هم الذين يصنعون التاريخ متابعا في ذلك رانكه وجيته .

ومن الفرنسيين نقف عند اثنين لا بد من ذكرهما في حديثنا هذا عن بناء علم التاريخ الحديث ، الاول هو **ايرنست رينان** Ernest Renan (١٨١٣ - ١٨٩٢) وهو علامة متبحر في اللغات والفلسفات والتاريخ ، ومؤلفاته تجمع بين وفرة المادة وعمق الفهم وحرية في الحكم لا نجدها الا عند القلائل ، وقارئ رينان يحس باستمرار انه يستمع الى مؤرخ حكيم يتحدث ، فكتابه المسمى مستقبل العلم l'avenir de la science الذي لم ينشر الا سنة ١٨٩٠ يتحدث عن اهمية دراسة تاريخ الاديان . على اعتبار انها علم انساني له اهمية علوم الطبيعة مثلا ، وفيه نلاحظ قلة تدين رينان وضعف ثقته في الكنيسة المسيحية ومحاولته اثبات ان المفكر الحبيب الجيد التكوين اقرب الى استكشاف حقائق الحياة والنفس البشرية من رجل الدين المحترف . وفي سنة ١٨٥٢ نشر كتابا مشهورا عندنا هو « **ابن رشد والرشدية** Avenoes et l'Auerroisme وهو دفاع مجيد عن ذلك الفيلسوف الاندلسي الجليل الذي كان مركز الدراسات الفلسفية في جامعات اوربا الى اواخر القرن السابع عشر وحركة الرشدية التي اثارها فلسفته . والرشدية عند رينان ليست دراسة لآراء ابن رشد وانما هي مجموع الآراء والافكار التي دارت حول موضوع علاقة العقل بالدين . ويتجلى تفكير رينان التاريخي الفلسفي بصورة اوضح في كتابه الأشهر « مقالات في الاخلاق والنقد Essais de morale et de critique » (١٨٥٩) وهو مجموعة

مقالات نشرها رينان في جريدة المحاورات Journal des Débts ومجلة العالمين Revue de Deux Mondes و « العالمان » هناهما عالم الفكر والدين . وفي هذه المقالات نجد ان رينان يرى كيف ندرس الاديان دراسة تاريخية انسانية (٢٣) . وقد كان لرينان أثر كبير في تاريخنا الفكرى الحديث ، فقد ترسم خطاه طه حسين في الكثير من كتب أيام كفاحه الاول الطويل في سبيل تحرير الفكر العربي .

والثانى هو **فوستل د. كولانج** Huma Denis Fustel de Coulanges (١٨٣٠ - ١٨٨٩) الذى يعتبر مؤسس المنهج العلمى في دراسة التاريخ في فرنسا ، وهو استاذ بحق في علم التاريخ ومنهجه ، وقد وضع للمؤرخين الفرنسيين منهاجا صارما يقوم على الموضوعية البحتة والتركيز على المصادر الاساسية ودراستها في لغاتها ، واستخلاص كل ما تحويه من مادة تاريخية ، وقلة الاهتمام بالمصادر الثانوية . ثم الاكتفاء بذكر الحقائق التي تؤيدها الادلة دون غيرها . وله كتب كثيرة قائمة على هذه الاسس منها كتاب « المدينة العتيقة La Cité Antique (١٨٦٤) » وقد درس فيه المدن التي كانت في نفس الوقت دولا في العصر القديم مثل اثينا واسبرطة وروما ، واثار الدين والتطور السياسى والاجتماعى في تاريخها . ثم ركز همه على دراسة نظم العصور الوسطى وخاصة في فرنسا ، ووضع أسس دراسة الوثائق والمخطوطات . ولا زالت كتبه قطاعا من العمل التاريخى الدقيق مثل « الفزوة الجرمانية ونهاية الامبراطورية L'Invasion Germanique et la fin de l'Empire و « الملكية الفرنجية La Monarchie Franque (١٨٨٨) » والولاء والملكية الزراعية في العصر الميروفنجى L'allue et le domaine rural pendant l'époque mérovingienne (١٨٨٩) وكل مؤرخي العصور الوسطى في فرنسا من امثال مارك بلوك Marc Block (٢٤) من تلاميذ ذلك الرجل .

ونختم هذا الكلام عن بعض اكابر اساتذة علم التاريخ المحدثين الذين وضعوا اصوله ، وقرروا مناهجه بكلمة عن المؤرخ البلجيكي **هنرى بيرين** Henri Pirenne (١٨٦٢ - ١٩٣٥) وبهمننا بيرين من ناحيتين : الاولى انه عني عناية كبيرة بالناحية الاقتصادية - لا كعامل محرك للتاريخ كما فعل ماركس ، بل كجزء من الاطار العام للحقائق التاريخية ، فهو يدرس نظم الضرائب والاسعار والتجارة وطرقها وموادها والعمله ومالى ذلك ، والثانية انه احسن من طبق ما يسمى **بالتاريخ الكلي** ، وهو مفهوم للتاريخ يختلف عن **التاريخ التقليدى** ، وهو ان تؤرخ للناحية السياسية لعصر معين ، او تدرس تاريخ واقعة معينة او حياة رجل بعينه ، أما التاريخ الكلي فهو ان تدرس العصر الذى تريد من كل نواحيه: سياسية واجتماعية واقتصادية وحضارية وتعطي عنه صورة كاملة ، وهذا يقتضي جهدا شاقا في جمع المادة اللازمة لعمل الصورة التاريخية المطلوبة .

كنموذج لدراسة الناحية الاقتصادية للتاريخ نأخذ كتاب « تاريخ المدن في العصور الوسطى Les Villes Médiévales وهو دراسة غاية في العمق للحياة الاقتصادية في العصور الوسطى ، لان المدن ظهرت خلال القرن العاشر كمراكز اقتصادية ، صناعية وتجارية . ويشبه هذا الكتاب كتاب آخر يعد من اجمل واعمق ما ألف بيرين في تاريخ العصور الوسطى وهو **محمد وشارلمان** Mohammad et Charlemagne (١٩٣٧) وهو دراسة كاملة لاثار سيادة الاسلام

F. Millepierres, La Vie d'Ernest Rénan, Sage d'Occident (1961)

(٢٣)

J. Herrick, The Historical Thought of Fustel de Coulanges

(٢٤)

على البحر الابيض المتوسط خلال القرن التاسع الميلادي على احوال أوروبا الاقتصادية والاجتماعية . ويقول بيرين ان سيادة المسلمين هذه اقفلت ابواب اتصال أوروبا بالعالم الخارجي فتم تحول المجتمع الاوروبي الى مجتمع زراعي مقفل ، تم ان الخطر الاسلامي على غرب أوروبا (من الاندلس) كان السبب في ظهور الدولة الكارولنجية نتيجة لانتصار شارل مارتل او مارتة كما يقول العرب على المسلمين في موقعة بلاط الشهداء ٧٣٢/١١٤ ، ومن كلماته الماثورة : لولا محمد لما كان من الممكن ان يظهر شارلمان .

واكبر اعمال هنري بيرين هو تاريخه بلجيكا *Histoire de Belgique* في سبعة مجلدات ، وهو ايضا نموذج من التاريخ الكلي الذي يعطي صورة شاملة للعصر او الموضوع الذي يدرس . وحيث ان بلجيكا لم تولد الا سنة ١٨٣٠ فان ما سبق الميلاد الرسمي لبلجيكا انما هو تاريخ أوروبا والاراضى المنخفضة بشكل خاص .

ومن اجلاء اساتذة مدرسة التاريخ الكلي جورج ليفيفر *George Lefebvre* (١٨٧٤ - ١٩٥٩) الذي سار على المنهج الدقيق الذي يلتزم الاصول بكل دقة، وله كلمة ماثورة هي : لا وثائق، لا تاريخ .

واجلاء شيوخ هذا الفن فيما بين ١٨٥٠ والحرب العالمية الاولى كثيرون غير هؤلاء . ولكننا نكتفي بمن ذكرنا ممن كان لهم الفضل الاكبر في جعل التاريخ علما مستقل الشخصية ، واضح المنهج والطريقة ، وانبتوا للناس انه من اهم نواحي الدراسات الانسانية ، وابعدها اثرا في تكوين العقل الواعي المدرك لحقائق الحياة .

فلاسفة التاريخ في عصرنا ، كروتشي وكولنجوود وتوينبي وشبنجلر

ونلتفت الآن لنلقي نظرة على آخر موضوعات هذه الدراسة وهي الامام بأهم مذاهب فلسفة التاريخ خلال القرن العشرين .

وصل التاريخ على ايدي من ذكرنا وغيرهم كثيرين الى مرتبة العلوم ذات الوظيفة وللشخصية المستقلتين ، واستقر الرأي على ان التاريخ علم بالمنهج ، اي ان موضوعه الاساسي - وهو الانسان - لا يسمح بأن تكون له قواعد وقوانين لها دقة قوانين العلوم ، ولكننا ندرسه بمنهج البحث العلمي من استقصاء للمادة ودراستها وتحليلها تحليلًا دقيقًا ثم استخلاص الحقائق، وقال بعضهم ان التاريخ لا يسير على قوانين ولكنه يسير على منطق ، فلكل حادث اسبابه وتطورات ونتائج المنطقية ، وفي احدي دراساته قال ج . ب . بيوري عبارته التي لقيت قبولا كبيرا : التاريخ علم ، لا اكثر ولا اقل . ولكن بيوري نفسه تبين في دراسته الاخيرة ان عبارة *History is a science, no more, no less* تحتاج الى تعديل . لاننا في الحقيقة لا نستطيع الوصول الى صورة الماضي كما كانت بالضبط ، وانما نراها متأثرين بعصرنا ومفهوماته، وعلى هذا فالصورة او الحقيقة التاريخية نسبية دائما ، ومن هنا حلت عبارة « التاريخ النسبي *Relative History* محل التاريخ العلمي *Scientific History* وهذا يعود بنا الى الفكرة التي تحدثنا عنها اوائل هذا البحث عن ان التاريخ حوار بين الحاضر والماضي ، وقال ج . ب . بلاك *J. B. Black* في مقاله عن فن التاريخ *The Art of History* « ان رؤية التاريخ بصورة مباشرة غير ممكنة ، وهو لا يرى - الا بصورة غير مباشرة اي كما يتجلى في مرآة عصرنا . وفي محاضرة القاها هنري بيرين في قاعة الجمعية

الجغرافية في القاهرة سنة ١٩٣٣ سمعناه يقول اننا نرى حوادث التاريخ كما نرى ملقعة وضعناها في كوب ماء فانغمرت الى ثلاثة ارباعها ، فالغامر في الماء لا يرى الا منكسرا بحسب انكسار شعاع الضوء عند مروره في الماء. وشيئا فشيئا اصبحت النسبية التاريخية Historical Relativism هي النظرية السائدة ، وكان هذا حلا موفقا لأن صورة الماضي « كما كان بالضبط » التي سعى وراءها رائكه ومدرسته كانت امرا في الحقيقة مستحيلا . وقال **تشارلس بيرد** Charles A. Beard عميد المؤرخين الامريكيين ان التاريخ العلمي انما هو حلم نبيل تبدو الحقائق فيه وكأنها الحسناء النائمة في الغابة la belle au bois dormant تنتظر المؤرخ المنقذ الذي يعترب منها ونظاراته على عينيه ويضع على جبينها قبلة الحياة فتدب فيها الروح كما تقول الاسطورة . وقبل الحرب العالمية بقليل قال **كارل هاينريخ بيكر** Carl Heinrich Becker الذي كان ايضا من كبار المستشرقين - ان كل انسان مؤرخ نفسه ، اى ان كلا منا يروى التاريخ على طريقته ، واكد ذلك **كونياردز ريد** Conyers Read عندما قرر ان نسبية التاريخ The relativity of History اصبحت القاعدة السائدة .

ولم ير **بندتو كروتشي** Benedetto Croce (١٨٦٦ - ١٩٥٢) أن يسير على هذا المذهب الذي رأى فيه تواضعا لا يتفق مع اهمية التاريخ في نظره . كان كروتشي مؤرخا وفيلسوفيا ، وكان له نصيب في سياسة إيطاليا اذ تولى وزارة التربية سنة ١٩٢١ - ١٩٢٢ اى قبل استيلاء موسوليني والفاشييين على الحكم ، وبعد ذلك اصبحت خصما مناوئا للحكم الفاشي . ولكن مناوئته لم تصل الى حد التحدى الذي ربما كان قد ادى الى العصفبه ، فظل دائما محترما من جانب السلطات ، وان كان الفاشيون نهبوا داره في نابولي سنة ١٩٢٦ بعد اعلانه احتجاج اهل الفكر على استبداد الفاشيين . وفي سنة ١٩٤٣ وبعد أن تزعم النظام الفاشي الف الحزب الحر واصبح وزيرا بغير وزارة في وزارة **بييترو بادوليو** Pietro Badoglio التي اعقبت سقوط موسوليني ، وشغل نفس المنصب في وزارة **ايفاتوى بونومي** Ivanoe Bonome (١٩٤٤) واصبح عضوا في الجمعية التشريعية سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ وفي نفس السنة أسس المعهد الايطالي للدراسات التاريخية Istituto Italiano di studi storici وتوفي في داره في نابولي في ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢ .

وقد كتب كروتشي كتبا تاريخية كثيرة من الطراز العلمي التقليدي ، ولكن مقالاته وآراءه كلها نجدها في مجلة « النقد » la Critica التي انشأها سنة ١٩١٣ ، وظل مديرها ورئيس تحريرها احدى واربعين سنة . وعندما تخلى عنها انشأ كراسات النقد Cuaderni della critica ونشر منها عشرين عددا ، وهو مشهور بكتابه الكبر فلسفة الروح Filosofia delle spiritu الذي قسمه الى اربعة مجلدات : الاول في علم الجمال stetica والثاني في المنطق Logica والثالث فلسفة السلوك Filosofia della condutts والرابع في نظرية التاريخ وتاريخه وهذا الجزء الاخير هو الذي يهمنا وهو الذي Teoria a storia della storiografia يجعل له مكانا بين فلاسفة التاريخ .

وكان كروتشي يرى في نفسه فيلسوفا من مستوى هيجل ، وكان الكثيرون من انصاره ينظرون اليه على هذا الاعتبار ، ولكننا عندما نقرأ الجزء الخاص بالتاريخ من « فلسفة الروح » نجد أنه يعوزه الوضوح وتلك الدقة الذهنية التي تميز تفكير هيجل . وفي كثير من الاحيان نفقد خيط الافكار . وانا شخصا لم استخرج من آرائه الامما وجدته في طبعات انجليزية لبعض جوانب فلسفته في التاريخ وكلها مقتبسة من كتاب وضعه هو نفسه ونشر فيه مختارات من كتاباته في الفلسفة والشعر والتاريخ .

والذى يريده كروتشي بالروح هو روح العصر اى لبابه وشخصيته والجو السائد فيه والافكار المسيطرة عليه والنظم والتقاليد التى تحكمه ، وهو يقول انك لا تستطيع ان تؤرخ لعصر الا اذا الممت بروحه على هذا النحو الشامل ، ويقول كذلك انك لا تستطيع ان تؤرخ لرجل الا اذا الممت بظروف عصره كلها وتمكنت من الاحاطة بظروفه الشخصية ايضا ، حتى اوصافه الجسمانية لا بد من معرفتها فهي فى كثير من الاحيان ذات اثر بعيد فى توجيه فكره وحياته ، ومعنى ذلك كله ان التاريخ فى الحقيقة عملية معاشة ، معايشة العصر الذى نكتب عنه ومعايشة الرجل الذى نترجم له وادراك روح الموضوع ايا كان ادراكا تاما .

وهذا الروح الذى ينحدث عنه كروتشي هو الذى يعبر عنه كبار المؤرخين فى عصرنا ممن يؤرخون على مذهب «التاريخ الشامل» total history التى سنتحدث عنها بجو العصر او المناخ التاريخي historical climate وهو آخر المذاهب التاريخية المعتمدة فى عصرنا .

وبرجع فلسفة كروتشى فى بعض نواحيها الى آراء جيامبا نيسستا فيكو التى اوجزناها ، وترتكز فى بعض نواحيها الاخرى الى تجربته الشخصية ونشاطه الواسع فى النقد الادبي والتاريخ ، ولهذا نجده يستمد آراءه من الواقع التاريخي الذى لمسہ اثناء معاناته لكتابة التاريخ ومحاولاته تفسير الاحداث . وهو يرى ان فلسفة التاريخ ينبغي ان تنبع من التاريخ نفسه اى لا بد ان تقوم على اساس الوقائع الثابتة ، فهي على هذا تفسر الوقائع لا فلسفة لها ، وكلا الوقائع وتفسيرها ينبغي ان يقوما على فهم كامل لروح الموضوع . ومع هذا التمسك بالواقع التاريخي والتشديد فى القول بانه ينبغي ان يكون اساسا لاي فلسفة تاريخية - مما يجعل الانسان يتصور ان كروتشي يرى ان فلسفة التاريخ ما هي فى الواقع الا تفسير له . على الرغم من ذلك نجد كروتشي يميل الى الجانب المثالي او التأملي فى فلسفته للاحداث . مما يوحي بأن هناك اضطرابا فى تفكيره الفلسفي التاريخي ، وهذا صحيح الى حد بعيد .

ومن اطرف آراء كروتشي قوله بأن هناك فرقا اساسيا بين المعرفة التاريخية والمعرفة العلمية . والأولى فى نظره لون من الثقافة او الادراك الفكري . وهو يقول ان الماضي فى ذاته لا وجود له ، وهو يتبع فى ذلك نفرا من العلماء الذين قالوا بذلك لينقضوا القول بأن التاريخ علم ، فاذا لم يكن للماضي وجود فعلي فانه لا يوجد الا فى ذهن المؤرخ . ومعنى ذلك ان الحوادث الماضية لا وجود لها بالفعل الا اذا فكر الانسان فيها ، فى هذه اللحظة توجد وتصبح بالنسبة للمؤرخ المعنى بها حوادث معاصرة ومن هنا يقول كروتشي ان التاريخ كله معاصر على هذا المعنى ، ولنضرب لذلك مثالا من تاريخنا فنقول ان ثورة الزنج التى قامت فى عصر الخليفة العباسي المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ / ٨٧٠ - ٨٩٢) وبعض سنوات خلافة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ / ٨٩٢ - ٩٠٢) كانت من اعظم الحركات الاجتماعية فى تاريخ الدولة العباسية ، وكانت لها آثار سياسية واجتماعية بعيدة المدى . ولكنها انتهت وتلاشت آثارها بعد ذلك فيما دهم الدولة العباسية من تدهور واحداث جسام ، فهي على هذا حادث مضي تمام واندرج فى صحائف التاريخ ولم يعد له وجود فى الواقع ، فاذا فكر مؤرخ فى دراسة ثورة الزنج وبحث عنها « وجدت » فى ذهنه واصبحت حادثا واقعيا بالنسبة له لانه يشغل نفسه بها وبعيش فيها . وهذا الراى الذى يستوقف النظر لطرافه لا لعمقه يبدو وكأنه استطراد مع القول بنسبية التاريخ . ويمكن تلخيصه على هذا الاساس بالقول بأن التاريخ حي بالنسبة للمؤرخ او لابناء العصر ، وميت بالنسبة لغيرهم .

وكان كروتشي يرى أن الفكر التاريخي اعلاواوتق من أى فكر آخر لأنه يعتمد على واقع وتجربة ومعاناة ، وأن القول بنسبية التاريخ ليست مظهرا من مظاهر ضعف التفكير التاريخي ، بل تأكيد للقوه الذهنية والتخيلية . ويمكن القول بأن كروتشي كان حصيفا ناقدا ومصيبا فيما كتب عن تاريخ ايطاليا ، اما كتابابه في فلسفه التاريخ فيستوبها الغموض والتناقض .

ولكن آراء كروتشي كانت ذات نفع لمعاصر له من كبار الفلاسفة والمؤرخين وهو **روبن جورج كولنجوود** Robin George Collingwood (١٨٨٩ - ١٩٤٣) وهو علامة انجليزى صافي الذهن بعيد النظر ، تخصص أول الامر في التاريخ وخلف لنا كتابا من احسن ما كتب في تاريخ انجلترا في العصور الرومانية Roman Britain (١٩٣٦) وهو جزء من تاريخ اكسفورد لانجلترا ، وشغل وظائف استاذية التاريخ في اكثر من جامعة انجليزية ، وجعل همه التفرير بين الفلسفة والتاريخ ، وقال ان الفلسفة منذ ايام ديكرت شغلوا انفسهم بمشاكل العلم والمناهج ومعان اخرى لا يمكن بطييفها عند دراسة الفكر او العمل ، وبعد ان رأى الدنيا تخوض غمار حربين عالميتين ايقن ان العلوم لم تساعد كثيرا في حل مشاكل البشر وان الفلسفة اذا مزجت بالتاريخ كان من الممكن ان تعين على ايجاد هذا الحل ، وقال ان دراسة الواقع التاريخي ربما اعطت الانسان نوعا من الحكمة الواقعية تمكنه من العثور على طريق قويم . وقد جمع آراءه في كتاب « فكرة التاريخ The Idea of History » الذى نشر بعد وفاته سنة ١٩٤٤ وهي رسالة مصوغة في اسلوب جميل حافلة بالآراء الصادقة ، ولكنها لا تتضمن نظاما فلسفيا متناسقا .

وقد كتب كولنجوود كتابا آخر عن فلسفة التاريخ ، وهو يحمل هذا العنوان بالفعل Philosophy of History وهو يعتبر في العادة اقل مستوى من « فكرة التاريخ » ولكنه على اى حال اوضح ، ويستطيع الانسان ان يخرج منه بشيء نافع . ويؤيد كولنجوود هنا القول بنسبية التاريخ (٢٥) ولكنه ينكر ان المؤرخ يتبع هواه في اختيار الطريق الذى يجمع به الشواهد او الادله التاريخية على ما يريد قوله . ثم يتابع كروتشي في تفكيره ويقول انه ما دام التاريخ ابتداءا وخلفا للمؤرخ نفسه ، اى ما دام الماضي لا يبعث حيا الا اذا وجد المؤرخ الذى يهتم باعادته الى الحياة فان عودة الحياة الى الماضي لا تحدث الا اذا سأل المؤرخ سؤالا ، اى ان ثورة الزنج مثلا لا تكتسب اهمية الا اذا تساءل المؤرخ عن ماهيتها ومضى يبحث عن هذه الماهية . ونفى كولنجوود القول بأن المؤرخ يتخير ما يريد بحته من حوادث الماضي ، لأن هذه الحوادث نفسها غير موجودة ، انما هي توجد فقط عندما يريد المؤرخ ذلك . وكان الناس قبل كولنجوود يقولون ان الماضي او التاريخ كله لا وجود له الا في ذهن المؤرخ ، وعلى هذا فرأى كولنجوود هذا ليس الا صياغة جديدة لهذه الفكرة . ومن هنا نفهم كيف كان كولنجوود من المتحمسين لما قاله كروتشي من ان التاريخ كله معاصر وقال : ان التاريخ كله يروى احداه ويضعها في عالم الحاضر لا كتاريخ بالضرورة بل كتاريخ للتاريخ . وربما اراد ان يقول بذلك ان كتاب التاريخ الراقد على رف في المكتبة لا يصبح تاريخا الا اذا تناولته وفتحته ومضيت تقرأ فيه . هنادب فيه الحياة وقبل ذلك كان كل ما فيه شيئا ميتا .

ومن هنا اسنتج كولنجوود ان التاريخ ليس له نفس واحد بل ان كلا منا يفهمه ويفسره على قدر ما يستطيع ذهنه ، وهذا التفسير لا يمكن ان يتحلل من شخصية المؤرخ وثقافته ، وهذا يفسر

لنا كيف ان كل مؤرخ يرى في نفس الحوادث شيئا آخر ، وعلى هذا فانه لا يمكن القضاء على العنصر الشخصي The subjective element وان التاريخ الموضوعي الصرف pure objective history يكاد ان يكون لا وجود له .

وليس معنى ذلك ان كولنجوود يرى ان التاريخ كله خاضع للهوى والاحكام الفردية التعسفية . ولكنه يقول ان المسألة مسألة وجهة نظر ورأي صادر عن انسان له شخصيته وتكوينه وخلفيته وقال : « فاذا كان لى مثلا رأى في يوليوس قيصر يختلف عن رأى مومسن فهل معنى ذلك ان واحدا منا على خطأ ؟ الجواب لا ، لان تفكيرى التاريخي مبني على ماضي وتجربتي لا على ماضي مومسن وتجربته . اننى ومومسن نتفق في اشياء كثيرة ، وفي احيان كثيرة نتفق في نواح من ماضينا ، ولكن حيث اننا انسانان مختلفان ، وكل منا يمثل ثقافة معينة وينحدر من اصلااب خاصة به فواء كل منا ماضى يختلف عن ماضي الآخر ، وكل شىء في ماضي مومسن لا بد ان يعاني انحرافا عندما يدخل في ماضي » .

ويقول : « واخيرا وحيث ان الماضي نفسه لا شىء ، فان معرفة هذا الماضي ليست - ولا يمكن ان تكون - هدف المؤرخ ، انما هدفه - وهو هدف كل مخلوق يفكر - هو معرفة الحاضر ، الى هذه الغاية ينبغي ان ينتهي كل تفكير ، وحول هذه الغاية ينبغي ان يدور كل شىء . ولكن المؤرخ لا يشغله الا مظهر واحد من الحاضر ، وهو : كيف صار الى ما هو عليه . وعلى هذا الاعتبار يكون الماضي مظهرا للحاضر ووظيفة من وظائفه ، وعلى هذه الصورة ينبغي ان يظهر التاريخ في نظر المؤرخ الذى يفكر بذكاء في عمله او يحاول ان يصل الى فلسفة التاريخ » .

وقد كان الكثيرون ممن ينقدون التاريخ ومنهجه يقولون ان عمل المؤرخ يعتمد على « المقص وزجاجة الصمغ Scissors and paste أى انه يقطع صفحات مما قال الاولون ويلصقها بعضها الى جانب بعض ويعمل منها تاريخا ، وهذا يصدق - ربما - على الكثيرين من مؤرخي العصور الوسطى ، وقد انكر كولنجوود ذلك انكارا شديدا وقال ان المؤرخ الحق ليس عبدا لمراجعته وقال : « ان المقص والصمغ لم يكونا قط اساس المنهج التاريخي » فان المؤرخ الحق لا يتقيد بمراجعته الى الحد الذى يجعلها قيда له ، بل ان للمؤرخ الحق فى ان يقوم مراجعته نفسها اذا تبين له فيها الخطأ او الكذب .

وقد اورد كولنجوود هذه الآراء في تاريخ حياته An autobiography الذى نشره سنة ١٩٣٩ وهو من اجمل واذكى ما يقرؤه المؤرخ او المفكر بصفة عامة . ويصادف القارئ في هذا الكتاب الكثير من الآراء التي لا يقبلها ، ولكن المؤرخ يشعر وهو يقرأها ان هذا المفكر الفذ يؤكد له اهمية عمله ويكشف له عن آفاق واسعة للعمل التاريخي . فقد كان كولنجوود مقتنعا تماما بأهمية التاريخ ، وفي كتاباته يشعر الانسان بجلالة هذا العلم وقدره ، واذا كان الكثيرون قد نقدوه لقوله بأن المؤرخ ان يعتمد الى جانب مراجعته على ادراكه الشخصي وتصوره للاشياء حتى لو خالف تلك المراجع ، الا ان كل مؤرخ يحترم صناعته ويشعر بقدرها لا بد ان يشعر بتقدير واجلال لهذا الرجل الذى انصف التاريخ والمؤرخ معا ، واستطاع بذكائه وصدقه واخلاصه للحقيقة العلمية ان يضع التاريخ في وضع رفيع بين العلوم سواء اكانت نظرية ام عملية .

التاريخ العالمي ونظرياته

وهكذا نصل الى اشهر المؤرخين المعاصرين وابعدهم اثرا في الفكر الفلسفي التاريخي في ايامنا هذه وهو **ارنولد يوسف توينبي** Arnold J. Toynbee الذى ولد في نفس العام الذى ولد فيه

كولنجوود (١٨٨٩) وانجه بالدراسات التاريخية اتجاها اشمل واوسع مما قصد اليه كولنجوود واجتهد في ان يتحقق مما اذا كان للتاريخ مسار معين يمكن التعرف عليه ولو على وجه التقريب ، ومعنى ذلك انه وجه اهتمامه الى ما يسمى احيانا **بما وراء التاريخ** Metahistory أى البحث عن القوى او العوامل او المناهج التي تسير التاريخ .

وعاد توينبي بالفكر التاريخي الى حيث تركه المفكر الفرنسي المعروف اوجوست كومت Auguste Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٧) الذى اجتهد في ان يطبق على الانسانيات والتاريخ خاصة - نفس المناهج العلمية التي تطبق على العلوم الطبيعية ، وقد ركز كومت اهتمامه على علم الاجتماع ، وهو دون شك منشئ هذا العلم في الغرب قبل **دوركايم** Durckheim بزمان طويل . وهنا نجد كومت قريبا جدا في منهجه وطريقة علاجه لما يدرسه من منهج ابن خلدون ، وربما كان من المفيد ان يعكف بعض المشتغلين بالفلسفة عندنا بعمل مقارنة بين مناهج الرجلين . على اى حال لا يعد كومت مؤرخا او مفلسفا للتاريخ . لأن ميدانه الحقيقي هو فلسفة العلوم ، ولكنه بالحاحه على البحث عن قواعد وقوانين لسير التاريخ انشأما يسمى **بالايجابية التاريخية** La positivité historique أى الترام الدقة العلمية في كتابة التاريخ مع البحث عن المنطق الدقيق وراء كل حادث وتطور . وقد لقيت الايجابية التاريخية نجاحا كبيرا وجعلت اى مقدم على التأليف في التاريخ يبذل غاية وسعه في استقصاء مادته وتنقيتها وتحليلها باقصى ما يستطيع من الدقة اى بأدق ما يستطيع من المنطق ، وكان يرى ان دراسة التاريخ تقدم لنا المادة التامة لفهم المجتمع . والى هذا الرجل يرجع الفضل في انشاء كرسي التاريخ في الكوليج دى فرانس سنة ١٨٣١ . وقد وضع الرجل منهجه في كتابين يعتبران من اسس الفكر الحديث وهما « دروس في الفلسفة الايجابية » (١٨٣٠ - ١٨٤٢) ومنهج للسياسة الايجابية Systeme de politique positiviste (١٨٥١ - ١٨٥٢) وهو لا يزال يكرر في كتابيه هذين على رايه في ان المجتمع الانساني قابل للدراسة على الاساس العلمي .

وقد رأينا كيف عمل كروتشي وكولنجوود من بعده في تحرير التاريخ من العلم الطبيعي والمؤرخين من محاولة تطبيق مناهج العلم الطبيعي على مجرى حياة البشر ، ومن فضائل كولنجوود انه نصح المؤرخين بأن يكفوا عن السعي وراء البحث عن قوانين عامة للتاريخ ، وقال ان الاجدى هو الاجتهاد في فهم الحوادث كما فهمها أهل عصرها ، وعرضها في اطار الزمن الذى دارت فيه لا في اطار عصرنا . ففي العصور الوسطى مثلا كان الملوك اذا صعدوا الى العرش كان اول همهم القيام باعمال عسكرية ضد جيرانهم لا بقصد العدوان وانما اعلاما للجيران بأن الملك الجديد قوي جسور لا يصطلي بناره « كما يقولون » فيها بوه ويحترموا حدوده ، فاذا لم يفعل ذلك ظنوه ضعيفا فقاموا بالعدوان على بلاده ليعجموا عوده ، وعلى هذا فلا ينبغي ان ننظر الى كل حروب الملوك والامراء في العصور الوسطى على انها اعمال عدوانية ، بل هي روح العصر كانت تقتضي ذلك . هكذا ينبغي ان نفهم التاريخ في ضوء عصره وظروفه وافكاره الشائعة حتى نطمئن الى ان فهمنا للحوادث صحيح .

ولكن فكرة البحث عن قواعد وقوانين تسير التاريخ العام ما زالت مع ذلك تراود ذهن المؤرخ الطموح الذى لا زال يأمل في الوصول الى سر التاريخ . ومن هذا الطراز لدينا في العصر الحديث عدد ليس بالقليل ، ولكنهم لم يعودوا يصرون آراء فلسفية قائمة على التأمل ، ولكنهم لجأوا الى ما صرف عند الالمان باسم التحليل التاريخي او مورفولوجية التاريخ Geschichtsmorphologie او تحليل الحضارات Kulturmorphologie والمراد بذلك ان يأخذ المؤرخ مجموعة من الحضارات يعتبرها نماذج ثم يحلل عناصرها ومكوناتها ويحاول ان يجد عناصر

متشابهة بينها تساعد على ان يرى ان كان هناك بالفعل - او لم يكن - نظام واحد يمكن ان يطبق عليها جميعا .

وهذا المفهوم للتاريخ العالمي يختلف عن مفهومه التقليدي الذي يقوم على رواية تاريخ البشر عصرا عصرا او امة امة كما نجد مثلا في تاريخ كيمبريدج باقسامه الثلاثة : القديم والوسيط والحديث ، ويختلف كذلك عن مفهومه الفلسفي الذي يبحث عن القوى العامة التي تحرك مسار التاريخ كما رابنا هيجل ينظر الى التاريخ او العملية التاريخية كما كان يسميها Geschichtsprozesse على انها عملية صعود منطقي الى مستويات عقلية او فكرية جدلية Dialektische Stufen تنتهي آخر الامر الى تحقيق ما تقصد اليه القوة العليا المدبرة لشئون الكون Weltgeist من توحيد العالم في كل واحد Weltganz يعيش في حرية وامان ، وكان يحسب ان الانسانية قد اقتربت من هذا الهدف الاعلى بظهور الدول الاوربية المنتظمة القائمة على القانون Rechtsstaaten وكان يرى في الدين والعلم والفن مظاهر مرتبطة بما بتحقيق من الاقتراب من ذلك الهدف الاخير الذي قصد اليه العقل الكوني الاعلى - اى الخالق سبحانه في رأى هيجل - وقد رأينا كيف هدم ماركس هذا البناء الفلسفي بقوله لا وجود لهذا العقل او الروح الاعلى ، وان المحرك الحقيقي للتاريخ هو الاقتصاد والانتاج ، اى انه هبط بالفلسفة التاريخية من السماء الى الارض ، وقال ان ما ذكره هيجل من دين وعلم وفن ، وظن انها لباب التاريخ واساسه ان هي الا قشرة ظاهرية لبنية التاريخ ، وقد سماها بالبناء العلوى Neberbau او Super structure كما يترجمها الانجليز يقوم اساسا على انتاج الطبقات العاملة ويعتمد على عمل الكادحين الذين هم في رأيه بناء التاريخ وصناع الحضارة .

هذا التصور الجديد للتاريخ العالمي يرجع الى آراء فيكو في قيام الدول وسقوطها ومحاولة البحث عن اسباب القيام والسقوط وقد رأينا ان فيكو يحاول ان يرد القيام والسقوط الى عوامل بيولوجية اى انه فعل ما فعله ابن خلدون من تشبيه الدول والحضارات بالنباتات والحيوانات وقوله بان لها اعمارا لا بد ان تمر فيها .

ونحن نذكر ان ابن خلدون اشار في تحليله الى ان الامم في صعودها تتطلع نفوس اهلها الى عظام الامور وتستسهل الصعاب ، وفي ايام هبوطها تسقط همم اهلها وتصعب عليهم الصفائر ، وهذه لمحة عبقرية سماها متفلسف تاريخى الماني هو **فوننت Wundt** باسم نفسية الشعوب Völkerpsychologie وتحدث عنها **كارل لامبرخت Karl Lamprecht** في تاريخه للحضارات على اساس نفساني .

وكان **لامبرخت** من اوائل من فكروا في البحث عن سر التاريخ عن طريق تحليل عدد من الحضارات والبحث عن العوامل التي سببت قيامها وهبوطها واستخراج المعاني من ذلك التحليل او ما يسمى بدلالات التحليل الحضارى Kulturmorphologische Geschichtsdeutungen

وقد يكون لامبرخت قد استوحى في ذلك آراء مؤرخ روسي يعتبر من اوائل دعاة الحركة الصقلية اى السلافية ، وهو **نيكولاى دانييليفسكي Nikolai Davielewski** (١٨١٢ - ١٨٨٥) وفي محاولته لتحديد الشخصية السلافية قام دانييليفسكى ببناء نظرية كاملة تقوم على اساس من مورفولوجية التاريخ . فاختر عشر حضارات رأى فيها انها حضارات مبتدعة او بانية للحضارات ثم قسمها على اساس لغوي ، فجمع الحضارات الايطالية والفرنسية والاسبانية مثلا في وحدة

حضارية واحدة ، وكان هدفه من ذلك ان يبين آخر الامر ان هناك وحدة حضارية صقلية او سلافية تتزعمها روسيا ، ولكنه كشف عن جهل عميق بما هو خارج عن النطاق الاوروبي فقرر ان هناك اجناسا ذات انر سلبى او مخرب للحضارات .

وقد تناول هذه الفكرة وسار بها الى مدى ابعد مؤرخ الماني اصيل هو **اوزفالد شبنجلر** Oswald Spengler (١٨٨٠ - ١٩٢٣) فقد كانت نظريته اوسع وافقه اشمل فأدرك من التوفيق ما ادرك لامبرخت ودانيلشكي وقد بسط آراءه في كتابه المشهور : افول نجم الغرب الذى ظهر جزؤه الاول سنة ١٩١٨ ، واتار ضجه Untergang des Abendlandes كبرى ، اذ انكره المؤرخون المحترفون لأنه هدم الكثير من آرائهم ودعاهم الى اعادة النظر فيما يتناولون من علم التاريخ . اما جمهور الناس فقد اعجبوا بكتاب شبنجلر وبهافتوا عليه لما رأوا فيه من جدة وشمول ، تم ظهر جزؤه الثاني سنة ١٩٢٢ مع نسخة معدلة من جزئه الاول .

رأى شبنجلر تتابها بين قيام الحضارات ونموها ووصولها الى القوة تم انحدارها عملية بيولوجية نسبية بما يجرى على الكائنات الحية من تطور طبيعي عضوى naturhafte prozesse بالضبط كما قال ابن خلدون . واذا كان نظر ابن خلدون لم يتخط نطاق الحضارة الاسلامية ودولها الا فيما ندر ، فاننا لا نستطيع بسبب ذلك ان ننكر عليه فضله في انه اول من قال بهذا الراى وان كان هذا الراى في ذاته غير صحيح .

درس شبنجلر سبع حضارات وحاول ان يستكشف اسباب صعودها وسقوطها ، وكل واحدة من الحضارات التي اخبارها تتميز بسيادة طراز معين من الناس ما بين رجال دين او عسكريين او فلاسفة . وحاول ان يرى كيف سارت الامور في كل منها ، فتبين - بحسب ما ادى اليه نظره - انها جميعا مرت بعصور انشاء ونمو ونضج ثم انحدار ، كأنها كلها مرت باعمار محددة ، وكان شبنجلر بارعا في عرضه ولكن سيطرت عليه فكرة التشابه بين الدول والكائنات الحية ، وهي فكرة غير سليمة ، لان الدول او المجتمعات لا تشبه الكائنات الحية ، فان الكائن الحي يبدأ في الموت بعد ان يصل جسمه الى درجة معينة من النمو في حين ان الشعوب او الجماعات بتجدد شبابها مع ميلاد كل جيل ، ونحن نقول مثلا ان الكائن الحي يتشيخ وان الامه تشيخ ، فاما شيخوخة الكائن الحي فمفهومة واما شيخوخة الامة فكيف تكون : هل يولد اطفالها جميعا في فترة ما شيوخا ؟ الحق ان شيخوخة الامة مفهوم آخر يختلف كل الاختلاف عن شيخوخة الكائن الحي ، وهي في الحقيقة ليست شيخوخة وانما هي ضعف وفساد وظواهر اجتماعية وسياسية تختلف كل الاختلاف عن الشيخوخة العضوية .

ونتابع شبنجلر في تحليله للحضارات التي اختارها فنقول انه ذهب الى ان الحضارات اجهزة عضوية Kulturen Sind Organismen وان كل حضارة تمر في مراحل عمر تشبه مراحل اعمار البشر المشهورة هي : Jede Kultur Läuft die Alterstufe des enigen Menschen الذى استعمله هيجل ولكل حضارة منها روح او لباب ، وشبنجلر لا يستعمل هنا لفظ Geist الذى استعمله هيجل ولا Spiritu الذى استعمله كروتشي ولكنه استعمل لفظ Seele وهي الروح التي في الكائن الحي . وهو يقول ان الفترة الاولى من حياة اى حضارة تشبه العصور الوسطى الاوروية . وهي في نظره على هذا مرحلة طفولة او صبوة ، ثم تدخل في مرحلة الوعي لنفسها والتنبه الى قواها ، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة الضعف والهبوط ، واننا نستطيع ان نستشف روح كل حضارة في معاملات

الناس في نطاق أى حضارة ما في كيانها من قوه ، وما تمر فيه من مراحل العمر ، وطابعها الخاص كذلك ، ومبارته بنصها :

In den Handlungen der Menschen wird dabei Kraft, Alter und Eigenart jeder Kulturseele sichtbar

وقد اتينا بها لانها كانت موضع نقد شديد ، لأنه ذهب في تشبيهه دورة الحضارة بدورة حياة الكائن الحي الى مدى مسرف في البعد ، فان التطابق بين حياة الامم وحياه الافراد كما قلنا غير موجود الا في الظاهر فقط . وقد عدل شبنجلر عن بعض آرائه تلك فيما بعد ، ولكن صلب نظريته ظل قائما . واليوم لا يأخذ احد بنظرية شبنجلر التي تلخص في قول احد تلاميذه :

Spenglers Deutung der Weltgeschichte als Naturhaftes Prozesses des Wachstums and Verfalls.

(تصوير شبنجلر التاريخ العالمى في صورته عملية نمو وتفكك طبيعية) ، وأضاف - مقسما من كلام اشبنجلر : ان ملاحظة سير الدوره Zyklus الحتمية وتبع أطوارها يمكننا من الحكم على مستقبل أى حضارة وذلك بدراسة ما قطعه من أطوار دورة حياتها فنعرف ما بقى لها من العمر . وقال « ان الصورة الروحية لكل من هذه الأطوار ومدتها وسرعتها ولبابها وانتاجها يمكننا من الوقوف على ما بقى لأى حضارة راهنة من سنوات القوة . وقال ان حضارة الغرب قد خلفت وراءها مرحلة الخلق الحضارى ودخلت في مرحلة الأسفل والاسمتماع المادى (التي يعتبرها شبنجلر مرحلة النضج الكامل لأى حضارة فلم يبق للغرب الا مرحلة الانحدار أو الافول Verfall) وقال ان اعادة الشباب الى حضارة الغرب وتجديدها مستحيل استحالة اعادة الشباب الى حيوان او انسان ادركته الشيخوخة .

وقد كان غضب المؤرخين في الغرب على اشبنجلر شديدا وقاسيا بسبب هذه النبوءة السوداء ، وهاجموا كتابه ومنهجه وعلقوا أهمية كبرى على بعض الاخطاء التاريخية التي وقع فيها في دراسته الواسعة المدى فتعرض بسبب ذلك لمتاعب كثيرة ، وزادت متاعبه عندما قام النظام الهتلري في المانيا ولم يرض الاشتراكيون الوطنيون (النازيون) عن آرائه وتوفى في ميونيخ في ٨ مايو ١٩٣٨ اسيفا وحيدا . (٢٦)

وكانت تجربة شبنجلر حافزا للكثيرين للقول بأنه خير للمؤرخ أن يقصر على عمله العلمى ، وهو دراسة ما يتولى من موضوعات التاريخ على المنهج التاريخى الصحيح ويترك جانبا موضوع البحث عن قواعد وقوانين عامة ، وهذا هو الذى رفع مقام كولنجوود الى المستوى الذى ذكرناه ، وبين أن عكوف المؤرخ على عمله على هذه الصورة يمكنه من الخروج في الموضوع الذى بحثه بنتائج ربما كانت أهم بالنسبة للفكر الفلسفى من المحاولات المتعثرة لتقنين مسار التاريخ .

(٢٦) انظر R. G. Collingwood, Oswald Spengler and the Theory of Historical Cycles (Antiquity. بحث نشر في مجلة 1927.

P. A. Sorokin, Social Philosophies of An Age of Crisis (1950)

M. Schröter, Metaphysik des Untergangs (1949).

عبد الرحمن بدوى : اشبنجلر . القاهرة ١٩٤٧ .

وكان أرنولد توينبى فى جملة هؤلاء الذين عكفوا على دراستهم التاريخية فى جد بالغ . كان موضوع دراسته وتخصصه هو تاريخ الغربى وأدبهم وعندما قامت الحرب العالمية الاولى كان يقرأ على نلاميذه فى جامعة أوكسفورد درساً فى الحرب البلويونيزية ويترج لهم كلام **توكيديد** عنها ، وهنا خطر بباله أن الحرب التى يصفها ذلك المؤرخ الاغريقى بين كتلتى بلاد اليونان اللتين تزعمتهما اتينا واسبرطة شبيهة الى حد كبير بالحرب العالمية التى اندلعت ووقفت فيها بريطانيا وحلفاؤها ضد المانيا وجليعانها . وان التاريخ ربما كان يعيد نفسه حقاً كما قال **توكيديد** ، وان **شبنجلر** لم ينفق وقته فى بحثه وراء نظام المسيرة التاريخية . **وتوينبى** من أولئك الذين لم يدخلوا ميدان التاريخ عن طريق الاحتراف بل لأنه كان يحس أن تيار التاريخ يتدفق فى شرايينه كما تجرى التساعرية فى كيان من خلقه الله ليكون شاعراً . وبعد أربع سنوات فضاها مدرسا فى أوكسفورد (١٩١٢-١٩١٥) انتقل الى لندن أستاذاً للتاريخ البيزنطى ، واللغة اليونانية المعاصرة (١٩١٩ - ١٩٢٤) وهنا بدأ اتصاله بالدولة العثمانية والمسألة الشرقية عموماً ، وهنا ايضا درس عليه المؤرخ المصرى **محمد شفيق غربال** وارتبط معه بصداقة كان لها أثر بعيد على تفكير توينبى وشفيق غربال معا . ومن سنة ١٩٢٥ الى سنة اعتزاله (١٩٥٥) كان توينبى أستاذاً للتاريخ الدولى فى لندن وكذلك مديراً للدراسات فى المعهد الملكى للشئون الدولية . Royal Institute for International Affairs وفى سنة ١٩٢٢ بدأ فى كتابة دراسته الواسعة للتاريخ التى دلت فيها - ضمن أشياء كثيرة - على حقيقة استمرار التاريخ، وأن الماضى والحاضر يربطهما بالفعل رباط حقيقى لا شك فيه . ولقد استوقف نظر توينبى وهويتبع اخبار الحرب العالمية أن البلغاريين كانوا يلبسون قلانس من فراء الثعالب ، وكذلك كان جنود أجزرسييس ملك الفرس فى حربهم مع الاغريق ، فكان لا شيء فى الحضارة يموت موتاً نهائياً .

يقول كتاب توينبى على دراسة عامة شاملة لتاريخ البشر على اعتبار أن هذا التاريخ ينكون من سلسلة من التجارب السياسية وصل كل منها الى قمته فى صورة حضارة قائمة بذاتها . فالتاريخ الاسلامى بمجموعه - فى نظره - بجرية واحدة خلاصتها هى الحضارة الاسلامية . فاختار توينبى من هذه الحضارات احدى وعشرين ومضى يدرس كلا منها دراسة عميقة شاملة على حدة ، فتجمعت له بذلك ثروة من العلم التاريخى وبالم تنوفر لمؤرخ آخر قبله ، وهذه الثروة هى التى تبهر قارئ كتابه وتجعله يتفاضى عن بعض الأخطاء فى التفاصيل .

وتبين توينبى أن تاريخ كل أمة من الأمم التى اختارها موضوعاً لدراسته إنما هو استجابة لتحدى الظروف التى وجدت فيها . وبرى توينبى أن أى مخلوق حى يجد نفسه بمجرد خلقه أمام عوامل تعمل على فئاته والقضاء عليه ، فما من حيوان الا وله أعداؤه علاوة على ظروف المناخ والغذاء وهى ليست دائماً مؤانية . ومن هنا فإن الحياة فى ذاتها تحد للكائن الحى ومواجهته لظروفه ومحاولته التغلب عليها والاستمرار فى عالم الاحياء هى استجابة لذلك التحدى . من هنا تنبه توينبى الى حقيقة التحدى والاستجابة Challenge and Response التى تعتبر مفتاح نظره العامة للتاريخ .

وعند دراسة توينبى للحضارات التى اختارها تبين أن المجموعات البشرية تقودها دائماً جماعات من القادة أو اصحاب الراى وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة فى استجابتها للتحدى

وبحددون نوع هذه الاستجابة بحسب ملكاتهم . فإذا كانت استجاباتهم قائمة على ابتداع الوسائل التي يمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التي تواجهها والسير الى الامام كانت هذه الجماعة موفقة ، وسار تاريخ الجماعة الى الامام ، لان الاستجابة كانت ابتكارية او ابتداعه Creative Response ولا يزال الامنة في صعود ونفوذ مادام قادتها محتفظين بالفطرة على الاستجابة الابتداعية . فاذا عجزوا عن ذلك أخذ سسير الجماعة كلها يتلكأ ويتراخى وربما نوقف . وبينما كان اسبينجلر - مثل ابن خلدون - يرى ان توينبي انه من الممكن ان تسمم الحضارة في الاستجابة الابتداعية ولا تموت بذلك . ويضع توينبي في دراسته العوامل الفكرية والروحية في المقدمة خلافا لما كان يفعله ماركس من تقديم النواحي والعوامل المادية على غيرها .

وقد أخذ توينبي عن المفكر الأمريكي **ف.ج. تيجارت** F.J. Tegar فكرة انتفع بها فيما بعد في دراسته . وهي انه لكي نفهم تاريخ حضارة ما علينا اولاً ان نقرأ عنها في توسع حتى نهتدي الى روحها ولبابها . وهذا هو مفتاح فهمها ، فاذا كان في يدنا هذا المفتاح عدنا نقرأ تاريخ هذه الامة وتجربتها السياسية والحضارية فنجد انفسنا قادرين على ادراك حقائق هذا التاريخ ومعرفة مواضع قوته وضعفه . وافاد توينبي كذلك من دراسة علم النفس على مذهب **يونيغ** Jurg احد تلاميذ فرويد ، ويونج من اقدر من درس موضوع نفسية الجماعات وهي تختلف كما هو معروف عن نفسية الافراد .

وجد توينبي ان كل الحضارات التي يدرسها مرت باطوار متشابهة في النمو واستمرار التقدم وريادة القوة ، ثم تعقب ذلك مرحلة من المصاعب الداخلية والخارجية يليها نصدع العناصر التي قامت عليها قوة هذه الحضارة وربما انتهى الامر بتفككها او تصدعها ، ويعقب ذلك تحولها الى دولة عالمية Universal State اي ان عناصر قوتها تتفرق في الشعوب التي كانت تتكون منها كما حدث مثلاً بالنسبة لدولة الرومان ، فقد قامت على العنصر اللاتيني الروماني الذي كان تكوين الاقلية القائده التي قادت الرومان في تاريخهم الاول بما لديها من قوة الخلق والابتداع، وتمكنت من انشاء الامبراطورية وسيادتها ، ثم مرت في حقبة الاضطراب الداخلي وحروب **ماريوس وسلا** وصراع الاخوين **جراكوس** في سبيل الاصلاح الداخلي ، ثم حروب قيصر واوكتافيوس وقيام الامبراطورية ، وهنا نصل الدولة الرومانية الى قمة قوتها وتأخذ وحدتها في التصدع ثم التفكك ، وتنتقل حضارتها وعناصر قوتها الى الشعوب التي كانت تحكمها ، اي انها تحولت الى دولة عالمية . ومن السهل على المؤرخ العربي ان يتتبع سير هذه العملية في تاريخنا العربي الاسلامي نفسه .

ويقول توينبي ان النموذج العادي للتفكك الاجتماعي في حضارة من الحضارات يأخذ صورة انشقاق في صفوف الجماعة وظهور الطبقة العاملة الى الميدان وتحديها للقوة الحاكمة . ويفترن ذلك بعجز هذه الطبقة عن الثبات لذلك التحدي بسبب التصدع في بنيانها وعجزها عن الاستجابة ابداعياً للتحدي ، وشيئاً فشيئاً تفقد القيادة سيادتها وتميل الامور الى الفوضى ، وقد يتم ذلك على مراحل تحاول القوة الحاكمة في كل منها استعادة سلطانها ثم يفقده ، وفي آخر الامر -

وكحل وسط للمشكلة - تترك جانبا من السلطان للطبقات او الجماعات الاخرى في الدولة اى انها تتحول تحت ضغط الظروف الى دولة عالمية او عامة كما ذكرنا ، وهنا نجد الطبقة العاملة او البروليتاريا التي احدثت هذا التغير الشامل تجعل من مبادئها التي نادت بها اثناء تحديدها للسلطة الحاكمة عقائد ثابتة وتنشئ ما يمكن ان يسمى بهيئة او قوة عقائدية عامة Universal Church وهذه العقائد العامة هي التي تبقي بعد تفكك الدولة وزوالها وتصبح نواة لبناء دولة او قوة جديدة .

وقد كتب توينبي المجلدات الست الاولى من تاريخه قبل الحرب العالمية الثانية في ظروف سادت اوربا فيها موجات من التفكك والضعف واليأس ، ولكن الحرب العالمية الثانية جددت الى حد ما نشاط الحضارة الغربية ، فلما عاد يستتم كتابه بعد نصر الحلفاء كتب المجلدات الاربعة الباقية بروح من التفاؤل تختلف عن روح الاجزاء الاولى وقال : « اذا كانت هناك مركبة نسير الى الامام في طريق رسمه لها قائدها فلا بد انها تسير محمولة على عجلات تدور وتدور في حركة منتظمة راقية . فاذا تصورنا ان حضارة البشر هي هذه المركبة وان عجلاتها تضعف وتتهشم اثناء السير الطويل لتحل محلها عجلات اخرى تبيننا ان هذا التعاقب في تغير العجلات واستمرار سير الحضارة يدل على ان اتصال هذا المسير مقدر في ذاته ولا بد ان يكون هناك نتيجة لهذا تقدير الهي اعلى يسيّر هذه العملية ويجعل من فشل حضارة من الحضارات عنصر قوة وبناء لحضارة تليها .

ومعنى ذلك ان توينبي لا يرى ضيرا او شرافى اضمحلال الحضارات لان تجاربها لا تذهب سدى بل تنتقل الى غيرها ، وتكون نقطة بداية لتجربة جديدة او عنصرا من عناصر قوتها . ومن هنا فهو يقول ان التاريخ لا يعرف حضارة تزول تماما ، وانما الذي يحصل في الغالب ان الحضارة بعد ان تتم دورها على يد امة من الامم تدبل وتجمد او تتحجر Petrifies ثم تتفكك وتنتقل عناصرها الى امة او امم جديدة لتقوم حضارة او حضارات جديدة . وقد كان توينبي يكتب هذا التاريخ في نفس الوقت الذي كان يشرف فيه على تحرير دورية سنوية كان يصدرها المعهد الملكي للشئون الدولية تسمى « عرض للشئون الدولية Survey of International Affairs » اى انه كان يتابع سير التاريخ الحاضر في نفس الوقت الذي كان يقلب فيه دفاتر الماضي ، مما اعطى دراسته للماضي نفسه طابعا من الحاضرية فيه حيوية وقوة واقعية . وتوينبي نفسه قال انه ما كان يمكنه ان يقوم بأى من العملين على شكل ناجح او لم يكن يقوم بالآخر في نفس الوقت . لان تتبع سير التاريخ الحاضر وفهمه لا يتمان الا اذا اخذ الانسان في اعتباره سير الحوادث في الماضي ايضا . واى مؤرخ ناجح لا بد ان يكون متتبعا لاحداث عصره في نفس الوقت الذي يدرس فيه ما مضى من الاحداث لان مادة التاريخ واحدة وهي الانسان ، ولبابه واحد وهو الحضارة . **قلا بد لمن يدرس حمورابي او اخناتون ان يكون متتبعا لرجال عصره مثل غاندى ولينين واتاتورك وفرانكلين وبلانو روزفلت .**

وتلك هي الميزة الكبرى لنظرة توينبي للتاريخ . فهو يدرسه على انه كل واحد او تجربة واحدة تمت على مراحل او دورات ، واذا كان كل من سبقوه من مفلسفي التاريخ في الغرب قد

ركزوا على تاريخ الغرب بادئين بالمصريين القدماء فالأغريق فالرومان ومنتهم بالثورة الفرنسية والقرن التاسع عشر ، فجاءت دراسهم ناقصة لانها قامت على فهم ناقص للتجربة الانسانية العامة . فان توينبي ادخل في اعتباره تجارب أمم الشرق جميعا وانفق جهدا ضخما في فهمها وتقديرها ، بل ادخل في اعتباره التجارب الحضارية للهنود الحمر قبل الكشف الكولومبي . ومن هنا كانت دراسته انسانية عامة وان سطر عليها شعوره المسيحي الروتسنتاتي ، واذا كان بعض النقاد قد قالوا عنه انه يتكلم احسانا كواعظ مسيحي فان من الحق ان يقال انه في معظم تاريخه يصدر عن احساس انساني عام قائم على الايمان بوحدة الانسانية وتجربتها الحضارية .

وتوينبي لا يعد نفسه فيلسوفا او مفلسا للتاريخ ويكتفي بالقول بانه مؤرخ ، اما كبار مؤرخي العصر من امثال **يوهان هويتسنجا** Johan Huizinga فينكرون عليه هذه الصفة ، ويكتفون بالقول بانه شاعر ويصفون انه ادخل على التاريخ عنصرا شاعريا انسانيا ولكنه لم يكتب تاريخا حقيقيا منهجيا كما يرون . وارنولد توينبي لا يفضض من هذا الموقف ويقول ان هدفه من كتابه « دراسة التاريخ » كان تعريف الامم بعضها ببعض واطلاع كل منها على التجربة السياسية والحضارية للآخرات ، وهذه المعرفة من شأنها ان تقلل من كراهة الامم بعضها لبعض ، وتخفف من خوفها وتفتح بابا من ابواب التفاهم الانساني . وهذا فيما نعتقد يكفيه .

ونلاحظ ان معظم نقاد توينبي ومنكرى فضله هم من اليهود او ممن يميلون الى الاخذ بدعائهم . ولقد اجتهد اليهود خلال نصف القرن الاخير في تضخيم قدر ما يسمى بدولتهم في جزء من فلسطين لكي يجعلوا من ذلك سندا لدعواهم العريضة في القول بانهم اساتذة الانسانية . فجاء توينبي وقاس الابعاد السياسية والحضارية لتلك الدولة ووضعها في وضعها الصحيح . وفي كلامه عن العقيدة اليهودية بين زيف الدعوى التي روجها اليهود التي تقول ان مفكريهم هم اصل الاديان السماوية وان النصرانية والاسلام تحريفات لها . فكشف توينبي زيف ذلك كله . واثبت دون تحامل او قصد معين ان هذه كلها مزاعم من صنعة اللاهوتيين والسياسيين اليهود في العصر الحديث ، واعطى المسيحية حقها ، وتكلم عن الاسلام عن فهم او محاولة صادقة للفهم على الاقل . فكان هذا كافيا لاثارة حملة اولئك عليه : وهي حملة سياسية في حقيقتها ولا قيمة علمية لها .

في كتاب « دراسة التاريخ » نرى كيف تمكن توينبي من المصالحة بين علمي الاجتماع والتاريخ على احسن صورة ممكنة ، فهو في الواقع مؤرخ وعالم اجتماع . وهو اذ يتحدث مثلا عن حضارة مصر القديمة يجتهد في ان يعطيك صورةا للمجتمع المصري القديم ، لان الحضارة لا تنجلي في مبتكرات اهل العبقرية بقدر ما تنجلي في مستوى معيشة الجاني الاعظم من الشعب ، ومن هنا فان توينبي لا يتحسس حماسا شديدا لعصر النهضة الاوروبية لمجرد انه اطلع رجلا من امثال **ميكلانجيلو** لان الفلاح الايطالي كان يعيش اتمس ايامه خلال ذلك العصر المضطرب . ومن هنا نستطيع القول بانه حتى الذين يريدون ان يقولوا ان ارنولد توينبي ليس مؤرخا لا بد ان يسلموا بانه فتح في التاريخ فتحا انسانيا لم يوفق اليه مؤرخ قبله .

الى هنا نقف بهذا البحث ، فقد قطعنا فيه رحلة اثنين وعشرين قرنا من جهد علماء الغرب في اثبات قدر علم التاريخ وللوصول به الى ما هو عليه اليوم . ولم يكن لنا مفر في اثناء هذا العرض من الاستطراد عن اعلام لهم قدرهم في هذا المجال من امثال **ف.و.ميتلاند** F. W. Maitland (١٨٥٠ - ١٩٦٠) صاحب الفضل الاكبر في نشاط نشر الوثائق الاولى في انجلترا وهو مشهور بنشره للمذكرات **براكتون** . Tracton's Not Book (١٨٩٥) وكان براكتون محاميا في القرن الثالث عشر ومذكراته حافلة بالكلام عن الصور الاجتماعية والمعاملات في عصره ، وهذه المذكرات تشبه في قيمتها العلمية وثيقة « يوميات كاتب الشونة » التي نشرها عزت عبد الكريم والقى بذلك ضوءاً باهرا على حياة الناس في الشام في العصر العثماني . **ويول فينوجرادوف** Paul Vinogradoff (١٨٢٤ - ١٩٢٥) ذلك المهاجر الروسي الذي انشأ في مانشستر بانجلترا مدرسة من اصلب مدارس العلم التاريخي ، والمؤرخ الأمريكي **ماكولوين** C. H. Naclwain استاذ التاريخ في هارفارد ورئيس الجمعية التاريخية الأمريكية American Historical Association وهو صاحب فضل كبير في تعريف الأمريكيين بالقيمة الكبرى للوثائق التاريخية ايا كانت ، **ول.ب.نامير** L. B. Namier (١٨٨٨ - ١٩٦٠) الذي تعتبر مؤلفاته الى جانب مؤلفات ميتلاند نماذج للتاريخ العلمي المستكمل الشروط .

وهؤلاء الاساتذة جميعا يسيرون في التاريخ على مذهب التاريخ الشامل Total History اى الدراسة الشاملة للفترة او الظاهرة التي ندرسها . فاذا كنت مثلاً تدرس موضوع الضرائب في عصر الدولة الايوبية مثلاً ، فلا بد لك من ان تدرس الدولة الايوبية دراسة كاملة من كل نواحيها . وتلم بتاريخها السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي . وتدرس الى جانب ذلك احوال العالم الاسلامي كله في ذلك العصر . وذلك لكي تستطيع ان تتكلم في موضوعك عن ثقة وتمكن . ولا مفر من هذه « الكلية » totalité لمن يريد ان يقوم بدراسة تاريخية جديرة بالتقدير . ولم يتبع هذا المنهج اتباعاً صادقاً ووصل فيه الى مداه كما فعل ابناء المدرسة الفرنسية العريقة التي عرفت بمدرسة الانال L. Ecole des Annales التي ذكرناها . ففي هذه المدرسة الاصيلية التي تكونت حول الجماعة التي انشأت دورية الانال . . اى الحوليات ظهر رجيل فحل من المؤرخين الفرنسيين الذين بلغوا الذروة في كمال البحث واصالته حتى قال واحد منهم وهو Ariès ارييه ان كل ما ننفق فيه الوقت من دراسة الحوادث السياسية والعسكرية ووقائعها ربما لا يكون في الحقيقة الا الواجهة الظاهرة للتاريخ . .

وان التاريخ الحقيقي يقع وراء la face de apparente de l'histoire ذلك في حياة الناس العاديين ومستوى معيشتهم وافكارهم وآمالهم ومخاوفهم . وهم لهذا يحذرون من التاريخ السطحي histoire superficielle الذي ينزلق اليه الكثيرون فيجرون وراء تتبع الحوادث ذات الدوى الكبير ومع ذلك فربما لم يكن لها في الوعي الانساني اثر . . على المؤرخ اذن ان يبحث عن الاصيل والدائم عن اللباب دون القشر .

ومن امثلة الدراسات الشاملة على مذهب مدرسة الحوليات ذلك الكتاب المبدع الذي كتبه **فردينان برودل** Ferdinand Braudel الاستاذ المعاصر في السوربون عن عالم البحر الابيض في

ايام فيليب الثانى (1949) La Mediterranée et le Monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II وهو كتاب شامل يدرس البحر الابيض فى عصر الصراع الضخم بين الاتراك العثمانيين والاسبان والبلاد الاوروبية على سيادة البحر الابيض . وقد درست على هذا الرجل وربطتني به صداقة كبيرة ايام كنت ادرس تاريخ اسبانيا فى السوربون ، وكنت فى جملة طلاب قاعة بحثه Seminaire فى المدرسة العليا العملية فى جامعة باريس . ورأيت اسنهلكه نفسه فى تكوين تلاميذه وتدريبهم على التأريخ على مذهب البحث الشامل . ولكى يصل الرجل الى بحثه هذا درس جغرافية البحر الابيض دراسة مستفيضة واستخرج ما سماه بشخصية البحر الابيض التاريخيه la personnalité historique de la Méditerranée ويتجلى هذا فى الجزء الثانى من كتابه الذى يدرس فيه وحدة النظم الاقتصادية والنظم السياسية التى سادت فى معظم الدول التى قامت على حوض هذا البحر . وبعد هذا كله يدرس برودل فى الجزء الثالث حوادث الصراع على سيادة هذا البحر خلال القرن الخامس عشر الميلادى وهو يسمي هذا الجزء تاريخ الاحداث histoire événementielle وعلى نفس الطريقة سار Charles Labrousse شاول لابروس فى كتابه المبدع عن الثورة الفرنسية الذى حلل فيه النظام القديم اى النظام الملكى l'ancien régime تحليلا اجتماعيا اقتصاديا فكريا ونفسيا بالغ العمق والشمول يجعل من كتابه هذا خير ما يعرف الانسان بالثورة الفرنسية واسبابها والظروف التى قامت فيها .

ويضا هي برودل فى سعة الافق وشمول البحث والتاريخ على مذهب التاريخ الشامل **بيير رينوفان** Pierre Renouvin الذى تخصص فى دراسة العلاقات السياسية فى العصر الحديث . وهو من الذين يرون فى احداث التاريخ السياسى مجرد مظهر سطحي للواقع التاريخى الاهم وهو جماع الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تدفع بالجماعات الانسانية الى التعرف على هذا الوجه او ذاك . ويظهر رينوفان ذكاء بعيدا وسعة رائعة فى الافق عندما يتكلم عن اثر الدولة والسياسة فى تشكيل الصورة العامة لنشاط الامة كلها واهميتها فى المجتمع الدولى ، ويظهر كذلك براعة فى تحليل ما يسميه بالسياسة الكبرى la grande politique اى التيارات الضخمة التى تسير سياسات الدول الكبرى ويتجلى ذلك كله بصورة واضحة فى كتابه عن تاريخ العلاقات الدولية Histoire des relations internationales الذى ظهر سنة ١٩٥٣ وفيه تتجلى الميزة الكبرى لمدرسة الحوليات وهى القدرة على عرض المشكلة عرضا سليما شاملا وهو ما يسمى بالموضوع la thèse ثم دراستها دراسة نقدية شاملة وهو ما يسمى بنقد المشكلة antithèse ثم الخروج بعد ذلك بالخلاصة التحليلية المركزة التى تسمى جمع الاطراف او لم؛ اطراف الموضوع la synthèse .

وبمناسبة الخلاصة التحليلية او لم؛ اطراف الموضوع الذى بلغت به مدرسة الانال اى الحوليات ما بلغت من مكانة فى تاريخ العلم التاريخى نقف لحظة عند واحد من اكبر ممثلي هذه المدرسة وهو مارك بلوك Marc Bloch الذى اشتهر امره بكتابه البديع عن المجتمع الاقطاعي La Société Féodale الذى ظهر اول ما ظهر سنة ١٩٣٥ وعد فى ذلك الحين فتحا فى التاريخ للعصور الوسطى وتحليل مجتمعيها الاقطاعي تحليلا اقتصاديا اجتماعيا واثنو جغرافيا بالغ العمق .

ولقد ادخل **بلوك** على كتابه تعديلات في طبعات تالية ، ولكن النظرية الرئيسية في الكتاب ظلت كما هي وملخصها ان التركيب الاجتماعي والاقتصادي ينبغي ان يكون الاساس لكل تحليل تاريخي *la structure sociale et économique doit être le noyau de toute synthèse historique* وقد بسط مارك بلوك رأيه هذا في دراسة مشهورة عن أزمة العلم التاريخي في فرنسا *La crise de la science historique en France* وفي هذا البحث تطرق الى دراسة المجتمع الفرنسي كله قبيل الحرب العالمية الثانية والهزيمة التي انتهت اليها . قال : ان هزيمة فرنسا كانت قبل كل شيء هزيمة للذكاء والخلق الفرنسي : *la défaite de la France a été, avant tout, une défaite de l'intelligence et du caractère* وقد اتيت بهذه العبارة بنصها املا في ان تدعو بعضنا الى التفكير في أزمة العرب الحالية على هذا الاساس او في هذا الاتجاه على الاقل .



هؤلاء ما هم الا نماذج من عشرات المؤرخين العاملين اليوم في جامعات الدنيا في خدمة هذا العلم الانساني الخالص الذي يدور حول الانسان وتجاربه على سطح هذا الكوكب وما ادرك من توفيق وما اصابه من نكسات وما صادف من مآسى . هؤلاء الناس - المؤرخين - اقصد - يحاولون جهدهم النفاذ الى الماضي الطويل المظلم والقاء الاضواء عليه لعل معرفتنا في الماضي يمكننا من فهم الحاضر والنظر في شيء من الفهم وحسن التدبير للمستقبل . وهم يبذلون في ذلك جهدا شاقا في الاطلاع والدراسة والتحليل والتفكير ولكن قل ان يقدّر مجهودهم احد . ولا يعرف الشوق الا من يعانيه كما قال جيته . ومن سوء الحظ ان التاريخ - وعندنا خاصة - مركب سهل يتخذه كل صاحب قلم اعوزه موضوع يكتب فيه او نطلع الى الشهرة وحسن الفالة بين الناس وشيئا من المال ، فما اسرع ما تمتد يده الى موضوع ضخم من موضوعات التاريخ الاسلامي ثم ينشئ فيه كتابا ربك سبحانه وتعالى اعلم بما فيه . ورفوف المكتبات العربية متقلة بالدراسات التاريخية ومعظم ما فيها تصورات وتأملات وفروض وتملق للقارئ الطيب القلب . ونادرا ما تقع عينك على كتاب فيه بضع صفحات - من مئات - تبرر قراءته فضلا عن تأليفه .

لقد رايت الجهد الشاق الذي بذله رجال الغرب في نفل التاريخ من هواية الى علم ، ومن حكايات واساطير الى دراسات وحركات فكرية هي القاية في العمق والشمول . ونحن عندما نقرأ كتابا مما الهوا انما نمسك بالثمرة ، ولكننا نادرا ما نفكر فيما وراءها من الجهد والتعب وسنوات العمر التي انقضت ليلة بعد ليلة بين وتائق لانقرا ، ومحطوطات كأنها الطلاس ، ومصطلحات لا تفهم ، الا بعد البحث الطويل ، والعناء الشاق في تتبع الاصول اللغوية والقواعد العرفية ، وليس في الدنيا عالم هو اقل كسبا من وراء ما يكتب من المؤرخ فيما عدا اولئك القلائل الذين المنا بذكرهم في هذا العرض السريع . وهل يعرف الناس مثلا قدر الجهد الذي بذلته تلك الجماعة الصادقة من المؤرخين الذين انشأوا دورية الانال اى الحوليات *Annales de l'histoire économique et sociale* التي ظهر عددها الاول في فبراير ١٩٢٩ ولا زالت تصدر الى اليوم ؟ هل يذكر الا

القليلون فضل **لوسيان فيقر** Lucien Fèvre **والبير ديمانجون** Albert Demangeon **وهنري**
هاوزر Henri Hauser **واندريه سيجفريد** André Siegfried **وهنري بيرين** Henri Pirenne
 الذى ذكرناه وغيرهم كثيرين ممن قاموا على انشاء هذه المدرسة الجلية .

ولكن لا بأس فان العلم جهاد ومشقة وصمت ، والتاريخ يستحق هذا الجهد كله ، فهو
 سجل الماضي وصورة الحاضر والمرشد الى الفد. انه يسير فى طريقه قائما بنصيبه المتواضع فى الكشف
 عن المجهول فى امانة وصدق وعلى اسس علمية سليمة انشأها اهل العلم فى صبر وصمت وتضحية
 على طول احقاب متطاولة كما رأيت .

★ ★ ★

مراجع مختارة

اتينا في كل فقرة من هذا البحث باهم المراجع التي اعتمدنا عليها في كتابتها . ونضيف هنا طائفة مختارة من امهات المؤلفات في مبحث علم التاريخ مقسمة الى فترات :

تاريخ التاريخ

Carlo Antoni, From History to Sociology. The Transition in German Historical Thought. Detroit 1959.

H Elmer Barsies, A History of Hisotical Writing (revised paper back ed. New York, 1962)

J. B. Black. The Art of History. London 1926

E. Bayer, Worterbuch Zur Geschichte. Begriffe und Fachansdrücke 1960.

Brandi, K. Geschichte der Geschichtswissenschaft. 2 Aufl. 1952. Deutsche Geschicht-sphilosophie von Xessing bis Jaspers.

Schiller, Kent, Herder, Lessing.

(مختارات من كتابات)

Nagel, Schilling, Fichte, Humboldt, Goethe

وجيته

Nietzsche, Diltheyo, Burckhardt, Engels, Marx,

K. Rossman نشره Jaspers, Weber.

في فرانكفورت سنة ١٩٥٩

J. W. Thompson u. B. J. Holm, History of Historical Writing 1950.

T. B. Bottomore and M. Rubel, Karl Marx, Selected writings in sociology and social philo-sophy (paper back ed. London 1967).

J. B. Bury, Selected Essays. London 1930.

V. H. Galbraith, Historical Research in Medieval England, London 1959.

G. B. Cooch, History and Historians of the Nineteenth Century, London, 1952.

S. William Holperin, Some 20th Century Hisotrians (Chicago 1961).

دراسات عن هنرى بيرين وتريفيليان وليفيغر ورينوفان وفيغر .

Page Smith, The Historian History. New York, 1966,

Fritz Stern, The Varieties of History, Cleveland, Ohio 1956.

مختارات من كتابات كبار المؤرخين من فولتير الى ايامنا هذه .

عن النظريات التاريخية

Philip Bagby, Culture and History, London 1958.

Marc Block, The Historian's Craft, Manchester 1954.

Norman Canter and R. Schneider, How to Study History, N.Y. 1967.

- R. G. Callingwood, An Autobiography. London 1939.
 — The Idea of History, London 1946.
 — The Philosophy of History, London 1930.
- G. R. Elton, The Practice of History. London 1967.
- H. P. R. Finberg, Approaches to History, London, 1962.
- V. H. Galbraith, An Introduction to the study of history, London, 1961.
 — The Historian at work. London 1962.
- Louis Coltschalk, Unverstanding History. A Primer of Historical Method. N.Y. 1951.
- C. V. Langlois et C. Seignobos, Introduction a l'elude de l'Histoire Paris 1898.
- من اصول الكتب عن المنهج التاريخي . صدرت له طبعات كثيرة بعد ذلك « ترجمة الى الانجليزية » نشر في لندن مع مقدمة اضافية سنة ١٩٦٦
- Gordon Leff, History and Social Theory, London 1969.
- Hans Meyerhof (ed.) The Philosophy of History in our Times, N.Y. 1959.
- مختارات من احسن ما كتب في فلسفة التاريخ في عصرنا .
- L. B. Namier, Avenues of History, London 1952.
- Emergy Neff, The Poetry of History, London 1947.
- Richard Pases, The Historian's Business, Oxford 1961.
- A. L. Rowse, The Use of History, London 1946.
- David Thompson, The Aims of History, London 1969.
- A. J. Toynbee, A New Opportunity for Historians, London 1956.
- W. H. Waslh, Introduction to the Philosophy of History. 1967.
- Alban Gregory Widgesy, Interpretations of History :
 Confucius to Toynbee, London 1950.
- Arthur Marwick, The Nature of History, London 1970.
- C. G. Gustavson, A Preface to History N.Y. 1953.
- Nans Rothfels u. Valdemar Besson, Geschichte
- (وهو الجزء الخاص بعلم التاريخ من دائرة معارف فيشر المعروفة باسم Das Fischer Lexikan فرانكفورت ١٩٦١) .

محمد عواد حسين *

صناعة التاريخ

تعريف بالتاريخ

في لغتنا العربية تأتي كلمة التاريخ والتاريخ والتورخ بمعنى الاعلام بالوقت ، وتاريخ شيء من الاشياء قد يدل على وقته الذي ينتهي اليه ، مضافا اليه ما وقع خلال هذا الوقت من حوادث ووقائع ، ويقول السخاوي انه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت ، وموضوعه الانسان والزمان (١) .

وكلمة « تاريخ » في لغتنا هي المقابل لكلمة History في اللغة الانجليزية ، وكلمة Histoire في اللغة الفرنسية ، وكلاهما اشتقاق من الكلمة اليونانية Histor بمعنى التعلم أو المشاهدة أي كل ما يتعلق بالانسان منذ بدأ يترك آثاره على الأرض (٢) .

* دكتور محمد عواد حسين رئيس قسم التاريخ واستاذ التاريخ القديم في جامعة الكويت متخصص في التاريخ اليوناني والروماني ومصر البطلميه . آخر مؤلفاته : بيريكليس والديمقراطية الاثينية .

(١) السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) - الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . القاهرة ١٢٤٩ هـ ص ١٧ .

Oman, Ch. On the Writing of History London 1939, P.2.

(٢)

وقد استعمل ارسطو كلمة « هستوريا » بمعنى السرد المنظم لمجموعة من الظواهر الطبيعية سواء جاء ذلك السرد وفقا للتسلسل الزمني أم جاء غير كذلك ، ولا يزال هذا الاستعمال شائعا فيما نسميه « التاريخ الطبيعى » .

وقد تدل كلمة « تاريخ » على مطلق مجرى الحوادث الذى بصنعه الإبطال أو نصسه الشعوب (٢) .

ونحن لا نستخدم كلمة تاريخ الآن الا فى حالة السرد المرتب زمنيا ، وفى المعنى العام صارت كلمة تاريخ تعنى ماضى الانسان ، ولهذا وضع لها الالمان كلمة تحمل نفس المعنى، وهي Geschichte المشتقة من الفعل الالمانى Geschehen بمعنى يحدث ، ولكن الواقع ان كلمة تاريخ تعنى مجموعة الاحداث التى وقعت فى الماضى ، والتى تقع حاليا ، ثم التنسؤ على هدى ذلك وفى ضوءه بما سوف يقع مستقبلا .

ويقول ابن خلدون فى مقدمته « فن التاريخ عزيز المذهب سربف الفانه ، اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم فى اخلاقهم ، والانبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم الفائدة فى الاقتداء بذلك لمن يرومه فى احوال الدين والدنيا » .

ومفهوم هذه العبارات يقطع بأن التاريخ سناول الماضى والحاضر والمستقبل كما ذكرنا ، ولكن ابن خلدون يرى التاريخ فنا من الفنون ويبعده عن دائرة العلوم ، وذلك موضوع سوف نتناوله فيما بعد .

كيف بدأ التاريخ :

ظهر التاريخ أول الامر بصورة بدائية حين اخذ الانسان القديم فى فجر الحضارة يقص على ابنائه قصص قومه ويروى لهم الاساطير والمعتقدات الدينية . . فالتاريخ اذاً قرين للحضارة ، ولتد بدأ الاحساس به فى ذهن البشرية منذ أقدم العصور حين كان الانسان يسجل الاحداث بالرسم والنقش على الحجر ، ومع تطور الحضارة وازدهارها أخذ التاريخ يشكل أساسا جوهريا فى تسجيل الاحداث ، واضحى بمشابهة السجل الذى يحفظ لنا ألوانا من الاحداث والافكار والاعمال .

وتجمعت المعلومات التاريخية بصورة تدريجية حين أراد الناس أن يركنوا اليها ويفيدوا منها فى حياتهم واعمالهم ، فلا تكاد يمر بالانسان لحظة دون أن تتمثل فى ذاكرته صور عديدة بعضها عفى وبعضها ارادى ، ولا تكاد تمر به لحظة دون أن ترتد الى ذهنه ذكريات عن احداث الماضى التى عفا عليها الزمن ، ولكنه عرفها وسمع عنها .

وحين يشرع الواحد منا فى القيام بعمل ما فانه - وحتى دون ان يشعر - يهتدى بامور مشابهة لهذا العمل سبق ان قام بها غيره ، وهذا الاهتداء هو الذى ينير له طريقه ويهديه سبل النجاح ، لانه من غير شك سوف يتجنب ما خيب آمال من سبقوه الى القيام بهذا العمل المشابه .

وهكذا يبدأ التاريخ فى اسط صورته ، يبدأ حين يستعيد المرء من بين ذكرياته المتناثره ما يصلح أن يكون نموذجا لعماله التى ينوى القيام بها .

(٢) عبد الحميد العبادى - علم التاريخ (ترجمه لكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٨ .

والغريب ان هذه الصورة البدائية للتاريخ لم تنقص ، ولا نُنظَن انها الى زوال ، لأن الانسان تمسك بها كلما ازدادت مظاهر نشاطه وتعقدت .

واذا فالناس حين يجتثرون الماضي ويتمسكون بشواهدهم انما يؤرخون وهم لا يشعرون . . . وهكذا يصبح التاريخ عملا حتميا لا بد منه لكل مجتمع بشري ، وبدونه نعدم الاحساس باستمرار الوجود ، ويعجز أى مجتمع عن التعرف الى شخصيته ، وليس هناك ما يقى الناس من النسيان غير التاريخ ولقد تتسع مهمة المؤرخ باسراع الامور الى تدفعه الى العمل ، ولكنها لا تخلو أبدا من الواقع النفعي .

واذا كان التاريخ بمعناه العام يهدف الى معرفة الماضي كما ذكرنا من قبل ، فذلك لأن الانسان ميال بطبعه للوقوف على ماضيه ، فهو يحب ان يعرف كيف كان حال أجداده ، وكيف كانت اساليب حياتهم ثم كيف تطورت هذه الاساليب ، كما يجب ان يعرف اعمالهم ، والآثار التي خلقوها وراءهم ، وانجازاتهم .

واذا كانت حياة الانسان - منذ كان - عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام فيها ، فان الانسان اذا أصبح ابنا للماضي باسره وتمررة هذا الماضي برمته . وبالتالي فان العلاقة بين حياة الفرد في أى زمان من الازمنة ، وحياة الفرون السابقة ، تكون علاقة وطيدة وثيقة ، ولا بد له من معرفة تامة بأحوال هذه الفروق السابقة حتى يفهم نفسه وحاضره ويتمكن من التنبؤ بمستقبله ، ومعرفة الماضي نكسبنا حبرة السنين الطويلة التي عاشتها البشرية في حقبةا المتتالية .

ولا شك ان التأمل في الماضي يأخذ الانسان بعيدا عن ذاته ، وحين يتم ذلك فانه يرى أشياء عديدة من العسير عليه أن يراها في نفسه بسهولة ، وبالتالي يصبح اقدر على فهم نفسه وأقدر على حسن التصرف في حاضره ومستقبله (٤) .

والماضي - ايا كان - يكون دائما عزيزا على اصحابه ، ومن لا يعرف له ماضيا مدروسا لا يعتبر انسانا متحضرا ، والتشعب الذى بجهل ماضيه يكون شعبا مبتورا لا جذور له ، وهو بهذه المثابة يخرج من دائره شعوب الارض المنحضرة ، وبصبح اشبه ما يكون بشيء معلق فى الهواء تتفادفه الرياح والأعاصير بم نهوي به فى مكان سحيق .

من أجل هذا كله يصبح التاريخ دراسة ستحقق كل الجهد الذى ينفق فيها ، وهناك أربعة أسئلة يحسن أن نسألها لأنفسنا ثم نحاول الإجابة عنها ، وسوف تجلو لنا هذه الإجابة كل ما يصل بالتاريخ .

وهذه الاسئلة هي :

ما هو التاريخ ؟ وما هو موضوعه ؟ وما هو اسلوبه ؟ وما هو هدفه ؟

وبدور حول السؤال الأول جدل كبير ، لكن التاريخ آخر الامر لا يخرج عن كونه نوع من أنواع البحث العلمى ، فهو أصلا يندرج تحت ما نسميه « العلوم » .

والعلوم الوان من التفكير تشير امامنا أسئلة معينة نحاول الاجابة عنها ، والعلم بصفة عامة لا يخرج عن كونه محاولة لتركيز الجهد حول شئ لا نعرفه في محاولة جادة لمعرفته والوقوف على حقيقته ، فالعلم اذا هو الكشف عن حقيقة الاشياء وهذا هو المعنى المقصود من قولنا ان التاريخ علم .

لكن ابن خلدون يقول في عبارته التي يُعرّف بها التاريخ انه فن (٥) ، فما هي الحقيقة ؟ وهل يعتبر التاريخ علما أم فنا ؟

هناك من يقول ان التاريخ لا يمكن ان يكون علما لأنه يعجز عن اخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة ، ودراسة التاريخ لا توصلنا الى استخلاص قوانين يقينية ثابتة على نحو ما يصل اليه الكيميائيون والفيزيائيون مثلا . وذلك رأى له وجهته ؛ ولكن التاريخ مع ذلك يعتبر علما من حيث المنهج ، لأن نتائجه تخضع للتحقيق ، والاتفاق بين المؤرخين أو عدم الاتفاق بينهم ، وذلك عن فهم وادراك .

والذي اريد ان اقطع به هو أن التاريخ يجب عن اسباب تسلسل الظواهر ويحاول ربطها الى بعضها وتعليلها تعليلًا يقبله العقل .

ولكن هذا لا يفضي الى وضع القوانين الثابتة ، لأن المؤرخ لا يجرد ، والتاريخ قصص وليس برهانا ، ... وهو يتناول أحداثا مستقلة لا تقع الا مره واحدة ، ومن هنا لا يستطيع المؤرخ ان يستخلص منها نواميس عامة شاملة .

وليس هناك شك في أن المؤرخ يستخدم أحيانا تحقيقات الاختبارات العامة ونتائج الملاحظات الاجتماعية ليدرك مدى الحدث الواحد الفريد ، وكذلك نرى المؤرخ اليوم يبسط الأوضاع الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية ليوضح آثارها على مجرى التاريخ ، وهذه وتلك من الأشياء المجردة .

ولقد نستطيع أن نعرّف التاريخ بأنه العلم الذي يوازن العلوم الاخرى ، ذلك بأن حياة المجتمعات الانسانية هي في الحقيقة تاريخ هذه المجتمعات ، وبما أن التاريخ لا يعيد نفسه ، ولا يضع سننًا عامة ثابتة لا تتغير ، فلن نكون لاي علم القدرة على الوصف الدقيق في كل تفاصيله ... لكن التفاصيل ذات قيمة كبرى ، ومعرفة هذه التفاصيل والعوارض الفريدة هي المجال الذي يخوضه التاريخ .

ومن هنا فان التاريخ لا يستطيع أن يصل ابدا الى غايته المنشودة وهي اعادة تمثيل الحياة البشرية كما كانت ، واعادة رسم مظاهر النشاط العقلي بكل تطوراته وتقدمه .

والانسان هو الوحدة التي يدور التاريخ من حولها ، وكل جهد يحاول به صاحبه أن يعزل فئة من الناس خارج تاريخ الانسان ، انما هو جهد فاشل .

وبهذا المفهوم فان التاريخ يتضخم الى درجة الشمول لكل انواع المعرفة ، حتى العلوم الطبيعية يستطيع التاريخ ان يخرجها عن الرسم التجريدي اللازمى ويعرضها عرضا مؤسسا على مجهود الانسان ، بوصفها نتيجة لهذا الجهد .

وجود عنصر شخصية الفرد هو في الواقع السبب الرئيسي فيما يذهب اليه البعض من نفي صفة العلم عن التاريخ ، لأن الانسان الفرد - أى إنسان - له ارادة حرة وله ميول وأهواء واتجاهات خاصة ، وهذه كلها تدخل في التاريخ حين يصنع ، وربما حين يكتب ، وذلك قمين بهدم كل محاولة تبذل لاقامة التاريخ على اسس علمية ثابتة مجردة تماما .

ومن هنا ذهب البعض الى أن التاريخ فن كما ذكرت ، وينبغي أن يكون كذلك لأن العلم المجرد لا يمكن أن يعطينا عن الماضي سوى عظامه النخرة ، ولا بد من الاستعانة بخيال المؤرخ لكي يكسو تلك العظام لحما ، ويحيلها الى شيء ينبض بالحياة ، ولا بد من براعة المؤرخ في العرض لكي يخرج القصص التاريخي في نوب براق جذاب كما يقول **هرنشو** (٦) .

ومع ذلك فان صفة العلم تظل منطبقة على التاريخ ، اذ يكفي لذلك ان نعلم أن المؤرخ يمضي في دراسته ساعيا جهده الى توخي الحقيقة ، طارحا وراء ظهره كل هوى في نفسه ، وكل افتراض سابق ، قادرا آخر الامر على التصنيف والتبويب وحسن العرض (٧) .

والخلاصة من كل ما ذكرت هي أن التاريخ له منهج خاص ، غايته بلوغ المعرفة عن طريق تسلسل الحوادث الفريدة لا عن سبيل وضع القوانين المجردة ، فهو علم ، والتاريخ ايضا يحتاج الى خيال كاتبه وقدرته الادبية ، فهو فن وهوادب ايضا .

ان التاريخ لا يمكن ان يكون ولا يستطيع ان يكون غير الاجابة عن منشأ الحالة الحاضرة التي نعيشها نحن ، والاسباب التي وصلت بدنيانا الى ما نراها عليه الآن .

ولنتنقل الى الاجابة عن بقية الاسئلة :

فموضوع التاريخ - كأي علم آخر من العلوم - هو الكشف عن نوع معين من الحقائق ، وهذا النوع هو جهود الانسان ومنجزاته في الماضي ، ونستطيع أن نقول في اجابة اخرى ، ان التاريخ هو العلم الذي يحاول الاجابة عن الاسئلة التي تتعلق بما بدلته الانسانية من جهود منذ كانت .

اما طريقه التاريخ او منهج البحث فيه فهو نفس التوثيق ، والتوثيق هو الشيء الذي يرجع الى زمان ومكان معينين ، وتحمل معلومات ذات طابع خاص ، يفكر المؤرخ فيه ويعمل على تفسيره ، واسوف نتناول الوثائق التاريخية فيما بعد بمزيد من الدراسة والتفصيل .

اما هدف التاريخ فهو - في عبارة موجزة - **وقوف الانسان على حقيقة نفسه** ، ولست اعني بذلك مجرد معرفته بسمياته الشخصية التي تفرق بينه وبين غيره من الناس ، وانما اعني أن يعرف الانسان طبيعته كإنسان ، وما يستطيع ان يعمل وأن يقدم لبنى جنسه ، وهذا غير ممكن الا اذا عرف الانسان ماذا فعل في الماضي وما هي الجهود التي بذلها فعلا . واذا فقيمت التاريخ نرجع الى أنه يحيطنا علما باعمال الانسان في الماضي ومن ثم بحقيقة هذا الانسان .

(٦) انظر عبد الحميد العبادي - علم التاريخ (ترجمة لكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٣ ، ٤ .

(٧) انظر عبد الحميد العبادي - علم التاريخ (ترجمة لكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٦ ، ٧ .

كتابه التاريخ :

يتبين لنا مما سبق أن التاريخ علم ضرورى للشعوب وللأفراد على السواء ، فلا بد للفرد من أن يعرف نفسه بوقوفه على ماضيه ، ولا بد لكل شعب من أن يعرف تاريخه ليربط حاضره بماضيه ويصبح جديرا بالحياة ، ولا بد من أن يدرس التاريخ دراسة عميقة ، وأن يدون كل دارس ما انتهى اليه لكي يقدم بعد ذلك للطلبة في المدارس والمعاهد وكافة المنفعين بل والمتخصصين على السواء .

ومن الزم اللزوميات ان تتم كتابة التاريخ على خير وجه ، فيكون الكاتب دقيقا غاية الدقة ، باذلا كل ما في الطاقة من جهد وصدق وامانة وعدل ، ومستعينا بكل ما لديه من احساس وفن وذوق ، وهذا كله يؤدي الى الوصول الى الحقيقة قدر المستطاع .

ونحن نقول عادة ان التاريخ ليس علم تجربة واختبار ، وانما هو علم نقد وتحقيق ، واذا كان الناس يقولون ان التاريخ كالجيو لوجيا لأن موضوع كليهما هو دراسة آثار الماضي ومخلفاته ، فان المؤرخ يختلف عن الجيولوجي من حيث اضطرار الأول الى دراسة العامل البشرى الذى يدور من حوله التاريخ ، بكل ما فيه من ارادة وانفعال ومبول خاصة .

من هنا كان لا بد ان تتوافر فيمن يتصدى لكتابة التاريخ مجموعه من الصفات والمميزات ، وان نتاح له الظروف التى تجعله قادرا على الدراسة العميقة والتدوين الادبى السليم .

وأول صفة ينبغي أن يحل بها كاتب التاريخ ليصبح مؤرخا ، هى صفة عامة لا بد منها فى كل الباحثين فى شتى العلوم ، تلك هى حب الدراسة والاصطبار عليها ، فقد يكون البحث وعرا شاقا ، وقد تكون المصاعب التى تعترض الباحث انشاء عمله ، مصاعب جمه وكثيرة ، كندرة المصادر وغموض الوقائع والحقائق أو اختلاطها واضطرابها . . . ولكن ذلك كله لا ينبغي أن يصد الباحث عن بذل الجهد والصبر على مواصلة الدراسة ولو اقتضت منه السنين تلو السنين ، ذلك ان الاسر والتعجل سوف يؤديان دون شك الى طمس الحقيقة التاريخية .

ولا بد للمؤرخ من أن يكون أمينا شجاعا ، فلا يكذب باصطناع الوفاء ، ولا يزيغ فى تفسيرها ، ولا يوافق لارضاء صاحب جاه أو سلطان ، أو يدفع لبطشه وطفئانه . . . فلا رقيب على المؤرخ الا ضميره ، ولا بد من أن يرضيه كل الرضا .

واذا كنا نقول ان التاريخ علم نقد وتحقيق ، فلا بد للمؤرخ من أن يكون نافدا نافذ البصيرة قادرا على تحليل كل وثيقة تصادفه ، والواقع ان المؤرخ الذى نعوزه ملكة النقد يصبح غير جدير بصفته ، ويتحول الى مجرد قصصى يروى كل ما يعرض له على أنه حقيقة واقعة .

وعلى المؤرخ أن يكون مولعا بعمله من أجل هذا العمل لذاته ، لا سعيا وراء شهره أو فائدة مادية عاجلة ، عليه أن يتفرغ لما يدرس تفرغا تاما ، وأن يقتصر عليه وحده ، والا توزعت جهوده وعجز عن أداء مهمته كما ينبغي . . . ان التفرغ للعمل الواحد فى الوقت الواحد كفيل بالانشاء الى اطيح النتائج وأسلمها ، بل هو كفيل بأن يجعل صاحبه ممن يقدمون للانسانية أحل الخدمات ، وممن يسهمون بنصيب وافر فى تقدم الحضارة وازدهارها .

ومن الصفات التي لا غنى عنها في كل من يريد أن يكون مؤرخا ، عدم التحيز أو الميل مع الهوى ، فلا بد للمؤرخ ان يحرر نفسه تماما من عواطفه وميوله الشخصية ، وأن يصدر أحكامه بصورة موضوعية خالصة على اساس مما بين يديه من ادلة ووثائق ، وبدور ذلك يصبح المؤرخ قاضيا مجحفا ، ويصبح الكتابة التي يجرى بها قلمه غير علمية تأخذ القارئ بعيدا عن الحقيقة ، وتلك جريمة نكراء .

ولعل من أهم صفات المؤرخ ان يكون صاحب حس مرهف وعاطفة انسانية واضحة حتى يستطيع ان يدرك نوازع الآخرين ، ويتمكن من تفسير أعمالهم وتصرفاتهم ، والدوافع التي دفعتهم الى هذه الاعمال والتصرفات ، والواقع ان فائد الحس والعاطفة يعجز عن فهم ما كان بجيش يصدر من اسهموا في تسكيل التاريخ .

تلك هي الصفات الرئيسية التي ينبغي ان تتوافر فيمن يريد أن يكون مؤرخا جديرا بهذه الصفة واذا اكتملت لدى المرء هذه الصفات فقد اصبح مؤرخا .

بدء النشاط التاريخي

وأنماط الكتابة في التاريخ :

نقصد بالنشاط التاريخي هنا ، كتابة التاريخ ، ونريد أن نعرف كيف بدأت وكيف تطورت أنماطها على مر العصور .

وفكرة التاريخ بوضعها الحالي جديد من غير شك ، فالمحدون يعتقدون أن التاريخ كمفكرة يدور حول محاور أربعة هي :

- ١ - أنه علم كسائر العلوم يجيب على أسئلة معينة .
- ٢ - أنه يصل بمجهود الانسان في الماضي .
- ٣ - ان طريقته هي تفسير الوثائق التاريخية .
- ٤ - أنه يهدف الى تعريف الانسان بذاته .

وهذه الفكرة بآركانها الاربعة لم تكن هي فكرة الناس عن التاريخ في كل العصور ، فقديما وبالنسبة للسومريين وقدماء المصريين ، كانت كتابة التاريخ تتمثل في النقوش الرسمية او شبه الرسمية التي يفصدها احياء ذكرى ملك او أمير ، او تمجيد اله ، او الانتصار في حرب من الحروب .

وفي حكومة الكنيسة في العصور الوسطى اصطلح الناس على أن كل شيء مرده لفعل الفدر .

ومتل هذه الصور من الكتابة التاريخية لاتعطينا تاريخا حقيقيا ، وان كانت تعطينا صورا تتصل بالتاريخ في بعض النواحي ، هي في حقيقتها تعبير عن بعض ألوان الفكر لا نستطيع الآن أن نسميه تاريخا لأنه يفتقد الطابع العلمي ، فهو لا يجيب على سؤال محدد لا يعرفه الكاتب أصلا وانما هو تسجيل لأمر يعرف الكاتب أنها حقيقة ، ثم ان هذه الامور ليست في الغالب من عمل الانسان - فهي لا تنصل بمجهوده - وانما هي من عمل الآلهة والانسان فيها مجرد أداة ، وتبعا لذلك فانها لن تكون تاريخية بالنسبة لطريقته لانها لا تعتمد على وثائق ، ولا هي تاريخية من حيث قيمتها لأنها لا تستهدف معرفة الانسان لذاته وانما تخدم معرفة الانسان بالآلهة .

لقد كان الكُتُب لا يكتب تاريخاً، وإنما يكتب عن الدين والآلهة ، وهي كتابة نستطيع نحن الآن أن نعتبرها وثائق تاريخية ونعتمد عليها في كتابة التاريخ بالصورة الحديثة .

واذن فأسلافنا القدماء لم يكن لديهم الشيء الذي نسميه « فكرة التاريخ » ولعل السبب هو أنهم لم يكونوا يملكون المادة التاريخية نفسها ، لم يكن هناك تاريخ ، وإنما كانت هناك مادة تشبهه في بعض النواحي ، ولا تتفق مع مفهومنا عن التاريخ قائماً على محاوره الأربعة التي ذكرناها .

ونحن نستطيع بعد ذلك أن نقرر أن التاريخ في وضعه الحاضر قد أصبح شيئاً واقعاً ، فكيف حدث ذلك ؟ وما هي مراحل التطور التي أوصلتنا إلى ما يسمى بالتاريخ ؟

ان هذه المراحل قد نبعت أصلاً من منطقة الشرق الأدنى القديم ، ومن ثم فينبغي أن نبدا حديثنا من نفس المنطقة ، ففيها بدأ التاريخ ، تاريخ البشرية كلها في مرحلته الأولى ، وأهم ما تميزت به هذه المرحلة هو الارتباط الشديد بالعقيدة ، ففي كل حدث ، وفي كل تفسير له أو تأويل ، نلمس العقيدة الدينية واضحة جلية ، حتى ليكاد يختفي أى جهد للانسان ذاته ، لقد كانت الافعال كلها الهية ، والسبب في ذلك هو أن الناس تصوروا الآلهة كآدميين من الحكام .

فهم يملون أرادتهم على الملوك على نحو ما يفعل هؤلاء مع رعاياهم ، ونحن نتصور تبعاً لذلك أن السلطات كانت موزعة توزيعاً هرمياً بدأ من الأرض ويتصاعد في حلقات تربط بينها وبين سلطة السماء ، سلطة الآلهة .

وكان الملك غالباً هو الله ، هو الصورة المجسدة للاله على الأرض .

وهكذا كان التاريخ في مرحلته الأولى تاريخاً دينياً ، ومفهوم طبعاً أن التاريخ الذي نقصده هنا ليس تاريخاً بمفهومه العلمي ، وهذا التاريخ الديني لا يجعل جوهره أفعال الانسان ، ولا يعرض لها أساساً ، ولكنه مع ذلك يتناول هذه الافعال في ثنايا الاساطير .

ولنتناول الفكرة الرئيسية في القصص البابلية عن الخلق : نرجع هذه القصص إلى القرن السابع ق.م . ، وهي تقرر أنها ترجع إلى صور أخرى لها موهلة في القدم ، وبدايتها تحدثنا عن نشأة الخليقة ، لم تكن هناك أول الأمر أربة مخلوقات أو موجودات على الإطلاق ولا حتى الآلهة ، ومن حالة العدم نشأ عنصران ، أحدهما يقال له Apsu أى الماء العذب ، والثاني يقال له Tiamat أى الماء المالح ، ونزواج هذان العنصران ، فجاء بمولود يقال له Mumma ، وهو يمثل المرحلة الأولى في نشأة الآلهة ، ثم أخذ عدد الآلهة يتزايد بالتناسل ، واشتد الصراع بين هذه الآلهة إلى أن استطاع الإله ماردوك marduk تمزيق المعبودة تيماها إلى شطرين شطر خلق منه السماوات ونجومها ، وشرط خلق منه الأرض ، ومن دماء ماردوك خلق الانسان .

وهذا النوع من التفكير الديني ، المتزج بالاساطير هو الذي سيطر على تفكير الشرق الأوسط كله طوال العصور القديمة وحتى ظهور اليونان تقريباً ، وفي هذه الفترة كتبت التوراة وفيها نلمس إبراز القدرة الإلهية في حياة اليهود ، ولم يكن هناك سبيل لاتبات هذه القدرة أفضل من عرض تاريخ هذا الشعب .

ولقد التزم كتاب التوراة في سرد الوقائع أسلوباً شرقياً ، واستعملوا التعبيرات الشرقية واستنساغوا حدوث الخوارق والمداخلات الإلهية المباشرة التي تغير اتجاه الأحداث تغييراً معجزاً .

في التوراة نجد طابع التعميم : وهذا نظور عما كنا نجده في الاساطير القديمة في مصر والعراف القديم حيث كانت الحكومة الدينية تحتفظ بطابع التخصص في قصص شعوبها وحدها ، واقصد بالتعميم تناول البشر بصفة عامة ، ولعل السبب في ذلك هو اعتقاد اليهود ان الههم يسيطر على البشر اجمعين ، فهم ينظرون منه ان يحكم بين هؤلاء البشر وبين اليهود بالعدل والقسطاس ، ولا ينتظرون منه ان يرمى مصالحهم وحدهم نسدغيرهم من البشر .

فنحن بصدد مقاييس عامة للناس كافة ، ولذلك نجد قصة الخلق عند اليهود تتضمن محاولة لتفسير أصل الانسان بعامة وتفسير أصل الشعوب . وجملة القول ان الفرق بين القصص البابلي والقصص العبري هو أن الأخير قد اتجه الى سلالة البشر ، بينما كان الاول متجها الى سلالة الآلهة .

بداية التاريخ العلمي - الاغريق

ظهرت كتابة التاريخ بعد ذلك عند الاغريق في اسلوب ملحمي اول الامر ، ويعتبر الشاعر **هوميروس** صاحب الملحمتين الخالدين - الإلياذة والأوديسا - ملهم امته في هذا المجال .

لقد عني **هوميروس** (٨) اشد العناية بتمجيد البطولة والابطال وروح النضال التي ترتفع بصاحبها الى قمة الشخصية وتجعل منه بطلا مفاورا يأتي بالمعجزات ... وعنه أخذ المؤرخون من بعده هذا كله .

فلما جاء **هيرودوت** (٩) ، الذي لقب « بأبي التاريخ » والذي يعتبر أول المؤرخين الاغريق على الاطلاق ، كتب كبه التسعة واطلق عليها اسم « التواريخ » وقال في مقدمتها « أنه يدون تاريخه حتى لا يطمس الزمن أعمال الرجال ، وحتى لا تبقى الانجازات الرائعة دون تمجيد او اعجاب ، سواء في ذلك منجزات الاغريق أو مآثر المتبريرين » .

وهذه العبارة وحدها تقوم دليلا لا يرفى اليه ادنى شك في ان الاغريق قد أدركوا ان التاريخ علم ، وبالتالي فلا بد أن يتناول أعمال الانسان ويمجدها ، فالقصة الاغريقية تتناول الحادث التاريخي فتفصله تفصيلا دقيقا ، وتبرز من خلال ذلك شخصية بطلها ابرازا شديدا ، وقد ترجم لنا حياته كما فعل المؤرخ **بلوتارك** Plutarch وهو يكتب « المقارنات » .

بهذا يتجه التاريخ عند الاغريق اتجاها عقليا يرتبط بالانسان نفسه وتصرفاته ولا يخضع هذه التصرفات للارادة الالهية ، ولا اعنى بذلك أن مؤرخي الاغريق قد تجاهلوا الاساطير الدينية تماما ، انما اعتمدوا عليها كثيرا .

(٨) **هوميروس** هو شاعر الاغريق الاكبر ، وهو صاحب الملحمين الكبيرتين ، الإلياذة والأوديسا ، وترجمان على الأرجح الى القرن التاسع ق . م . ، وتدور الملحمة الاولى حول حرب طرواده وبطولة الاغريق فيها ، بينما تدور الثانية حول المغامرات التي لقيها الملك اوديسيوس لدى عودته بحرا من آسيا الصغرى الى مملكته بعد انتهاء حرب طرواده وقد أفدنا كثيرا مما جاء في الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد الاغريق آنذاك .

(٩) **هيرودوت** هو أبو التاريخ كما كناه خطيب الرومان والسياسي الكبير **شيشرون** . ولد في هاليكارناسوس بآسيا الصغرى حوالي عام ٤٨٤ ق . م . ، وفي سن مبكرة هاجر من مسقط رأسه الى اثينا ، وقام برحلات عديدة زار فيها كثيرا من بلاد المشرق . وخلف لنا تسع كتب باسم التواريخ تحكى لنا قصة الحروب بين الفرس والافريق .

وحسنا دلبلا على ذلك الاتجاه العلمى العقلى أن نقرأ ما كتبه المؤرخ الاغريقى الكبير **ثوكيديدس** فى مقدمته عن «الحروب البلبونيزيه» حيث يقول « أنه يكتب من أجل الفائدة التى يمكن أن تحصل عليها من معرفة حقائق الماضي ، ومن ثم نضع مفايس سليمة للأحداث المتساهة التى يمكن أن تقع مسقبلا ترتيبا على الطبيعة المشتركة بين البشر » .

هذا هو النمط الجديد فى كتابة التاريخ ، فعلى نفص كتاب التوراة لم يجد مؤرخو الاغريق فى سير الحوادث اتجاه جبريا نفرضه العناسة الالهية ، ولا عبنا ورث الناس أنقاله جزاء ما اقترفه اجدادهم .

ونحن اذا تناولنا خصائص التاريخ الأربعة التى سبق حذبنا عنها ، وهى أن التاريخ علم لأنه يجيب على أسئلة بضعها الكاتب لنفسه ، وأنه يتناول أعمال الإنسان ، وأنه يخضع للعقل من حيث استناده الى تفسير الوثائق ، وأنه يكشف عن ذات الإنسان عن طريق سرد أعماله . . . اذا تناولنا هذه الخصائص وحاولنا تطبيقها على ماكتبه المؤرخون الاغريق ، لرأينا أن الخواص كلها واضحة فيما كتب هيرودوت باستثناء الخاصية الثالثة . ولا شك فى أن التاريخ بوصفه علما قد ابتكره الاغريق ، وأن هيرودوت هو امام المؤرخين ، ولعل **ششرون** قد ادرك هذه الحقيقة حين كناه « ابا التاريخ » .

أما **ثوكيديدس** فلعله تفوق على هيرودوت حيث حقق فى كتاباته الخاصية الثالثة ، وهى الاستناد الى الوثائق فى تفسير الاحداث . وهو الذى يقرر بصراحة أن البحث التاريخي يقوم على المصادر التاريخية .

ولما كان الاغريق قد اهتموا تاريخ البشرية ككل ، واهتموا بالحوادث وحدها ، فقد وصلوا بأسلوب العرض والرواية والتفسير الى درجة رفيعة من الانقان الفني . . . وكان المؤرخون يحصلون على مادتهم من الدكرات الشخصية ومن المؤلفات الأدبية ومن السجلات المحفوظة ومن تهود العيان ومن الاساطير ايضا ، فاذا جمعوا هذه المادة عمدوا الى تصفيتها وتنقيتها ومناقشتها ثم بسطوها فى عرض جميل .

ولنستمع الى مؤرخ اغريقى آخر - **بوليبوس** Polybius وهو يقول « على الكاتب أن يوجه اهتمامه الى الظروف التى سبقت الحادث أو واكبته أو جاءت بعده ، لأن دلالة هذه جميعا تفوق ما يروى عن الحادث نفسه » ثم يستطرد قائلا « نحن اذا انزعنا من التاريخ البحث عن الاسباب والاساليب والاهداف التى حركت الإنسان ، واغفلنا دراسة النائج التى نوحاها من عمله ، والفدر الذى استطاع تحقيقه من هدفه الكلى ، فاننا لا نبقي من التاريخ سوى نمازبن أدبية لا عبرة فيها ، ولقد يكون متعة للأذان وملهة للأذهان لانيجة لها بالنسبة لمستقبل الايام » .

فالتاريخ عند بوليبوس له هدف مادي ، وذلك بحتم على كاتبه بوخى الدفة العلمية فدر الطاقة ، ويدفعه الى محاولة اصابة كد الحقيقة ، وميران الحقيقة هنا هو مدى تقبل العقل لها كشيء مجرد لا دخل للغبيات فيه .

وفى هذا الصدد نرى بوليبوس بسخر من الكتاب الذين جعلوا من هانبال اداة مسخرة فى يد اله يرشده الى اجتياز جبال الالب ويقول فهم « أنهم قد قلدوا شعراء التراجيديا فى أكثر الماسى التى تمثل فوق مسارحنا ، فاضطروا مثلهم الى ادخال الآلهة فى حل عقدة المأساة ، لأنهم

اختراروا الاساطير موضوعا لما يكسبون ، وابتعدوا عن نطاق العقل والحقيقة ، وهكذا اضطروا الى الاستعانة بالابطال والآلهة ، لأنهم انطلقوا فيما يكتبون من بدايات مدخل في نطاق المستحيلات ، وبالتالي لا يمكن ان تكون لها نهاية يقبلها العقل المجرد ، انهم في الواقع يعجزون عن إيجاد الخاتمة فلجأون الى الآلهة لتضع هي الخاتمة ، والتاريخ غير ذلك ، انه يستند الى الحقائق والانسان هو الذي يصنعه .

التاريخ في العصر الهلنستي

كان التاريخ عند الاغريق كما رأنا يخضع للعيد الزمني والعيد المكاني ، فهو يعرض في الاصل لوحده اجتماعيه معبنة في وقت معين ... وبعد القرن الخامس قبل الميلاد تغيرت نظرية المؤرخ للأحداث ، فلم يعد يخضعها للعيد الزمني ، وأخذ التفكير الاغريقي يتجه الى أن التاريخ ينبغي أن يلتزم بوحدة جوهرية تربط بين مراحل الزمنية ، ومن ثم تغلبوا على الطابع الحزني .

وتبين لهم أن هذه الوحدة الاجتماعية الجوهرية ، ترتبط بدورها مع عدة وحدات أخرى لا بد أن تظهر هي ايضا على المسرح التاريخي ، وهكذا مثلاً كنب هيرودوت عن الفرس لا اهتماما بهم وانما لارتباطهم بالاغريق كأعداء لهم .

واذا كان الاغريق قد فطنوا - ربما قبل القرن الخامس - الى وجود عالم انساني يتألف من مجموعة من الوحدات الاجتماعية الجزئية ، فان الوحدة التي بنهض عليها هذا العلم كانت وحدة جغرافية - في نظرهم - وليست وحدة تاريخية ، ولهذا لم يدركوا وجود فكرة تاريخ عام تنتظم احداث العالم ونطورها .

ولما كان منهجهم في البحث التاريخي يستند - فيما يستند اليه - الى أقوال شهود العيان ، فقد اقتصر بحثهم على نطاق محدود من الاحداث بالقدر الذي تتسع له الذاكرة الانسانية .

فلما جاء الاسكندر وغرا شعوب المتبربرين (الذين لا يعرفون اللغة الاغريقية ولا ينهجون في اسلوب حياتهم النهج الاغريقي) ونشر حضارة الاغريق بينهم ، فأخذوا بأسبابها وتعلموا لغتها ، تحول العداء بين الاغريق والمتبربرين الى نوع من التعاون والتآخي ، ونظر الاغريق الى هذه الشعوب بوصفها وريثة لحضارتهم .

كذلك ادت غزوة الاسكندر الى خلق وحدة سياسية تشمل الجزء الأكبر من دنيا الانسان ، واصبح العالم وحدة جغرافية ووحدة تاريخية ، وارتبطت امبراطورية الاسكندر بتاريخ واحد ، هو تاريخ العالم الاغريقي الذي يؤلف وحدة تمتد من البحر الادرياتي غربا الى نهر السند شرقا ومن الدانوب شمالا الى الصحراء جنوبا .

هكذا ظهرت فكره العالمية في عصر ما بعد الاسكندر وهو العصر الذي نسميه « العصر الهلنستي » وعاشت الفكرة في العصر الروماني واصبح من المستطاع كتابة تاريخ من نمط جديد ، يمتاز بالوحدة الواضحة - بصرف النظر عن مداها - ويقوم بكثافته مؤرخون يجمعون المادة العلمية ممن سبقوهم من المؤرخين .

ولقد كان بوليبيوس أول من فكر في كتابة تاريخ من هذا الطراز ، فهو يعرض لموضوع هام ، واعنى به غزو روما للعالم ، ولكنه يبدأ قصته باحداث وقعت في ماض يربد الى قرن ونصف قرن ، وبذلك نراه يؤرخ لخمسة اجيال لا لجيل واحد .

التاريخ عند الرومان

بانتاج المؤرخ الاغريقي بوليبيوس انتقل التفكير التاريخي من المفهوم الذي استنه المؤرخون بعد الاسكندر ، الى أيدي الرومان ، تم شهد بعد ذلك تطورا أصيلا وهاما على يد شيخ مؤرخي الرومان « تيتيوليقيوس » .

فهذا المؤرخ هو مبتكر فكرة كتابة تاريخ روما منذ نشأتها الاولى ، معتمدا على من سبقوه من المؤرخين ، وعلى الجمع بين السجلات التي حفظت مراحل تاريخ روما المبكر وادماجها كلها في مؤلف واحد .

ونحن نلمس فرقا واضحا بين المؤرخين الرومان والمؤرخين الاغريق ، فالرومان بطبيعتهم ماديون تغلب عليهم النزعة النفعية ، ولم يبرأ المؤرخون الرومان من هذه النزعة المادية النفعية ، والتي كانت سببا في انتفاء روما لدور السجلات الرسمية التي تخضع لانسراف هيئات دينية .

ومن هذه السجلات كتبت الحوليات ودونت الاحداث عاما بعد عام .

واعتقد الرومان أن تاريخهم وحده هو الخلق بالتدوين ، فهم أرقى الناس كافة ، وهم وحدهم الذين اختصوا بالفضائل السامية ، ولهذا جاء تاريخ ليقبيوس تاريخا عاما يتناول الحقيقة التاريخية التي لا يرقى إليها شك ، وجاء تاريخا للعالم بأسره لأن روما أصبحت سيدة العالم بأسره .

وكان المؤرخون الرومانيون يدورون في كل ما يكتبون حول محور رئيسي ، هو روما ذاتها ، واعتبر المؤرخ نفسه صاحب رسالة في أمته ، فهو يؤدي وظيفة وطنية حين يتحدث عن امجاد وطنه ويهدى إليها مواطنيه ... وهذه روح مادية نفعية ، كان لها ولا شك اثرها الضار على روح البحث الحيادي ، وعلى النقد الهادف الرشيد ، والالفة على المعرفة المجردة .

وهكذا حصر المؤرخون الرومان كل اهتمامهم في روما ذاتها التي غزت شعوب الأرض واحدا بعد الآخر ، دون أن تعبا حتى بمعرفة لغات هذه الشعوب فضلا عن آدابها وتقاليدها ، وبالتالي لم يهتموا بتدوين شيء عن هذه الشعوب الكادحة ، وركزوا اهتمامهم في التحدث عن كبار القادة ورجال السياسة .

ومع ذلك فنحن نستطيع أن نقرر أن التاريخ عند الاغريق والرومان معا قد انزمت بمحور واحد من المحاور الاربعة التي قلنا أن التاريخ الحقيقي يقوم عليها ، واعنى بها تناول التاريخ بوصفه دراسة اجتماعية تعرض لتاريخ الانسان ممثلا في الشعب الروماني وما قام به من مجهود وما استهدفه من آمال وما أصابه من فشل أو نجاح .

وكنتاب التاريخ الاغريق والرومان يسلمون معا بوجود قوة الهية مقدسة ، لكنها لا تتدخل في مجرى التاريخ بحيث توجه توجيها جبريا ، انما هي ارادة عليا فيها تحييد ودعم لارادة الانسان الحرة ، وتلك هي الفلسفة الانسانية التي اعتنقها المؤرخون في العصرين اليوناني والروماني .

التاريخ في العصر المسيحي

تعرضت كتابة التاريخ لازمة خطيرة في القرن الخامس قبل الميلاد ، حين نشأت الفكرة التي

ننادى بأن التاريخ علم كسائر العلوم ، أو هو صرب من ضروب البحث العلمي ، وكانت تلك هي الازمة الاولى ، ثم تعرضت لازمة ثانية في القرنين الرابع والخامس للميلاد حين خضعت فكرة التاريخ لتكييف جديد نتيجة للانقلاب الذي جاء في ركاب التفكير المسيحي .

لقد استحدثت المسيحية فكرين رئيسيتين في كتابة التاريخ بعد النمطين الاغريقي والروماني : **الاولى** هي فكرة التفاؤل بالطبيعة الانسانية ، **والثانية** هي الفكرة التي تقول بوجود قيم أبدية خالدة تكمن وراء عملية التغير التاريخي .

اريد ان اقرر ان المسيحية بدلت الفكر البشري تبديلا بالغ العمق بحيث غير كل الأوضاع التي شاعت في العصر الروماني ومن بينها المهج التاريخي . . . كانت الثقافة اليونانية والرومانية آخذة في الأفول، فحملت اليها المسيحية ثروة هائلة جديدة من القصص والاحداث والحكم والأمثال المستقاة من التوراة .

ووجدت الشعوب نفسها امام هذه الثروة التي تمثل غذاء روحيا كانت في مسيس الحاجة اليه ، فاقدت عليها تلتهمها ، ثم ارادت ان تهضمها ، ولم يكن هناك سبيل الى ذلك الا اذا قدمت الحلول التي تفسر دقائقها وما يبدو فيها من متناقضات .

وقام بهذا العمل آباء الكنيسة من الاغريق والرومان ، وعلى رأسهم جميعا القديس اوغسطين (١٠) الذي فتح للتاريخ آفاقا فسيحة ، اذ سمح للفكر أن يرسل نظرة اجمالية الى مجموعة التواريخ الموجودة وابتعاد تفسيرها . . . فالمسيحية كما يرى ترشد معتنقها الى تصور تاريخي للكون يبدأ بالخلق كما جاء في التوراة وينتهي بالدينونة العامة أي يوم الحشر .

ومنذ وضع اوغسطين هذه المبادئ لم ينس مؤرخ في الغرب أن التاريخ بمعناه الصحيح هو تاريخ البشرية كلها ، وان من يكتب تاريخ امة واحدة انما يصنع قطعة صغيرة من لوحة كبيرة .

والواقع اننا نلاحظ في أي تاريخ كتب على النمط المسيحي انه يتميز بصفة العموم ، فهو تاريخ عام شامل ، وانه قَدَرِيٌّ ، لئلا فيه قوة مهيمنة توجه الناس فيما يصنعون من أحداث .

ولقد كان التاريخ اليوناني والروماني عاما للعالم ، لكن ليس بالمعنى المسيحي ، لانه ينبثق من مركز جاذبية خاص به ، له اسلوبه في تكييف الحوادث ، فاليونان أو روما هما المركز الذي تدور من حوله الاحداث ولا تخرج عن فلكه ، أما التاريخ المسيحي العام فقد نبذ فكرة وجود مركز جاذبية من هذا النوع .

ثم ان التاريخ في العصر المسيحي لم يرد الاحداث لحكمة البشر ، ولكن لحكمة قدرية ، فالاله هو الذي يهيمن على نشاط البشر ويرسم الطريق للاحداث التي سبقت في علمه .

كذلك كان التاريخ في العصر المسيحي يهتم بحياة المسيح ، وكثيرا ما يجعلها محور الاحداث ، وقد قسمه المؤرخون الى حقبة وفترات لكل فترة مميزاتها الخاصة وطابعها الخاص وفصل بينها وبين الفترة السابقة واللاحقة حادثة تعتبر . كما نقول — بداية عصر جديد .

(١٠) اوغسطين ولد سنة ٣٤٥ م وتوفي سنة ٤٣٠ م ، عاش في تاجستي في نوميديا ، كان أبوه وثنيا واما مسيحية ، واعتنق الدين الجديد واصبح في عام ٣٨٦ م من أبرز رجاله وكتابه . وقد نذر حياته للتوفيق بين ما جاء في تعاليم الدين الجديد وما الله الناس من عقائد وثنية .

والتاريخ بوصفه تاريخاً للعالم اجمع من حيث المبدأ ، لا يقيم وزناً كبيراً لألوان الصراع الهائل الذي احتدم بين الفرس والاعريق أو بين روما وقرطاجه مثلاً ، ولا يهتم بانتصار فريقي وهزيمة آخر ، وإنما يهتم بالنتائج التي نمخض عنها هذا الصراع ، هذه الفكرة هي التي غدت مألوفة تماماً في نمط الكتابة في العصر المسيحي ، واكبر رمز يتسرى الى فكرة التاريخ العام هذه ، هي اختيار توقيت ينتظم الاحداث التاريخية جميعاً ، وهذا التوقيت العام الواحد هو تاريخ ميلاد المسيح الذي استحدثه ايسيدور الاسيبلي في القرن السابع للميلاد ، فكل احداث الماضي والمستقبل تؤرخ بميلاد المسيح .

كذلك شاعت فكرة توجيه القدر للأحداث ، كما شاعت فكرة تناول أخبار الكنيسة .

هذه هي الافكار التي شاعت في الكتابات التاريخية تحت تأثير المسيحية ولم يكن لها وجود على الاطلاق عند اليونان والرومان .

كتابة التاريخ في العصور الوسطى

تعتبر كتابة التاريخ في العصور الوسطى - في جانب من جوانبها - رجوعاً الى الاسلوب الذي درج عليه المؤرخون بعد الاسكندر الاكبر وعلى ايام الرومان . فقد اعتمد مؤرخو هذه العصور على المصادر التقليدية يستنبطون منها الحقائق ، ولكنهم لم ينقدوا هذه المصادر ولم يحللوها التحليل العلمي الدقيق واذا كان بعض مؤرخي العصر قد قاموا بمحاولة للنقد ، فان هذه المحاولة كانت تستند الى التقدير الشخصي لكل منهم دون استناد الى منهج علمي ، لذلك كانوا يصدقون كل ما جاء في مصادرهم .

ومع ذلك نجد مؤرخ العصور الوسطى يختلف عن مؤرخ مثل ليفي الروماني من حيث كونه يعرض مادته مرتبطة بتاريخ العالم ككل . وكانت القومية قد غدت حقيقة واقعة في العصور الوسطى ، وبدأ الصراع القومي يظهر ثم يستند ، وبدأ الاعتزاز بالقومية يأخذ مكانه في الكتابة التاريخية .

وانتهت فكرة المؤرخين الى ان التاريخ يمضي بمشيئة الهية ، وان هذه المشيئة تنتظم الاحداث كلها ، والانسان عنصر فيها ، مهمته اقرار المشيئة الالهية .

اما المهمة الكبرى التي انيطت بمؤرخي العصور الوسطى فكانت الكشف عن الخطة الالهية وتفصيلها .

والذي حدث هو ان تيار الفكر التاريخي انتقل من دراسة اجتماعية الى دراسة مجردة محدودة تنبثق من سلطان الكنيسة ، لقد اعترفوا بالدور الذي تؤديه المقادير في الاحداث التاريخية ، لكنهم حددوه بصورة ينتفى معها وجود اي مجال لنشاط الانسان ، وكانت النتيجة هي عجز المؤرخين عن التنبؤ باحداث المستقبل - لانهم يجهلون ما يخفيه القدر - وانصرفهم الى البحث عن جوهر التاريخ خارج نطاقه نفسه ، لان بحثهم كله كان يهدف الى الكشف عن سياق الاحداث انطلاقاً من عقيدة راسخة في ان القدر هو الذي وجه هذه الاحداث ، بعيداً عن ارادة الانسان .

ومن هنا اتسمت كتابة التاريخ في العصور الوسطى باهمال الدور البشري فيه ، وبالتالي لم يكن ثمة مجال لنقد او تحليل لقد كانت المصادر بين ايديهم لكنهم فرضوا على انفسهم قيوداً شديداً وجعلوا همهم الاول هو دراسة خصائص الذات العليا المقدسة .

وبرغم كل شيء فنحن نستطيع ان نفرر ان كتابة التاريخ في العصور الوسطى كانت السبب في الاحتفاظ لنا بالتسلسل التاريخي خلال الاجيال دون انقطاع .

وعرفت العصور الوسطى التراجم التاريخية التي تتناول سير القديسين لتكريمهم وتخليدهم و اظهر ما تحملوه من آلام في سبيل العقيدة، ولكن الحقائق كانت تتراجع كثيرا في هذه التراجم امام المبالغات المسرفة ، وبدأ كتاب التاريخ في العصور الوسطى يلجأون الى الأساليب العلمية في استقاء المعلومات ، ذلك ان هذه العصور بحروبها المتصلة لم تفتح اسباب الدوام والاتصال في حياة هيئات عديدة ، كالاسر الاقطاعية والكنسية ، وعانس هذه الهيئات اياما بالفن العنف ، كانت الحقوق فيها تضيع وتكرر ، وكان البطش فيها يسود ويحكم ولهذا كان لا بد من الحرص على واثق الملكية ، فامسكت دفاتر الحسابات انتى تثبت الحقوق وتؤكددها ، وغدت هذه الدفاتر سجلات تاريخية هامة ومصادرا من اهم مصادر التاريخ ، كما اتجهت الاسر الاقطاعية الى تسجيل تاريخها ، فنشأ نوع من التاريخ الأسرى .

ونظرا لاتساع ثقافة رجال الدين ، فقد اصبحوا مؤرخي العصر حتى القرن الخامس عشر حين انتقلت هذه الصفة الى رجال مانون ، فادخل هؤلاء في كتاباتهم للمسلة القانونية واستندوا الى الصكوك والوصايا والعقود فكان ذلك بدوره سببا في ظهور المزيف منها، وكان بعض هذه ذا اثر عميق في مجرى الاحداث ، كاثوصية التي زعموا انها صدرت عن الامبراطور قنسطنطين لصالح البابا قبل رحيل الاول لبيزنطة ، اذ اوصى له بملكية روما .

التاريخ في عصر النهضة

كان على مؤرخي نهاية العصور الوسطى ان يوجهوا كتابة التاريخ ترجيحها جديدا فيخلصوها من الخضوع لنظريات اللاهوت والفلسفة التي سيطرت على مجرى الاحداث التاريخية ورسمت لها مسارها دون اى اعتبار للواقع المادى ولنشاط الانسان في رسم هذا المسار .

وحين جاء عصر النهضة الاوربية عاد الناس الى تقييم التاريخ بوصفه دراسة اجتماعية تسند الى اسلوب علمي ، والى كتابته استنادا الى اعمال الانسان ونشاطه في تحديد مساره تماما كما كان الحال في العصرين الاغريقي والروماني .

وكانت النتيجة الاولى لذلك هي البدء في تنظيف المادة التاريخية التي كتبت في العصور الوسطى مما علق بها من خرافات لا اساس لها ، كما كان من نتائجها ايضا البدء في كتابة النتائج على أسس نقدية تحليلية .

والواقع ان النظم في الدول الاوربية كانت قد تقدمت تقدماً كبيراً في عصر النهضة ، واخذت العلاقات بين هذه الدول تتشابك وتتعدد ، كما اكتمل فن الدبلوماسية واتضح اساليبه ، وبالتالي فقد اصبحت كل دولة بحاجة الى هيئة منظمة تتولى كتابة تاريخها .

والامر الذي نلاحظه بوضوح تام في كتابة التاريخ في عصر النهضة هو ان حكام الدول أخذوا يستعينون بالادباء لتدوين تاريخ دولهم ، فبرز الاسلوب الادبي ولا سيما في ايطاليا بوصفها الدولة التي سبقت دول اوربا جميعا الى عصر النهضة .

لقد بدأ التاريخ اذاً يفقد طابعه الدينى ، وسيطر المذهب العقلي على كتابه ، فاستبعدت الخوارق والمجرات ، واصبح هدف المؤرخ هو التثقيف السياسي لا مجرد القاء المواعظ وحمل الناس على الأخذ بأسباب الدين .

ولم يعد هناك كذلك اهتمام يذكر بالكونيات ، وانما تركزت كتابة التاريخ حول الدولة ذاتها بوصفها المحور الرئيسي الذى ينبغي أن تدور حوله الاحداث ، واصبح المؤرخ ذاته فى الصف الاول من رجال الدولة .

وتبعاً لذلك فان المؤرخين لم يحفلوا كثيراً بالجماهير ولم يهتموا بالشعب ، وانما تركز اهتمامهم على بلاط الملوك والامراء والحكام وعظماء الرجال .

وسرعان ما حذا الاسبان والفرنسيون حذو ايطاليا ، فأصبح لكل دولة مؤرخها الرسمى ، فكان **راسين** هو مؤرخ فرنسا الرسمى بأمر من ملكها لويس الرابع عشر ، وفيما بعد خلع هذا اللقب على **فولتير** .

واتبع امراء المانيا نفس القاعدة . فنجد امراء هانوفر يعينون الفيلسوف الشهير Leibnitz مؤرخاً لامارتهم .

وفى انجلترا ظهر **ماكولى** ومن قبله **كلارندون** يؤرخان للأحزاب بعد تغلب البرلمان على العرش فى القرنين ١٧ ، ١٨ ، فانصرفا بكل جهودهما لتوضيح المسائل الدستورية والقضائية مع الاشادة بعظماء الحزب .

ويعتبر **فولتير** ومعاصره **هيوم** امامى مدرسة جديدة فى التفكير التاريخي ورائدى حركة جديدة فى كتابة التاريخ ، هي حركة الاستنارة ، ونحن نقصد بكلمة الاستنارة تلك الجهود الني اتسمت بها مقدمات القرن الثامن عشر والتي استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية فى كل ميادين الحياة الانسانية والتفكير ، وهي فى واقعها ثورة على الدين الذى يقيد النشاط الانساني ، فهي جهاد ضد سيطرته وسلطانه غايتها تحرير الانسان من كل قيد على فكره وتصرفاته .

لقد تقيّد التدوين التاريخي فى عصر الاستنارة بفكرة البحث التاريخي ، فكان ذلك مدخلا للتاريخ العلمى ، الذى استنفد اقراره جهوداً صامته جاءت بمثابة فاتحة لعهد جديد ، وكان السبب فى هذا التطور تلك المناظرات التي انصبت على الأمور الدينية بين البروتستانت ومخالفهم .

وظهرت فى بلجيكا جماعة من اليسوعيين ارادت ترجمة حياة القديسين على حقيقتها ، فكان لا بد من تقويم اعوجاج الاساطير العديدة ، وبدأ افراد هذه الجماعة يشككون فى صدق كل الوثائق القديمة استناداً الى ذلك التزييف الطاغى الذى لمسوه فى سير القديسين .

ومن هنا ظهرت جماعات الباحثين الذين وجهوا كل اهتماماتهم الى نقد الوثائق ، وأصبح هذا النقد فناً له اصول وقواعد .

وما لبثت هذه النزعة العلمية ان انتشرت فاذا الفرنسيون يميلون الى كتابة التواريخ العلمية واذا الاهتمام باللغات يزداد زيادة كبيرة ، واذا الوثائق تصبح الشغل الشاغل للباحثين فى كل انحاء اوربا ، وبعد ظهور كتاب **ديكارت Discours de la Methode** ، أصبح منهجه قاعدة

للباحثين ، وعلى اساسه استبعدت كل شواهد التاريخ المؤسسة على العقيدة وحدها ، وأصبح الشك هو الاساس العام للدراسة والسبيل الوحيد للوصول الى المعرفة .

ولم يعد المؤرخ يستسلم لخياله ، او يقصر همه على دراسة الوثائق ونشرها ، وانما كان عليه ان يهتم بالأحداث والوثائق جميعا ، وان يناقش هذه وتلك ، ويعرض نتيجة عمله في اسلوب أدبي .

هكذا كانت نهضة البحث التاريخي في القرن الثامن عشر .

واذا كان العظماء قد استطاعوا فيما قبل اغراء كتاب التاريخ على العمل لفائدتهم ، الا ان الاوضاع تغيرت في القرن التاسع عشر واصبح العصر عصر اتصال الكاتب بالجمهور اتصالا عفويا ، واصبح البحث موضوعيا يستهدف النتائج ولا يستلهم فائدة سياسية يجنيها فرد او حزب ، وغدا التاريخ عملا علميا محضا يحاول به صاحبه كشف ماضي الانسان على اسس علمية .

ومعنى ذلك ان الجهد المبذول في الكتابة كان جهدا مجردا منها ، بمعنى ان التاريخ الذي كان رواية لما يثير ، اصبح رواية للحياة اليومية للمجتمعات ، واذا كان تاريخ الافراد يكتفى بسرد الوقائع ، فان تاريخ المجتمعات يقتضينا اعمال الفكر ، وانتقاء الحدث النموذجي ، الامر الذي يتطلب التعرف التام على خصائص هذا المجتمع ، ومن هنا سلك التاريخ سبيله الى ان يصبح دراسة انسانية تتصل بالحياة البشرية عموما في شتى نواحي انشطتها المختلفة .

مشكلة البحث التاريخي ومنهجه

لا تختلف مشكلة البحث التاريخي عن غيرها من مشكلات البحث في اى علم آخر ، فلا بد ان يدرك الباحث انه يبحث ليزيح الغموض الذي يكتنف موضوعا من الموضوعات ، او ان هناك شيئا يتطلب الايضاح .

والمشكلات التي يراها المؤرخون اساسية تتطلب البحث ، تختلف من جيل الى آخر ، اعني ان المؤرخ الذي يتصدى لاختيار الوقائع التي تبدو له اساسية بالنسبة لجيل من الاجيال ، لا يمكن ان يراها كذلك بالنسبة لجيل آخر لأن الظروف والاضاع تتغير ، ولأن ميول الانسان تتغير كذلك .

ومن هنا نقول ان المسألة الرئيسية في الدراسات التاريخية هي تحليل التغير عبر الزمن ، ونقول ايضا ان معطيات المؤرخين هي الحوادث المترابطة زمنيا ، ولهذا فان كل حادثة تاريخية ، مهما تكن مشابهة لغيرها ، تكون فريدة في بابها من بعض الزوايا ، ولهذا ايضا نقول ان التاريخ لا يعيد نفسه ، ولا مفر للمؤرخ من أن يدخل عنصر الزمن في اعتباره عند البدء في القيام بعملية التحليل .

واذا كان من المسلم به ان الهدف من كل بحث ، هو المعرفة وفهم العلائق ، فان البحث التاريخي يقتضينا الكشف عن اوجه ترابط الاحداث المتتابعة زمنيا - لا مجرد سردها - من حيث ان بعضها يكون عللا وبعضها الآخر يكون معلولات .

ولقد تحدثنا فيما سبق عن الصفات التي ينبغي ان تتوفر فيمن يتصدى لكتابة التاريخ

ونريد الآن ان نتحدث عن المنهج التاريخي . اعنى الطريق الذى ينبغي على المؤرخ أن يسلكه ليمضي في مهمته على أسس سليمة ، ويخرج تاريخه صادقا قدر الطاقة ، مصطبغا بالصبغة العلمية ما وسعه ذلك .

ومنهج البحث التاريخي في تعريف مبسط هو المراحل او الخطوات التي يمضي فيها الباحث حتى يصل الى الحقيقة التاريخية عن طريق فحص وتحليل سجلات الماضي ومخلفاته ثم يدونها ليقدّمها للناس ، والحقيقة التاريخية غير مطلقة ، فمن العسير جدا بلوغ الحقيقة المطلقة لاي شيء في الماضي ، بل وفي الحاضر ، وذلك لعوامل كثيرة تعترض سبيل من ينتسدها ، ومن أهمها ضياع البراهين وانطماس الأدلة ، وتدخل الاغراض والمصالح ، لذلك نقرر منذ البداية أن الحقيقة التي يصل اليها المؤرخ لا تعدو أن تكون حقيقة نسبية ، كلما زادت نسبة الصدق فيها اقتربت من الحقيقة المطلقة . وحين يبدأ الباحث في التاريخ عمله - ولا سيما في التاريخ القديم - فإنه لن يجد بين يديه ما هو بحاجة اليه من مصادر مكتوبة ، وبالتالي فإنه يستخلص مادته من مخلفات الانسان وآثاره المادية ، كالنقوش والصناعات والآثار ، وهذه جميعا تحتفظ لنا بكثير من الحقائق التاريخية ، ويحتاج المؤرخ الى بذل كثير من الجهد لاستنباط هذه الحقائق من تلك الآثار والمخلفات الصامتة (١١) .

ويحاول المؤرخ باستخدام المنهج التاريخي والتدوين التاريخي ان يرسم صورة لماضي الانسان بالقدر المتاح له ، ونحن نسمي العمليتين معا في كثير من الاحيان « بالمنهج » لأنهما دائما متلازمتان متواكبتان ، كلاهما جزء من عمل واحد .

ويخضع المنهج التاريخي لقواعد وتنظيمات ، وهكذا كان منذ كتب المؤرخ الاغريقى **ثوكيديديس** كتابه عن « الحروب البوبونية » ، فلقد قال لقرائه بصراحة وأمانة الكيفية التي جمع بها مادته ، كما روى الاختبارات التي طبقها ليفصل الحقيقة عن الخرافة والاسطورة ، ونحن نعرف أنه ألف خطبا انطق بها معاصريه من امثال بركليز ، فبذل غاية الجهد في استقصاء المصادر الموفرة لديه كي يجعل هذه الخطب اقرب ما تكون الى الأصل ، وكان يأمل ان يصل الى حرفية الخطبة لكنه لم يستطع .

ومنذ ايام **توكيديديس** كتب العديدون في المنهج التاريخي باسهاب احيانا وفي ايجاز احيانا اخرى ، ومن أمثلة ذلك **لوكيانوس** السفسطائي الاغريقي (ولد حوالى ١٢٥ م) وابن خلدون وقولتير . ولكن الدراسة الاكاديمية للمنهج التاريخي لم تبدأ الا بعد ان ألف **Ernest Bernleixm** كتابه المشهور « تعلم المنهج التاريخي والفلسفة التاريخية عام ١٨٨٩ » ، وفيه وضع ارنست الخطوات التي يجب على المؤرخ ان يخطوها والعقبات التي تعترضه وكيف يدلّلها ، والمهالك التي قد يقع فيها وكيف يتحاشاها ، ولا يزال هذا المؤلف حتى اليوم اكمل ما صنف في بابه .

ومن بعد جاء العالمان الفرنسيان **شارل سنيوبوس** Ch. Signobos و**شارل لانجلوا** Ch. Langlois فأصدروا في عام ١٨٩٨ كتابهما المعنون « مقدمة في الابحاث التاريخية » فجاء مختصرا دقيقا ومفيدا .

ونحن نستطيع ان نقول ان المنهج التاريخي تألف من مجموعه العناصر الآتية :

- ١ - الثقافة الواسعة .
- ٢ - اختيار الموضوع .
- ٣ - جمع المادة .
- ٤ - نقد المادة .
- ٥ - ترتيب الحقائق .
- ٦ - انتشاء الصيغة التاريخية .

ومن المقرر ان قيمة التاريخ الذي نقرأه في الكتب تعتمد اساسا على اتساع ثقافة الكاتب واثقانه لمنهج البحث التاريخي ، كما تعتمد على استعداده وملكاته الشخصية ومدى تمتعه بالصفات التي سبق ان تحدثنا عن وجوب نوافرها في المؤرخ .

ولا شك ان الثقافة الواسعة هي الركيزة الاولى التي لا بد منها لكتابة تاريخ علمي صحيح ، والمقبل على كتابة تاريخية ينبغي ان يعرف تماماته بصدد مهمة شاقة تقتضي منه الدراسة العميقة والتحصيل الجاد المتنوع ، والتاريخ في هذا كله لا يختلف عن غيره من سائر العلوم ، فالمعرفة بعامة متداخلة متشابكة وليس في وسع احد ان يدرس علما بذاته مستقلا تماما عن العلوم الاخرى ، فما هي العلوم المساعدة التي نعين المؤرخ على انجاز عمله ؟

العلوم المساعدة :

يتصل التاريخ انصلا وتيقا بكثير من صنوف المعارف الانسانية ، ومن يتصدى لكتابته لا بد له من تحصيل هذه المعارف اولا ، لانه حين يحسنها يستطيع ان يحسن ما يكتب من الدراسات التاريخية .

ونحن نسمي هذه المعارف عموما بالعلوم المساعدة او العلوم الموصلة ، وهي بطبيعتها الحال تختلف بالنسبة للدارس باختلاف العصر او الموضوع الذي يريد ان يتناوله ، فدارس التاريخ القديم مثلا تختلف علومه المساعدة عن علوم دارس تاريخ العصور الوسطى ، وهذا تختلف علومه المساعدة عن دارس التاريخ الاسلامي او التاريخ الحديث .

الواقع ان اللغات تأتي في مقدمتها جميعا ، لانه لا فكاك من ضرورة معرفة اللغة الاصلية الخاصة بموضوع البحث التاريخي ، ومهما كان لدينا من ترجمات ، فانها قد تفي باحتياجات من يستهدف الحصول على ثقافة عامة ، لكنها لا تكفي ابدا للمؤرخ الذي يستهدف الفهم الكامل العميق للناحية التي يريد ان يتناولها ، اعني ان الذي يريد ان يدرس ناحية من نواحي التاريخ المصري القديم ، لا يستطيع ان يفعل ذلك الا اذا تعلم اللغة الهيروغليفية ، والذي يريد الكتابة في موضوع من موضوعات التاريخ الاغريقي ، لا بد ان يعرف اللغة الاغريقية القديمة ، والذي يريد ان يكتب في موضوع من موضوعات التاريخ الاوربي الوسيط ، لا بد له من معرفة اللغة اللاتينية .

وذلك هو السبيل الوحيد الذي يمكن الدارس من قراءه النصوص الاصلية بلغتها الاصلية ، وكلما تنوعت اللغات القديمة التي يعرفها الباحث ، اتسع امامه افق البحث ،

ولا يصدنه عن تعلم هذه اللغات صعوبتها ، والافأولى به ان يتخلى تماما عن التصدى لهذه التخصصات القديمة .

وينبغى على الباحث ايضا ان يكون عارفا باكثر من لغة من اللغات الاوربية الحديثة الشائعة ، لان اللغات الاوربية كلها غنية بترائثها التاريخية ، ولا يجوز للدارس ان يفوته الاطلاع على هذا التراث كي يفيد منه الافادة القصوى .

ونحن لا ننكر ان تعلم اللغات القديمة بالذات امر فيه كثير من العسر والصعوبة ، ولهذا اخذ الدارسون الشبان من خريجي الجامعات في بلادنا العربية ، يبتعدون عن التخصصات التي تتطلب العلم بهذه اللغات ، وهذا امر مؤسف حقا ، كانت نتيجته ندرة المتخصصين عندنا في فروع التاريخ القديم بعامة ، والذي أدعو اليه ان يتخلى الشباب الدارسون عن الخوف من دراسة اللغات القديمة شرقية كانت ام غربية ، وان يقدموا عليها في شجاعة وثقة بالنفس ، ولسوف يجدون بعد بضعة اشهر انهم خطوا خطوات طيبة في تعلم هذه اللغات ، ولسوف يدفعهم ذلك الى مواصلة الدرس في اصرار وتصميم ، ان الدراسة الجادة على مدى عام واحد لاية لغة قديمة تكفي لوضع اساس طيب للاستمرار وتحصيل المزيد .

وبأني بعد ذلك علم قراءة الخطوط Paleography ، فهو علم لازم لدراسة التاريخ القديم والوسيط ، بل ودراسة الفترات المبكرة من التاريخ الحديث ، وتبدو لنا أهمية هذا العلم واضحة جلية حين نتصدى لدراسة تاريخ الشرق القديم وتاريخ اليونان والرومان وتاريخ العرب قبل الاسلام وتاريخ العصور الوسطى وتاريخ الشرق الأدنى الحديث حتى القرن التاسع عشر .

ونحن نستطيع عن طريق هذا العلم ان نحدد تاريخ أية وثيقة غير مؤرخة تعرض لنا تحديدا مضبوطا بمجرد النظر الى الخط الذي كتبت به وخصائصه ، وليس نمة شك في ان معاماتنا سوف نظل قاصرة عن قرون كاملة وطويلة من تاريخ البلاد التي خضعت للعثمانيين ، ما لم يوجد من يدرس خط القيمة مثلا ، الذي درنت به وثائق النظم الادارية والمالية في ظل الحكم العثماني لهذه البلاد ، ولا سيما مصر ، التي شاع بها استعمال هذا الخط ابتداء من القرن الحادي عشر الهجري ، والتي تفيض دار محفوظاتها بالقلعة بألاف من الوثائق المكتوبة بخط القيمة ، وكذلك دمشق التي توجد بمكتبتها الظاهرية مجموعة كبيرة من الوثائق المدونة بنفس الخط وتتناول - فيما تناول - تاريخ فخر الدين المعنى الثاني أمير لبنان .

ومن العلوم المساعدة الهامة للمؤرخ علم « النوميات » أو علم النقود المسكوكة ، فالعملة القديمة تحمل عادة صورة للآلهة التي كان الناس يعبدونها ، كما تحمل صور الملوك والامراء واسمائهم ، وهذه كلها تمد الباحث بمادة تاريخية أصيلة عن العصور القديمة والعصور الوسطى على السواء ، كما تعيننا على دراسة الاساطير والديانات والفنون والنشاط التجاري في الفترات التي ترجع اليها هذه المسكوكات .

اما الجغرافيا ، فانها من المواد المساعدة التي لا يستغنى عنها الباحث في التاريخ ، ذلك ان الارتباط بين الجغرافيا والتاريخ ارتباط عضوي وثيق ، فالأرض كما يقال هي المسرح الذي مثلت فوقه الاحداث التاريخية .

وليس نمة شك في أن لجغرافية أى اقليم اثرا كبيرا على توجيه مسار تاريخه ومن ثم على مصائر اهل هذا الاقليم .

ان الناس في اية بيئة من البيئات يتفاعلون معها تفاعلا تلقائيا تمليه الطبيعة الجغرافية لهذه البيئة ، ومن ثم يتشكل تاريخهم تشكيلا يتفق والبيئة ، وبالتالي يتحدد مسار تاريخهم .

ومن ابرز الامثلة على اثر الطبيعة الجغرافية في تاريخ قوم من الاقوام ، مصر ، فالنيل هو مصدر حياتها وهو الذى شكل تاريخها ووجهه الوجهة التي سار فيها ، لقد نعلم منه سكانها هندسة الرى ، وادركوا بفضلها معنى الوحدة والتعاون وجعلهم من أغنى شعوب العالم القديم واسبقهم الى الأخذ بأسباب التقدم الحضارى .

وينبغي للمؤرخ ان يلم بعلم الاقتصاد المائى يمكنه من الوقوف على مدى تأثير العوامل الاقتصادية على مسار التاريخ ، فنحن نعرف ان السياسة الداخلية للدولة من الدول تعتمد اعتمادا كبيرا على مدى ثرائها الطبيعي ونشاطها التحارى، وطريقة توزيع الثروة الطبيعية في بلد ما تحدد عادة نوع الحكم فيها ومستوى الرخاء العام بها وعلاقة طوائفها ببعضها ، فضلا عن ذلك فان الرخاء الاقتصادى يؤثر تأثيرا هائلا في علاقة الدول ببعضها ، لا في النواحي الاقتصادية وحسب ، وانما في النواحي السياسية أيضا .

ان كثيرا من الحروب والغزوات ، والحروب الاستعمارية ، كان الدافع اليها دافع اقتصادى بحث ، ومكانة الدول في عالمنا الحديث تتوقف قبل كل شيء أيضا على أوضاعها الاقتصادية .

والادب من العلوم المساعدة التي يلزم المؤرخ ان يلم بها ، فادب القوم هو مرآة حياتهم وحضارتهم ، وهو التعبير الصادق عن أفكارهم وعواطفهم الانسانية ، وهو الذى يكشف دخائل الافراد ويصور لنا أحلامهم وامانيهم ، والادب في مجالاته المختلفة يرسم لنا أوضاع الشعوب ونظمهم وشتى جوانب حياتهم .

ونحن اذا تناولنا الادب المصرى القديم — برغم قلة ما وصلنا منه — او الادب الاغريقى او الادب الرومانى ، نجده يفيض بالمعلومات التى ترسم لنا تاريخ هذه الشعوب رسما دقيقا واضحا .

وقد نكون مخلفات اديب واحد معيننا هائلا للمؤرخ ، يستقي منه معلومات تاريخيه هامة ام تكن لنتاح له لولا هذه المخلفات ، فالياذة هوميروس و « العمل والايام » لهيسودوس ومسرحيات **ايسخولوس** و**سوفوكليس** و**يوريبيليس** عند الاغريق القدماء ، وآثار دانتي الادبية التي ترجع الى أواخر العصور الوسطى في ايطاليا ودراسة الادب العربى الحديث ، كلها تعتبر من المصادر التي لا غنى عنها لمن يريد التصدى للبحث في التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى لذلك الزمان ، البعيد منها والقريب على السواء .

ونرى كذلك ان الاحاطة بفنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة في عصر من العصور مسألة ضرورية بالنسبة للباحث في تاريخه ، وان آثار مصر القديمة أو آثار العراق القديم أو آثار الاغريق والرومان ، كلها تعطينا صورة واضحة لحضارات هذه البلاد وتمدنا بفيض من المعلومات عن تقاليد اصحابها وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية .

بل ان هذه الآثار الفنية تعتبر المصدر الوحيد لتاريخ الشعوب التي عاشت قبل معرفة الكتابة ، فلم تترك لنا أية سجلات او مدونات ، وانما تركت فقط آثارها لنستنتقها ونستنبط منها تاريخها .

وفضلا عن ذلك كله ، يستطيع الباحث في التاريخ أن يزود نفسه بقسط من علوم المنطق والفلسفة والاجتماع والنفس والقانون ، فكلها تفيد في البناء التاريخي لموضوع دراسته ، وفي عقد المقارنات وتفسير الظواهر بحيث يخرج تاريخه متكاملا وبجته وافيا .

وعلى المؤرخ في النهاية الا يعتمد على ما يتاح له من مراجع ومصادر فحسب ، انما عليه ان يعتمد ايضا على ما حصله هو شخصا من خبرة بالحياة العملية بين اهله وعشيرته وقومه ووطنه ، فذلك زعيم ان يجعله اقدر على فهم تصرفات البشر في الماضي وتقدير الظروف التي أحاطت بهم وأدت الى توجيههم توجيها معينا .

وعلى المؤرخ ايضا الا يكتفي بالدرس والبحث داخل نطاق بلده وحده ، انما يتحتم عليه ان يسافر ويرتحل خارجه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فذلك سوف يفتح أمامه آفاقا جديدة رحة ويكسبه خبرة واسعة باقوام وبيئات متباينة ، ومن الواجب عليه ان يقوم بزيارة البلد الذي يكتب عنه ، وان يشاهد بنفسه الاماكن التي يتناولها في بحثه ، وذلك كفيل بأن يضيف على ابحاثه مزيدا من الدقة ومريدا من نبض الحياة .

وبعد ، فذلك الذي تحدثنا عنه في الصفحات السابقة ، يعطينا موجزا عن الثقافة الواسعة التي يتعين على المؤرخ ان يزود نفسه بها ، ومفهوم بطبيعة الحال اننا لا نطلب من المؤرخ ان يتوسع ويتعمق في كل هذه العلوم المساعدة ، فذلك مستحيل ، انما نطلب منه فقط الا يلام بها الماما طيبا ولا بأس عليه اذا هو تعمق ناحية بذاتها من هذه الدراسات تكون لها صلة مباشرة ونيقة بموضوع بحثه التاريخي .

اختيار الموضوع :

ذلك هو العنصر الثاني من عناصر المنهج التاريخي ، وعملية اختيار موضوع تاريخي معين لدراسته والكتابة فيه تتصل اتصالا وثيقا بميول الباحث ومدى الماه بالعلوم المساعدة التي ينطلبها البحث في هذا الموضوع ، وهي في الواقع أول مشكلة تواجه من يتصدى للكتابة التاريخية ، ومن واجبه ان يصرف فيها وقتا كافيا حتى يستقر على ما يريد ، ويضمن قدرته على المضى فيه .

ويختلف موضوع اختيار البحث باختلاف وضع الراغبين فيه ، فمثلا طالب الجامعة المبتدئ في التخصص لا يستوى مع طالب الدراسات العليا الذي أنهى دراسته الجامعية الأولى ، وبدأ يتطلع للحصول على الماجستير ثم الدكتوراه ، وكلاهما لا يستوى مع المتخصص الكبير الذي أمضى حياته في كتابة التاريخ .

فطالب المرحلة الجامعية الأولى يدرسه اساتذته على وسائل تحصيل المادة وجمعها ، وهذه الوسائل هي التي تصبح اسلحته في المستقبل للعمل العلمي الاصيل المبتكر ، ونحن لهذا السبب لا نطالبه بالكتابة التاريخية للوصول الى نتائج علمية جديدة لم تكن معروفة من قبل ، انما نحن نساعد في اختيار موضوعات من تلك التي سبقت دراستها بهدف تمرينه وتدريبه على الاقتباس ، واعادة الكتابة في الموضوع بترتيب جديد ونويب جديد وعرض جديد ، معتمدا على المصادر والمراجع التي يرشده اليها استاذة ، فاذا جمع من هذه وتلك ما يراه متصلا بموضوعه ودونه في مذكراته ، كان عليه بعد ذلك ان يجمع ما حصل عليه من معلومات ، وان يميز بين ما يتعلق منها

بالنقاط الجزئية في المراجع المختلفة ، ثم يعمد الى المقارنة بينها حتى ينتهى الى ما يريد ويعرضه بعد ذلك في اسلوبه الخاص .

وغالبا ما يكون الموضوع الذى يختاره الطالب في هذه المرحلة الاولى من كتابة البحوث ، موضوعا عاما شاملا ، ثم يتدرج بعد ذلك - تحت اشراف استاذة ايضا - الى اختيار الموضوعات المحددة التي تهتم بجانب واحد من جوانب الموضوع الشامل الذى كتب فيه أولا وهنا يكون موضوع البحث اضيق واكثر تحديدا ، وبالتالي يصبح اكثر عمقا .

على هذا النحو ينبغي ان يكون التدرج في اختيار موضوعات البحث بالنسبة لطلاب المرحلة الجامعية الاولى ، فلسوف يتعلم قبل كل شيء فائدة الالمام بالموضوع الواسع الشامل ، ثم يتعلم الانتقال الى الموضوع المحدد ، وهذا يدربه على الاهتمام بالجزئيات مع الاهتمام في نفس الوقت بالنظرة العامة الى الموضوع الذى يدرسه .

ويستطيع الاستاذ الجامعي ان يوجه طلابه في المرحلة الاولى الى كتب يعينها من كتب التاريخ الهامة الجيدة التي تتناول موضوعا بعينه من الموضوعات التاريخية ، ويطلب منهم ان يلخصوا هذه الكتب بحيث تصبح في نصف حجمها ثم في ربعه ثم في صفحات محدودة ، وحيدا او كان الكتاب المختار مكتوبا بلغة اجنبية ، وسوف يستفيد الطالب كثيرا من هذه العملية لأنها تعلمه القدرة على الاستيعاب ثم التركيز ، الى جانب الحصول على معلومات تاريخية جديدة ، واجادة اللغة الاجنبية التي يقرأها .

كذلك يستطيع الاستاذ ان يرشد الطالب الى دراسة بعض الوثائق الاصلية المنشورة ، أو بعض الوثائق المخطوطة ، لاستخراج المعلومات الواردة فيها عن موضوع معين ، وهذا تدريب لا بد منه لاعداد المتخصص في التاريخ .

فاذا اتم الطالب هذه المرحلة الجامعية ، وحصل على هذا القسط من التدريب على الكتابة التاريخية مستعينا بالمصادر والمراجع والوثائق ، وانتقل الى المرحلة التالية ، مرحلة التخصص الدقيق ، وعزم على المضي في الكتابة لاعداد رسائله للماجستير والدكتوراه ، فان الوضع بالنسبة لاختيار الموضوع يتغير .

هنا يصبح الباحث مسئولا عن اختيار موضوع بنفسه ، وعلى استاذة المشرف ان يتحقق من ذلك ، لأن العلاقة بينهما لم تعد كما كانت ، علاقة موجه ومشرف على طالب مبتدىء ، انما أصبحت علاقة زمالة ومساواة في تحمل المسؤولية ، تقوم على النقد الحر الذى يتقبله الاستاذ من تلميذه ، كما تنهض على اساس من التقدير المتبادل .

ولقد يقال ان الطالب حديث التخرج قد لا يستطيع الاستقلال باختيار موضوع بحثه . لأنه لم يلم بعد الماما كافيا بالعصر الذى يريد الكتابة فيه ، لكن هذا لا يبرر ان يلقى الاساذ على تلميذه موضوع البحث املأ ، انما عليه ان يرشده ويوجهه في صبر وأناة ، وأن يطلب اليه مزيدا من القراءة في الموضوع وما حوله ، حتى يصبح قادرا على الاختيار الموفق بنفسه ، فتلك مسؤوليته وحده .

والباحث في مرحلة الماجستير ، يعتبر قائما بدراسة ابتدائية في مجال التخصص ، ولهذا فنحن نتجاوز عن الزامه بالاتيان بجديد في الحقل التاريخي ، ونكتفي بالجهد الذى يبذله مخلصا

في تحصيل المادة التاريخية من أصولها ، تم تصنيفها وترتيبها وعرضها عرضا سليما ، ولعله ينتهى بعد ذلك الى جمع شتات موضوع كان متناثرا في كتب عديدة ، وهذا عمل مفيد كل الفائدة ... لقد ادى خدمة في ميدان التاريخ وان تكن متواضعة .

وذلك بطبيعة الحال لا يمنع الباحث من القيام بنشر عدة وثائق كشفت ولم ننشر بعد ، على أن يكون النشر علميا بالمعنى الصحيح ، وفي هذه الحالة يكون قد أتى بشيء جديد فعلا .

وعلى الباحث في هذه المرحلة ، ومنذ اللحظة الأولى ، أن يكون أمينا مع نفسه حين يقرر الفرع الذى ينوى التخصص والكتابة فيه ، فيسألها : أهو على دراية كافية بالعلوم المساعدة الموصلة لهذا الفرع ، فمثلا اذا اتوى الكتابة في التاريخ اليوناني ، عليه ان يتأكد من المامه الكافي باللغة اليونانية القديمة ، فاذا لم يكن مطمئنا الى ذلك ، فعليه ان يكون امينا مرة اخرى ويسأل نفسه ، أهو قادر على تعلم هذه اللغة بالقدر المطلوب ؟ فاذا تبين له أنه غير قادر ، فليعدل عن المضي في تلك الدراسة وليفكر في تخصص آخر .

وفي وسع كل مبتدئ ان يصل الى موضوع يهمه للكتابة فيه ، وكل ما يحتاجه لذلك هو أن يسأل نفسه الأسئلة التالية التي تقع في مجموعات أربع على النحو التالي :

المجموعة الأولى جغرافية ، وتبدأ الاسئلة بأداة الاستفهام « أين » ، فأى مكان في العالم الواسع يرغب الطالب دراسته ؟ أهو الشرق أم هو الغرب ؟ ثم أين بالضبط من انحاء الشرق ؟ او أين بالضبط من انحاء الغرب ؟ .. وهكذا . والمجموعة الثانية تتعلق بالسير ، والاسئلة هنا تبدأ بأداة الاستفهام « من » ، فمن من الناس يستأثر باهتمام الطالب ؟ أهو العرب أم هم الانجليز أم هم الفرنسيون ، أم هم الاغريق أو الرومان ، أم أصحاب حضارات الشرق القدم ؟ .. الخ ، أم هي شخصية فرد بعينه : قائد ام ملك ام زعيم سياسي ؟ .. الخ .

والمجموعة الثانية زمنية : وتبدأ الاسئلة بكلمة « متى » : فأى حقبة من الحقبة يفضل دراستها ... أهى العصور القديمة أم الوسطى أم الحديثة ؟

وأخيرا المجموعة الرابعة ، وهي نوعية ، تبدأ الاسئلة فيها بكلمة « أى » فأى نوع من انواع النشاط البشرى يستأثر باهتمام الباحث ؟ أهو الاقتصاد أم السياسة أم الحروب أم الاوضاع الاجتماعية ؟ ... الخ .

وبعد أن ينتهي الطالب من عرض هذه الاسئلة على نفسه ، والاجابة على كل منها اجابة صريحة مقنعة ، فانه سوف يشعر باطمئنان كامل ، وسوف يصل الى نتيجة واضحة آخر الامر ، ويقف على مجال اهتمامه الخاص في الدراسات التاريخية ومن ثم يختار موضوع بحثه .

وهنا ينبغي ان نشير الى بعض المسائل الهامة ، اولها ان المبتدئ يكون عادة - ان لم يكن دائما - على قدر كبير من الطموح وربما الاندفاع والتسرع ... والسبب في ذلك هو قلة ما لديه من خبرة ، فهو لا يستطيع ان يتصور القدر الهائل من الأدلة التي قد تكون متوفرة في الموضوع الذى اختاره ، فاذا مضى في البحث فترة من الوقت ألقى نفسه غارقا الى اذنيه في بحر خضم من المصادر ، وشعر بعجزه عن الخروج من هذه الامواج المتلاطمة ، ولقد ينتابه اليأس ويحس بمرارة شديدة قد ترده عن مواصلة الدرس . وعكس ذلك صحيح ، فربما اختار موضوعا

مصادره ومراجعته نادرة ومشتتة ، وبالتالي لا يجد بين يديه المادة التي تعينه على المضي في بحثه .

وليس من الضروري بالنسبة للباحث المبتدئ ان يحدد عنوان موضوعه منذ بداية العمل ، وحسبه ان يحدد العصر او النواحي التي تصلح للبحث في نطاق محدد ... أما التحديد النهائي للعنوان فلا يتم غالبا الا بعد ان يقطع الباحث شوطا طويلا في القراءة والاطلاع ... ولعله من المفيد ان يحدد لنفسه المدة الزمنية التي يستطيع ان ينجز فيها عمله ، علما بأنه محتاج الى بعض الوقت لتقصي احوال العصر الذي ينوي دراسة جزء منه .

ومن أهم الامور ألا يختار طالب البحث موضوعا طويلا ، وحسبه ان يكتفى بدراسة مسألة محددة ، فذلك يساعده على انجاز بحثه في مدة مناسبة ، كما يساعده على الاتيان بشيء جديد .

فاذا تورط الباحث في موضوع كثير المصادر والمراجع ؟ وماذا اذا حدث العكس ؟ في الحالة الأولى يكون لا مفر من تضيق نطاق الموضوع الذي اختير ، وفي الحالة الثانية لا مفر من توسيع هذا النطاق .

فلنفترض ان الباحث اجاب عن مجموعات الاسئلة الأربعة سالفة الذكر على النحو التالي :
أفضل ان اكتب في تاريخ الشرق القديم ، وعن العراق بالذات من أقطار هذا الشرق ، وعن الفترة المبكرة من تاريخه ، وأخيرا عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية حينذاك ، وبالتالي فسوف يكون عنوان الموضوع كالتالي « الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في العراق القديم في تاريخه المبكر » .

وربما اكتشف الطالب بعد فترة ان لديه قدرا هائلا من المصادر والمراجع يفرقه الى أذنيه كما ذكرنا ... هنا ينبغي عليه أن يضيق نطاق الموضوع فيجعله مثلا ، « الأوضاع الاجتماعية عند السومريين في العصر الحجري الحديث » وهكذا يكون قد اختصر المكان واختصر الزمان واختصر مظهر النشاط البشري الذي سوف يتناوله ، وهكذا يصل الى حدود معقولة يمكن التصرف فيها والانتهاء منها خلال مدة معقولة من الوقت .

وربما كان موضوع كهذا من انسب الموضوعات للمبتدئين ، لأنه يضعهم بين مصادرهم ومراجعهم الخاصة المتوفرة في مكتباتهم او في مكتبات قريبة منهم .

أما حين يجد الباحث ان موضوعه ضيق النطاق بسبب اغراقه في التخصص بحيث لا يجد المصادر والمراجع اللازمة ، فعليه ان يوسع نطاق البحث بصورة تتيح له مزيدا من المصادر والمراجع .

ومع ذلك فان البحث التاريخي المتخصص ، أي الذي يتناول احداثا محدودة ، ويقوم على الوثائق المتخصصة ، هذا النوع من البحوث هو الاجدر بالاهتمام والدراسة ، وهو الذي يضيف على صاحبه لقب « الباحث المؤرخ » ، لأننا لا نريد ان نجد أنفسنا آخر الأمر مجرد ناسخين ومقتبسين . ولقد قيل ان الفرق بين البحث التاريخي وسرقة ابحاث الآخرين ، هو ان البحث يقتضي نسخ أكثر من كتاب واحد او الاقتباس الجزئي من أكثر من كتاب ... لكن الفارق الحقيقي يكمن في ان البحث معناه التفتيش عن بعض المصادر الجديدة او التي لم تستخدم بعد ، فتستقى منها المعلومات المتصلة بموضوعنا ، وقد يكون البحث أيضا عبارة عن تحليل وتفسير جديد لمعلومات معروفة .

ومن أهم الامور التي ينبغي ان يراعيها طالب البحث المبتدئ ، هي أن يعرف - قبل ان يتورط - ما اذا كان الحقل الذي اختاره للدراسة قد درس من قبل دراسة كاملة وافية بحيث تصبح فرص الاتيان فيه بجديد معدومة او محدودة للغاية وهنا عليه أن يلجأ الى مؤرخ خبير ليقف منه على جلية الامر .

وهناك كتب تقترح مشكلات تاريخية تحتاج للدراسة والبحث ، كذلك هناك المصادر المرتبة في مجلدات خاصة بها ، والتي تلخص الابحاث التي تمت في فترات معينة اعنى كتب الببليوجرافيا Bibliography وهناك ايضا المجلات العلمية المتخصصة التي تنشر دوريا ، وبها مقالات في النقد العلمي لما ظهر من كتب وبحوث .

بقي أن نذكر انه ينبغي الا يقل الزمن الذي يفصل الباحث عن موضوعه عن خمسين عاما . بهدف اعطاء الباحث فرصة البعد عن الوقوع تحت أى تأثيرات شخصية ، بحيث يكتب كتابا المحايد المتحرر الذي لا يخشى وقوما في مضرة او انسياقا وراء منفعة شخصية عاجلة او انحرافا وراء تيار عام ، وذلك زعيم ان يخرج بحته اقرب ما يكون الى الحقيقة والصدق ، فضلا عن ذلك فان انقضاء فترة نصف قرن على وقوع الاحداث يكفل بلورتها والخروج بها من حالة الفوران والغليان التي تواكب وقوع الحدث وتستمر بعده فترة غير قصيرة .

ومعروف ان الدول لا تنشر وثائقها المتصلة بسياساتها المختلفة الا بعد انقضاء خمسين عاما عليها ، وفيما قبل ذلك فانها تعتبر سرا لا يجدر نشره او الاطلاع عليه ، وان كانت بعض الدول تكفي الآن بمرور ثلاثين سنة على هذه الوثائق .

جمع المادة

ننتقل هنا الى العنصر الثالث من عناصر منهج البحث التاريخي ، ونعنى بذلك جمع المادة التاريخية اللازمة للبحث من المراجع والمصادر وشتى الاصول . ولعل أول ما يقال في هذا الصدد هو ان المكتبة ودور المحفوظات العلمية ودور الارشيف التاريخي هي مختبر المؤرخ ، ومن نم فلا بد ان يكون كل باحث على بيئة ودراية تامة بطريقة استغلال المكتبات وهذه الدور .

وهناك كتب كثيرة وضعت بهذا الهدف ، يتعلم منها الباحث افضل السبل لاستخدام المكتبات والحصول منها على المادة التي تهتمه بالنسبة لبحثه (١٢) ، وما من شك ان انفع اداة للباحث في المكتبة هي قهارسها المختلفة ، سواء اكانت للموضوعات او لاسماء الكتب او لاسماء المؤلفين .

ومفروض ان كل باحث يكون على علم بمجموعة من اسماء الاعلام واسماء الاماكن التي تدخل في موضوع بحثه ، وعليه ان يرجع الى قواميس الاعلام والى دوائر المعارف يبحث فيها عن هذه الاسماء وتلك ، ويحصل منها على مزيد من المعلومات عن كل اسم من هذه الاسماء ، كما يظفر بعدد من اسماء المراجع التي يدل بها كل مقال يكتب عنها في القواميس ودوائر المعارف .

(١٢) من اشهر هذه الكتب كتاب :

M. Hutchins, A.A. Johnson & M. S Williams ; Guide to the use of Libraries, New York 1936.

كذلك يتحتم على الباحث ان يدرس المسألة الواحدة في عدة مراجع في وقت واحد ليرى كيف عالجها اصحاب هذه المراجع ، وذلك هو ما نسميه بالقراءة المقارنة التي تساعد على معرفة أوجه القوة وأوجه الضعف في الافكار المختلفة عن الافكار المختلفة عن الموضوع الواحد .

ومن المفيد جدا ان يحتفظ بفهرس موجر للكتب التي لا يمكن الاستغناء عنها بحيث تكون في متناوله دائما، واهم ما ينبغى الاحتفاظ به هو :

- ١ - قائمة باسماء بعض كتب المراجع .
- ٢ - فهرس مطبوع لاحدى المكتبات .
- ٣ - دائرة من دوائر المعارف ويحسن ان تكون من تلك المتخصصة في حقل الدراسة .
- ٤ - قاموس من قواميس الاعلام .
- ٥ - قاموس متخصص في حقل البحث الذى يتناوله الباحث (اقتصادى او دينى او اجتماعى ... الخ) .
- ٦ - دورية او اكثر من الدوريات المتصلة بالبحث .
- ٧ - مجموعة للوثائق المتعلقة بعصر البحث .

والمراجع العامة تفيد في اعطاء الباحث فكرة شاملة جامعة عن العصر الذى اختار منه موضوع بحثه ، وهي أيضا تمده بمراجع اخرى تعينه في عمله . ومن الواجب ان يبدأ الدارس بالافادة مما كتبه السابقون في الميدان ، والاطلاع على المراجع والمصادر التي استعانوا بها .

ولنفرض مثلا ان باحثا قد اختار الكتابة في موضوع « الديمقراطية الاثينية في القرن الخامس قبل الميلاد » فأول واجباته ان يطلع على المراجع العامة التي تتناول تاريخ الاغريق كله منذ بدايه الى ظهور الاسكندر الاكبر ، ثم يلجأ الى مراجع تتحدث عن تاريخ آتينا وحدها ، ثم يتناول بعد ذلك المراجع التي تتحدث عن النظم الدستورية الاغريقية ، ثم تلك التي تتناول النظم الديمقراطية وكيف تطورت حتى صارت الى ما صارت اليه في القرن الخامس قبل الميلاد .

تلك هي الخطوات الاولى في برنامج الدراسة والبحث ، ثم يأتي بعد ذلك دور التعمق في الاصول والوثائق .

وعملية الوقوف على كل المراجع والاصول ، أو معرفة جلها ، عملية شاقة عسيرة ، ولا مفر لاستكمالها من اللجوء الى كتب المراجع ، او مايسمونه بالانجليزية Bibliographies ، ولقد اصدر العلماء في الغرب العديد منها ، بعضها له طابع التعميم ، وبعضها الآخر له طابع التخصص ، وبعضها يكتفي بذكر اسم المرجع واسم مؤلفه ومكان نشره وعام صدوره وعدد صفحاته ، وبعضها الآخر يعطينا بالاضافة الى ذلك مذكرة موجزة عن كل مرجع او مصدر مطبوع (١٣) .

(١٣) من اهم هذه البليوجرافات :

International Bibliography of Historical Sciences, edited by the International Committee of Historical Sciences, Washington 1926.

ومنذ عام ١٩٢٦ يصدر من هذه البليوجرافية مجلد واحد كل عام يشترك فيه طائفة كبيرة من العلماء المتخصصين ، يتضمن ما نشر خلال العام في جميع نواحي التاريخ بل في طرق البحث التاريخي والعلوم المساعدة ودور الارشيف ، وهو يكتفي بذكر مكان الطبع وتاريخه وعدد الصفحات .

لكن كتب المراجع وحدها لا تكفي لأنها غالباً ما تففل أسماء البحوث والمقالات المنشورة في المجلات العلمية التي تصدر دورياً كل عام أو كل نصف عام أو كل ربع عام بمختلف اللغات .

ولهذا ينبغي أيضاً أن تراجع فهارس هذه المجلات للوقوف على ما نشر بها من أبحاث أو مقالات في الموضوع الذي ندرسه .

فإذا انتهى الباحث من ذلك كله ، فعليه أن يفتش عن الوثائق الخاصة بموضوعه ليدرسها ويستنبط منها ما يستطيع من حقائق ، ونقص بالوثائق هنا المعاهدات والمراسلات الرسمية وتعليمات الرؤساء وأوامرهم لمن يعملون تحت إشرافهم ، وكذلك المجموعات القانونية ، وهذه جميعاً يوجد منها قدر كبير لا يمكن الباحث أن يهمله والا خرج بحثه ناقصاً مبتوراً عديم القيمة .

إن البحث عن الوثائق من أهم العمليات الجذرية في كتابة التاريخ ، ونستطيع أن نقرر أن الكشف عن قدر من الوثائق في موضوع معين هو الفيصل في إمكانية دراسته والكتابة فيه أو الكف عن هذه الدراسة التي لن نخرج منها بجديد ، وحسبنا أن نكرر في هذا الصدد ما ذكره لانجلوا وسيوبوس في كتابهما الرائع عن أهمية الوثائق إذ قالاً « حيث لا توجد الوثائق ينعدم التاريخ » (١٤) ، وما قرره أسد رستم في أول صفحة من صفحات كتابه « مصطلح التاريخ » (١٥) حين قال « إذا ضاعت الأصول ضاع معها التاريخ » .

وهذه العبارات تعبر تعبيراً دقيقاً عن أهمية الوثائق في كتابه التاريخ ، فمما لا يقبل الجدل أن التاريخ لا يخترع اختراعاً أو يخلق من العدم خلقاً ، إنما هو ينبني على الآثار التي خلفتها عقول أصحاب هذا التاريخ وأيديهم . وإذا تصورنا أن فترة من الفترات قد ضاعت أصولها وآثارها تماماً لسبب أو لآخر ، كالتدمير والحرق وغيرها ، فإن تاريخ هذه الفترة يضيع تماماً هو الآخر ، وأي باحث يتصدى لكتابة أي تاريخ دون دراسة وثائق وأصول هذا التاريخ لا يبدو أن يكون ناقلاً عن غيره ، وبالتالي فإن قيمة عمله تنعدم مهما انفق في النقل من جهد ووقت .

وإذا كانت الوثائق ضرورية بالنسبة للكاتب الذي يكتب عن عهد قريب منه نسبياً ، فإنها أكثر ضرورة بل هي حتمية بالنسبة لمن يكتب عن العصور القديمة ، ذلك أن الأول قد يستطيع الاستفادة من روايات بعض شهود الأحداث ، فيقارن بينها ويصنفها ويستخلص منها الحقائق ، بينما لا يجد الثاني سوى الأصول وحدها .

ونجد هذه الوثائق محفوظة الآن في المكتبات والمتاحف والمساجد والكنائس ، وقد توفر عدد كبير من العلماء - ولا سيما في الغرب - على فهرستها وتنظيمها ، لكن هناك أكداً من هذه الوثائق لا تزال في حكم الجهولة تماماً - القديم منها والحديث - لأنها لم تحظ بمن ينظمها ويفهرسها ، وتلك عملية ضرورية لا بد أن يتفرغ لها بعض العلماء .

ونحن جميعاً نعرف أن الهيئات العلمية والجامعات في الغرب تخصص عدداً من رجالها وترسلهم في بعثات إلى الخارج للتفتيش عن هذه الوثائق وتصويرها ونشرها .

Ch. Langlois et Ch. Seignobos : Introduction aux Etudes Historiques, (١٤)
Paris 1898.

(١٥) أسد رستم : مصطلح التاريخ - بيروت ١٩٣٩ ص ١٠ .

وكثيرا ما يجد الباحث في الوثائق التي يعثر عليها أمورا تستدعي الرجوع الى التخطيط انعام الذى وضعه لبحثه كي يجري فيه التعديل الذى توجيه هذه الامور .

وحين يعكف الباحث على نقل شيء من الوثائق فعليه ان يعي تماما محتويات ما ينقله ، وعليه كذلك ان يدون على الفور اى تعليق او ملاحظة تعن له وهو يقرأ الوثيقة حتى لا ينسى ما خطر على باله ساعة القراءة .

ويتصل بالوثائق فى هذا الصدد ، ما يتصل بموضوعنا من آثار مختلفة ، سواء اكانت رسوما او صورا او نماثيل او حفراً بارز او غائراً ، فهذه كلها تمدنا بمزيد من المعلومات التي نفتقدها فى المصادر والمراجع المكتوبة .

نقد المادة التاريخية

قلنا فيما سبق ان مادة الموضوع الذى يبحث انما تجمع من المصادر والاصول والمراجع ، وتمدنا المصادر والاصول بالمعلومات بصورة مباشرة احيانا وغير مباشرة احيانا اخرى ، واقتصد بالمعلومات المباشرة تلك التي تأتينا عن طريق مشاهدة الاحداث اثناء وقوعها ، كما اقتصد بالمعلومات غير المباشرة تلك التي نستنبطها من دراسة مخلفات الانسان وآثاره ، وكذلك آثار الاحداث نفسها .

ان شاهد العيان الذى يكتب لنا ما رأى بعينه او ما شارك فيه بنفسه ، يمدنا بمعلومات مباشرة ، ولهذا نجد فيها كثيرا من التفاصيل الدقيقة ، وقد نجد فيها تصويرا لروح العصر ، ولكن ذلك لا يعني ان تأخذ كتاباته قضية مسلمة ، لانه لا يستطيع دائما ان يحيط بمختلف جوانب الحدث ، وهو قد لا يستطيع ايضا ان يخلص نفسه من آفة التحيز والميل مع الهوى ، او عوامل الخوف من اصحاب السلطان وعوامل الرغبة فى المنفعة الذاتية .

ولهذا فنحن نستمد معلوماتنا عن الاحداث - اساسا - عن طريق غير مباشر بدراسة الآثار والمخلفات ، وهذه هي نقطة البدء عند المؤرخ ، وبعدها يمضي فى طريق شائك وطويل ومعقد حتى يصل الى الحقيقة التاريخية .

وأولى مراحل هذا الطريق هي دراسة الاصول وتعميقها وتحليلها ، وتلك هي العملية الصعبة التي نعبر عنها بعبارة « نقد الاصول » .

ودراسة الآثار المادية التي خلفها الانسان او الحدث ، كالعماير والتمائيل وغيرها ، تكون عادة ايسر من دراسة الآثار المدونة او المسجلة بالكتابة ، والسبب فى ذلك واضح تماما ، وهو ان العلاقة بين الآثار وأصحابها تكون دائما ماثلة امام المؤرخ . . . فهذا المعبد قد اقيم لاجراء الطقوس الدينية ، وهذا المنزل قد شيد للسكنى ، وتلك المقبرة قد اعدت للحياة الأخرى وهكذا .

اما الآثار المسجلة ، فامرها مختلف ، انها مجرد اثر عقلي ونفسي لكتابها ، او هي بعبارة اخرى تصوير لآثر الاحداث التاريخية فى ذهن هذا الكاتب متأثرة بنفسيته ومزاجه الشخصي ، وهنا ممكن الصعوبة ، فالانسان مخلوق معقد ، ولكل واحد منا مزاج خاص ولكل كاتب انطباع معين عن الحدث الواحد .

ولكي نصل نحن الى الحقيقة التاريخية من الاصل المكتوب ، لا بد ان نتعرف على مختلف العوامل التي دفعت الكاتب الى كتابته ، لا بد ان نتمثل شخصية الكاتب ، وان نضع انفسنا في بيئته وزمانه ، ووسط الظروف التي احاطت به .

هذه البداية في عملية نقد الاصل التاريخي ...

وفور وصول الاصل الى يد المؤرخ ينبغي عليه ان يتأكد أولا من كل ما جرى عليه من أحداث : أهو بنفس حالته يوم دون ؟ ألم تتآكل بعض اجزائه ، ألم تفقد بعض فقراته ، ألم تطمس بعض سطوره ؟ ألم تضاف اليه فقرات جديدة ؟ ... ذلك كله يعيننا على ترميم الاصل واعادته قبل البدء في نقده ، الى حالته الاولى ...

والنقد نوعان ، هما النقد الخارجي أو الظاهري ، وهدفه دراسة مدى الاصلية في المصادر ؛ والسبيل الى ذلك هو التثبت من صحة الاصل التاريخي ومعرفة نوع الورق المدون عليه الاصل ، واسلوب الخط الذي كتب به ، وكذلك معرفة المؤلف ، ومكان التدوين وزمانه .

ثم النقد الباطني أو الداخلي ، ويهدف الى الوقوف على حقيقة شخصية المؤلف بدراسة حالته النفسية والعقلية اثناء قيامه بالكتابة ، ومحاولة الكشف عن اهدافه من الكتابة ، وهل كان واثقا من صدق ما كتب ؟ وهل كانت لديه الادلة والبراهين الكافية التي تجعله واثقا من هذا الصدق ؟

والاساس الذي يبنى عليه النقد بنوعيه هو الشك فيما ورد في الاصل التاريخي ، ثم الدراسة الواعية المتعمقة لكل ما نقرأ فيه لاستخلاص الحقائق ، وتلك مهمة بالغة العسر ، لأن المرء بطبيعته يميل الى تصديق كل ما يصادف هوى في نفسه ، بينما يميل بنفس الدرجة الى تكذيب كل ما يصطدم برغباته وميوله ، ونحن لا نستطيع أمام هذه الحقيقة ان نأخذ كل ما يصادفنا من مدونات على أنه حقيقة خالصة ، لأن الناس يختلفون في ميولهم ونزعاتهم وأهوائهم وما يعتقدون من قيم .

والنتيجة التي لا شك فيها هي أن المؤرخ لن يستطيع ان يصل الى الحقيقة اذا لم يمارس عملية النقد في كل أصوله ، وقد يتطلب ذلك جهدا ووقتا طويلا ، ولكنه أمر لا مندوحة عنه ، وليس ثمة ما يحمل المؤرخ على العجلة ، ولهذا قلنا فيما سبق انه ينبغي على المؤرخ اذا أراد ان ينتهي الى بحث علمي دقيق ان يختار موضوعا محددا .

وأول خطوات النقد الخارجي هي التثبت من اصاله المصدر وصحته ، لأن التزييف والانتحال شائعان ، ودوافعهما قائمة وكثيرة ورغم ان عملية التزييف في المصادر والاصول قد غدت اليوم عسيرة .

وكثيرا ما زيفت الآثار المادية - ولا سيما الصغيرة - بهدف تحقيق كسب مادي ، وأغلب القائمين بهذه العمليات ممن يعملون في خدمة رجال الآثار اثناء عمليات التنقيب ، وكذلك اذ تحلت اصول عديدة ، وظل الاعتقاد قائما بانها حقيقية الى درست دراسة علمية دقيقة فتبت انها منتحلة .

وفي كتاب مصطلح التاريخ للاستاذ الدكتور **أسد رستم** (١٦) مثال للمعاناة التي لاقاها حين

(١٦) انظر أسد رستم - مصطلح التاريخ - ص ١٧ - ٢٧ .

كلف بفحص احدى الوثائق المكتوبة - وكانت عبارة عن رسالة من عهد محمد علي - للوقوف على مدى صحتها ، وكيف اضطر الى فحص نوع الورق الذي دونت عليه الوثيقة وفحص نوع المداد ، ومقارنتها بمثيلاتها من الوثائق في اماكن مختلفة ، ودراسة عادات المراسلة والاسلوب واللغة وتاريخ ومكان الكتابة واتفاق ما جاء بها مع الظروف التاريخية ، وذلك كله يبين لنا مدى الصعوبة التي يجب على المؤرخ ان يواجهها ويتغلب عليها ليصل الى الحقيقة .

فاذا اطمأن الباحث الى ان الاصل الذي بين يديه صحيح غير مزيف او منتحل ، فتلك كما ذكرنا هي الخطوة الاولى فقط ، ثم تأتي بعد ذلك خطوات اخرى لنقد الاصل بعد ان نبين لنا صدقه ، لأن صدق الاصل لا يعنى بالضرورة اهمية المعلومات التي وردت به .

لدينا اصول كاملة مستوفاة ، بمعنى انها تحمل اسم المؤلف ، ومكان تدوينها وزمانه ، ولكن اصولا اخرى تصلنا غير مستوفاة على هذا النحو ، الامر الذي ينقص دون شك من قيمتها التاريخية ...

ذلك لأن الباحث لا يستطيع ان يقدر فجرة الاصل الذي بين يديه دون ان يعرف صاحبه ، وبالتالي فانه لن يعرف مدى علاقته بالاحداث التي دونها ، فهل يا ترى شهدا بعينه ؟ ام انه سمعها تم دونها من روايات المشافهة التي وصلتته ؟ ومتى دونها ؟ اوقت وقوعها أم بعده ؟ وما هي المدة التي تفصل بين وقوع الحدث وتدوينه ؟ ثم اين تمت عملية التدوين ؟ افي مكان الاحداث أم في مكان آخر غير مسرحها ؟

وكل اولئك أمور بالغة الأهمية لا مفر من الوقوف عليها : فكيف ؟

ان صاحب المصدر هو الواسطة بيننا كمؤرخين وبين الحقيقة التاريخية التي نريد الوصول اليها ، فاذا كان رجلا متزنا وأهلا للثقة ، كانت المعلومات التي نستقيها منه اقرب الى الصحة وادعى للاطمئنان بصفة عامة ، والعكس صحيح .

من هنا تتضح اهمية الوقوف على اسم صاحب الاصل ، لأن القيمة العلمية للاصل ترتبط كل الارتباط بصاحبه ومدى فهمه للاحداث ، ومدى وقوفه على الظروف التي واكبتها ، والمعلومات التي يدونها أمير أو حاكم أو زعيم سياسي أو قائد عسكري تختلف اختلافا كبيرا عن تلك التي يدونها عن الحدث نفسه واحد من عامة الشعب ، فالأخير يكتب متحررا من كل قيد او التزام ، بينما يكتب الأول وهم مقيدون باغلال مناصبهم راغبين في تبرير تصرفاتهم ومواقفهم اذا كانوا ضالعين في الاحداث .

فاذا عجزنا عن معرفة صاحب الاصل والوقوف على أكبر قدر من المعلومات عن شخصيته ، فليس معنى ذلك ان نهمل الاصل ونستبعده ، فلعله الوحيد في بابيه ، وكم من معلومات استقينها من مصادر لا نعرف اصحابها ، وكم من اصل لا يعرف صاحبه .

ولبكن واضحا ان وجود اسم شخص على مصدر او اصل لا يعنى بالضرورة انه صاحبه او حتى صاحب بعضه ، ولذلك ينبغي أن نأخذ جانب الحذر ، ونمضي في البحث حتى نقف - قدر المستطاع - على كاتب الاصل الحقيقي بدراسة نوع الورق والخط والمداد واللغة والاسلوب والمصطلحات الواردة فيه ، ثم بدراسة المعلومات التي يحتويها دراسة متأنية واعية .

فاذا ضاع عبثا كل جهد بذله الباحث لمعرفة صاحب الأصل ، ووجد نفسه مضطرا الى الاحذ عنه ، فلا بد من أن يشير الى ذلك في بحثه، وحسبه اجتهاده الصادق في دراسة المعلومات الواردة في نطاق العصر .

وكثيرا ما يكون بعض الاصول والوئائق منقولة جزئيا أو كليا عن أصول وونائق سابقة ، وذلك يستدعي بذل الجهد لتعقب هذه وتلك حتى نصل قد المستطاع الى الأصل الأول .

كذلك قد يكون الأصل التاريخي من عمل أكثر من كاتب واحد ، نتيجة لما أدخل عليه من اضافات وتعليقات في كثير من المواضع ، فاذا طبع هذا الأصل بعد ذلك بما جد عليه من اضافات وتعليقات ، طبع كأنه من عمل كاتب واحد ، وهنا لا بد أيضا من الاجتهاد لكشف الحقيقة ، ولعلنا نعرض على الأصل المخطوط فنميز المتن عن الاضافات والتعليقات بسهولة نامة ، اما اذا لم نوفق في العثور عليه ولم نجد أمامنا الا المطبوع ، فليس هناك بد من دراسة اللغة ، والاسلوب لنرى هل هذه وتلك واحدة ، أم هناك اختلاف ، كذلك علينا ان نتبين ان كان الأصل سوده فكرة واحد وروح واحده أم أن هناك فجوات وتناقضات في سلسل الأفكار .

ونأبي بعد ذلك في عملية النقد الظاهري لمشكلة الرمن الذي دون فيه الأصل ، ومدى قربه أو بعده من الزمن الذي وقع فيه الأحداث المدونة . ولك مشكلة تختلف عن مشكلتني صدق الأصل ومعرفة صاحبه ، فقد يكون الأصل غير مزيف وغير منحل ، وقد يكون صاحبه معروفا تماما ومن الشهود لهم بتحري الدفة وبوخي الحقيقة والبعد عن الهوى ، ومع ذلك فان قيمة الأصل تتضاءل بسبب بعد زمن تدوينه عن الأحداث التي يتناولها ، ففي هذه الحالة سوف يعتمد صاحب الأصل على الروايات التي تحكي له، وحتى لو كان من معاصري الأحداث ومساهديها فان ذاكرته قد نخونه فلا نسعفه بدقائق ما وقع ، لان ذاكرة الانسان لا تعي كل شيء ، وهنا لن نستطيع الا أن يجمال ولا يفصل برغم رغبته الشديدة في قول الصدق واجتهاده في استرجاع الماضي .

ان صاحب الأصل يريحنا كل الراحة اذا هودون على أصله ناربخ تدوينه ، ولكن ماذا لو لم يفعل ؟ فعلينا نحن كباحثين أن نحاول تحديد هذا التاريخ تحديدا يكون أقرب ما يكون الى الواقع : فكيف ؟

في وسعنا بسهولة أن نضع حدين لبدء كتابة الأصل والانتهاه منها ، لأننا بعد دراسة محتوياته نستطيع أن نحدد التاريخ الذي لا يمكن أن تكون الأحداث قد وقعت بعده .

وهذا بطبيعة الحال لا يتأتى الا استنادا الى ثقافة واسعة والمأم شامل ودقيق بالعصر الذي سنأوله الأصل ، ومن البديهي ان الأصل التاريخي لا بدون الا بعد وقوع آخر حدث ذكر فيه ، غير اننا لا نعرف دائما متى حدث هذا التدوين، أبعد آخر حدث بزمن طويل أم بزمن قصير ؟ لكننا مع ذلك نستطيع أن نستعين بالصبر والاجتهاد لنحدد تاريخ التدوين تحديدا نسه مضبوط . فاذا كنا حبال أصل من الأصول ، ورأينا صاحبه يهتم اهتماما بالغا بابات كل الأحداث، كبيرها والصغير، ولا يهمل أبدا واحدا منها مهما صغر شأنه ، ثم رأينا أنه ينتهي عند حدث بعينه نعرف نحن من دراساتنا واطلاعاتنا الواسعة تاريخه المضبوط ، ثم عرفنا ان حدثا مماثلا في الأهمية والقيمة قد وقع بعد ذلك بشهر واحد مثلا ، ولكن صاحب الأصل لم يذكره من قرب أو بعيد ولو بمجرد

التلميح ، فاننا نستطيع عندئذ ان نحدد الشهر الذي انتهى فيه صاحب الأصل من كتابته تحديدا مضبوطا ، وهكذا بالنسبة لتاريخ البدء في التدوين .

وبعد ، فان عملية النقد الخارجى للأصول التاريخية عملية ساقية عسيرة نستنفد وقتا طويلا ونطلب قسما كبيرا من المثابرة ، ولكنها عملية ضرورية لا يمكن اغفالها بحال من الأحوال ، وهي السبيل الوحيد للانتهاء الى بحث تاريخى علمى .

ولنتفعل الآن الى النوع الثانى من انواع النقد ، واعنى به النقد الباطنى أو النقد الداخلى .

النقد الباطنى

وأول ما يقال فى هذا الصدد هو أن النقد الباطنى عملية تستهدف الوصول الى الحقيقة التاريخية من خلال الوثائق والأصول، ونحن نعرف أن الأصل التاريخى يصل اليه وقد مر بعدد من العمليات التى لا يوضحها لنا صاحبه، فهو لا يقول لنا كيف لاحظ الوقائع ، ولا كيف جمع معلوماته ، ولا كيف دونها ، وتلك كلها أمور تهمنا كل الأهمية ولا بد من الوقوف عليها .

والسبيل الى ذلك هو تحليل الوثيقة والنص التاريخى تحليلا دقيقا ، والتحليل هو أول عمليات النقد ، ولا يمكن أن يكون هناك نقد بدون تحليل .

ويمكن أن نقول أن عملية التحليل تمر بمرحلتين ، المرحلة الأولى نحاول فيها أن نتحقق من معنى الألفاظ وقصد الكاتب ، وذلك نسميه « النقد الباطنى الإيجابى » ، والمرحلة الثانية نحاول فيها أن نتبين مدى الصحة فى المعلومات المدونة بالنص ، عن طريق نمحيصه واستبعاد الزائف منه ، وذلك نسميه « النقد الباطنى السلبى » .

النقد الباطنى الإيجابى

وقارئ النص التاريخى أو الوثيقة الذى لا يهتم كثيرا بفهم محتوياته فهما عميقا يعرض نفسه للوقوع فى خطأ فاحش ، وقد يصور بعض هذه المحتويات وفق مزاجه الخاص ، ومن ثم يبعد - دون أن يشعر - عن الواقع التاريخى ، والسبب فى ذلك هو أن الباحث حين يقرأ النص قد يجد فيه بعض العبارات التى تتفق مع آراء مسبقة له فى الموضوع ، وهنا يجد نفسه تلقائيا ميالا الى استخراج هذه العبارات والتركيز عليها تركيزا شديدا حتى ليصبح آخر الأمر أمام نص جديد خيالى من وضعه هو ، وذلك أمر بالغ الخطورة .

ولقد يقوم الباحث ببخته وهو متبع بفكرة « معينة » من موضوع ما ، أو من اتجاه ما فى النواحي السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية أو الدينية ، وتسيطر عليه هذه الفكرة سيطره كاملة فإذا هو يدرس ويكتب تحت تأثيرها فبخرج بحثه ترجمة لهواه الشخصى ، لا ترجمة لما جاء فى النصوص والأصول ، لأنه يرفض تلقائيا كل ما يتعارض مع الفكرة التى تسلطت عليه ، والنتيجة أن الباحث قد يظن أنه يضع نفسه بجد للأصول بينما هو فى الحقيقة يخضعها لفكرته الخاصة .

هذا كله يبعد الباحث من الحقيقة التاريخية المنسودة ، ولذلك ينبغى عليه أن يتحرر تماما من كل رأى مسبق يكون قد كونه فى الموضوع، وأن يبدأ فى دراسة النصوص والأصول متحررا من كل هوى، وأن يحاول فهمها فهما عميقا يعتمد على ما فيها من عبارات ، دون أن يضيف شيئا من عنده أو

يحذف شيئاً موجوداً ، وهذا يصل بنا الى قاعدة عامة في منهج البحث التاريخي وهي ان دراسة الأصل ينبغي أن تبدأ بتحليل محتوياته للوصول الى المعنى الذي قصده صاحب الأصل نفسه .

ويحسن أن يجري الباحث تحليله في صفحات من حجم الفلسكاب يجعل لكل منها هامشين أحدهما يمين الصفحة والثاني يسارها وذلك بثني جانبيها تنيا متوازي على مسافة معقولة ، والا يكتب شيئاً في ظهر الصفحة ، وفي بحر الصفحة يكتب التحليل الذي يهتدى اليه وفي هامشها بدون ما يعن له من ملاحظات .

ويتضمن التحليل دئما النقاط الآتية :

- ١ - المعنى العام للويقة أو الأصل .
- ٢ - مجمل محتويات الوثيقة أو الأصل .
- ٣ - تفصيل هذه المحتويات .
- ٤ - وجهة نظر صاحب الأصل .
- ٥ - رأى الباحث وتعليقانه .

وللوصول الى هذه النقاط نمر بمرحلتين ، في الأولى نفسر ظاهر الأصل ونحدد معناه الحرفي ، وفي الثانية نصل الى معناه الحقيقي ونذكر هدف صاحبه .

ونلاحظ ان المرحلة الاولى عملية لفوية في جوهرها ، تتطلب من الباحث معرفة اللغة التي كتب بها النص ، وتستلزم الاخذ بالنص بمفرده أو بعباراته ، ونحدد معاني هذه وتلك بعيدا عن السياق العام ، وانما ينبغي ان يتم التفسير في نطاق هذا السياق .

اما المرحلة الثانية ، مرحلة الوصول الى هدف صاحب النص ، فالسبيل اليها هو قراءة ما بين السطور حين يضطر صاحب الأصل الى عدم الافصاح عما في ذهنه لسبب من الأسباب ، أو حين يتضمن النص عبارات تتطلب قسطا من المعانة لتفسيرها .

وحين ينتهي الباحث من ذلك كله ، تكون عملية البحث الباطني الايجابي قد تمت ، ويصبح الباحث على بينة من المعلومات التي أوردها صاحب الأصل ، ومن أفكاره الخاصة عن الموضوعات والأحداث التي تناولها .

النقد الباطني السلبي

رأينا النقد الباطني الايجابي لا يعطينا - كاحتين - المعلومات الضرورية عن الوقائع التاريخية في ذاتها ، انما فقط بمدى فهم صاحب الأصل ونصوره لتلك الأحداث ، حتى وان كان ممن شهدوا هذه الأحداث بانفسهم .

وفوق ذلك فلعل صاحب الأصل لم يدون كل ما عرفه أو اعتقده ، ولعله يكذب علينا لسبب أو لآخر ، أو - اذا نحن أحسنا الظن - لعله اعتقد غير الواقع من قبيل الخطأ .

من أجل ذلك كله كثيرا ما نجد الأصول التاريخية التي تحدثنا عن موضوع واحد ، تختلف بعضها اختلافا كبيرا .

وهذا يعزى الى وجوب قيام الباحث بتمحيص ما لديه من أصول تاريخية كى يستبعد منها الزائف او الكاذب حتى يصل الى الحقيقة ، فما السبيل الى ذلك ، ان التمسك فى الاقوال المتعارضة والمتضاربة ، والتسليم مقدما بإمكان وجود خطأ أو كذب فى الأصل ، هما السبيل الاول الى ما نريد .

والتمحيص الدقيق للأصول التاريخية هو النقد الباطني السلبي الذى يهدف الى تصفية المعلومات وغربلتها حتى نستخلص منها الصواب وحده ، وتلك فى حد ذاتها عملية شاقة عسيرة ، لعلها أتسق وأعسر من عملية النقد الباطني الايجابي .

والنقد الباطني السلبي يؤدى بنا الى قاعدتين هامتين :

القاعدة الاولى هى ان التثبت اليقيني من أية حقيقة تاريخية لا يمكن ان يستند الى الرواية التى يرويها صاحب الأصل ، بوصفه شاهد عيان أو بوصفه معاصرا ، وانما لا بد أن تتوفر لدى الباحث كل الأدلة التى تسلمه الى اليقين .

والقاعدة الثانية هى ان الأصل لا يجوز ان ينقد كوحدة عامة وبكثفي بذلك ، وانما لا بد من ان ينقد كل جزئياته وتفاصيله واحداثه المفردة .

ولا يجوز ابدا ان يخدعنا طابع الصدق الذى قد يبدو فى أصل من الأصول ، فنستند اليه ، ونثق فى صدقه ، لأن طابع الصدق فى بعض الأحيان قد يكون مظهرا خداعا من انسان اعتاد الكذب والتضليل والتلفيق ، فنفتقر بالمظهر الذى يخفى وراءه أهدافا هى أبعد ما تكون من الصدق والحقيقة .

ان مهمة النقد الباطني السلبي هى تمحيص الظروف التى واكبت سلسلة العمليات العقلية التى مر بها الأصل حتى دونه صاحبه ووصل الى الباحث ، ولا شك ان معرفتنا بصاحب الأصل نكتشف لنا عن بعض هذه الظروف ، لأن نشأة صاحب الأصل وبيئته وعاداته ومستواه ، كلها من الأمور التى نعيننا على الكشف عن دوافع الكذب أو الخطأ أو الخداع أو الصدق أو الصواب أو المصارحة عند هذا الكاتب أو ذاك من أصحاب الأصول التاريخية .

فواجبنا اذن ان نتثبت قدر المستطاع من صدق صاحب الأصل وعدالته ، وأن نتثبت من صدق المعلومات التى أوردها ومدى دقتها ، وهل أخطأ صاحب الأصل وخدع بشأنها أم لم يخطئ ولم يخدع (١٧) .

وهناك مسألة تتصل بموضوع النقد الداخلي السلبي اتصالا وثيقا ، وهى علاقة المرجع الثانوى بالأصل .

ان واجب المؤرخ هو الاعتماد أولا على الأصل أو الدليل الأولي ، ونعني بذلك ما قام عليه شاهد عيان ، لكنه قد يعجز ولا يجد هذا الأصل ، فماذا يفعل ؟ عليه ان يلجأ الى أفضل شاهد ثانوى

Langlois et Seignobos ; op.cit. pp. 166-167.

(١٧)

حيث يجد القارئ مجموعتين من الأسئلة يرى المؤلفان انه لا بد للباحث من ان يوجهها لنفسه وان يجيب عنها قدر طاقته ، وان يدرس فى ضوءهما الأصل التاريخي كوحدة كما يدرس كل حادث على حدة .

يكون في منناول يده ، وفي مثل هذه الحالة فان المؤرخ يضطر الى اعمال فكره وتأمله وهو يأخذ عن هذا الدليل الثانوى ، واذا كان عليه أن يصدر في بعض الأحيان احكاما ، فواجبه ان يتأني كثيرا ويتمهل كثيرا قبل اصدارها ، والا يصدرها اذا حصل على أكبر قدر ممكن من الأدلة المقنعة ، لأن اصدار الاحكام دون تثبت واقتناع نطوى على ظلم فادح للحقيقة .

وحسنا ان نذكر في هذا الصدد قول الله تعالى : «يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

اثبات الحقائق وترتيبها

تلك هي المرحلة قبل الأخيرة في منهج البحث التاريخي ، وهي مرحلة واسعة تتصل بعمل ساب كثيرة ، نحاول أن نوجزها فيما يلي :

ذكرنا عند حديثنا عن النقد أننا نصل عن طريق الممارسة الى المعلومات والآراء التي نريدها لبحثنا ، وهذه المعلومات قد تكون مطابقة للواقع وقد لا تكون .

واذا فان عملية النقد وحدها لا تكفي لإثبات الحقائق وانما هي خطوة في السبيل إليها ، فما هي الخطوات الأخرى التي ينبغي أن نتخذها لنصل الى نتائج محددة وحقائق ثابتة نخرج بها من دائرة الشك الى دائرة اليقين ؟

أول ما يقال في هذا الصدد أن يقوم الباحث بتصنيف النتائج التي أوصلته اليها عملية النقد ، بمعنى أن يجمع كل المعلومات التي لديه عن حادث واحد الى بعضها ، ثم يقارن بينها ويصل الى رأى نهائي فيها .

ولكننا أحيانا قد لا نجد غير رأى واحد في موضوع بعينه ، لأن هذا الموضوع لم يرد الا عن طريق راو واحد أو مؤرخ واحد ، وفي هذه الحالة ينبغي أن ننظر بعين الشك والحذر الى تلك الرواية المفردة ، التي يحسن الا نعلها حقيقة نهائية ، وحسبنا ان نستعين بها متسرين الى صاحبها لأنه هو وحده الذي يتحمل مسئوليتها .

أما اذا تعددت الروايات في حادث واحد ، وبما عارضت بصددها الأصول والمصادر ، فانه يتحتم على الباحث ان يتتبع بعض القواعد التي تعينه على الوصول الى الحقيقة التاريخية والخروج بها من بين هذه التناقضات ، ويمكن تلخيص هذه القواعد فيما يلي :

١ - لا يجوز للباحث أن يقوم بعملية توفيق بين الآراء المتعارضة ، وانما ينبغي السعي للكشف عن الصادق منها ، فاذا فشل في ذلك فيجب أن يعترف بفشله ولا بد من اثبات الآراء المتعارضة دون ترجيح واحد منها على الآخر .

٢ - اذا اتفقت الآراء في عدة أصول على رأى بعينه ، وشذ عن هذا الاتفاق رأى واحد مخالف ، فليس معنى ذلك أن الآراء المتفقة هي الأصوب ، وربما يكون العكس هو الصحيح ، والنقد وحده هو الذي يفصل في الأمر .

٣ - اذا أراد الباحث أن يرجح رأيا على آخر ، فعليه ان يلجأ الى عملية النقد ، فاذا عجز برغم ذلك ، فعليه ان يمتنع عن اصدار حكم قاطع ، وواجبه أن يستمر في البحث لعله يعثر على أدلة جديدة تنس له الطريق .

الإفادة من المصادر والمراجع

تدوين الملاحظات

الواقع أن المهمة التي بثقل كاهل المؤرخ الباحث في بحه هي نقل الملاحظات من المصادر والمراجع المختلفة ، ولهذا يحسن أن نعرف كيف ندون الملاحظات التي نستمدّها من مصادرنا ومراجعتنا ، ومتى ينبغي أن ندونها ومتى لا ندونها . . . أعني هل ندون الملاحظة حين يكون ذلك لازماً ، موجزه مختصرة ، أم ندونها وافية دون اختزال .

هنالك عدة اعتبارات عامة ينبغي أن نراعيها في هذا الصدد :

أولها : أن المادة التاريخية الواردة في مصدر من المصادر قد تكون من الطرافه بحيث تفرى الباحث على نقلها نقلاً كاملاً برغم عدم ارتباطها ارتباطاً وثيقاً بموضوع دراسته ، وهذا يؤدي إلى ضياع وقت ثمين يمكن أن نفيده منه في تدوين الملاحظات التي تصل بالموضوع اتصالاً مباشراً سواء أكانت طريقه أم غير طريقه . . . وإذا فلا مفر من أن يضع الباحث لنفسه مقاييس دقيقة بين له مدى ارتباط المادة المنقولة بالموضوع . أعني أن هذه المقاييس نعينه على اختيار ما يدون وما يدع من المصدر أو المرجع .

ثانيها : أنه ينبغي ألا ندون ملحوظات كاملة وافية لمعلومات عادية أو غير موفوف بها إلا إذا أردنا أن ننعدها ونبين وجه الفساد فيها ، وكذلك ينبغي ألا ندون ملاحظات عما يسهل تذكره . . . مع التحذير من أن المؤرخ - ولا سيما المبتدئ - كثيراً ما يحسن الظن في ذاكرته فيعتقد أن ذاكرته تعي الكثير ، ثم بهمل التدوين ، ولكنه لا يلبث بعد ذلك أن يكتشف أنه قد نسي الكثير ، ويبدأ من جديد في اتفاق ساعات طويلة لينذكر شيئاً هاماً جدياً بالنسبة له .

ثالثها : إذا أراد الباحث أن يدون ملاحظات أحد المصادر أو المراجع بحرفيتها ، أي بقتبسها اقتباساً كما هي ، فلا بد أن يضع ما اقتبس بين قوسين ، ومثل هذه الملاحظات ينبغي أن تدون في البطاقات بلفها ، ولا نترجم إلا عند تحرير البحث تحريراً نهائياً ، أعني حين تتوفر الوقت الكافي للترجمة الدقيقة ، ثم بردف الترجمة بكلمة (sic) اللاتينية التي تعني « هكذا في الأصل » وإذا أراد الباحث أن يسقط بعض الكلمات من الملحوظة المقتبسة ، فعليه أن يضع بضع نقاط محل كل كلمة ، وإذا كانت المادة المراد نقلها طويلة تمتد لبضع صفحات ، فلا بأس من استخدام التصوير بطريقه الميكرو فلم .

و حين يدون المؤرخ ملحوظة موجزه (لمجرد التذكير) فإنه يكفي بالإشارة إلى مصدرها دون نقلها حرفياً . . . وقد تكون هذه الملحوظة موجزة للغاية إذا كان المصدر أو المرجع ملكاً خاصاً للباحث ، أو إذا كان موجوداً بمكتبة يستطيع أن يتردد عليها كثيراً وبسهولة ، وأحسن وسيلة لهذا التدوين الموجز تتم على البطاقات ، فيثبت الباحث اسم المؤلف واسم الكتاب والصفحات التي تعنيه ، وما تضمنه هذه الصفحات ، وذلك كله فيما لا يزيد على سطرين أو ثلاثة . . . وذلك لأن الباحث مطمئن إلى وجود المصدر أو المرجع تحت يده حينما يريد .

أما إذا كان المصدر أو المرجع صعب المنال لنفاذ طبيعته أو عدم السماح باستعارته أو لوجوده في مكتبة نائية ، فيحسن أن يؤخذ منه الملاحظات مفصلة وافية .

وبالتجربة والمران ، ومع الأيام تتعلم الباحث للفائيا كيف يوفر على نفسه كثيرا من الجهد والوقت ، من ذلك مثلا أن يشير عند بدء تدوين الملاحظات أو عند الانتهاء من تدوينها الى سبب قيامه بالتدوين . . . وذلك خشية أن يتعذر عليه بعد ذلك تتبع نقطة من نقط بحته بدت له لأول وهلة أنها واضحة تماما ، ثم اذا هذا الوضع يزول بعد فترة من الزمن .

وكثيرا ما يحدث - حتى بالنسبة للمؤرخين المتمرسين - أن يواجه المرء شعورا بالخبط حين يجد بين يديه ملاحظات بذل كثيرا من الجهد والوقت في تدوينها ، ظنا منه أنها مفيدة لبحته ، ثم يتكشف الأمر عن عدم جدواها ، فبمسأل الباحث نفسه ، فيم اذن أضعب كل هذا الوقت والجهد ؟؟؟ ولو انه منذ البداية أنسار الى سبب التدوين لما داخله هذا الشعور المرير .

وهناك ملاحظات يدونها الباحث للاستفادة الشخصية ، وهذه لا يستقيها من مصادر وانما تأتيه عفوا ، فقد يحدث بعد عمل مجهود متصل ، وبعد أن يأوى الباحث الى فراشه ، أو حتى وهو على مكتبه ، أن يقترح على نفسه بعض الأسئلة أو الزيادات أو الفروض أو مقارنة مصدر بآخر ، أو يهبط عليه رأي لامع قد يتلاشى مع طلوع الشمس ، هذه كلها ينبغي أن يدونها فوراً على بطاقات ، وتكون منفصلة عن بعضها ، كي يضعها بعد ذلك في المكان المناسب بين الملاحظات التي استقاها من المصادر .

الملاحظات الخاصة بالمصادر

هناك نوعان من الملاحظات التي ندونها لتسجيل أسماء الكتب والمقالات التي تتصل بموضوع بحثنا . النوع الأول يتعلق بالكتب والمقالات التي سوف نرجع اليها مستقبلا ، أما الثاني فخاص بما فرغنا منه فعلا من الكتب والمقالات .

والأول نأخذه مستعينين بمختلف المصادر ، فنحن كلما قرأنا مصدرا أشار الى عناوين مصادر أخرى ومقالات كثيرة استقى منها معلوماته ، أو ناقش ما فيها من معلومات . . . وفي هذه الحالة نجد بين أيدينا المعلومات التي تمكننا كباحثين من تشخيص نقط البحث والتثبت منها ، ومن ثم فلا داعي لأخذ ملحوظة طويلة عن العنوان ، الذي ربما ثبت لنا بعد فحصه أن قيمته تافهه ضئيلة . . أما اذا نحن فحصنا المصدر أو المرجع أو المقال فحصا دقيقا وتبين لنا قيمته وفائدته ، فمن الأفضل ان ندون ملحوظة مطولة تتضمن كل المعلومات التي نحتاج اليها في كتابة هامش واضح ، أو في كتابة عرض تحليلي للمصدر .

وهذه الملاحظات سواء أكانت من النوع الأول أو من النوع الثاني لها أهميتها الكبرى حين نكتب الفصل الخاص بالمصادر والمراجع وترتيبها .

ويجب أن تكتب الملاحظات الخاصة بالمصادر على بطاقات مساحتها ٥ x ٣ سم ، لأن هذه البطاقات سهلة التداول ، ولأن الملحوظة المصدرية - أعني التي تتضمن اسم المصدر - لن تزيد عما تتسع له بطاقة بهذه المساحة ، ثم بعد ذلك نرتب هذه البطاقات ترتيبا أبجديا في ملف خاص ، ثم نضعها في صندوق مقاسه ٣ x ٥ سم أيضا ، وكلما انتهينا من دراسة أحد المصادر ، ننقل البطاقة من المجموعة الموضوعية في صندوق « مصادر للمراجعة » الى صندوق « مصادر روجعت فعلا » .

الملاحظات الخاصة بالمادة المنقولة من المصادر والمراجع

هذه لا تدون على بطاقات من النوع السابق، لأنها تكون صغيرة جدا وسميكة أيضا فضلا عن ثمنها الباهظ ، والأفضل أن نستخدم وريقات جيدة لا تشغل حيزا كبيرا ، ويمكن تداولها ونقلها من مكان الى آخر دون تعريضها للتلف . . . كذلك ينبغي أن تكون البطاقة هنا ذات اتساع معقول بحيث يمكن استخدامها في أية مكتبة يعكف فيها الباحث على بحثه .

وأفضل نوع هو المعتدل السمك بمساحة لا تزيد على ٨ × ٥ سم فمثل هذه البطاقة تكون عادة كافية لتدوين الملاحظة اذا ما استخدم وجهها .

ولا ينبغي أن نضع الملاحظة الواحدة في أكثر من بطاقة حتى لا نضطر الى استخدام المشابك والدبابيس المعدنية ، لأن هذه مزعجة حقا ، قد تمزق البطاقات وتسبب تشابكها في بعضها .

وينبغي أيضا أن ننظم البطاقات في صفوف ، وعليها السنة تكتب عليها العناوين .

والترتيب المفضل عادة هو الترتيب الزمني في المراحل المبكرة من البحث والاستقصاء ، ولا بأس من التزام هذا الترتيب اذا كان البحث سيخرج آخر الأمر في شكل متسلسل زمنيا .

هذا ولا شك أن الترتيب الزمني يسهل على الباحث مشكلة ضبط المصادر ومقارنتها ببعضها ، خصوصا حين تكون نفس الملاحظة متصلة بأكثر من مكان واحد في سياق البحث ، فمن اليسير عندئذ أن نضع الملاحظة تحت أول تاريخ يتصل بها ، ثم ضبط بعد ذلك في سياق البحث منسوبة دائما الى ذلك التاريخ .

ومما لا شك فيه أن مشكلة ضبط المصادر ومقارنتها تزداد صعوبة اذا رتبنا المصادر حسب الموضوع ، لأن الموضوعات دائما تتغير أثناء عملية البحث والاستقصاء ، مع أن الترتيب حسب الموضوعات يكون أجدى وأفضل اذا قررنا أن يخرج بحثنا في شكل جدلي .

والترتيب حسب الموضوعات يكون عادة تابعا للأشخاص الذين يتناولهم البحث أو الجماعات أو المجموعات البشرية . . . الخ ، ثم ان الموضوعات بدورها قد تأتي الى حد ما مرتبطة ارتباطا زمنيا ، وهذا الأمر يصدق بصفة خاصة حين تكون دراستنا متصلة بالتطور في مجتمع أو في منطقة لفترة زمنية محددة .

والمسألة آخر الأمر متروكة لاختيار صاحب البحث متعاوننا مع المشرف عليه اذا كان طالب دراسة عليا .

على أن الملاحظ أن الترتيب الموضوعي يعين صاحب البحث على التغلب على الصعوبات الزمنية (التاريخية) وعلى التكرار وعدم التماسك الذي يفقد البحث وحدته الموضوعية ويجعله أقرب الى مجموعة من الدراسات المتراصة .

تقييم الكتابة التاريخية

يجد المؤرخ نفسه في أوقات الأزمات القومية كتلك التي يمر بها العرب الآن ، أو في فترات التكليف التي تعقب الحروب ، يجد نفسه مدفوعا الى ادخال العاطفة كعنصر أساسي في قصة تقدم بلاده وأمجادها ، ولقد يتناسى الحقيقة جزئيا اذا دعت الضرورة القومية الى ذلك . . . والهدف من

ذلك هو عادة تنتسئ مواطنين مخلصين اذا كانت قصة تاريخ الوطن من الفصص التي يستطيع المواطن أن يفخر بها ... وهذه نزعة يؤيدها ويشجعها الدكتاتوريون والسطحيون من رجال السياسة في البلاد الديمقراطية ، لأنهم ينظرون الى التاريخ لا بوصفه نوعا من أنواع المعرفة لها منهجها الخاص ، بل على أنه وسيلة لاذكاء الروح الوطنية واشعال الحماس القومي .

ولهذا ينبغي دائما أن تظل الوطنية - كمعيار لتقدير الكتابات التاريخية - موضع شك القارئ الناقد .

ولما كانت هناك طرق مختلفة لعرض الحقائق التاريخية ، فان الحقيقة لا تظل وحدها أساس حكمنا على الكتابة التاريخية ، وانما يشترك معها - كمعيار لهذا الحكم - عامل آخر هو ما تنطوى عليه هذه الكتابة من فلسفة نابعة من بصيرة الكاتب ، ذلك أن المؤرخ لا يستطيع أن يتجنب فلسفة ما في كتابته ، ومن الخير أن يتبنى تلك الفلسفة بصراحة تامة ... يجب عليه أن يفصح عن ذاته خلال تلك الفلسفة ، فيبين ما اذا كان رجلا مثاليا أو ماديا ، محافظا أو حرا ، شكاكيا أو مؤمنا ، الى غير ذلك من الاقيسة والمبادئ ، والواقع أن المؤرخ الذي ليست لديه مبادئ فلسفية أو أخلاقية لا تكون لديه أسس بقيس بها التغيير أو الاستمرار ، ومن ثم يعجز عن الحكم على عمليات التطور أو الظهور أو السقوط أو النمو أو الانحلال ... وبدون مثل هذه الأحكام يتعذر جوهر التاريخ .

ونحن نلاحظ أن المؤرخين القدامى والمحدثين على السواء قد تبناوا لأنفسهم فلسفات معينة ، فقد كتب **ثوكيديديس** و**تاكيتوس** و**قولتير وجييون وماكولي** من أجل هدف محدد، وبمقاييس محددة للأحكام ، ونحن لا نستطيع أن نقدر قيمة مقاييسهم الا اذا كانت لنا مقاييسنا الخاصة بنا ... ان المؤرخ منا يحتاج دون شك الى بعض القواعد الفلسفية والأخلاقية لا ليضع تاريخا وحسب ، وانما أيضا ليستطيع أن يحكم في فطنة وذكاء على كتابات غيره من المؤرخين .

ومسألة أخرى في تقييم الكتابة التاريخية ، وأعني بها الأسلوب الأدبي ، فلا بد للمؤرخ من أن يخرج كتابته في أسلوب أدبي ممتاز ، ذلك لأن بلادة الأسلوب وانعدام الطلاوة فيه ، قد تؤدي الى الوقوع في الخطأ وتشويه المضمون التاريخي المستهدف .

والمؤرخ الذي يكتب تاريخا لا يلد للقارئ ، يعتبر مؤرخا رديئا باعثا على الملل ، وهو مسئول دون شك عن عمليات بحث الماضي في اطاره وجوه الذي اكتنفه ، واذا فشل في ذلك فانه يعتبر مؤرخا فاشلا مضجرا وباعثا على الملل بل وعلى كراهية التاريخ .

ومع ذلك فنحن نعترف بأن التزام الدقة التاريخية واتباع قوانين المنهج التاريخي قد يحدان كثيرا من سيولة القلم الموهوب ... ولكن نقاد الأساليب التي يتبعها المؤرخ الأكاديمي يدركون ذلك ، ولا ينتظرون منه أن يكتب كما يكتب الأدباء المحترفون ، وكل ما يطلبونه منه هو أن يكتب ببساطة في أسلوب سهل ممتنع متجنباً الشرود والابهام بالمعرفة .

ومشكلة الأسلوب آخر الأمر يمكن أن تحل - ولو جزئيا - بشيء من التعاون ، فبوسع المؤرخ بعد أن يفرغ من كتابة بحثه معتمدا على المادة التي استقاها من مصادرها ، بوسعه أن يدفع بهذا البحث الى زميل أو صديق يتمتع بأسلوب أدبي رفيع ليعيد له صياغة ما كتب ، ولا عيب في ذلك على الإطلاق ، شريطة الا يكون هذا الأديب ممن يؤثر في الأسلوب الجذاب على الحقيقة التاريخية .

الهوامش

للهوامش فائدة كبرى في الكتابة التاريخية، ولعلها أداة الحكم على أصالة هذه الكتابة وجدواها، ولهذا يعتبر المؤرخ الذى يهملها أو يتخلى عنها تماما فى أى مؤلف يضعه، كأنما تخلى عن أهم وسيلة يستطيع بها غيره أن يفحص ما وصل إليه من نتائج، والملاحظة الهامشية هى التى تهىء للقارئ فرصة الاستدلال على صدق المؤلف، كما تهىء له فى نفس الوقت فرصة الحصول على مزيد من المعلومات التى قد تستهويه أو تهمه أهمية مباشرة.

وأهم سبب يدعو المؤرخ الى التهميش فى كتابته أو حين عرضه لنص من النصوص، هو الإشارة الى النصوص التى استمد منها هذه العبارة أو تلك، وهكذا تصبح الملاحظة الهامشية شاهدا على الكاتب، ومن الخير أن تكون فى هذه الحالة موجزة... فإذا كان هناك تضارب فى المصادر التى يستعين بها المؤرخ فإنه يجد نفسه مضطرا الى الاطالة فى الملاحظة الهامشية، حيث يشير فيها الى مختلف الآراء، ويحاول أن يحسم مادة الخلاف برأى من عنده.

وأحيانا تكون الملاحظة الهامشية متضمنة لاقتباسات حرفية توضع بين أقواس، وتلك طريقة مفيدة جدا للقارئ المهتم الذى يستطيع حينذاك أن يقارن بين ما جاء فى عدة مصادر دون الرجوع الى هذه المصادر ذاتها.

على أننا نحذر فى هذا الصدد من التعسف والتحذلق عند تدوين الملاحظات الهامشية، كتلك التى يريد المؤلف من وراءها أن يبين للناس وفرة مصادره، وسعة اطلاعه باللغات الأجنبية، أو تلك التى يحشرها حشرا نتيجة لمعلومات جديدة صادفته بعد أن فرغ من كتابة بحثه ولم يعد قادرا على ادماجها فى المتن ادماجا سلسا.

وينبغى أيضا أن ننبه الى وجوب اتباع الاختصارات العالمية التى يستخدمها الكتاب فى كل أنحاء الأرض مع ملاحظة أن يدون اسم المصدر أو المرجع بالأحرف المائلة، والا فيمد من تحته خطأ، وبالنسبة لأسماء المجلات العلمية ينبغى اتباع الاختصارات الدولية أيضا. وهذه الاختصارات مدونة فى معظم المراجع. وتكتب الهوامش فى أسفل الصفحات أو فى نهاية الفصل أو فى نهاية الكتاب، والطريقة السليمة هي أن يكتب أولا اسم المؤلف (اللقب أولا ثم الاسم الأول (أو الحرف الأول منه) ثم بعد ذلك اسم الكتاب بحروف مائلة، ثم رقم المجلد إذا كان الكتاب متعدد المجلدات، ثم رقم الصفحة أو الصفحات.

وحيث يكون الكتاب نادر الوجود، فيحسن ذكر مكان وجوده ورقمه، وكذلك إذا كان المصدر الذى اعتمد عليه الباحث وثيقة مخطوطة، فينبغى ذكر الأرشفة أو المكتبة التى توجد بها هذه الوثيقة ورقم المجلد ورقم الملف ورقم الورقة أو الصفحة وتاريخ الوثيقة ومكان تدوينها وعمن صدرت وإلى من أرسلت، وبيان ما إذا كانت ورقة رسمية أو غير رسمية أو مسودة.

وحيث نورد فى الهامش نصا مقتبسا فينبغى كما ذكرنا أن نضعه بين قوسين، ولا بد أيضا أن نورده بلفظه الأصلية دون ترجمة، لأن هذه قد تغير المعنى.

وأحيانا يرى الباحث أن يكون الهامش مكان مناقشة أو نقد نص من النصوص ، أو نقد رأى عدة مؤلفين في موضوع ما ، أو التوفيق بين عدة آراء متناقضة في حادث معا . . . ولا بأس من ذلك كله على أن يورد الباحث في المتن ذاته الرأى الذى يرجحه هو مع الأدلة التى استند إليها في هذا الترجيح ، ثم يقتصر في الهامش على عرض الآراء المتناقضة وأدائها ، ويناقشها بعد ذلك .

على أننا نقول أنه ليس هناك رأى قاطع أو اصطلاح عام فيما يجب أن يكون مكانه الهامش وما يجب أن يكون مكانه المتن ، والمسألة في النهاية متروكة لتقدير الباحث نفسه .

الملاحق

بعد ذلك تأتى ملاحق البحث ، وهى التى يقدم فيها الباحث بعض الأصول التى اعتمد عليها أو مختارات منها ، وهى عادة مراسلات سياسية من سفراء لحكوماتهم وبالعكس ، أو معاهدات مختلفة الطابع ، أو وصف لتساهد عيان عن حادث معين .

ومن الخير نتر هذه الأصول بلغاتها الأصلية مع شرح الفاظها الغريبة ونصحح ما قد يكون بها من اخطاء مع التعليق اللازم .

وفى النهاية يتبث الباحث أسماء الأصول والمراجع التى اعتمد عليها ، وقد يعقد لها فصلا كاملا يناقش فيه كل مرجع ومصدر مناقشة معقولة ، وينبغى أن تكون هذه وتلك مرتبة ترتيبا أبجديا حسب اسم أصحابها ، ومن الواجب أيضا تصنيفها وفق القاعدة المتبعة ، فأولا المصادر بأنواعها ثم المراجع ثم الدوريات ، وينتهى الحديث عن كل مصدر ومرجع ببيان عن مكانه ورقمه وتاريخه وعدد مجلداته . . . ولا يخفى أن هذا الجزء من البحث يعتبر جوهريا وأساسيا ، فهو دليل على الجهد الذى بذله الباحث ، كما أنه يعين الباحثين من بعده .

مشكلة التعليق

يحاول المؤرخ دائما معرفة الأسباب والدوافع التى أدت الى الحقائق التاريخية ، أعني أنه يحاول أن يرد كل معلول الى علته ، وهذه العملية بالذات هى التى نضفى على الدراسات التاريخية كثيرا من المتعة ، وبسط الحقيقة مجردة لا يمكن أن يكفى الفارئ ويقنعه ، وإنما الذى يقنعه أن يجد سبب هذه الحقيقة مبسوطا أمامه فى وضوح ، فيعرف مثلا لماذا ازدهرت أمة من الأمم ولماذا انحلت ودمهورت ، ولماذا نفوق حضارة من الحضارات ثم لماذا هبطت وسقطت ، ولماذا كسب أحد القادة معركة من المعارك ثم لماذا خسر معركة أخرى وهكذا .

وقد ذكرنا أن بعض المؤرخين يحاولون إرجاع سبب كل حدث من الأحداث التاريخية الى الإرادة الإلهية ، الإرادة العلوية التى تسيطر على كل شيء وتوجه كل شيء نحو هدف محدد لا يدركه البشر ، وذلك تسليم بالالهيات يخرج عن دائرة البحث العلمى المرتجى من المؤرخين كما أوضحنا من قبل .

وثمة فريق آخر يحاول أن يرد الأحداث الى علل عقلية أو كما يقول الفلاسفة الى أصل

ميثافيزيقي ، ويمثل هذا الاتجاه الفيلسوف الألماني هيجل (١٨) وتلامذته الذين كان مومسن (١٩) وميشليه (٢٠) من أبرزهم ، وخلاصة رأيهم في التعليل أن كل حادث تاريخي هو في نفس الوقت حادث عقلي ، يقع وفقا لمنطق عام ثابت ، وأن لكل حادث مبرراته ودوره في تقدم المجتمع البشرى ... فملا النظم بأشكالها حادث عقلي وجد لفائدة المجتمع وتلبية حاجاته ، ولو لم تكن هناك تلك النظم ، لما تمت المجتمعات ولا تطورت .

ولكننا لا نستطيع أن نخرج من هذا المذهب في التعليل بفاعدة ثابتة ، لأن حوادث التاريخ لم تقع دائما بطريقة عقلية منطقية ، ولم تكن دائما محققة لفائدة المجتمع البشرى .

وتطبيقا لهذا المذهب ، نشر ميشليه - في فرنسا - النظرية الهيجلية المعروفة بنظرية « الصور » ، والتي عرفت في ألمانيا باسم « الرسالة التاريخية » للأفراد والمجتمعات ، وخلاصتها أن المجتمع في تقدم مطرد بفضل أدوار متتابعة يقوم بها الأفراد والجماعات ، لكن هذه النظرية لا تطابق الواقع تماما ، فالمجتمع البشرى في تفيروتطور وتحول مستمر بصورة عامة ، لكن ذلك لا يؤدي دائما الى التقدم ، فأحيانا بل كثيرا تأتي فترات انحلال وهبوط بعد فترات التقدم والازدهار ، وبالتالي فنحن لا نستطيع تطبيقا لهذه النظرية الهيجلية - أن نخرج بأسباب ثابتة تؤدي حتما الى نتائج معينة .

وفريق آخر من المؤرخين حاول أن يعرف أسباب الأحداث التاريخية عن طريق مقارنة مجموعات من الحقائق ، بهدف الوقوف على نوع الحوادث التي تقع في وقت واحد ، في أماكن متباينة ، فيدرس الباحث مثلا جانبا من تاريخ النظم أو تاريخ العقائد ، ثم يقارن بين أوجه تطورها في عدة مجتمعات لكي يحدد اتجاه تطورها العام بقصد معرفة السبب المشترك الذي أدى الى ذلك التطور ... وكانت نتيجة هذا المذهب أن ظهرت أنواع من الدراسات التاريخية المقارنة كدراسة فقه اللغة المقارن ، والقانون المقارن والنظم المقارنة ... الخ ، وهذه الطريقة بدورها لا تؤدي دائما الى معرفة الأسباب الحقيقية للحوادث لأنها قد تنطبق على حالات مفردة ، أو قد تتشابه ظاهريا ، خصوصا وأن الحالات لا يمكن أن تتشابه تشابها مطلقا ، ولا بد من تفاوت واختلاف ولو قليل ... كذلك قد لا يستطيع الباحث أن يحيط بكل الظروف التي اكتنفت الاحداث موضع المقارنة .

(١٨) George Wilhelm Freidrich Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) فيلسوف الماني ، ولد في شتوتجارت ، وكان من انصار حرية الفكر ، درس المسيحية الاولى وذهب الى ان المسيح ابن لريم ويوسف النجار ... اشتغل بالتدريس في كثير من جامعات المانيا ومن أهم مؤلفاته « اصول القانون وفلسفة الدين وعلم المنطق وفلسفة التاريخ » ورايه ان التاريخ هو تاريخ الفكر الانساني ، وقد قسمه الى مراحل ثلاثة : الشرقية والكلاسيكية والجرمانية ، ولكل مرحلة رسالة تؤديها .

(١٩) Theodor Mommsen (١٨١٧ - ١٩٠٣) مؤرخ الماني ، ولد في شلزويج ، درس في المانيا وايطاليا ، ومارس التعليم في ليبزج ثم رحل من المانيا لانه كان من مؤيدي الملكية ، عاش فترة في سويسرا ثم عاد الى برلين ، ومن أهم آثاره - تاريخ روما والقانون الدستوري الروماني - امتاز بدقة كبيرة في البحث والاستنتاج وفي تتبع آثار الفكر الانساني على الحياة السياسية والاجتماعية ، حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٠٢ .

(٢٠) جول ميشليه Jules Michlet (١٧٩٨ - ١٨٧٤) مؤرخ فرنسي ، كان استاذا للتاريخ في الكوليج دي فرانس ، ألف تاريخ الثورة الفرنسية ، ولم يكن محايدا في كتابته ، وقد كانت آراؤه الحرة المتطرفة سببا في تعطيل محاضراته بعض الوقت .

وقد يستطيع الباحث أن يصل الى ما يمكن اعتباره قوانين تجريبية تفع بمقتضاها حوادث متتابعة ؛ بيد أن هذه القوانين لا تفسر دائماً سبب وقوع هذه الحوادث نفسياً مقنعاً صحيحاً ... ذلك أننا نعرف أن الأحداث التاريخية هي آخر الأمر أحداث إنسانية ، ومن ثم فإنه في حقائق التاريخ - بعكس حقائق العلوم الطبيعية - قد تتضافر عدة أسباب للوصول الى نتيجة ما ... لكن نفس هذه الأسباب قد لا تؤدي الى نفس النتيجة في ظروف أخرى ... كذلك فإن سبباً ما قد يؤدي الى نتيجة ما في مكان ما ثم يؤدي هو بعينه الى نتيجة أخرى في مكان آخر ، والسبب في ذلك كله هو تدخل العامل البشري .

ولقد يضع الباحث فروضاً يراها متمشية مع الحقائق التي نعرض له في سياق التاريخ ، ثم يحاول أن يعمل هذه الفروض واحداً بعد الآخر حتى يصل الى النتيجة التي ترضيه وتقنع قارئه ، لكن ينبغي هنا أن يتعد بنفسه عن الالتزام بنظرية محددة ، ويقوم بعملية التعليل على أساسها ، كما يفعل أحياناً بعض المتحمسين لفكرة سياسية بعينها أو لمذهب اقتصادي أو ديني معين ، وبالتالي فإنه يصل الى علل لا تعبر عن الأسباب الفعلية للحقائق وإنما تعبر عن لون تفكيره هو .

ومهما يكن من أمر فإن أسباب بعض الأحداث التاريخية تكون واضحة لنا في بعض الأحيان وضوحاً كاملاً أو جزئياً ، اذ نجدها على هذا النحو أو ذاك في المصادر التي بين أيدينا ، لكن ينبغي أن ندرك أن الوصول الى الأسباب ليس دائماً يسيراً سهلاً ، بل أنه أحياناً يكون عسيراً قريباً من المستحيل بسبب اختلاط الروايات واضطراب الأصول .

إننا آخر الأمر نجتهد ، وحسبنا هذا ، ولا يتوقع أحد من المؤرخ أن يدرك أسرار الوجود كافة ...

الاستدلال والتاريخ

التاريخ دراسة تقوم أولاً وقبل كل شيء على الاستدلال ، فما معنى هذه العبارة ؟

الواقع أن التاريخ كغيره من الدراسات العلمية لا يستطيع أصحابه ادعاء صدق ما يكتبون إلا إذا استطاعوا تبرير ذلك ...

ولا يمكن أن يعتبر المرء مؤرخاً إلا إذا أدرك تماماً ما يمكن أن تتمخض عنه المادة التاريخية المطروحة أمامه من براهين وأدلة تفسر الأحداث التاريخية ... فلو فرضنا أن إنساناً استطاع أن يحصل على هذا الإدراك نفسه عن طريق الذاكرة مثلاً ... فإن هذا الإدراك أو هذه المعرفة ليست من قبيل المعرفة التاريخية ، لأنها لم تأت عن طريق الاستدلال من مادة تاريخية اعتمد عليها ... وهذا الطريق هو وحده الطريق العلمي ، فلو قلت مثلاً أنني رأيت فلاناً منذ أسبوع على ما أذكر ، فتلك عبارة غير تاريخية ؛ ولكن لو أضفت إليها قولني « وذاكرتي في هذا لا تخونني ولا تخدعني لأنني تسلمت منه هذه الرسالة التي كتبها أممي » كان ذلك بمثابة دليل استندت إليه لاثبات صدق عبارتي الأولى التي قلتها عن الماضي ... وهنا تصبح العبارة تاريخية لأنها تعتمد على الاستدلال ، ولأنها كتبت أو قلت تبعاً لسلوب أو لمنهج البحث العلمي . فالاستدلال إذن هو الأساس في صياغة التاريخ والاعتماد عليه هو الذي يعطي الباحث صفة المؤرخ .

فما هي أنواع الاستدلال ؟

الواقع أن الصلة التي تربط بين المعرفة وبين الاسس التي تستند اليها ، تختلف باختلاف فروع هذه المعرفة ... والمناطق الاغريق هم أول من صنف لنا انواع الاستدلال ، وعلى رأسهم الفيلسوف ارسطو ... لكن التقدم الذي احرزوه في هذا الميدان كان منحصرًا في العلوم الرياضية ، فلما بدأت العلوم الطبيعية الجديدة - التي تقوم على الملاحظة والتجربة - تتطور منذ اواخر العصور الوسطى ، نشأ بدرجتها منطق جديد للاستدلال ، يقوم على تحليل الطريقة المتبعة في دراسة تلك العلوم الطبيعية الجديدة .

وهناك على كل حال نوعان من الاستدلال - الاستدلال الاستنباطي ، والاستدلال الاستقرائي . أما الأول فهو المتبع في علوم الرياضيات البحتة ، وهو نوع من الجبرية المنطقية التي تلزم الشخص الذي يضع بعض الافتراضات العلمية أن ينتهي منها الى افتراضات أخرى ما دام قد التزم بالأولى ... والذي يضع هذه الاقتراحات يتمتع بحرية الاختيار بين اتجاهين : أولهما أنه لا يلتزم بمقدمة معينة أو افتراض علمي معين يبدأ به ، وثانيهما أنه إذا التزم بمقدمة معينة فهو لا يزال حراً في عدم الاسترسال في التفكير . أما الذي لا يستطيع أن يفعل فهو أن يأتي بمقدمة الاستدلال ثم يسرسل في التفكير حتى ينتهي الى نتيجة لا تتفق مع ما يجب أن ينتهي اليه القياس من نتيجة علمية .

أما الاستدلال الاستقرائي فليس فيه هذا الاجبار أو تلك الجبرية المنطقية ، لأن جوهر عملية الاستقراء هو أننا نجمع الظواهر التي تهاونناها الى بعضها ، ثم ننتهي منها الى نتيجة معينة ، وبالتالي نستطيع أن نطبق هذه النتيجة في آفاق غير محدودة .

أي أننا هنا وكما يقول المنطقة ننقل من المعروف الى غير المعروف أو من الجزئيات الى الكليات .

هذا هو التفكير الاستقرائي ، وجوهره أننا نستطرد فيه بحكم الضرورة المنطقية ، ونحن حين نمارسه نكون أحراراً من وجهة النظر المنطقية .

والخطوة الأولى في النوعين ، الاستنباطي والاستقرائي ، متى كنا بصدد موضوع نريد التدليل على صحته وصدقه ، هي ما اصطلح على تسميته « بالمقدمات » ، والذي يحدث في الحالين هو أن المقدمات نثبت صحة النتائج .

لكن هناك نقطة خلاف جوهرية ، هي أننا نجد المقدمات في علوم المنطق والرياضة البحتة نفرض النتيجة فرضاً بحيث تبدو شيئاً لا محبص عنه ، بينما نجده في العلوم الطبيعية التي تقوم على الملاحظة والتجربة ، تبرر هذه النتيجة فقط دون أن تفرضها فرضاً ، أي أنها تخول الإنسان حق الاعتقاد في صدقها متى أراد ذلك دون أن تكون ضرورية من وجهة المنطقية ... كل ما في الأمر أنها نتيجة مستساغة يمكن الأخذ بها .

وهنا في هذا المجال حديث ينبغي أن يقال عما يسميه المؤرخون « الشهادة » .

فالتاريخ كبقية الدراسات العلمية ، دراسته مستقلة ، بمعنى أن المؤرخ ملزم أن يفكر في الحل الصحيح لكل مشكله تعترضه عن طريق ابحاه العلمية استنادا الى منهج البحث الذي يلتزم به ، ولا يجوز له ان يسمح لأى انسان آخر ان يحمل عنه عبء هذا التفكير مهما كان هذا الانسان ... مؤرخا شهيراً حاذقاً أو شاهد عيان أو ثقة من الثقات ولو فعل ذلك لانتفت عنه صفة المؤرخ ، وقيام الغير بهذا التفكير ، نم قبول المؤرخ المضطلع بالبحث له ، معناه قبول شهادة الغير ...

وليس معنى ذلك ان نهمل شهادات الغير اطلاقاً ، انما الذى نريد تأكيده هو ان قبول هذه الشهادة مشروط بأن تكون مدعومة بأسس تستند اليها وتفوم عليها ، اعني أن الشهادة لا تقبل من كائن أيا كان الا اذا استندت الى دليل .

التحرير أو العرض

تلك هي المرحلة الاخيرة من المنهج التاريخي، وأول ما يقال فيها أنه ينبغي على المؤرخ الذى يهمله رد الفعل لدى قرائه ان يتجنب افتراض معرفة واسعة لدى هؤلاء القراء ، وهذه مسألة هامة على وجه التخصيص بالنسبة للمبتدئين فى التحرير ، ذلك انهم يتصورون عادة ان قارئهم هو فى الغالب استاذ على قدر كبير من المعرفة بموضوعهم ... وهنا ينبغي على الأستاذ المشرف ان يذكر تلميذه دائماً بالقارئ العادى .

وينبغي على المؤرخ الا يذكر اسم عليم دون أن يقدمه فى اطار معقول من التعريف دون محاولة الاستعلاء على القارئ ، أعني دون محاولة التحذلق .

كذلك لا يجوز للمؤرخ المبتدىء ان يعتمد الى الاقتباس الطويل او الاقتباس الذى تكرر كثيراً ، ومن الخير اذا لم يكن هنالك بد من الاستشهاد بنص طويل ، أن يفرد له ملحقا فى آخر البحث ، حيث يستطيع صاحب البحث أن يقدم للنص ببضعة أسطر توضح قيمته .

ولا بد ان يذكر المؤرخ المبتدىء أيضاً أن الأساليب البيانية المصطنعة لا تساعد على تحسين أسلوبه ، وبحسبه ان يحاول جعل أسلوبه حيا .

وقبل ان يبدأ الطالب المؤرخ فى كتابته ، يجب عليه ان يخطط المقالة او الفصل ، ليعرف بدايته ونهايته ، وما سوف يقول بين البداية والنهاية ... بعد القيام بهذا التخطيط يبدأ الباحث فى الكتابة مستعيناً بما لديه من ملحوظات دونها فى بطاقاته ، ومن كتب ومجلات علمية مما ينبغي ان يكون دائماً تحت يده .

وبهذا الأسلوب العلمي ينتهي من المسودة الأولى لبحثه ، والتي قد تبدو وكأنها ملحوظات موضوعية ومصفوفة كقوالب الطابوق ، لا حياة فيها ، ولقد يكتشف الكاتب ان فكرته من أساسها كانت خاطئة ، وان النتائج (التي وصل اليها) لا تنبع من حوادثه ... وهنا ينبغي عليه أن يبدأ الكتابة من جديد .

وبعد ذلك يعيد الباحث قراءة مسودته الأولى ليضيف اليها ما قد أفلت أثناء التسويد من المعلومات .. وفى هذه المرحلة - مرحلة القراءة الثانية - يحسن البدء فى تنظيم الهوامش .

وتأتى الخطوة التالية وهي كتابة المسودة الثانية ، وفيها نكون المادة قد استكملت ، والحواسي قد دونت ، ولكن تعوزها سلاسة الأسلوب وحسن الانتقال من نقطة الى أخرى ، والتنظيم بوجه عام ... وربما يبدو فيها بعض التكرار ، ومن ثم يبدأ الباحث في قراءة هذه المسودة لتنقيتها من تلك المتالب والعيوب ، فيصقل الفقرات ويسلسل الأفكار ، وينتقل من مكان الى مكان ما يقتضي الأمر نقله من عبارات وجمل ، ويحذف ما يراه زائدا من مجازات ومرادفات ، ولا بأس بعد ذلك كله من اعادة النظر في عنوان البحث .

ويأتي بعد ذلك دور المسودة الثالثة التي لا بد أن تكون على أحسن حال يمكن أن يصل اليه المؤلف الباحث ... وهذه هي التي نقدم للمطبعة .

ولا يغيب عن البال أن كثيرا من الأبحاث يخرج سيئا بسبب عدم التروى ... أعنى بسبب السرعة الكبيرة في كتابة المسودات وفي قلة هذه المسودات نفسها ... وهذه مساوئ يقع فيها المبتدئون بصفة خاصة ، لأنهم يتوقون بشوق منقطع النظر الى رؤية أول بحث مطبوع لهم ، ولا ينبغي أن ننسى أبدا أن الأشياء الصغيرة هي التي تصنع الكمال ، وإن الكمال نفسه ليس بالشئ الصغير .

بعد هذا الإيجاز الشديد الذي التزمناه في الحديث عن التحرير ، أعنى عن انشاء الصيغة التاريخية ، يحسن أن نتناول بعض نقاط بعينها بشيء من التفصيل :

فحقائق التاريخ متنوعة ومعقدة ولا يمكن أن نعرضها عرضا مركزا كالحقائق الكيميائية أو الفيزائية ، وإنما نحن في حاجة الى أسلوب وصفي نعبر به عن هذه الحقائق وظواهرها المختلفة .

والقاعدة الأولى في هذا الصدد أن تكون الصيغة التاريخية مختصرة ، وفي نفس الوقت دقيقة ... ولكن الاختصار قد يتعارض أحيانا مع الدقة ، أعنى أن الاختصار حين نلتزمه كقاعدة في الكتابة التاريخية قد يسبب عدم فهم المراد ... فهل لنجأ في هذه الحالة الى التطويل ؟ ان التطويل قد يسبب الانتقاص من قيمة الحقائق التاريخية اذ يفرض على القارئ ما هو في غنى عنه ، وما هو غير ضروري .

ولهذا فان الطريقة المثلى هي اتباع طريق وسط بين الإيجاز والتطويل ، فنضبط الحقائق أولا ، ثم نحذف كل ما نجده غير ضروري لايضاها .

ثم ماذا يفعل الباحث المؤرخ لانشاء الصيغة التاريخية التي نعبر بها عن الحقائق الخاصة والحوادث المفردة ؟

في الحالة الاولى - أعنى حالة الصياغة المتعلقة بالحقائق العامة - يستعين المؤرخ بما وصل اليه أثناء العمل في بحثه من تعرف على طبيعة هذه الحقائق ومدى انتشارها ، ثم يجمع كل الظواهر المتصلة بها ويركزها وينتظمها في بنائه التاريخي .

أما في الحالة الثانية - اعنى حالة الحقائق الخاصة بعظيم من العظماء ، أو حالة حادثة مفردة - فان المؤرخ مسئول حين يحدث الناس عن هذا العظيم أن يبين لهم الظروف التي اكتنفت حياته وأثرت فيها ، وكونت له عاداته ، ودفعته الى أعمال وتصرفات بعينها أثرت في مجرى تاريخ مجتمعه الخاص أو في المجتمع البشرى كله ، وبالتحديد التفاصيل المتعلقة بذلك كله ، وبآراء هذا العظيم ومعلوماته وذوقه وخلقه ، يستطيع الباحث أن ينشئ الصيغة التاريخية المطلوبة .

أما الحادث المفرد فلا بد من تبين طبيعته ومداه وما خلفه من آثار ، ونعنى بطبيعة الحادث المظاهر الخاصة التي تميزه عن الحوادث الأخرى .

وينبغي على الباحث أن يعطى الناحية التاريخية التي يعرضها ، التلوين المناسب الذى يجسمها للقارئ ويجعلها نابضة بالحياة ، وهذا امر لا يمكن أن نضع له قواعد معينة ، وإنما هو متروك لذوق الباحث وتقديره .

والصفة الوصفية التاريخية ليست الهدف النهائي للباحث ، لأنها لا تمدنا إلا بالصفات الخاصة بكل مجموعة صغيرة من الحقائق ... وعليه بعد ذلك أن يحدد العلاقات المتبادلة بين الحقائق ، وأن يربط ويفارن بين تلك المجموعات الصغيرة ، وأن يحدد مميزاتها ومدى انتشارها واستمرارها وأهميتها .

وكلما مضى الباحث في هذا العمل تكونت لديه مجموعات أوسع وأعم ، وهنا يستطيع أن يسقط الصفات التفصيلية المتغيرة ، ويستبقى الصفات العامة المشتركة .

ونتيجة ذلك كله هى تركيز الحقائق العديدة ووضعها في صيغة عامة سواء أكانت هذه الحقائق متعلقة بالدين أم بالسياسة أم باللغة أم بالفن أم بالاقتصاد أم بالاجتماع ... وهكذا يرتب الباحث ما لديه من حقائق ، وتصيب معدة للعرض التاريخي بطريقة توضح مضمونها المشترك .

وحين يأخذ الباحث في عرض ما انتهى اليه من دراساته ، يلاحظ أحيانا أن ما قدمته له الاصول التاريخية لا يكفي لإفاء موضوع بحثه كل حقه ، اعنى أن الحقائق التي استمدتها من مصادرها ومراجعتها قصرت دون تغطية موضوع البحث تغطية شاملة ... فان الحقائق تكثر أحيانا بالنسبة لفترة معينة وموضوع معين ، بينما تندر بالنسبة لفترة أخرى في نفس الموضوع ، أو لعلها تنعدم تماما ... وتكون النتيجة أن الباحث يجد أمامه فجوات في السرد المطرد لا يستطيع أن يملأها مستندا الى المصادر والمراجع ، فماذا يفعل ... ؟ هنا لا مفر من محاولة سد هذه الفجوات بالاجتهاد ، اعنى عن طريق العقل والقياس ، وكان علماء المسلمين من أبرز وأفضل من لجأ الى الاجتهاد في احكام الشريعة ، ولكن الاجتهاد لا يستخدم اعتباطا ، وإنما هناك قواعد ينبغي أن يراعيها الباحث حتى يكون تعرضه للوقوع في الخطأ اقل ما يمكن ، ويمكن تلخيص هذه القواعد في النقاط الآتية :

١ - لا يجوز للمجتهد أن يسرف في تحليل الاصول التي بين يديه بحيث يحملها أكثر من محتواها الحقيقي ، الامر الذى قد يؤدي الى اضافات ليست حقيقية .

٢ - لا يجوز الخلط بين الحقائق التي توصل اليها الباحث من وثائقه وتلك التي توصل اليها بالاجتهاد ، بل لا بد من الاشارة الصريحة الى كل ما توصل اليه صاحب البحث باجتهاده وقياساته .

٣ - لا يجوز ان يحاول الباحث القيام بعملية قياس الا اذا كان متفرغا لها تماما مركزا ذهنه فيها كل التركيز ، متبعا اصول المنطقة في الاجتهاد .

٤ - النتائج التي يتوصل اليها الباحث عن طريق الاجتهاد ، ويعتقد هو انها موضع شك ، لا بد من أن يقرر ذلك صراحة لقرائه ، وليس له أن يضعها في موضع النتائج الثابتة الاكيدة .

والاجتهاد كما هو معروف نوعان : سلبي وإيجابي ، فأما السلبي فهو ما يعبر عنه المنطقة بعبارتهم المشهورة « السكوت حجة » والمقصود هو أن سكوت المصادر عن ذكر واقعة أو خبر يؤخذ دليلا على أنه لم يحدث . . . والا لما سكنت عنه المصادر . . . لكن هذا الحكم قد يكون جائرا ، فكم من اصول تاريخية تعرضت للتلف والضياع وكم من أحداث أفلتت من التدوين لشيوعها وذبوعها بحيث يرى الكاتب انه لا داعي لذكرها . . . وكم من أحداث أخرى لم تدون لأن السلطات ارادت لها ذلك ، فلم تسجل في الأوراق الرسمية .

وهكذا لا نستطيع أن نأخذ بعبرة « السكوت حجة » . أما الاجتهاد الإيجابي فهو الذي يهدف الى استنتاج حقيقة أو مجموعة حقائق بمجرد التثبت من وقوع حادثة بعينها . . . بمعنى ان يبدأ الباحث بحادث ما اتفقت الاصول على وقوعه ، ثم يحاول استنتاج حوادث أخرى لم تذكرها هذه الاصول التي بين يديه ، مستعينا على ذلك بالمقارنة بين حوادث الحاضر وحوادث الماضي . . . فما دام هذا الحدث المعين قد وقع ، فهو يستنتج وقوع حادث آخر لترتب هذا على ذلك ، أو لكونهما معا نتيجة لسبب واحد .

وهذا النوع من الاجتهاد ينطبق على الحقائق التاريخية كافة ، فهو يسرى على العادات والتقاليد وعلى عمليات التطور والتغير في المجتمعات ، وعلى الحوادث الفردية ، وعلى الشؤون السياسية والدينية والاقتصادية والأدبية .

وعلى أية حال ، فالاجتهاد كله - السلبي منه والإيجابي - لا يؤدي دائما الى نتائج ثابتة قاطعة ، وانما الى نتائج تقريبية . تلك حقيقة ينبغي ألا تنسى .



خاتمة

وبعد فتلک هي أسس كتابة التاريخ العلمي ، وذلك هو المنهج السليم الذي ينبغي أن يتبعه كل من يريد أن يكتب بحثا في التاريخ تكون له أهميته وقيمه ، أما الكتابات التقليدية التي تكتفي بسررد الاحداث وحسب ، فهذه لا تدخل في نطاق التاريخ ، وانما هي كما قلنا مجرد قصص قد يتسلى بها الانسان .

ولا بد لكل من يتصدى لكتابة التاريخ أو يدرسه أن يلم بهذا المنهج وقواعده المأما تماما دقيقا ، ومدرس التاريخ انما يقوم بمهمة جليلة لانه بتدرسه يضع عنصرا جوهريا من عناصر الثقافة التي ننشدها كل أمة من الأمم لبنائها .

ويحسن ان يكون مدرس التاريخ متخصصا في الفرع الذي يقوم بتدرسه ، فلا يدرس التاريخ القديم الا من تخصص فيه ، وكانت دراسته العليا مقصورة عليه ، وكذلك الحال في بقية فروع التاريخ ، وهذا يصدق بصفة خاصة على مدرس المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية وعلى المدرس الجامعي بطبيعة الحال .

وليعلم مدرس التاريخ انه يقوم بتعليم طلابه وطالباته دروسا لها قيمتها الكبرى في بنائهم العقلي ، وانه ايضا ينمي فيهم ملكة التنظيم في العمل ، ويدربهم على النقد والتحليل ومناقشته الآراء مناقشة منطقية سليمة ، فضلا عما يقوم به من اذكاء الروح القومية في نفوسهم ، وتعويدهم الصبر والدأب على البحث والدرس .

ان التاريخ هو الحياة بذاتها ، هو الانسان منذ وجد على ظهر هذه الأرض وباشر فوفها نشاطه ، ولهذا فان كتابته هي السجل البشري الكامل ، ونحن لا نستطيع ان نعيش حياتنا مقطوعين عن هذا السجل الحافل .



المصادر والمراجع

- حسين محمد احمد : الوثائق التاريخية . القاهرة ١٩٥٤ .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ولي الدين : المقدمة . القاهرة . ١٩٣٠ .
- الدورى ، عبد العزيز : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب . بيروت . ١٩٦٠ .
- رستم ، اسد : مصطلح التاريخ . بيروت ١٩٣٩ .
- زريق ، فسطاطين : نحن والتاريخ . بيروت ١٩٥٩ .
- ابو زيد : حكمت : التاريخ تعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٦١ .
- السغاوى ، محمد بن عبد الرحمن شمس الدين : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . القاهرة ١٣٤٩ هـ .
- شليمي ، احمد : كيف نكتب بحثا او رسالة . القاهرة ١٩٥٤ .
- صفوت ، محمد مصطفى : التاريخ ، اهميته وطرق تدريسه . مستخرج من مجلة العلوم . القاهرة ١٩٤٢ .
- لانجلو ، ش . وسينيوبوس ، ش . : المدخل الى الدراسات التاريخية ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ضمن كتاب « النقد التاريخي » الذى يتضمن كذلك ترجمة « نقد النص » لبول ماس وترجمة نصوص فلسفية في التاريخ لكانت وديكارت وبول فاليرى القاهرة ١٩٦٣ .
- لوبون جوسناف : فلسفة التاريخ ، ترجمة عادل زعيتر . القاهرة ١٩٥٤ .
- هرنشو ، ف . ج . : علم التاريخ ، ترجمة وتعليق واضافة بقلم عبد الحميد العبادى . القاهرة ١٩٢٨ .
- وولش ، و . ه . : مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة احمد حمدي محمود . القاهرة ١٩٦٢ .
- Carr, E. H. : What is History. London, 1961.
- Clark, G. K. : Guide for Research Student Working on Historical Subjects. Cambridge, 1958.
- Collingwood, R. G. : The Idea of History. Oxford, 1946.
- Fling, F. M. : The Writing of History, An Introduction to Historical Method. New Haven, Yale University Press, 1926.
- Freeman, E. A. ; The Methods of Historical Study. London, 1886.
- Garrghan, G. J. : A Guide to Historical Method. Fordham University Press 1951.

Grousset, R. : *L'Homme et son Histoire*. Paris, 1954.

International Bibliography of Historical Sciences, Washington, 1926

Langlois, Ch. V. and Seignobos, Ch. : *Introduction Aux Etudes Historiques*. Paris, 1898.

Oman, Sir Ch. : *On the Writing of History*. London, 1939.

Pleckhanov, G. V. : *The Role of the Individual in History*, (Eng. trans.) London, 1941.
The Materialist

Conception of History, (Eng. trans.) London, 1950.

Renier, G. J. : *History, Its Purpose and Method*. London, 1950.

Rowse, A. L. : *The Use of History*. London, 1946.

Taylor, H. : *History as a Science*. London, 1933.

Woods, F. A. : *A Statistical Study in History and Psychology*. New York, 1906.

★ ★ ★

شاكرمصطفی*

التاريخ هل هو عام ؟

« لان السماويين لا يقدرون على كل شيء
« اذ لا بد ان يسبقهم القانون الى الهاوية
« هكذا يتغير حال هؤلاء ..
طويل هو الزمان . لكن الواقع يتحقق »

.....

« ولهذا كانت قمم الزمان
« متراصة هنا وهناك
« واحب الاحباب يسكن بعضهم قرب بعض
« منهكين فوق جبال منفصلة
هولدرين
من قصيدتيه (فيموزينة = ذكرى) و (باطموس)

قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة ، اشتهر في الاوساط الثقافية كتاب اعطاه صاحبه الكسيس كاديل عنوان : الانسان ذلك المجهول . كان الكتاب محاولة للاحاطة في نظرة شاملة بانورامية بما نعرف وما لا نعرف في العلم والحياة والانسان ، كان جرد حساب سريع ، وكانت خلاصة الحساب هي العنوان .

* الدكتور شاكرمصطفى استاذ التاريخ الاسلامي والصور الوسطى في جامعة الكويت . مؤرخ واديب له عدة مؤلفات اخرها دولة بني العباس كتاب ضخيم في مجلدين .

والآن ، وبعد أكثر من ثلث قرن ، يبدو أن العنوان ما يزال صحيحا . هذا الحيوان العجيب الذى استقام على ساقين ، وحول مركز ثقله من وسطه الى ما تحت قدميه ، وتضخمت الفقرة العليا من عموده الفقرى حتى اصبحت علبة عظيمة واسعة ، ودماغا متعبا افرز مع الزمن ما يسمى بالحضارة الانسانية . هذا الحيوان هو فى الواقع النقطة العمياء فى مجموعة المعارف التى يزهو بها هو نفسه . لقد يكون عرف عن الطبيعة الجامدة اشياء . انتصر عليها فى عدد من الميادين ، فيزيائيا ، كيميائيا ، رياضيا ، بيولوجيا ، اخترق الفضاء الى كوكب آخر . هذه الكتلة من الاخلاط البيو - كيمائية التى يكون الماء نلثي تكوينها ، والتى لا يزيد وزنها عما بين ٧٠ - ٨٠ كغم فى المتوسط ، ولا طولها عما بين ١٦٠ - ١٨٠ سم . ملكت قدرة عجيبة للقفز فوق الارض وعبر الفضاء بقوى خارقة . على انها على المستوى نفسه تعقدت داخليا بقدر ما جهلت ذاتها ، أضحك الجهل . وهكذا لقد نعرف عن الطبيعة الكثير لكن ما ان نصل الى الانسان وعلاقته الانسانية ، اذن فهى الأدغال المشتبكة ، وهى التسه الاكبر . من الدهاليز المعتمسة ، والانفاق العجيبة ، والمشاعر الخفية ، والعواطف والارادات والافعال والانبيات والبنى المستترة حيث لا ضوء وحيث الف مفاجأة . فان القى الضوء منها شيئا فى الأيدى فكما القى **شعوب بوان** فى ثياب **المتنبى** ذات يوم . . « .. دنائرا تفر من البنان » .

واذا كان التاريخ احدى الكوى التى طالما حاول الانسان أن يُطِلَّ من خلالها على ذاته ، أعماق ذاته ، فان مغفوة هذه « المعرفة » من المعارف الانسانية بديهية وجودها تصطدم اليوم مع تعقد الحياة والفكر - بألف عقبة . الف ريبة تحوم اليوم كالضباب من حولها ، وبدل أن يتحول ، التاريخ « علما » يحل - مع العلوم الاخرى - متسككة « اللغز » الأوديبى الذى هو الانسان ، أصبح هو نفسه مشكلة قصة الحضار الانسانية رغم كثرة الاضواء التى القيت عليها لم تفعل أكثر من زيادة الادراك لتعقد الحياة الانسانية وتشابك عناصرها الخفية وتراعى ابعادها . .

دعونا نسرع أولا فنحدد المقصود من كلمة « التاريخ » فقد أصبح مأوفا شائعا التفريق بين التاريخ كمسيرة للانسانية History وبين علم التاريخ ، Historiography كفاعلية فكرية انتائية . ولعلنا نستطيع أن نستعير هنا كلمة سائتيانا التى يقول فيها : « .. بين المعاني الكثيرة التى تعنيها كلمة التاريخ يجب ألا نخلط بين معنيين هما : أولا : سياق الحوادث كما تقع فعلا ، وثانيا مشاهد هذه الاحداث الذى يلتقطه المؤرخ ويضمنه كتابه . والتاريخ فى المعنى الاول دقق هائل وفى الثاني تأليف محدود . . (١) . . ولا نعنيانا فى بحثنا هذا المسيرة الانسانية . » هذا الدقق الهائل « من الاحداث والاعمال والافكار الذى ينسب فى استمرار واطراد بدون فترات ولا عصور ولا فصول أو اقسام ، وينسب فى حركة مستمرة لا يحيط بدقائق احوالها وقوانينها عقل بشرى ، ولا يستطيع التكهّن بمسارها او مصيرها ، انما يقع الآن على الطرف الاخر من اهتمامنا الذى يتركز خاصة حول **المعنى الثاني** ، حول « التاريخ » (٢) كفاعلية فكرية تتناول ذلك

(١) انظر جورج سائتيانا - مولد الفكر (بالانجليزية - طبع جامعة كولومبيا سنة ١٩٦٨) مترجم للعربية - طبع بيروت ص ١١٩ .

(٢) لعلنا نشير بالمناسبة الى أن كلمة تاريخ فى اللغة العربية تأخذ معاني اربعة بل خمسة فقد استعملت فى التراث العربى الاسلامي بمعنى : امجاد القوم و خلاصة شمالهم فيقال : فلان تاريخ قومه . واستعملت بمعنى تراجم الرجال (بيوجرافيا) ومن ذلك تاريخ البخارى وتاريخ الحنابلة لابن ابي يعلى ، واستعملت بمعنى رواية اخبار الماضي كصانوين : تاريخ الطبرى وابن الاثير والذهبي وغيرهم . وتستعمل اليوم ايضا بمعنى : مسيرة البشر فيقال : جرى ذلك فى التاريخ او فى تاريخ العرب ، كما تستعمل بمعنى كتابة التاريخ ودراسته .

الدفق الهائل نفسه بالتنظيم والدرس والتقسيم والتحليل واستخلاص النتائج .. انما نقصد نحن الى هذا الجهد العقلي والعملية الانشائية والتكوينية الثقافية المتزايدة السعة التي تمتلىء بها كتب الاطفال الصغار امتلاء اسمار الكبار ، وتثقل رفوف المكتبات كما تثقل جماجم العلماء البيضاء ، وقد تسكر او تعربد او نهذى على اسنة أصحاب العقائد ، هذيانها في منابر المؤتمرات وبين ايدي اللاعبين بمقدرات الناس ومصائرهم على السواء .. وأيا كانت - من خلال مختلف الآراء - بفسيرات التاريخ وفلسفاته وأهدافه الاخيرة فان نمرة سؤالاً مزدوجاً يفرض نفسه هند مطلع كل بحث وبقطع الطريق على كل باحث : ترى ما قيمة هذه « المعرفة » الفكرية « كحقيقة موضوعية » من جهة ؟ وما قيمتها « كفعلية » تخدم الانسان أو نستأثر على الاقل بجانب من جهده الفكرى . من جهة اخرى ؟ ونستطيع ان نضع السؤال المزدوج في صيغة ثانية اكثر تبسيطاً ان قلنا : انه ينتهى الى السؤالين التقليديين هل التاريخ علم ؟ وما هى فائدة هذا العلم ؟ .. وبين هذا وذاك ما مكانه بين العلوم الانسانية الاخرى ؟ (*)

هل التاريخ علم ؟

سؤال ليس بالجديد . منذ انتصرت « تفاحة » نيوتون ، وشكوكية ديكارت ، وتجريبية بيكون ، وهذا السؤال يلاحق ، كالعواء المزعج ، ابراج المؤرخين . يشد ثيابهم ويمزق الكتب .. وبينما لجأ بعضهم مرغمين ، الى قبة « العلم » الكبرى يحتمون بها ويعلنون حرمة « الوثائق » وعلمية التاريخ على أساس من الآثار ، وموضوعية ما تكشف عنه البقايا الانسانية .. بقي آخرون يجهدون انفسهم لايجاد « الصيغة » التي يدخلون بها « علم » التاريخ الى حرم العلوم ويكرسونه واحداً منها عن طريق التزمت وشدة التدقيق والتنقيح واصطناع الاستقراء والاستنتاج والتحليل ...

وتشبهوا ان لم تكونوا متلهمين
ان التشبيه بالكرام فلاح

المشكلة اذن قائمة منذ عهد بعيد ، تاريخها يكشف انها قد اوضحت ، على التداول والجذب والدفع ، جزءاً من مشكلة « المعرفة » الكائنية التي تبحث : ضمن اى الشروط تكون « المعرفة » التاريخية ممكنة وصحيحة ؟ انها هي نفسها مشكلة « الحقيقة » في التاريخ . والى اى مدى يمكن أن ندفع « علميتها » وموضوعيتها ؟ وهى لذلك انما تمس مباشرة طبيعة الفكر التاريخي . حتى تداخلت القضية التاريخية والقضية الفلسفية وفتح الباب بين الاولى والاخرى وحتى اضحى التساؤل : ما التاريخ ؟ يلقينا فجأة في قلب الفلسفة مرغمين ، وفي قلب المشكلة الفلسفية للانسان . واذا كانت فلسفة التاريخ تطلق في الواقع على مجموعة مزدوجة من المشكلات الفلسفية فلها جانبان : تأملي (يتصل بغايات التاريخ ومعانيه) وتحليلي (يتصل بنوع وقيمة المعرفة فيه) (٢) واذا كان الكثير من الباحثين يرفضون الجانب التأملي او يعتبرونه من ميدان الميتافيزيك فكلهم في الواقع يقبلون البحث في الجانب الآخر التحليلي . وبالرغم من اننا لا نرفض الرفض المطلق الجانب الاول ، الا اننا سوف نقنصر على بحث مشكلة المعرفة التاريخية من

(*) نتناول في هذا البحث السؤال الاول فقط على أن نشر في عدد قادم بقيته الباقية في الجواب على السؤالين الآخرين بعنوان التاريخ بين العلوم .

Marrou : De la Connaissance Historique p. 32.

جانبها الثاني : التحليلي . ويدهي انا لسنا بأول من يفتح ابوابها ، فقد اتعب الكثيرون جباههم في تحليلها ورسم حدودها المتموجة الرواغة . وساءلوا عن « امكان » وجود علم تاريخي يجمع الناس على قبول انتاجه ونتائجه وحدوده . وبأى مقياس تكون موضوعية هذا العلم ؟ وهكذا فان اعدادا من الكتب قد تطومت لبحث هذه المشكلة منذ القرن الثامن عشر على الاقل . ومن ذلك كتاب فيكو : « علم جديد » ، ومحاولة كانت : « فكرة التاريخ العالمي » ، و « محاضرات هيجل في فلسفة التاريخ » ، وكتاب هررد : « افكار » ، وابحث انجلز حول « المادية التاريخية » ، وكتابات زميله ماركس حول « تفسير التاريخ » وكتابات ويلهلم دلتاي Dilthey منذ سنة ١٨٧٥ حول دراسة التاريخ . . ومعظم هذه الكتابات كان لها المفعول الانفجاري الثوري في الفكر كله ، وبخاصة منها ذلك الخط الممتد من هيجل الى ماركس وانجلز .

وقد اضيف اليها منذ مطلع هذا القرن عددا من الكتب الاخرى حمل في عنوانه المشكلة التي اصبحت تدعى بالفلسفة النقدية للتاريخ . ومن هذه الكتب على سبيل المثال :

- مشكلة المعرفة التاريخية من تأليف Mandelbaum (نيويورك سنة ١٩٣٨)
- نظرية وتاريخ التاريخ الذي وضعه كروشه B. Croce (سنة ١٩٣١)
- مقدمة لفلسفة التاريخ - بحث في الموضوعية التاريخية لريمون آرون (١٩٣٨ باريس)
- ابعاد الضمير التاريخي لآرون نفسه (باريس سنة ١٩٥٦)
- وظيفة القوانين العامة في التاريخ من كتابات Hempel (مجلة الفلسفة لندن - ١٩٤٢) (وقد أعيد طبعه سنة ١٩٤٩ في كتاب : قراءات في التحليل الفلسفي) Rea. in Phil. Analy.
- فقر المذهب التاريخي Poverty of Historicism من تأليف K. R. Ropper (سنة ١٩٤٥) وهو مترجم للعربية بقلم عبد الحميد صبرة (الاسكندرية ١٩٥٩)
- فكرة التاريخ : Idea of His. من كتابات Collingwood نشر سنة ١٩٤٦ .
- طبيعة التفسير التاريخي The Nat. of His. Explanation من تأليف P. Gardner سنة ١٩٥٢
- القوانين والتفسير في التاريخ Laws and Exp. in His. من وضع Dray (سنة ١٩٥٢)
- The Whig Interpretation of History من كتابة H. Butterfield طبع سنة ١٩٣١ ثم طبع ثانية سنة ١٩٧١
- مدخل لفلسفة التاريخ من وضع و . ه . وولش W. H. Walsh وقد ترجم للعربية (ترجمه احمد حمدي محمود - ونشر في القاهرة سنة ١٩٦٢)
- من المعرفة التاريخية وقد كتبه الباحث الفرنسي H. I. Marrou سنة ١٩٥٢ وترجم الى العربية من قبل جمال بدران (القاهرة سنة ١٩٧١) .

- كيف نفهم التاريخ : مدخل الى تطبيق المنهج التاريخي من وضع L. Gottschalk (نيويورك سنة ١٩٥٠) وقد ترجم الى العربية من قبل عائدة سليمان عارف (طبع بيروت ١٩٦٦) .
- قيمة التاريخ . وضع جوزيف هورس (بالفرنسية) وقد ترجمه الى العربية نسيب الخازن (بيروت ١٩٦٤) .
- تطور النظرة الواحدة الى التاريخ وضعه G. Plekhanov وترجمه الى العربية محمد مستجير مصطفى (القاهرة سنة ١٩٦٩)

هذا بالاضافة الى عشرات الابحاث التي نشرت في المؤتمرات والمجلات من مثل :

- ابحاث B. De Voto, A. Nevins بعنوان : ما المشكلة في التاريخ ؟ في مجلة Saturday R. of Lit. سنة ١٩٣٩ ومجلة Harpers Mag. سنة ١٩٣٩ .
- بحث E. W. Strong بعنوان الواقعة والفهم في التاريخ Fact and Underst. in His. في مجلة الفلسفة العدد ٤٤ سنة ١٩٤٧ .
- بحث مؤتمر الدراسات الفلسفية المسيحية سنة ١٩٥٣ حول مشكلة التاريخ .
- بحث Pasmore بعنوان الموضوعية في التاريخ (مجلة الفلسفة نيسان سنة ١٩٥٨) .
- بحث K. Blake : هل يمكن ان يكون التاريخ موضوعيا ؟ في مجلة Mind (كانون الثاني سنة ١٩٥٥) .

- وبحث الاستاذ Dray بعنوان Historical Underst. as rethinking (دورية جامعة تورنتو - كانون الثاني سنة ١٩٥٨) Toronto Quarterly

والقائمة بعد طويلة طويلة . وهي اوسع من ان يحيط بها الحصر والتعداد .

وليس اللاح في بحث المشكلة ناجما عن انها ، في الاعماق والجذور الخفية ، جزء من تفكيرنا في مشكلة معنى الوجود او سبب الوجود ومحاولة بالوارية وعن طريق جمع الاحداث والتجارب وتنامي الخبرات المتطورة للوصول الى « منطق » معين يكشف او يضع الهدف المنطقي للوجود الانساني . . ولكن ذلك اللاح انما يشتد الآن بقسوة نتيجة مستوى آخر من العوامل الجديدة الملحة التي يمكن ان نسميها « بثورة التاريخ » .

بلى ! هذه الثورة التي حققتها المعارف الانسانية في ربع القرن الأخير ، والتي جاءت للانسان من المعرفة خلال السنوات العشر الاخيرة فقط بأكثر وأوسع مما عرفه خلال تاريخه الاطول كله منذ ثمانية أو عشرة آلاف سنة ، سواء في الكم او في النوع او في التعقيد والتشابك ، هذه الثورة مست بدورها التاريخ بالمعنيين . اكثر بكثير جدامن استيعاب المؤرخين ، هذا الذي ينهال عليهم من المعلومات . واكثر بكثير جدا من قدرتهم على اللحاق به هذا الذي ترمي اليهم به المطابع من الكتب والابعاد والآفاق . المؤرخون يلهثون اليوم دهشة وعجزاً وفرقاً . . ينوعون او تختنق انفسهم ، كما اختنق الجاحظ ذات يوم ، تحت اكداكس الكتب التي وقعت عليه ! . . .

وتورة التاريخ اليوم ، رغم انها تجرى في الصمت الآخرس ، تسهم في الانقلاب الجذري للفكر الانساني . انها فاعلة منفعة ، بهذا الانقلاب في وقت معا . ابعادها تتناول مادة التاريخ تناولها لمناهجه ومساره في العمق والشمول .. انه يركض ويركض حتى كأنه أخذ يعيش في المستقبل او يعيش عصر نمو « بالونى » مات فيه الزمن .

فأما في **المادة** فالتضخم الهائل الرهيب في الكمية وعن طريقين في وقت معا :

— طريق زيادة فروع التاريخ واحتوائها بجانب كل ما كانت تحتوى من قبل ، على تواريخ العلوم والفكر وتواريخ التطورات الاجتماعية ، وتواريخ الحياة الاقتصادية ، وتواريخ الفنون والتواريخ المعاصرة .. وغيرها . واحمال المعلومات التي تأتي بها الى سوق التاريخ .

— وطريق زيادة الشعوب المشاركة في كتابة التاريخ والاضافة اليه . كان التاريخ من قبل ملكا للشعوب الحضارية القديمة . حول البحر المتوسط ، نم ملكا للشعوب الغربية . اكثر من نصف أو ثلثي سكان هذا الكوكب كانوا يعيشون على هامش التاريخ . لا يهتمون به ولا يهتم بهم ، فهم في العتمة والظلال . يكتب عنهم الآخرون ما يريدون ومن وجهات نظرهم وهم في غياب مطلق عما يسيطرون .

وفجأة ومنذ عقد وبعض العقد من السنين دخلت — وما تزال تدخل — تلك الشعوب الغائبة الى حلبة التاريخ . تدخله لا مشاركة في صنعه فقط — كما قد شاركت فيه دوما من قبل — ولكن مشاركة ايضا في كتابته وتصحيح احداثه وتقييم تلك الاحداث وآثارها وازدواجها الكثير جدا من الجديد عليه ومن الخطير ايضا . تواريخ شعوب افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية والكشوف عن الحضارات المغمورة والمنسية (حضارة خمير ، وانكورفات في كمبوديا ، وحضارات وادي السند والازتيك والانكا .. الخ) .. تصب الآن ، ولاصبيب الروافد الامازونية على تيار المادة التاريخية ، وتقوم من اعماقه ومسيرته وسعته في الزمان والمكان .. المعطيات الاولى في التاريخ تبدلت التبدل الجذري ، الثورة الفرنسية التي ثارت تحتل اوسع الصفحات مثلا في الكتب التاريخية عادت الى حجمها الطبيعي التافه . فضائح تجارة الرقيق الغربية فتحت ملفاتها الواسعة . النهب الاستعماري الغربي انكشف كالجرائم النثنة في تواريخ العشرات من الشعوب . ابعاد حضارات خمير والازتيك والانكا ، وقصص الفتح الاسباني والبرتغالي والانكليزي والهولندي لامريكا وجنوب شرقي آسيا اخذت مكانها من ثقافة الناس . تزييف القيم واحتكار الابداع بدأ يتهاوى كالفشور الفارغة امام العيون الجديدة المتفتحة للنور بكل مكان . انه عصر جديد من التاريخ وليست يد واحدة على اى حال ومن جهة واحدة فقط هي التي تسيطر سطره ... السعة الافقية في المادة التاريخية اوضحت من الامتداد بحيث شملت اليوم كافة نواحي الحياة الانسانية من جهة ، وكافة شعوب الارض من جهة اخرى ... وهات عقولا انسانية — الكترونية تستوعب كل اولئك .

أما في **المنهج** فقد دخل على اساليب التأريخ بدورها مجموعتان مساعدتان :

— جاءت من جهة معطيات العلوم والبحوث الجديدة لتفتح في التاريخ كوى ومسارب ما كان له من قبل ان يطررها . علم النفس اضاف اليه أتياء ، والبحوث الجنسية (افرويدية خاصة)

التاريخ هل هو علم ؟

أضافت إليه أشياء أخرى . وبينما أعطته علوم الاقتصاد أبعادا جديدة ، أضافت إليه علوم الاجتماع أبعادا أخرى ، وجاءت الإحصاءات ، بل جاءت الرياضيات إليه بأمور وأمور ، وجاءت الأنثروبولوجيا في الوقت نفسه بمنزلها وبأكثر منها .

— وجاءت من جهة أخرى طرق الإحصاء الرياضية وتطبيقاتها ، ودخلت العقول الإلكترونية لخزن وفرز ومقارنة المعلومات وأدوات التحليل الطيفي والكيمائي في الوثائق والآثار . وأدوات التنقيب الجيوفيزيائي في الأراضي التاريخية . (وهي أدوات كهربائية ، وكهرومغناطيسية) وتصوير أعماق التربة . وكان استخدام هذا أو تلك من مبتكرات العلوم ، مدهش النتائج في كثير من الأحيان .

وأفاد التاريخ في الحالين من معطيات العلوم الأخرى ، ومن المبتكرات التكنية للعلم الحديث ، فإذا مناهجه تنوع من جهة وتعمقت من جهة أخرى ، وإذا هو على الطريق نحو أساليب جديدة يأمل أن يستطيع معها احتضان تلك التحولات المتشابكة العديدة ، التي لا بد من حساب أثرها في توجيه التاريخ وصنعه . ديناميكية التطور المتحول باستمرار لم تعد تخيف المؤرخين كثيرا وتقطع أنفاسهم لهاثا وبأسا .

وأما في الاتجاه والشمول : فقد أخذ التاريخ طريقه سرياً في العمق التساقولي في اتجاهين أيضاً ، وأيضاً :

— صار يهتم بالشعوب لا الأفراد . بالكتل الجماهيرية والقواعد الشعبية الواسعة لا القمم والملوك . كان في القديم ملكي القاعدة يدور حول العروش ، وبمسح اعتبارها ثم اضحى في القرنين الآخرين بوجوازي المنطلق ، وقد تحول الأمر فصار بالضرورة شعبياً . اهتماماته ضربت الجذور في الجموع الواسعة التي تصنع في الصمت التاريخ الحقيقي . دخل عليه أخيراً ما سماه (لين وايت) بحق « ما تحت التاريخ » أي أخبار الطبقات الدنيا المسحوقة التي كانت وما تزال تشكل تسعة أعشار البشر .

— وصار التاريخ من جهة ثانية يهتم بالعوامل والتيارات التحتية والخفية . الماركسية والفرويدية والدوركهامية دفعته دفعا إلى الفصوص وراء الجذور الاقتصادية للأحداث ، وأخذ النوازع الجنسية واللاشعورية بعين الاعتبار ، وأدخل هزات المجتمع وعقائده ، وقوى تقاليده ونفسيات جموعه في الميزان . . صار « الحادث » التاريخي مركباً لا كيمائياً فيزيائياً رياضياً فقط ولكن بيولوجياً - سوسولوجياً وغريزياً أيضاً . . بالإضافة إلى أنه لم يعد ذلك « الحادث » السكوني الثابت . اضحى في ديناميكية تحولية متصلة الحلقات ما تعاقب الجديدان .

على أن ثورة التاريخ الجذرية ، واتساعه عمقا وامتدادا ومنهجاً ، لم تمنحه ما يمكن أن نسميه بالاطمئنان العلمي أن لم تزد بالعكس في « الرابية » القديمة التي تحيط به . أزمة « الحقيقة » فيه ازدادت حدة والحاحا بشكل طردى مع ازدياد الثورة الانقلابية . وظل الباحثون في علمية التاريخ وموضوعيته عند مواقع التساؤل الأولى يتساءلون : ترى إلى أي مدى اقترب التاريخ بها من حرم « العلم » أو أبتعد عنه ؟ . . ولقد سئل الفيلسوف البريطاني جود Joad في برنامج إذاعي سنة ١٩٤٠ : هل التاريخ علم ؟ فكان جوابه أن ذلك يتعلق بماذا نعني من كلمة « علم » . وقد نستطيع التحديد أكثر من هذا أن قلنا أنه يتعلق بالمفهوم الخاص الذي نحمله في أذهاننا عن « العلم » .

ولعلنا نحتاج قبل الجواب على هذا السؤال الى ان نعرف ايضا : ما هو التاريخ ؟ وما هو التاريخ لا كأحداث تعبر الزمن ولكن كممارسة فكرية وجهود تكويني ؟ نحتاج ان نحلل هويته كمعرفة بين المعارف الانسانية . ان تحديد هذه الهوية قد يكشف الكثير من نقاط اللقاء والافتراق لا بين « علم » التاريخ وعلوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ولكن بينه وبين كل ما ينتهي بكلمة « لوجيا » . اننا اذا اتفقنا على ماهية التاريخ سهل علينا ان نتفق على حدود علميته .

وفي هذا الصدد تبدى لنا ضرورة الوقوف بالتحليل عند ثلاث نقاط :

موضوع التاريخ ؟ مسلماته الاولى التي يستند اليها ؟ وعملية التأريخ ؟ أو بكلمات اخرى : ماذا يحاول المؤرخ ان يبحث ؟ ما هي المعطيات المبادئ التي يقيمها اساسا لعمله ؟ واخيرا كيف يعمل ، وما ميكانيكية العملية الفكرية التي يقوم بها ؟ مجموع التحاليل لهذه النقاط هو الذي يحدد ، من زوايا ثلاث ، حجم هذا العلم وماهيته وعمله وطبيعته التكوينية .

اولا : يقولون بكل سهولة فيما يتعلق بموضوع التاريخ انه « معرفة الماضي الانساني » (٤) مادته اذن هي ما جرى في الزمن السالف . واذا شئنا ان نكون اكثر دقة استعرضنا تعاريف بعض كبار العلماء في هذا الميدان :

— الفرنسي **جوستاف مونو** يقول : ان غاية التاريخ المثلى انما هي « اعادة تمثيل الحياة البشرية السابقة كما هي ، واعادة رسم مظاهر النشاط الفكرى بتطوراته وتقدمه وتتابع مراحلها وتناسبها .. » (٥) .

— الامريكى **هنرى جونسون** يقول في الكلمة الاولى من كتابه تدريس التاريخ : « التاريخ بمعناه الواسع هو كل شيء حدث في الماضي . انه الماضي نفسه مهما يكن هذا الماضي .. » (٦) .

— الفرنسي الآخر **هـ . مارو** يقول : « التاريخ هو المعرفة بالماضي الانساني ، المعرفة بالانسان او بالناس من امس ، من قديم الزمان ، عن طريق انسان اليوم ، انسان الغد الذى هو المؤرخ » (٧) .

— الانكليزى **وولش** يقول : « من المتفق عليه ان الماضي الانساني هو الهدف الاول لدراسة المؤرخ .. » (٨) .

— الالماني **وانكه** اعلن انه في التاريخ لا يقصد الا ان يصور ما حدث بالضبط في الماضي .. فاشتهرت كلمته في القرن الماضي حتى اصبحت شعار علم التاريخ ..

(٤) (الترجمة العربية - ص ٢٦ وقد اهلنا وسوف نهمل فيما بعد هذه الترجمة لانها سيئة جدا) .

(٥) G. Mounod — La méthode dans les sciences p. 367.

(٦) هنرى جونسون - تدريس التاريخ (الترجمة العربية) ص ١ .

(٧) مارو Marrou حول المعرفة التاريخية (النص الفرنسى) ص ٣٢ و ٣٧ .

(٨) وولش - المدخل الى فلسفة التاريخ (الترجمة العربية - لاهمى حمدي محمود - القاهرة سنة ١٩٦٢) ص

التاريخ هل هو علم ؟

— حتى الانكليزي كولنغود حاول ان يجدد في الفكرة نفسها حين نظر الى التاريخ « كاستحضار للتجربة الماضية » .

وليست هذه النظرة بالحديثة فما من مؤرخ في التاريخ الاسلامي الا وعبر عنها بشكل او بآخر فكان التاريخ عندهم « مرآة الزمان » (سبط بن الجوزي) و « وقائع الدهور » (ابن وصيف شاه) و « خبر من غبر » (الذهبي) (وابن اياس) و « اخبار من ذهب » (الحنبلي) و « اخبار الزمان » (المسعودي) و « تجارب الامم » (مسكويه) الخ . .

ولن نقف بالطبع عند هذه التعاريف فان خطوات كثيرة من التحليل والتحديد والايضاح يجب ان تتم وراءها : . . ولعلنا نكون اكثر دقة ان لم نواجهها بتعريف مضاد شامل — وابن منا التعريف الشامل ؟ — ولكن نطوقها بالتحديد عن طريق « النفي » والابعاد والايضاح . . « انه لمن السداجة ان نتخيل تعريفا متقنا نظريا ومطروحا كذلك بشكل مسبق . يستطيع الاحاطة بالجوهر والماهية في التاريخ » (٩) .

وهكذا فاذا كانت المسئلة الاساسية والتي لا خلاف عليها هي ان « الماضي » هو موضوع التاريخ . فان تحديدات عديدة تدخل على هذه المسئلة الاولى مقصرة من ذيولها الفضفاضة الواسعة: بعض هذه الحدود يتصل بالمدى الزماني لهذا الماضي ، وبعض يتصل بنوع المعرفة الممكنة له . وهذه وتلك على السواء تقتطع من ابعاد التاريخ في الزمان او تلفي من فعاليته الناجمة في ميدان الفكر ما يجعل مداه الحيوى محدوداً من جهة، وقاصر الاداة الفكرية من جهة أخرى قصورا كبيرا . . انها تضعه في اطاره الحقيقي .

١ — فاما في الزمان فالتحديد الاول اورده الكثيرون من الباحثين والمؤرخين ، فقد اضحى الآن بديهيا ان التاريخ لا يعنى بكل الماضي ولا بأى ماض : انما ميدانه الماضي الانساني فقط . علوم كثيرة غير التاريخ ميدانها دراسة الماضي وليس الحاضر : الجيولوجيا ، الباليثولوجيا ، التاريخ الطبيعي ، الانثروبولوجيا ، الائنولوجيا كلها بدورها تدرس الماضي القديم وليست من التاريخ في شيء . . ماضي الكائنات الانسانية وحده يهم التاريخ . ونستطيع القول في صيغة اخرى انه لا تاريخ فيما وراء الانساني اى لا تاريخ قبل الانسان زمناً ، ذلك ما قبل التاريخ ، ولا تاريخ لغير الانسان موضوعاً ، ذلكم التاريخ الطبيعي للنبات والحيوان والجماد . ولا تاريخ فيما وراء اهتمامات الانسان ، ذلكم هي الجيولوجيا والباليونتوجيا . . الخ . « الانسان هو الوحيد بين الكائنات الحية الذى يعي الزمن » كما يقول دلتاي ولهذا فهو الوحيد ذو التاريخ بينها . وهو يصنع التاريخ ، والتاريخ بدوره يصنعه في جدلية حياتية لا تنتهي .

والواقع انه ليس من تاريخ مضطر ان يبدأ صفحاته بالحديث عن اصل الكون والوجود . او يعد تقصا فيه ان يغفل طفرات انواع النبات والحيوان منذ ظهرت الحياة على هذا

الكوكب» (١٠) . مدى التاريخ الحقيقي اقصر من ذلك بكثير جدا في الزمان واضيق في الموضوع . فماضي الارض في صخورها وطبقاتها وتكوينها السحيق في القدم لا يرد ابدا ضمن نطاق الاهتمام التاريخي : ذلك ميدان الجيولوجيا . وماضي الكائنات الحية من نبات وحيوان وتطور الانواع يدخل نطاقا آخر هو التاريخ الطبيعي . بل ان نيتشه قد لاحظ منذ سنة ١٨٧٤ « ان حياة الحيوان ليست تاريخية . انها لا تعرف الامس ولا اليوم » هي يوم واحد مكروور ابدا . وليست فيه خيالات من الاحوال الماضية .

عناية المؤرخ محصورة اذن في الانسان . في تجارب وافعال البشر فقط ولئن سجل بعض المؤرخين في القديم والحديث بعض الاحداث الطبيعية كالزلازل والقحط والخسوف والفيضانات فانما يأتي على ذكرها لما تؤثر في حياة الانسان ، لا لذاتها او لمكانها الخاص من التاريخ .

ولا يهتم التاريخ من جهة اخرى بماضي الانسان كله ، لا يهتم بالانسان كنوع ، تاريخه البيولوجي السابق للانسان الحالي تطارده علوم اخرى : احدها يعكف على الحفريات (الباليونتولوجيا) والآخر على التاريخ الطبيعي للانسان (الانثروبولوجيا) كما ان ماضيه العرقي يدخل في اطار علم ثالث (الاثنولوجيا) يدرس العروق والاجناس في تكوينها وفروقها وتاريخ ذلك التكوين والتصالب العرقي . . فهذا تحديدان للتاريخ في الماضي الزمني .

ومن ناحية ثالثة فان التاريخ انما يبدأ مع بدء الانسان نفسه في كتابة هذا التاريخ . منذ اخذ يسجل ، بشكل او بآخر ، اى شئ عن ماضيه ، ابتكر معرفة جديدة ، تشترك في بناء الفكر الانساني وحضارة الانسان . من المصطلحات الشائعة اصطلاح « ما قبل التاريخ » تلك المنطقة الزمنية الممتدة ما بين ظهور الانسان الحالي والمجتمعات الانسانية وما بين بدء الكتابة هي ميدان خاص من المعرفة ، عنوانه نفسه يضعه خارج نطاق التاريخ . انا نتقراه باللمس والحفر والمخلفات ، وفي الرسوم والعظام وبقايا الادوات الحجرية ، ونقسمه عصورا وحقباً ، ولكنه ليس من التاريخ . التاريخ انما بدأ مع الكتابة ، فهذا تحديد ثالث .

على ان الانسان من ناحية رابعة ، حين كتب وأرخ لم يكن واضح « الوعي التاريخي » ادراك كل من « الزمن » و « الحقيقة » كانا ابعد ما يكون عن قلمه الحديدى او الخشبي ، الف باء المعرفة التاريخية هي ان تسجل حقيقة او واقع التجربة الانسانية التي مرت في الزمان . ولكن التسجيلات الاولى (سواء منها ملحمة جلجامش الاكادية - البابلية او تخیلات المصريين القدماء ، او تصورات رج قيدا الهندية ، او افكار الكنعانيين - الفينيقيين التي نقلها العبريون ، كما تدل نصوص رأس شمرا او غيرها . .) كانت من الضبابية والايغال في التخیل بحيث كانت اوسع وأجرا الاساطير . . الفكر التاريخي انما ولد في الواقع من ضلع الفكر الاسطوري . طبعت الاسطورة الخطوات الاولى

(١٠) بعض مؤرخينا الاسلاميين القدامى بدأوا تواريخهم العامة بذكر التكوين والوجود وخلق السماوات والارض والانسان كالتبري واليعقوبي والمسعودي وابن الاثير وابن كثير الذي (سمي تاريخه البدايه والنهاية محاولا ان يتناول اول الخلق ثم آخره قبل القيامة) كما ان بعض الفلاسفة المحدثين مثل (ويلز) وغيره في مختصراتهم التي قدموها لتاريخ الانسانية حاولوا ان يجعلوا كتاباتهم تبدأ بخلق الكون وتطوره الطبيعي ثم الانساني . ولكن مؤرخينا القدماء كانوا يصدرين عن دغبة دينية في البدء بتاريخ آدم وحواء (كالتبري وابن كثير) او نظرة فلسفية تراففها (مثل اليعقوبي) أو موسوعية (كالمسعودي) كما ان المحاولات الحديثة نابعة من موقف فلسفي فكري لا علاقه له بالتاريخ وانما يتصل بالرغبة في القضاء الضوء على الطبيعة البشرية ، من خلال تكوينها الاول .

كلها للتاريخ فمطالع التاريخ موصولة بأواخر عصور الاسطورة التي حاولت - وكانت وظيفتها الفكرية - الاجتماعية في الواقع - ترفيع النقص والنسيان في الماضي الانساني من جهة وأن تقدم من جهة أخرى « المحاولات الاولى لتبين الترتيب الزمني (للخلق) والاشياء والاحداث اى لايجاد علم كوني وعلم انساب للالهة والناس .. ولكن هذا العلم الكوني وعلم النسب لا يدلان على تمييز تاريخي بالمعنى الصحيح ، لان الماضي والحاضر والمستقبل فيها مرتبطة معا وهي تكونت جميعا وحدة لا تمايز بين اجزائها ، وكلا لا انفصام بين مفرداته .. وليس للزمن الأسطوري مبنى محدد ، وانما هو زمن أزلي ، لأن الاسطورة ترى ان الماضي لم ينته بل ما يزال مستمرا (ابدأ) .. » (١١) .

وهكذا نقطع الافكار التاريخية الاولى عن التاريخ لتدخل باب الميثولوجيا ، او باب علم الاديان ، او باب المورفولوجيا الاجتماعية لكنها على أى حال لا تدخل باب التاريخ الذى يتصل اساسا بظهور ما يمكن ان نسميه « بالوعى التاريخي » اى الوعى المزدوج الزمن وللحقيقة .. ومتأخرا جدا وصل الانسان الى هذا الوعى . وان كان قد عاد في العصر الحديث فرمّم ، بالاستناد الى الآثار والنقوش والبقايا ، بعض ذلك الماضي الذى غلفته الاسطورة ، ومدّد معارفه التاريخية بعض الامتداد الى وراء ، الا أن ذلك انما كان في بعض المناطق فقط ولدى بعض الشغوب .

وبقيت الكتابات حول مطالع اليهود التاريخية الاولى متداخلة ، في كثير من الاحيان مع ميادين الوهم والاسطورة هنا وهناك .. وهذا في الزمن التاريخي هو التحديد الرابع .

ب - وأما في امكان المعرفة للماضي : فثمة ايضا حدود أخرى ليست أقل شأنا . ان الدعوى بأن التاريخ يكشف ماضي الانسان - حتى منذ الفترة المحددة القريبة الى اليوم - ليس دعوى عريضة فقط ولكنها ايضا دعوى نظرية .. التاريخ الذى يحيط بالماضى الانساني كله ، بكل نواحيه وتفاصيله ، هو تاريخ نظري ، لم يكتب قط وتكاد تؤمن انه في الاحوال الحاضرة للفكر وللوقى العلمية على الاقل - لن يكتب قط .

فالمعرفة في التاريخ ليست اولا معرفة مباشرة .. وأى مؤرخ يجرؤ على القول ان معرفته بالماضى هى معرفة مباشرة ؟ الدين سجلوا ما شهدوه من الاحداث كانوا دوما « شهودا » لا مؤرخين . والمعرفة التاريخية هى دوما وبصورة اساسية : معرفة بالواسطة او هي تصور وجود من خلال معطيات لفوة وأثرية ، واذا نحن تجاوزنا الحاضر المتشهود - قبل أن يتحول الى ماض - فانا لا نستطيع ابدا الحدس عن « معرفة » مباشر للماضي ضمن الشروط التجريبية والمنطقية . انما هنالك فقط بالضرورة تصور ، من خلال شهادة الغير ، ومن خلال الوثيقة والاثار لما كان .. وينطبق التصور على الحقيقة بمقدار ما تنطبق اى شهادة على الواقع وما تعطي الوثيقة او الاثر من امكان الاستنتاج الصحيح . العالم بالنسبة للعلماء ظاهرة طبيعية صرفة ، مشهد مبسوط للملاحظة العقلية ، أما احداث التاريخ فانها سطور أو آثار ينظر المؤرخ من خلالها الى سيء آخر نسميه الماضي ، السطور والآثار هي المنظار السحري الذى يصبح المؤرخ بدونه أعمى يخبط في الظلام .

(١١) ارنست كاسبر - المدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية (الترجمة العربية - احسان عباس - بيروت

١٩٦١ ص ٢٩٥ .

والمعرفة التاريخية ليست ثانيا بالصحيحة . ان الماضي كان بالضرورة حركيا تطوريا . ومعرفتنا عنه هي بالضرورة سكونية تراكمية . هو حياة أخذت حدودها الكاملة في التنامي والتطور والهمود وهي ، معلومات كمية وصور مقطعة .. مجرد جثث . وشتان بين حى ومبت !

ثم ان كل معرفة انما هي تاريخ . مجرد ظهورها كحادث يدخلها في نطاقه . وقصه تكاملها عملية تراكمية تسلكها ، بالرغم منها وبالرغم منه ، في عداد سطورها ويجعلها مؤثرة متأثرة به . الذين يدرسون الاسمنت المسلح يدرسون بالضرورة تاريخ تطوراته . والذين يتفنونون بطابع البريد او « بمودة » التسعر او زراعة الارضين ، انما يعملون - بالضرورة ايضا وايضا - من خلال تاريخ طويل . المجهولون الذين ابتكروا دحرجة الانتقال على « العجلة » لبسوا بأقل نحو بلا للتاريخ من الذين وصلوا القمر . والذي كتب « البيان الشيوعي » ليس بأقل اثرا في حياة الناس ممن ابتكر شكل الهرم في البناء . كل لونية صفيحة من المعارف تضيف جديدا وهاما الى الحقيقة التاريخية ولا يقوم غيرها مقامها . ونقص اى جانب من هذه اللونيات ، نقص في الصورة الكلية ليس بالامكان تلفيقه وترقيع ثغراته . فمن ذا الذي يستطيع ان يؤكد واثقا من اننا الممنا على الأقل - ان لم يكن أدركنا او عرفنا - بالعوامل الصفرة والكبرى في التاريخ ؟ باللونيات الظاهرة والخفية في نسج أحداثه ؟ بالنسب الحقيقية للأحداث بعضها الى بعض فيه ؟ ومن ذا الذي يستطيع ان يجزم ان قانون النسبية اقل أو أكثر قيمة في التاريخ من ابتكار الحرف ؟ أو ان ارسطو أكثر شأنا فيه من صانع أول حربة ؟

ونسأل السؤال الاهم ثالثا واثرا : هل معرفتنا بالماضي الانساني كاملة او شبه كاملة على الأقل ؟ واذا لم تكن فما الذي بقي في أيدي التاريخ والمؤرخين بالفعل من الماضي لاعادة بنائه ؟ الواقع ان الماضي الذي يسقط في هاوية الأبد باستمرار والى غير رجعة لا يترك لنا في معظم الاحيان الا اضال الملامح والآثار في الأيدي : أسطرا حول ما اسرعى الانتباه صدفة أو عن عمد ، انرا سليم بالصدفة عن عوادي الزمن ، ثم ... لا شيء غير ذلك ! « ان قدرا فقط مما لوحظ في الماضي قد تذكره أولئك الذين لاحظوه وان جزءا فقط مما تذكر سجل ، وان جزءا فقط مما قد سجل حفظه التاريخ ، وان جزءا من ذلك الذي وصل يمكن تصديقه . وان جزءا من ذلك الذي يمكن تصديقه هو الذي حفظ وان جزءا من ذلك الذي حفظ يمكن ان يوسعه المؤرخ او يقصه ... ان تاريخ الماضي بأكمله (وهو ما يسمى بالتاريخ الواقع) لا يعرفه المؤرخ الا بواسطة السجل المحفوظ اى التاريخ المسجل . ومعظم التاريخ المحفوظ هو الجزء الباقي من الجزء المسجل عن الجزء المتذكر من الجزء الملاحظ من ذلك الكل .. وحتى حين يكون الماضي مأخوذا مباشرة من المخطوطات الاثرية او الانثروبولوجية فهذه هي فقط الاجزاء التي اختارها العالم من بين الاجزاء المكتشفة مما ساعد الحظ على بقائه من مجموع الماضي كله .. » .

« وبالنسبة لما قد يدرسه المؤرخ من امر متعلق بموضوع خارجي فان التاريخ الذي انقضى ليس هو الذي حدث (التاريخ الواقع) وانما هو السجلات الباقية لما حدث (التاريخ المسجل) والتاريخ لا يمكن ان يروى الا من التاريخ المسجل المكتوب ، وهذا هو فقط الجزء الذي شرحه المؤرخون من الجزء المفهوم الذي أمكن تصديقه من الجزء الذي اكتشف من التاريخ المسجل .. وليس هناك ما يضمن ان ما تبقى هو اهم جزء واكبره واقيمه وافضله واخلاه » (١٢) .

(١٢) انظر غو تشالك - كيف نفهم التاريخ (الترجمة العربية - عائدة سليمان عارف ، بيروت ١٩٦٦) ص ٦٠ .

ومن زاوية أخرى من النظر نجد أن المعلومات التاريخية نفسها ليست متوفرة كلها وعلى الدوام وعلى مستوى واحد من الكثرة ، ومن الوضوح ، لا جغرافيا ولا زمنا ولا موضوعا . انها تتناقص طردا مع ابتعادنا عن منطقة جغرافية معينة ، ومع ابتعادنا سربا متزايدا في الماضي ، ومع انتقالنا من موضوع السياسة والملوك الى الاهتمامات الأخرى . فالمعلومات التاريخية عن أوروبا وحوض المتوسط ، في القديم ، هي أكثر بكثير من معلوماتنا عن الهند أو الصين ، وهذه تلك على أى حال أكثر بكثير جدا من معارفنا عن إفريقيا ، أو أواسط آسيا التركية . . . ثم ان ما نعرف عن القرن التاسع عشر هو بكل تأكيد أوسع بكثير جدا مما نعرف عن القرن الثالث أو الثاني الميلادى ، ولا يقاس غرارة بما نعرف عن القرن التاسع قبل الميلاد . . . ثم ان أحداث السياسة خاصة ، والحروب وأخبار الملوك والطبقات العليا ، كانت دوما هي الطاغية وهى المسنطرة بأقلام المؤرخين ، بينما حشرت في العتمة أو النسبان المطلق أخبار الفن ، وجذور الأديان ، وفاعليات الاقتصاد ، وملامح الطبقات المسحوقة أو تطور اللغات أو تنامي الهندسة أو ابتكار النار . . . فما لنا فيها سوى الرجم بالغيب والظن .

ولقد يأخذ عمل المؤرخين في لمس الماضي ، أحيانا ، شكل الأحكام التي تطلقها مجموعة العميان على الفيل الذي يجهلون : يتلمس أحدهم أذنه فهو مروحة ، والثاني قدمه فهو عمود ، والثالث ذنبه فهو بعير ، والرابع خرطومه فهو أنبوب ، والرابع بطنه فهو برميل . . . والفيل هو الفيل وقد افلت من كل الأحكام التي يطلقون !

وقد حسب بعض الباحثين أن بإمكانه الهرب من هذا النقص الحتمي والمتمادي في معرفة الماضي بجعل « الفكر » هدفا للتاريخ . هم فرع من المدرسة المثالية أولئك الباحثون من أمثال دلتاي . وكولنجوود Diltthey, Collingwood . . . التاريخ مثلا لدى كولنجوود هو تاريخ التفكير . يبدأ المؤرخ بالأمر الطبيعي الذي هو الفعل أو الحدث التاريخي ولكن الهدف هو النفاذ الى ما وراءه ، أى الى الأفكار الكامنة خلف هذا الطبيعي « أو الحدث » . هو الانتقال من « خارج » الواقعة التاريخية الى « داخلها » يقول : « بالنسبة للتاريخ فإن الموضوع الذي يكشف ليس الواقعة الصرفة بل الفكر المعبر عنه فيها . واكتشاف هذا الفكر يعني فهم الواقعة . . . » (١٢) . . . على أن هرب المؤرخ من « نقص » الوقائع باللجوء الى دنيا الأفكار لا ينفي الواقع الأساسي ، وهو أن الماضي هو : أحداث وأفعال أولا ، وإن ما وصلنا منها هو أقل من القليل ، وليس ثمة ما يؤكد أن هذا الذي وصل يمثل « كل » الأفكار ولا « احسن الأفكار » ولا « الأفكار » « الغالبة » أو « الرائدة » .

وهكذا فإن ما نعرفه من حقائق التاريخ جزئى ومحدود على تفاوت الجزئية والمحدودية فيه ، وقد يكون بإمكاننا أن نعرف أشياء (أخرى) عن الماضي الانساني لكننا لا نستطيع بالتأكيد معرفة كل شيء فيه ، بوسائل المعرفة التي نملك الآن على الأقل . ونمة استحالة نظرية أكيدة لكتابة ما يمكن أن نسميه (التاريخ الكلي) أى تاريخ الانسان كله ، بكل تفاصيله وبكل نواحيه ، وبجميع

(١٣) انظر وولش - من فلسفة التاريخ (الترجمة العربية - احمد حمدي محمود - القاهرة ١٩٦٢) ص ٦٨

Collingwood, Idea of History p. 214.

وانظر

دخائله او بما نسميه (ما وراء التاريخ) وبجميع طبقات البشر فيه (او ما نسميه ما تحت التاريخ) . ان المؤرخين هم على اى حال اتسد تواضعا من ان يطمحوا الى مثل هذا المطلب المرعب . انهم يرفضون ان يحملوه على كواهلهم كما يحمل اطلس الكرة الارضية ، ويفنعون بتعميق وتنويع السؤر القليل من المعرفة المتاحة .

وبتبدى عمل المؤرخ في وصف الماضى وكأنه عملية ترميم مسكينة ، وفي الفكر فقط ، لاناء اثرى رائع الهندسة كثير التهاويل والصور ، ممتلىء الجوانب بالحياة من كل لون وفح . . ولكن لم يبق منه سوى بعض الفتات الهامد !

واذا ما انتقلنا الآن من « موضوع » المؤرخ ومن أداة عمله التي هي أخبار الماضي الى عمله نفسه وجدنا انه يستند من جهة الى اسس فكرية ، بعضها من قبيل المسلمات المسبقة ، وبعض من قبيل المعطيات الاولية . كما يتبع في عمله من جهة اخرى مبادئ فكرية معينة ، وهذه وتلك تحتاج بدورها الى وقفة تحليل .

ثانياً : فاما المسلمات المسبقة والمعطيات الاولية في التاريخ فمعددة . المؤرخون يؤمنون بها كبداهيات في خلفياتهم الفكرية ، دون ان يابهاوا كثيرا بتفحصها او بالتعبير عنها في صفة او اخرى . وتذكر ان ناقشها حتى الباحثون في فلسفة التاريخ .

من المسلمات :

— **وحدة الطبيعة البشرية :** الستر بكونون في طبيعة تكوينهم « نوعا » منشأها واحدا . وان قومياتهم واجناسهم لا ترسم بينهم من الفروق الا القليل . والاختلاف العرقي ، الثقافي ، البيئي (الجغرافي) والاجتماعي (وهي اختلافات نعيدها بعض النظريات الى الجذور الاقتصادية ، وبعضها الى العرق ، وبعضها الى الفكر) واختلاف المواقف النفسية والمادية تبقى دوما قابلة للادراك والكشف والفهم والتحليل ، وتطويق الأثر من قبل البشر اللاحقين . انها صدى لوحدة « الطبيعة » وخضوعها لقوانين واحدة هذه الفكرة في وحدة البشر .

— **تعقد الطبيعة البشرية :** فهذه الطبيعة المتشابهة بين البشر ليست بسيطة التكوين . تعقدتها الداخلي لا يوازيه الا تعقد التفاعلات التي تكون بينها وبين العوامل الاخرى المؤثرة فيها ، من ارض وجو وبشر آخرين ، وهي بدورها عوامل معقدة كل التعقيد ، ومن هذا وذاك كله ، من محصلة التجاذب والتصادم بين هذه القوى المشتبكة يكون التاريخ .

— **ثبات السنن الطبيعية وتطور الظواهر الحية في وقت معا .** جدلية الاصرار على ان في التكوين سننا لا بد بالغة غاياتها ، وان الكائنات الحية وبخاصة منها الانسان في تطور متماثل لا يقف ، وان ذلك الثبات وهذا التطور مترابطان معا ، متزاوجان في نسق ومسيرة جدلية يسير في هديها واطارها معظم المؤرخين وان كانوا يتفاوتون في تحديد ذلك السر ، وفي وعى تلك الجدلية .

— **ان اخبار الانسان اى تجاربه الماضية وافعاله وذاكرياته جذيرة بأن يروى وتفهم ويدرس .** على هذه المسلمة يقوم التاريخ . ان رفضنا هارفضنا الاساس والقاعدة الواسعة التي يقوم عليها هذا النوع من المعرفة الانسانية . . عبثا تضخم المجلدات على الرفوف وتتكاثر ان لم يكن لها من معنى انساني محدد يدور الفكر من حوله في تحويم لا ينتهي أبدا .

— ان التاريخ ليس مجرد احداث طافية على سطح الزمن كما يطفو قطع الاختساب المنفصل بعضها عن بعض على وجه النهر . ولكنه يستند كالعلوم الاخرى تماما — الى فرضية مسبقة هي ان تمة قوانين تسير هذا النظام من الاحداث على التسلل الذى يجرى فيه لو كانت هذه الاحداث حرة من الترابط والالتصاق والتشابك الخلفى المحتوم بعضها مع بعض، لو كانت مطلقة السير والاصطدام والفرف والركض لأخذ التاريخ وجهاً آخر . لعله الوجه الشيطاني ، وجه التفكك المدمر لكل شيء . ولو آمننا بانفراط عقد الاحداث بلا ترابط لها ، بلا انصالها العميق فان ذلك ينافى مع مسيرة الكون فى الامور الاخرى كلها التي نجد الترابط فيها صارما واضحا نهائيا وحميا . واذا كانت القوانين المبسطة او المعقدة تُسيّر هذا النظام الكوني كله ، وكانت صحيحة الوجود بالنسبة لكل شيء فى الكون والحياة ، فمن غير المنطقي ان لا نفترض ان الانسان بدوره خاصع لهذه القوانين نفسها ، او لقوانين مشابهة فى افعاله . . اذن فهناك سنن تجرى فى اطارها الاحداث ، ولو انا نجهل تلك السنن . ولولا ذلك لم يكن للتاريخ معنى أو قيمة فكرية . ونستطيع ان نمشي بالتحديد خطوة اخرى ونقول : انه مادام الامور والاحداث فى الماضي قد جرت فى هذا المنحى دون المناهى الاخرى ، وعلى هذا الاتجاه دون الانجاهات الاخرى الممكنة ، فلا بد اذن من سبب خاص لذلك ، ولا بد من علل معينة جعلتها نسلك هذا التطور دون التطورات الباقية . لا بد من منطق سَيّرَها فيه لا فى غيره . التاريخ انما هو حصيلة « الممكنات » التي تحققت ضمن ظروف وحدود معينة ، ما كان يمكن أن يحدث غيرها . ولعل غاية ما يحلم به المؤرخون ليس اكثر من كتف المنطق الذى يحكم ما « يحدث » . . .

ومن المعطيات الأولى :

— ان التاريخ فعل أولا ثم كلمة . « حادث » يطفو من الاعماق الى سطح الحياة ، ثم تسجيل له قبل ان يفوص فى هوية العدم الى الابد . فى البدء كان « الفعل » حسب منطق التاريخ لا كما جاء فى سفر التكوين « فى البدء كان الكلمة » . . وهذا الفعل تلقائى يظهر من نفسه على شكل من الاشكال ، ولا يكون الا مرة واحدة لا غير ، لم لا يكون ابداً . ويبقى على المؤرخ ان يعرفه اولاً ، ثم ان ينسج كل التساكن الخلفى الذى سبفته وأعقبه ، وان يرسم كافة الدوائر التي انداحت على السطح بسبب ظهوره وغيباه . والفعل التاريخي ليس من صنع العقل . اولئك الذين يتصورون ان العقل الانساني يصنع التاريخ مخطئون ، لأن هذا العقل نفسه ما هو الا من بعض صنع التاريخ . ولأن الوافعة التاريخية فعل فهي ليست معطاة لنا كما تعطي التجربة الفيزيائية نتائجها ، ولكنها قيد التكوين دوماً بالنسبة للمؤرخ ، المواد الأولى التي يبنى منها عمله وعلمه هي دوماً مواد اولية تنتظر مكانها فى البناء . اما البناء التاريخي نفسه ففعل آخر مختلف ، ويحتاج الى مخطط وفلسفة ومنطق استثنائي وجهد طويل قبل ان يكمل .

— ان التاريخ علم « متزمن » هو الوحيد بين العلوم (١٤) الذى يفوم الزمن فى قاعدته . التاريخ ليس شيئاً سوى اضافته الزمن الى الحدث لتلاصيح اقصوصه او اسطورة . الحدث خلال الزمن هو الاسم البديل الممكن لكلمة تاريخ . دون زمن ، مة كيمياء وبيولوجيا وسوسولوجيا وما تشئت من عائلة « اللوجيا » ولكن ليس مة تاريخ . انه يسير فى فلك ذى ثلاثة حدود :

(١٤) باستثناء علم الموسيقى الذى يفوم بدوره على وحدات زمنية محدودة ومقاسة آليا .

الانسان والمكان والزمان . تلك هي ثلابة التاريخ الرئيسية التى بدخل على موضوعه المتحولات الواسعة المدى . كافة العلوم لا بدخل الزمن فى حسابها ، ولا يلعب بقوانينها الا عند حساب المتحولات . كلها تسير فى الابعاد المكانية الثلاثة الا التاريخ فانه لا يعيش ولا يوجد دون البعد الرابع : الزمن . كلها تسير فى اطار مقولتين : الواقع والمنطق اما التاريخ فيضيف اليهما ، مرغما المقولة الثالثة : الزمن التى تلعب بالمقولتين الآخرين . على أن الزمن التاريخي سلبي . وهو الزمن الذى انقضى ، وليس الايجابى الآتى الذى تعيش فيه باقى العلوم وتتطور . وعلى هذا الاساس فان كافة العلوم تتطور وتنمو فى فمها الا التاريخ فانه ينمو ويتطور وينمو فى اواخره . وكل العلوم تطورها يأخذ شكل القفزات والتطور الكيفى الا التاريخ فانه ينمو بشكل متماد ربيب يومى ، ويؤدى تراكم التطورات الكمية فيه الى التطور الكيفى ، والى القفزات التاريخية .

« لو جردنا التاريخ من عنصر الزمن الحسى لوحدنا أن مادته نفسها . أعنى التاريخ الخالص المؤلف من الوقائع فحسب ومن وقائع لا جدال فيها ، غير ذات معنى . الوقائع ليس لها فى نفسها معنى . . » (١٥) انما يأتيها المعنى من الزمن الانساني الذى يتصل بها فيعطىها مكانها من ماضى الانسان .

والزمن التاريخي اشبه بتيار الشعور عند **برجسون** . هو دفع مستمر حى ، ديمومة متصله الحركة ، الانسان وحده بين الكائنات هو الذى يعي الزمان والديمومة ، فلا الطبيعة تشعر بالزمان ولا الكائنات الحية الاخرى بالقادرة على ميميز آتات الزمان الثلاثة بين ماض وحاضر ومستقبل . **الديمومة** هي المقولة الاولى فى الزمن التاريخي اما النانية فهي **التغير المستمر** . واذا كان كل كائن حى فى تجدد دائم فالانسان هو الوحيد فى الكائنات ، الذى يشعر بذلك التغير ويسجله ويعطى الحياة البشرية بذلك وحدتها ما بين الامس والغد . اما المقولة الثالثة فى الزمن التاريخي فهي **التنوع** ، تنوع الافعال وردود الافعال . الحياة الانسانية لا تتغير فقط ولكن تخصص باستمرار . تزداد غنى وتنوعا وتعقد وتركيبا بالتأثير والتأثير المرتد ، وتنامي المعرفة ، وتشعب الفكر والعمل . مجموع هذه المقولات الثلاث المميزة للزمن التاريخي هي ما يمكن ان نسميه بحس الماضي او الحس التاريخي ، فالانسان كائن تاريخي بقدر ما هو كائن عاقل او ناطق أو كاتب أو مفكر . . ولهذا فان حاضر ومشحون بالماضي بقدر ما هو مشحون بامكانات المستقبل . الماضي موجود فيه بالفعل بشكل فكر وانظمة وتراث وتقاليده ، والمستقبل موجود بالقوة بشكل امكانات تستعد للتحقق .

والتاريخ ، لأنه صورة الانسان ليس مرتبطا بالزمن فحسب ولكن بمقولاته الثلاث ايضا من ديمومة وتغير وتنوع . وسير الانسان فى الزمن يضيف اليه باستمرار جديدا فى المسيرة . ان تاريخ البط او الحمير او النخل او البقول لا يضيف اليها اى شيء . الوحيد بين الكائنات الذى يضيف اليه التاريخ « جديدا » هو الانسان . ومن هذا الجديد المستمر يتكون « التراث » الانسانى الذى لا تملك جماهير الابل او السمك او جموع شجر التفاح وجذور البصل شيئا من مثله أرايت هل للطير من تراث ام لاطنان القمح ؟

— ان التاريخ على المستوى نفسه ، علم « متمكن » او مكاني ، ارتباطه بالمكان لا يفصل عن ارتباطه بالزمان . ان احداثه انما تتم بالضرورة في مسرح هو « الارض » وفي مكان محدد منها ، وتحكم معطيات ذلك المكان (الطبيعية والاقتصادية والبشرية والسياسية) في حدة واهمية وتوتر الحدث وتعطيه ابعاده التي تتناسب معها . الجغرافيا هي احدى حقائق التاريخ واحدى مقولاته واحدى العوامل الكبرى المؤثرة فيه . يحكم في ظهور المدن في مواقع محددة كما منعها الظهور في مواقع اخرى . وتحكم في اتصالها وصدامها وتفاعلها في اقاليم اختارتها الجغرافيا ولم يخترها التاريخ ولا الانسان ... للدرجة التي كان فيها بعض من اعظم النظريات في تفسير التاريخ ذا اساس جغرافي . . اليسست نظرية التحدي لوينيبي كذلك ؟ اليسست النظرية المادية التاريخية ذات جذور اقتصادية في الانتاج وفي المجتمع ؟ بدون المكان الجغرافي يقف التاريخ في الفراغ . وليس من حدث يجري في فراغ .

— ان التاريخ حركة مستمرة وتغير دائم في احجام والوان وآثار وتاثيرات الاحداث وفي اعمارها وعمقها وهذه الحركة لبسب بذات وتيرة بسيطة . او مسار وحيد معروف ، ولكنها ذات الفراس والف ذبل والف مسار . والتاريخ في التعبير عن تلك الحركة انما يعتمد على اللفظ اللغوي . اللفظ ، بجانب كونه سكونيا ، ذو ابعاد محدودة في المدى التعبيري امتدادا وعمقا وانصلا . . نمة هوة واسعة وتفاوت كبير اذن بين الواقع والصورة . ولقد نكتشف الهوة ان نحن مشينا بعض الخطى وراء الحركة التاريخية وابعادها المتشبكة ومنطقها المعقد في العمل .

حركة التاريخ لا تسير اتفاقا في الكون ، ولكن لها دون شك فلكها المحدد . وليس هذا الفلك على شكل خط مستقيم ممدود بين الازل والابد ، ولا شكل دائري مغلق ، ولقد يكون على شكل لولبي ، ولكن فيه آلاف المسارات معا ، وفيه آلاف الخطوط المتشابكة المتدفقة تدفن النهر والسيول . وفيه الكثير جدا من التشعب والتراجع والاضطراب والتحول ، ومن البطء والسرعة في وتيرة السير . لا يحضن كل اولئك الا الزمن ، والا الارض كمكان (حتى الآن على الاقل) . وكما تمشي الافلاك في فضاء لا نهائي كذلك يمشي التاريخ في فضاء من الامكان لا اوسع ولا أبعد . . ويمشي لمستقر له أو لا مستقر له ... (١٦) . . المسيرة التي يمكن ان نسميها بالمصير .

وفي هذه المسيرة المتعددة الخطوط والاتجاهات والاعماق تتفاعل الوان العوامل في صياغة الاحداث ، فللصدفة مكانها ودورها ، ولجدلية التناقضات مكانها الآخر ، وللعناصر المادية اتارها ، كما للمثالية والميتافيزيك . وللتحدى دوره كما للهزات النفسية او للخبر او للأسطورة ادوارها الفاعلة . تمة تيه واسع من العناصر المتفاعلة التي تلعب كلها معا ، في رحاب القوانين الدقيقة التي تحكم حريتها الحركية لتنتج / « اخطر محصول انتجته كيمياء العقل » فقط ، كما قال **فاليري** (١٧) ولكن بكل تأكيد اعقد مادة انتجتها تلك الكيمياء وهي : أحداث التاريخ .

وفي منتهى نفاذ الفكر واشراقه الشفاف على الماضي بكل عناصره وتعقده يأخذ التاريخ في نظرية الالعب هذه ، التي نعرض لها عابرين ، شكل نسيج هائل التعقيد من العوامل التي تلعب

(١٦) في الآية القرآنية الكريمة : « والشمس تجري لمستقر لها » . وفي قراءة ثانية « ... لا مستقر لها » .

(١٧) انظر : Valéry, P. : Regards sur le monde actuel (Ed. stock, 1931, P. 63).

- وليس بمة كلمة اخرى يمكن ان تكون أحسن وصفا لحركتها الحرة المقيدة من كلمة لعب - بعضها مع بعض ضمن قوانين بالغة الصرامة ولكنها في الوقت نفسه بالغة الحرية لعب الكروموزومات في نواة الخلية الحية (او الالكترونات حول نواة الذرة) وبهذا الشكل يصبح الكون والحياة مشحونين بعدد لا ينتهي من الاحداث الممكنة التي يتجدد امكانها في كل لحظة والتي قد تقع كل لحظة ولكنها لا تتحول لسبب او لآخر الى واقع اى الى حادث تاريخي الا في بعضها فقط . والحدث التاريخي الذى يظهر نتيجة لذلك اللعب ليس اكثر من « مكان » واحد من ملايين الامكانات التى كانت قابلة للوقوع وأجهض امكانها فلم تقع . . كما انها في الوقت نفسه نتيجة تفاعل عدد من العوامل الحية الخبيثة التى لا يكاد يظهر منها للباحين - مهما دفعوا البحث والتدقيق قدماً وسرياً - الا بمقدار ما يظهر الجمديات الطافية فوق سطح الماء من كتلتها الكبرى الغاطسة تحت السطح الأزرق .

واذا كان التاريخ لا يسجل من « الاحداث » الانسانية التي تقع بالفعل الا النزر اليسير اليسير ، فانه في الوقت نفسه انما يسجله من الخارج وبالتصوير الوصفي اللغوى . . . وذلك النزر وهذا الوصف هما اقصى ما يملك المؤرخ من عدة علمه . . وهما وحدهما معطياته الاولى ، ونقطة انطلاقه دون كل الخلفيات السابقة .

تالاً : ميكانيكية العملية التاريخية :

وعملية التاريخ هي في الاصل ممارسة فكرية عفوية لحد كبير ، ولم ينخل عنها البشر منذ عرفوها اول مرة . ولعلها كانت موجودة فيهم بشكل شفهي قبل ان تقيد انواع التسجيل الكتابي من جيل الى جيل ، انها عملية مستمرة لم تهدأ منذ وجدت اول مرة ، وليس الذين يقومون بها هم المؤرخون فقط ولكن نمة جمهورا واسعا جدا من « الهواة » يعمل عليها (اصحاب المذكرات . الباحثون الاجتماعيون والسياسيون . الادباء . الخ) بل ان الناس جميعا يؤرخون - ولو باحاديث في الهواء - ولا يدرون تماماً انهم يؤرخون . . . مثل جوردان في ملهة **موليسير** (البورجوازي المتمدن) الذى كان يقول النثر طول عمره ولا يدري ! . . الخطوة البدائية في التاريخ مرض واسع الانتشار هو نوع من الادب او حديث السمر . ما اكثر المتطوعين فيه ! . . ولكن هذا التاريخ العفوى ، رغم انه يشكل جانباً من مادة التاريخ ، ليس هو التاريخ الذى نفصد والذى يقوم على عملية فكرية هدفها المنة الماضي ، ومعرفته واعادة تكوينه وتحليله على اساس منهجي .

وميكانيكية هذه العملية يمكن ان نلاحظ فيها عدة ملامح :

١ - « . . اى محاولة للنظر الى التاريخ كشيء يماثل في بساطته للادراك الحسي يجب ان تكون خاطئة . . » (١٨) .

ان بسطها على اساس سلسلى نكتشف في صلبها اربع مراحل منعابة من التاريخ بأخذ مخططها الهيكلى الشكل المبسط التالى :

الحدث التاريخي ← شهادة (على شكل رواية أو وثيقة أو أثر) ← تصور وجود سابق (على شكل استعادة فكرية متصورة للماضى) ← معرفة لاحقة (تنظيم فكرى

منخل للماضي في اطار المفولة) « تاريخ مكتوب (من خلال قدرة المؤرخ الذاتية على التعبير) . . . فكأنما يصنع التاريخ تم يصنع اربع مرات على الاقل ما بين حده الاول الذي هو « الحدث » او الواقعة التاريخية وما بين شكله الاخير الذي هو التأريخ . وما من احد بالطبع يستطيع ان يؤكد ان « الحقيقة » التاريخية قدحافظت على صفاتها وذاتها عبر هذه المراحل .

ب - فاذا ما نظرنا الى عمله من زاوية « النوعية » وجدنا انها في جوهرها انما هي نقلة في طبيعة المعرفة التاريخية ذاتها من مرحلة الادراكات البسيطة الى مستوى « الفقه » الواعي للواقعة والاستيعاب العلمي ، من الوصف التاريخي البسيط والاشارات الى التحليل والاستنتاج والتركيب ، من المتساهده العاديه السلبية الى حدود العقلية والمنطق التنظيمي . وهنا ايضا لسنا ندرى بالضبط نصيب الواقع ونصيب الاضافة الفكرية الى الحادث التاريخي انشاء هذه النقطة !

ج - ثم ان المؤرخ من حيث فلك العملية التاريخية لا ينطلق من الحدث التاريخي وانما ينطلق من الحاضر ، يعني مما يعرف الحاضر عن الحدث . وبمنظار الحاضر وعدته يسير ليعود في النهاية الى الحاضر ايضا . خط حركته يسير من الحاضر الى الحاضر ، كل بحث تاريخي فانما هو رحلة الى الماضي تنتهي بنقطة الانطلاق نفسها . وينطلق المؤرخ بعده من نص تاريخي او وثيقة او اثر ليعود من مفارقة الماضي السحرية المألئ الفرائب والمجهول بكشف جديد يضيفه الى المعرفة المتوفرة في الحاضر . وهكذا يبدو عمل التاريخ نوعاً من اعمال الريادة والاكتشاف المستمر لعارات زمنية جديدة فيها كل ما في أعمال الارتداد من معنى الرعب وتلمس الطريق والمفاجأة والضلال . . . والوقوع احيانا على كنز او في كمين لصيد الوحش !

د - والعملية التاريخية ، الى هذا او ذاك من حيث اتجاه الفكر ، عملية استحضر تراجعية ، فيها الكثير من الكشف : **فريدريك شليجل** يطلق على المؤرخ العظيم اسم « النبي الاسترجاعي » لأن عمله نبوءة الماضي . نحن نتمثل التاريخ في رحلة تصورية ذهنية تجري بعكس الزمن . العلوم كلها - عدا ما يتصل منها بماضي الارض وجذور الانسان - متجهة دوما من الحاضر الى الفد . تفتش عن القانون والتنبؤ لأن الفد نبؤ ، اما التاريخ فهو متجه بالعكس من الحاضر الى الامس يفتش عن النور والكشف لأن الامس يحتاج الى النور والكشف . ومن الكليات المضللة ما قد يقال من انه « لا جديد تحت التمسس » فمنذ زمن طويل عرفنا ان في كل لحظة جديدا يولد وقديما يموت ، في ملحمة تجديد لا نهائية الفعالية والحدود .

« وان ما يحدث في الزمن ز + ١ مختلف عما حدث في الزمن ز . الحدث لا يتكرر لأن الزمن لا يرجع القهقري . . . والزمان (التاريخي) سلسلة من الاحداث » كما يقول **ميهل** (١٩) . واذا كان ليس نمه بيئة طبيعية حول المؤرخ كالتى كانت في امس الفابر وليس ثمة من انسان من ذلك الماضي لأنه في الوقت الذي صنع فيه التاريخ صنعه التاريخ بدوره وغيره من طبيعته ، وليس ثمة من زمن طبيعي مع تطور الحياة في دورانها الرهيب الحديث ومع تعدد الازمان بين زمن فلكي ميكانيكي وفيزيولوجي وتاريخي ونفسي . . . اذا كان كل اولئك فان عملية الاستحضار التراجعية التي نسميها التأريخ معرضة للكثير من المجازفة والتهيه . . . انها بشكل

من اشكال التشبيه عملية تنقيب انرى تأخذ شكل الحزبون المخروطي في الاتجاه نحو الماضي المظلم بالانقراض . وميدان الحفر ووسائله في هذا المجال ليست مادية ولكنها فكرية . وتجري عمليات السبر والحفر والكشف وجميع الفئات والبقايا والملاحع لاعادة تكوين الحقائق الضئيلة التي يريد مجموعها ان يقول : هذا هو الانسان في بقعة كذا زمن كذا ، طبقة كذا .. وقد نكون العملية حتى هذا الحد المادى صحيحة ممكنة ولكن اركانها تضطرب متى وصلت ميادين الفكر والتطورات الاجتماعية وحدود الفن والاقتصاد واللامادة . وتصبح عملية التنقيب ، في كثير من الاحيان - وبسبب ندرة الوثائق مجرد مغامرة تأملية - او شطحة من التصور الذاتي - ولكن في الفراغ !!

وليست عملية الاستحضار المذكورة هذه مع ذلك عملية بسيطة ، ليست حركة ذهنية في اتجاه واحد وتحقق مرة واحدة ولكنها اشبه بعملية « المكوك » في النول لا يتم النسيج الا بحركتها الجدلية الدائبة التي لا تقف بين حدى القماش : الحاضر والماضي . وقد اشار (مارو) الى ديناميكية الفكر هذه (التي تجرى ايضا في غير مجال التاريخ) بقوله : « .. ان المؤرخ يبدأ بأن يطرح سؤالاً لم يكون ملفاً من الوثائق المختصة به يؤدي التحليل المبني الى اعطاء كل منها درجة ما يمكن ان تحويه من امور قابلة للتصديق . انها مع ذلك صورة اولية جدا : فالتقدم بالمعرفة (التاريخية) يتحقق بهذه الحركة الجدلية الدائرية ، او بالاحرى الحزونية التي يمر فيها عقل المؤرخ بالتتابع والتبادل من موضوع بحثه الى الوثيقة التي تشكل الاداة فيها ثم بالعكس .. والسؤال الذي اثار الحركة لا يظل هو نفسه لأنه لا يكف عن التغير ازاء معطيات الوثيقة .. » (٢٠) . ويتعلق تغير السؤال في الاتجاه الصحيح ، ومدى صحة الاجوبة المستخلصة عليه بقدرات المؤرخ الفكرية والثقافية ، وبكفاية الوثائق تحت يده .. وكثيرا ما يضطرب احد هذه الحدود ، او ندر الوثائق فتكون الحقائق التاريخية المستخلصة بنت وجهة نظر شوهاء ، اشبه بالصورة في مرآة سيئة الزجاج او طولانية التقرع .

هـ - ولا يعني هذا ان التأمل الشخصي ليس من عملية التاريخ . انه يقوم في اساسها . ان ميدانها الرحب ليس الطبيعة كما في العلوم الباقية ولكن في الفكر وما وراء الجبين . لكن التأمل لا يجري في غيبات الميتافيزيك او نزوات الخيال . ان عمله لدى المؤرخ يقتصر على ادراك المعلومات من جهة ، والخروج بها نفسها من دائرة الوعي الى دائرة التحليل والبناء والتعبير . هو تأمل يخرج من الواقع ليعود اليه . متى فقد الارتباط به استطاع ان يكون كل شيء الا ان يكون تاريخا . ويدخل في نجاح هذه العملية ، وفي فشلها في وقت معا ، اختيار المؤرخ للمعلومات والوثائق والآثار الاولى ، وتقييمها وتفصيل بعضها على بعض من جهة كما يدخل في ذاك بشكل طردى موهبة المؤرخ الفكرية واستعداده العقلي من جهة وثقافته الشخصية ومدى ابعادها من جهة اخرى . وهذا ما دعا باحثا مثل مارو Marrou لأن يضع هذه العلاقة بين التاريخ

$$(ت) \text{ والماضي (م) والحاضر (ح) بشكل رياضي مبسط : } \frac{1}{ح} = ت$$

ويقول : « .. انني اريد بكل بساطة عن طريق هذه الصورة ان اوضح واقعة هي انه كما ان كبر العلاقة في الرياضيات هي شيء آخر مختلف عن كل حد من الحدود فيها فكذلك

الامر في التاريخ . انه العلاقة والانصال اللذان يقومان بمبادرة من المؤرخ بين مستويين للانسانية : الماضي المرئي بواسطة الناس القدماء ، والحاضر الذي يبذل فيه الجهد لاستعادة ذلك الماضي ، وذلك لمصلحة الانسان ، والبشر الآتي . . . » (٢١) .

و - والتاريخ اخيرا من حيث الاداة عملية وصف مقل لا سرد وقائع ولا اعادة حياة . هو نفلة في الفكر من كلام سكوني الى كلام سكوني (والأثر الأخرس نوع من الكلام والشهادة البكماء) للتعبير عن حدود حياتية حركية . وما يقال عن « اعادة الماضي » و « ذكر ما حدث بكل دقة » و « تمثيل الحياة البشرية كما كانت » وما اليهامن تعاريف العلماء للتاريخ ليس اكثر من مطامح النمل في بناء قبة فلك . . . ان التاريخ انما يعتمد في الواقع في كمال الصورة وصحتها على قدرة الكلمات وعلى مدى ايحائها بالصور . والكلمات ليست بالنسبة الى الواقع الحي اكثر من وسائل سكونية محدودة المدى والامكان ، ان الماضي كحياة يتجاوز طوق كل مؤرخ . وقصارى ما يستطيعه انما هو الوصف التصوري في حدود ما قد يكون وصل بالصدفة الى علمه ويده . . .

أما اليقين فلا يقين وانما اقصى اجتهدى أن اظن واحدسا

على حد قول المعرى القديم . . وينتهي التاريخ باعادة تكوين الماضي بشكل منطقي ولكن في اطار أدبي . واذا كان بعض المؤرخين ينتهي بالاجابة على « كيف ؟ » وكان لدى الكثيرين الطموح للاجابة على « لماذا ؟ » فليس بمؤرخ ذلك الذي يكتفي برصف جداول السنين والوقائع . وقوائم الاسماء والوفيات ! تلك الهياكل العظمية للاحداث التاريخية ما من مؤرخ يعتبرها اليوم تاريخا لأن « الادب التاريخي » هو لحم التاريخ ودمه وان كانت ثمة مسافة من البعد ! وهوة سحيقة غير قابلة للاجتياز - حتى الآن على الاقل - ما بين هذا الشكل الادبي وبين الماضي الحي . . يضاف الى هذا ان التاريخ يخضع اثناء النقلة من لفظ الى لفظ لما تخضع له الاستخدامات اللغوية والتقنية والمنطقية من تحول عند اعادة البناء ومن غموض يعرضان الصورة الاصلية لالوان الابهام والتغير . . .

كان التحليل السابق كله منصبا على نوع التفكير التاريخي وطبيعته المخالفة لطبيعة المعارف الاخرى ، وكان رغم طوله ، ورغم طابعه النقدي التحليلي ضروريا لنستطيع الاجابة على السؤال الاساسي الذي طرحناه في مطلع البحث : هل التاريخ علم ؟ وهل من الممكن وجود علم تاريخي ؟ واين ينتهى حدود هذا الامكان ؟ لقد حمل التحليل السابق في الواقع نصف الجواب ، أما النصف الثاني فنبحث عنه في المقارنة بين العلم والتاريخ .

رابعاً : بين العلم والتاريخ :

يقول المؤرخ بيورى ، وهو آخر سلسلة المؤرخين « العلميين » الذين انتجهم القرن التاسع عشر ، قرن التاريخ : « التاريخ علم لا اكر ولا اقل » وقد كرر هذا التاكيد قبل بيورى وبعده جميع اولئك المؤرخين الذين اصرروا امام انتصارات العلوم الطبيعية وفوزها بتسليم الجميع وبقياة الرفاه الانساني ، على الصاق التاريخ بالعلم الطبيعى ووضع عنوان « العلم » على بابهم بالمسامير . كانوا يريدون من خلال التاكيد المتكرر على عملية التاريخ نفي تلك الريب التي تلاحقهم حول قيمة

« التاريخ » العلمية . . لم يكن السؤال - المشكلة موجودا قبل القرن الماضي . اربعون قرنا ظل التاريخ قبل ذلك ، اما سجلا لاعمال الملوك أو فنا من فنون الادب يروى القصص للتسلية أو للاعتبار الخلقي أو ملحقا بالمعارف الدينية اقصى همه البرهان على فطرة الخالق البارئ .

وحين اعلن رانكه الالماني سنة ١٨٢٤ كلمته التي اشتهرت فيما بعد من ان التاريخ هو « تصوير ما حدث بالضبط » . . ثم اعلن هيشمليه الفرنسي انه « بين بوصوح وبساطه كيف انبتع الاشياء » . . اعتبر المؤرخون انهم ظفروا اخرا بمنتهى الموضوعية التي يطلبها العلم . وان رانكه انما اعلن ميلاد « التاريخ العلمي » ولم يبق عليهم الا تحديد الطريق الذي يصلون به الى « ما حدث بالضبط » اذن فهي العملية التامة والموضوعية الكاملة . . لم يتنبه احد منهم الى أن كلمة « ما حدث بالضبط » هي المشكلة ، ومع انهم ما يزالون الى اليوم يبدأون تعريف التاريخ بعبارة « التاريخ علم . . » الا انهم منذ زمن طويل قد كفوا ، في الواقع ، عن طموحهم الرانكاوي (نسبة الى رانكه) واصبحوا أكثر تواضعا بكثير مما كان . المؤرخ هنري ت . باكل H. T. Buckle قرب الهدف قليلا حين قال في مقدمة كتابه تاريخ الحضارة في انكلترا ، بعد ان انتقد اخفاق المؤرخين وعجزهم عن السمو فوق الحقائق الجزئية وعن استنباط القواعد العامة ، انه يأمل « ان يحقق لتاريخ الانسان شيئا يساوى او يقابل . . (ما حققه) الباحثون الآخرون في مختلف فروع العلم الطبيعي » (٢١) م .

تم لما قفزت نظرية التطور ، مع داروين ، الى مركز الاهتمام الفكري ، جاء كارل لامبرخت الالماني في اواخر القرن الماضي يقترح ان يحل محل كلمة رانكه شعار آخر هو ان عمل المؤرخ ان يعرف « كيف تطورت الامور بالضبط » . وظهر اثر ذلك اصطلاح « التاريخ التطوري » في محاولة للحلول محل التاريخ العلمي .

وظن فوستيل دي كولانج انه عثر على مفتاح اللفظ العلمي في التاريخ حين اكتشف ان في التاريخ وثائق ونصوصا اثرية وسجلات وثائقية يمكن ان تكون منطلق البحث التاريخي وهكذا كان يردد دوما على تلاميذه سؤاله الشهير : « هل لديكم نص ؟ » معتبرا انه « لا تاريخ بدون نصوص » لانه - كما قال - « علم لا يتخيل بل يرى . وهو نظير كل علم . ينظر الى الاحداث ويحللها ويقارن بينها ويحقق الروابط القائمة بينها . والمؤرخ يبحث عن الحدث ويدركه . بدراسة النصوص بامعان ودقة . والطريقة واحدة في كل علم مؤسس على الملاحظة الدقيقة . . » (٢٢) . وبلغ هذا الاتجاه الوثائقي اوجه على يد لانجوا Langlois وسينيوبوس Seignobos اللذين اعتبرا ان « التاريخ انما يصنع من النصوص » واصرا في كتابهما الذي اشتهر في اواخر القرن الماضي (المدخل الى الدراسات التاريخية) بأن « التاريخ هو علم دراسة الوثائق واستعمالها » (٢٣) . ومنتهى طموح المؤرخ ان يتناول الوثيقة . « فيبحث في كيفية صياغتها وفي مصدرها لاعادتها الى اصلها وهذا ينطبق على الخط واللغة والشكل والمصادر وهذه كلها اعمال « النقد الخارجي » اما النقد الداخلي فيدور على التعليل والقياس التشبيهي المبنيين على اساس نفساني يصور لنا نفسية

Buckle, H. T

(مكرر ٢١) انظر باكل

— His of Civ in England (Oxf. Univ. Press, London, New York 1903-1904) Vol. I, p. 3-4.

(٢٢) انظر جوزيف هورس - قيمة التاريخ ص ٥٦ الذي نقلنا عنه النص .

Langlois et seignobos : Intr., aux Et. His. p. 1 et 275

(٢٣) انظر

كاتب الوثيقة وما عني من قوله . وهل هو مقتنع بما كتب وهل هو محق في اعتقاده . . » (٢٤) وينهى المؤلفان كتابهما بتأكيدات قاطعة تقول : « . . . ان الشكل العلمي للعرض التاريخي يكون وبت منذ خمسين سنة وهو يتفق مع الفكرة العامة التي نضع للتاريخ هدفا واحدا هو المعرفة لا المتعة ولا وصف الملاحظات ولا اسارة العواطف . . » .

ونقول : « . . وسيأتي يوم ننجلي فيه جميع الوثائق القديمة وتترتب بفضل تنظيم العمل وتثبت الحوادث التي لم يعرف ارضا . عندئذ يتكون التاريخ ولكنه لن يكون مع ذلك راسخا اساسيا موطد الاركان اذ ان ذلك يستلزم توحيد الابحاث التركيبية الافرازية على يد خبراء يقيمون منها عملا انشائيا شاملا . فاذا خلصت من هذا العمل بنتائج واضحة وحجج دامغة تفسر تطور المجتمعات الانسانية وتبين مراحل تاريخها كان ذلك فلسفة للتاريخ قائمة على قواعد علمية . . » (٢٥) .

واذا سجل كتاب **لانجلوا وسينيوبوس** اوج الخط العلمي التاريخي في المدرسة الفرنسية فقد ظهر كتاب من مثله يسجل اوج « العلمية » التاريخية لدى الالمان حين اصدر **ارنست برنهايم** كتابه : « تعلم المنهج التاريخي والفلسفة التاريخية » (٢٦) . ولحقته بالكتابين من بعدهما كتب مماثلة في انكلترا وامريكا كتب **جونسون ونيفينز** Nevins وغيرها .

على انه لم يكد ينتهي العقدان الاولان من هذا القرن الحالي حتى اهتزت هذه الثقة المطلقة وبدأت الفلسفة النقدية حين بدأ يتكشف للباحثين مدى السذاجة الكبيرة وبساطة الفكر في هذه الدوغماتية العلمية التي كانت تلهب هوس الباحثين في القرن الماضي . عدد من مفكرى المائبة خاصة وفرنسا وانكلترا فيما بين الحربين تقبوا هذا النسيج الرقيق الذي نسجه اولئك المفكرون السابقون وكتشفوا تهافتة الساذج . ابحاث **سيميل** Siemmel و**لهلم دلتاي** Dilthey ، **فيبر** Febvre و**كولنجوود** Collingwood ، **آرون** Aron ، **ريتشي** Ricci و**كروتشيه** Croce خلقت في موقف التاريخ « العلمي » نوعا من الازمة وفضحت الثغرات هنا وهناك فيه ، لا في محاولة لهدم علميته في الغالب ، لكن لتحديد مداها وحدودها على الاقل . اضحى التأكيد على علمية التاريخ ، على اساس الشعارات المعلنة في القرن الماضي كقطعة النقود البالية ، يهرؤها التداول بعدد ما تحاول الايدي في الوقت نفسه ان تتخلص منها . ان العلوم الاجتماعية والتاريخ واحد منها ، لا يبدو الى الآن انها وجدت « جاليلها » او « نبونها » الذي يكشف لها المفتاح الذي كشفه غاليلو ونيوتن للعلوم الطبيعية . واذا صادف بعض المناهج العلمية بعض النجاح في بعض العلوم الانسانية كعلم النفس متلاو بعض العلوم الاجتماعية النظرية كالاقتصاد ، فان الفشل كان الطابع العام لتلك المحاولة التي حاول بها العلماء غزو العلوم الاجتماعية والتاريخ في اولها ، بالآلات ووسائل العلوم الطبيعية . وكان الفشل من القسوة والتكرار بحيث عادوا مضطرين ، الى التساؤل عما اذا كان من الصحيح قياس الانسان بمقاييس الطبيعة نفسها او اصطناع وسائل العلم الطبيعي

(٢٤) اخذ النص عن جوزيف هورس - قيمة التاريخ ص ٦٠ .

Langlois et seignobos .

(٢٥) انظر

— Introduction aux. etudes historiques pp. 263 et 277

(٢٦) ظهرت الطبعة الاولى من كتاب Ernest Bernheim في لبيزغ سنة ١٨٨٩ .

في ميدان العلوم الانسانية . على ان المشكلة المركزية في الحوار وهي « علمية التاريخ » بقيت معلقة بين جميع اطراف الحوار . والجدل من حولها بقى قائما لا ينقطع ما بين مؤيد ورافض وباحث عن طريق جديد .

ليس بالامكان اليوم رفض علمية التاريخ عن طريق اتهامه بالفيبية وبملاحقة آفاق الميتافيزيك الرئبكية . منذ زمن طويل ودع التاريخ هذا الطموح « الفراغي » . وكما استبعد العلماء الاسباب العلية الاولى ، او النهائية للوجود والاحداث . ليتوقفوا عند الطبيعة ذاتها والمحسوس المقاس من احداثها وقيّموا « العلم » الخالص كذلك فعل التاريخ . كان هذا العبء الضبابي اول ما القاه عن كتفيه من الانتقال والمهام . اضحى كشف اسباب الوجود والعلل الاولى ، وميتافيزيك الحياة ، من خلال احداث التاريخ واستخلاص قاعدة حياتية يمكن فرضها ، فوقيا او غيبيا على المجتمعات والافراد ، خارج نطاق التاريخ . كان ذلك على الاقل لأن المقدمات المنطقية والاساسية لمثل هذه الشطحات غير كاملة فيه . انه لا يملك منها الا العرّض المتحول . اما الجوهر والثابت فلا . اقصى الازل وأبعد الأبد اصبحا اليوم وراء حدود الطموح التاريخي باتفاق المؤرخين ، يقول دلتاي : انها لخرافة تلك التي ترى في عمل المؤرخ سرا شبيها بسر الابحاث السيميائية التي كانت ترمي الى معرفة سر الكون في محاولة تحويل المعادن الى ذهب خالص . كيف للمؤرخ ان يستخرج من المادة الصماء والحوادث الصامتة ذهب التجريد والسببية ويصل الى سر الحياة الانسانية ؟ » (٢٧) .

ان آفاقا اخرى من الجدل العلمى بين الباحثين الى اليوم حول علمية المعرفة التاريخية . ولعل بالامكان ان نللم ذلك الحوار الواسع الممتد على مدى قرن ونصف القرن وأن نضيق آفاقه ونضعه ضمن اطاره ان نحن حللنا عمل المؤرخ نفسه اولا فهذا العمل في واقعه يتألف من عملية او مرحلتين اثنتين ، تختلف احدهما عن الاخرى اختلافا كبيرا في الطبيعة والهدف . ولعل القفز الفكري بينهما هو الذى يوقع الكثيرين في الالتباس ويجعل من « الحوارية » حول علمية التاريخ حوار الطرشان :

المرحلة الاولى من عمل المؤرخ : تتناول تنظيم الوقائع وكشف تفاصيلها وتثبيت الحقائق المتصلة بها وبظروفها . وهو عمل « وصفي » ولكنه في الوقت نفسه عمل علمي دقيق ، وعن هذا العمل بالذات تتكلم سلسلة المؤرخين العلميين الممتدة ما بين رانكه الى سينيوبوس . ولكن المؤرخ اذا اكتفى بهذه المرحلة فانه لا يعدو ان يكون آلة تسجيل كرونولوجي . وفي احسن الاحوال مصورا فوتوغرافيا سكونيا للمادة الهامدة . ولا قيمة للتاريخ الذى يعطيه مثل هذا العمل الا من حيث كونه مادة اولية للمرحلة التالية .

المرحلة الثانية : وعملها تحليل الوقائع وتعليلها وبيان ترابطها السببي . وهذا العمل فكرى تجريدى ، ولكنه في الوقت نفسه ليس بعلمي تماما ، لانه وان اشبه العلم في البحث عن السببية ، الا انه يعتمد على الاجتهاد الشخصى والاحكام الذاتية والتخمين ، لأن الاحاطة بالاسباب تفوق الطرق .

والمرحلة الاولى رغم علميتها المتمثلة في دقة الارتباط بالواقع ليست بعمل علمي كامل لان اساس العلم كشف السببية والمقامة التسلسل الزمني لا يكفي لمعرفة السببية ، اما الثانية فان السببية التي تنكشف فيها لا تعدو ان تكون « فرضيات » وقفزات في المجهول لا تخضع لاي برهان حاسم سوى المنطق والامكان . . ونستطيع القول ان الوظيفة العلمية الحقيقية في التاريخ تبدأ حيث تنتهي الوظيفة الوصفية ، وهذا يعني انها تبدأ حيث تنتهي التسلسلات الزمنية والوصف في المرحلة الاولى ويأتي التفسير والتعليل في الثانية .

وهكذا تبقى مشكلة « العلمية » او « الموضوعية » في التاريخ اذن متصلة بأمرين هما اليوم اساس « علمية » العلوم كلها :

الاول : ضرورة التطابق الكامل ما بين « حدود » التاريخ وصفاً وتسلسلاً ، وبين حدود الحقيقة أو الواقع ، بحيث تمر المعرفة التاريخية في غربال المنهج العلمي ، وتكون نتيجة مباشرة له ، وبحيث تطرد « الذاتية » بعواصفها واهوائها خارج السطور .

الثاني : امكان وضع القانون التاريخي ، اى وضع علاقات الاحداث ضمن صيغة رياضية كلية تفسر الواقع التاريخي وتعلله سببياً وتسمح - بالنتيجة - بالتنبؤ وبأن نصبح - على حد قول ديكرت - « اسايادا ومالكين للطبيعة . . » وللمستقبل !

ان علمية التاريخ انما تنوس في الواقع ما بين هذين القطبين . واذا نحن استخدما الاصطلاحات المدرسية ، وقلنا ان العلم هو المنهج وهو السير من الجزئي الى الكلي ، ومن الفردي الى العام ، ومن الشخصي الى الموضوعي ، ومن المحسوس الى المجرد ، والانتهاى بكشف العلاقة السببية الكلية ضمن مبدأ الحتمية . . الخ . فالسؤال يتحول عند ذلك الى ان نعرف اين تقع عملية التأريخ المزروجة الحد في هذا المنهج المتعارف عليه للمعرفة العلمية ؟ .

قبل ان ننطلق في تلمس الجواب نقف عند رأى يجعل نقص « العيار » العلمى في التاريخ من ذنوب المؤرخين . يجعل ضعف الموضوعية نتيجة للذاتية المؤرخ الباحث . المؤرخ « هالكين » حاول ان يلخص مشكلة التاريخ العلمية في تلك العلاقة الذاتية القائمة بين « الحدث » وبين « المؤرخ » قائلاً : « التاريخ للاسف غير منفصل عن المؤرخ » (٢٨) . وتابعه في ذلك الكثيرون ومنهم مثلاً « مارو » Marrou الذى قال « لو انا القيناعن الفلسفة النقدية للتاريخ مبالغاتها الجدلية وصيفها المتناقضة فانها تؤول في النهاية الى توضيح الدور الفعال الذى يقوم به المؤرخ في فكره وشخصيته في تكوين المعرفة التاريخية » (٢٩) . والواقع ان المشكلة انما هي في « طبيعة الموضوع التاريخي » وفي « نوعية المعرفة التاريخية » وليست في المؤرخ الذى يحتال لغزوها في مستقرها العميق ويصطنع اقصى ما تطيق هي نفسها من وسائل الاستكشاف ، لبيان الحقيقة فيها ولاصطياد العلاقة الثابتة الكلية . . بالقدر الذى تسمح هي نفسها أيضاً بالكشف عنه :

نحن مضطرون مبدئياً ان نقرر، دون ظل من اسف أو غضب أو مرارة، ان « نوعية » او « طبيعة » المعرفة التاريخية ليست مطابقة لنوعية وطبيعة المعرفة في العلوم لان « الحدث » التاريخي في

Marrou : De la connaissance His. p. 51.

(٢٨)

Halkin, L. : Initiation à la critique historique (2 éd. Paris 1953) p. 860.

(٢٩)

الاصل - وهو موضوع تلك المعرفة - ليس مشابهاً للحدوث الفيزيائي او الكيميائي المبسط ولا البيولوجي ايضا ، انه من التعقيد الخفي بحيث يصبح الحادثة الفيزيائية بعلاقتها الرياضية لعبة اطفال امام تشابك القوانين في اى حادث تاريخي صغير . ما من شك في ان المؤرخ يلعب دوره الفعال العميق في اعطاء التاريخ طابعه الذاتي ، وما من شك في ان التاريخ غير منفصل (حتى الآن على الاقل) عنه ولكن المشكلة لا تبدأ عنده وانما تبدأ على الطرف الآخر من المعرفة : طرف « الموضوع » الذى يسهل على كل فكر ان يدرك انه - لاتصاله بالطبيعة والانسان والحياة - فانه أعقد بكثير واوسع بكثير ، وفي كل الاتجاهات من أن تلممه أو تحيط به الوسائل العادية المتداولة حتى اليوم للمعرفة العلمية . يقول سانتيانا وهو من هذه المدرسة نفسها التي تنحى باللائمة على المؤرخين : « المؤرخ المثالي يتناول قطعة واسعة من القماش وهو مستعد لرسم كل شيء عليها ولكنه وهو يرسم ينتحل كل شيء ويغيره الى مقومات للوحته . وتنقل عينه البشعة المليئة بالافاعي كل ما تنظر اليه ، ليس لأنه يخنار او يؤلف فذلك كسب للعقل ، ولكن لأنه يعزو الى لوحته التدريجية سحراً خلاقاً وكأنه قد كشف العصب الحقيقي للحدث . غير ان العصب الحقيقي او بالاحرى الديناميكية الكاملة للحدث ليست هي على نطاق انساني ، انها ليست رائعة ولا يمكن ادراكها بالتخمين ، او بالتكهن المثير ، او بالعبارات الاخلاقية . انها الحياة الخاملة المعقدة في الطبيعة ، تلك العقدة الكبرى لكل الاصول والمشتقات » (٢٠). المشكلة الحقيقية اذن هي في تعقد الموضوع في جذوره وعوامله وفي بساطة (او احيانا سداجة) الوسائل المصطنعة للوصول الى الرؤية الواضحة فيه .

واذا كانت الصفحات السابقة تحليلاً او نوعاً من التحليل لطبيعة ونوعية المعرفة التاريخية البالغة التعقيد . فيبقى ان نتمم الصورة اذن بتحليل المنهج الذى يصطنعه المؤرخون في البحث التاريخي مقارنة بما اتفق العلماء على تسميته بالمنهج العلمي .

أ - الموضوعية العلمية في مرحلة جمع الوثائق :

لقد يكون من السهل بعض السهولة او كلها السير بالمرحلة الاولى من عمل المؤرخ ، مرحلة الجمع الوثائقي على أسس دقيقة التزمّت للدرجة التي يمكن معها ان توصف بالعلمية . ولقد يكون من السهل ايضا إعادة بناء بعض وقائع الماضي : بترتيبها الزمني وتفصيل الاحداث فيها بالاستناد الى ما بقي منها بشكل شهادات وآثار . . الطريق في هذا السبيل ممد . وعلى هذا النحو من الفهم للتاريخ بنى لانغلوا وسينيوبوس ، بين البناء الآخرين ، مفهومهم لعملية التاريخ ورسوموا لها المنهج على الشكل التالي :

- بحث عن « الوثائق » لأن « التاريخ يصنع من الوثائق أى الآثار التي خلفتها افكار السلف وافعالهم » .

- ثم تأتي العمليات التحليلية للوثائق أى :

= النقد الخارجي لها : نقد التصحيح ونقد المصدر والترتيب النقدي للمراجع .

التاريخ هل هو علم ؟

= والنقد الداخلي (الباطني) لها : نقد التفسير ، والنقد لأمانتها ودقتها ، وتحديد الوقائع الجزئية فيها .

— ثم تأتي العمليات التركيبية اى : تجميع الوقائع والبرهان البنائي فيها وتشبيد الصيغ العامة منها . . تم العرض التاريخي الاخير (٣١) .

وتنامي « منهج البحث التاريخي » بعد ذلك وتوطد حتى اضحى من المعارف التقليدية الكلاسيكية التي تدرس لطلاب الجامعات المبتدئين بالتأريخ . . . يعلمونهم (٣٢) :

— كيفية جمع الاصول والمراجع (وناثق ، مذكرات ، آثار ، نصوص تاريخيه . . الخ) .

— تم نقد الاصول : نقد صحتها خوف الزيف والانتحال . ونقد شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه وتحري نصوص الاصول وتحديد العلاقة بينها .

— ثم النقد الداخلي (الباطني لها) نقدا ايجابيا بالتحليل . وتحديد معاني الالفاظ وغرض الكاتب وطرق كشف المعاني الخفية ونقدا سلبيا للتثبت من صدق المؤلف وعدالته وعدم وفوعه في الخطأ او في الانخداع . . او في الكذب .

— ثم اثبات الحقائق التاريخية التي تتضح بعد ذلك ومقارنتها بالروايات الاخرى .

— ثم تنظيم تلك الحقائق قبل تركيبها على اساس الاجتهاد والتعليل والايضاح في صيغة تاريخية محددة .

ان مزالق الذاتية واللاموضوعية محدودة في هذه المرحلة الاولى التي تعتمد الاستقراء والتحليل والاستنتاج في مادة هامة . ولو ان التاريخ كان مجرد تنظيم الوناثق والنصوص والآثار وربط بعضها ببعض لأضحى التاريخ منذ زمن طويل مقبول العلمية والموضوعية دون كبير جهد او جدل . . لولا ما يثور من الريب حول صدق النصوص والشهادات الاولى ومدى الموضوعية فيها . هنا نقطة الريبة الاساسية في العملية . المشكلة ليست في منطق التاريخ ولكن في موضوعه ومادته . فاذا عرفنا الصدق التاريخي بأنه المطابقة للحقائق *Adaequatio res et intellectus* فان هذا ليس حلا مقنعا للمشكلة لأنه قضية دور لا حل . نعم أن التاريخ يجب ان يبدأ بالحقائق وهذه الحقائق ستكون غاية لا بداية فحسب ذلك هو الف باء المعرفة التاريخية ولا ينكر احد هذه الحقيقة . ولكن ما الحقيقة التاريخية ؟ كل صدق حقاقي يتضمن صدقا نظريا . . الحقيقة المادية والحقيقة التاريخية كلتاهما تعتبر جزءا من الواقع التجريبي والى كليهما نسب صدقا موضوعيا ولكنا حين نريدان نعين طبيعة الصدق نسير في طريقين مختلفين . اما الحقيقة المادية فمعناها بالمشاهدة والتجربة . وهذه العملية من الاخراج الى حيز الموضوعية تبلغ غايتها اذا نحن نجحنا في وصف الظواهر المعطاة في لغة رياضية اى في لغة الاعداد . فكل

(٣١) انظر لانجلوا وسينيوبوس - المدخل الى الدراسات التاريخية (ترجمة عبد الرحمن بدوى في النقد التاريخي) ص ٣٣ - ٢٥٤ .

(٣٢) انظر من نماذج هذه الكتب في المنهج التاريخي كتاب : حسن عثمان - منهج البحث التاريخي (الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٦٥) .

ظاهرة لا يستطيع وصفها او ردها الى عملية قياسية لا تكون جزءا من عالمنا المادى . . الحقائق المادية مرتبطة دائما بقوانين علية الى ظواهر اخرى يمكن مشاهدتها وقياسها مباشرة . واذا كان عالم الطبيعيات في شك من النتائج في احدى التجارب فانه يستطيع ان يعيدها ويصححها اذ انه يجد مواده جاهزة لديه في كل حين . . الا ان حال المؤرخ مختلفة عن ذلك لأن حقائقه تنتمي الى الماضي وقد ذهب الماضي الى غير رجعة . ونحن لا نستطيع ان نعيد بناء ذلك الماضي ولا ان نوقظ فيه حياة جديدة بمعنى مادى موضوعي . وكل ما نستطيعه هو ان « نستذكره » ان نمنحه وجودا مثاليا (فكريا) جديدا فالبناء المثالي - من جديد - لا المشاهدة التجريبية هو الخطوة الاولى في المعرفة التاريخية . . المؤرخ لا يستطيع ان يواجه الاحداث نفسها . . ليس لديه الا سبيل غير مباشر يؤدى الى مادته . عليه ان يرجع الى مصادره . الا ان هذه المصادر ليست امورا مادية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة . . نعم ان المؤرخ كالعالم الطبيعي يعيش في عالم مادى ولكن ما يجده عند بدئه البحث ليس عالما من الاشياء المادية وانما يجد عالما رمزيا - او عالم رموز - وعليه ان يقرأ هذه الرموز . وكل حقيقة تاريخية - مهما بدت بسيطة - فلا يمكن ان تُعَيَّن او تفهم الا بتحليل أولي للرموز . فالمواد الاولى المباشرة في المعرفة التاريخية وثائق وآثار لا اشياء وحوادث . . ولا نقع على المعلومات التاريخية . . الا بواسطة وتدخل من هذه المعلومات الرمزية . . « (٢٣) » .

« على التاريخ ان يبدأ بنلك الآثار لأنه لا يستطيع دونها ان يخطو خطوة واحدة . . وعلى المؤرخ ان يتعلم كيف يقرأ ويفسر وثائقه وعادياته (الارية) باعتبار انها رسائل حية من الماضي . رسائل تخاطبنا بلفتها الخاصة لاعتبار انها بقايا ميتة منه . . ولا يكون المحتوى الرمزي في هذه الرسائل ملحوظا على التو . وعلى العالم اللغوى والفيلولوجي والمؤرخ ان يجعلوها تنطق وان يجعلونها نفهم لغتها . واذا عجز المؤرخ عن ان يفك معنى اللغة الرمزية في آثاره بقى التاريخ كتابا مفلقا مختوما . . « (٢٤) » .

ويجب ان نسد الى هذا ثغرة اخرى في موضوعية الوثائق والآثار هي مدى صدقها وصدق اصحابها الاول ومدى تمثيلها الحقيقى للواقع . ان اقصى ما يستطيع جامع الوثائق ومستنطق الآثار ان يقوله في موضوعية نتائجه انها هي « الحقيقة التاريخية » لا الحقيقة المطلقة . وهي الحقيقة لكن في حدود ما تسمح به وما تعطيه وما تصدق فيه الوثائق والآثار . انها اذن الموضوعية النسبية والعلمية « المشروطة » .

ب - الموضوعية العلمية في مرحلة التركيب والتعليل التاريخي :

هذا على الاقل في العملية الاولى من التاريخ عملية الجمع للمادة . على ان مشكلة « العلمية الموضوعية » تأخذ ابعادا اخطر واقسى في المرحلة الثانية من عمل المؤرخ : مرحلة التركيب والتعليل وكشف السببية فيما بين الوقائع . المنطق الذاتي وحده هو الحكم ، في هذه المرحلة الثانية . اعمال المؤرخ السابقة ليست اكثر من وسيلة لجمع المادة الاولى وجعلها على مستوى من التصفية والتنقية والموضوعية يسمح بصحة التحليل والاستنتاج . لا بد من صحة المقدمات لتصح النتائج . والتاريخ

(٢٣) انظر كاسيرز - مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية (الترجمة العربية) ص : ٢٩٦ - ٢٩٨ .

(٢٤) المصدر السابق ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

الحقيفى انما يبدأ عند محاولة استخلاص هذه النتائج ، يبدأ مع مرحلة التركيب والتعليل . وهنا تتدخل عناصر كثيرة من الذاتية والحكم الحدسي والشخصي لتلقي ظلا من الريبة على موضوعية المؤرخ الذى لا يستطيع الانفصال - ولو حرص - على موضوعه . وإذا شئنا كشف حدود تلك الريبة فلعلنا نستطيع ذلك بتتبع العملية التركيبية التاريخية خطوة خطوة :

الفرضية وامتحان الفرضية فى التاريخ :

العالم - فيما يقولون - يبدأ بحثه العلمي بفرضية Hypothèse يضعها موضع البحث والتجربة والاستقراء والاستنتاج والتحليل . . الخ حتى اذا صمدت لكل اولئك تحولت الى نظرية علمية Théorie او مبدأ Principe او قانون او صيغة رياضية ثابتة الحدود . هذه القفزة فى المجهول لاكتشاف المجهول بالاستناد الى المعلوم تقوم هي نفسها فى اساس العمل التاريخي التركيبي ايضا . ان دور الفرضية فى التاريخ ليس يختلف من حيث المبدأ عن دورها فى العلم ، ولكن الخطوات التالية هي المختلفة لأن « مادة » التاريخ هي التي تتأبى على الوسائل العلمية « البدائية » للعلوم . .

أ - ففي العلم يتحدثون بصورة اساسية عن المشاهدة و « التجربة » وهما مستبعدتان كطريقة فى البحث التاريخي لا لشيء الا لانهما مستحيلتان (٢٥) . . فميدان العلم هو ما يمكن ان يحدث فى المستقبل واما التاريخ فله ما حدث وانتهى . الوقائع التي عرفها الماضي من المستحيل توفير كافة الشروط اللازمة لاعادة حدودها كرة اخرى . حتى ولو توفرت الشروط فان « ما يحدث فى الزمن ز + ١ ليس أبدا هو ما كان حدث فى الزمن ز » لا لأن الزمن يختلف فقط ، ولكن لأن الانسان فى الزمن الثاني يختلف ، ولأنه تعلم من التجربة فى الزمن ز وتأثر بها ايضا . . ان الحادث التاريخي كمود الكبريت او بعض مصابيح التصوير لا يتقد الا مرة واحدة . . تجدد وتفرد الحادث التاريخي (وهو ما يسمى احيانا بجزئيته) هما بعض ميزاته الكبرى وبعض مصائبه ايضا .

والواقعية التاريخية لا تقع ابدا تحت المشاهدة الدقيقة الشاملة والكاملة للمراقب العلمي . ليست معطاة لنا كما فى الواقعية الطبيعية - خارج الدات ولكنها تنامي وتتكامل فى الواقع داخل الفكر ، واذا كان الاساس فى الحادث الطبيعي هو « الكم » وامكان القياس فليس فى التاريخ من كمية . ووقائعه تتأبى على أى قياس . . والتاريخ بالضرورة انما يصاغ على اساس النصوص لا اساس التجارب . يضاف الى هذا وذاك اننا نستطيع فى الغالب عزل عنصر عن آخر فى العلوم ومعاملة تركيب كيماوى او حتى بيولوجي على حدة لدراسة تفاعله وردود فعله وليس ذلك ممكنا فى التاريخ لأن نسيج الاحداث متماسك بعضه مع بعض ، متحول دوما من لحظة الى لحظة ، كالنول الابدى الضخم . وانتزاع الحادث التاريخي لعزله ودراسته عمل نظري اولا غير قابل للتحقيق بالاضافة الى انه عند تحقيقه يكون ، عمليا ، قد الفى تاريخية الحادث وحوله الى مجرد قشور .

ويتفرع عن هذا الغاء طريقة من طرف العلم فى التاريخ ، هي الكشف بالمقارنة ، ان المؤرخ لا يستطيع تفسير حادث تاريخي بآخر ، ولا تحليل واقعة او موقف بالرجوع الى وقائع ومواقف من

(٢٥) يجب ان نستثني هنا ما يسجله المؤرخ من مشاهدته الشخصية لبعض الاحداث التي يعيشها . وهي حالة خاصة جدا . وليس ثمة ما يفهم ابدا ان هذه « المشاهدة » تتم ضمن الشروط العلمية الكاملة . بالاضافة الى انها ، فى عرف المؤرخين الآخرين لا تعدو ان تكون مجرد شهادة تستحيل على معاودة المشاهدة .

النوع نفسه . القياس المنطقي عمليه شبه معطلة في التاريخ المائل بين يديه . لقد يستطيع ان يشير الى التشابه . ولقد يجبرؤ فيبحث عن بعض التمايل ولكنه محكوم حتما بأن يقف فلا يصل الى التطابق الذي يصل اليه - لو شاء - كل عالم طبيعي . لو فعل اذن ألفى عامل الزمن في الحادث التاريخي وتجاوز على خصوصيته وعلى فرديته التي تجعله حادثاً من التاريخ .

التجربة المستحيلة : اى عدم التكرار . التفرد . غياب الكم والقياس . عدم امكان العزل . عدم امكان المقارنة . . هي اذن التحديات التي نواجه المؤرخ لأنها - وهي ممكنه دوما في ميدان العلم الطبيعي - تتشكل ميراث الحدث التاريخي . . ومشكلاته ايضا في وقت معاً .

ب - وفي العلم يتقل الباحث من الجزئى الى الكلي . ومن الفردى الى العام ومن المحسوس الى المجرد والصفة الرياضية . ان عمل المؤرخ يكاد يكون بالضبط عكس الطريق . ان الجزئيات في صورة الماضي هي الاساس ، والفردى له قيمة العام والمحسوس هو الدائرة التي لا مجال لتجاوزها حتى لقد سمى « دارديل » التاريخ علم المحسوس (٣٦) كل حالات التاريخ « حالات خاصة » لا يمكن ان تتحول عامة ، وهم العلم هو العام . كل وقائعه فردية في اطار زمانها ومكانها واسبابها ، ولا علم الا بالكلي . وقد فشلت حتى الآن على الاقل جميع الجهود في ادخال الفعالية التاريخية ضمن اطار اى قانون تجريدى اورياضي لأن تجريدها يلغي على الفور طابعها التاريخي ويخرجها من نطاق التاريخ الى نطاق الدراسات الاجتماعية التي تنظر في الحاضر والمستقبل . لا كليات ولا تجريد في التاريخ .

الذاتية في التاريخ :

والعلم يرفض « الذاتي » . الاحكام الشخصية في العلم هي اشبه بمحرمات الدين . كنهان التقاليد العلمية ما ان يلاحظوا ظل الذاتية في عمل علمي حتى ثور تآثرتهم بالطبول والعصى ، ويطردوا هذه المادة الحرام المسكرة خارج الابواب ويكسروا معها الدنان . والتاريخ كله لحسن حظه او لسوءه - يقوم على « الذاتي » . الذاتية قائمة في جذور التاريخ لأنه في تكوينه ليس الا علم « الانسان » .

« واذا تذكرنا هذا الطابع للمعرفة التاريخية سهل علينا ان نميز الموضوعية التاريخية عن الموضوعية التي ينتجها العلم الطبيعي . لقد وصف ماكس بلانك وهو عالم طبيعي عظيم كل عملية الفكر العلمي بانها جهد مستمر لنزع كل العناصر « الانثروبولوجية » واقصائها . . . اى علينا ان ننسى الانسان لندرس الطبيعة ولنستكشف القوانين الطبيعية ونصوغها وما يزال العنصر الانثروبوفورمي في تطور الفكر العلمي يضطر الى التراجع للمؤخرة تدريجيا الى ان يختفي في النهاية من المبنى الكامل المنالي للطبيعيات . اما التاريخ فيمضي في اتجاه مختلف . انه لا يستطيع ان يعيش ويتنفس الا في العالم الانساني . فهو ، كالفن واللغة ، انثروبوفورمي في أساسه . فاذا طمست معالمه الانسانية حطمت فيه شخصيته وطبيعته الخاصتين به . الا ان الانثروبوفورمية في الفكر التاريخي ليست قصورا او عفة في طريق صدقه الموضوعى . لأن التاريخ ليس معرفة الحقائق والاحداث الخارجة وانما هو صورة من المعرفة الذاتية واذا اردت ان اعرف نفسى لم أستطع ان أحاول الابتعاد عنها اى ان اتجاوز مدى ظلى بل علي ان اختار السبيل المضاد . ففى

التاريخ يعود الانسان دوما الى نفسه (٢٧) . . . » (بعكس العلم الطبيعي الذي هو خروج مستمر من الذات . .) .

وقد اشار كاسيرر صاحب هذه الفقرة السابقة الى ملاحظة دقيقة هامة تقوم في جذور الذاتية في التاريخ هي « ان الذات التاريخية ليس ذاتا فردية . هي انثروبومورمية . لكنها لا تتمركز حول « الانا » . واذا اخترنا تعبيرا فيه صورة الناقض قلنا ان التاريخ يجهد وراء انثروبومورمية موضوعية » . وحين يعرفنا التاريخ ان الوجود الانساني متعدد الاشكال (بولفورمي) بحررنا من اهواء اللحظة المفردة الخاصة ونزوانها . فغاية المعرفة التاريخية اذن هي هذا الانراء والنوسيع للذات ، للأنا العارفة المحسه ، لا طمسها وازالتها . . » (٢٨) .

ونستطيع ان ننسى مؤقتاً من جهة هذا التصعيد الذي يحول به كاسيرر الذاتية التاريخية الى « انثروبومورمية » كما نستطيع ، من جهة اخرى ، ان ننسى بالمقابل الى حين ، ذلك « النحامل السخيف على المعرفة الذاتية الذي يجعلها دون مستوى المعرفة الموضوعية . . باعتبار ان كلمة ذاتي ابضا الحكم المبني على الاعتبارات الشخصية على التصور الشخصي . . ومن هنا فهو غير صحيح او على الاقل متحيز (٢٩) . . نستطيع ان ننسى هذا الحكم وذاك ، لنقرر ان ذاتية المعرفة التاريخية ليست نقضا فيها ولعلها بالعكس من مبرراتها . وهي تأتي من منبعين :

أولا : ذاتية المصدر : فالشهادة الشخصية التي يحوبها المصدر أو النص التاريخي هي حقل من متساع لا متناهية التعقد تتداخل فيها مجموعة متشابكة غائمة او واضحة من العلل والمعلولات والاهواء . والوثيقة (وهي بدورها شهادة) والآخر قد يشكلان احيانا ركيزة موضوعية من الدرجة الاولى ولكن من ذا الذي يستطيع ان يقطع انهما التعبير الوحيد ، أو الكاشف الاحسن من الماضي الذي نخلقا عنه ؟ ان صدفة بقائهما لانعنى انهما الحقيقة الموضوعية التي لا حقيقة نناقضها في عصرها نفسه ، ولا تعنى انهما لامتلائن اذواق او مصالح او ثقافة او علافه الاشخاص المحدودين الذين تتعلق بهم الوثيقة أو الآخر في ذلك المجتمع القديم . . ولا تعنى اخيرا أن ما يستخلص منهما هو الحقيقة الموضوعية الاكيدة والنهائية . . والاذانية ايضا . كل شهادة انما هي انفاء واع او غير واع للحقيقة . وهي انتقائية بالضرورة لانه لم يثبت حتى الآن ان مشاهدا تاريخيا واحدا استطاع ان ينقل الحقيقة الكاملة . ولم يتبين حتى الآن تطابق كامل واحد لشهادتين . ذاتية النص التاريخي كمصدر انسبه بالظل الملازم لا فكاك منها . فان كانت في نظر العلميين « لعنة » فانها « اللعنة » الأبدية التي لا بد من قبولها على علاتها والى الأبد . . .

ثانيا : ذاتية المؤرخ نفسه فاذا كان حقيقيا ان التاريخ غير منفصل عن المؤرخ « فانه من الصحيح ايضا » انا لا نستطيع الا عن طريق تمييز شكلي أن نعزل الموضوع وهو الماضي في جانب ، وصائغه ، وهو المؤرخ في جانب آخر (٤٠) . ذلك ان احدهما لا يتحقق وجوده الا

(٢٧) انظر كاسيرر - مقال في الحضارة الانسانية (الترجمة العربية) ص ٣٢٣ .

(٢٨) المصدر السابق ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٢٩) انظر غو تشالك - كيف نفهم التاريخ ص ٥٧ (الترجمة العربية) .

Marrou : De la connaissance His. P. 37.

(٤٠)

بالآخر . وبالرغم ان الماضي قد وجد ولو لم يكتب احد عنه او يسجله فانه لا وجود له كمعرفة الا من خلال المؤرخ الذى يصوغه . ولا عمل للمؤرخ ، ان لم يكن ثمة ماض محدد يفتح له ، مثل مغارة علي بابا ، مغاليقه . ليس ثمة وجود منفصل مستقل للماضي الا من خلال وفي اطار النص التاريخي او الاثر ، وهما بدورهما من عمل المؤرخ نفسه .

وقد حاولت مدرسة « الوثائق » ان تطرد « الذاتية » خارج الابواب عن طريق التقييد بالنصوص والوثائق فقط لكنها سرعان ما فشلت لانه من المضحك والسقيم حقا اعتبار التاريخ مجرد فعالية فكرية سجيئة في وعاء الوثيقة اودهليز النص كالحفائش ومن حقنا ان نسخر مع كولنجود من هذا « التاريخ المعمول بالمقص واناء الغراء » ومن « هذه المعرفة التاريخية المصنوعة من قبل والتي ليس فيها سوى الابتلاع ثم القىء .. » (٤١) .

واذا كان عمل التاريخ اوسع بكثير من حدود الوثيقة والنص بشموله كل الماضي بما فيه ، فهما واعادة تكوين ، فان هذه الشمولية نفسها تفرض على المؤرخ موقف الانتقاء الذاتى للاحداث خلال ذلك الماضى . انها تفرض عليه وضع سلم للاهمية النسبية بينها . واختيار « الحادث » المعبر . الناس كل الناس متفقون ان معركة الزاب جرت سنة ١٣٢ هـ ، فانتهت بها الدولة الاموية ولكن هل كانت هذه المعركة هي السبب في سقوط تلك الدولة ووثوب العباسيين على الخلافة خمسة قرون بعد ذلك . والناس كل الناس متفقون ان الرشيد توفي سنة ١٩٣ هـ ولكن هل كان هو المتوفي الوحيد تلك السنة ؟ وهل كانت الوفيات هي الاحداث الوحيدة فيها .. لقد وقع سواء في سقوط الامويين او في سنة ١٩٣ هـ من الامور الاخرى ما يحتاج تسجيله الدقيق « الى ما لا نهاية له من الكلمات والكتب والمكتبات » ولا بداذن من الاختيار ، اعنى الاتفاق ليس فقط على وجود الواقعة (التاريخية) بل ايضا على اهميتها .. ولما كنا لا نقدر على الاحتفاظ بكل شئ ولا بد من التخلص من خضم الوقائع اللامتناهى بواسطة حكم على اهميتها النسبية فيما بعد ، فان تقرير الاهمية (هو من عمل المؤرخ) ويدخل العمل التاريخي من جديد فيما يحاول اجتنابه واستبعاده ولا مفر من ذلك . والاهمية هنا ذاتية خالصة .. (٤٢) .

وهكذا فان ذاتية النص التاريخي او الاثر كمصادر للتاريخ تقابلها ذاتية اخرى يقوم بها المؤرخ بدوره من خلال انتقائيه المقصودة او غير المقصودة ، ومن خلال مصالحه ومعتقداته وقيمه ومعارفه .. وعملية التأريخ معلقة بين هاتين الدائيتين على الاقل . واذا كانت الموضوعية تعنى الخروج الذاتى من الموضوع والحياد المطلق تجاهه والنظر اليه من خارج فان هذا النوع من الموضوعية غير ممكن التطبيق في التاريخ لأن اساس النظر اليه انما هو من داخل ، ومن خلال الذات . ويتدخل ها هنا بعد ذلك المنظور الوجودي للمؤرخ ، تتدخل تقديراته الفكرية ، لتزيد في شأن حادث او ناحية دون اخرى وتبرز قيمة نص دون آخر . كما تتدخل سعة ثقافته وعمقها لنكشف هذا الامر او تعقد هذا التحليل او تلك المقارنة او تتنبه الى عامل دون نان . ثم تأتى ميوله الفكرية والسياسية فللماركسي تفسيره وللديني جوه ، وللملكي رأى لا يتفق مع

Collingwood, Idea of History, pp. 246, 257.

(٤١)

Valéry P. — Variétés (Vol. IV) P. 128-129.

(٤٢)

الجمهوري ، ويستخرج الليبرالي من الافكار والدلائل ما لا يستخرج الاشتراكي .. وليس في العلم موقف ماركسي أو سيمى أو لاهوتى أو برجوازي .. فإن برىء المؤرخ من كل أولئك وكان الفمة في الموهبة وسعة الثقافة واللامبول .. أفلس هو ابن عصره ؟ وتأتى ها هنا نظرية كروتشمه لتكشف ان « كل تاريخ انما هو تاريخ الحاضر (٤٣) » أو على الأقل كما قال Ch. Beard « ان تاريخا مكتوبا لا معدى له من ان يعكس فكر مؤلفه في اطار زمانه ومحيطه الثقافي (٤٤) » وهكذا فان « حياة حقائق الماضي ومعناها لا تستنبط من المراسيم والنقوش او غيرها من مخلفات الماضي وان مصدرها جميعا هو شخصيته نفسه .. (٤٥) » وتتكشف امام هذا الحياد المستحيل سذاجة الفكرة التي دفعت اللورد آكتون الى ان يسجل بين تعليماته الى المساهمين في سفر (تاريخ كمبردج الحديث Cambridge Modern History هذه التوصية « ان تكتب كما لو انك كنب قائما على خط الطول ٣٠ غربا » .. أى في وسط المحيط الاطلسي ، في عزلة اجتماعية كاملة عن كل شيء (٤٦) » .. مثل هذه العزلة النظرية موقف لا يمكن للمؤرخ تحقيقه لأنه حتى في وسط المحيط انما يكتب من خلال الشهادة الذاتية للآخرين من جهة ومن خلال ذاته من جهة اخرى . الحياد ، الانفصال عن موضوع المعرفة ، المراقبة « للحدث » من عل كما لو كنا نطل من قبة الفلك قد يكون بامكان الفيزيائي او رجل البيولوجيا او الاقتصاد الاحصائي تحقيقه .. اما المؤرخ فان انفصاله نفسه يعنى الغاء موضوعه .

« وعبنا - كما يقول فاليري - ينمو المجهود، وتنوع المناهج ، وينسع ميدان الدراسة او يضيق ، وتدرس الامور بنظرة عالية جدا او ينفذ المرء الى نسيج العصر الدقيق ، ويستقصي الوثائق المحفوظة عند الاشخاص ، والاوراق البالية عند الاسر ، والشئون الخاصة وصحف العصر والقرارات المحلية . فهذه التوسعات المتعددة لا تتلاقى ابدا ولا تنتهي عند فكرة واحدة تفضى اليها بل ينتهي كل منها الى طبيعة مؤلفيها واخلاقهم ولا ينتج عنها ابدا سوى نتيجة بينة واحدة هي استحالة فصل المشاهد عن المشاهد والتاريخ عن المؤرخ .. » (٤٧) . جميل جدا ان نضع مبدأ « الحياد » المطلق هدفا للمؤرخ ولقد نكون الموضوعية صحيحة من حيث المبدأ ، ضرورة جدا من حيث استهداف الحقيقة ولكنها تنعثر فوراً عند اول خطوات التطبيق العملي . وفرق كبير بين ما هو كائن وما نتمنى ان يكون . ان النقلة بين الحدين هى التي تورط العديد من المنظرين لمناهج التاريخ في الخطأ .

ولعلنا نستطيع ان نضع لمحيي الصبغ الرياضية، صيغة تربط ما بين الذاتية والموضوعية في التاريخ في العلاقة المبسطة التالية :

$$\frac{ت}{تس + م} = ح$$

حيث ح = الحقيقة التاريخية ، و ت = التاريخ المكتوب ، و ش هي الشهادة أو الانر و م هو

Croce, contribution (trad. fran. Paris 1949) p. 100.

(٤٣)

(٤٤) انظر جونسون - تدريس التاريخ ص ٣٣ .

Gentile, G., Philosophy and History p. 104.

(٤٥)

(٤٦) انظر فو تشالك - كيف نفهم التاريخ ص ٣١١ نقلا عن : محاضرات في التاريخ الحديث .

Lectures on Modern History, (London, 1906) p. 318.

Valéry P., Variétés (Vol. IV) p 128.

(٤٧)

المعادل الشخصي للمؤرخ . وكما ان الشهادة قد تتعدد لدى المؤرخ (بشكل نصوص عديدة وآثار متنوعة ، متفاوتة القيمة من الناحية الموضوعية) كذلك فان المعادل الشخصي متعدد العناصر : فيه العديد من العواطف (ع) متفاوتة الحدة (ونرمر للحدة بالأس أو القوة) وفيه العديد من المواهب (م) التي تتفاوت في القوة وفيه الثقافة (ق) المنفاونة ايضا والتي تتضمن تمثيل المعاصرة (ولهذا تختلف في الاس أو القوة) مما يجعل المقام في العلاقة الماضية على الصيغة التالية :

ت

ح =

$$سش٢ + سع٢ + س٢م + س٢ق$$

حيث ترمز س الى عدد الشهادات او العواطف . الخ وحيث يمكن للاس التربيعي أن يتقدم أحيانا وان يصبح من الدرجة الثالثة او السادسة ... أو أن يلقى ...

ونتيجة لهذا كله فان المناهج العلمية اذا كانت تسير بالتعدد الى التوحد ، وبالمحسوس الى التجريد ، فان التاريخ بالعكس يسير ، بالضرورة الى التعدد والى المزيد من التفاصيل المادية والمعنوية ودقائق المحسوس من الاحداث وهكذا اذن تتعدد التواريخ بتعدد المؤرخين وبتعدد مناحي الفكر الذاتي . وهذا ما يضيف بعدا جديدا الى الابعاد التي تفصل ما بين « العلمية » الرسمية ، وعلمية التاريخ .

تنتان بين مشرق ومغرب !

سارت مشرقة وسرت مغربا

ليس من أحد المؤرخين أو في غيرهم يعتبر التاريخ مجرد نسخ حرفيٍّ لأقوال الآخرين ، كما ليس من أحد يقبل ان يكون التاريخ مجرد سنوات ولادة ووفاة وحروب متفق على موعدها واسمائها . هموم المؤرخين مرتبطة دوما بالتعدد ، موصولة دوما بالمزيد من الجزئي والفردى ، هاربة ابدا من التجريد لأنه يقطع فورا ما بينها وبين منبعها الحي في الواقع ، وذلك شرط اساسي في الادراك التاريخي .

السببية في التاريخ :

المنهجية في العلوم نفضي بعد ادراك « الحدث » بادخاله في حدود المعقولة . بجعله منطقي الحدوث ، قابلا للادراك والفهم والتوازن الفكري ولتطبيق حيل العقل عليه . ذلك هو الاساس في ما سموه منذ اكثر من قرنين « السيطرة على الطبيعة » عن طريق فهم قوانينها . ولعلنا ننكر الواقع ان قلنا ان المؤرخين لا يبذلون اقصى ما لديهم من قوى الفكر لاختضاع التاريخ الى المعقولة . والتقاط منطق النظم للاحداث . الغزو في هذا الميدان مستمر ، لم يهدأ منذ ظهر التحدى العلمي .. ولكن أين وصل ؟ وأين يمكن ان يصل ؟

ان المعقولة في التاريخ هي بالضرورة اكثر تواضعا من معقولة الحدث الطبيعي . لأن الحقيقة هنا غير الحقيقة هناك في النوعية . الحقيقة العقلية في التاريخ ليست نتصل بالتأكيد الرياضي العقلي ولا بالاحتمالية التجريبية من فيزيائية وكيمائية .. حيث تجرى المعقولة في حدود المنطق الارسطي ، واللاتناقض والسببية المباشرة ومبدأ العلاقة الحتمية . اما في التاريخ فليست المعقولة على الاطلاق اكثر من الاحتمال العقلي للحدث ، وان لا يكون تمة من سبب كاف

لرفضه أو إنكاره (٤٨) . فكأنها هي ما يسميه **البراجماتيون** : « الكفاية العملية A practical satisfactoriness هذا المبدأ الأساسي من نظرية التاريخ قد انضح تماماً منذ **ليبنتز** الذي أشار إليه حتى **ريمون آرون** الذي كتب : « ان كفاية الاحكام التاريخية هي الامكان » (٤٩) . . والاحتمال الذي لا علاقة له لا بالاستنتاج الرياضي ولا بالتجربة المادية .

ويمكننا ان ننقل القضية الى مستوى آخر لنرى فيها قضية السببية في التاريخ : فهي الوجه الآخر التقليدي لعملية « تعقيل » التاريخ وربطه المنطقي سببا بحدث ، وواقعة باخرى . وعملية التاريخ العملية ليست في الواقع شيئاً آخر سوى تفسير المجهول بالمعلوم وتعليل الحدث بما يوازيه من الاسباب وبما يمكن ان يكون منطقياً دافعا من دوافعه وعنصرا من مكوناته . هي كتشف النسيج الذي يكون ماضى الانسان في دوافعه وروابطه .

واذا كان جمع المادة التاريخية هو الخطوة الأولى في العمل التاريخي فان التعليل المنطقي هو الخطوة الحاسمة والاخيرة في كتابة التاريخ » (٥٠) . سرد الاحداث واحدة بعد اخرى مهما بلغ من الدقة والموضوعية ليس أكثر من تقويم كرونولوجي ولا يعتبر ، في نظر المؤرخين ، أكثر من نصف العملية التاريخية التي لا تكتمل الا بادخال المعقولة والروابط المنطقية بين حدودها . والسببية في التاريخ هي اليوم مظلنه العلمية . هي الركن الاساسي ان لم نقل الوحيد الذي يقيم عليها موضوعيته ودعواه للحاق بالعلوم . ندر في المؤرخين الآن من يفتش عن الفأينة الاولى ، او يبحث عن الاخلاق والعبرة او يلاحق الامتاع الادبي . ان التاريخ محصور الهم الآن في « فقه الماضي » في فهمه ودراسة الاسباب والنتائج والروابط في الاحداث بعضها مع بعض . ان عمله هو التحليل المستمر افقياً وعمودياً .

لقد وضعت في المتاحف منذ زمن طويل تلك المفالطة القديمة التي كان يعبر عنها بالعبارة اللاتينية *Post Hoc, ergo propter hoc* اي جاء هذا الامر بعقب ذلك اذن جاء بسببه . ان نوالى الوحدات الزمنية (من ايام وسنين) ليس يعطي الاحداث التاريخية أكثر من التوالى الكرونولوجي . انه اشبه بالترتيب الابجدي - على حد قول فاليري - فأما العلوية والسببية الحقيقية ما بين سابق ولاحق فيجب ان نفتش عنها في مسنويات اخرى تذهب عمقا وجذورا وحجما الى ابعاد قد لا نخطر للوهلة الاولى في بال .

ومسلمة السببية في التاريخ تستند الى مسلمة سابقة عامة ، تقرر ان مسيرة الحياة (والبشرية جزء منها) تخضع لنظام شامل يربط بين الاجزاء ويقود النوع الانساني (كما يقود غيره) وان بإمكان العقل البشرى ان يصيب بعض التوفيق في محاولة الكشف عن علل الحوادث وترباطها .

واذا كانت كلمة « سبب » (وهى الكلمة التي تقف الى جانبها كنتيجة لها كلمة الحتمية) كثيرة الاستعمال بصيغة المفرد في العلوم الطبيعية فيبدو اننا لا نستطيع ، في التاريخ ، ان نستعملها الا بصيغة الجمع . ليس بمة من « سبب » مفرد لاي واقعة تاريخية مهما صغرت . بمة دوماً اسباب وعلل وعوامل ودوافع وبنى وتراكيب والكثير منها يعمل على طريقة كرات « البليارد » عن

(٤٨) انظر مارو - من المعرفة التاريخية ص ٩٤ - ٩٥ .

Aron, R. — Introduction à la Phil. de l'His. p. 196

(٤٩) انظر :

Carr. E. H. : What is history p. 86.

(٥٠) انظر

طريق التأثير المثلث او المربع عبر عدد من التأثيرات السابقة . . « ومنذ أمد قصير ، اعلنت مجموعة من المؤرخين الامريكيين في مجموعة رسمية من المقترحات للحكومة . . ان مصطلح « سبب » حسبما يستعمله المؤرخون يجب ان يعتبر مجازا لغويا ملائما لوصف الدوافع والتأثيرات والقوى وتداخلات سبابة اخرى لا تزال غير مفهومة تماما . ويمكن تعريفه كأي حادثة سبابة تجري فيما هو مفترض ان يكون مركبا نتاجيا متشابكا . ويتربط على هذا التعريف ان اى سبب لا يعمل مطلقا الا كجزء من مركب او سلسلة » (٥١) .

ويدهي ان الاسباب في التاريخ تتفاوت حجما ونوترا وحدة وعددا . والعوامل المحركة الكبرى ليست دوما محركا ولا كبرى وبعضها انما يستمد قوته من الظروف التي احاطت به ، ولو جاء في ظروف اخرى لكانت فاعليته الى الخمود وربما الى الانعدام . وهكذا فليس من الضروري ان تكون العوامل المحركة في التاريخ دوما عوامل ضخمة او متعقطة بعدد كبير من الناس او بمشاعر ايمانية شاملة او مواقف مصيرية ولعل العكس احيانا هو الصحيح . ان زلة لسان او كبوة فرس او عضة قرد او تأخر قائد في النوم او مرض عالم لها - عند التقائها ببعض الظروف والعوامل - ما للعوامل الكبرى من الان في انعطاف التاريخ ليس من الضروري ان نفتش عن صراع الطبقات ، او ظهور البطل او انبثاق الافكار الايمانية لنجد « محركات » واسباب بعض وقائع التاريخ التي تدور . . لمجرد لحظة جنون ، ثم تأتي مركبة الاسباب الاخرى على الاثر . . اليس هذا ما يسمونه بالاصطلاح التقليدي بالاسباب المباشرة وغير المباشرة ؟

وهكذا فالسببية في التاريخ هي في الواقع محاولة الكشف لا عن « السبب ولكن عن تلك المجموعة المركبة من الاسباب والعوامل الكامنة في كل حدث . وقد دخل مفهوم السببية في السرد التاريخي بشكل اصبح كتابة التاريخ بدون مجرد فهرسة او تخطيط زمني للسنين » (٥٢) . ارتبطت في الواقع ، علمية التاريخ الى حد كبير بهذه المحاولة الفكرية لتلمس الاسباب . ومع ان المؤرخين قد حققوا - فيما يبدو - جانباً من النجاح في هذا الميدان فانه من الواجب ان نعترف ان مشكلة السبب التاريخي ما زالت في جوهرها دون حل . واهم مشاكلها ليس الغموض فحسب وتركيز بعض المؤرخين على اسباب دون اخرى ولكن ايضا تحديد الفترة الزمنية التي يجب ان نفتش فيها عن الاسباب والبنى المتشابهة للاحداث اللاحقة بمعرفة العوامل الباقية والمتحولة في كل حدث : عددا ونوعا واترا (٥٣) . مع الاخذ بعين الاعتبار ان بحث العلل الاولى هو مشكلة غيبية تخرجنا من ميدان التاريخ الى رحاب الميتافيزيك . واذا كانت عملية التأريخ مرتبطة بخطتين من الاعمال : كيف حدث ؟ (الوصف) ولماذا حدث ؟ (التعليل) فقد يكون الجواب على (كيف ؟) حتى بالشكل الدقيق المنطقي اسهل بكثير من الجواب على الـ (لماذا ؟) التعليلية . واذا كانت (كيف ؟) قد تجر الى السؤال عن اى الطرق وبأى الوسائل وضمن اى الظروف من اجتماعية او طبيعية او دينية او نفسية ، ثم ذلك الحادث المركب الذي تحقق في وقت ما وفي

(٥١) انظر غو تشالك - كيف نفهم التاريخ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ (الترجمة العربية) .

(٥٢) المصدر نفسه ص ٢٥٦ .

(٥٣) انظر المصدر نفسه ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

مكان ما من التاريخ فان مشكلة الـ (لماذا ؟) ترتبط بعملية فوص بعيدة الاغوار عن العوامل السيكولوجية والاقتصادية والجغرافية والمناخية والفكرية والاجتماعية التي اثرت في تكوينه واخراجه على السكل الذى خرج فيه . وقد اقترح غوتشالك الاقلال من استعمال كلمة سبب واسباب لدى المؤرخين والاتجاه الى كلمات اكثر دقة بلى اكثر دقة لان كلمة الاسباب قد توحى بالسببية المباشرة بينما يتصل بتكوين الحدث التاريخي دوافع واهداف ومناسبات وسوابق ووسائل قريبة وبعيدة لا تكاد تحصى معرفة .

ونصل اخيرا في مجال بحث السببية التاريخية الى مشكلة هامة تقطع الطريق على الاسباب المعقولة هي مشكلة الاحتمال والصدفة . المؤرخون يلاحظون احيانا ان ثمة امورا وحوادث في التاريخ تتأبى على « المعقولة » . وتسير في ما وراء السببية التي نفهم ونصطنع . . . فكأن المعقولة ليست وحدها التي تحكم قوانين التاريخ ومسيرته بلى ! ثمة في حدود ما نعرف من احداثه وعوامله عنصر من العيب absurd واللامعقول ليس له اى معنى ولا اى تفسير او غاية ، ولكنه مع ذلك واقع تاريخي قائم . يقول المؤرخ فيشر : « لقد حرمت من لذة فكرية هي انني لا افطن الى ما فطن اليه من هم اكثر مني علما وحكمة ، اذ يرون في التاريخ حكمة مرسومة محبوكة وايقاعا منظوما وقدرنا محتوما للوقائع ، سابق التقدير اننى لا ارى الا مفاجاة تتلوها مفاجاة كموجة تلاحق موجة » .

ولا تعنى اللامعقولة في بعض التاريخ انه مضاد للعقل او مناف له . انها لا تعني اكثر من ان مظاهر الوجود الانساني كما تتجلى في التاريخ تحتاج الى نظرية اشمل من النظام العقلي التقليدي لاستيعاب حدوده ، كل الحدود . وبرز ما يتجلى العيب واللامعقولة في هذا العنصر الذي نسميه في الاصطلاح الدارج « بالصدفة » او الاحتمالات . والصدف في التاريخ - كما في حياة الافراد العادية - ليس اكثر منها . المؤرخ فاندرياس وضع كتابا حول قضية الاحتمال والصدفة في التاريخ (٥٤) . ودرس فيه ، بين ما درس ، حملة نابليون على مصر وكشف بشكل واضح غرابة بعض المواقف ودور الصدفة في ذهاب نابليون وعمودته في البحر ، وفي كارثة ابي قير البحرية (٥٥) . . . ويمكن أن تأتبي بألف مثل من كل تاريخ على « الصدفة » التي حولت مجارى التاريخ . ان نجاة صلاح الدين مثلا ثلاث مرات من خناجر الاسماعيليه التي لم تكن تخبى مرة واحدة مع غيره . . . صدفة لو انها نجحت فماذا كان يتحول في التاريخ ؟ وهروب المتحالفين السلاجقة أمام انطاكية سنة ١٠٩٧ دون حرب صدفة لو لم تقع فماذا كان يبقى من الحروب الصليبية ؟ ولو ان معاوية كان اقصر عمرا فمات في خلافة علي فآين كان يتجه التاريخ الاسلامي ؟ ويتحدثون بالنكتة التاريخية التسي اطلقها باسكال حين قال : لو كان انف كليبوتره اقصر لتغير وجه العالم . ولكنها قد لا تكون مع ذلك مجرد نكتة او مبالغة . فان التاريخ ملئ بالمفاجآت والصدف التي تغير سير الامور دوما ، ومن ذا الذى كان يستطيع ان يقدر مثلا في صيف سنة ١٩٢٠ ان عضه قرد مدلل في خريف تلك السنة لملك اليونان سوف تؤدى الى سلسلة من الحوادث المفجعة يموت فيها ربع مليون انسان . او من ذا الذى لا يرى الصدفة في نجاة عبدالرحمن الداخل من القتل والسهم تلاحقه وهو سابح في

الماء ليكون منه ومن اولاده قسمة العالم الاسلامي . وقيام دولة الاندلس ؟ . ان من الصعب جدا ان نقدر ماذا كان عليه تاريخ الشرق الاسلامي لولا صدفة انتصار الكمين الذي اقامه قطز للمغول في عين جالوت ، وماذا كان عليه تاريخ فرنسا واوروبا لولا خوف اصحاب الفافقي على متاعهم في معركة بلاط الشهداء وتراجعهم لحمايته . وبالمقابل فانا نعرف الى حد ما ماذا فعلت صدفة الحصول على الفنبلة الذرية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية لا بعدها ، وصدفة وجود الجمل مع العرب ايام الفتوح ، ووجود الفوس البعيدة المرمى في ايدي السلاجقة . كما نعرف ماذا فعلت صدفة ابتكار ايقاد النار ، واستخدام العجلة من ثورة كوبرنيكية في تاريخ الانسانية ؟ وماذا نفعل اليوم صدفة ابتكار الترانزستور سنة ١٩٤٨ لاسنة ١٩٧٣ . وابتكار نظرية النسبية في مطلع هذا القرن لا وسط القرن الماضي . وصدفة مقتل ولي عهد النمسا سنة ١٩١٤ لا سنة ١٩١٥ او ١٩١٠ . وصدفة تأخر (غروشي) في الوصول الى ميدان واترلو في الوقت المناسب وهزيمة نابليون التي غيرت وجه التاريخ الاوروبي بعد ذلك . وصدفة اصابة الاسكندر المقدوني بالملاريا وموته المفاجيء وهو في اروع الشباب وتمزق الامبراطورية من بعده . . الواقع انا نحن مضطرون لان نعترف بأن في مسيرة التاريخ (وبالتالي فيما يمكن ان تكون عليه قوانين التاريخ) جانبا واضحا متروكا للفعل الحر ، جانبا لا نحدد زمانه ومكانه وابعاده الاسباب التي تقع تحب معقوليتنا . وان افعال الانسان في الماضي وان كانت تخضع الى حتمية معقدة الحدود ، فانها في الوقت نفسه كانت تحوى عناصر من « حرية » التصرف ، تفاجئنا في كثير من الاحيان اذا ما نحن استعنا على كشفها بهذا الحرف الصغير « لو » وبدأنا التساؤل : « لو ان . . » . وبالرغم من انه ليس من التاريخ ان نبحث في هذه « اللوات » التي تحمل معنى القلق (٥٦) - كما يقول فاليري - واذلتي نضعنا فيما وراء التاريخ الا اننا لا نستطيع ان نمنع انفسنا ونحن في اطار السببية الحتمية فيه ، من ان نضع مبدأ الاحتمال في موضعه من سلم العوامل والاسباب ، ومن ان نقرر ان سمة امكانيات معقولة كثيرة في عدد كبير جدا من الاحداث لم تحدث رغم معقوليتها . واحدة فقط حدث فعل الصدفة . احتمال واحد جرى ومات الاحتمالات الباقية فكيف تقوم العلاقة السببية الحتمية ما بين الواقع وبين الاحتمال العشبي الرواغ ؟

ان **فييقر** يكتب في هذا الصدد : « ليس تمة ضرورات حتمية تمة دوما امكانيات فقط . والانسان باعتباره سيد امكانياته هو الحكم الذي يحدد استخدامها . . (٥٧) » .

وقد حلل الباحث الفرنسي **شولفين** (٥٨) مشكلة الصدفة في التاريخ . ذكر الآراء فيها . قال : « ان العلم ومعظم الفلاسفة يرفضونها » . « ليس تمة من صدفة . هناك ما يعادلها وهو جهلنا لاسباب الاحداث » - كما يقول دافيد هيوم - ولكن التاريخ هو الوحيد الذي يقبل بشكل واسع وجود الصدفة . ومن يرفض الصدفة - على حد قول - **ادوار ميير** Meyer

(٥٦) انظر فاليري - خطبة في التاريخ (ترجمة عبد الرحمن بدوي - في « النقد التاريخي ») ص ٣٠٢ .

(٥٧) Febvre L. A Geographical introduction to History (London 1925) p. 236.

(٥٨) Choulguine, Alexandre : L'Histoire et la vie

Ch. IV, le hasard pp. 69-82 et Ch. IX Le probleme des lois et du hasard pp. 187-207

او دور الارادة الانسانية فى التاريخ او يقلل من اهميتها يلغى منه كل خصبه ، كل ما يمثل النقطة الاساسية فى الدراسات التاريخية . . « ويدكرشولفين : بجانب الصدفة التي هي تعبير لفظي عن جهل الاسباب صدفا من نوع آخر : صدفة تقاطع وقائع مستقل بعضها عن بعض . والصدفة البسيطة العمياء كلعب الحظدون اى قانون ودون اى سبب فى وقت واحد . . . » كل ذلك يقع فى التاريخ . . وكثيرا ما تحرك الصدوف القوانين الكبرى فيه . . ان وجود الصدفة غير قابل للانكار . حتى فى العلوم الطبيعية وفى علاقات المادة أليس من مكان لقانون الاحتمالات ؟ أليسوا يتحدثون عن التذوذ عن القانون ؟

بلى قد لا تكون « الصدفة » نوعا من فوضى العلافة . قد لا تكون - وهو الأرجح - نوعا من الهوى العشوائى الاعمى لقوى غيبية عابثة . . . ولقد تكون بالعكس هى الاسم المبهم الذى نطلقه على مجموعة تلك البنى التكوينية والاسباب والعوامل الدقيقة المعقدة الخفية التي نهمل والتي تجعل حدنا من الاحداث يقع كمنهج منطقية لهاينما لا تقع فى الوقت ذاته او بدلا منه احداث اخرى من مله ليست اقل منطقية ولا معقولة ولا قابلية للحدوث منه . . وهذا يعني ان « العينية » قد تكون ظاهرية فقط ، وقد يكون اللامعقولة نسبته وعارضة تمتد بمقدار ما يدوم جهلنا لتلك العوامل والبنى المشتبكة والمتفاعلة وبراء الحدث ، والنبي لم نطأها حتى اليوم المفاهيم والمناهج والمعارف المتوفرة فى ايدينا . . . ولكننا حتى كشف تلك العوامل سنظل ، فى السببية التاريخية ، مضطرين لافساح مجال كبير جانبي . . لمفاجآت الصدوف . وهو ما لا تقبل به العلوم ولا ترتضيه مبادئ السببية العلمية المتزمته . انه يقع خارج نطاقها .

القانون فى التاريخ :

ونصل اخيرا الى متسكلة « القانون » فى التاريخ والناموس الشامل . ان نهاية المسيرة فى المنهج العلمي هو الوقوع على القانون ، على الصيغة الرياضية التي تحكم علاقات الاحداث ونسمح بالتحكم فيها وتكرارها . العلماء الطبيعيون منذ كشفوا بعض هذه القوانين ، شطح بهم الامل الى ان يتصوروا ان الطبيعة اضحيت « لعبة » العالم . . رغم انهم لا يفقهون « سر » اللعبة . هوس الصيغ الرياضية بلغ قمته مثلا فى قوانين النسبية البالغة التجريد والتعقيد . على ان هذه القوانين نفسها ليست - فيما يبدو - اكثر من لعب اطفال امام تعقيد « قوانين » التاريخ التي نفترض وجودها عقليا من خلال آثارها . . . ولسنا اكثر من فراش يحوم دون هدى كثير من حولها .

واذا كان « التفسير فى التاريخ هو الكتف ، الادراك ، التحليل لالف رباط يوحد بطريقة قد نكون غير قابلة للتعبير الرياضسي أو اللغوى ، الوجوه الكثيرة للواقع الانساني (٥٩) » فان البحث يجب ان يتركز حول هذا « القانون » المفترض الذى يمكن ان يجمع فى حدوده الف رباط تعمل معا على تركيب « الواقع » الهاوى باستمرار فى هوة العدم والماضي . .

ان السؤال هنا يصبح ذا شقين : هل القانون فى التاريخ ممكن ؟ واذا كان ممكناً فما شروطه والحدود ؟

لعل الصيحة التي صاحبا ، ادوار شيني E. P. Cheyney في خطابه امام الاتحاد التاريخي في امريكا في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٢٣ والتي قال : « يجب ان تكون هناك قوانين للتاريخ » ، واحدة من آخر الصيحات التي اطلقها جيل العلميين من مؤرخي القرن الماضي ، مصرين فيها على دفع التاريخ الى حظيرة العلوم الطبيعية ولو بهدم شيء من « اسوار » العلوم او اقتطاع شيء من ابعاد التاريخ في الطول والعرض والذوايات . . لقد قوبل خطابه بالترحاب الشديد يومذاك ، وبالاعجاب والموافقة على القوانين التاريخية التي قدمها للناس . . فما هي تلك القوانين ؟ « ذكر شيني بكثير من التواضع ولكن بكثير من الشجاعة صيغ قوانين ستة سماها مجرد حدس او تخمين . القانونان الاول والثاني وهما قانونا الاستمرار والتعبير . . (ويتعلقان) بحقيقتين اساسيتين من حقائق مفهوم التطور . اما القوانين الاخرى فهي قانون النكافل ومعناه ان الامة تنهض او تضمحل كوحدة . وقانون الديمقراطية ومعناه ان ضبط حياة الجماعة يتجه نحو الديمقراطية وقانون حرية الاختيار ومعناه ان الضغط يولد الانفجار والكارثة . وقانون التقدم الخلقي ومعناه ان المؤثرات الخلقية تميل لأن تكون اقوى سن المؤثرات المادية » (٦٠) .

والمستعرض لهذه « القوانين » سرعان ما يلاحظ انها لا مجال للمقارنة بينها وبين القوانين العلمية ، حتى ولا تلك القوانين التي نترك الصيغ الرياضية الدقيقة لتكتفي بالنسب والارتباطات العامة . واذا كانت « القوانين الطبيعية » على اربعة ضروب : فمنها القوانين الكونية العامة ، ومنها القوانين الجبرية المتعلقة بزوايا من زوايا الطبيعة . ثم هناك القوانين المطلقة وهناك القوانين النسبية الاحتمالية . . فأي نوع من القوانين هي هذه « التعميمات » التاريخية التي تدفع بالجهد الارادي الى دنيا القوانين ؟ لقد زرع ناريخ « فلسفة التاريخ » زرعاً بقوانين اعداد واشتات من مثل هذه التعميمات التي لا تكاد احيانا تحقق حقاً ولا تفسر ملاحظة ولا تسمح بأى تنبؤ . . ولو من قبيل التنجيم ! منذ ابن خلدون مثلاً الذي وضع ما يزيد على عشرة قوانين من هذا النوع قال فيها قبل خمسة قرون : بجدلية التاريخ وديناميكيته وقيام الدول ثم تماسكها بالعصبية . وان الاجتماع الانساني يتطور من البداوة الى الحضرة في سنة طبيعية دائمة وان الدول كالشر تولد وتمنو وتكبر ثم تضمحل وتموت . وان الحضارات تتعاقب عليها ثلاثة اطوار : بداوة ثم حضر ثم اضمحلال اقتصادي وخلقي . وان الاقليم والعوامل الجغرافية تؤثر في التاريخ وان العمران مرتبط بالاقتصاد واختلاف الاجيال انما باختلاف نحلته في المعاش وان . . . جاء بعد ابن خلدون كثيرون حاولوا وضع هذا النوع من القوانين . . . منهم هيجل ومنهم ماركس ومنهم اللورد آكتون ومنهم . . . فلهذه هي القوانين التي يبحث عنها التاريخ لتكون جواز مروره الى ارض « العلم » ؟

الواقع ان محاولة شيني « القانونية » والاعجاب الشديد بها لم يكونا نتيجة الفئاعة بالوصول اخيراً الى قوانين التاريخ ولكنهما كانا يعبران عن الحرقه البالغة لدى انصار التاريخ « العلمي » لانهم ، في الحقيقة ، لم يستطيعوا الوصول الى اكثر من « التعميمات » التي لا تصل حتى الى درجة الكليات المقبولة . . انهم كانوا يتعلقون بأى طيف « للعلمية » قبل ان تفرق نظريتهم في موجة النقد العلمي والرفض .

والآن وقد اضحى العلماء والباحثون اكثر فأكثر اطلاعا على دلائل الكائن البشري وعلى ابعاد تاريخه وعلى عمق الآثار وتعقد المركبات التي يحملها ضمن اهابه من ذلك التاريخ ، فانهم قد امسوا اكثر تواضعا في طلب العلمية الموضوعية للتاريخ ، واكثر سعة فكرية في فهمها .. كما باتوا ايضا ، وفي الوقت نفسه ، اكثر يأسا من الوصول .. الى « الناموس » الاكبر الذي يحكم التاريخ .

ان امكان « القانون » او عدم امكانه ، يجب ان يفتش عنه في المقولات الاساسية التي تحكم المسيرة في التاريخ . ان سلسلة المقولات التي يستند اليها العالم الطبيعي للوصول الى القانون وتحقق صيغته الرياضية وقوته في التنبؤ يمكن ان يختصر في الحدود التالية وكلها حدود سكونية:

المادة (الثابتة) ← العلية (كعلاقة) ← الكلية أو القانون (كحتمية مجردة عن الزمان والمكان) . أما سلسلة المقولات في التاريخ فمختلفة تمام الاختلاف وكلها حدود حركية :

الانسان (الدائم التحول بيولوجيا ونفسيا ومعرفا واجتماعيا ومعيشة) ← الزمان والمكان (المتبدلان) ← العلية (كعلاقة) ← الصيرورة (كحصولية للتحويلات) .

ان الحد الوحيد المشترك بين السلسلتين هو وجود العلاقة السببية ولا يمارى فيها احد من الباحثين . ولكن التشابه ينتهي عندها بعد ذلك فالانسان ليس مادة فحسب ولكنه مادة حية وواعية وهو يتغير دون انقطاع لا من عصر لآخر ولكن من مكان لآخر ومن تكوين عرقى الى تكوين آخر ويتغير باستمرار بيولوجيا كما يتغير نفسيا ويتغير في المعرفة ونتائجها وفي البنى الاجتماعية والتكوينات الاقتصادية ، وتختلف آثار الزمان فيه وتأثيرات المكان في رواسب وردود فعل وارثكاسات ومواصفات لا تنتهي حدة وعددا وتوترا واستمرارا . ولعل فقر العلاقة الرياضية، في العلوم الطبيعية ، وبساطة حدودها تتبدى هنا عند المقارنة ... فان العلم الطبيعي – بالمقابل – انما يتعامل مع مادة هامة ثابتة الكم والحجم والوزن والصفات ، خارجة عن حدود الزمان والمكان ! . واذا شئنا ان نضيف بعض الايضاح قلنا :

أ – ان المعرفتين العلمية والتاريخية تنتمي الى الواقع الى موضوعين مختلفين :

الطبيعة والانسان . وتتناول الاولى العلاقة الثابتة ، الكمية ، القابلة للتجلى بشكل قانون رياضي . بينما تتناول الثانية العلاقة المتحولة دوما الى تحليل التغير وضبط حدوده في الصيرورة .. ان تحول الانسان وزمانيته التاريخ ومكانيته هي التي تمنع من الوصول الى قوانين انسانية ثابتة لا زمانية ولا مكانية .

ب – وليس في التاريخ ، الى هذا ، اطراد طويل الامد يصلح لتعميم القانون بالمعنى الرياضي الحتمي . نفرد الحادث التاريخي، جدته المستمرة، جزئيته كلها ترسخه لرفض القانون . بالشكل الذي يأخذه في علوم الطبيعة على الاقل . انها تلج في الوصول الى قانون ذي شكل آخر مختلف تمام الاختلاف ... لعل من المؤسف ان العلماء لم يصلوا بعد الى تطوير المقولات الاولى التي يمكن ان تحتوى كافة حدوده . لم يصلوا الى ان يضعوا فيه بديهية كبريهية اقليدس او مبدأ من نوع مبادئ ديكارت في المنهج . او مقولة في المنطق التاريخي من نوع مقولات ارسطو في المنطق .. علماء الطبيعة طوروا مع العصور وسائل وطرقا في البحث، وانفقوا على مبادئ وفرضيات اقاموا على اساسها العلوم الطبيعية ، ولعل تعقيد العلوم الاجتماعية الانسانية هو الذي منع من تطوير الوسائل المماثلة فيها ... ولعل من ضيق الفكر ان نحدد مفهوم العلم في اطار العلوم الطبيعية

ذات القوانين الرياضية ، وهي ليست اكثر من زمرة محدودة من المعارف الانسانية . ومن الظلم للتاريخ (وللعلوم الاجتماعية الانسانية معه) ان نقسره على الخضوع لوسائل المعرفة المبسطة والحدود الرياضية السكونية التي نصطنعها للمادة الهامدة في تلك العلوم ... ليس هذا من نوع التحيز للفلسفة المثالية ضد الفلسفة الوضعية التي ترى ان « العلوم » وحدها هي مستودع المعرفة الانسانية الوحيد ... ولكنه نتيجة الضرورة في اقامة التوازن في الفكر الانساني ما بين مختلف الكشوف والمعارف التي وصل اليها حتى الآن ... وخاصة في عالم هذا « الانسان المجهول » والمقد في وقت معا .

ج - ثم ان « التاريخ الانساني في سيره يتأثر تأثراً قويا بنمو المعرفة الانسانية ... ولا يمكن لنا بالطرق العقلية او العلمية ان نتنبأ بكيفية نمو معارفنا العلمية .. واذن فلا يمكننا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الانساني » (٦١) . ضمن قانون حتمي . وهذه الملاحظة الهامة التي لخص فيها بوبر بنفسه كل فكره حول « عقم المذهب التاريخي » يمكن لنا ان نعممها فنقول ان التاريخ يتأثر ايضا بتطور المجتمعات ، وتغير طرق المعيشة وتطور البنى النفسية للانسان بل وبتأثيرات التاريخ العكسية فيه .. فلا يمكن التنبؤ فيه بالمستقبل بشكل يقيني ولا شبه يقيني ما دامت المعطيات الاولى لتلك التحولات المؤثرة فيها كقبض الريح ، تفر من بين الاصابع حتى الآن في اللجة الواسعة للحياة .. منذ مائة سنة أى في سنة ١٨٧٤ كانت شوارع اعظم المدن الاوروبية الراقية مملوءة بحيوانات البر ، وكانت السماء ملكا للطير وحده . وكانت الاجسام الصلبة العتمة صلبة وعتمة . وكان الساعات كلها سواسية امام الكون ، وكان المكان يتمتع بالتجانس واللانهاية . وقوانين نيوتن وغاليلو وديكارت هي اليقين العلمي الذي لا يقين بعده .. من ذا الذي كان بإمكانه ان يتنبأ ، لو كتب التاريخ تلك السنة او من ذا الذي كان بإمكانه ان يضع القانون الذي يعرف ولو على الظن والحدس او حتى الحلم البعيد (غير الروائي) ان الآلة سوف تطرد الانسان والحيوان من العمل ، وان الجو سيصبح للطائرات والصواريخ والاقمار والركبات النازلة على القمر ، وان كل ما كان يطمئن اليه العلماء كحقائق أبدية من مفاهيم وقوانين في الزمان والمكان والطبيعة سوف تنسفه من جذوره مفاهيم اخرى تغير وجه التاريخ ؟

د - وفي التاريخ احتمالات وصدف تشكل - ضمن حدود المعرفة الانسانية الحالية - نوعا من اللانطق ، ضمن منطقية السير الكوني له . انها تمد لسانها لكل قانون . واذا كان حساب الاحتمالات ممكنا في النطاق الرياضي والطبيعي فمثل هذا الحساب يتأبى ، حتى الآن ولعله سيظل طويلا على التأبى - على كل قانون .. على الاقل لكثرة ما يتصل به من حدود رواغة او مجهولة . ان كلمة « لو ان .. » كاشف كبير في التاريخ له مفعول السحر الفكري . انه على الاقل يكشف ان منطق « الحتمية » غير مطرد ابدا في التاريخ . يكشف ان سبل الاختيار لم تكن كلها مغلقة في الحدث التاريخي وان السبيل الذي سلكه ذلك الحدث لم يكن السبيل الوحيد . ان هذا وحده يكفي لابقاف أى « قانون » حتمي .. مشلولاً وخارج التاريخ . من ذا الذي مثلاً كان يستطيع ، حتى لو ملك جميع المعارف اللازمة لوضع القانون التاريخي ، ان يضع الصيغة التي تتنبأ بانتهاء اليابان امام القنبلة الذرية سنة ١٩٤٥ لو ان عبقرية **اوبنهايمر** صانع هذه القنبلة تأخرت في

كتشفها سنة أو سنوات ؟ ومن ذا الذى كان يعرف ماذا سيكون عليه تاريخ أوروبا الحديث لو أن خنجر سليمان الحلبي اصاب نابليون في مصر بدلا من كليبر ؟ ولو أن أم المعتصم التركية كانت أرمنية أو فرنجية فماذا كانت عليه علاقة الترك بالخلافة العباسية ؟ ولو لم تفشل خناجر الاسماعيلية ثلاث مرات في اصابة مقتل من صلاح الدين وهي التي لم تكن تفشل مرة في مثل ذلك . فأين كانت حطين من التاريخ ؟

واذا كان لأثر « الافراد الابطال » في التاريخ نظرية واسعة ، ومؤيدون كثيرون ليس كارليل بأولهم ولا بآخرهم ، فان الاحتمالات المؤثرة في التاريخ اضيق من ذلك بكثير . . . لقد تكون لا حياة فرد ولكن مجرد تصرف صغير غير مسؤول من حيوان أو مجرد صدفة وعندها : فأى قانون يمكن ان يحكم كل اولئك ؟

هـ - ان التاريخ لا يصل الى المعقولية (وبالتالي الى القانون) الا حين يصبح قادرا على اثباتها بشكل يقيني ونهائي ، اى على كشف كافة الروابط التي تربط كل حدث من المصير الانساني بسابقه وبتتابعه . والتاريخ ، في حدود المتوفر من الوثائق والآثار والاخبار اليوم لا يشكل نسيجاً كاملاً للماضي الانساني كله . ان النقص فيه لا يتشكل تروخاً فقط في ذلك النسيج ولكن لا يكاد يكون اكثر من مزق ورقع من الرداء الذى يلف الارض طيات بعد طيات . الكثير من مادة التاريخ ضاع الضياع الابدي ولو كان الامر يتعلق بالمادة الهامدة لكان من السهل ان يدل الجزء على الكل أما الامر متعلق بالمادة الحية الواعية التى هى الانسان فانه بكل تأكيد يصبح مختلفاً جداً . واذا كان التتابع الزمني في المادة يمكن ان يكشف عن العلية وحدود القانون . فانه حتى وضع السلاسل الزمنية الدقيقة للاحداث لا يشكل في التاريخ اى كشف للنواميس المحركة . وما يحاوله بعض المؤرخين من وضع نظريات يبدو ان الوقائع تؤيدها ليس اكثر من محاولات مسكينة « ولو دققنا النظر في هذه الوقائع لتبين لنا انها اختيرت في ضوء النظريات عينها التي نريد اختبارها بها . . (٦٢) » . ولا تكون النظرية التاريخية صحيحة ان وجدنا الوقائع التي تدعمها فقط ، ولكن ان عاجزنا عن العثور على الوقائع التي تدحضها . . وهذا العجز لم يحدث بعد بالنسبة لاي نظرية . . ونحن في كثير من الاحيان نستطيع ان نبرهن ان النظريات المستخرجة من حالات « التعاقب التاريخي » ليست اكثر من تعميمات تجريبية Empirique ومن الخطأ ان نخلط ما بينها وبين القانون بمعنى الناموس العام الحتمى الشامل ، بل ان «هيوم» الذى تحدى المدرسة التجريبية منذ قرنين يظل ها هنا برأسه من جديد ، من خلال متشككي القرن العشرين الذين قد يرون معه ان التحليل السببي التاريخي ، في نهاية الامر لم يكشف اكثر من ان امراً يحدث في اعقاب آخر . . دون اى يقين في السببية والقانون .

و - واخيراً فثمة ثلاث صعوبات كبرى تقف بين التاريخ وبين الوصول الى القانون ، وهي تقف في الواقع ، عامة بين كل بحث اجتماعي وبين تقنيته في صيغة رياضية او رمزية مجردة :

الاولى : صعوبة التعبير بالكمي عن الكيفي . ليس ثمة من وحدة قياس كمى أو رقمى تقيس الظواهر والعلاقات التاريخية . لا وزن ، لا قياس ، لا كيلا للحجم . الابعاد والارقام تنتمي الى عالم

آخر من المعرفة لا يمر بالتاريخ الا لما . لقد نستطيع ان نحصى بعض اعداد الجيوش والسكان او عدد المدارس او الكتب ولكن كيف نعبر رقما او ابعادا عن معركة عين جالوت او مصرع كنيدي او نكبة البرامكة ؟ وهي وقائع ذات بوتر نفسي وامتداد زمني واتصال بما لا ينتهي من الاسباب والعوامل المكونة والنتائج ؟

الثانية : صعوبة المزج في العمل التاريخي بين الدراسة الساكنة (ستاتيكا) والحركية (ديناميكا) في وقت معا . صعوبة بحث الواقعة التاريخية بحالتها من عناصر الاستمرار وعوامل التغير في صيغة جدلية واحدة . ان بحث «الحدث» التاريخي سواء كان واقعة فردية أو ظاهرة حضارية عملية تشرحيه لحد كبير . واذا حددت الظروف المختلفة مكانه وزمانه وابعاده الا انه كظاهرة تاريخية انسانية يعبر التاريخ في العمق ويتحرك خلاله وبؤثر فيه ويتأثر باستمرار . بجانب دراسته في ذاته اذن هناك دراسة اخرى له في حالة التحرك والتفاعل والتطور المتماضي ، ونحن نقوم بالعملين معا دون ان ندرى احيانا . ولا بد في القانون المفروض ان يجمع بين جدلية الساكن والمتحرك ، بين الثابت المستمر والطارئ المحول في صيغة واحدة . ولقد يكون ذلك سهلا في العلوم الطبيعية المعروفة الحدود والتي نستطيع بسهولة في قوانينها ان نجعل بعض حدودها صفرا أو ان نرسم لها الخط البياني المتحول . . أما في التاريخ فكيف تلتفي الواقعة ؟ وكيف تصور الخطوط الذاهبة في كل الاتجاهات ؟

الثالثة : صعوبة التمييز بين الروابط السببية في وقائع التاريخ ، والعلاقات الوظيفية والبنائية . الترابط بين ظاهرتين في التاريخ توجدان معا وتغيران التغير النسبي طردا او عكسا بحيث تصبح الواحدة شرطا للآخرى ليس بمعنى ان الاولى سبب للثانية ولا ان الثانية نتيجة للاولى . مثل هذا النوع من العلاقة قد يكون نتيجة الترابط الوظيفي ، او البنائي في تكوين الوقائع التاريخية وليست كذلك العلاقة السببية أو العلية . نمة مثلا ، علاقة العلة والمعلول بين الفقر وظهور الاوبئة والطواعين في بعض حقبة التاريخ ، او بين التكاثر الديمغرافي والهجرات القاتحة . اما علاقة انتشار الورف في العصر العباسي الثاني مع نمو الفكر وامتزاج الثقافات فعلاقة وظيفية . ومن مثل ذلك : العلاقة البنائية بين الهجرة الريفية الى المدن مع كثرة الزنج في جنوب العراق في اواسط القرن الثالث للهجرة . ان التغير التكنولوجي في الاولى وتبدل البناء الاجتماعي في الثانية قد اديا بين ما اديا اليه من امور كثيرة ، الى الخصب الفكري والى ثورة الزنج المدمرة . . دون علاقة العلة بالمعلول . لنسم ذلك بالاصطلاح الدارج المعروف : الاسباب المباشرة وغير المباشرة ان شئنا ، ولكن المواجهة المباشرة لها ولطبيعتها لا تسمح ببناء القوانين .

وهكذا لم يظهر حتى الآن أى قانون في التاريخ . لأن « مشكلة السببية في الأصل ما زالت غير محلولة في جوهرها » (٢٣) . ما ظهر ليس اكثر من تعميمات ، اوسع ما تناوله في المدى مجموعة تكثر او تقل من القرون . وفي المكان منطقة تتسع او تضيق من الارض . وفي ألوان الحضارة والحياة لون واحد لا يزيد . . ومن ذلك نظرية بيوري حول التقدم ونظرية رينان في التغير الديني . ونظرية ويدر Weber و Sombart حول أصل الرأسمالية ونظرية ماركس في صراع

الطبقات ، وتوابعها حول دور التحدي والاستجابة في خلق الحضارات وتعميم اللورد آكتون بأن كل سلطة تفسد والسلطة المطلقة تفسد فسادا مطلقا. والاقوال الأخرى الشائعة من أن الظلم يولد الثورة وأن الثورة أول ما تأكل أولادها

هذه التعميمات وأمثالها وإن كانت تتراوح ما بين درجة النظرية التي تحاول تفسير التاريخ كله وبين درجة الأفكار التي تعكس بعض تجارب التاريخ ودروسه إلا أنها في كل الأحوال أشبه بمرحلة الحكمة من الفلسفة قد تحمل النظرة التجريبية الصائبة ولكنها لا تصل مستوى النظرية الفلسفية التي تحل متكله الكون ولا درجة القانون الذي ينظم علاقات الوجود .. ولعل من الأصح أن نقول مع شولفين « أنه بسبب وجود الإرادة الإنسانية (وغيرها أيضا) في الحدث التاريخي هذه الإرادة التي قد تتعارض نظريا مع وجود قواعد ثابتة ، أو مع خلق قواعد جديدة فإنه لا يمكن من حيث المبدأ أن تكون القوانين في حياة الناس قوانين مطلقة ثابتة ... » بل إن « قوانين » التاريخ أو ما ندعوه بالقوانين هي أمور موجودة ولكنها تنتمي إلى طبقة قوانين الاحتمالات ولا يمكن لها أن تكون نظرية - كالقوانين الرياضية أو الفلكية أو الميكانيكية - ولا يمكن لها خاصة أن تكون مطلقة ... (٦٤) .

وقليلة جدا هي تلك الفرضيات العظيمة في التاريخ (كنظرية صراع الطبقات ، ونظرية التحدي .. وغيرها) التي تعدل في القيمة والشمول تلك النظريات الكبرى في علوم الطبيعة (ابتكار الجبر على يد **الخوارزمي** . تطبيق الرياضيات في الفلك على يد **جاليليو** . نظرية حركة البخار ، النظرية الكهرومغناطيسية للضوء ، النسبية) . ومع أن هذه الفرضيات المشابهة للقوانين تسهل عمل المؤرخ بجمعها آلاف الدقائق والوقائع المتناثرة وبإضاءتها الدائمة كروايا مغلقة عتمة من الحقائق ، إلا أنها تتحجر وتفقد دققها الخلاق أحيانا على يد أنصارها أنفسهم . تصبح مع التعصب آلة « دوغماتية » جامدة للدرجة التي تعمى معها عن وجهات نظر أخرى لا نقل عنها واقعية وصحة ، ونتوهم وجود « بنى » اجتماعية وتاريخية وعوامل ونتائج ما إن لها من وجود ، وذلك لمجرد أن النظرية فقط تفترض وجودها ، وأن المنظور الفكري لا يتم وينطبق إلا بذلك الافتراض . ولعل هذا ما دفع الكثير من المؤرخين إلى التحرر من الارتباط بأي نظرية أو قانون والاكتفاء عن صياغة « النواميس » أو متابعتها بالشرح والتفسير الجزئي طبقا لمعطيات كل واقعة على حدة (٦٥) . بل إن الكثيرين اليوم يدعون إلى إلغاء فلسفة التاريخ ويتجنبون الوصول إلى نتائج عامة تستخلص من التجارب التاريخية ويرفضون الاعتراف بوجود قوانين موضوعية تحكم التطور الاجتماعي من أمثال **مورتون وايت** استاذ الفلسفة في هارفارد ، وممثل البراغماتية الحديثة الذي

يقول في كتابه : (أسس المعرفة التاريخية) « ان فلسفة التاريخ التي تزعم انها تدرس التطور الاجتماعى وقوانين نشوء الحضارات وتطورها ومستقبلها ، انما هي فلسفة « تقديرية » . ورجل العلم المعاصر الذى يحاول ان يضع فلسفة للتاريخ انما يوجه اكثر اهتمامه الى تحليل الفكر التاريخي واللفظ التاريخي .

هل يعني هذا كله ان « القانون » غير موجود فى التاريخ ؟ بعيدا عن الوصول الى مثل هذه النتيجة العلمية التي تجعل الوجود كله مجرد زوبعة من الصدفة العمياء فى الفراغ اللانهائى ، فاننا بالعكس نؤمن ان الوجود جميعا - بما فيه الوجود الانساني - يخضع لادق واعقد واخفى القوانين . لا اسهل من البرهان المنطقي على وجود « قوانين » تحكم التاريخ ولكن كشف هذه القوانين هو المشكلة . هو المستحيل حتى الآن بوسائل ورموز وطرق المعرفة التي نتداول ونصطنع . ولعل التعميمات الكبرى انما هي بعض الدلائل والمؤشرات على ما وراءها من ناموس يمشي بقدر ويقف بقدر . واذا كنا لا نستطيع ان نفعل عامل « الجديد » و « الصدفة » والقفزة النوعية التطورية فى التاريخ لنقول مع اوغوست كونت فى يقينه الدوجماتي « من يعرف الماضي جيدا يعرف المستقبل » فلعلنا نستطيع ان نقول باطمئنان مع (كانت) : « لو امكننا ان يكون لنا بصر نافذ عميق فى الطابع العقلي للانسان كما تدل عليه الاعمال الداخلية والخارجية . اى بأن نعرف كل دوافعه حتى اصفر دافع فيها . ونعرف كل الظروف الخارجية التي تستطيع ان تؤثر فيها . . لو امكننا ذلك لاستطعنا ان نحسب سلوك الانسان فى المستقبل بمثل اليقين الذى نحسب به خسوف القمر او كسوف الشمس . ومع ذلك سنظل نؤمن بأن الانسان حر . . » (٢٦) . بمعنى ان ثمة دوما هامشا من المنطقة الحرة متروكا لفعالية الحياة الانسانية المتجددة بين العبودية لعوامل الماضي ومقتضياته وبين ما يحققه الانسان من عمل خلاق فى المستقبل . وهذا الهامش هو الذى سيظل العنصر الأبقى المتمرد على أى قانون وتنبؤ .

ويسألونك بعد عن التاريخ هل هو علم ؟ قل : قد رأيت ...

انه ليس بعلم ان شئنا ان نفهم من الكلمة المعنى الكلاسيكي لها : معنى العلوم الطبيعية وما تصطنع من وسائل منطقية ومن معالجة وضعية للمادة تكشف بها علاقاتها حتى تتحول تلك العلاقات الى قوانين رياضية . التاريخ ليس من هذا ابدأ انه من ميدان آخر بعيد .

ويسألونك اذن فهل هو ثقافة ؟ بلى ! على الا نفهم من الكلمة انها عكس العلم او أدنى درجة منه . ولا انها المعرفة التطوعية او الآفاقية غير ذات اليقين . ولا انها نوع من الترف الفكرى الذى يزين بعض الجماجم . . انه ثقافة بمعنى اعطاء الانسان ابعاده كإنسان .

ويسألونك اذن فهل هو دراسة اجتماعية ؟ لقد تكون الدراسة الاجتماعية بعضا منه . لانه

اوسع منها في المدى الافقى بتنوع نواحيه وأبعد منها في المدى الزمني بما يضم من العصور القابرة .

ان التاريخ علم انساني (في مقابل العلم الطبيعي) . انه معرفة مختلفة في الطبيعة والميدان والموضوع عن العلوم الطبيعية . وعدم علميتها حسب مناهج هذه العلوم لا يعني عدم علميتها المطلقة . ولا ينقص من قيمتها كمعرفة انسانية . ولكنه يعني ان العلماء لم يصلوا بعد الى المقولات والوسائل والمناهج التي تتناسب في التعقيد مع مادة التاريخ والتي تستطيع ان تضم بين حدودها الشاملة آفاقه اللامتناهية .

اساس المشكلة يقوم في ما يمكن ان نستعير من اقوال اورتيغا اى كاسيه J. Ortega y Gasset « الطبيعة شيء . بل شيء عظيم مؤلف من عدة اشياء صغيرة ومهما تكن الفروق بين الاشياء فان لها مظهرا واحدا مشتركا هو انها . ذات وجوداى ذات مبنى وتركيب محدد . اى لها طبيعة ثابتة . . (ولكن) عجائب العلم الطبيعي ستظل دوما تقف (مبهورة) امام حقيقة الحياة الانسانية الغريبة . . فلم يقف هذا السر وحده امامها مغلقا ؟ لعل التفسير هو ان الانسان ليس شيئا . وانه من (الزيف) ان نتحدث عن « طبيعة » انسانية . ان الانسان لا « طبيعة » له . . الحياة الانسانية ليست شيئا . وليس لها طبيعة واذن فعلينا ان نوطن النفوس على ان نتصورها من خلال المصطلحات والمقولات والافكار التي نختلف جذريا عما يبصُرنا بظواهر المادة . . ليس للانسان « طبيعة » انما له تاريخ . . » (١٧) . ولعلنا نستطيع ان نستبدل بكلمة تاريخ القول : « ان له طبيعة زمنية متطورة دون انقطاع . وهنا يكشف « ان العقدة الاساسية في فلسفة العلوم الاجتماعية (عامة وفي التاريخ خاصة) هي هذه : هل بالمستطاع دراسة الانسان بالوسائل نفسها التي تطبق على الكائنات الدنيا والطبيعة الصماء ؟ » (١٨) . فالتاريخ ، كعلم انساني اذن ، له (او يجب ان تكون له) علميته الخاصة اى طرائقه ومنطقه في فهم الموضوعية الزمنية التطورية ، وفي الوصول اليها ، عبر متحولاته الثلاث : الزمان والمكان والانسان . على ان عدم وصول التاريخ الى القوانين التاريخية حتى الآن :

١ - لا يعني انه ليس باستطاعته الوصول اليها ، بقفزة نوعية في الفكر التاريخي تشبه قفزة نيوتن ورعيله المعروف في العلم الطبيعي ، متى توفرت المعطيات الاولى والمقولات التي لا بد منها لمثل تلك القفزة .

٢ - لم يمنع التاريخ كمعرفة انسانية من الدرجة الاولى ، من التقدم والتوسع . العمل التاريخي اليوم ناشط جدا في نطاق توفير المادة الاولى وجمعها وتنسيقها ، وهو نصف العلم .

(٦٧) اورتيغا اى كاسيه - التاريخ كنظام . نقلا عن كاسير - مقال في الحضارة الانسانية (الترجمة العربية)

ص ٢٩٢ .

(٦٨) جون كيميبي - الفيلسوف والعلم (الترجمة العربية - امين الشريف - بيروت ١٩٦٥) ص ٢٥٢ .

٣ - لم يلف قيمة التعميمات والتفاسير التاريخية التي اخذت احيانا شكل القواعد العامة والنظريات الكبرى والتي كانت نتيجة مقارنات عرضانية وطولانية عبر مجرى التاريخ . انها مرتسمات القياس التاريخي، من خلال الحضارات المتعددة (التاريخ الساكن) . ومن خلال مسيرة التاريخ (التاريخ المتحرك) . فالديالكتيك الهيفلي ، رغم ميتافيزيكية صاحبه ، اخصب التاريخ اوسع الخصب ، بقدر ما زادت المادية التاريخية مع فيورباخ وماركس ، من عمقه ، وما قدمت فيه الآراء منذ ابن خلدون حتى توينبي من زاد انساني .

★ ★ ★

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ

أحدث النظريات في فلسفة التاريخ

حين نتحدث عن فلسفة التاريخ نقصد تاريخ الانسان ، لأنه الكائن الواعى الوحيد بين الموجودات ، ولا فلسفة حيث لا وعى ، ولهذا فلامحل للحديث عن « فلسفة » التاريخ بالنسبة الى غير الانسان .

والانسان بدوره تاريخى ، لأنه انما يعمل فى الزمان ، ولا تاريخ الا بالزمان . ومن هنا ارتبطت كل نظرية فى التاريخ بنظرية فى الزمان :

١ - هل للزمان بداية ونهاية ؟

من أجابوا بالإيجاب انقسموا الى فريقين :

١ - فريق حسبوا هذه المدة وفقا لأحداث ومقاصد معينة ، وهو فريق أصحاب النظرات الدينية فى الزمان وفى التاريخ ، الذين ربطوا الزمان بالخلق الأول وبمصر الانسان فى الدنيا

وبنهاية يرتبط بها حساب وعقاب ونواب . ومن أبرز ممثليه **فيلون** (حوالى ٢٥ م - ٥٠ بعد الميلاد) بالنسبة الى اليهودية ، والغديس **أوغسطين** (٣٥٤ - ٤٣٠) بالنسبة الى المسيحية وابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) بالنسبة الى الاسلام .

ب - وفريق ربطوا تلك المدة بأحداث فلكية كونية ، بمعزل عن كل المعانى الدينية ، كما هو الشأن لدى علماء الفلك والانثروبولوجيا الفلسفية وعلماء الحياة ، ومن هذا حذوهم من المؤرخين المتأثرين بالعلوم الفيزيائية والطبيعية ، مثل **رنانز** (١٨٢٣ - ١٨٩٢) **Renan** و **أرنست هكل** Ernst Haeckel (١٨٣٤ - ١٩١٩) .

٢ - هل للتاريخ مسار واحد ، أو التاريخ دوائر ؟

فمن قالوا بالاولى تصوره معرضا للروح المطلقة وهى بغض مضمونها على مر الزمان اللامتناهى ، وأبرز ممثلى هذا الاتجاه **هيجل** (١٧٧٠ - ١٨٣١) . ومن قالوا بالثانية تصوره دوائر اما مغلقة هى الحضارات المختلفة - أو دوائر يفضى بعضها الى بعض ولها عودات **Ricorso** : وبالفكرة الاولى قال **اشبنجلر** (١٨٨٠ - ١٩٣٦) ، وبالثانية قال **فيكو** Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤) .



وفى داخل هذه الاطارات العامة أسرت مشاكل فلسفة التاريخ :

١ - واولها مشكلة النسبية فى التاريخ وبخاصة ما يتعلق منها بالقيم . فأفضى الى نظريات **دلتاي** فى نقد العقل التاريخى (١٨٣٢ - ١٩١١) وبدلتاي تبدأ فلسفة التاريخ المعاصرة ، ونظريات **اشبنجلر** فى نسبة القيم الى الحضارة المنبغية فيها ، وآراء **ماكس فيبر** Weber (١٨٦٤ - ١٩٢٠) فى الربط بين التاريخ والاجتماع ، وما ذهب الىه المادة التاريخية عند **كارل ماركس** (١٨١٨ - ١٨٨٣) و **فريدريش انجلز** (١٨٢٠ - ١٨٩٥) من الربط بين الاقتصاد المادى والتاريخ ، وما قال به **كارل مانهيم** من اجتماع المعرفة ، وآراء **بندتو كروسه** (١٨٦٦ - ١٩٥٢) فى التاريخية المطلقة .

٢ - وتانيها مشكلة العلية فى التاريخ وتندرج تحتها الاسكالات والخواطر النى حفلت بها دراسات **توينبى** (ولد سنة ١٨٨٩) و **كارل پوپر** Karl Popper .

٣ - وثالثها مشكلة التقدم والمخلف فى مجرى التاريخ : هل هناك خط للتقدم يستمر قدما ؟ أو نم تقدم وتخلف دون قاعدة ولا قانون ؟ وما من فيلسوف فى التاريخ الا ونعرض لهذه المشكلة اما اماما واما تفصيلا .

٤ - ورابعها امكان التنبؤ بما سيكون عليه التاريخ . وفى هذا ذهب البعض الى التفاؤل ، والبعض الآخر الى التشاؤم ، والبعض الثالث زعم انه بمعزل عن كليهما ، وانه تنبؤات موضوعية غير تقويمية . ومن الذين برزوا فى هذا المجال : **توكفيل** (١٨٠٥ - ١٨٥٩) و **يعقوب بوركهوت** (١٨١٨ - ١٨٩٧) و **فريدريش نيتشه** (١٨٤٤ - ١٩٠٠) وأخيرا **كارل يسيروز** (١٨٨٣ - ١٩٦٩) .

وفيما يلي نعرض لآراء طائفة من فلاسفة التاريخ المعاصرين * .

١ - قلهلم دلتاي

ونبدأ بـ **قلهلم دلتاي** Wilhelm Dilthey لأنه رائد التيارات المعاصرة في فلسفة التاريخ في ألمانيا .

هدف دلتاي الى أن يقوم بالنسبة الى التاريخ بما فعله كانت (١٧٣٢ - ١٨٠٤) الى العقل الانساني المجرد ، وذلك بأن يقوم « بنقد للعقل التاريخي » هو بمثابة تكملة « لنقد العقل المحض » كانت Kant .

وابتداء من هذه الحقيقة وهي « ضرورة فهم الانسان بوضعه موجودا تاريخيا في جوهره ، وأن وجوده لا يتحقق الا في جماعة » (١) . وراح يدرس « علوم الروح » على أساس تاريخية الوجود الانساني ، بمعنى أن الانسان بعدا أساسيا هو التاريخ ، فينبغي دراسة العقل الانساني من زاوية التاريخ . فالطبيعة غريبة عن الانسان ، ويستطيع المرء ادراكها بواسطة الملاحظة الحسية ، أما العالم التاريخي الاجتماعي فهو عالم الانسان ، ولا يمكنه ادراكه الا من الداخل (٢) . ولهذا فان العلاقة بين الانسان والموضوع . في العلوم الروحية ، علاقة مباشرة ، لأن هذا الموضوع هو التجربة الانسانية الحية . ومن هنا فان الأساس في العلوم الروحية هو التجربة الحية Erlebnis ، ويقصد بها الاحوال والعمليات والنشاطات الباطنة كما نستشعر . ونحيها ونعيها .

ويعرف دلتاي العلوم الروحية Die Geisteswissenschaften بأنها « مجموع الدراسات التي موضوعها هو حقيقة التاريخ والمجتمع » (٣) ، وتسمى بالفرنسية « العلوم الاخلاقية » Sciences morales .

وعلى الرغم من أن العلوم الروحية قد تناول بعض الأشياء والعمليات الفيزيائية فانها انما تتناولها من حيث هي أثار أو ذات علاقة بتحقيق الأغراض الانسانية ، أو نفيذ في التعبير عن الأفكار والمشاعر الانسانية . وادن لا يهتم الدراسات الانسانية (= العلوم الروحية) بالظواهر الفيزيائية الا من حيث صلتها بالوعي الانساني ، وخصوصا من حيث هي تعبيرات من خلالها يمكن فهم هذا الوعي .

وهذه العلوم الروحية متنوعة جدا : اذ تشمل علوما فنية مثل النحو والخطابة ، وعلوما معيارية مثل الأخلاق والنظريات السياسية والنقد الادبي ، وعلوما تعميمية مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد ، وعلوما تاريخية بالمعنى الضيق مثل التراجم الذاتية والنواريخ .

* نظرا الى أننا الفنا كتابا عن اشينجلر (ط ١ سنة ١٩٤١) فلن نذكره هنا مكتفين بالإحالة الى كتابنا .

(١) Der Junge Dilthey, p. 124. Leipzig & Berlin, Teubner, 1933.

(٢) راجع لدلتاي : « مجموع مؤلفاته » ج ١ ص ٣٦ - ٣٧ Gesammelte Schriften .

(٣) دلتاي : « مجموع مؤلفاته » ج ١ ص ٤ .

والدراسات (٤) الانسانية تجمع بين ثلاثة اصناف متميزة من الفريرات . فصنف منها يقرر حقائق موجودة في الادراك الحسي : وهذا يؤلف العنصر التاريخي في المعرفة . وصنف يوضح العلاقات المطردة بين اجزاء من هذه الحقيقة ، بمبزهها بالتجريد : وهذا يؤلف العنصر النظري . والصنف الثالث يعبر عن الاحكام التقويمية والقواعد المفروضة : ويتضمن العنصر العملي في الدراسات الانسانية . وعلى هذا فان العلوم الروحية (= الدراسات الانسانية) تتألف من أقوال تعبر عن وقائع ونظريات واحكام تقويمية وقواعد .

وملكة المعرفة في الدراسات الانسانية هي الانسان كله والأعمال العظيمة الى امت نبها لم تنشأ عن العمليات العقلية وحدها ، بل عن قوة الحياة الشخصية .

تاريخية الانسان :

والانسان الفرد تاريخي في جوهره ، لأنه يعيش في الزمان، ويتجدد بأحوال وظروف معينة، ووجوده عملية زمنية تتحدد بال ميلاد والموت ، وتتألف من سلسلة متصلة الحلقات تتألف من ماض وحاضر ومستقبل ، ونجى هذه العملية في اطار علاقاته مع الآخرين ، وعلاقاته مع الطبيعة . ولما كان الفرد كذلك ، فان العلاقات بين الأفراد هي ايضا علاقات تاريخية . وحياة الانسان حياة تاريخية ، وعالم الانسان اذن هو عالم التاريخ .

واساقا مع هذه التاريخية ، يفرض دلتى المبادئ المطلقة والقيم المطلقة ، وينكر النظرة التي « ترى مهمة التاريخ في التقدم من قيم والتزامات ومعايير وخبرات نسبية الى قيم والتزامات ومعايير مطلقة ... صحيح ان التاريخ يعرف أقوالا مفادها وجود قيمة او معيار او خير مطلق وهذه الاقوال تظهر في كل مكان في التاريخ - مرة على ان ذلك صادر عن ارادة الهية ، ومرة أخرى بالاستناد الى نظرة عقلية في الكمال ، او الى نظام نمائي للعالم ، او الى معيار - مقبول قبولاً كلياً - لسلوكنا القائم على أساس عال على الوجود . بيد ان التجربة التاريخية نعرف العملية فقط ، عملية اصدار هذه الاقوال : ولكنها لا تعرف شيئاً عن صحتها المطلقة (المزعومة) . ولما كانت تتابع عملية تشكيل مثل هذه القيم المطلقة والخبرات والمعايير ، فانها تلاحظ بالنسبة الى كثير منها كيف انتجت الحياة ، وكيف ان التقدير المطلق اصبح هو نفسه ممكناً بفضل تحديد أفق العصر . ومن هناك تنظر الى جماع الحياة في ملاء تحقيقاته التاريخية . وتلاحظ الكفاح السجال بين هذه الاقوال المطلقة بين بعضها وبعض . والسؤال عما اذا كان يمكن أن يوضح ببينة منطقية ، ان اندراج التجربة تحت امثال هذه المبادئ المطلقة - وهي من غير شك حقيقة تاريخية ، يجب ان يرد الى عامل في الانسان كلى وغير محدود زمانياً - هذا السؤال يفرض الى الاعماق النهائية للفلسفة المتعالية ، التي تفوم وراء الدائرة التجريبية للتاريخ ، مما لا تستطيع حتى الفلسفة نفسها أن تنتزع منه جواباً أكيداً » (٥) .

(٤) راجع دلتى : « مجموع مؤلفاته » ج ١ ص ٢٦ - ٢٧ ، الفصل السادس من « المدخل الى العلوم الروحية » . وسنستعمل أحياناً كلمة « الدراسات الانسانية » - بوصفها الاستعمال الأكثر شيوعاً اليوم . بدلا من كلمة « العلوم الروحية » التي استعملها دلتى ويكثر استعمالها في اللغة الالمانية .

(٥) دلتى : « بناء العالم التاريخي في العلوم الروحية » ، مجموع مؤلفاته ، ج ٧ ص ١٧٣ .

ولهذا نرى دلتاي يرفض كل محاولة لتفسير التاريخية بواسطة اللجوء الى أى مبدأ غير متروط ، سواء كان ذلك بمعنى عال او بمعنى محايث ، لأن عالم الانسان هو من عمل الإنسان ، أى من عمل الافراد في علاقاتهم بعضهم مع بعض ، والتاريخية تنسب الى العالم الانساني وحده ، ومجرى التاريخ يرجع الى النشاط الانساني ، فلا مجال اذن الى الاهابة بمبدأ فوق انساني .

ومن نتائج هذه النسبية المنبثقة عن التاريخية ان قرر دلتاي أن الفلسفة متروطة تاريخيا ، وان ماهية الفلسفة لا تتجدد بطريقة قبلية ، بل على اساس تحليل الطرف المختلفة النى نجلت عليها الفلسفة في التاريخ ، مما سيظهر منه ان وحدة الفلسفة لا تقوم في وحدة الموضوع أو المنهج ، بل في وحدة الموقف الذي يفسر مختلف الاشكال التاريخية للفلسفة . « وكل حل للمشاكل الفلسفية ينتسب - من الناحية التاريخية - الى زمان معين وإلى موقف معين في ذلك الزمان : ان الانسان ، وهو من صنع الزمان ، طالما يعمل في الزمان ، يجد أمان وجوده في هذه الحفيفة وهي انه يرفع محلو فانه من مجرى الزمان بوصفها أشياء دائمة : وهذا الوهم يهب عمله الابداعي مزيدا من السرور والقوة . وهنا يقوم التناقض المستمر بين العقول الخلاقة وبين الوعي التاريخي . انه طبيعي بالنسبة اليهم ان ينسوا الماضي ، وأن بفضوا النظر عن المستقبل الأفضل الآتي : لكن الوعي التاريخي يعترض في فهم كل العصور ، ويلاحظ في كل ابداع الافراد ما يصاحبه من نسبية وزوال . وهذا التناقض هو الاضطراب الخفي الذي تحمله الفلسفة اليوم في صمت . اذ في فيلسوف اليوم يتجمع ابداعه مع الوعي التاريخي ، لأن اليوم بالنسبة الى الغد يجعل فلسفته لا تؤلف غير نذرة من الواقع . ولا بد لنشاطه المبدع من أن يعي انه حلقة في النسق التاريخي الذي فيه يشعر بأنه أتى بشيء نسبي . وهناك يقدر على حل هذا التناقض ، وذلك بأن يسلم نفسه بهدوء الى سلطان الوعي التاريخي ، ويستطيع ان يرى عمله اليومي من ناحيه (أو زاوية) النسق التاريخي الذي فيه ماهية الفلسفة تحقق نفسها في تنوع مظاهرها (٦) » .

٢ - جورج زمل

ونسبية المعرفة التاريخية

وممن تأثروا بدلتاي في فكرة نسبية المعرفة التاريخية جورج زمل (١٨٥٨-١٩١٨) خصوصا في كتابه « مشاكل فلسفة التاريخ » وقصده ان يبين ان التاريخ ليس مجرد ترجمة بسيطة للواقع المعاشي مباشرة ، بل ان المعرفة التاريخية تخضع لأمر قبلية . وقد قسمه الى ثلاثة اقسام : الاول خاص بالشروط الباطنة للبحث التاريخي ، **والثاني** يدرس قوانين التاريخ ، **والثالث** يفحص المعنى الفلسفي للتاريخ .

تساءل زمل أولا عن ماهية المعرفة التاريخية ، فيقرر أن المعرفة التاريخية موضوعها هو الامتتالات والارادات والحساسات الخاصة ببعض الاشخاص ، أى ان مضموناتها الموضوعية هي نفوس . « وكل الاحداث الخارجية والسياسية والاجتماعية ، والاقتصادية ،

والدينيه ، والتشريفية والصناعية لا يمكن أن تكون شائعة ولا مفهومة لنا اذا لم يكن مسمدة من حركات النفس واذا لم تحرك النفس . واذا كان لا يبقى ان يكون التاريخ لعبة عرائس ، فانه اذن تاريخ احداث نفسيه ، وكل الاحداث الخارجية التي يصفا لبست الا الجسور بين الاندفاعات والافعال الارادية من ناحيته ، وبين الافعال المنعكسة العاطفية التي نيرها هذه الاحداث الخارجية . وهذه الملاحظة لا بفندھا المحاولات التي أجريت لرد الحدث التاريخي ، في تعييناته الجزئية ، الى احوال فزيائية . وطبيعة الارض والجو لا أهمية لها بالنسبة الى مجرى التاريخ ، كما لا أهمية لارض وجو نجم الشعري العبور ، اذا لم تؤثر هذه الطبيعة - مباشرة أو بطريق غير مباشر - في التركيب العسائي للشعوب . ولهذا فان الطابع النفساني للبحب التاريخي يبدو أنه يفرض عليه أن يكون متله الأعلى هو أن يكون تطبيقا لعلم النفس ، بمعنى أنه يرد الى علم النفس ، لو وجد علم نفس يحدد قوانين ، كما يرد علم الفلك الى الرياضيات « (٧) .

ومع ذلك نبغى الا نخلط بين وجهة نظر المؤرخ ووجهة نظر عالم النفس . ذلك لأنه بينما عالم النفس يوجه اهتمامه الى عمليات المعرفة ، غاضا النظر عن مضموناتها ، فان ما بهم المؤرخ « ليس نمو المضمونات النفسانية بقدر ما هو النمو النفساني للمضمونات » (٨) ووجهة نظر التاريخ « وسيطة بين وجهة نظر التحليل المحض ، التحليل المنطقي لمضمونات الشعور ، ووجهة نظر علم النفس أعنى التحليل الديناميكي للحركات النفسانية للمضمونات » (٩) . وبزبد زهل في تحديد الفارق بين التاريخ وعلم النفس فيقول : « وكل واحد من هذين العلمين بضع وحدة الواقع والتفكير النفسانيين ، تلك الوحدة التي لا نفعل غير ان نعيشها في مباشرتها ، لكننا لا نملك ادراكها في النور الساطع . ونحن نقسم هذه الوحدة ، لدراستها عقليا ، الى عملية ومضمون ، ونقسم العمل العلمي يخلق ، من ناحية ، علم النفس ، من أجل بناء العملية ، والقوانين التي نحكمها - « على النحو الممكن لتعيينها - ، ومن ناحية أخرى يخلق علوم المنطق والادراك الموضوعي ، ابتغاء البحث عن المضمونات بفض النظر عن العملية التي بها تتحقق هذه المضمونات نفسانيا ، وأخيرا يخلق التاريخ ، وموضوعاته لا بتحدد . . . الا بأهمية ومعنى حقيقيين ، ايا كانت طبيعتها وتصحب ، في النمو الذي يعاينه العمل النفسانية ، المضمونات التي اختارتها وفقا لهذا الطابع الاساسي » (١٠) .

ذلك ان نفس الاحداث النفسية ، مثل الحب ، الكراهية ، الخ يمكن ان تكون لها هي نفسها نتائج خارجية شديدة التفاوت . ولنضرب على هذا مثلا ما حدث في الثورة الفرنسية بين حزب هبرت (١١) وبين روبسبيير : فبعد ان عاونوا روبسبيير على اغراضه ، انقلبوا عليه في

(٧) زمل : « مشاكل فلسفة التاريخ » ط ٣ ، الفصل الاول ، ص ١ .

(٨) زمل : الكتاب المذكور ، ص ٤ .

(٩) زمل : الكتاب المذكور ، ص ٤ .

(١٠) الكتاب نفسه ، ص ٥ .

(١١) چاك دينيه هبرت ، الذي كان وكيل النائب العام للكومين ، وكان من المحرضين على مذابح سبتمبر التي قتل فيها السجناء السياسيون في سجون باريس وبخاصة في سجن « الدير » وسجن « القوة » ، وذلك في أيام ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٢ ، وكان ذا نفوذ هائل على كومين باريس حتى اعتزل وشق هو وكثير من انصاره في سنة ١٧٩٤ .

أحدث النظريات في فلسفة التاريخ

اليوم الذي صارت له السلطة العليا فهذه الوقائع التاريخية تُؤلف سلسلة تفهم جيدا إذا فسرناها على ضوء هاتين القاعدتين النفسائيتين وهما : إذا ساعد المرء أغراض حزب كسب رضاه ، وإذا سيطر على هذا الحزب اجتلب كراهيته وغيرته . وفي التاريخ السياسي المعاصر نواهد كثيرة عليه في الصراعات بين الأحزاب المتآلفة قبل الوصول إلى الحكم والمتعادية المتطاحنة بعد هذا الوصول . غير أن هاتين القاعدتين مع ذلك ليست لهما غير قيمة نسبية واحتمالية . إذ قد يحدث على العكس من ذلك أن يرى أحد الحزبين المنحالفين قبل الحكم في وصول أحدهما إلى السلطة فرصة لردداد قوته هو ووسيلة للمشاركة في السلطة . . لكن الذي يفسر ما حدث لانصار دبرت هو طبيعة الأشخاص الذين شاركوا في هذا العمل . ومعنى هذا أن الأحداث النفسية الواحدة في الظروف الواحدة قد تنتج نتائج متناقضة ، إذا اختلفت طبائع الأفراد . ومن هنا كان علينا ، ونحن نفسر وقائع التاريخ ، أن ندخل في حسابنا عامل الفروق الفردية والخصائص الشخصية ، ولا تقتصر على المعاني العامة مثل الحب والكراهية ، أو التسده ، أو المكر أو الذكاء ، الخ .

فزل اذن يؤكد أهمية القواعد النفسية من ناحية ، كما يعترف من ناحية أخرى بطابعها الافتراضي الاحتمالي .

وهذا الطابع الافتراضي الاحتمالي يزداد أثره وضوحا حين تكون الأسباب التي يبدأ منها الحدث التاريخي أسبابا لا شعورية ، كما هي الحال في أعمال الجماهير والذمماء . ويلاحظ **زمل** « أن التبرير بالشعور ليس في نظرا غير تعبيري عن كون الأسباب الحقيقية غير معروفة لنا ، وبمعنى فقط أن معرفة الأسباب الشعورية ليست في متناول أبدينا ، وكوننا نحمل من هذا الشيء السلبي الخالص أمرا إيجابيا ، ونحيل الأمر غير المشعور به إلى أمر لا شعوري ، سيكون شكلا معيناً من الحياة العقلية - هذا النحو هو وسيلة للتعبير فقط عن الحاجة إلى ملء فراغ العلة في العمل الإنساني بواسطة دافع نفسي (١٢) » .

وتحديد الدور النسبي في التفسير التاريخي لكل من التبرير الشعوري والتبرير اللاشعوري - أمر يتوقف على الشخص المؤرخ . والمشاهد هو أننا نفضل اللجوء إلى التبرير الشعوري حين يبدو لنا أن أسباب الأحداث راجعة إلى إرادة الأفراد ، وإلى الرجال العظام خصوصا ، بينما نلجأ إلى التبرير اللاشعوري حينما تبدو لنا الأسباب راجعة إلى ميول الجماهير . وإيثار المؤرخ لأحد التبريرين على الآخر يرجع إلى رأسه الخاص في أيهما الأهم في أحداث حوادث التاريخ : الأفراد ، أو الجماهير . وكذلك الحال في مسألة إرجاع التأثير إلى القوى الاجتماعية أو النظم أو العادات والتقاليد أو التنظيم الاقتصادي أو إرجاعه إلى الأفراد - هذا أيضا يتوقف على مزاج المؤرخ ونظريته في الوجود والحياة .

وهنا يزداد الأمر تعقيدا حين نريد تفسير تأثير الأشخاص . إذ علينا أن نحدد الطابع العام للشخصية منصرفاتها الجزئية ، ونحدد التصرفات الجزئية استنادا إلى الطابع العام للشخصية - وفي هذا دور فاسد ، لكن لا سبيل إلى التخلص منه . كما كان المؤرخ في تفسيره للشخصية المؤثرة في مجرى الأحداث ، يستنتج من تصرفاتها السابقة أماكن تصرفات أخرى .

ولكن هذا الاستنتاج تعوزه الدقة المنطقية . ويواصل زمل ايضاح هذه المعنى فيقول : « من الموضوعات ذات الاهمية الكبرى في فلسفة التاريخ تحديد المعايير التي نتخذها قواعد لتوحيد الطبائع ، ومعايير للواقع المعطى ، ووسائل للعرض ، مما يمكن من تكوين صورة ساذفة لما ينبغى ان يقوم في تشكيل هذه الشخصية ، ومن هذه الموضوعات كذلك تحديد الهامس الذي في داخله نتصور اماكن الافعال التي تنحرف عنها ، وتحديد الوان النمو والتحول التي نقبلها نتائج ناشئة عن المبدأ الباطن للشخصية ، وما نعتقد ان تفسيره ينبغى ان يلتمس في الظروف الخارجية . اذ ما من شك في وجود قواعد محدده لهذا التفسير ، قواعد يفرض وجودها المؤرخ والقارىء على السواء ، وان لم تتحدد بعد بوضوح (١٣) » .

وحين يتعلق الامر بجماعات ، فان وحدة الجماعة في نصر فاتها يرد لها المؤرخ اما الى الاحداث النفسانية التي جرت في نفوس زعمائها ، او الى نمط نفساني وسط ، او الى مشاعر الاغلبية فيها . ويشير زمل هاهنا الى ما فعله **ماكولي** (١٨٠٠ - ١٨٥٩) المؤرخ الانجليزى الشهير ، حينما اقترح عشرة اسباب ودوافع لتفسير تحمس حزب الهيونج لمشروع قنون معين ، ويعلق قائلا : « من الواضح انه ، في شعور كل واحد من أعضاء الحزب لم يوجد هذه الدوافع العترة كلها معا ولا بنفس القوة . والحزب الذى انتجت وحدته النفسانية هذه الدوافع ليس الا صورة متالية ، وهما ناشئا ومتولدا في مخ المؤرخ بوصفه مركبا للوقائع المعطاة (١٤) . ومن هذا يظهر دور المؤرخ في تشكيل الاحداث التاريخية وتصوير دوافع الجماعات والافراد . والحق اننا لو تتبعنا ما يقوم به المؤرخ في ذهنه حين يفسر احداث التاريخ لوجدناه يستخدم عمليتين أساسيتين : **الاولى** تقوم في بذل مجهود بتولاه الخيال والتعاطف ، بواسطته يضع المؤرخ نفسه في روح الشخصيات او الجماعات التاريخية . وعلى المؤرخ ان يستعيد في نفسه المضمونات النفسانية التي انتجت في الشخص الذى يدرسه . ويبدو ان هذا لا يكون ممكنا الا اذا كان المؤرخ نفسه قد عاش تجارب ومضمونات مماثلة ، وهو ما ينادى عادة تحت مشكلة : من هو الاقدر على فهم التاريخ : من عاش احداثا تاريخية وشارك فيها واسهم في صنع التاريخ ؟ او من لم يشارك فيها ، وكان مشاهدا محايدا « موضوعيا » لها ؟ وهى من أعسر المشاكل القديمة في فلسفة التاريخ .

والعملية الثانية ان نضع المضمونات المعاشة على أنها خارجة وراجعة الى الغير .

على انه يلاحظ انه ليس من الضرورى ان تتميز هاتان العمليتان بميزا بارزا اد الغالب ان يترابا وان يتكاملا .

وهنا يتطرق زمل الى فكرة الموضوعية في المعرفة التاريخية فيبين ان المعرفة التاريخية شأن اية معرفة انسانية ، تنقل المعطيات المباشرة الى لغة أخرى ونخضعها لاشكالها ومقولاتها ومقتضياتها الخاصة . ففي الترجمة الذاتية لا بد لمن يترجم لنفسه ان يختار بين الاحداث وان يرتبها ترتيبا جديدا . وهذا عينه يصدق على التراجم او السير وكل انواع الكتابة

(١٣) زمل : مشاكل فلسفة التاريخ ، ط ٣ ص ٢٤ .

(١٤) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ، ط ٣ ص ٢٦ .

في التاريخ . اذ يضع المؤرخ اطراراً وانصالات لوجود لها في الواقع التاريخي . والمؤرخ لا يأخذ من المعطيات النفسانية عبر جزء ، ينظمه وفقاً لمقولاته هو .

وفي هذا نغريب بين الفكر التاريخي والفكر الجمالي . فكما ان الفن يقتضى ترتيباً للاحداث وفقاً لفكرة معينة ، كذلك الفكر التاريخي لا يستطيع ان يركب الاحداث التاريخية الا وفقاً لمنظور معين من وضعه هو .



هل توجد قوانين لسير التاريخ ؟

وهذا يفودنا الى التحدث عن مشكلة أخرى نناولها زميل ، وهي امكان وجود قوانين تحكم سير التاريخ .

ان القانون قصية نغبر عن العلاقة الثابتة بين مجموعة من الوقائع السابقة التي نلناها بالضرورة وقائع لاحقة لا ننخلف عنها أبداً . ولتقرير هذه العلاقة لا بد من الفصل بين الوقائع السابقة والوقائع اللاحقة من ناحية ، وبين مجرى العوامل والاحداث الأخرى وهي عديدة جداً ومستتبكة كل الاستبائك . فاذا ما نظرنا الى الاحداث التاريخية ، وجدناها في غاية التعقيد والتركيب والاستبائك بحيث يصعب جداً استخلاص العلاقات الثابتة بين مجموعات منها ، كما هي الحال في الظواهر الفيزيائية . وهذا يفسران من المسحيل على المؤرخ ان يقرر روابط ثابتة بين الاحداث التاريخية بحيث تفزع النتائج بالضرورة كلما تحققت الاسباب . ولهذا لا نجد في التاريخ حوادث متسابقة تماماً ، والاحداث التاريخية الواحد لا نكرر أبداً .

وما زعم من وجود قوانين تحكم التاريخ هو محض تخرص ، ومن أمثالها : « الحرية تنتشر تدريجياً من قلة من الافراد الى الجماهير » ، « الجماعات تنتقل تدريجياً من حالة الشباب الى النضوج ، الى الشيخوخة » ، « أشكال الانحاض الاقتصادي في عصر ما تتحد بقوى الانتاج في ذلك العصر » .

لكن هذا لايعنى مع ذلك ان الوقائع التاريخية يتأبى على كل تحديد عام . فثم طريقتان أمام الفكر الفلسفي لايجاد تفسير عقلي للاحداث التاريخية ووضع صيغ عامة لهذا التفسير . **والطريق الاول** هو القول بأن قيمة معرفة القوانين التاريخية هي قيمة نسبية وموقته ، وان الملاحظات العامة على مجرى التاريخ ، وان لم نغبر عن قوانين بالمعنى الدقيق ، فانها « اعدادات لقوانين » *Vorbereitungen Auf Gesetze* على حد تعبير زميل . وهذه الملاحظات كلما تنوعت وقورن بعضها ببعض ادت الى مزيد من التدقيق ، وبالتالي الى مزيد من الاقتراب من القوانين . ولهذا يفيدنا كثيراً في هذا المجال استقصاء الاحداث ومقارنتها واجراء التحليل الدقيق العميق عليها .

والطريق الثاني عكس الاول : فبدلاً من التحليل الى عناصر ، نقوم بالتركيب بين المعاني أكثر فأكثر « حتى تكون التركيبات الاصيله والتصورات المركبة » ، والمجموعات التي تندرج فيها الاحداث — بمثابة وحدات ، لاجابة التي نحليلها الى أقل من ذلك » (١٥) . فمثلاً لفهم

معركة ماراثون (١٦) يمكن أن نصرف النظر عن معرفة حياة كل محارب اشترك فيها ولا كيف تصرف هذا اليوناني أو ذاك ، بل علينا ان نعرف كيف تصرف اليونانيون عموما ، وهكذا لايهتم المؤرخ بالافراد منعزلين ، بل بالمجموع ، وليس المجموع ناتج جميع الافراد ، لانه الى جانب الطباع المشتركة بين الافراد هناك طباع خاصة لا تعرف الا بالتركيب والتكامل .

والخلاصة انة : « سواء اتجه التطور التاريخي الى مزيد من التفاضل للافراد ، او الى مزيد من التشارك ، وسواء قامت الثقافة الاخلاقية على الثقافة العقلية أو على العكس كانت لها قوانينها الخاصة للتطور ، وهى قوانين عرضية بالنسبة الى الثقافة العقلية ، وسواء ذهبته الحرية الاجتماعية للافراد جنبا الى جنب مع تكوين روح موضوعية وكنز من النتائج فوق التخصيص للحضارة ، فى الميادين العلمية والفنية والتكنيكية . فان كل هذه التوكيدات وامثالها يمكن ان تعد ، من ناحية ، كارهاصات وتحضيرات لروابط معلومة بدقة ومحكومة بقوانين عقلية ، ولكن من ناحية أخرى فانها - على مستوى التركيبات التصورية - هى اسقاطات للحادث مرضية بذاتها : فالمقولات المجردة الظاهريانية ، التى من زاويتها تضع المعرفة أسئلة من هذا النوع ، لا تستطيع ان تظهر باجابات أكثر دقة ، او تتعلق بحقائق وباسباب فردية . صحيح ان هذه المقولات يمكن كثيرا ان تدرك على انها خاطئة ، لكن ما يحل محلها ليست ابدا غير تحقيقات أخرى لنفس اشكال المعرفة ، تظل على مسافة مساوية من المثل الاعلى للعلة فى العلوم الطبيعية . وهكذا يتكشف ان هاتين الطريقتين فى الوجود الخاصتين بالقوانين التاريخية هما أسلوبان مختلفان يتخذهما العقل فى وضعه للسئلة ، ووجهان يرتفع اليهما فوق حقيقة الاشياء ، بسبب تفاوت الحاجات النظرية : وهذا من شأنه ان يبرهن مرة أخرى فى مواجهة الواقعية التاريخية الساذجة ، على ان هذين المظهرين لا يعنيان ابدان نسخة من الواقع ، بل تشكلا داخل العقل لهذا الواقع . وتبعا للطابق الذى نضعه فيه ، يتخذ الواقع تنظيما خاصا ، يلائم هذا الطابق وحده . لكن هذا التنظير بين القوانين التاريخية وبين التأمل ، فى ايقاع المعرفة ، لا يعنى ابدان التاريخ قد صار من اختصاص الفلسفة ، وانما يعنى ان مقتضيات المعرفة ومقولاتها - وهى تعبر عن علاقاتنا النموذجية مع الواقع ، تؤدى ، فى كلا الميدانين ، الى تكوينات مناظرة لمادتيهما » (١٧) .

هل فى مجرى التاريخ غائية ؟

تم ينتقل زمل الى البحث فى نوعين من المشاكل الفلسفية المتعلقة بفلسفة التاريخ :

أ - الاول هو مسألة معرفة ما اذا كان « كل » التاريخ ، وهو ليس الا مجموع الجزئيات التجريبية ، يمكن ان يظهر بماهية ومعنى لا تملكه هذه الجزئيات ، وما هو الموجود المطلق ، او الحقيقة العالية التى تقوم وراء الطابع الظاهرى للمعطيات التجريبية للمعرفة التاريخية » (١٨) .

(١٦) قرية فى اقليم اتىكا فى اليونان اشتهرت بالمعركة التى انتصر فيها مليتاوس ، القائد اليونانى ، على الفرس فى سنة ٤٩٠ قبل الميلاد .

(١٧) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٢٠ - ١٢١ .

(١٨) زمل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ، ص ١٣٥ .

ولا يمكن حل هذه المشكلة إلا بتحويل السلسلة العلية للظواهر التاريخية الى سلسلة غائية تملك ، بما هنالك من غائية باطنة نحكمها ، وحدة عضوية . وهذا التحويل لا يمكن حدوثه إلا بافتراض اله ، وعناية الهيئة تعين مجرى التاريخ .

ب - والثاني يتعلق بالقيم والمعاني التي تتلقاها المعطيات التاريخية من الاهتمامات غير النظرية . وفي هذا يقول **زمل** : « ان الانعكاسات التي تلقىها اهتماماتنا التأملية وغير النظرية على معطيات علم التاريخ هي عناصر ميتافيزيقا التاريخ ، وهذه الميتافيزيقا تتوجه على نحو مختلف تماما عن التكيف النظري للحدث ، وفي هذا التمييز الدقيق بينها وبين هذا الاخير تجد تلك الميتافيزيقا حقها في الوجود . بيد ان النظرية المحض هي مثل أعلى لا يتحقق أبدا ، ويظل يؤثر فيها فعل المقولات الميتافيزيقية . والتأمل في الماريخ ليس ، في شطره الاكبر ، غير الاستخلاص والانما والتنسيق المتلائم مع مبادئ وفروض وقوى فعالة في تركيب مادة الحادث ، كما بتصوره التاريخ الدقيق » (١٩) .

ويفحص **زمل** عن هذه الاهتمامات فوق النظرية التي تحكم فلسفة التاريخ فيجد في مقدمتها الميل الى المعرفة . ويتلوه رد الفعل العاطفي نحو المضمونات الكيفية للاحداث ، وذلك في الاحداث التي تثير فينا تشويقا خاصا . ولا يهم هل الاحداث حدثت بالفعل ، او فيها جانب من الخيال او كلها من نسج الخيال . وهذا امر ذاتي خالص ، يتوقف على مزاج المؤرخ .

ولايضاح هذه النقطة الثانية ، ننظر في معنى يلعب دورا كبيرا في اهتمام المؤرخ ، وهو فكرة التقدم . فمن الواضح انه لا يمكن تصور التقدم الا بالنسبة الى فكرة سابقة عن الغاية ، والا فكيف نعرف ان ما حدث يعد تقدما وليس تأخرا ان لم تكن نم غاية محددة من قبل ؟ وفي هذا يقول **زمل** : « كوننا ندرك ، أولا ندرك ، تقدما في التاريخ - هذا يتوقف على مثل أعلى قيمته ، بهذه المثابة ، لا تصدر عن توالي الوقائع ، بل تنضاف اليها بفعل الذاتية » (٢٠) ولا يمكن ان يعترض على هذا بالقول بتقدم صوري خالص ، من نوع الاخلاص الصورية عند **كانت Kant** ، فانه من المستحيل تصور تقدم صوري محض ، لان فكرة التقدم يدخل فيها عنصران أساسيان هما : وجود تفرق في الاحوال ، ووجود نماء في القيمة من الحالة الاولى الى الحالة التالية . وهذا العنصر الثاني هو بطبعه متغير .

كذلك يلاحظ انه لكي يكون ثم تقدم معان عصر تاريخي الى آخر ، فلا بد ان يبدو العصر التالي محددا في جوهره بالعصر الاول ، في السلسلة الغائية ، مهما يحدث من انقطاعات في السلسلة تحت تأثير ظروف طارئة عارضة : وهذا لا يتم الا اذا تصورنا ، في الاحداث التي تؤلف نسيج التاريخ ، وحدة وتوترا باطنين . ولا يمكن ان يكون ثم تقدم اذا لم يكن هناك وحدة جوهرية هي الحامل للظواهر .

ولهذه الاهتمامات يختلف المؤرخون في تقويم العوامل التاريخية ، مما يجعل المؤرخ يقوم « باختيار » في الواقع التاريخي ، ويفلب بعض العوامل على بعض ، كما هو مشاهد بكل جلاء في نظرة انصار « المادية التاريخية » الذين يغلبون عوامل الاقتصاد ، او على حد تعبير **زمل** عامل « الجوع » على سائر العوامل .

(١٩) الكتاب نفسه ، ص ١٣٥ .

(٢٠) **زمل** « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٥٦ .

والحق أن الواقع ملء بالاهتمامات من كل نوع . « والمادية التاريخية بسبب روح الاصرار التي تميزها في اتباع هذا المبدأ ، لاتفعل الا أن تبين » بطريقة متيرة ، تلك الميتافيزيقا التي تتضمنها كل نظرية تاريخية أخرى لان امكان النفوذ في التأثير المتبادل لكل العوامل التاريخية امر غير ميسور لنا ، وبينما هذا وحده هو الذي يستطيع ان يجعلنا نتصور الوحدة الفعلية للتاريخ ، فان كل صورة يتيسر لنا تكوينها عن مجموع الاحداث لا يمكن ان يتم رسمها الا بتركيب من طرف واحد « (٢١) ، أى من وجهة نظر واحدة . » وهكذا يخلط المادية التاريخية بين صورة الحادث كما صورت بفضل اهتمامات المعرفة ، وبين الحادث المباشر كما يتحقق في الواقع ، وكذلك يخلط بين مبدأ له أهميته بوصفه مبدأ للبحث ، ولا يمكن تطبيقه ، من جميع الاعتبارات ، الا على سبيل المحاولة - وبين مبدأ تكويني يوضع مقدما وعنه تصدر كل الوقائع « (٢٢) . وهذا يفرض بالمادية التاريخية الى مأزق لا سبيل الى الخروج منه : « لانه اذا صح ان تطورات العادات والقانون والدين والادب تسلك منحى التطور الاقتصادي دون ان تؤثر في هذا الاخير تأثيرا جوهريا ، فاني لا استطيع ان افهم كيف تحدث التحولات في الحياة الاقتصادية » (٢٣) . وبعبارة أبسط : لماذا نتصور تأثير القانون والعرف والدين والادب بالحياة الاقتصادية ، دون أن نتصور تأثير الحياة الاقتصادية هي الاخرى بالقانون والعرف والدين والادب ؟ ان ما تقوم به المادية التاريخية من اختيار في نسيج الواقع التاريخي ينطوي على اهتمامات ميتافيزيقية ، وعلى ميول وأمانى ذاتية . ذلك اننا لو حللنا الاسباب التي من أجلها اختارت المادية التاريخية الاهتمامات والقيم والمصالح الاقتصادية وحكمتها في تفسيرها لمجرى الاحداث التاريخية ، فاننا نجد مصدر ذلك النزعة الاشتراكية ، التي ترى ان المصلحة الاقتصادية هي العامل المشترك بين كل العناصر التي ننحكم في الجماهير ، لان الاشتراكية تنحو نحو التسوية بين المستويات ، ولا يمكن الطموح الى التسوية الا في الميدان الاقتصادي . ولهذا فان الاشتراكية ليست النتيجة المنطقية للمادية الاقتصادية ، بل على العكس من ذلك الاشتراكية هي السبب النفساني المؤدى الى اعتناق المادية الاقتصادية والمادية التاريخية اساسا لتفسير مجرى التاريخ .

٣ - بندتو كروتشه

وننتقل الآن الى فيلسوف ومؤرخ كان من أشد الفلاسفة والمؤرخين اهتماما بمسألة العلاقة بين الفلسفة وبين التاريخ ، الا وهو بندتو كروتشه (١٨٦٦ - ١٩٥٢) .

والغريب انه ينكر « فلسفة التاريخ » لسبب بسيط وهو ان الفلسفة تاريخ ، والتاريخ فلسفة !

ويشرح كروتشه رأيه هذا فيقول (٢٤) ان من المعروف ان « فلسفة التاريخ » كانت تعنى

(٢١) : « امشاج من الفلسفة النسبية » ، ترجمة فرنسية ، ص ٢٠٧ ، باريس سنة ١٩٦٢ .

(٢٢) زميل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٦٦ .

(٢٣) الكتاب نفسه ، ص ١٦٧ .

(٢٤) راجع كتابه La Storia Come Pensiero e come azione الطبعة الثانية ص ١٣٦ - ١٤٣ باري ، سنة ١٩٢٨ .

أحدث النظريات في فلسفة التاريخ

— في معناها الأول الذي كان شائعاً في القرن الثامن عشر — « تأملات في التاريخ » ، أو كتابة التاريخ مربطة بفكرة الانسانية والحضارة أى على نحو أقرب الى الفلسفة مما كانت الحال عليه عند المؤرخين الذين خضعوا لسلطان العقائد الدينية العتيقة . ولكن هذا التعبير « فلسفة التاريخ » لو حللناه جبداً لوجدناه ينطوي على تكرار وعدم تلاؤم ، لأن « التفكير في التاريخ هو في ذاته تفلسف ، ولا يمكن التفلسف الا بالرجوع الى الوقائع ، أى الى التاريخ (٢٥) .

ولكن التأملات العامة غير المقرونة بالوقائع تؤدي الى صيغ جوفاء ، هي ما آلت اليه كتب « فلسفة التاريخ » . ويكفى المرء ان يطالعها لينبئ له في الحال ما فيها من خلط وهوى . ففي بعضها نجد مثلاً ان الشرق هو « الشعور المباشر » بينما اليونان هي « حربة الفرد » ، وروما هي « العموم المجرد » أو « الدولة » ، والعالم الجرمانى هو « وحدة الفردى والكلى » . وفي كتاب آخر نجد ان الشرق هو « اللامتناهى » ، والحضارة اليونانية الرومانية هي « المتناهى » ، والعصر المسيحى هو « التركيب المؤلف من المتناهى واللامتناهى » . وفي كتاب ثالث يقال ان التاريخ القديم يقوم على فكرة « المصير » ، والعصر المسيحى في فكرة « الطبيعة » . وبالمثل تسلك فلسفات التاريخ التى تستخدم معانى أو شبه مقولات مادية ، كما هو شأن الفلسفة الماركسية في التاريخ : اذ هي تقول ان العصر القديم يقوم على معنى « الاقتصاد القائم على الرق » ، والعصر الوسيط يقوم على « الاقتصاد المستعبد » ، والعصر الحديث يقوم على « الاقتصاد الرأسمالى » ، والعصر المقبل سيعوم على « اشتراكيه وسائل الانتاج » . وهذا هو الشأن كذلك في فلسفات التاريخ القائمة على العنصرية في الاجناس ، فهي تحول المجتمعات الجغرافية واللغوية للشعوب الى اجناس نفية دائمة مستمرة ، وبعد ذلك تقسمها الى اجناس منحطة وأخرى سامية ، وتربط بينها وبين الفضائل والردائل ، والقوى الروحية او النقاى الفكرية ، والتسجاعة والتدين والقدرة على التفكير والابداع الفنى ، ارا الانحطاط والخسة وانعدام التدين والتخلف الفكرى ، وهكذا .

وتم فلسفات في التاريخ نطلق من فكرة احوال بدائية ، تلقائية ، بريئة ، من نوع من الفردوس الارضى ، الذى فقد فيما بعد ، ثم تمر بعد ذلك بجحيم ومطهر العصور التالية ، ثم تكسب بصورة أعلى وتسترد ذلك الفردوس الذى ان نفده مرة أخرى . وهذا النمط هو الاكثر شوعاً ، ويوجد أيضاً في المادية التاريخية بما تقول به من جنة الشيوعية الاولى ، وما تلا ذلك من فترة وسطى قاسية سيتلوها مستقبل عقلى سعيد .

وتم فلسفات أخرى في التاريخ ترسم الصراع بين مبدئين احدهما للخير والآخر للشر ، احدهما للسعادة والآخر للشقاء والالام ، مع القول بأن الانتصار النهائى سيكون لمبدأ الخير والسعادة ويتحقق الجنة على الارض او فى السماء . وهناك أخرى تصور التحرر فى الحصول الشاق على الشعور المتزايد بالشقاء الانسانى ، مما سيقود الى افناء كل ارادة عن طريق الزهد او الى الانتحار الكلى الواعى (شوبنهاور) .

ويرى كروتشه ان طابع الاسطورة يسود كل فلسفات التاريخ ، لانها تريخ الى الكشف عن « خطة فى العالم » Weltplan من ميلاده الى فنائه ، او من دخوله فى الزمان الى دخوله فى الابدية ،

ويشيع فيها لاهوت أو عالم من الجن . وليست القرابة بين الاسطورة وفلسفة البارنخ بعيدة ، اذ ليست قرابة مثالية فحسب ، بل قرابة تاريخية يتضح ذلك لمن يتأمل في هذه الحقيقة وهي ان فلسفة التاريخ - وقد ادعى الالمان زمنا انها علم جديد والماني - كان لها رواج وازدهار في البيئة التي هيأتها البروتستنتية والكتاب المقدس بما فيه من حلم نبخذ نصر وتأويل دانيال بأن سيكون بهم توالى لمالك : مملكة الذهب ، مملكة الفضة ، ومملكة النحاس ، ومملكة الحديد ومملكة الطين .

وبهذه المناسبة ينفي كروتشه ارتباط ما يذهب اليه البعض من جعل أعمال فيكو Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤) على رأس « فلسفة التاريخ » الألمانية من حيث ان هذه كانت في جوهرها اسطورية التكوين ، بينما كانت أبحاث فيكونقدية .

وبالمثل يهاجم كروتشه « فلسفة الطبيعة » ويرى فيها تأويلات رمزية Allegorismo « والتأويل الرمزي Allegoria لا يضع وحدة عليا ، بل هو كتابة نولج حروفها بين أسطر كتابة أخرى ، وهو كتاب اقحم في كتاب آخر ، كتاب يمكن ان يكون جيدا أو رديئا ، وان يقول أشياء معقولة او غير معقولة » (٢٦) .

ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر فيقول : « ان علو فلسفة التاريخ مثله مثل أى علو Trascendenza آخر ، يساوى علو فلسفة الطبيعة ، التي ازدهرت واضمحلت معها . ومثل أى علو نراه يتخذ شكلين : أحدهما شكل الأسطورة والآخر شكل الميتافيزيقا ، التي لا يمكن تمييزها بدقة من المنطق ، لأن كل ميتافيزيقا فيها نصيب من الاسطورة ، اعنى انها تحتوى على عنصر امثالى ، وكل أسطورة فيها نصيب من الميتافيزيقا ، اعنى انها تحتوى على عنصر منطقي ، بفضلها هي اسطورة وليست مجرد خيال شعري » (٢٧) .

ويرى ادهاصات فلسفة التاريخ في التصورات المهدوية عند العبرانيين وفي الكونيات الشرقية ، تم اتخذت شكلها الواضح لأول مرة في المسيحية وخصوصا في عصر آباء الكنيسة ، ودخلت فيها بعض التنويعات خلال العصور الوسطى ، على يد رجال مثل يواقيم الفلورى Gioacchino di Fiore (حوالى سنة ١١٣٠ - ١٢٠٢) . فلما جاء عصر النهضة قامت حركة لكتابة التاريخ لا تعتمد على الاسطورة . وادخلت المعاني الجديدة في العصور الحديثة ، وأخيرا دخلتها النزعة العقلية ونزعة التنوير ، هنالك انحصرت فلسفة التاريخ في دائرة الكنائس (الكاثوليكية والانجيلية على السواء) وتجاهلتها كتابة التاريخ ذات النزعة العلمانية ، ولم ندخل في صراع معها لانها لم تجد نفسها في مواجهة خصم مستكبر ومنافس . وفيكو Vico نفسه لم بحسب لها حسابا . والقرن الثامن عشر لم يفهم من « فلسفة التاريخ » غير التاريخ المروى بروح تنويرية واصلاحية .

لكن حينما استأنف المثاليون التالون « لكانت Kant والرومنتيك في المانيا - وكانت جامعاتها قد حافظت على التقاليد المنحدرة من العصور الوسطى - نقول حينما استأنف هؤلاء منهج فلسفة التاريخ المسيحية العنيفة المنسية في كل مكان غير المانيا ، وبلغت هذه الحركة أوجها

(٢٦) كروتشه : « التاريخ فكريا وفلا » ، ط ٢ ص ١٤٠ . بارى ، سنة ١٩٣٨ .

(٢٧) كروتشه : « فلسفة - شعر ، تاريخ » صفحات مأخوذة من كل مؤلفاته ، ص ٥٩ ميلانو - نابلى ١٩٥٢ .

أحدث النظريات في فلسفة التاريخ

في فلسفه هيجل ، وحينما نمت هذه الحركة وصارت البدع السائد - حدث ان تحول عدم الاكتراث العدم نحو فلسفه التاريخ الى رفض عتيق وتهكم ساخر . ولنضرب أمثلة على مبالغات هذه الحركة بما فعله فريدرش اشليجل (١٧٧٢ - ١٨٢٩) من النظر الى التاريخ العالمى على انه سقوط من حالة براءة اولية وحكمة عالية ، بسبب النزاع بين أبناء شيث وابناء قابيل ، سقوط في حالة انعدام الدين والاحاد ، وما فعله جيرس Görres (١٧٧٦ - ١٨٤٨) من تقسيم تاريخ العالم بحسب سنة ايام موسى ، وجاء شلنج (١٧٧٥ - ١٨٥٤) في طوره الثانى فقال بالانتقال من حالة اولية نسيم بالتوحيد الى حالة تتسم بالترك وذلك بالسقوط في الشر ، وسبه هذا « بالاباظة » التى سنتلوها « اوديسا » عودة الانسانية الى الله . وصارت خصائص العصور المختلفة والشعوب أكثر غرابة : ففى كسب فلسفة التاريخ التى كتبها هؤلاء نقرأ ان العالم القديم هو الجانب الواقعى او الطبيعى للتاريخ ، ومقامه مقام الطبيعة بازاء الروح (أو العقل) ، والمنهاى بازاء اللامتناهى ، بينما العالم الحديث هو الجانب المثالى والروحى . او نقرأ كذلك ان مبدا العالم القديم هو الاحساس ، بينما مبدا العالم الحديث هو العقل ، وان الشعوب تتميز بغلبة احدى الملكات او الصفات : فالصينيون يتميزون بالعقل ، والهنود بالخيال ، والمصريون بالوجدان النافذ ، والعبرانيون بالارادة .

لكن المؤرخين الوضعيين الذين خسروا من تهاويل هؤلاء الفلاسفة في التاريخ لم يوفقوا في نقد هؤلاء الآخرين ، لانهم رفضوا الفلسفة نفسها كما رفضوا فلسفة التاريخ ، فحرموا أنفسهم من السلاح الصالح الوحيد للقيام بعملية النقد ، واحلوا محل المثالية الميتافيزيقية نزعة طبيعية ليست أقل ميتافيزيقية من متالبة أولئك ، وجهلوا الغائية الباطنية التى قال بها كانت Kant واحلوا محلها الميكانيكية الحتمية ، وبهذا لم يحطوا بفلسفة التاريخ ، بل التاريخ نفسه .

ولا سبيل الى تفنيد فلسفة التاريخ ، وكذلك الحتمية التاريخية التى نلتها ، الا بالفحص الدقيق عن فعل الفكر الذى يولد كل قضية تاريخية ، وهو فعل يقوم به المؤرخون الحقيقيون ، وهو يقوم على أساس ان الفعل التاريخى ينولد من حاجة واضحة الى الفعل ، او الى التهيؤ للفعل ، ابتغاء الخروج من الموقف الذى يوجد فيه المرء ، وبالتالي ادراك هذا الموقف ، موقفنا نحن فى العالم المحيط بنا ، نم هذا العالم نفسه ، اعنى القوى الفعالة فيه . وكل قول فى التاريخ محدود اذن بالحاجة التى تدفع اليه ، ولا يمكن الخروج من هذه الدائرة دون السقوط فى الخواء . « ان الحكم التاريخى (اى الذى يصدره المؤرخ) هو دائما جواب عن سؤال تصدره الحياة ابتغاء توليد حياة جديدة ، حتى اذا ما عرف ما يراد معرفته ، وانضح ما ينبغى ايضاحه ، لا يبقى ثم وجه للسؤال ، فاذا حصل هذا المصباح النير ، ينبغى العمل ، ولا يمكن ان يكون ثم سؤال آخر وجواب آخر تاريخى الا اذا يكون موقف جديد وانبغت حاجة جديدة . والتواريخ العارية عن المشاكل العملية التى تتطلبها وتقودها ما هى فى قصارى امرها غير نهاويل ومماحكات ، وليست ابدا بوارىخ حقيقه .

« ومن التهاويل والمماحكات فى المقام الاول . ادعاء فلسفة التاريخ وضع تلك الاجابات فلسفيا ، وهى فى ذاتها فلسفة تتضمن معرفة مقولات العقل (أو الروح) التى لا تحيا ولا تقوم الا فيما هو حكم تاريخى عينى : وفى هذه النقطة يرتبط مانذهب اليه من ان كل الفلسفة تحيا فقط فى

التاريخ وبوصفها تاريخا ، وان الفلسفة والتاريخ يتطابقان وهما شيء واحد . وهذه حقيقة لمحها أو استشرها هيجل ، لكنه سرعان ما أضاعها حينما تصور « تطبيق » الفلسفة على التاريخ ، تطبيق فلسفة جميلة ممتوقة على تاريخ جميل ممشوق ، الواحدة بغير تاريخ ، والآخر بغير فلسفة . والذين يقولون اليوم أو يعتقدون أن النظرية المشار إليها - والقائلة بالهوية فيما بين التاريخ والفلسفة - ليست غير تكرار للنظرية الهيجلية ، هؤلاء لم يتأملوا في كتب هيجل ولا في النظرية الجديدة ، أو هم مخطئون في ادراك الفوارق بين الكلمات التي تتشابه في الرنين ، وهي كلمات لا تأخذ معناها الحق إلا في ملابس تاريخية وحضارية مخلفة . واقول هذا مره واحدة وإلى الأبد ، انى لا أقرر هذا عن نفاخر بالاصالة ، بل من أجل فهم المعانى التى ذكرناها » (٢٨) .

ويكفى هذا بياناً لموقف كروتشه من « فلسفة التاريخ » بالمعنى الذى فهمه هو من هذا التعبير ، وهو معنى محدود لا يفهمه عليه أصحاب فلسفة التاريخ ، ولا ينطبق على نظريات كبار فلاسفة التاريخ : مثل هيجل ودلتاي وزمسل واشبنجلر ويسبيرز . ويعجب المرء من موقف كروتشه هذا ، ويتساءل : بأى حق قصر معنى فلسفة التاريخ على ما أشرنا إليه هاهنا ؟ ان هذا يحكم منه لا مبرر له .

اعل ما دعا كروتشه الى الوقوف هذا الموقف الغريب من « فلسفة التاريخ » هو ايمانه بأن الفلسفة تاريخ ، والتاريخ فلسفة كما صرح بذلك مرارا وتكرارا . ولهذا رأى انه لا محل : لفلسفة التاريخ « لأن ذلك - فى نظره - تحصيل حاصل .

التاريخية المطلقة

وهذه النظرية هى ما يعرف بالتاريخية المطلقة عند كروتشه ، وقد كرس لها بحثا فى سنة ١٩٣٩ بعنوان « معنى الفلسفة بوصفها تاريخية مطلقة » (٢٩) .

فى هذا البحث يحاول كروتشه ان يبين قضيتين :

الاولى ان الفلسفة لا يمكن أن تكون ليست هى فى الحقيقة ، الا فلسفة للعقل (أو الروح) .

والثانية ان فلسفة العقل لا يمكن أن تكون ، وليست هى فى الواقع القىبى ، ولم تكن أبداً حقا ، الا تفكيراً تاريخياً أو كتابةً للتاريخ ، الفلسفة تمثل فى عمليتها لحظة - التأمل المنهجي ، التى يمكن ابراز جانب أو آخر منها ولكنها لا تنفصل عن العملية الوحيدة للتفكير التاريخى .

ويلاحظ فى تاريخ الفلسفة صراع متفاوت ولكنه متواصل تقوم به المعرفة النقدية أو فلسفة العقل ضد طريقتين معارضتين لها فى القاء الضوء الذى تحتاجه الحقيقة . والطريقة الاولى منهما ليست الشعر كما رأى افلاطون ، بل الأسطورة : الأسطورة التى ليست مجرد صورة مثالية أو غنائية مثل الشعر ، بل الصورة التى تقوم بدور الحقيقة التصويرية وبدون تفسير الاشياء والاحداث . والطريقة الثانية هى الميتافيزيقا . والميتافيزيقا تتولد من الانفصال عن الاساطير

(٢٨) كروتشه : « فلسفة - شعر - تاريخ » ، ص ٤٧ - ٤٧١ . ميلانو - نابلى ، سنة ١٩٥٢ . وهذا البحث نشره كروتشه فى سنة ١٩٤٣ .

(٢٩) انظره لى : كروتشه : « فلسفة - شعر - تاريخ » ص ١٣ - ٢٩ .

وحقائق الوحي ، ابتغاء البحث في المقولات التي يفكر بها في الواقع . ويتم ذلك حين لا تجد طريقها الحق فتأخذ بمنهج العلوم الطبيعية أو التجريبية، مما يضطرها إلى القول بمقولات فلسفية ، وتصورات تجريبية هي بصورات محضه ، وموضوعات أو قوى مادية هي في آن واحد روحية ومنطقية . والطابع الطبيعي النزعه في التأملات الميتافيزيقية يتضح في محاولتها اكتشاف السبب أو أسباب الواقع ، لأن مبدأ السببية من شأن العلوم الطبيعية . والطابع المولى يتجلى في ادعائها البحث في السبب ، والأسباب النهائية أو « العالية » ، وهذا تناقض في الحدود لأن الأسباب ليست أبداً نهائية ولا عالية ، إذ هي مجرد علاقات بين وقائع جزئية . واسم « الميتافيزيقا » نفسه ، في انتقاله من معنى إلى آخر ، ومن الـ **Post** إلى **trans** ، يدل على محاولة زائفة للارتفاع من عالم الموضوعات إلى عالم الكيانات **entita** ، وبهذا يضع الفلسفة في وضع زائف ، واضعة « نفسها » **(كفلسفة أولى)** أو **(فلسفة عامة)** . والميتافيزيقا نعلو - أو تسوء في البعد - على التاريخ ، إبتغاء الوصول إلى عالم خارج التاريخ أو فوق التاريخ .

وفي مقابل ذلك نجد فلسفة العفل (أو الروح) - وهي التي يدعو إليها كروتشه - قد انتجت وتنتج دائماً كل المعاني والتصورات التي بواسطتها تحكم الإنسان على الحياة وعلى الواقع وتفهمها . ومنهجها ليس التجريد والتعميم ، بل التفكير في الكلي المحدث في الفردي ، وليس ضم الكليات إلى الكليات ، بل إدراك العلاقات بين الكليات في داخل الكل الذي يتألف منها ، وليس رد الوقائع الجزئية إلى أصناف ، بل فهم الوقائع الجزئية بوصفها الكلي المتحقق عينياً .

إن الحكم التاريخي وحدة بين الفردي والكل ، بين الموضوع والمحمول ، بين الإدراك الحسي والتصور . ولا يوجد حكم حنبفي وعيني إلا إذا كان تاريخياً . وتاريخية أيضاً هي الحلول والتعريفات الفلسفية ، إذ هي تميل دائماً إلى موقف تاريخي معين يوجد فيه المفكر . « إن الفلسفة الحققة ، وهي تختلف تماماً عن مباحث المدارس الفلسفية الهزيلة الشاحبة ، حافلة بالحياة الوجدانية والأخلاقية التي تزخر بها والتي تسبع الرغبة بازاحة ألوان الغموض العقلي التي تعانها وتضعها في مواجهة الموقف التاريخي ، ممهدة السبيل إلى الإشباع اللاحق الذي هو الفعل العملي .

وهنا نصل إلى مبدأ مهم وصفه كروتشه للفهم التاريخي ، وهو مبدأ المعاصرة **contemporaneità** بوصفه الأساس في كل كتابة حقيقية للتاريخ . فهذه تضع نفسها على أنها في جوهرها معاصرة . ذلك أن الحكم التاريخي في لحظة تولده يتبدى أنه يتولد من « اهتمام بالحياة الحاضرة ، والا لم يتولد . ولهذا كان على كتابة التاريخ بالضرورة أن تتولد من اهتمام بالحياة الحاضرة . وواقعة التاريخ الماضي يجب أن تشيع فيها روح الحياة الحاضرة حتى تتخذ صورتها الحقيقية . ولهذا ينبغي رفع التاريخ إلى الشعور بالحاضر الأبدى .

وهنا يميز كروتشه بين « التاريخ » و « الأخبار » ، فيقول « إن التاريخ **storia** هو في جوهره فعل للفكر ، بينما الأخبار **cronaca** هو فعل للإرادة . والتاريخ **storia** فعل للفكر ، فعل نظري لأنه وصف مقولي **categoriale** للأحداث التي أحدثتها الروح الإنسانية في الماضي ، ويوصفه فعلاً نظرياً فإنه فعل « تركيب تاريخي » و « الأخبار » **cronaca** فعل إرادة ، لأنها يجب عليها ألا تحكم أو تصف ، بل فقط عليها أن تسجل أعني أن تحفظ . إن فعله تسببيه بفعل العالم الطبيعي الذي لا يحكم على التجارب الجديدة المختلفة التي يشاهدها بل يعمم فيها من أجل تصنيفها ، ويقوم بعمل وصف اعتباطي أو ميسر . إن الأخباري يسجل ما يحدث بترتيب رمي ، أنه

لا يتلقى الحياه الباربيخية في ميلادها ونموها من الداخل ، بل يرصدها من الخارج فحسب ، ولهذا فان الاخبار cronaca لا تنفذ الى الفردية المميزة للوقائع التاريخية .

ان الاخبار والتاريخ لا يتميزان بوصفهما شكلين للتاريخ ، يكمل كل منهما الآخر ، او يخضع أحدهما للآخر ، بل هما موقفان روحيان مختلفان . « ان التاريخ storia هو التاريخ الحى ، والأخبار هي التاريخ الميت ، والتاريخ هو التاريخ المعاصر ، بينما الأخبار Cronaca هي التاريخ الماضى ، والتاريخ هو أساسا فعل للفكر ، بينما الاخبار فعل للارادة . وكل تاريخ بصير اخبارا اذا لم يعد مفكرا فيه ، بل مذكورا فقط في كلمات مجردة ، كانت حينما ماعينية ونعبر عن التاريخ . وحتى تاريخ الفلسفة هو أخبار ، كتبها غير الفاهمين للفلسفة ، او قراها هؤلاء ، وتاريخ هو ذلك الذى تكون على استعداد لقراءته على أنه أخبار ، الا وهو تاريخ الراهب في مونت كاسينو الذى وقع ما يلى : « ١٠٠١ : دومينيك الطوباوى رحل الى المسيح . ١٠٠٢ : فى هذه السنة جاء الترقيون (= المسلمون) الى كابوا . ١٠٠٤ : زازال هائل هز هذا الجبل ، النخ ، وكانت هذه الوقائع جاهرة فى ذهنه ، وبكى على رحيل دومينيك الطوباوى ، وتحزن على المصائب الانسانية والطبيعية التى هزت بلاده ، وأبصر فى توالى هذه الحوادث يد الله ممدودة . وهذا لا يمنع من كون هذا التاريخ ، بالنسبة الى نفس الراهب الذى من مونت كاسينو ، امكن أن يتخذ شكل الاخبار ، حينما سطر صيفها الباردة دون أن يتمثل بعد مضمونها ويفكر فيه ، ولم يكن همه غير أن يحفظ هذه الاخبار لاولئك الذين سيفيهمون بعده فى مونت كاسينو » (٣٠) .

والتاريخ ، اذا فصل عن الوثيقة الحية وصار أخبارا ، لا يعود بعد فعلا روحيا ، بل شئيا ، ومركبا من أصوات او من علامات أخرى . وبالمثل الوثيقة اذا فصلت عن الحياة لا تعود غير شئ ، شبيه بأى شئ آخر ، ومجموعة من الاصوات او من العلامات الاخرى .

والتاريخية storicismo بالمعنى العلمى - هكذا يقول كروتشه (٣١) - هى القول بأن الحياة والواقع تاريخ ولا شئ غير تاريخ . وفى نفس الوقت هى تنكر النظرية التى تقسم الواقع الى « فوق تاريخ » ، و « تاريخ » الى عالم الصور والقيم ، والى عالم سفلى يعكسها او عكسها حتى الآن على نحو ناقص عابر وينبئ ان نضع مكان التاريخ الناقص أو التاريخ واقعا عقليا كاملا . ولما كانت هذه النظرية تعرف باسم « النزعة العقلية المجردة » أو « التنوير » فان التاريخية - تسير فى معارضة ونزاع ضد « التنوير » وترتفع فوقه .

ويقوم هذا النزاع على أساس ان الصور أو القيم ، التى عدت نماذج ومعايير للتاريخ ، ليس صوراً ولا قيما كلية ، بل هى وقائع جزئية وتاريخية هى الأخرى ، رفعت خطأ الى مستوى القيم والصور الكلية . فمثلا فكرة الجمال التى كانت مقبаса للحكم على الاعمال الفنية كانت مستمدة من خطوط الجمال الخاصة عند فرجيل ورفائيل ، وافكار القانون الطبيعى كانت فى أساسها هى النظم القانونية التى وضعت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، والافكار الاخلاقية وقواعد السلوك والفضائل هى تلك التى صورتها الحضارة القديمة او المسيحية القديمة او الحديثة . بينما الافكار (أو الصور) والقيم الحقيقية ذات الطابع الكلى تملك تلك القدرة على فهم مختلف الاعمال فى الحياة الفنية والاخلاقية والقانونية ، من أشدها سذاجة وبساطة الى

(٣٠) بندتو كروتشه : فلسفة - شعر - تاريخ « ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٣١) بندتو كروتشه : « فكريا وفعلا » ص ٥١ ومايتلونها . ط ٢ ، بارى ، سنة ١٩٣٨ .

أكثرها دقة وتركيبا ، وهى اذن ليست نماذج وتعميمات تجريبية ، بل صور محضة ومقولات ، مبدعة وحاكمة دائمة على كل تاريخ .

ومذهب كروستنه في التاريخية يقوم على المبادئ التالية :

- ١ - انكار بقاء الطبيعة عالما قائما بذاته ،
- ٢ - الاعتراف بالطابع الروحي (العقلى) للواقع ، كل واقع .
- ٣ - تفسير الروح (العقل) على انها عملية تطورية دياكتيكية ، اى عملية لها في ذاتها مبدؤها الخاص في العهم .
- ٤ - رفض كل نوع من العلو البعد تاريخى *Trascendenza metastorica* وتوكيد محايشة الروح في التاريخ - وبعبارة أخرى توكيد الهوية بين العقل (الروح) وبين التاريخ .
- ٥ - رد المعرفة الى معرفة تاريخية ، وردالفلسفة الى لحظة منهجية في التاريخ (٢٢) .

والروح - عند كروشه - تطور ، (والتطور هو تغلب مستمر على الذات وتجاوز لها ، وهو في الوقت نفسه محافظة مستمرة عليها) (٢٣) . الروح (أو العقل - والمعنى دائما واحد عند هيجل وعند كروشه وفي المثالية بعامة) تقدم ، وكل لحظة من لحظاته لها قيمة ايجابية . وفي داخلها سدرج وقائع الطبيعة كما نندرج وقائع الحياة الانسانية ، لأن الطبيعة ، تكوين وحياة تاريخية « و » الواقع ، الواقع الوحيد (الذى يشمل في داخله الانسان والطبيعة وهما لا ينفصلان الا تجريبيا وتجريدا فقط) كله تطور وحياة « (٢٤) »

٤ - كارل يسپرز

وأخيرا نصل الى الفيلسوف الوجودى المعاصر **كارل يسپرز** Karl Jaspers (١٨٨٣ - ١٩٦٩) الذى أودع آراءه في فلسفة التاريخ في كتاب بعنوان : « في أصل التاريخ وغايته » (٢٥) .

يرى يسپرز أن « التاريخ حدث وشعور بالحدث ، تاريخ ومعرفة بالتاريخ . انه محاط بما يسببه الهاويات . فان تردى فيها ، لم يعد بعد تاريخيا . علينا ان نفلقه دائما على نفسه ، وان نفتحه للعلو .

« أولا : التاريخ حدود تعزله عن كل واقع آخر : طبيعة كان أو كونا . وحوله ينتشر المكان اللامتناهى للوجود بوجه عام .

(٢٢) راجع Pietro Rossi : Storia e Storicismo nella filosofia contemporanea, p. 288 Milano 1960.

(٢٣) كروتشه : « نظرية وتاريخ كتابة التاريخ » ، ص ٧٢ .

(٢٤) الكتاب نفسه ص ١١٨ .

Karl Jaspers : Von Vrsprung und Ziel den Geschichte (٢٥)

« **ثانياً :** للتاريخ بركب باطن ، يرجع الى تحول الواقع البسيط للظواهر الجزئية ولكل ما يمضى دون توقف . وهو لا يصير تاريخاً الا بالانحداد الكلى مع العردى ، لكن بحيث في ضوءه العردى ، في كل صفاه ، يخذ أهمية لا يمكن الاسفناء عنها وبصير كلسا على نحو ما . انه عبور يتحقق فيه الوجود .

« **ثالثاً :** بصير التاريخ فكره سمولية حين نضع السؤال : اين يقوم وحدة التاريخ ؟

« ورؤية هذه الهاويات : الطبيعة الخارجيه عن التاريخ التى هى بمثابة تربنه السفلى البركانية ، والواقع الذى يتجلى فيها بصورة عابرة فانية ، والتستت اللانهائى الذى تحاول التخلص منه وحدة اشكالية دائماً - ان رؤية هذه الهاويات يسمو فنيا بمعنى ما هو تاريخى حقا » (٢٦) .

فى هذه العبارات فحص يسبرز مشاكل فلسفة التاريخ ، وعقد لها فصولاً عنوانها كما يلي :

(١) حدود التاريخ .

(٢) التراكيب الأساسية للتاريخ .

(٣) وحدة التاريخ .

(٤) الشعور بالتاريخ لدى الانسان اليوم .

(٥) العلو على التاريخ .

فلنأخذ فى بيان المعانى الرئيسية التى عرضها يسبرز فى هذه الفصول الخمسة .

حدود التاريخ

ان الحياة على الارض ظهرت قبل الانسان . وتاريخ الانسانية ، وهو لا يرتفع الى أعلى من نهاية العصر الثالث ، قصير المدى جدا لو قورن بعمر النبات والحيوان ، وهو عمر يتجاوز عمر الارض بما لا نهاية له من الزمان . والمستون فرنا الذى توضحها لنا النقول التاريخية ، لا تمثل غير فترة ضئيلة لو قورنت بما قبل التاريخ .

لكن التاريخ هو نحن وفارق هائل بين التاريخ الطبيعى وتاريخ الانسانية . ذلك ان التاريخ الطبيعى غير مشعور به : انه مجرد صيرورة بسيطة محضة ، الانسان وحده هو الذى يعرفها ، ولا يتوقف على أى قصد شعورى .

وبحسب مقاييسنا الانسانية فان مجرى هذا التطور للتاريخ الطبيعى بطيء جدا ، ويبدو لنا لأول وهلة كأنه تكرر مستمر . وبهذا المعنى فان الطبيعة ليست تاريخية . واذا كنا نقيم تناظرا بين تاريخها ، فما ذلك الا لأن فكرنا قد تعود على هذه المقولات :

١ - فنحن نتمثل لانفسنا ذهاب وعودة دائمين ، واختفاءات متلوة بدايات ، وفى لانهاية الزمان يمكن ان يحدث كل شئ ، لكن ليس بمعنى نابت . ومن هذه الناحية ، فان التاريخ بالمعنى الحقيقى غير موجود .

٢ - والعملية الجبوبة لا تظهر في الانسان الا على نوع حيوانى ينتشر على سطح العالم مثل أشكال حية أخرى .

وتطور الانسانية في مجموعة يتصور على انه عملية واحدة . ان الانسانية تنمو ، وتزدهر ، وتنضج ، وتشيخ ، وتموت . ومع ذلك فنحن نتصور ذلك لا على انه عملية لن تتكرر أبدا ، بل على انه تطورات متوالية او متواقتة ، هي الحضارات المختلفة . فمن المادة الانسانية الهلامية تتولد الحضارات ، كأنها « أجسام » تاريخية خاضعة لقوانين تطورها، ولا وجه حياتها : من الميلاد الى الموت . انها بمثابة كائنات عضوية لها حياتها الخاصة ، وعلى الرغم من استقلالها فانها يمكن ان تتصل بعضها ببعض وان يعدل بعضها بعضا او يضر بعضها ببعض .

الوراثية والمنقول

نحن طبيعة ونحن تاريخ . والطبيعة فينا تتجلى في الوراثة ، والتاريخ يتجلى في المنقول tradition .

والنمو التاريخي يمكن ان يحدث له انقطاع يسبب النسيان أو ضياع التراث المنقول . ولكننا اناس بالمنقول أكثر منا بالوراثة . ففي الوراثة يجد الانسان عنصرا لا يمكن تدميره ، ولكن في المنقول عنصر يمكنه ان يفقده نهائيا . ان المنقول Tradition يصاءد في الماضي السابق على التاريخ، ويشمل كل ما ليس وراثيا ، بل ما هو مادة تاريخية للآنية (= الوجود الانساني) .

وعلى وصية التاريخ ، وكأنه تراث خلفه ما قبل التاريخ ، يوجد رأس مال انساني ليس وراثيا بالمعنى البيولوجي ، ولكنه جوهر ما هو تاريخي ، ويمكن الانسان ان يستثمره أو أن يبده . وهذا الواقع يوجد قبل كل فكر ، ولا يمكن خلقه ولا صناعته صنعا . ولا يمكن ان يكتسب ملأة ووضوحه الا في الحركة الروحية التي تتم خلال التاريخ . والانسان يجري فيه تحويلات . وربما انبثقت ينابيع جديدة هي بدورها مقدمات (وأكبر مثال لهذا : العصر المحوري ، وسنتحدث عنه تفصيلا فيما بعد) . ولكن ليس ثم جماعات ، بل أشخاص سامية منعزلة ترسل شعاعها ولكن الناس ينسونهم وينكرونهم ولا يرونهم .

وفي التاريخ ميل الى الانفصال عن المنقول وعن قيمه الجوهرية للافلات الى الفكر المحض ، وكأن من الممكن ان يولد شيء في التجريد المطلق للعقل .

التاريخ والكون

لماذا نحن موجودون على الارض ؟ ولماذا نعيش قسطنطينا من التاريخ في هذه البقعة من المكان اللامحدود ، وعلى هذه الجنة غير المرئية من التراب الملقى في ركن من الكون ، وفي هذه اللحظة بالذات ، ضمن لا متناهي الديمومة ، تلك أسئلة لا جواب عنها ، ولكنها هي التي تجعلنا ندرك وجود لفر .

وشعورنا بأننا منعزلون في الكون هو معطى جوهرى في حياتنا . وفي صمت الكون نحن وحدنا

المزودون بالعقل والكلام . وكان في تاريخ النظام الشمسي لحظة عابرة فيها على الارض حصل اناس على فكرة الوجود ووجودهم هم . وهناك ، وليس في مكان آخر ، حدث هذا الكشف للدات عن نفسها ، كشفا باطنيا خالصا . وفي الكون الهائل ، وعلى كوكب صغير جدا ، وفي تلك القطعة الصغيرة من الزمان التي تؤلف بضعة عشرات من القرون ، حدثت ظاهرة يبدو أنها تجل للشامل . وفي هذا المكان الضئيل القيمة جدا بالنسبة الى الكون استيعظ الوجود مع الانسان .

لكن الكون هو ظلام الوجود التام ، انه عندنا هو المكان والينبوع والواسطة « لكل تحقيق شخصي اصله لا يمكن فهمه . غير أن الكون هو ايضا ما يخلق ويفدى الكشف التدريجي للتاريخ الانساني .

ولقد كان المكان يبدو للانسان قديما تسيثا لا يحد . ولكنه اليوم يحس بأن مسكنه على الارض قد انحصر وضاق : لقد عرت كل أجزائه وصار في وسعه أن يتشملة بنظره . وكان من أثر هذا أن كثف وجود الانسان على الارض . وصار ما حوله أشبه ما يكون بصحراء لا تسكنها الروح ومحرم على الانسان . وفي هذه العزلة لا تفهم الانسانية - وقد انطوت على نفسها ، غير واقعها هي .

وهذه العزلة في وسط الكون تكون الحد العملي للتاريخ . انه ليس بم دليل على وجود كائنات أخرى في عوالم أخرى غير عالم الارض . ولا يهمننا من هذا الامر شيء ، طالما كنا لا نحس بأثر لهذه الكائنات المزعمة .

الفردى والكلى

واذا حاولنا حصر التاريخ في قوانين عامة ، فلن نستطيع ادراكه ابدا ، لان خاصيته هو أنه ظاهرة فريدة .

واذا نظر اليه من خارج ، فان ما نسميه « تاريخا » هو ما يحدث في نقطة محددة من المكان والزمان . لكن هذا يمكن ان يقال عن كل واقع . فالعلوم تسجل كل تطور طبيعي وفقا لقوانين عامة ، لكنها لا تقول لنا لماذا - مثلا - الكبريت يوجد بكميات كبيرة في صقلية ، ولا يذكر لنا السبب في التوزيع المحلي للمواد الأولية بوجه عام .

والتحديد في المكان والزمان لا يكفي لبيان خصائص ما هو فردى في التاريخ . وما يتكرر وما يمكن استبداله بوصفه ظاهرة خاصة ، كل هذا هو في ذاته ليس تاريخا . فالظاهرة لكي تكون تاريخية ، يجب أن تكون فريدة لا يمكن استبدال غيرها بها ، ولا يمكن تكرارها .

وطابع التفرد والتأحد هذا لا يتحقق الا في الانسان وفيما يبده ، ولا نجده الا حيث يمكن أن تقوم علاقة بين الانسان والظاهرة : بأن يكون واسطة ، او تعبيرا ، او غرضا ، الخ . « ان الانسان ليس تاريخيا الا باعتباره موجودا مزودا بعقل ، لا بوصفه موجودا طبيعيا . ونحن ، بوصفنا اناسا ، لا نكون ميسورين لأنفسنا الا في التاريخ ، لكن فيما هو جوهرى لنا ، لا بوصفنا موضوعا للبحث ، فنحن لا نصير موضوعا للبحث الا بوصفنا طبيعة ، وقانونا عاما ، وحقيقته واقعية تجريبية خاصة . وفي التاريخ نحن نلغى أنفسنا بوصفنا حرية ، ووجود ، وعقل ، وجادين في

إخاذ القرارات ، وذوى استقلال عن العالم . وما يواجهنا في التاريخ ، لا في الطبيعة ، هو هذا السر المزدوج : الانتقال المفاجيء الى الحربة واكتشاف الوجود في الشعور الانساني « (٢٧) » .

وما هو تاريخي هو الوحيد ، الذي لا يمكن استبدال غيره به ، وليس تلك الواقعة الجزئية التجريبية التي سينفذ فيها ويمتصها ويحولها العنصر التاريخي ، وليس أيضا المرد بوصفه حابوا أو « رمزا » للكل ، وانما هو بالأحرى ذلك الواقع الذي يهب الحياة لذلك الكلى .

« وهذا الوجود الجزئي في التاريخ ، لا يدرك الا بالحب والوجدان المتنبئ الذي يولده الحب . انه حاضر بالنسبة الى من يحب ، وتفردته ينكشف حين يلهم الحب الرغبة في المعرفة . وهو يتجلى في ظواهر يمكن ان تتنوع الى غير نهاية . وهو واقعي بوصفه جزئيا تاريخيا ، وغير واقعي في الوقت نفسه بالنسبة الى المعرفة التجريبية . وحبنا لموجود تاريخي جزئي يجعلنا نستشعر الاساس الانطولوجي الذي يرتبط به هذا الوجود . والعالم ينكشف في لا متناهي الفرد حينما نحبه . ولهذا فان الحب الحقيقي يتسع ويرتفع من تلقاء نفسه ، وينتشر على كل ما هو تاريخي ، ويتحول الى حب للكائن في ذاته ومنذ أصله . ومن يحب يعرف ، بنوع من الوجدان الكاشف ، كيف ان الموجود ، هذا المفرد الفريد الرائع ، هو تاريخي في العالم . لكنه لا يتجلى الا في تاريخية حب موجود مفرد لموجود آخر .

« وينظر موجود التاريخ الجزئية العينية للمعرفة التاريخية . والتوثيق (جمع الوثائق واستعمالها) وهو يجمع الوثائق الحقيقية ، يقدم المقدمات ، وبفضل هذه يفتح ، على حدودها ، ما يفلت من البحث التجريبي ، لكنه يرشده في اختيار موضوعاته وفي التمييز بين الجوهرى والعرضي . والبحث ، وهو يتجاوز الطابع العام للمعرفة ، يبين ، عند حدوده ، أن العنصر المفرد الذي لا غنى عنه للتاريخ ، ليس ابدا قانونا عاما . ولما يتجلى لنا هذا العنصر المفرد فانه يربطنا بذاته على مستوى قائم خارج مجال المعرفة ولكنه غير ميسور الا بالنسبة اليها . وما نتمكن من اكتسابه على أنه مفرد تاريخيا يمكننا من التوجه صوب تاريخ كلى سيكون بمثابة موجود مفرد ووحيد . وكل تاريخية تفرز جذورها في أرض هذه التاريخية الوحيدة العالية » (٢٨) .

والتاريخ لا يحو الطبيعة ، بل تظل هذه الحقيقة الحاملة الثابتة . وكل ما يبقى ولا يتحول الا ببطء شديد هو الطبيعة . لكن بالروح يبدأ الشعور والنأمل والحركة المتصلة والعمل المتواصل من الذات في الذات ، بينما تنفتح أبعاد الممكن اللامتناهية .

وكلما تأكد جانب التفرد في الظاهرة ، انعدم التكرار ، وصارت تنتسب الى التاريخ الحقيقي اكثر . وكل ما هو عظيم هو ظاهرة انتقال .

والموجود يتجلى تدريجيا خلال التاريخ . والحرية ، وان كانت موجودة في كل مكان في التاريخ ، فانها لا تكون تامة أبدا ، بل تظل دائما في حركة . وهي تصنع اذا ما اعتقد المرء أنه

(٢٧) (يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٢٠٣ من الترجمة الفرنسية ، باريس سنة ١٩٥٤ .

(٢٨) (كارل يسبرز : « اصل التاريخ وغايته » ص ٢٠٣ - ٢٠٤ من الترجمة الفرنسية .

امتلكها نهائيا . وكلما كانت الحركة جذرية ، كانت الحقيقة ، المتجلية ذات جذور اعمق . ولهذا فان اعظم اعمال الروح (العقل) اعمال انتقال على حدود عصر ، وهاك امثلة لذلك :

١ - ان المأساة (التراجيديا) اليونانية انتقل من الاسطورة الى الفلسفة . فمؤلفو المأسى قد استمدوا من المادة الاولى للتقاليد القديمة جدا وصاروا مبدعين في عالم الاسطورة . لقد عمقوا الاسطورة بواسطة الخيال ، ولكنهم كانوا يعيشون بين المشاكل والتفسيرات . وهم فخموا مضمون الاسطورة وصاروا على الطريق الذي ستضيع فيه . ولهذا فانهم يمثلون انحلالها ، في الوقت الذي فيه يمثلون انحلالها .

ب - واذا كان تصوف السيد **اكرت** (حوالى ١٢٦٠ - ١٣٢٨) كان جريئا ساذج الجراة ، فما هذا الا لانه صار الينبوع لديانة جديدة متحررة . وبفضله امكن تعميق الرؤية ، وفي الوقت نفسه بدأ المنقول في التفكك .

ج - وفلسفة المتالية الالمانية ، من فشته ، **وهيجل الى شلنج** ، تقع في نقطة الانتقال بين الايمان والاحاد . وفي عهد **جيته** كان للدين طابع جمالى ، في اللمعان الباهر لعقل فادر على فهم كل اعماق الروح .

د - كذلك ينبغي ان ننظر الى **أفلاطون وشيكسبير . وروبرنت** على انهم شخصيات انتقال . وثم قرون بأكملها تمثل انتقالا ، خصوصا القرون من سنة ٦٠٠ الى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ، وهى التى يطلق عليها **سپرز** اسم « العصر المحورى » .

فمن الخصائص الاساسية للتاريخ اذن انه انتقال اساسا . وما يدوم لا ينتسب اليه ، انه مجرد اساس ومادة ووسيلة عنده .

ومن هنا تلح علينا فكرة ان تاريخ الإنسانية لا بد له من نهاية ، كما كانت له بداية . غير ان الحد النهائي - سواء اكان بداية أم نهاية - هو بالنسبة اليها من البعد بحيث لا يمكن ادراكه . لكن هذه الحقيقة لا بد أن تلقى ظلها على كل شيء .

وحدة التاريخ

هل هناك وحدة للتاريخ ؟

سؤال يطرحه **سپرز** ، كما طرحه كل الباحثين في فلسفة التاريخ . واسباب النفي لهذه الفضية عديدة : واولها ان الظواهر التاريخية متمتة الى غير نهاية : فهناك شعوب وحضارات عديدة ، وفي كل منها قدر لا يقناه من الوقائع التاريخية الجزئية . وحيثما سمح اقليم في الارض بالعيش ، نظم الانسان جماعة .

ويرد **سپرز** على هذه الحجة قائلا ان النظر الى الانسان من هذه الزاوية معنا ، تصنيفه على نحو ما يفعل علماء النبات في تقسيمه الى انواع واسر نباتية . وهذا معناه الافتقار الى ادراك ما يميز الانسان حقا الا وهو انه على الرغم من تشتت الجماعات الإنسانية فان الناس لا يظلون في عزلة ، بل حيثما التقوا تبادلوا أشياء فيما بينهم : معارف أو أفكارا . وفي هذا اللقاء يستشعر كل واحد منهم نفسه في الآخر ويستشعر انه مدعو لاتخاذ موقف بازائه . فهو يحس اذن انه يستهدف شيئا فريدا لا يملكه ولا يعرفه ، ولكنه مع ذلك يدفعه دون أن يدري .

ومن وجهة النظر هذه يمكن عد مظاهر التشتت في التاريخ حركه تنحو نحو الوحدة ، وربما كانت تصدر عن أصل مشترك .

ويبحث سبرز في دواعى هذه الوحدة فيبدأ باستبعاد الاعتبارات البيولوجية والنفسانية لى يتلمس الوحدة ودواعيها فيما يشاهد في مجرى التاريخ من تطور نحو الوحدة في المعرفة ، ونحو الوحدة في الاصل : وهذا يبين من الفسلمات التالية :

أ - ان وحدة الانسان ، من خلال حركه تحولاته ، ليس لها نبات الطبائع الثابتة التى سحقيق كل بدورها . ان الانسان صار ما هو خلال التاريخ ، بواسطة حركه ليست فقط طبيعية . انه بوصفه موجودا حيا ، هو مجموع استعداداته الفطرية في تنوعها ، وبوصفه موجودا تاريخيا ، وصادرا عن أصله ، فانه يجاوز هذا المعطى الطبيعى . وهذا الاصل يحمله على الاتجاه دائما نحو الوحدة التى تربطه بأصالة من الناس . وتلك مصادرة : اذ بدون هذه الوحدة لن ينسر الفهم ، وسيكون نم هوات بين طبائع مختلفا اختلافا جوهريا ، ولن يتيسر أى تفسير تاريخي .

ب - كل فردية ، بوصفها حقيقة محددة ، لها طابع استبعادي : فلا انسان قادر على ان يجمع كل الامكانيات التى تنسب أصلا الى الانسان بما هو انسان ، ولا بد من الانتخاب ، فاما القديس او البطل مثلا . ان الانسان بوجه عام وكذلك الفرد ، من حيث أصله الذى صدر عنه ، بشنمل على كل الممكنات ، ولكنه في الواقع الفعلى ليس الا فرديا . والفرد ليس ابدا انسانا كاملا مطابقا لمتل أعلى . ولا يمكن وجود انسان كامل ، لأن نم شقا ونفرة في كل ما يحققه .

ج - ومن الالفت للانباه ، ان تم وحدة انسانية فيما بتجلى من مشابهات في القسمات الاساسية ، سواء في الاديان ، وفي أشكال الفكر وفي النظم الاجتماعية .

د - والعلم والقدرة التى يمد بها التكنيك الانسان يزيدان في تقدم الانسان خطوة خطوة ، وفي تاريخ الحضارة يرتسم خط يصاعد دائما ، بيد ان ألوان التقدم هذا محصورة في ميدان العالم والتكنيك ، وهما عاريان عن الشخصية . ومن هذه الناحية يمكن تصور التاريخ على أنه تصاعد مستمر . صحيح ان فيه مع ذلك رجعات وتخلفات وتوقفات ، لكن بوجه عام يمكن القول بوجود تزايد في الخبرات التى يسهم فيها الجميع والتى هى مبصرة للجميع . ونستطيع ان نستقرى مراحل التقدم هذه على مدى التاريخ .

غير ان الانسانية في ذاتها ، وأخلاق الانسان ، وطيب ذاته ، وحكمته - كل هذه لا تقدم . نم اذن تقدم علمى وصناعى (تكنيكى) يوسع من ممكناتنا ، ولكن ليس هناك تقدم بالنسبة الى جوهر الانسان . وأعلى الحضارات قد غرقت في هاوية العدم ، وخضعت لغيرها من الحضارات التى كانت أحط منها . وبعض الحضارات دمرها المتبررون - حتى لا يخطيء المرء كثيرا ان قال : « كل ما هو عظيم ينهار ، وكل ما هو منحط يدوم » .



على انه اذا لم نكن الوحدة واقعة ، فيمكن النظر اليها على انها غاية ، وهذه الغاية يمكن ان تعد معنى خفيا . فلنحاول ان نفسر التاريخ من حيث النهاية : -

١ - ان الغاية هي المدنية ، هى تأسيس الانسان ، وما نقصده من هذا ، وراء التنظيم المادى للحياة ، لم يتحدد نهائيا ، ولكنه ينتسب الى التاريخ . وعلى مستوى هذا التنظيم ، فانه

النظام القانوني للعالم . ان حركة التاريخ تسير من التشتت الى حياة مشتركة على الارض في وحدة قانونية ، بعد الازمنة التي كانت الانصالات الوحيدة فيها هي أعراض السلام والحرب . وهذه الوحدة بتنظيمها للحياة العملية ، تترك المجال حرا لكل الامكانيات الروحية والمعنوية للمبدعات الانسانية .

٢ - **الغاية هي الحرية** ، الحرية الواعية . ويمكن تصور كل ما جرى حتى اليوم على انه محاولات لاكتساب هذه الحرية والظفر بها . لكن ماهيتها حقا لن تتجلى الا في اللامتناهي . و ارادتنا في تنظيم عالم مؤسس على القانون لا يضع لنا كفاية مباشرة الحرية العالية ، بل الحرية السياسية ، وهذه الاخيرة تهيب للانسان الحد الاقصى من الامكانيات لتحفيق الحرية العالية .

٣ - **الغاية هي انسانية عليا** ، وعملها الروحي هو ميلاد مدنية في الجماعة المتحققة انها العبقريّة .

ان الدافع الباطن فينا يدفعنا الى شعور متزايد في الوضوح . ووحدة المعنى نابينا من النقطة التي فيها الانسان ، في المواقف الحدية ، يستشعر نفسه بأوضح ما يكون ، وفيها يضع لنفسه المسائل الجوهرية ، ويجد الاجابات الخلاقة التي سنفود حياته وتطبعها بطابع نهائي حاسم . وهذه الوحدة المتحققة في العظمة لا تقوم في أن بتسع الانسان في علمه ووسائله التكنيكية ، ولا في غزو مزيد من الامكنة وتنظيمها بطريفة امبريالية ، كذلك فان النظم التربوية المتخصصة الى اقصى درجة ، والتي لا تكون غير زهاد خارجين عن تيار الحياة او انكشافية ، لن يجعلوا هذه الوحدة تتخذ شكلها ، وليست تقوم ايضا في ثبات الانظمة والمذاهب ، وانما انقوم في تلك اللوامع التي فيها يكشف الانسان عن نفسه ، في كشف جوهرى .

وربما لا يكون هذا غير نقطة فرارة في مدى التاريخ الهائل . ولكنه سيكون بمثابة حميرة في مجموع الصيرورة . وربما يكون الاثر سريعا ، وربما كان هذا الكشف - الذي يبقى أولا في عمق ذكرى الناس ، مستعدا للعمل - مجرد سؤال يوضع للمستقبل ، أو ألا تلتقط هذه القوه في العالم ، والا تترك أى اثر في رد الناس ولا تبقى الا امام العلو .

فاذا كانت هذه القيم في نظرنا لا يمكن ان يحل محلها غيرها ، فهذا مرجعه الى انها ترجع الى وحدة مفترضة دائما ولكنها غير مملوكة ابدا ، هي الغاية والاصل والمصير في التاريخ .

٤ - **الغاية هي الوجود المنكشف في الانسان** ، وحينما يتأحد الانسان مع الوجود في أعماقه ، فهذا هو الكشف عن الالهية « (٣٩) » .



وعند يسبرز ان ادراك الوحدة في التاريخ ، أى تصور التاريخ العام على انه يؤلف كلا ، هو ما تصبو اليه المعرفة التاريخية التي تبج عن معناه الاسمى .

والمؤرخون الذين أرادوا تصور التاريخ الكلى قد ضيقوا من وحدته بسبب ضيق آفاقهم : ففى أوروبا كان التاريخ هو تاريخ الغرب ، وفى الصين كان التاريخ هو تاريخ امبراطورية الوسط . وما كان خارج هذا النطاق لم يكن فى نظرهم موجودا بوصفه تاريخا ، بل كان حياة المتبربرين والبدائيين ، ولا قيمة له الا من ناحية علم الأجناس . وكانت فكرة الوحدة قائمة على أساس ان كل هذه الشعوب المجهولة لا بد لها ذات يوم ان تشارك فى المدنية الحقيقية وستنضم الى النظام الذى كان يعد وحده الصالح .

ولما اراد الايمان ان يميز فى التاريخ بين عله وغاية ، وجدتهما فى الوقائع . وادى ذلك الى تصور اله يوحى للانسان بوجود هذه الوحدة ، اوبعلم عقلى يمد به رؤيا واضحة لها :

الغرب رأى عمل الله فى التاريخ ، وابصر سلسلة من الافعال الالهية : الخلق ، عقاب الانسان المطرود من الجنة الارضية ، التنبؤات التى تعلن عن ارادات الله ، الخلاص المتحقق بظهور شخص الهى على الارض ، حتى نهاية الزمان ويوم الحساب المقبل . وما تصوره الانبياء اولا شكله **أوغسطين** (٣٥٤ - ٤٣٠) فى صورة مسيحية تم تكرر وتعدل خلال القرون ابتداء من **يواقيم الفلورى** حتى **يوسوبه** (١٦٢٦ - ١٧٠٤) ثم عبر عنه فى صورة علمانية الفلاسفة من **لسنج** (١٧٢٩ - ١٧٨١) و **هردر** (١٧٤٤ - ١٨٠٣) حتى **هيجل** . وكلها محاولات استهدفت الى تصور التاريخ فى وحدته ، حيث يجد كل شىء مكانه . لكن **يسيرز** يبدى على هذه المحاولات الملاحظات التالية :

أ - لو عرفت مجموع الاشياء ، فان لكل حياة انسانية مكانها المعلوم فى هذا التاريخ . انها فى ذاتها ليست بشىء ، لكنها مجرد وسيلة . وهى ليست على علاقة مباشرة بالعلو (transcendence) ولكن عن طريق محلها فى الزمان ، مما يحد منها ويمنع من أن تكون شمولاً *totalité* . وكل شكل من اشكال الحياة ، وكل عصر ، وكل شعب قدرد الى مجرد وسيلة . بيد أن فكرتنا عن وجود علاقة اصيلة مع الله ، وعن لامتناه شامل يمكن فى كل لحظة ان يكون كلا ، تحتج من هذا التصور .

ب - والمعرفة الشاملة يمكن من افلات الشطر الاكبر من الوجود الانسانى ، اذ تنحى جانباً شعوب باكملها هى وحضاراتها وتعد عرضية ومجرد مصادفة فى التطور الطبيعى .

ج - والتاريخ لم ينته ولا يمكننا من ادراك اصله . ومع هذا فان هذا التصور - وحدة التاريخ - يدعى انه يحيط به . وبدايته ونهايته تستخلص بواسطة وحى مزعوم . والواقع اننا بازاء نظريتين فى التاريخ متعارضتين وتستبعد كل منهما الاخرى :

١ - **فاما ان نقول ان التاريخ امامنا بوصفه كلا** : انه مجموع التطور المعروف او القابل ان يعرف من اوله الى آخره . ونحن وعصرنا موضوعون فى نقطة محددة من هذا المنحنى ، ونعد هذه اللحظة بمثابة أوجه أو أخط نقطة فيه .

٢ - **او نقول ان التاريخ واقعى وغير تام بالنسبة الى شعورنا** . ونحن متأهبون بالنسبة الى ما يمكن ان يحدث . وهذا الموقف موقف تربص ، وبحث عن الحقيقة ، وتحوط ونحفظ فطن ، لا يدعى ولا معرفة الحاضر ، لأن هذا لن يفهمه الا المستقبل . ومن وجهة النظر هذه ، فان الماضي نفسه ناقص ، لم يتم ، انه لا يزال يحيا ، والقرارات التى اتخذت سابقا ليست نهائية ، بل نسبية ، يمكن تعديلها وتنقيحها واعادة النظر فيها باستمرار ، ويمكن اعادة تفسير الاحداث الماضية وتأويلها من جديد . وما بدا انه تقرر قد اعيد وضعه موضع التساؤل .

وعلى هذا النحو يتبدى لنا التاريخ كأنه مجال للمحاولات ، ووحدته تضيق في لا نهائية الممكن . والموقف الدائم هو التساؤل .

والخلاصة « أن وحدة التاريخ ليست موضوعا للمعرفة . ولا يمكن ان نميز فيها وحدة أصل بيولوجى للانسان . وبوصفها وحدة كوكبية ، محددة في المكان والزمان ، فانها ظاهرية فحسب . ولا يمكن البرهنة على وحدة غاية عالية . وتصور نظام عالمى مؤسس على القانون يقوم على أساس افكار انسانية ، لا على معنى التاريخ في مجموعه ، ولا يزال تصورا احتماليا . وهذه الوحدة نحن لا نستطيع ان نقول انها حقيقة واحدة كلية ، لان هذه الهوية لا تقوم الا على الدهن . ووحدة التاريخ ليست تقدما نحو غاية ، وليست ايضا المنحنى الصاعد لعملية لا متناهية . ولا توجد بالنسبة الى الشعور الواضح ، ولا تعنر عليها . فوق أعالي الخلق الروحي . وليست معنى يصدر عنه كل شيء او يجب ان يصدر عنه كل شيء . ولا يمكن عدها تركيبا صنعته الانسانية في مجموعها . وشمول التاريخ ليس حاضرا حقا في رؤيتنا التأملية : لا كواقع ، ولا كمعنى (٤٠) .

ان كل قول بوحدة التاريخ هو تبسيط خاطيء اذا كان يرى أن يفسر التاريخ في شموله . وانما الواجب علينا ان نحافظ على الجزئيات والتفاصيل العديدة ، وفي نفس الوقت نعترف بأن ثم شيئا يتجاوزها ويعلو عليها ، ولا بد اذن من أن يظل العقل متاهبا ومتفتحا لادراك نوع من الوحدة .

ذلك « أن فكرة الوحدة تستمر في فرض نفسها علينا . ومهمتنا هي تحقيق التاريخ الكلى :

أ - فنحن نرتفع على الأقل الى الحصول على « نظرة شاملة للتطور الانساني في العالم بأسره . ونرفض في وقت واحد كلا طرفي التبادل الذي يقوم في الاختيار بين تفتيت اللواقع المشتتة وبين تركيب ذى نزعة مركزية ، انما نبحث بالاحرى عن نظام ملائم للتاريخ في مجموعه . وحتى لو كان تشييدنا للوحدة التاريخية يجب دائما ان ينبه معرفتنا الى هوات الجهل ، فمن الممكن مع ذلك القول بنظام تسوده فكرة الوحدة .

ب - وهذه الوحدة عليها أن تستند أولا على هذه الواقعة وهي أن كوكبنا جسم متناه ويمكننا امتلاكه كله ، وثانيا على تسلسل زمني معين ، في حضيض قطعة من المرة - مهما يكن من تجريد هذه الفكرة - ، وأخيرا تستند على الجذر الوحيد الذي ولد الانسانية ، لأن ثم خصائص متجانسة تجعلنا نفترض اصولا لنا مشتركة .

ج - والسبب الجوهرى للاعتقاد في هذه الوحدة هو أن الناس يلتقون في تفاهم كلى ، يلتقون في روح تشمل الجميع ، روح لا يستطيع أحد ان يدرك مداها ، لكنها ترحب بنا جميعا . وهذه الوحدة يعبر عنها على أدق وجه في تصوره واحد .

د - وفكرة الوحدة حاضرة عينا في الشعور الذى يدرك الامكانيات الكلية للانسانية . ومتى ماكان المرء مستعدا ، فان الفكرة القائلة بأن كل شيء يمكن أن تكون له أهمية كلية ويتبرر بمجرد وجوده - هذه الفكرة تفرض نفسها أقوى وأقوى ونحن نشعر بأننا نعيش على مستوى لاشيء فيه

يبدو غير مهم ، ويشف لنا عن أماكن بعيدة وفي نفس الوقت يبين لنا أن كل دقيقة في الحاضر تقتضي منا قراراً ، في الطريق الذي نسلكه . وأن نظرة تلقيها على هذه البدايات الأولى للإنسانية - وهي بعيدة مع ذلك عن الأصول الأولية - ونظرة على المستقبل - ولا يزال دائماً مفتوحاً - سيمكننا من إدراك الإمكانيات المتضمنة في مجموع لا يمكن الإحاطة به ، حتى أن وحدة الكل تنكشف في التحديد الباطن الذي يجعلنا نؤدي مهمتنا المباشرة .

هـ - وإذا كان علينا أن نتخلى عن تكوين صورة متسقة تامة للكل ، فقد بقيت لنا على الأقل أشكال تعكسها . وهذه الأشكال هي : التاريخ يترتب وفقاً لسلم من القيم ، منذ أصوله وحلال مراحل الحاسمة . والواقع ينقسم إلى جوهرى وعرضي .

والتاريخ يتوقف على كل سمي : العناية ، وأدرك فيما بعد على أنه القانون . وحتى لو كان الإنسان قد أخطأ في التمسك بتلك الفكرة ، فإن فكرة الكل هذه تبقى تصوراً حدياً . نحن لانستطيع أن نرى الكل ، بيد أننا نعيش فيه ، ونحن لانستطيع التصرف فيه كما نهوى ، ولكننا نرتب فيه حياتنا . والتاريخ ، في مجموعه ، لا يتكرر ، أنه تاريخى حقاً ، وليس طبيعياً . وتبقى الفكرة القائلة بوجود كل منظم ، فيه لكل ظاهرة مكانتها الخاصة بها . وليس ثم في هذا مجموع من الصدف ، بل كل الخصائص الأرضية تندرج في الوحدة الأساسية » . (٤١)

ليس ثم وحدة في التاريخ العام . وإنما ينشد الإنسان الوحدة دون أن يبلغها أبداً . ومزج الإنسانية كلها في وحدة هو حد التاريخ ، بمعنى أن هذه الوحدة لو تحققت لانتهى التاريخ .

لكن يسبرز لا يقف عند هذا المعنى ذي النغمة الحزينة ، بل نراه - على عادته دائماً في كل ما يكتب - يختم بنبرة حارة سخية ويقول : أن الوحدة النهائية ستشرق في منطقة لا يمكن بلوغها من الملكوت التي فيها تتلاقى الأرواح وتتأخى ، أنها الملكوت السموت الذي فيه ينكشف الوجود في اجماع النفوس . لكى يبقى شيء تاريخى ، ألا وهو الحركة التى فيما بين البداية والنهاية لا تبلغ أبداً معناها الخاص اللهم إلا إذا لم يكن ثم غيرها هي » .

ويبدو أن شعورنا بالتاريخ بسبيل أن يتطور . وأعمال الباحثين المخلصين في التاريخ تتوالى ولا تزال لها كل أهميتها . وفي وسعنا أن نحدد بعض نقط هذا التطور للشعور بالتاريخ :

أ - أن الجديد هو **كلية مناهج البحث ودقتها** ، وإحساس بالتنوع اللانهائى للأسباب ، وإرادة للفحص الموضوعى عن التاريخ بمساعدة مقولات أخرى غير مقولات السببية : التراكيب المورفولوجية ، معانى الكل ، الأشكال النمطية .

ب - لم يعد من حقنا اليوم ادعاء أن نرى في التاريخ **كلاً يمكن إدراكه في مجموعه** . ولم يعد في وسعنا أن ننساق وراء الرؤى الشاملة . ولانجد في أى موضع كشفاً تاريخياً محدداً للحقيقة المطلقة . ولا يوجد في أى مكان ما يمكن أن يتكرر هو نفسه .

ج - ولنرتفع الآن **فوق التأمل الجمالى للتاريخ** . فلا ننساق وراء دعوى أن كل ما في التاريخ جميل ، يجذبنا . ذلك أن علاقتنا الحقيقية بالتاريخ ليست علاقة استمتاع وتأمل

جمالى ، بل هى صراع : ذلك ان التاريخ يهمنانحن باشخاصنا ، وما يهمننا فيه يزداد اتساعا كل يوم . « وكلما كان التاريخ حاضرا لنا ، قل نظرنا اليه على انه موضوع للتأمل الجمالى » (٤٢) .

د - وما نحن اولاء مدفوعون نحو وحدة انسانية بمعنى اوسع واكثر عينية مما كانت الحال عليه من قبل . ونحن نعرف السرور العميق الذى تحدثه فينا النظرة التى نلقيها على اصل الانسانية . ولا يقصد من هذا معنى « الانسانية » ، فان كلمة « انسانية » تصور مجرد يضيع فيه الانسان . ولقد تخلينا عن هذه الفكرة الغامضة . ان فكرة الانسانية لا تصبح عينية وقابلة للاحاطة الا فى جماع التاريخ الفعلى .

ولقد يبدو التاريخ الكلى خليطا من الاحداث العرضية ، التى تدور فى دوامة أعصار . انه يجرى دائما من اضطراب الى اضطراب ، ومن شر الى شر ، مع فترات تهدئة بسيطة ، وجزر صغيرة تطفو على الامواج العاتية المضطربة ، امواج الاحداث التاريخية ، حتى ليكاد يصدق قول ماكس فيبر Max Weber « ان التاريخ الكلى طريق رصفه الشيطان بقيم محطمة » .

ولو نظرنا الى التاريخ من هذه الزاوية ، لما كانت له وحدة ، ولا تركيب ، ولا معنى - غير التسلسل المتوشح الاسباب والاشكال ، منلما يحدث فى الطبيعة على نحو اكثر انتظاما . « لكن مهمة فلسفة التاريخ هى البحث عن هذا المعنى ، وهذا التركيب اللذين لا يمكن ان يهما غير الانسانية فى مجموعها » (الكتاب نفسه ، ص ٣٣٩ من الترجمة الفرنسية) .

هـ - والتاريخ والحاضر يصيران بالنسبة البنا غير قابلين للانفصال الواحد عن الآخر . ان شعورنا بالتاريخ مندرج فى استقطاب : ففي وسعى ان اعود كيما انامل التاريخ من بعد ، وان اراه كموضوع بازائى ، او كجبل فى البعد ، يمكن ان يدرك كله فى خطوطه العامة وفى تفاصيله . وفى وسعى ايضا ان ادمج نفسي فى الحاضر الأبدى : فى اللحظة التى انا فيها ، والتى تنحفر ، وهنالك يصير التاريخ فى نظرى ذلك الحاضر الذى هو انا .

على ان النظرتين ضروريتان : موضوعية التاريخ بوصفه حقيقة أجنبية عني ، مستقلة عن ذاتي ، وذاتية اللحظة الحاضرة ، التى بدونها لن يكون لتلك الحقيقة اى معنى عندي . وعلينا ان نفذى الواحدة بالآخرى : نفذى الصورة الكلية للتاريخ بالشعور بالموقف الحاضر . فأعانى الحاضر وفقا لطريقتى فى رؤية جماع الماضى . وكلما نفدت فى الماضى ازادات مشاركتى فى المجرى الحاضر للاشياء جوهرية واهمية .

« اين مكانتى ، ولماذا احيا ، هذا امر لا افهمه الا بفضل مرآة التاريخ . ومن لا يحسب حسابا للثلاثة آلاف سنة التى سبقته يظل فى الظل ، انه كمن خلا من التجربة ويعيش ليومه » .



لقطات علمية من تاريخ الطب العربي

توفيق الطويل

اعتمد على المشاهدة الحسية منهجا ، واقتصر على الوقائع الجزئية موضوعا ، واستهدف تفسير الواقعة وتقنياتها (أو تفصيلها) غرضا ، ومن هنا كانت هذه اللقطات وشبهاتها تشكل الطب العربي علما طبيعيا بمفهومه عند المحدثين من الغربيين ، برغم أن التطور الذي صاحب هذه المرحلة من حياتهم ، لم يزودهم بما يعرف الآن من صنوف الآلات والأجهزة وغيرها ، مما

تمهيد

لقطائنا من طب المشرق والمغرب العربيين^(١)، في عصر الإسلام الذهبي الذي امتد من منتصف القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر لميلاد المسيح .

أما الإطار العلمي الذي سنتحرك فيه ونحن نتخير هذه اللقطات ، فيضم كل تفكير طبي

(١) كان يطلق المشرق العربي على العراق وسوريا ومصر ، ويطلق المغرب العربي على إسبانيا أو بلاد الأندلس (وهي ما دان لحكم العرب من شبه جزيرة أيبيريا) .

قفز بتقدم الطب العلمى فى عصرنا الحاضر أوسع القفزات .

ويخطئ من يستبعد من علماء العرب كل من انحدر من أصل غير عربى ، فقد حدد مفهوم العالم العربى الذى نقصده فى هذا البحث المتصفون من المستشرقين (من أمثال ف . بارتولد Barthold ، وكارلو ألفونسو نالينو Nallino ، وألدو ميبلى Aldo Mieli) فقالوا ان علماء العرب فى هذا المجال هم كل من أسهموا فى تقدم العلم ممن كتبوا بالعربية من أهل العصور الوسطى ، وعاشوا فى بلاد عربية ، أو تدين لسلطان العرب ، يجمعهم تراث واحد ، ويربطهم مصير واحد (٢) .

وهذه دراسة لا تدفعنا إليها الرغبة فى تمجيد الأجداد ، والاشادة بترائهم ، لأن مثل هذه الرغبة لا تتماشى مع منهج البحث العلمى الذى يقتضى الباحث أن يتوخى النزاهة ويلتزم الموضوعية فى بحثه ، وإنما يفرينا بهذه الدراسة انها تكشف عن حقائق مطمورة ، او مجهولة للكثيرين منا ، ممن لا يعرفون نصيب العرب فى حلبة الصراع مع الآفات والأمراض .

وفى الحق لقد كانت المعرفة منذ فجر التاريخ مطلب الشعوب التى اخترعت الحضارات ، أو أسهمت فى بنائها بنصيب ملحوظ ، وباستثناء المعرفة التى تزيد التجربة الدينية ثراء ، آثرت هذه الشعوب من مجالات المعرفة ما تيسرت الافادة منه فى خدمة الحياة العملية وتحقيق مطالبها ، ترحب به حين تسلمها اليه خبرتها ، وتسمى اليه فى مظانه اذا لم تدركه فى بيئتها .

وكان أول شئ أثار اهتمام الانسان الاول : الدين والطب ، أثرت القوى الطبيعية مخاوفه ،

فاستعان على مقاومتها بآلهة صورها ، واشفق على نفسه من مغبة المرض ، وافزعته آلام المصابين به من أهله وذويه ، فنزع الى صناعة الطب ، واستعان - أول الامر - فى محاربة المرض بالتعاون والأحجية والرقى السحرية ، حتى اذا استقام ادراكه ونضج وعيه ، ارتفعت بالأديان المنزلة أساليب تدينه ، واستقامت بالخبرة والوعى طرق المحافظة على صحته ، وسما بالعلاج الطبى الى مستوى يشرف إنسانيته .

وكان العرب ، وخاصة فى عصورهم الوسطى ، من أشد شعوب الارض طلبا للمعرفة ورغبة فى الافادة منها فى حياتهم ، وكان فى مقدمة العلوم العملية التى ظفرت بنصيب ملحوظ من اهتمامهم : الطب ثم الفلك وسائر فروع المعرفة التى تقوم على خدمتهما .

والآن نبه - بعد هذا التمهيد - الى أننا سنضمن هذا المقال ثلاثة فصول خاطفة ، نتناول فى أولها آفاق الطب العربى وقائبا وعلاجيا ، ونعرض فى ثانيها لتطور هذا الطب عبر تاريخه الطويل ، ونبين فى ثالثها مظاهر النضج فى دراساته .

آفاق الطب العربى

نحدد فى هذا الفصل اطار الطب العربى ، ونتبعه موجزين فى حقله الوقائى ، ثم فى مجاله العلاجى ، ونستكمل صورته بالاشارة الى العلوم المساعدة له ، ومجال تطبيقه فى المستشفيات التى كانت دورا لعلاج المرضى ، ومعاهد لتعليم الطب، وتدريب الأطباء ، ونلفت النظر - مع هذا - الى آداب الطبيب والتزاماته .

علم الطب ، عند مؤرخيه من الغربيين المحدثين ، يضم فن الوقاية من الامراض ، وكفالة الصحة عند الافراد والجماعات ، ثم

(٢) انظر فى تفصيل هذا كتابنا : العرب والعلم فى عصر الاسلام الذهبى ص ٢٣ وما بعدها .

وارتبط الطب بحياة الناس ، وكان متار اهتمام العرب ، فجدوا في ارتياد مجاهله والكشف عن حقائقه (٤) .

فلنقف الآن عند :

(أ) الطب الوقائي :

تهتم الأمم المتقدمة في أيامنا الحاضرة بالطب الوقائي ، لأنه يكفل لمواطنيها الخدمات الصحية التي تقيهم شر الامراض والاوبئة قبل وقوعها ، ويهيئهم للعمل ويمكنهم من الانتاج ، ويوجه الجهود الى العناية بحالة المساكن ونقاء الهواء ، ومستوى الغذاء ، ونشر الوعي الصحي ، وانشاء المعامل التي تساعد على كشف الامراض في بواكيرها ، وصنع اللقاحات والامصال الوقائية... وغير ذلك مما احتل مكان الصدارة من اهتمام الحكومات ومؤسساتها في أيامنا الحاضرة ، فلا نقنع بالطب العلاجي ودراساته الاكاديمية مكتفين باستخدام السماعة وميزان الحرارة وانبوبة الاختبار !

وقد بدأت فتوحات الطب الوقائي في الغرب منذ أن وضحت العلاقة بين الفقر والمرض ، واقتنع البرلمان الانجليزي بأن يعتمد عام ١٨٤٨ م قانونا يكفل المحافظة على صحة الشعب ، وينظم اول مجلس عام لتحسين موارد الحياة ، ويقوم - بمشاريع المجارى وتنظيف المدن الكبرى ، ونشأ في الولايات

الكشف عن الامراض في بواكيرها ، وتبدير العلاج التكفيل بتخفيف آلامها ، والقضاء عليها عند استفحالها ، ومن الضلال ان يظن ظان^٥ ان وظيفة الطب لا تعدو علاج الامراض ، فان الطب الوقائي أسبق من الطب العلاجي مهمة وأعظم خطرا ، وهذا معنى لا يتبادر الى الازهان ، لأن الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الا المرضى !

وقد فطن الى هذا المعنى مؤلفو العرب في عصورهم الوسطى ، فكان الطب عندهم وقائيا يستهدف حفظ الصحة ، وعلاجيا يقصد الى شفاء المرضى ، والوقائي أجل من العلاجي وأكثر نفعا ، لأن الصحة في الاصحاء موجودة ، وفي المرضى معدومة ، والمحافظة على الموجود ، أجل من طلب المفقود - فيما يقول علي بن عباس المجوسى (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) في كتابه « الكامل في الصناعة الطبية - أو الكناشة الملكية » وشاعت هذه النظرية عند أطباء العرب ومؤلفيهم ، فعبر عنها « ابن سينا » شعرا في أرجوزة من اراجيزه الطبية حين قال :

هذه أرجوزة قد اكتمل

فيها جميع الطب علم وعمل

الطب حفظ صحة برء مرض

من سبب في بدن منذ عرض (٣)

(٣) الأرجوزة الكبرى (الالفية في الطب) وهي تتألف من ألف وثلاثمائة وسنة عشر بيتا ! وقد شرحها كثيرون في مقدمتهم ابن رشد ، وترجمت في القرن الخامس عشر الى اللاتينية (لغة العلم في أوروبا اذ ذاك) .

(٤) لا يمنع هذا من أن نشير الى طائفة آثرت ترك التداوى عند الإصابة بمرض ، اتكالا على الله ، قال شاعرهم :

لا يستطيع دفاع أمر قلنا

قد كان يبرء قبله مستظها

حلف الدوا وابتاعه ومن اشترى

ان الطبيب بطبه ودواله

ما للطبيب يموت بالداء الذى

هلك الداوى والمداوى والذى

وبنظرة فلسفية رفض بعض كبار الأطباء علاج انفسهم ! فالراوى رفض معالجة عينيه بحجة انه رأى من العالم ما يكفيه ! وابن زهر رفض أى اسعاف قائل لاولده الذى كان يقوم على خدمته انه عانى من الحياة ما يكفيه ! وابن سينا رفض أن يتعاطى الدواء ، وباع ممتلكاته ووزع ثمنها على الفقراء !

والحلوى ... وعرض للأسباب التي تفسد الاستمرار مع جودة الطعام ودفع كل منها ... الى آخر ما تناوله في ذلك الكتاب .

وخصص تلميذه « علي بن عباس » في كتابه السالف الذكر « الكامل في الصناعة الطبية » واحدا وتلاتين فصلا في علم الصحة ، تحدث فيها عن حفظ الصحة وتدبيرها بالرياضة والاستحمام والغذاء والشراب والنوم والجماع ، وعرض لحالات الهواء في كل فصل من فصول السنة ، وتدير من ناله اعياء ، ومن في اعضائه آفة ، ومن أصيب بهزال ... وحذر من الامراض الوبائية ونبه الى الاعراض المنذرة بها ، ولم يفته ان يتحدث عن الامراض النفسية وغيرها مما بدخل في علم الصحة .

وزاد « ابن سينا » فعرض في قانونه للحديث عن اختبار المرضعة ، والوقاية من حرارة الشمس ، وعوامل البيئة من طقس وتربة وغذاء وشراب .. ونحو ذلك مما تناوله في الفن (الباب) الثاني من كتابه .

وكان للعرب في اسباب الصحة والمرض لفئات طبية تقتبس منها نموذجا من مقدمة ابن خلدون ، اذ تحدث فيها عن أهمية الهواء والغذاء ومكانهما من حياة البدو وسكان الحضر ، فقال ان مرد الامراض في اغلب الحالات الى التغذية ، وهي تصيب اهل الحضر والامصار أكثر مما تصيب اهل البدو « لخصب عيشهم وكثرة ماكلهم » وتنوع اصنافها واقبالهم على تناولها ، مع خلطها بالتوابل والبقول والفواكه رطبا ويابسا ، الى جانب طبخها والاكثر من صنوفها حتى لتبلغ في اليوم الواحد أربعين نوعا من النبات والحيوان ... يزيد هذا ان الهواء في الامصار تفسده الأبخرة العفنة والناشئة عن كثرة الفضلات ... وأن اهل الامصار لا يزاولون الرياضة الا نادرا .. واما اهل البدو فيغلب عليهم الجوع لقلّة ما لديهم من حبوب ، حتى صار الجوع عادة ظنّها البعض جبلة فطرت عليها طبائعهم ، ويكاد طعامهم يخلو من الدسم ، ولا يعالج بالطبخ ولا يزود

المتحدة عام ١٩٠١ معهد روكفلر للأبحاث الطبية بمعامله وآلاته وأجهزته العلمية والباحثين المتفرغين به ، وفي العام التالي وافق الكونجرس على قانون يحرم غش الاغذية والأدوية .

ولكن العرب في عصورهم الوسطى قد توصلوا الى الكثير من أسس الطب الوقائي ومقوماته ، فتوصلوا الى الوقاية من الأمراض بدراسة الجسم ووظائف أعضائه ، وحاولوا الكشف عن أسباب الأمراض وأعراضها وطرق انتشارها ، لمعرفة أساليب الوقاية منها دفعاً لوقوعها ، واهتموا بما نسميه اليوم بعلم الصحة (Hygiene or Hygenics) وحرصوا على وضع القواعد التي تكفل العافية وتحول دون الوقوع في المرض ، ومعرفة الوسط الذي يعيش فيه الانسان ، كما يبدو في الهواء الذي يستنشقه ، والغذاء الذي يطعمه ، والماء الذي يشربه ، والمسكن الذي يقيم فيه ، والعمل الذي يقنات منه ... بل كان بين أطباء العرب من اضافوا ضرورة الاهتمام بالحالات النفسية التي تتمثل في الخوف والفضيب والحزن والفرح ، والياس والأمل ... وغير هذا من انفعالات لها تأثيرها البالغ في صحة الانسان ومرضه .

وكثرت مؤلفات العرب في المحافظة على الصحة واتقاء الأمراض ، فكتب الرازي كتابه « منافع الاغذية ومضارها » وجرى على نهجه الكثيرون ، وأرسلوا اهتمامهم كتباً أو ابواباً في كتب ، وتناول الرازي في كتابه السالف الذكر منافع الحنطة والخبز ومضارهما ، والطرق التي تستخدم في دفع هذه المضار ، وعرض لمنافع الماء بارداً وحاراً ، والشراب المسكر ومضاره ، ومنافع اللحوم والاسماك ووجه الاذى من تناولها ، والكوامخ والزيتون والمخللات ونحوها ، ومنافع البيض والبقول ، النية منها والمطبوخ ، والتوابل والفواكه

والتدبير البدن بما ينبغي ، فتصلح بذلك الأسباب الضرورية ، ولا يسرع الى الجسم الفساد ، وهذا التدبير هو حفظ الصحة على الأصحاء وردّها الى المرضى ، وحفظ الصحة أعظم من علاج الامراض ، لأنه الفرض الذى تقصد اليه صناعة الطب .

وفي تراث الطب وصايا هدت اليها خبرة الطبيب العربى ، فمن أقوال العرب ليس أضر على الشيخ من طباخ حاذق وجارية حساء ، لأنه يستكثر من الطعام فيسقم ، ومن الجماع فيهرم . . . يقول « ابن سينا » :

اجعل غذاءك كل يوم مرة
واحذر طعاما قبل هضم طعام
واحفظ منك ما استطعت فانه
ماء الحياة يراقى فى الأرحام (٦)

ومثل هذا فى تراث الطب العربى أكثر من أن يحصى ، وهو يكفى ابطلا للزعم القائل بأن عقيدة القضاء والقدر قد صرفت أهلها من المسلمين عن الالتزام بقواعد الصحة ، ونسى أصحاب هذا الزعم ما فطن اليه بعض الغربيين - من أمثال ول ديورنت - من أن من مُسَلِّمات الاسلام أن النظافة من الإيمان ، وأن الشراب المسكر حرام ، وميل سكان المناطق الحارة الى اibar الطعام النباتى على الحيوانى ، والدعوة الى الاستحمام وخاصة عند الاصابة بالحميات ، والدعوة الى استخدام حمامات البخار وغيرها مما لا يزال يتبناه الطب الحديث .

قد لا يجد قارئ اليوم شيئا غريبا فيما أسلفناه عن موقف العرب فى عصورهم الوسطى من الطب الوقائى ، ولكنه اذا وضع هذا الموقف فى اطاره الزمنى ومجاله الحضارى ، كان خليقا

بالفواكه ، . . . وأما الهواء الذى يستنشقه فنقى قليل العفن ، مختلف ان كانوا ظواغن ، وهم يزاولون الرياضة بحكم حياتهم ، ويكثرون الحركة وركوب الدواب ومباشرة الصيد ونحوه مما يساعد على هضم الطعام وتفادى البردة (ادخال طعام الى المعدة قبل أن يهضم ما فيها) وبالتالى تقل حاجتهم الى الطب . . . سنة الله التى خلت فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا (٥) .

وحديث علي بن عباس المجوسى عن **الوقاية** من الأمراض ، يستحق أن نقف عنده قليلا :

يقول ان الأجسام من شأنها أن تتغير وتستحيل ، لأن مصيرها الفساد والفناء ، وهما يعرضان للأبدان اما ضرورة واما غير ضرورة « ويعرض أولهما بسبب الجفاف الذى يصير به النبات الى الذبول ، والحيوان الى الهرم ثم الى الموت . . . وقد يعرض الفساد بسبب الفضلات التى تتولد عن الأتعمه والأشربة ، أما ما يعرض من الفساد الضرورى من خارج فيكون بسبب الهواء المحيط به ، أما الفساد الذى يعرض للأجسام من غير ضرورة ، فيبدو فيما يلحق بالانسان من خارج ، كصدمه الحجر او قطع السيف او لدغ الهوام ونهشها ، واذا كان الأمر على هذا فان الأجسام تتغير دوما ، ولا تثبت على حال ، ومن هنا مست الحاجة بالضرورة الى تدبير يصلح ذلك التغير ويمنع الأجسام من الفساد ، ويحفظها على حال صحتها الى وقت الهرم والموت الطبيعى ، ان منع الفناء مستحيل لأنه ينشأ عن طبيعة الأبدان ، ولكن الطبيب يتعين عليه أن يصطنع التدبير الذى يمنع الأسباب الداعية الى فساد الجسم وفنائه ، حتى لا يسرع اليه الهرم ، وذلك بالمبادرة بالتحفظ من الأسباب المفسدة غير الضرورية ،

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٢ - ٩٣ .

(٦) وان قيل ان ابن سينا قد مات بسبب الافراط فى اشباع شهوته !

وكميته ونحو ذلك من اساليب العلاج الطبيعى، تم باستخدام الدواء والعقاقير أو باجراء الجراحة التي اسماها العرب « العمل باليد أو بالحديد » ، ولنقف عند بعض فروع الطب في ترانهم :

في طب العيون وغيره :

امتد الطب العلاجي الى امراض العيون والنساء والتوليد والأطفال والأمراض العصبية والنفسية وغيرها مما يقتضى التخصص ويسئلزم التعمق في الدراسة ، فازدهر طب العيون على أيدي العرب لنشوء امراضه في بلادهم الحارة ، ويرجع الفضل في وقوفنا على براعتهم فيه الى « يوليوس هيرشبرج » J. Hirschberg أستاذ طب العيون بجامعة برلين سابقا ، اذ أفرد لتاريخ طب العيون سبع مجلدات استغرق اعدادها الاكباب على الدراسة الأمانة الواعية خمسة وعشرين عاما ، خصص سبعا منها لمجلد عن طب العيون عند العرب والمسلمين .

ومن خير ما وضع في طب العيون كتاب « دغل العين » ليوحنا بن ماسويه + ٨٢٧ م - وشهرته عند الفرنجة Mesue Maior ويسمى أيضا يوحنا الدمشقي - وهو من السريان والنساطرة الذين تولوا التدريس في مدرسة جند يسابور ، وقد عهد اليه الرئيد برياسة دار الحكمة، ويقول «ماكس مايرهوف» عن كتابه السالف الذكر أنه أول كتاب عربى منظم في علم الرمد ، بل يقول انه أقدم الكتب التى وضعت في طب العيون في مختلف اللغات القديمة ، لأن ما وضع في هذا الباب في السريانية قد فقد، والكتاب حافل باصطلاحات فنية وفارسية ، وان كان أسلوبه العربى رديئا ، وبعض مؤلفاته الطبية مزود برسم الاعشاب الطبية ، وعلى نهجه سار كثيرون من العرب في تزويد كتبهم بالرسم .

وبلغ طب العيون كماله بكتاب حققه حنين ابن اسحاق + ٨٧٧ م - وشهرته عند الفرنجة Johannitus - هو كتاب « العشر مقالات

بأن يجد فيه سبقا لعصره بمئات السنين ، ويراه أهلا لأن يمثل مكانه من هذه اللقطات .

(ب) الطب العلاجي :

التشخيص والعلاج : اهتم العرب بتشخيص المرض ومعرفة أعراضه وطرق علاجه ، فكان الطبيب يستفسر من مريضه عن مأكله ومشربه ومسكنه وأسرته وحالته الصحية والاجتماعية ونحو هذا مما لا يزال طبيب اليوم يتوخى معرفته ، وكان للعرب فضلهم في الكشف عما سموه بالأسباب والعلامات ، اى اسباب الامراض وأعراضها ، وكان الرازى يرتبها طبقا لأهميتها ، وهذا هو ما يسميه أطباء اليوم بهيرارشية العلامات ، وقد اشار الرازى الى اختلاف العلامات باختلاف الوقت الذى تحدث فيه عبر تاريخ المرض ، فكان العرب أول من ابتدع استقصاء العلامات وتدوين المشاهدات بدقة بالغة ، مع استنباط نتائجها التى تلزم بالضرورة .

واهتم الطبيب العربى بفحص البول وجس النبض ، وعرض مؤلفهم لبيان هذا في مئات الكتب ، وسموا الاستنتاج من فحص البول بالتفسرة ، ولم يكن يعالج مريض الا بعد فحص بوله ، وله عندهم علامات تميز السليم من المريض ، وكان النبض يشير الى حركة القلب ومدى حيويته ، فكان رسولا صادقا ومناديا يكشف برغم خرسه عن أشياء خفية فيما يقول « علي بن عباس » .

وساعدهم هذا على وضع قواعد التشخيص، والتفرقة بين الأمراض المتشابهة في أعراضها ، ففرق « الرازى » بين الجدري والحصبة ، وميز « ابن سينا » بين التهاب الرئوى والتهاب السحايا الحاد ، وبين المفص المعوى والمفص الكلوى ، وبين حصاة المثانة وحصاة الكلية .. وغير هذا مما سنعرض له في « كشوف طبية عربية » .

اما العلاج فكان - فيما أشار « ابن سينا » وغيره - بممارسة الرياضة ، ونوعية الغذاء

« الكافي في الكحل » وزوده برسوم لآلات تستخدم في جراحات العين ، ومن فرط تقته في قدرته على اجراء جراحة ماء العين كان لا يتردد في اجرائها للمريض ولو كان بعين واحدة !

وفي ذلك السيل من مؤلفات العرب في طب العيون عرفت دراسات عميقة في تشريح عيون الحيوانات وعضلاتها، مما أعانهم على تشخيص أمراض العيون وطرق علاجها على أحسن وجه يتيسر لمن تنقصه الآلات والأجهزة الحديثة التي يستخدمها المعاصرون من أطبائنا .

وبرع العرب في الجراحة بأوسع معانيها ، ومنها جراحات النساء والتوليد ، وقد قام « خلف ابو القاسم الزهراوى » (ت ١٤ هـ / ١٠١٣ م) - وشهرته عند الفرنجة Abulcasis - بجراحه فتيت رأس الجنين متى كان ضخما ، واخترع منظار المهبل ، وكتب مع غيره من المؤلفين - من أمثال « ابن سينا » و « ابن زهر » - في الأورام الرحمية ، والعنق وتقرحه ، وشرح « علي بن عباس » طريقة توليد الجنين الميت دون ايداء المرأة الحامل ، وتحدث عن الأدوية التي تعوق الحمل، وان أثر عدم ذكرها خشية أن يستخدمها من لا يحتاجها بالضرورة ، وذلك تمشيا مع تقاليد الدين من ناحية ، ولوائه لقسم « ابقراط » الذي أخلص له أطباء العرب - وسنعود اليه عند الحديث على « التزامات الطبيب وآدابه » ، كما أوصى الطبيب أن يشير بدواء ينفع في احتباس الطمث ... وغير هذا مما يدخل في أمراض النساء والتوليد .

في العين « على ما بينه وشرحه جالينوس الحكيم - فيما يقول حنين في مقدمته - وهو أقدم كتاب مؤلف على الطريقة العلمية في طب العيون - فيما يقول ناشره ومترجمه الى الانجليزية ماكس مايرهوف (٧) وقد زوده مؤلفه برسوم شائقة للغاية ، وهى أول رسوم عرفت في تشريح العين ، نم هى ادق من كثير من مثيلاتها في الكتب الأوروبية في القرون الوسطى ، فيما يقول الباحثون المحدثون من أطباء العيون أنفسهم - وقد جرى على نهجه في تزويد الكتب برسوم ايضاحية بعض خلفائه من المؤلفين ، وفي مقدمتهم ابن أخته حبيش بن الاعثم .

وانضج من هذا كله كتاب « تذكرة الكحالين الذى صنفه « علي بن عيسى » في القرن العاشر - وشهرته عند الفرنجة Jesu Haly - وهو بين الكتب العربية يعد اكملها جميعا في هذا المجال ، ولا يفصله حتى بين الكتب الأوروبية كتاب آخر حتى القرن التاسع عشر - فيما يقول الدوميلي وماكس مايرهوف (٨) .

وعلى هذا المستوى نفسه كان كتاب « المنتخب في علاج أمراض العين » لعمار بن علي « الموصلى بالقاهرة - وشهرته عند الفرنجة Canamushi (٩) ويتفق ماكس مايرهوف مع هيرشبرج في أن عمارا كان مجددا في تصور طريقته ، وبخاصة لازالة ماء العين (الكتاراكتا Cataracta) وهو الذى اخترع الابرة المجوفة التى تمتص هذا الماء .

وقد صنف « خليفة بن أبى المحاسن » في النصف الثانى من القرن الثالث عشر كتابه

(٧) مقدمة العشر مقالات في العين لناشره ماكس مايرهوف - الطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٢٨ .

(٨) الدوميلي : العلوم عند العرب ص ٢٥١ - ولم ينشر نص الكتاب العربى كاملا ، ونشر ماكس مايرهوف نص بعض فصوله ملحقا بكتابه عن تاريخ التراكوما وعلاجها قديما وعند العرب (بالانجليزية) وللكتاب ترجمة المانية .

(٩) لم ينشر نصه العربى ، وترجمه الى الألمانية هيرشبرج مع آخرين ، ونشر ماكس مايرهوف للمؤلف نفسه كتابا آخر عن عمليات ماء العين .

في الامراض المعدية

وامتد طبعهم العلاجي الى الأمراض المعدية ، وكانوا يسمونها بالأمراض السارية ، فتحدث « ابن سينا » عن عدوى السل الرئوى ، وسبق الى وصف داء الفيلاريا وسريانه في الجسم ، والى وصف الجمرة الخبيثة التى أسماها النار المقدسة ، كما سبق « الرازى » الى وصف الجدري والحصبة والتفرقة بينهما ، والقول بالعدوى الوراثية ، وسبق « علي بن ريان الطبرى » (الذى لمع نحو سنة ٨٥٠ م) الى الكشف عن الحشرة التى تسبب داء الجرب ، وسبق « ابن ماسويه » الى وصف الجذام . . .

وكان العرب - فيما روى مؤرخو الطب العربى - أول من قرر أن الأوبئة تنشأ عن التعفن ، وتنقل بالهواء والمخالطة ، وأشار « ابن التيمى » الى استخدام التدخين لتطهير الهواء أثناء انتشار الوباء ، وأثبت « ابن الخطيب الاندلسى » وجود العدوى ولاحظ مرارا أن من خالط مريضا مصابا بمرض سار (أى مُعَدٍ) أو لبس من ثيابه ابتلى بالمرض ، ومن لم يخالطه نجا من العدوى . وقد تحدث فى رسالته « مقنعة المسائل عن المرض الهائل » - ويقصد الطاعون - فيقول : « فان قيل كيف نسلم بدموى العدوى وقد ورد فى الشرع ما ينفى ذلك (١٠) قلنا وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواترة ، وهذه مواد البرهان ، وغير خفى عمن نظر فى هذا الامر أو اراد ادراكه ، هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالبا ، وسلامة من لا يباشره كذلك ، ووقوع المرض فى الدار والمحلة لثوب أو آنية ، حتى أن القرط أُلِف من علق باذنه وأباد البيت بأسره ، ووقوعه

فى المدينة فى الدار الواحدة ثم اشتعاله فيها فى أفراد المباشرين ، ثم فى جيرانهم وأقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق ، وفى مدن السواحل المستصحيه حال السلامة الى أن يحل بها من فى البحر من عدوى أخرى قد شاع عنها خبر الوباء . . . وصح النقل بسلامة أهل العهود والرحالين من العرب بأفريقيا وغيرها لعدم انحصار الهواء ، وفلة تمكن الفساد منه » .

وأشار « ماكس مايرهوف » فى فصل الطب فى كتاب تراث الإسلام: The Legacy of Islam الى أن الطاعون كان موضع دراسات علمية عربية فى مقدمتها دراسته « ابن الخاتمة » (ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م) وكان قد اجتاح بعض المدن الأسبانية فى عصره .

ولا عجب فى هذا كله ، فقد فطن الى العدوى نبى الاسلام (ص) فى القرن السابع للميلاد فمما أثر عنه انه قال : « اذا وقع الطاعون بأرض فلا تقدموا عليها ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » فلا غرابة ان قيل ان العرب كانوا أول رواد الحجر الصحى .

كان هذا عند العرب فى عصورهم الوسطى ، بينما كانت أول دراسة علمية فى أوروبا عن العدوى والأمراض المعدية عام ١٥٤٦ م وكانت أوروبا تجهل أسباب الأمراض المعدية عند فشو الطاعون عدة مرات فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، وعده الفرييون قضاء من الله لا يرد !

وقريب من هذا كله يمكن ان يقال فى براعة العرب فى طب الامراض العصبية والنفسية والعقلية ، وطب الاطفال والاسنان* والبيطرة وغيرها من فروع الطب المختلفة .

(١٠) الأصل أن رسول الله (ص) قال : لا عدوى ولا طيرة ، وقال : لا يورد ممرض على مصح ، أى مريض على صحيح ، فالحديث يجب أن يحمل على النهى وليس على النفى بمعنى : تجنبوا العدوى واتفوا شرها وعندئذ يكون الحديث : لا يدخل مريض على صحيح ، مفسرا للحديث : لا عدوى .

* انظر النصوص القيمة التى جمعها اوتوشيبس عن « طب الاسنان عند العرب » وترجمها عن الالمانية الدكتور حسين مؤنس ونشرها فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمطبعة مصر مجلد ١٣ عام ١٩٦٨ .

في التشريح والجراحة :

أما الجراحة ، فإنها لا تستقيم بغير ممارسة التشريح ، والمحدثون من المستشرقين على اتفاق في أن الشريعة الإسلامية قد حرمت تشريح الجثث ، إنسانية كانت أو حيوانية ، واستندوا الى هذا في القول بتأخر الجراحة والطب العلمى عند العرب ، ومن ثم كان اعتمادهم على ما كتبه « جالينوس + ٢٠١ م في هذا المجال ، مع انه اقتصر على تشريح جثث القردة وغيرها من الحيوانات ، وحتى « ادور جورج براون » E. G. Browne قد اعتمد على مؤرخ الطب العربى « ابن أبى أصيبعة » ومعجم ايرانى وضعه أربعة من العلماء أجابة لطلب الشاه ، وذكر أن « ابن ماسويه » + ٨٢٧ م كان يميل الى التشريح ، ولا يستطيع أن يحصل على جثث إنسانية ، فعهد الى تشريح قردة فى غرفة خاصة أقيمت على شاطئ دجلة ، وقد أعد له أمير النوبة بمصر - بأمر من الخليفة المعتصم - نوعا من القردة تشبه الإنسان شبها قويا ليمارس تشريحها ، ومع هذا يزعم براون - مع الدو ميللى A. Mieli وول ديورنت Durant وغيرهما - أن ليس لديهم دليل يُعتد به على ممارسة التشريح - لجثث إنسانية أو حيوانية - فى مدارس الطب العربى : وإشارة « ابن أبى أصيبعة » الى ما سلف تنفى الزعم الذى رده بعض الغربيين من أن التشريح كان محرما فى الشريعة الإسلامية ، والراى عندنا أن الوقوف على ما كتب أطباؤهم يشهد بأن الكثيرين منهم قد زاولوا التشريح وان لم يجرأوا على الجهر بما فعلوا مخافة أن يتعرضوا لسخط المتزمتين من رجال الدين .

لم يقنع العرب بالامام بما كتبه الاقدمون ، ولا سيما امامهم جالينوس - فى مجال التشريح ، بل نهوا الى الكثير من اخطاء أسلافهم فى هذا

المجال ، فى ضوء خبراتهم الشخصية ، ومن الأدلة الناطقة على صدق هذا أن « ابن النفيس » (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) برغم انه كان يجاهر بأنه لا يقوم بتشريح الجثث استجابة لتعاليم الشريعة ، كان فى كتابه « شرح تشريح القانون » ينقد « الفاضل جالينوس » ويقول : « والتشريح يكذبه ! » وفى ضوء خبرته الذاتية كشف الدورة الدموية لأول مرة فى تاريخ الطب ، كما سنعرف عندما نتحدث عن « كشوف طبية عربية » .

وكان « عبد اللطيف البغدادي » (ت ٦٢٩ / ١٢٣١ م) وهو يصف رحلته الى مصر فى كتاب « الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » يصرح بأنه وجد تلا من الهياكل البشرية فى احدى المقابر بمصر القديمة وتبين بخبرته خطأ « جالينوس » الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه !

هذا عن التشريح عند العرب فى عصر رات فيه أوروبا أن فن التشريح امتهان للجسم الذى خلقه الله ! وقد أجريت أول عملية تشريح فى باريس أواخر القرن الحادى عشر ، أى بعد وفاة « ابن النفيس » بنحو قرنين ! وفى مونبليه بفرنسا أجريت عام ١٥٥١ م وفى بازل بسويسرا عام ١٥٨٨ وفى بولونيا عام ١٦٣٧ ! ولم تنشأ نواة فن التشريح الوصفى الا أواخر القرن الخامس عشر باذن من البابا سكستوس الرابع ، ولم تنشأ مدرجات للتشريح فى أوروبا الا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر - فيما أشار الدكتور غليونجى .

وفى ظل التشريح عند العرب تقدمت الجراحة ، وكان امامها « أبو القاسم الزهراوى » (ت ٤١٤ هـ / ١٠١٣ م) - وشهرته عند الفرنجة Abulcasis . وبكتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » احتل مكان

دراساته ، وفي مقدمتهم ديسقوريدس + ٦٠ م
Dioscorides الذي كان كتابه في
الحشائش مرجع خلفائه من بعده ، وكان يضم
أكثر من ستمائة عشبة مع أدوية وعطور
وأدهان وصموغ وأنواع شراب وأدوية معدنية .
وقد وضع ابن جليل في مطلع القرن الحادي
عشر ذيلًا لترجمة هذا الكتاب استكمل فيه
مافات ديسقوريدس من أسماء العقاقير
الطبية ، بل أضاف العرب ألفي نبات إلى
ما كان يعرفه اليونان .

وفي أواسط القرن السابع أخذ « ابن
البيطار » (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٩ م) يطوف البلاد
لملاحظة النبات ومشاهدته في منابته ، وعين في
بلاط الملك الكامل الأيوبي نقيب العشابين
(الصيادلة) في الديار المصرية .

وفعل ما يشبه هذا « رشيد الدين الصوري
(ت ٦٢٩هـ / ١٢٤١ م) وزاد فاصطحب معه في
رحلاته مصورا مزودا بأصباغ وألوان ،
وأطلع على النبات في منابته ليتوخى الدقة
عند رسمه في تعيين لونه ، وحجم أوراقه ،
وأغصانه وأصوله - على نحو ما يفعل علماء
النبات في أيامنا الحاضرة .

أما الكيمياء فان مؤرخيه على اتفاق في أن
نشأته علما تجريبيا ، كان مقدرا لها أن تكون
على يد علماء العرب ، ومن أنكر منهم -
مستشرقين كانوا أو عربا - وجود « جابر بن
حيان (ت ١٩٨هـ / ٨١٣ م) كشخصية تاريخية ،
رد نشأة هذا العلم إلى عالم عربي آخر هو
(أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (ت ٣١٤هـ /
٩٢٦ م) - شهرته عند الفرنجة Le Razes
فيما يرى الدوميلي بوجه أخص ، فالعرب
هم الذين أزالوا عن الكيمياء السرية والغموض
والرمزية التي لازمها عند أسلافهم ، واصطنعوا

الصدارة بين جراحى العصور الوسطى ، وقد
قدره الفرنجة أكثر مما قدره بنو وطنه ، وكان
كتابته دائرة معارف طبية ، تناول في قسمها
الأول الطب الباطنى ، وفي الثانى الأقرباذين
(الصيادلة) والكيمياء ، وفي الثالث الجراحة ،
وهو أهمها وأخطرها ، عرض فيه للعلاج
بالكي ، وآثره على المشرط ، وأوصى به في
فتح الخراجات واستئصال السرطان ، وقد
زود كتابه برسوم مجموعة ضخمة من الآلات
المستخدمة في الجراحة ، نورد هنا نموذجا منها
نقلا عن مؤرخ الطب العربى « لوسيان لوكير »
+ ١٨٩٣ .

وكان « الزهراوى » السباق إلى ربط
الشرايين في الجراحات ، ومعرفة الطريقة التى
تستأصل بها الحصى المثانية في النساء عن
طريق المهبل ، وقد وصف استعداد بعض
الأجسام للنزيف وعالجه بالكي ، وأجرى
جراحات ناجحة في شق القصبة الهوائية
وتفتيت الحصى في المثانة وغير ذلك كثير ، وقد
كان كتابه مرجع الدارسين في أوروبا ، والكتاب
المدرسى في جامعاتها حتى مطلع القرن
السابع عشر (١١) .

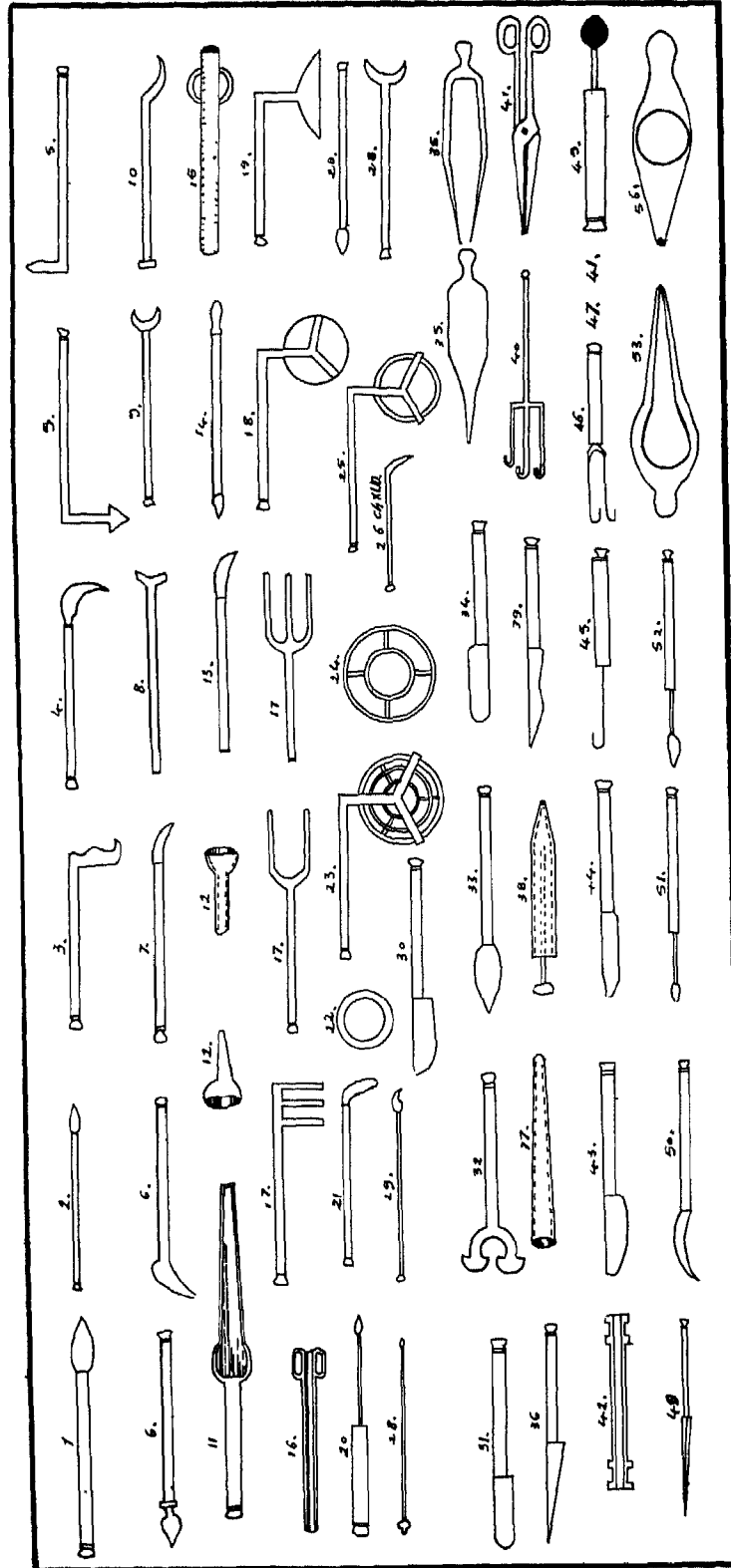
علوم مساعدة للطب :

اتصلت بالطب العربى علوم تجريبية أعانت
على تحقيق أغراضه ، في مقدمتها الصيدلة
التي أفادت من علمى النبات والكيمياء ، لأن
على الصيدلى أن يعرف حقيقة الأعشاب ،
ويقف على خصائصها ، ويقوم بتركيب المركبات
وأعداد المستحضرات وتحليلها ، فلنقف عند
هذه العلوم قليلا :

في علمى النبات والكيمياء :

اهتم العرب بالنبات من ناحية منفعة في
علاج الأمراض منذ أن أخذت الدولة الإسلامية
في التحضر ، واتصلوا بتراث أسلافهم في

(١١) لا توجد طبعة كاملة للكتاب ولا لترجمته اللاتينية التى قام بها جيرار الكريمونى أو غيرها وللكتاب أو أجزاء منه
ترجمات مختلفة أشار إليها الدوميلي ص ٣٥٥ - ٥٦ .



صور آلات الطب والجراحة والتوليد التي هاء في كتاب النصريين للفراروكس
نقلاً عن بوكير

**في دراساتها منهجا استقرائيا تجريبيا ،
واستخدموا فيها الكايل والموازين وغيرها من
الالات تحقيقا للدقة والضبط .**

والى العرب يرجع الفضل في كشف الكثير من المركبات والمستحضرات التي لاتزال معتمدة في أيامنا الحاضرة ، ومن المركبات التي استحدثوها ماء الفضة (حامض النتريك) وزيث الزاج (حامض الكبريتيك) وماء الذهب . . . وقد كشفوا البوتاسا والنوشادر وملحه (نترات الفضة) والسليمانى (كلوريد الزئبق) واكسيده ، ونترات البوتاسا والزاج الأخضر (كبريتات الحديد) والكحول والزرنيخ وغيرها من مستحضرات ومركبات لم يعرف بعضها في أوروبا الا اواخر القرن الماضى .

في علم الصيدلة : تقول جمعية الصيدلة المصرية في العدد الأول من نشرتها ، ان الصيدلة فن علمى يبحث في أصول الأدوية - نباتية كانت أو حيوانية أو معدنية - من حيث تركيبها وتحضيرها ومعرفة خواصها الكيميائية والطبيعية ، وتأثيرها الطبى ، وتحضير الادوية المركبة منها ، والعقار - بضم العين - يعنى الدواء، وكان يراد بالأقرباذين Pharmacology تركيب الأدوية المفردة وقوانينها فيما يقول حاجى خليفة ، وزاد المحدثون الادوية المركبة فيما يقول الأب قنواى في تأريخه للصيدلة .

والعرب هم اول من انشا صناعة العقاقير علما تجريبيا ، وتمكنوا عن طريقه من ابتكار ادوية لم تكن معروفة من قبل ، وركبوها من اصول نباتية وحيوانية ومعدنية ، و اضافوها الى ما عرفوا من صنوفها عن اليونان والهنود وغيرهم ، وكانوا بهذا السباقين الى ابتداع الأقرباذين على الصورة التي وصلت الينا .

وكان العرب أول من ابتدع حوانيت العقاقير - الصيدليات - على الصورة التي نعرفها اليوم ، وعنهم أخذ الفرنجة ذلك ، ولا يزال هؤلاء يستخدمون الكثير من أسمائها العربية ،

كما كان العرب أول من ابتدع مدرسة للصيدلة، ووضع المؤلفات القيمة في علم الأقرباذين وغير هذا مما استرعى نظر الغربيين من المؤلفين .

وكان للعرب الفضل في كشف الكثير من الأدوية، في مقدمتها الكافور والصندل والراوند والمسك والمر والتمر هندي والحنظل وجوز الطيب والقرفة وغيرها ، كما ابتدعوا صنوفا من الشراب والكحول والمستحلب والخلاصة العطرية ونحوها ، وزادوا فاخترعوا آلات لتذويب الأجسام وتدبير العقاقير، واستخدموا الكاويات في الجراحة وكان مما ساعدهم عليها تقدم الكيمياء التجريبية وعلم النبات المستند الى الملاحظة الحسية .

ولما كان الاشتغال بالصيدلة في ذلك العصر من عمل الاطباء ، كثر تناولها في كتب المؤلفين منهم ، وقد سبق الى ابتداع الأقرباذين « يوحنا بن ماسويه » ، وتابعه « ابن سهل » صاحب الأقرباذين الكبير ، وأمين الدولة « ابن التلميد » (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) و « حنين بن اسحاق » في العشر مقالات في العين، و« الرازى » في الحاوى ، و « على بن عباس » ، في الكامل في الصناعة الطبية و « ابن سينا » في القانون . . وغيرهم كثيرون .

وكان « أبو جعفر أحمد الغافقى » (ت ٥٥٠هـ / ١١٥٥م) بكتابه في الأدوية المفردة يتميز بالدقة البالغة في وصف النباتات ، ويعد « ماكس مايرهوف » أعظم الصيادلة أصالة وأرفع النباتيين مكانة عند المسلمين طوال العصور الوسطى ، واذا كان كتابه لم يصلنا كاملا فان المتأخرين - من أمثال « ابن البيطار » - قد حفظوا عنه اجزاء وفيرة .

وقد وضع « ابن البيطار » (ت ٦٤٦م / ١٢٤٩م) - رئيس العشابين (أى تقيب الصيادلة) في مصر أكبر موسوعة في هذا المجال ، بكتابه الجامع في الأدوية المفردة ، وقد تضمن أكثر من ألف وأربعمائة صنف من الأدوية المختلفة مرتبة على حروف المعجم ،

المهنة لمن أنكر الأدوية الوهمية ، ونفى الباقين وكتب الى المعتصم يستأذنه في أن يوفد اليه صيادلة على دين وخلق وعلم ، وأجاب المعتصم طلبه فيما روى « ابن أبي أصيبعة » .

هكذا وجد الطب العربي في النبات والكيمياء والصيدلة غذاء ، زاده حيوية وخصوبة وثراء ، وكان أخصب مجال زاول فيه الاطباء مهنتهم هو مجال المستشفيات ، فلنقف عندها قليلا :

في المستشفيات :

حرص الخلفاء والأمراء وأهل اليسار من المسلمين على اقامة المستشفيات (البيمارستانات) (١٢) دورا لعلاج المرضى ، ومعاهد لتعليم الطب ، والى جانب العام منها مستشفيات خاصة ببعض الأمراض ، كالجدام والأمراض العصبية والعقلية وغيرها ، وأقام العرب الى جانب هذا مستشفيات متنقلة Ambulance وفقا لانتشار الأوبئة والأمراض ، او لتصحب الخلفاء والأمراء في تنقلاتهم ، وزودوها بالأدوية وأنواع الطعام والشراب والصيادلة والأطباء .

وأما المستشفيات العامة فكانت بفضل الأوقاف التي تحبس عليها ، والأموال التي ترصد لها وتنفق عليها بسخاء ، في وفرة من الغذاء والكساء والأثاث والأدوية والأطباء والصيادلة والخدم ، وفي كل منها ساعور (مدير) يعاونه رؤساء الأقسام المختلفة والأطباء .

وكان نظام المستشفيات العربية في عصورها الوسطى أشبه ما يكون بنظامها في أيامنا الحاضرة ، من حيث وجود أقسام تختلف باختلاف الذكور والإناث ، وتتنوع بتنوع الأمراض ، ومن حيث استقبال المرضى ، والحاقهم بأقسامها أو علاجهم خارجها ،

منها ثلاثمائة لم يعرض لبحثها كتاب في الصيدلة من قبل ، وبرغم اعتماده على أسلافه ، فإنه يسجل - فيما يقول الدوميلي A. Miel - تقدما بعيد المدى ، وان لاحظ « جورج سارتون » G. Sarton أن تأثيره في أوروبا المسيحية لم يكن ملحوظا ، لأن كتبه قد نقلت الى أوروبا بعد أن فقد العلم العربي تأثيره في العالم الغربي ، ولكن تأثيره في العالم الاسلامي كان عظيما حتى أن كثيرين من الصيادلة قد سطوا عليه واستنسخوه .

وتمشيا مع تعاليم الدين وتقاليد كان على من يلى أمر المسلمين أن يكفل قيام المصالح العامة ، ولما كان من الصيادلة من يلتمس الربح الحرام بغش الأدوية ، فقد نشأ نظام الحسبة الذي يفرض الرقابة لمنع الغش ، وتوقيع العقوبة على من يسيء الى مصلحة الجمهور ، ومن هنا افتضت المصلحة فرض امتحان ومنح ترخيص بمزاولة المهنة لكل من يريد الاشتغال بالصيدلة - كما كان الحال مع الاطباء - كما سنعرف عند الحديث على التزامات الطبيب وآدابه .

وخضعت المهنة للرقابة ، وتعرضت حوايتها للتفتيش ، ذلك أن الافشين أحد قادة « المعتصم بن الرشيد » (ت ٢٢٩هـ / ٨٤٣ م) طلب الى طبيبه « زكريا الطيفوري » أن يعقد للصيادلة امتحانا لمعرفة « الناصح منهم » فقال الطبيب ان كيميائيا قال للمأمون يوما ان آفة الكيمياء هي الصيدلة ، فما يطلب أحد الى صيدلى دواء الا قال انه في حانوته ! وطلب الى المأمون أن يخترع اسما وهما ويرسل الى الصيادلة في طلبه ، فعاد الرسل ومع كل منهم دواء من بذور أو قطع أحجار أو وبر حيوان أو نحوه ، وكرر « الافشين » التجربة ، ثم استدعى الصيادلة جميعا ، ورخص بمزاولة

(١٢) كلمة فارسية . بيمار = مريض ، ستان = دار ولا اتمعت مواردها اقرت من المرضى الا المصابين بامراض عقلية ، واصبح المارستان مستشفى للمجانين وحدهم .

الناس ، في عصر كانت فيه أوروبا تحتقر الجراحين ، وتدخلهم في زمرة الجزارين والحلاقين (١٤) ويصدر البابوات بين الحين والحين منشورات بمنع مزاولتها ! وكانت مع الطب الباطني بمختلف فروعته تحارب من الكنيسة - ذات الحول والطول - بحجة انها تعاند قضاء الله !

وكان الطبيب عامة يدين بقيم أدبية يحسن بنا أن نقف عندها قليلا :

في التزامات الطبيب وآدابه :

كانت مزاوله الطب الى القرن العاشر لا تقتضى صاحبها أكثر من أن يقرأ الطب على طبيب نابه حتى يطمئن الى قدرته على امتحان الطب ، فيمارسه بغير قيد ولا شرط ، وشجع هذا على أن يباشر الطب من ليسوا من أهله ابتغاء الكسب الحرام ، ثم حدث عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م أن تسمع الخليفة المقتدر نبأ طبيب تسبب بجهله في موت مريض من عامة الناس ، فأمر المحتسب بمنع الأطباء من مزاوله المهنة ما لم يجتازوا امتحانا يعقده لهم « سنان ابن ثابت » (اوائل القرن العاشر الميلادي) وكتب له في ذلك بخطه ، وتقدم للامتحان في بغداد وحدها ثمانمائة وستون طبيباً - فيما قيل - باستثناء المعروفين من الأطباء ، ومن كان منهم في خدمة السلطان . ومنذ ذلك التاريخ تعين على من يريد أن يمتحن الطب أن يتقدم الى نقيب الأطباء في القطر المصري ، ويلتمس اليه أن يجيزه ويمنحه ترخيصاً بمباشرة المهنة ، وكان سبيل هذا أن يتقدم برسالة في الطب يكفل له النجاح فيها الحق في امتحان الطب .

والإشراف على غذائهم وراحتهم ، ونقايتهم . . فكان المرضى يترددون على العيادة الخارجية ويعالجون بالجان ، يبقى منهم بالمستشفى من يتطلب علاجه البقاء بالقسم الخاص بمرضه ، فإذا أقام المريض بالمستشفى نزعته عنه ثيابه وحفظت عند أمين المستشفى ، ثم البس ثياب المستشفى وقدم له ما يناسبه من غذاء وعلاج ودواء حتى يبرأ من مرضه ، وكل هذا بغير أجر . . . ومن أمكن علاجه خارج المستشفى صرف الدواء من صيدليته ، وإذا اقتضى المرض استشارة طبيب من غير القسم استدعى الى ذلك ، وكان على الطبيب أن يمر بالقسم الذي ينتمى اليه ويتفقد أحوال مرضاه ، ومن ورائه مساعده من الأطباء والمرضين وغيرهم ، فإذا فرغ من هذا مضى الى مكتبه بالمستشفى متفرغاً للقراءة وحده أو مع زملائه وتلاميذته ، ويتبادلون النقاش في شتى الموضوعات التي يقرأونها ، وقد أسفرت مجالس الطب عن كتب قيمة يتداولها الأطباء وينتفع بها طلاب الطب . (١٣)

وعن المسلمين في عصورهم الوسطى اخذ الفرييون المحدثون نظام مستشفياتهم ، بل سبق العرب الى اقامة مستشفيات للأمراض العقلية في وقت كان المصابون بها في أوروبا يكبلون بسلاسل من حديد ، ويسامون العذاب الوانا ، وأقام العرب أول مستشفى للجذام في مطلع القرن الثامن (٧٠٧ م) مع أن فيليب الجميل أمر في مطلع القرن الرابع عشر باحراق جميع المجذومين في فرنسا !

وكان أطباء العرب وجراحوهم موضع التقدير البالغ من « الخلفاء » والأمراء وعامة

(١٢) من أراد مزيداً من التفصيلات فليقرأ : د . أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الاسلام (١٩٣٩) .

(١٤) لا يزال الجراح في إنجلترا يخاطب بلفظ : السيد Mr. وليس بالدكتور !

وأمرضها ، ويبرعوا في تركيب الأكحال والعقاقير الضرورية لعلاج العيون ، وأن يستكملوا أدوات المهنة وآلاتها ، وأن يرعوا الله والضمير فيما يفعلون .

وهكذا التزم أطباء العرب في عصورهم الوسطى بقانون أخلاقي رفيع ، قوامه قسم « أبقرات » أبى الطب القديم ، وهو يتألف من قواعد صاغها وعاشها أطباء مصر القديمة (١٥) ، وتوارتها خلفاؤهم جيلا بعد جيل (١٦) وتبنى العرب عهد « أبقرات » فأورده مؤلفوه في صيغ تختلف عبارة وتتفق جوهرها ، بعد أن أضافوا إليه عناصر استمدوها من تعاليم دينهم فمن ذلك ما رواه « ابن أبى أصيبعة » عن « علي بن رضوان » (ت ٤٥٣ / ١٠٦١ م) نقيب أطباء القاهرة من أنه لخص الخصال التي أوجبها « أبقرات » على الطبيب في سبع ، منها كمال الخلق ، وتوافر العقل والقدرة على التذكر ، والحرص على كتمان أسرار مرضاه ، والاعتدال في تقدير أجره - وخاصة مع الفقراء - وطهارة البدن بحيث لا يطمع في شيء مما يراه في بيوت الأعداء من نساء أو أموال ، بل التعرض الى شيء منها ، والتعفف عن وصف دواء قتال أو صنعه ، والعزوف عن اسقاط الأجنة ...

وقد تبنت كليات الطب هذا القسم في عصرنا الحاضر ، أوجزت صيغته وبترت منه ما لا يلائم روح العصر الذي نعيش فيه ،

وكان الذي يجيز الرسالة يبدأ بحمد الله وتشكره ، ثم يعقب بامتداح الرسالة والثناء على الدراسة التي تضمنتها ، وتحديد فروع الطب التي يباح لصاحبها أن يشتغل بها ، فمن ذلك قول رئيس الجراحين بدار الشفاء المنصوري (قلاوون بالقاهرة) وهو يجيز في عام ١٠١١ هـ / ١٦٠٢ م رسالة شمس الدين محمد : « ... فاستخرت الله تعالى وأجزت له أن يتعاطى من صناعة الجراح ما أتقن معرفته ، ليحصل له النجاح والفلاح ، وهو أن يعالج الجراحات التي تبدأ بالبط ، ويقلع من السنن ما ظهر له من غير شرط ، وأن يفصد من الأوردة ويتر الشرايين ، وأن يقلع من الاسنان الفاسدة ... » .

وكان المحتسب يأخذ على الأطباء عهد « أبقرات » ، وسنتحدث عنه عند الكلام على عصر الترجمة - وهو يحرم افشاء الأسرار ، أو تقديم السم لعدو ، أو الارشاد بأجهاز امرأة حامل ، أو اعاقبة الرجال عن النسل ، كما يوجب على الطبيب مع مرضاه ان يفض الطرف عن المحارم ، وأن يستكمل آلات الطب التي تتطلبها هذه الصناعة ، وأن يلم بكتب الطب المعروفة ، ويقف على منافع (وظائف) الأعضاء ... ومما نلاحظه في هذا الصدد ان « حنين بن اسحاق » قد أوجب على أطباء العيون أن يجتازوا امتحانا في كتاب « العشر مقالات في العين » وأن يعرفوا تشريح العين

(١٥) يقول جارسون ان قواعد الاخلاق التي التزم بها أطباء مصر القديمة (قبل أبقرات بقرون) تشبه اعظم الشبه قسم أبقرات عاطفة وتعبيرا F. H. Garrison, Introduction to the History of Medicine, 1929, P. 57 وانظر W. Durant, The Story of civilization, Vol. I, p. 182.

وقد قال ما يشبه هذا مؤرخ العلم جورج سارتون

(١٦) فمن ذلك انهم أحسنوا معاملة المرضى بغض النظر عن طبقتهم الاجتماعية ، وخلصوا في العمل مهمة كان الخطر الذي يتهدد حياتهم ، فكان من هؤلاء الأطباء المصريين من تطوع لمكافحة الطاعون في الجزائر وبغير أجر ، فاذا استشهد سارع غيره من زملائه المصريين الى القيام بعمله .

كفرض مسئولية الطبيب المادية والادبية كاملة
عن أبناء أستاذه ! (١٧)

ووضع العرب في آداب الطبيب مصنفات
مختلفة في مقدمتها : المدخل لابن الحاج
(١٣٣٦ م) ومعالج القربى في أحكام الحسبة
لابن الأخوة (١٣٢٠ م) ... والتزم بهذه
الآداب جمهرة أطباء العرب لأنها تسائر تعاليم
دينهم ولا تتعارض معها ، فمن ذلك أن « حنين
ابن اسحاق » قد رفض أن يصنع السم
استجابة لأمر المتوكل ، ولم ينفع معه ترغيب
ولا تهديد ، وعد ولا وعيد ، وكان هذا - فيما
قال هو نفسه - ادعانا لما قضت به آداب
مهنته ، وتمسكا بتعاليم دينه ، وسنرى
القصة كاملة في ترجمة حياته فيما بعد .

ولا يعنى هذا أن الاشتغال بالطب قد خلا من
الدجل والاحتيال ، والا لما مست الحاجة الى
عقد امتحان للأطباء ، ومنح ترخيص بمزاولة
المهنة للصالح منهم ، ولا اقتضت الضرورة
فرض نظام الحسبة والرقابة على أعمال الأطباء
والصيادلة (١٨) .

هذه لمحة الى آفاق الطب العربى ، فى حقله
الوقائى ، وفى مجاله العلاجى ، مع اشارة الى
موقف أهله من بعض ميادينه ، ولا سيما طب

العيون والأمراض المعدية والتشريح والجراحة ،
ولفت النظر الى العلوم التى غدت تطوره ، من
نبات وكيمياء وصيدلة ، وحديث موجز عن
مجال مباشرته فى المستشفيات العربية ، وما
التزم به الطبيب العربى من آداب فى مزاولة
مهنته ... فلتكن الآن لقطاتنا :

٣ - من تطور الطب العربى عبر التاريخ

فى هذا الفصل نتبع - فى لقطات خاطفة -
الطب العربى منذ نبت فى عصره الجاهلى ، وهم -
بالنمو فى صدر الاسلام ، وازدهر فى عصر
الترجمة فى مطلع العصر العباسى ، حتى بلغ
ذروة أصالته فى المشرق والمغرب العربيين ، ثم
نتركه متى أشرف على عصر التدهور
والاضمحلال .

إذا توخينا أن نتخير لقطاتنا من ماضى الطب
العربى عبر تاريخه الطويل ، تبين لنا أن له
جذوراً تمتد الى ماضيه السحيق ، وأنه تعرض
خلال نموه للتأثر العميق بالطب الأجنبى
الدخيل ، واستمد منه الكثير من عناصر حيويته
ونضجه وتطوره ، فلنقف لبيان ذلك :

فى الجاهلية

عرف العرب فى جاهليتهم صنفين من

(١٧) صيغة القسم الذى يقسمه اليوم خريجو كليات الطب فى الجامعات المصرية هى : « أقسم بالله واشهده أن
أحترم مهنتى ، وأن اعتبر أساتذتى بمنزلة والديّ ، وأن اتبع فى العلاج الطريقة التى أؤمن أنها مجدية ومفيدة ، وأن أمتنع
عن كل ما هو ضار أو مؤذى ، ولا أعطى دواء قاتلاً أو أسدى نصيحة ضارة ، وسوف أفضى حياتى فى ممارسة فنى فى طهر
وقداسة ، وأن أحترم البيت الذى أدخله ، ولا أفشى سرا اطلعت عليه ، ولا أبوح بشئ يجب عدم الاجابة عليه مما اراه
أو أسمعه عن مرضى فى نطاق عملى ، وأن اعتبر هذه الأشياء من الأسرار المقدسة » .

(١٨) من ذلك ما رواه ابن أبى اصيبعة أن « ابن التلميذ » أمين الدولة (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) - نقيب أطباء
بغداد - قد لاحظ وهو يمتحن الأطباء أن بينهم شيخاً وقوراً كان يلتزم الصمت طوال الجلسة ، فسأله ابن التلميذ عن
السبب فى عدم مشاركته فى المناقشة ، فادعى الشيخ أنه على علم بكل ما قاله زملاؤه ، فسأله عن قراء عليه صناعة الطب ،
فقال : أن من بلغ من العمر ما بلغت ، لا يسأل عن شيوخه الذين ماتوا منذ زمن طويل ، بل الأحرى أن يسأل عن تلامذته ،
فسأله ابن التلميذ عما قرأ من كتب ، وكان على دراية بالعلاج دون معرفة بكتبه فقال : سبحان الله ، تسألني عما يسأل عنه
الصبيبة الصغار ، والخير أن تسألني عن مؤلفاتي فى هذه الصناعة ، لا بد أن أقدم نفسى اليك ، ثم نهض ودنا من ابن التلميذ
وقال له هامساً : يا سيدى قد كبرت سننى واشتهرت بهذه الصناعة ، وأنا أعول أسرة كبيرة ! فسألتك بالله يا سيدى ألا
تفصحنى أمام هؤلاء القوم ! فقال له هامساً : بشرط ألا تهجم على مريض بغير ما تعرف ، ثم التفت الى المتقدمين للامتحان
وقال بصوت مسموع : يا شيخ أعذرنا فما كنا نعرفك ، والآن قد عرفناك ، فامض فيما انت فيه ، ولا احد يعارضك بعد
اليوم !

والعرافة ، اذ لا كهانة بعد النبوة ، ولم يكن صناعة الطب الى رجال الدين ، فبطل الطب الذى يمارسه الكهان ، وتمهد الطريق الى طب خبرة أكثر وعيا ، وامتدح القرآن الكريم الحكمة ، والطب من ضرورها ، وسلم النبى بطب الأبدان وحث على الاشتغال به لمن استطاع اليه سبيلا ، قال يا عباد الله : تداووا فان الله لم يضع داء الا وضع له دواء ، الا واحدا هو الهرم ، وورد في حديث نبوى ان العلم علمان ، علم الأديان ، وعلم الأبدان . فارتفع الطب بهذا الى مرتبة تدنو من مرتبة الدين .

ولكن العرب - فيما يقول « صاعد الاندلسى » (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) في طبقات الأمم : « لم يعنوا في صدر الاسلام بشيء من العلوم الا ما انصل بلفتهم واحكام شريعتهم ، مع استثناء علوم الطب ، فانها كانت معروفة لأفراد منهم ، غير منكورة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس اليها في حياتهم » ، فاستمر طب الأبدان قائما في ظل الاسلام وفي رعاية نبيه (ص) بل أثرت عن الرسول مجموعة من الأحاديث النبوية تبلغ نحو الثلاثمائة حديث ، شكلت ما سمي بالطب النبوى ، وكانت تنظم على قواعد للصحة ، وطرق لمعالجة بعض الأمراض ، واتخذ أكثر هذه الأحاديث صورة جوامع الكلم (٢٠) وقد أوصى النبى بالاعتدال في المأكول والمشرب ، وأوجب الاستحمام وحث

الطب : طبأ هيأته لهم معتقداتهم الدينية فنهض به الكهان والعرافون ، واستخدموا فيه الرقى والتعاويذ وذبح الذبائح حول الكعبة ، والتوجه بالدعاء الى الآلهة التماسا للشفاء ، وتوصلوا مع هذا الى طب هدتهم اليه خبرتهم اليومية ، واستعانوا فيه بالعقاقير وكان أكثرها مستمداً من النبات ويؤخذ شرابا ، وكان العسل كثيرا ما يستخدم في علاج الأمراض الباطنة ، وفي الجراحة استخدموا الحجامة والفصد واكثروا من الكى بالنار ، فقامت النار عندهم مقام المطهرات في الطب الحديث ، وقد استعانوا بها في جراحات البتر وغيرها .

وأطلق العرب في جاهليتهم لفظ الحكماء على الاطباء الذين يعالجون ما يعرض للأبدان من أمراض ، وعلى القضاة الذين يفصلون فيما ينشب بين الناس من نزاع ، وكان الحكيم عندهم يجمع بين العلم والتجربة والنفوذ ، وكان من هؤلاء « الحارث بن كلدة » (١٩) (ت ١٣ هـ ٦٣٤ م) ومن جراحهم « ابن أبى ريمثة » ، ومن بيطريهم « العاص بن وائل » .

في صدر الاسلام

وهكذا يبدو أن صناعة الطب لم تكن بمستنكرة عند جماهير العرب في الجاهلية ، رعاية للصحة وعلاجاً للأمراض ، فلما اعتنقوا الاسلام لم يجدوا في الاشتغال بالطب خطرا يتهدد عقيدتهم ، وبطل الاسلام الكهانة

(١٩) من حكم الحارث الماثورة : دافع بالدواء ما وجدت مدفعا ، ولا تشربه الا من ضرورة ، فانه لا يصلح شيئا الا فسد مثله ، وقال عند احتضاره : لا تتزوجوا النساء الا من شابة ، ولا تاكلوا الفاكهة الا في اوان نصجها ، ولا يتعالجن احدكم ما احتمل بدنه الداء ، وقد نهى عن الاستحمام بعد الطعام ، وأوصى بالتخفيف من الديون والهموم ، وسأله معاوية : ما الطب يا حارث ؟ قال الأزم (الجوع) يا معاوية ، سألوه عن الدواء قال : ما لزمك الصحة فاجتنبه ، فان حاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ، فان البدن بمنزلة الأرض اذا اصلحتها عمرت ، واذا تركتها خربت ... ويكفى هذا نموذجا لطب الخبرة في الجاهلية .

(٢٠) منها : المعدة بيت الداء ، والحمية (الجوع) بيت الدواء ، اصل كل داء البرد (أى ادخال الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم ما فيها) - الافراط يسبب المرض ، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، واذا اكلنا لا نشبع ، اذا سمعتم بالطاعون بارض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بارض واتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ... وقد وضعت كتب في الطب النبوى منها كتاب الحافظ أبى عبد الله الذهبى ، وكتاب ابن قيم الجوزية الحنبلى (ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) وكتاب الأحكام النبوية في الصناعة الطبية لأبى الحسن الحموى .

قائما طوال صدر الاسلام ، وفي العصر الاموى اتصل العرب بمدرسة الاسكندرية القديمة ، وكانت قد أسهمت في نقل العلوم اليونانية الى العرب ، وكان لمؤلفات علمائها تأثيرهم الملحوظ في دراساتهم الأولى ، وفي مقدمتها كتب طبية ترجمت مبكرا الى السريانية والعربية .

لكن اول نقل في الاسلام - فيما يقول ابن النديم - كان في عصر خالد بن يزيد (ت ٨٥ هـ ٧٠٤ م) وقد أسلم الطبيب الاسكندراني « ابن أجرة » على يد أئق بنى أمية « عمر بن عبد العزيز » (ت ١٠١ هـ / ٧٢٠ م) وصحبه واستطبه واعتمد عليه في صناعة الطب ، - فيما يروى ابن أبى أصيبعة - وقيل ان أول من أقام في الاسلام مستشفى هو « الوليد بن عبد الملك » (ت ٨٨ هـ) واشتهر في العصر الاموى أطباء من أشهرهم « زينب » طبيبة بنى واد ، وكانت خبيرة بالعلاج ومدواة امراض العين ، مع براعة في الجراحة .

واقبل عصر بنى العباس في منتصف القرن الثامن للميلاد ، فكان فاتحة عهد جديد في اتصال الطب العربى بالطب الأجنبى - ولا سيما اليونانى والهندي ، ومن هنا كان تطوره ونضجه وازدهاره :

في عصر بنى العباس :

(١) عصر الترجمة :

بدأ عصر النضج والازدهار في الطب ، وغيره من آفاق المعرفة ، بحركة ترجمة واسعة النطاق ، نقل العرب خلالها تراث السابقين من الأمم المتحضرة ، من منتصف القرن الثامن حتى أواخر القرن التاسع للميلاد ، حين بدأ الانتاج الأصيل المبتكر على نحو ما سنعرف بعد . وكان « كسرى أنوشروان » + ٥٧٨ قد أنشأ في مدينة جند يسابور - بقرب الأهواز في

على النظافة لأنها من الإيمان ، وواصل ما كان معروفا في الجاهلية من استخدام العقاقير التي تؤخذ في العادة شرابا ، وقوامها المسسل ، وأبقى على الكى والفصد والحجامة ...

ولكن الى أى حد يصدق الطب النبوى ؟ لقد كان النبي يصدر عن وحي فيما يتصل بشئون الدين ، « وما ينطق عن الهوى » ولكنه كان يقتضى برأيه في شئون الدنيا ، فتحتمل فتواه الصواب والخطأ ، وإذا أثبتت التجربة خطاه قال لمحدثيه : انتم اعلم بشئون دنياكم .

ويبدو أن الطب النبوى من هذا النوع الذى يحتمل الصواب والخطأ ، وقد فطن الى ذلك « ابن خلدون » (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) فأشار في مقدمته الى ان للبادية طباً ينبئ في غالب الامر على خبرة بعض الأفراد ، ويتوارثه الناس عن مشايخ الحى وعجائزه ، وان هذا النوع من الطب يصدق أحيانا ولكنه لا يجرى على قانون طبيعى ، ثم يقول ابن خلدون : « والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل ، وليس من الوحي فى شيء ، وانما هو امر كان عاديا للعرب ، ووقع في ذكر احوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع احواله التى هى عادة وجيلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل ، فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلما الشرائع ، ولم يبعث للتعريف بالطب ولا غيره من العاديات ، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع ، فقال انتم اعلم بأمور دنياكم ، فلا ينبغى أن يحمل شيء من الطب الذى وقع في الاحاديث المنقولة على انه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه ، اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك ، وصدق العقد الايماني ، فيكون له أثر عظيم في النفع ... » (٢١)

والطب الذى عرف أيام النبي قد استمر

خلالها أطباء البلاط ومعلمي الطب ، وكانت أكبر خدماتهم للطب العربي أنهم نبهوا العرب الى علم لم يكن قد استكمل علميته بعد ، ولم يكونوا هم على دراية كافية به ؛ وأن مدرستهم قد خرجت من أعلام الطب في باكورة حياته عمالقة من أمثال « يوحنا بن ماسويه » ، و « حنين بن اسحاق » .

وقد بولغ في شهرة جند يسابور في الطب (٢٣) ولعل مرد هذا الى أنهم أغراب على غير ملة أهل البلاد (٢٤) ، حتى اذا كان عصر المأمون أخذت جند يسابور تفقد أهميتها كمدرسة للطب ، واذا كان القرن الثالث (التاسع للميلاد) هو العصر الذهبي للنصارى من المترجمين ، فقد كان القرن الذي تلاه العصر الذهبي لنشاط العرب .

وقد أوفد خلفاء المسلمين وأمرؤهم وأهل اليسار منهم بعوثا الى مواطن الطب العلمي في اليونان وغيرها لجمع المخطوطات الطبية ، وشجعوا على نقلها الى لغة العرب وأجزلوا للمترجمين العطاء - على نحو ما سنعرف في سيرة « حنين بن اسحاق » .

إيران - مدرسة لتعليم الطب ، ومستشفى لعلاج الأمراض ، تحت إشراف النساطرة (٢٢) ، واستقدم اليها الأساتذة من اليونان والهنود ، واشترط فيمن يتولى التدريس بها أن يجيد اليونانية حتى يتسنى له الاطلاع على كتب اليونان في صناعة الطب ، وكان الطب يدرس في هذه المدرسة نظريا وعمليا في مستشفى كان فيما بعد نموذج الدراسة في العالم الاسلامي ، وفيها تفاعل علم اليونان والسريان والفرس والهنود ، وكان لهذا كله صدى في الطب العربي فيما بعد .

واستطارت سمعة جند يسابور ، فلما أصيب المنصور (ت ١٥٩ هـ / ٧٧٥ م) ثاني خلفاء العباسيين بمرض أفقده شهيته للطعام ، وأخفق في علاجه أطباؤه ، استقدم من تلك المدرسة الى بغداد عام ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م جورجيس بن يختيشوع + ٧٧١ م رئيس أطباء جند يسابور ، ووفق هذا في علاج المنصور فأبقاه في بلاطه طبيا له ، ومنذ ذلك الحين احتل ستة من أسرة يختيشوع مكانهم عند الخلفاء نحو ثلاثة قرون من الزمان ، كانوا

(٢٢) انشأها ملك الفرس شابور الأول + ٢٧١ م ، ولما أغلق جستنيان مدرسة أثينا عام ٥٢٨ م فر فلاسفتها وعلمائها الى فارس ، واحسن كسرى استقبالهم وحثهم على التأليف والترجمة في الطب وغيره ، وفتحها العرب عام ١٧ هـ / ٦٣٨ م . أما النساطرة الذين أشرفوا على هذه المدرسة فقد ترجموا الكثير من كتب اليونان من اليونانية الى السريانية ، وكانوا أكبر من نقلوا تراث اليونان الى فارس ، وحملوه الى دول الاسلام في اول عهد المسلمين بالعلوم الدخيلة ، يقول القعطي في اخبار الحكماء : « ولم يزل امرهم يقوى في العلم ويتزايدون فيه ، ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى امزجة بلدانهم حتى برزوا في الفضائل ، وجماعة يفضلون علاجهم وطريقتهم على اليونانيين والهنود ، لانهم أخذوا فضائل كل فرقة ، فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، فرتبوا لهم دساتير وقوانين وكتبه جمعوا فيها كل حسنة » .

(٢٣) لم يستدع المنصور جورجيس الا بعد مشورة من أطبائه الذين قالوا عنه انه أقدر أهل زمانه ، وحينما استدعى الرشيد ابنه يختيشوع لمالجته ، أوعز الى أطبائه ان يمتحنوه ، فقال له أكبرهم سنا ان احدا منهم لا يستطيع ان ينافسه في الطب ، لانه سليل أسرة جميع أفرادها فلاسله وأطباء ، فعهد الخليفة الى امتحانه بنفسه ، وطلب الى احد أتباعه ان يجيء ببول حيوان ، وزعم انه لاحد محطياته ، ففحصه يختيشوع جيدا ، ثم قال للخليفة : ان هذا ليس بول انسان ، الا اذا كان الانسان قد تحول الى حيوان ! فصحك الخليفة وساله عما ياكل المريض ، فقال يختيشوع انما للكتنة : الشعر يا سيدى ! وهكذا بولغ في براعة هذه الأسرة .

(٢٤) روى الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م) في كتاب البخله عن الطبيب المسلم اسد بن جاني انه قال معللا ما أصابه من كساد ، ان الطبيب لا يكون (في عصره وبلده) موضع ثقة من الناس ، الا متى كان مسيحيا ، يحمل اسما سريانيا ، ويتحدث بلهجة سريانية ، ويلبس رداء من الحرير (وهو محرم على المسلم) ويقوم بالتدريس في المدرسة السريانية الفارسية المشهورة (جند يسابور) .. !

تشارلس سينجر Ch. Singer : « ان مؤلفات أبقراط وجالينوس لم يعد لها مكان في مقررات الطب في معاهد اليوم ، ولكن من يقف عليها يتبين أنها ليست سارية في طب الغربيين فحسب ، بل انها لا تزال تشكل بطانة الطب في عصرنا الحديث ، ولا يزال المعاصرون من الأطباء الغربيين يستخدمون التعبيرات اليونانية كلما جلسوا على كنب من سرير مريض ، ومن الحق أن يقال ان الطب الحديث في جوهره من خلق اليونانيين (٢٥) وكانت أكبر مميزات الطب اليوناني في عصره الذهبي (ق ه ق م) انه رفض رد الأمراض الى الشياطين، وتوخى البحث عن عللها الطبيعية ، فتأدّى به هذا الى دراسة أعضاء الجسم ووظائفها ، فتقدم بهذا علم الجراحة على يد اليونان فيما يقول العلامة الأثرى « برستيد » وارتفع الطب على يدهم الى مستوى لم يتجاوزه في أيامنا الحاضرة الا في الجزئيات والمعلومات الخاصة (٢٦) .

وعلى يد أبقراط - المؤيد بتأييد الهى فيما ظن ابن أبى أصيبعة - اتسم الطب بالنزعة العلمية ، لأنه رفض الأوهام وشك في الخوارق ، وأبعد الطب عن الدين والفلسفة ، وتوخى الصبر في ملاحظة الحقائق والدقة في تسجيلها - فيما يقول جورج سارتون - وزاد فارتفع بمهنة الطب حين أكد جانبها الاخلاقى في قسم اشرنا اليه عند الحديث على التزامات الطبيب وآدابه .

وكانت الاسكندرية أعظم مركز للطب في العالم القديم وفي رحابها عاش « جالينوس » الذى سيطر على الطب في مشارق الارض ومغاربها ، حتى عصر النهضة الاوربية ، وكان تراثه دائرة معارف في كل فروع الطب والتشريح والجراحة والصيدلة . . . وبسبب عكوفه على تشريح الحيوانات نضجت معرفته

ومنذ القرن الاول من خلافة بنى العباس اتجه المترجمون خاصة الى ترجمة الكتب الطبية (من اليونانية الى السريانية ، ومن السريانية الى العربية) وكان في مقدمة هؤلاء « جورجيس ابن بختيشوع » + ٧٧١ م) وحفيده جبريل + ٨٠٠ م « وتيوفيل بن توما » الرهاوى + ٨٧٥ م « وأبو يحيى البطريق » (ت ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ويوحنا بن ماسويه + ٨٥٧ م الذى درس في جند يسابور ، وشارك في الترجمة من السريانية ، وأسهم في التأليف ، ومارس الطب على طريقة آل بختيشوع .

وظهر شيخ المترجمين « حنين بن اسحاق » + ٨٧٧ ومدرسته التى كان من اعلامها ابنه اسحاق وابن اخته « حبش بن الأعثم » ، واصطفان بن بسيل الذى كان اول من ترجم كتب « ديسقوريدس » في الأقرباذين ، ونسبت اليه اول ترجمة لكتب أوريباسيوس (Oribaseus) الذى لمع في النصف الثانى من القرن الرابع .

وكان أكبر نبع نهل منه المترجمون الى العربية طب اليونان ، ممثلا في تراث أبى الطب القديم « أبقراط » + ٣٧٧ ق م Hippocrates وإمام الطب في عصر الاسكندرية « جالينوس » + ٢٠١ م Galenus ، ولما كان الطب العربى - فيما يقول بعض المستشرقين - قد نما ونضج وتطور في جو من الإعجاب بأبقراط ، وبالهام مباشر من « جالينوس » ، كان اغفال الحديث عن تراثهما ، يفضى الى الجهل بتاريخ الطب عامة ، والعربى منه بوجه خاص ، ولهذا وجب أن نقف عندهما قليلا :

نقل اليونان طب مصر وبابل ، وارتفعوا باضافاتهم له الى ذروة الطب القديم ، يقول

1. The Legacy of Greece, P. 248, Oxford Clarendon Press, 1921.

(٢٥)

(٢٦) الدوميلي : العلم عند العرب ص ٥١ - ٢ .

عليها ، اكرهتهم على احترامه وتقدير جهوده ، وقد عينه المأمون رئيساً لبيت الحكمة الذي نهض بترجمة التراث الدخيل ، واضطلع حين بترجمة مجموعة ضخمة من مؤلفات « جالينوس » وغيره ، فما كانت سنة ٨٥٦ م حتى كان - فيما يقال - قد ترجم خمسة وتسعين كتاباً الى السريانية ، وتسعة وثلاثين كتاباً الى العربية ، الى جانب ما صححه وراجع من ترجمات تلامذته ، وهى ست الى السريانية ، ونحو سبعين الى العربية ، بل راجع وصحح معظم الخمسين كتاباً مما ترجمه الى السريانية « سرجيوس الراسعيني » وغيره ، وذلك الى جانب تأليفه فى طب العيون وغيره من فروع الطب ، وكان ماثراً اهتمام من كبار المستشرقين المحدثين من أمثال برجستراسر Bergstrasser وماكس مايرهوف ولوسيان لوكير وهيرشبرج وغيرهم .

ولم تكن الترجمة الى العربية بالامر الهين اليسور ، اذ ضمت الكتب التى ترجمها مئات المصطلحات التى لم يكن يعرف لها فى العربية مقابل ، ولهذا كان كثيراً ما يضع المصطلح بنصه الاصلى فى العربية ثم يعقب بشرحه وتفسيره ، وأبدى فى هذا تمكناً وقدرة على فهم المصطلحات ومعرفة معانيها ، وان كان المتأخرون من الناسخين قد حرفوا الكثير منها ، لأن تنقيط الحروف لم يكن مستعملاً على الدوام فى عصر « حنين » ، وفى القرون التى أعقبته ، وكان فوق هذا يلتزم الدقة ويتوخى الامانة فيما ينقل ، فكان يجمع كل ما تيسر له من نسخ المخطوط الذى يعتزم ترجمته ، ويصنفها ويقابل بين بعضها والبعض الآخر ، وقد يقارنها بترجمتها فى السريانية ، ثم يستخرج مما تحت

بالجسم الانسانى ووظائف أعضائه ، وكان أكبر من أذاعوا علمه الطبيب البيزنطى اوريباسيوس Oribasius الذى لمع فى النصف الثانى من القرن الرابع ، كما أشرنا من قبل ، وكان أعظم اطباء عصره ، وقد عاش تراث « جالينوس » فى اللاتينية واليونانية والعربية (٢٧) ونقل العرب مؤلفاته فكانت المرجع الرئيسى المعصوم من الخطأ ! وكان بهذا أرسطو الطب فى العصور الوسطى .

فلا عجب بعد هذا كله أن كان الطب اليونانى اعظم نبع نهل منه العرب فى عصورهم الوسطى ، وكانت العلوم اليونانية قد شاعت قبل الاسلام فى المنطقة التى تتكلم السريانية والفارسية الوسطى فى مجموعة من المدارس ، منها مدرسة الرها ، ولما أغلقها امبراطور بيزنطة عام ٤٨٩ م فر علماءها الى فارس واستقروا فى مدرسة جند يسابور (٢٨) التى عرفنا من قبل تأثيرها فى الطب العربى .

هذه هى اكبر مصادر الطب العربى التى عكف على نقلها الى العربية المترجمون منذ مطلع العصر العباسى ، ولمزيد من الضوء على عصر الترجمة نقف قليلاً عند :

شيخ المترجمين حنين بن اسحاق : (٢٩)

درس الطب فى مدرسة جنديسابور السالفة الذكر ، وتلمذ على « يوحنا بن ماسويه » رئيس بيت الحكمة فى ذلك الوقت ، وكان أساتذة جند يسابور يكرهون أن يزاول الطب أبناء التجار من أمثال « حنين » ، ولكن مهارته فى اللغات الأربع : السريانية والفارسية واليونانية والعربية ، مع حبه للدراسة ودأبه على العمل وقدرته على الترجمة التى من

(٢٧) جورج سارتون : العلم القديم والحديثة الحديثة ص ١٧٩ (ترجمة عبد الحميد صبره) .

(٢٨) بحث ماكس مايرهوف فى انتقال التراث « من الاسكندرية الى بغداد » ترجمة د . عبد الرحمن بدوى فى كتابه « التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية » - القاهرة ١٩٤٠ .

(٢٩) ولد عام ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م ومات عام ٢٦٤/٨٧٧ م

يده نسخة صحيحة ينقلها الى العربية ، ويقول « وهذه عادتى التى اتبعتها فى كل ما ترجمته » .

وحين بلغ « حنين » الثلاثين من عمره ، ضاق بكل ما ترجم فى صباه ، وعمد الى اصلاحه او اعاده ترجمته ، كما كان يفعل بترجمات بعض أقرانه ممن كانوا يترجمون تحت إشرافه ، وكان المأمون قد عينه رئيسا لبيت الحكمة - الذى قيل انه أنشئ عام ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م - وكان قد أوفده مع آخرين للبحث عن مخطوطات يونانية ، وكان الخلفاء وكبار رجال البلاط يتحملون فى العادة نفقات هذه الرحلات ، ويدفعون فى الكتب النادرة أغلى الاتمان ، وكان فى مقدمة من عينهم المأمون للترجمة تحت إشراف « حنين » : الحجاج ابن مطر وابن البطريق وغيرهما ، وجرى الحال على هذا بعد المأمون ، فعين المتوكل مترجمين يعملون تحت إشرافه منهم اسطفان بن باسيل وموسى بن خالد الترجماني ويحيى بن هارون ، وكان حنين يقوم بمراجعة ترجماتهم وتصحيح أخطائها .

وبرزت كفاءة حنين حتى أخرجت حساده ، وردتهم الى الإفراط فى تقديره ، ونال حظوة عند جبرائيل بن بختيشوع وأستاذه يوحنا بن ماسويه ومنافسه علميا سلمويه بن ننان الذى عين بعد ممات المأمون عميدا لأطباء المعتصم .

ومع استثناء محنتين تعرض لهما أيام المتوكل (٣٠) ، أصاب حنين حظوة عند الخلفاء

قبلهما وبعدهما بعشرين عاما (٣١) . وقدر له أن ينقل خلال هذا الزمن الطويل الحافل بالنشاط والعمل ، فيضا من الكتب التى ضمت تراث الطب القديم بوجه خاص ، وبمثل هذه الدقة والأمانة انتقل تراث اليونان الى العربية ، وما عرف فى العربية من أخطاء فى الترجمة مرده الى أخطاء وقع فيها المترجمون الى السريانية من غير العرب ، ولم يكن هذا حال الترجمة من العربية الى اللاتينية حين انتقل الى أوروبا تراث العرب ، تشهد بهذا الموازنة بين ترجمات حنين ومدرسته ، وترجمات « قسطنطين الافريقى » + ١٠٨٧ م اول رائد لحركة الترجمة من العربية الى اللاتينية فى صقلية ، او « جيرار الكريموني » + ١١٧٨ م اكبر واشهر المترجمين فى حركة الترجمة فى بلاد الاندلس .

وقيل ان جالينوس كان يستهدف تحويل الطب الى علم دقيق (exact Science) شبيه بعلم الفلك والعلوم الرياضية ، وأن « حنينا » هو الذى طبع اللغة العربية ، الى حد ما ، بطابع الاسلوب العلمى على عهد العباسيين . وكان كتابه العشر مقالات فى العين أقدم مؤلف اصطنع المنهج العلمى فى طب العيون ، وقد زوده بأول رسوم شائعة عرفت فى تشريح العين ، وكانت أدق من مثيلاتها فى الكتب الاوربيه فى القرون الوسطى - فيما يقول

(٣٠) انكشفت غمته التى سنشبر اليها فى الهامش التالى عام ٢٤٤ هـ وبقي بعدها موضع تقدير من الخلفاء : المنتصر بالله (٢٤٨ هـ) والمستعين بالله (٢٥١ هـ) والمعتز بالله (٢٥٥ هـ) والمهتدى بالله (٢٥٦ هـ) والمعتمد على الله (٢٧٩ هـ) وفى عهده مات حنين ٢٦٤ هـ على أرجح الأقوال .

(٣١) أراد المتوكل ان يختبر أمانته خشية ان يفدر به ، فخلع عليه ووعده باقطاع ما يعادل خمسين ألف درهم ، ثم طلب اليه ان يُعَيِّنَ سما يقتل به عدوا ، فأبى حنين ، ولم يردده عن امتناعه وعد ولا وعيد ، فحبسه الخليفة عاما قضاه فى الدرس غير مكترث ، فاستدعاه الخليفة وأوهمه انه مقبل على قتله ، فقال : لى رب يأخذ بعنى فى اليوم الأعظم ... فابتسم الخليفة وسأله عن سبب امتناعه ، فقال : الدين ، وقسم الأطباء - وبعد بضع سنوات وشى به حساده فعذب الخليفة وصادر أملاكه واعتقله ستة شهور عذب خلالها بالسياط ، ومرض الخليفة فلم يفلح فى علاجه سواه ، فعفا عنه وعاقب حساده ، ورد اليه أملاكه وكافاه من أموالهم وأمواله بما يعادل أكثر من ربع مليون درهم ، ومنحه اقطاعا ورأبى شهريا بلغ خمسة عشر ألف درهم ، وبرغم هذا كان حنين فى مجده رحيما بخصومه وحساده .

مجموعة أخرى من المؤلفات الطبية تتناول غذاء المرضى الناقهين ، وأعراض الأمراض ، والنبض والبول والحمى وعلم الصحة وغير ذلك .

ولكن من هذا التراث الضخم كتبنا كثيرة نحت عليه خطأ ، وكان كثير من مؤلفي الرسائل الطبية يعمدون الى وضع اسم « حنين » عليها ترويجا لها بين القراء .

وكان حنين مع هذا الفيض من مترجمات ومؤلفاته طبيا ممتازا وكحالا - طبيب عيون - لا نظير له ، وكان كتابه « العشر مقالات في العين » ، مرجعا يمتحن فيه الطالب الذي يتقدم لاجاز اجازة ، والحصول على ترخيص بمزاولة المهنة .

كان حنين حركة دائبة اتصلت بعد وفاته على يد تلامذته ممن غدوا النهضة العلمية وبعثوا فيها الحياة ، وصدق المستشرق الفرنسي « لوسيان لوكير » حين قال انه ربما كان أعظم شخصية أنجبها القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وانه كان من أساطين الفكر الذين يتميزون بحدة الذكاء وسمو الخلق ، وإذا قيل ان النهضة العلمية في المشرق لا تدين بوجودها له ، لما كان أحد سواء أوفر منه عملا على إيجادها .

وباتتهاء مدرسة حنين في الترجمة ، بدأ عصر الإنتاج الخصب في المشرق العربي منذ أواخر القرن التاسع حتى بلغ عصره الذهبي في القرن الحادي عشر ، ثم أخذ في التناقص من بدء القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر ، حين بدأت مرحلة تدهور واضمحلال افتقد فيه الإنتاج الأصالة والابتكار ، أما في المغرب العربي (بلاد الأندلس) فقد ازدهر الإنتاج في ميادين الطب وغيره أبان القرنين العاشر والحادي عشر ، وبلغ عصره الذهبي في القرن الثاني عشر للميلاد ، ثم أخذ في التناقص أبان القرن الثالث عشر ، وبدأت بعده مرحلة تدهور واضمحلال .

ناشره ومترجمه طبيب العيون « ماكس مايرهوف » .

وإذا كان من النقاد - من أمثال سيمون - من زعم أن ترجمات حنين وحبيش بن الأعشم مليئة بفقرات منتحلة غريبة عن الأصل ، وأن طريقتهما تفتقر الى الأناقة أحيانا ، فإن برجستراسر Bergstrasser أستاذ اللغات السامية في جامعة ميونيخ ، وأعظم حجة في تراجم حنين العربية ، يصرح بأن حنينا وحبيشا - وهو أحسن تلامذته - قد احتملا عناء كبيرا في التعبير عن المعاني اليونانية ، وحرصا على أن يكون تعبيرهما واضحا ، وتوخيا الترجمة الحرفية ولو جاء هذا على حساب الأسلوب الجميل ، حرصا منهما على الدقة في نقل المعاني اليونانية ، وترجماتهما تشهد بسيطرة كاملة على اللغة ، تمرب عنها القدرة على التوفيق بين العربية واليونانية ، والدقة في التعبير الموجز ، وهذا هو المشاهد على فصاحة حنين ، وقد أشرنا الى صعوبة الترجمة في عصره .

وبرغم ما عرف عنه من أمانة وتعفف ، استغل سخاء المأمون مع المترجمين ، إذ كان المأمون يمنحه وزن ترجماته ذهباً ! فعمد حنين الى كتابة ترجماته على ورق سميك ثقیل الوزن ، وتوخى أن يكبر الحروف ويوسع ما بين الأسطر حتى تعظم مكافأته من الذهب !

وكان حنين الى جانب ترجماته مؤلفا ممتازا ، كتب كثيرا بالسريانية حينا وبالغربية حينا ، وذكر ابن أبي أصيبعة أن له في العربية أكثر من مائة كتاب في شتى فروع الطب ، وردد ذلك الفرنجة من أمثال لوسيان لوكير Leclerc ، وفي مقدمة كتبه كتابان كانا أساس ما وضع في الطب العام من مؤلفات ، هما كتابا المسائل في الطب ، وطب العيون ، وكان أولهما مدخلا للطب العام في صورة أسئلة وأجوبة ، كما وضع

(ب) عصر الانتاج الاصيل :

بحركة الترجمة السالفة الذكر ، تهيأ للعرب تراث الطب القديم ، فمكفوا على دراسته حتى استوعبوه ، ثم أخذوا في تنسيقه أبوابا وفصولا ، وزادوا فعرضوا للكتب التي ترجموها بالتفسير والتحليل ، وتولوها بالنقد والتمحيص ، فكشفوا عن الكثير من أخطائها ومواضع الضعف فيها ، وجاء هذا في ضوء فيض من الخبرات والتجارب التي عاشوها ، ولم تسلم من هذا التمهيع الواعي مؤلفات أئمة الطب القديم من أمثال إبقراط وجالينوس ، وخلال تفسير هذا التراث وتمحيصه والكشف عن مواطن القوة ومواضع الضعف فيه ، أضافوا إليه ثروة من الحقائق التي تكشف عنها دراساتهم التجريبية الواعية ، وكان في مقدمة هؤلاء الاعلام : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي - جالينوس العرب فيما كان يسمى - وقد كان من عادته ان يدون في أوراق كل ما يقتبسه من الكتب الطبية التي يقرأها ، ثم يدمجها - متى سلّم به - في فيض من خبراته الشخصية في مؤلفاته ، وفي مقدمتها « الحاوي » ، بل كان لا يفرق بين اقتباساته عن الآخرين ، وملاحظاته السريرية التي استقاها من مرضاه وهم على أسرة المرض ، فكان معجمه الطبى من امهات مصادر الطب حتى العصر الحديث - وسنعود الى الحديث عن الرازي بعد قليل .

وكان من اعلام مؤلفى الطب الرئيسى « أبو على عبد الله بن سينا » (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) إبقراط العرب فيما كان يسمى - وقد استوعب تراث الاقدمين ونهض بتنسيقه وتبويبه ، وزاده خصوبة وثناء ، وخاصة في كتاب « القانون » الذى يعد معجما في مختلف فروع الطب ، ويتميز بالوضوح والدقة والخصوبة ، فكان اكبر مصادر الطب حتى

مطلع العصر الحديث في أوروبا ، وقد سيطر « ابن سينا » على الطب في الشرق والغرب قرونا ، وجمد الطب بعده ولم يجازف أحد في أوروبا بمناقشته زمنا طويلا ، وان وجد بين أطباء العرب من أمثال البغدادي وابن النفيس (في القرنين الثانى عشر والثالث عشر) من ناقشه الحساب . وازدهر الطب العربى وتطور في المشرق على يد الرازى وتلميذه علي بن عباس المجوسى (٣٥٤ هـ / ٩٦٤ م) وابن سينا وفى المغرب على يد أبى القاسم خلف الزهراوى (ت ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م) أمير الجراحة فى العصور الوسطى ، وأسرة ابن زهر التى مارست الطب نحو قرن ونصف قرن من الزمان ، وكان اكبر افرادها أبو مروان عبد الملك ابن زهر (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) وهو يعد أعظم طبيب سريرى - بعد الرازى - يباشر علاج المرضى فى المستشفيات .

وقد اعتمد هذا الطب العربى على تراث يونانى وهندى وإيرانى ، ولكنه كشف عن مصدره العربى الأصيل ، وواصل السير فى آثاره الهامة فى اتجاهه نفسه « وكان فى كثير من الأحيان يوفق فى تنمية النظريات والأفكار المستمدة من الآثار القديمة وشروحها ، وكان فى الأغلب ينشئ صنوفا من الشروح ، ويوسع المبادئ والنظريات القديمة ويبسطها ، مع عرضها فى أكثر الأحيان فى صورة أكثر وضوحا وحنقا ، وأعظم دقة وعمقا ... ومن الخطأ - فيما يقول الدومبيلي - أن « نلن أن العرب لم يضيفوا شيئا جديدا الى العلم الذى كانوا أوصياء عليه ، بل على النقيض من ذلك ، واذا كانت خطوات التنمية والانضاج التى خطوها فى هذا السبيل كثيرا ما ضاعت وتفرقت فى الحشد الكبير من الكتب التى تركوها ، فليست تلك الخطوات أقل أصالة ولا أبعد عن الواقع

ضمنه فيضا من ملاحظاته السريرية (الكلينيكية) جمعها بطريقته في مزاولة صناعة الطب ، وممارسته لعلاج مرضاه ، وهم على أسرة المرض - كما أشرنا من قبل - فكان اذا فحص مريضا شخص مرضه ، وحدد علاجه ، وأخذ يلاحظ في دقة سير المرض وتأثير العلاج ، ويسجل ملاحظاته أولا بأول ، ومن أجل هذا قيل أن التعمق في دراسة الحاوي تقف الباحث على تاريخ العلاج العلمي في المستشفيات العربية ، ويؤيد هذا أن « الرازي » كان برغم تقديره للحكمة التي وعثها بطون الكتب التي خلفها القدماء يؤثر عليها الخبرة الحسية ، ويرفعها فوق نتائج الاستدلالات المنطقية التي لم تمحصها التجربة (٢٧) .

وكانت طريقته تقتضيه أن يستقصى أعراض المرض في دقة وصبر ، ويحصر الاحتمالات التي تشير الى حقيقته ، ثم يستبعد منها ما توحى خبرته وملاحظاته بضرورة استبعاده ، فاذا رجح عنده أن يكون مرضا بعينه ، وصف له العلاج ، وتتبع سير المرض تحت تأثيره ، وكان التوفيق يحالفه في أكثر الحالات التي رويت عنه .

وتكفي دراسة الحاوي وحده للكشف عن مميزات صاحبه ، في مهارته الفنية ودقة ذكائه .

من أجل ذلك ...» (٢٢) وفي حديثنا عن
الكشوف الطبية العربية ما يشهد بأصالة الطب العربي ويؤكد وجه الجدة والابتكار فيه .

وقد يقتضينا سياق البحث أن نقف قليلا عند أكبر أئمة :

امام الطب العربي : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٢) :

هو أكبر أطباء العصور الوسطى ، وامام الطب العربي غير منازع ، فيما قرر جمهرة المستشرقين (٢٤) وهو جالينوس العرب وطبيب المسلمين غير مدافع - فيما يقول مؤرخ الطب العربي « ابن أبي أصيبعة » ، وقد ظل في أوروبا الحجة الذي لا ينازع في الطب حتى القرن السابع عشر ، وذلك فوق أنه كان من أعظم الكيميائيين في العصور الوسطى ، ان لم يكن منشيء الكيمياء علما تجريبيا (٢٥) وقد تولى رئاسة يمارستان الخليفة المقتدر بالله الذي انشئ عام ٩١٨ م .

وكانت أهم مؤلفاته في الطب : الحاوي : الجامع الحاصر لصناعة الطب ، وهو دائرة معارف ضخمة تختلف موضوعاتها وتصنيفها باختلاف مخطوطاتها ، لأنه توفي قبل أن يكملها ، فنهض باكملها تلامذته بعده (٢٦) . وكان أكبر مميزات هذا السفر الضخم أن صاحبه قد

(٢٢) الدوميلي : العلم عند العرب ص ١٤٣ - ٤٤ .

(٢٣) ولد ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م ومات ٣١٤ هـ / ٩٢٦ (على غير اتفاق بين مؤرخيه) .

(٢٤) من ادورد براون ، وجورج سارتون ، والدوميلي ، وجاريسون ، وأوسلر ، وأولري ... وغيرهم .

(٢٥) هذا رأى الدوميلي بعد أن سلم برأى جمهرة المحدثين من المستشرقين (من أمثال مارسيلان بيرتو مؤرخ الكيمياء القديمة) في رفض القول بأن منشيء علم الكيمياء هو جابر بن حيان ، لأن جابرا في رأيهم شخصية خرافية لا وجود لها في التاريخ . انظر ص ٩٩ وما بعدها في « العلم عند العرب » .

(٢٦) قيل ان ابن العميد طلب الى أخت الرازي بعد وفاته أن تسلمه مخطوطة الحاوي ، وأغراها بالمال حتى استجابت له ، ثم اجتمع تلامذة الرازي وأكملوا الكتاب على النحو الذي ظهر فيه .

(٢٧) باستثناء قطع نشرها « ماكس مايرهوف » ، وترجمها « ادورد براون » أو غيره ، يمكن القول بأن الحاوي لم يقدر له أن ينشر أو يترجم حديثا ، أما في العصور الوسطى فقد ترجم الى اللاتينية ونشر عام ١٤٨٦ وأعيد طبعه أكثر من مرة في القرن السادس عشر ، وكان قد ترجمه فرج بن سالم .

ومعالجة الأمراض ، وتوابع ذلك ولواحقه مما لا يزال يحدث وتمس الحاجة الى معرفته ، ويتسنى لأهل العقل والرأى أن يشاركوا فيه الأطباء ، وقد مهد له بمدخل في الطب ، وعقب بالحديث عن موضوعات أهمها حفظ الصحة وتدبير المسافرين ، وصناعة الجبر والجراحات والقروح ، والسموم ، والحميات ونحوها (٣٩) .

وكانت كتب الرازى مع كتب ابن سينا مراجع للتدريس في جامعة لوفان حتى القرن السابع عشر ، تشهد بهذا برامجها عام ١٦١٧ ، ومنها نرى أن حظ المؤلفات اليونانية حتى ذلك العصر كان ضئيلا .

وفي الرازى أصالة لا تخفى ، وفي تراثه كشوف علمية كان السباق إليها ، وفي حديثنا عن « كشوف طبية عربية » نجد الكثير منها يشهد بوجوه الابتكار والأصالة في إنتاجه ، فليرجع اليه القارئ ليعرف مكانة الرازى طبيا أصيلا .

هذه لمحة خاطفة عن امام الطب العربى ، واعظم اعلامه وأخصبهم انتاجا مبتكرا أصيلا .

عصر التدهور :

أخذت الحركة العلمية تتدهور في المشرق العربى منذ مطلع القرن الثاني عشر - أى بعد نصف قرن من غزوات السلاجقة الأتراك للدولة

ومن أشهر رسائله التى أبدى فيها أصالة وابتكاراً ، رسالته في الجدرى والحصبة ، وقد فطن الرازى نفسه الى ذلك ، فأشار في مقدمتها الى أن أحدا من القدماء ولا المحدثين - أى المعاصرين له - قد قال في هذا الموضوع قولاً مستقصى ولا كافياً ، فان « جالينوس » وان كان قد عرف الجدرى الا انه لم يذكر له علاجاً كافياً ، ولا سبباً مقنعاً ، ويقول نوبرجر M. Neuberger أن هذه الرسالة تعد من خير المؤلفات العربية ، وأنها احتلت برغم صغرها مكاناً ملحوظاً في تاريخ الأوبئة ، فوق أنها أول رسالة وضعت عن مرض الجدرى ، وهى تكشف عن الرازى طبيباً علمياً ذا ضمير حى ، متحرراً من المعتقدات القديمة ، وقد وفق في هذه الرسالة الى التفرقة بين الجدرى والحصبة ، ووصف تشخيصهما وأبان عن أعراضهما ، وأوصى بفحص القلب والنبض والتنفس والبراز في دقة ، ولاحظ أن ارتفاع الحرارة من عوامل انتشار الطفح ... الخ وليس أدل على قيمة هذه الرسالة من مظاهر الاهتمام الذى صادفته في الأوساط الطبية في أوروبا حتى مطلع القرن العشرين (٢٨) .

ووضع الرازى كتاب المنصورى الذى أهده الى « المنصور بن اسحاق » أمير خراسان ، وهو يصغر الحاوى وان فاقه شهرة ؛ وقد ضمنه فيما يقول في مقدمته حفظ الصحة

(٢٨) وقد نقل هذه الرسالة الى الانجليزية W. A. Greenhill ونشرها بلندن عام ١٨٤٨ تحت عنوان A. Treatise on the small-pox & Measles وكان قد ترجمها الى اللاتينية في عصر النهضة E. Valla ونشرها في البندقية عام ١٤٩٨ ، كما نقلها الى اليونانية Jacque Gompyl ونشرها في باريس ١٥٤٨ ، ثم نشرها مع ترجمتها اللاتينية عام ١٧٦٦ J. Channing وكذلك نقلها الى الفرنسية في باريس عام ١٧٦٣ Jacques Paulet وأخرى في باريس عام ١٨٦٦ للمستشرق لوسيان لوكير Leclerc و Lenoir وترجمها الى الالمانية في ليبزيغ عام ١٩١١ Karl Opitz .. الخ . ويقول ول ديورنت مؤرخ الحضارات ان في وسعنا أن نتبين أهمية هذه الرسالة اذا عرفنا أنها طبعت بالانجليزية وحدها أربعين مرة بين سنتي ١٤٩٨ و ١٨٦٦ .. !!

(٣٩) ترجم المنصورى الى اللاتينية ونشر في العصور الوسطى وفي عصر النهضة الأوروبية عدة مرات ، وظل منداولاً في أيدي طلاب الطب في أوروبا حتى القرن السادس عشر ، ونشر الجزء الأول منه - وهو خاص بالتشريح - مع ترجمته فرنسية كوننج تحت عنوان P. da Koning, Trois Trantes d'Anatomie Arabe, Leiden, 1903 وترجم W. Brunner القسم الخاص بالرمم ، ونال به الدكتوراه من برلين عام ١٩٠٠ .

واما « ابن النفيس » رئيس أطباء المارستان الناصرى بمصر فقد تحرر من سيطرة جالينوس وابن سينا مع فرط إعجابه بأولهما ، وخطاه في زعمه أن بين البطين الأيمن في القلب والبطين الأيسر فتحة صغرة أو فتحات ، وانتهى من نقده الى وصف للدورة الدموية الصفري على نحو لم يقل به أحد سابقه ، وسنرى بشيء من التفصيل معالم هذا الكشف العلمى الخطير في حديثنا عن « كشوف طبية عربية » .

والذى يلفت النظر في هذه الظاهرة أن يجيء الاعتراض على جالينوس في عصر التدهور والاضمحلال من ناحية ، ثم في وصفه لحقائق التشريح - الذى كان يعد امامه الأوحى - من ناحية أخرى .

وبعد ، فهذه لقطات خاطفة من ماضى الطب العربى ، تتبعنا فيها بعض معالم تطوره منذ نبت طباً تجريبياً ، حتى اكتمل وازدهر على أسس علمية ، ثم أشرنا الى تدهوره حين أدركه الهرم ، مشيرين خلال ذلك الى العناصر التى تلقاها عن الطب الأجنبى الدخيل الذى اقتحم داره وعاش في كنفه ، دون أن نفعل العناصر التى استقاها من بيئته ، واستمدتها من عبقرية أهله ، ولنقف الآن عند :

٣ - مظاهر النضج في الطب العربى

شارك العرب في تطور الطب العالمى ، وأسهموا في العمل على انضاجه ، وتركوا بصماتهم على طريق تقدمه وازدهاره ، ومن دلالات هذه المشاركة الإيجابية ما وفقوا اليه من كشوف علمية طبية ، وما حققوه له من شرائط « العلمية » بدراساتهم التجريبية، وما أفاده الأوربيون الذين نهلوا من ثمراته ... فلنقف قليلا لبيان ذلك على قدر ما يسمح المقام :

الإسلامية ، ويمكن لهذا التدهور نشوب الحرب الصليبية التى اندلعت نيرانها أواخر القرن الحادى عشر ، وحملات المغول المخربة الهدامة التى استولت على عاصمة الدولة الإسلامية عام ١٢٥٨ م فالقوا بالآلاف المخطوطات في نهر دجلة حتى اسودت مياهه من مدانها ، وشكلت جسرا يعبر عليه الناس ! وانهار العلم العربى بانهياء السلطان السياسى للدولة .

واذا كانت نهضة العلم في المغرب العربى قد تأخرت قرناً ، فإن تدهوره جاء بدوره متأخراً عنه في المشرق العربى قرناً من الزمان ، ومنذ منتصف القرن الثالث عشر توقفت أوروبا عن ترجمة التراث العربى ، إلا ما جاء منها على أيدي أفراد ، وسنتعرض الى هذا عند الحديث على « انتقال الطب العربى الى أوروبا » .

ومع هذا فقد ظهرت في عصر التدهور ، على يد قلة من أفراد ، بوادر ثورة على تراث الفكر القديم ، نذكر في مجال الطب منها نموذجين كانا في مقدمة الثائرين ، هما « عبد اللطيف البغدادى » (ت ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) و « ابن النفيس » القرشى المصرى (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) .

فأما أولهما فقد استند الى ملاحظاته الحسية في تكذيب سابقه من علماء التشريح ، وفي مقدمتهم شيخهم « جالينوس » الذى استبد باعجاب أطباء العرب واجلالهم ، ومنهم البغدادى نفسه ، ومن ذلك أنه رفض زعم « جالينوس » بأن الفك الأسفل عظمان بمفصل وثيق عند الحنك ، بينما دلت مشاهدانه على أنه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلاً ! وقد تحدثنا عن هذا بشيء من التفصيل في مقال سابق (٤٠) .

(٤٠) انظر مقالنا : خصائص التفكير العلمى بين تراث العرب وتراث القريبيين - في مجلة عالم الفكر (عدد يناير - مارس ١٩٧٣) .

(١) كشوف طبية عربية

في تاريخ العلم وثبات بدت في كشوف علمية أصيلة ، وكان كل منها حدا فاصلا بين عهدين ، وبداية لتطور ناضج ينبض حياة ، (٤١) وفي الطب العلمي الحديث عند الغربيين ، وهو وليد القرن الاخير بوجه اخص ، وثبات تحققت بفضل ما أسفر عنه من كشوف ، واخترع فيه من آلات واجهزة فتحت آفاق الطب ، ومكنت أهله من ارتياد مجاهله (٤٢) ولكن العصور الوسطى لم تكن لتهيء لأهلها ، الا نادرا ، سبل الوثب السريع وأسباب التطور المفاجيء ، واخترع الآلات والاجهزة التي تدفع عجلة التقدم في قوة وعنف ، بل ان الأمة حتى في عصرنا الحاضر كثيرا ما تفتقد العمالقلة الذين يغيرون وجه العلم باحداث انقلاب في تاريخه ، ولا يعوقها ذلك عن أن تكون في يقظة حية وازدهار علمي يشيع في الكثير من مرافق حياتها ، لأن الزمان لا وجود بالأئمة العمالقلة الا نادرا .

ومع أن العلم العربي عامة ، والطبي منه خاصة ، كان في عصره الوسيط ، الذي يعنينا في هذا البحث ، في ظروف لا تهى لظهور

العمالق الذي يغير وجه العلم ويترك بصماته على تقدمه ، فان تاريخه لا يعدم من الأسماء اللامعة من يرتفع بأصحابها الى مرتبة الأئمة الذين كشفوا عن صفحات مشرقة وضاءة ، سبقوا بها زمانهم في الدنيا كلها بمئات السنين ، وكانت فاتحة عصر جديد في طريق التقدم والرقى .

وفي تاريخ الطب العربي فتوحات لا تخفى على مؤرخ ، الا اذا أضلته العصبية أو أعماه الهوى ، فقد سبق العرب شعوب الأرض الى تأميم الطب بعلاج المرضى في المستشفيات بالمجان ، ومنحهم من المال والثياب بعد الشفاء ما يعينهم على دور النقاها ، وكانوا أول رواد الحجر الصحي ، حين سبقوا الى الكشف عن الأمراض المعدية (وسموها بالسارية) والعمل على تفادى انتشارها ، ومعرفة الوباء والتوصية بحصار البلد الذي يظهر فيه ، فلا يخرج منه ولا يدخل اليه أحد معافى غير مصاب .

وكان العرب أول من انشأ الصيدلة علما تجريبيا ، واستعانوا بالكيمياء والنبات اللذين تطورا على أيديهم وتوافرت لها خصائص العلم ، في ابتكار أدوية لم تكن معروفة من قبل ، وتركيبها من أصول نباتية وحيوانية ومعدينية ،

(٤١) كقول جاليليو بدوران الأرض ، واسحاق نيوتن الجاذبية ، وتشارلس داروين بالتطور ، وكارل ماركس بالصراع الطبقي ، واينشتاين بالنسبية الخ .

(٤٢) منها اختراع هنرى لاينك السماعة الطبية عام ١٨٦١ وتوماس كليفورد اليات ميزان الحرارة الصغير ، وهرمان فون هلمهولتز مرآة تثبت على رأس الطبيب لفحص قاع العين عام ١٨٥١ فبدأ طب العيون الحديث ، ومانويل جارسيا منظار الحنجرة عام ١٨٥٤ ووليم اينتهوفن جهاز رسم القلب وتخطيطه عام ١٩٠٣ ، وشيفالير جاكسون منظار الشعب الهوائية عام ١٩٥٨ وفرديريك باتينج كشف الانسولين لمرض السكر عام ١٩٢١ وفيليب دينكر أول رئة صناعية عام ١٩٢٨ وفون لوفنهولك اختراع الميكروسكوب لرؤية الجراثيم عام ١٨٦٣ ولوى باستير نظرية الجراثيم عام ١٨٦٤ وويلهلم رونتجن اشعة x لرؤية العظام ومواضع الأجسام الغريبة في الجسم عام ١٨٩٥ وفرديريك ويلهلم شتورن لتسكين الآلام بالمورفين مع ضبط جرسته عام ١٨٠٣ ووليم مودرن التخدير الذي يعطل الاحساس بالآلام عام ١٨٤٦ وتشارلس برافار ابرة الحقن لادخال الدواء الى تيار الدم عام ١٨٥٣ وجوزيف ليستر التعقيم لقتل الجراثيم عام ١٨٦٥ ووليم هانتز الكمامة المعقمة عام ١٨٩١ ، لى دى فورست التسكين الكهربائي لاستئصال الرئة واورام المخ وترقيع قرنية العين وغيرها . وروبرت كوخ في كشفه لجراثمة الكوليرا في مصر في مطلع القرن العشرين ... وبمثل هذه الكشوف والمخترعات كان الطب العلمي الحديث عند الغربيين خلال مائة السنة الأخيرة بوجه اخص ، انظر في تفصيل ذلك :

Elizabeth Rider Montgomery, The Story behind Great Medical Discoveries, 1945.

ووصف جراحة استخراج الماء الأبيض (الكتاركتا) واستخدام المحاجم في علاج داء السكتة ، ووصف الطاعون وما نسميه اليوم بحمى الدريس Hay Fever وأول من ميز في دقة بالغة بين الجدرى والحصبة ، وكانت رسالته في ذلك أول دراسة علمية في الأمراض المعدية ، وكان أول من أدخل في الصيدلية الملينات ، وطبق في الطب المركبات الكيماوية ، واستخدم الزئبق في علاج الأمراض الجلدية ، وسبق إلى الاهتمام بالاحوال النفسية في تشخيص الأمراض الباطنية وعلاجها ، وكان من رواد الكتابة في أمراض الأطفال ، وكان أول من فطن إلى الإصابة بدودة Guinea Worm واستخدم الحزام ، وعده الحمى عرضا لا مرضا ، وأدخل في المداواة أساليب جديدة - كاستخدام الماء البارد في الحميات ، وكان أول من كشف « البول السكرى » اذ كان يطلب إلى المريض الذى يشربه فيه أن يبول على رمل ، وينتظر قليلا ، فاذا اجتمع النمل فوق الرمل دل هذا على أن البول سكرى !

وقد أعاد الحياة إلى شخص فقد حسه في شارع في قرطبة ، وذلك بأن جلد جسمه ، ولا سيما قدميه ، ومع ذلك قال في رده على الخليفة الذى امتدح براعته انه تعلم هذه الطريقة من اعراب البادية ، وأن فضله لا يعدو تشخيص المرض ، الذى يرجح أنه كان ضربة شمس !

وكان فيما سجله في مشاهداته السريرية (الاكلينيكية) والطرق التى واجه بها صعوبات عمله ، أعظم - عند بعض مؤرخيه - من جميع سابقه ، لا يستثنون من ذلك ابقراط وجالينوس !

وبرغم انه كان أعظم اطباء العصور الوسطى غير منازع ، برع في الكيمياء العلمية حتى عده بعض مؤرخيها منشئها علما تجريبيا ، وفيها استحضرت حوامض لا تزال مستعملة حتى يومنا الحاضر (كحامض الكبريتيك) كما

وأضافوها إلى ما عرفوا من صنوفها عند اليونان والهنود ، فكانوا بهذا السباقين إلى ابتداء الأقرباذين Pharmacology الذى نعرفه اليوم ، كما سبقوا إلى انشاء الصيدليات ومدارسها .

وسبقوا الغرب في عصوره القديمة والوسطى في توفير الأطباء والجراحين ، وكفالة الحياة الكريمة السخية لهم ، بعد أن امتنهم اليونان قديما وحاربتهم الكنيسة في العصور الوسطى أطباء وجراحين حتى كانت تصدر بين الحين والحين منشورات تحقر من صناعتهم ، بحجة انها تعاند قضاء الله ! وبصيانة المهنة وإبعادها عن الدجل والاحتيال سبق العرب شعوب الارض منذ النصف الاول من القرن العاشر إلى فرض امتحان يجتازه من يصلح طبيا أو جراحا ، ومنحه ترخيصا بمزاولة المهنة ، وأنشأوا نظام الحسبة الذى يفرض الرقابة على الأطباء والصيدالة منعا للغش ، وتفاديا للكسب الحرام ، وصيانة لكرامة المهنة ، وقرروا توقيع العقوبة على من يسيء إلى مصالح الجمهور .

وكان لهم الفضل في تحسين المستشفيات ، ورفع مستوى خدماتها ، وفرض نظام دقيق حازم تجرى عليه ، حتى أضحت شبيهة في عصورها الوسطى بمثيلاتها في أرقى دول الغرب في عصورها الحديثة ، وكانت لهم بها فتوحات في مجال الطب السريرى (الاكلينيكى) الذى انبنى على الملاحظة الدقيقة، وتتبع سير المرض، ورصد نتائج العلاج لمعرفة مدى نجاحه أو مبلغ اخفاقه .

فلنقف قليلا عند نماذج من الفتوحات الطبية التى تحققت على أيدي أعلام الطب العربى :

فاما الرازى - جالينوس العرب وامام الطب العربى - فمن كشوفاته العلمية أنه كان السباق إلى استخدام امعاء الحيوان في التقطيب والاكثر استعمال الفتائل وخيوط الجراحة،

استخرج الكحول باستقطار مواد تنسوية وسكرية مخمرة ، واستخدمه في تحضير الأدوية ... ويطول بنا الشرح اذا توخينا أن نستقصى فتوحاته العلمية .

واما « ابن سينا » - ابقرط العرب في الطب ، وامامهم في الفلسفة - فقد تمكن بملاحظاته السريرية من أن يصف في دقة نفيح التجويف البلورى ، وأن يميز بين الالتهاب الرئوى والالتهاب السحائى الحاد ، ويفرق بين المفص المعوى والمفص الكلوى ، وبين تسلل الوجه الناشئ عن سبب مركزى في الدماغ ، وما ينشأ منه عن سبب محلى ، وحدد مختلف انواع اليرقان وأسبابها ، وكان صاحب الفضل في علاج الفناء الدماغية بإدخال مسبار معقم فيها ، وكان أول من شخص داء الانكلستوما ، اذ يقول الأستاذ الدكتور « محمد خليل عبد الخالق » أستاذ الطفيليات بطب القاهرة « أن ابن سينا هو أول من كشف الطفيلية الموجودة في الانسان المسماة بالانكلستوما وكذلك المرض الناشئ منها المسمى بالرهقان (أو الانكلسفوما) » كشف ذلك في الفصل الذى افردده للديدان المعوية في كتاب القانون ، ويقول الدكتور أن ما يقرب من نصف سكان المعمورة الآن مصاب بها ، وأن مؤسسة روكفلر بالولايات المتحدة قد جمعت ما كتب عن هذا المرض حتى عام ١٩٢٢ فكان خمسين الف مرجع !

وأوصى « ابن سينا » بتغليف الجيوب التى يتعاطاها المريض ، وكشف في دقة بالغة عن أعراض حصاة المثانة السريرية بعد أن أشار الى اختلافها عن أعراض الحصاة الكلوية .

وقد سبق أبو القاسم الزهراوى - أكبر جراحى العصور الوسطى - الى ربط الشرايين في الجراحات ، وتفتيت رأس الجنين متى كان ضخما ، واخترع منظار المهبل ، وأبان عن طريقة استئصال الحصى المثانية في النساء عن طريق المهبل ، ووصف استعداد بعض الأجسام للنزيف وعالجه بالكى ، وأجرى

جراحات ناجحة في شق القصبة الهوائية وتفتت الحصاة في المثانة بالشق والتفتيت ، واستئصال اللوز بسنارة ، ووصف استعمال الجفت لاستخراج المولودين ...

والى ابن زهر يرجع الفضل في جراحات فتح القصبة والكسر والانخلاع ... وقد كان بعد الرازى أعظم اطباء العصور الوسطى اهتماما بالملاحظات السريرية (الاكلينيكية) وقد قيل انه احتل في الطب مكان الزهراوى في الجراحة .

ولنقف الآن قليلا عند أعظم كشف علمى قدر له أن يكون على يد عالين عرييين :

كشف الدورة الدموية :

يقوم الطب الحديث على معرفة الدورة الدموية والوقوف على حركتها ، وقد وفق عالمان عرييان الى هذا الكشف الخطير قبل أن يعرفه الاوربيون ببضعة قرون من الزمان ، وهذان العالمان هما الطيبان : على بن عباس المجوسى (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) وابن نفيس القرشى المصرى (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) .

تحدث « علي بن عباس » في الجزء الأول من « كامل الصناعة الطبية » عن الانقباض والانبساط في وظائف الجسم الحيوية ، فكشف الدورة الدموية في الأوعية الشعرية حين قال :

« وينبغى ان نعلم العروق الضوارب في وقت الانبساط ، ما كان منها قريبا من القلب اجتذب الهواء والدم اللطيف من القلب باضطراب الخلاء ، لأنها في وقت الانقباض تخلو من الدم والهواء ، فاذا انبسطت عاد اليها الدم وملاها ، وما كان منها قريبا من الجلد ، اجتذب الهواء من خارج ، وما كان منها متوسطا فيما بين القلب والجلد ، فمن شأنه أن يجتذب من العروق غير الضوارب اللطيف ما فيها من الدم ، وذلك أن العروق غير الضوارب فيها منافذ الى العروق الضوارب ، والدليل على ذلك أن

وتثبت كتاباته أنه مارس التشريح بالفعل ، واعتمد على خبرته في تخطيطه سابقه ، وفي مقدمتهم جالينوس وابن سينا ، وحديثه عن تشريح العظام والأربطة والقلب والرئة والعروق وغيرها من مكونات الجسم لا يكون بغير مباشرة للتشريح ، وبه كاد أن يتوصل إلى علم لم يكن قد عرف بعد ، هو علم التشريح المرضي (الباثولوجيا) وذلك عندما لاحظ أن « تشريح العروق الصغار في الجلد يعسر في الأحياء لتألمهم ، وفي الموتى الذين ماتوا من أمراض تقلل الدم كالاسهال والدق والتزف ، وأنه يسهل فيمن مات بالخنق ، لأن الخنق يحرك الروح والدم إلى الخارج فتفتح العروق ، على أن هذا التشريح ينبغي أن يعقب الموت مباشرة لتجنب تجمد الدم » .

وفي غمرة تفنيده لأقوال القدماء كشف الدورة الدموية ، ونفى نظرية جالينوس في حركة الدم ، وليس في دورته ، وهي النظرية التي أكملها ابن سينا وعاشت بعده حتى القرن السابع عشر ، وسجلها ليوناردو دافنشي + ١٥١٩ في لوحاته التشريحية ، أكد بطلان هذه النظرية لأن « اتجاه الدم عنده ثابت يمر من التجويف الأيمن إلى الرئة حيث يخالط الهواء ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدي (الوريد الشرياني) إلى التجويف الأيسر » ، وبدأت الشرايين عنده منفصلة تماما ، لأن العدسة المكبرة لم تكن قد اخترعت بعد ، ولم تكن الاوعية الدموية قد كشفت ، ولكن ابن النفيس قد مهد لكشفها الذي تحقق بعده بعدة قرون .

ومؤدى نظرية ابن النفيس أنه « كان يرى أن الدم يأتي غليظا من الكبد إلى التجويف الأيمن حيث يلطف ، ثم يمر في الوريد الشرياني (الشريان الوريدي) وهو وعاء غير نابض يتحرك بحركة الرئة حركة معتدلة ، هي سبب غلظ جداره ، ثم يصل إلى الرئة حيث ينقسم

العرق الضارب إذا انقطع ، استفرغ منه جميع الدم الذي في العروق غير الضواري » وهذا أقرب وصف إلى الحقيقة فيما يقول الدكتور خير الله .

أما ابن نفيس فقد كان رئيسا لأطباء اليمارستان الناصري بمصر ، وقد استوعب قانون ابن سينا ومؤلفات جالينوس ، فمثل بهذا روح عصره ، ولكنه مع ذلك كان من الاعتزاز بالنفس واستقلال الفكر بحيث حرر نفسه من تفاليد عصره ، وجاهر بانكار كل ما لم تدركه حواسه ، أو بقبله عقله ، ووضح هذا في كتاب له كان مفخرة العرب ، وإن قبع منسيا في بطون الكتب ثلاثة قرون من الزمان حتى كشفه في مكتبة برلين شاب مصري كان يعد دراسة عنه للدكتوراة في جامعة فريبورخ الألمانية ، هو الدكتور محيي الدين التطاوي ، أما الكتاب فهو « شرح تشريح القانون » الذي نوصل فيه ، في أول ثورة حقيقية على تشريح جالينوس ، إلى كشف الدورة الدموية .

ويزعم « ابن النفيس » أنه لم يمارس التشريح إذ يقول « وقد حلتنا - منعنا - عن مباشرة التشريح وأزع الشريعة ، وما في أخلاقنا من الرحمة ، فلذلك رأينا أن نعتمد في تعريف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المبشرين لهذا الأمر ، خاصة الفاضل جالينوس ، إذ كانت كتبه أجود الكتب ... » وهو يقول هذا خشية أن يتعرض لسوء ، لأن التشريح في عصره كان يعد عند المتزمطين من رجال الدين انتهاكا لحرمة الجسم البشري ، فهو يجاهر بأنه لم يعتمد على أقوال أسلافه ، وفي مقدمتهم جالينوس « إلا في أمور ظننا أنها من أغاليط النساخ ، أو أن أخباره عنها لم يكن بعد تحقق المشاهدة فيها ، وأما منافع (وظائف) كل واحد من الأعضاء فإنما نعتمد في تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ، ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه !

لأول مرة في البندقية عام ١٥٤٧ وقد كان هذا على التحقيق مرجع هارفى الذى تعزى اليه اليوم هذه النظرية (٤٢) .

هذه نماذج من كشوف علمية سبق بها أطباء العرب زمانها بمئات السنين ، وبها تركوا بصماتهم على تقدم الطب وتطور الحياة العلمية في تاريخ البشرية .

(ب) علمية الطب العربى متى وكيف نشأت ؟

استكمل الطب العلمى الحديث مقوماته حين أصبح فرعاً من العلم الطبيعى في مفهومه عند المحدثين ، وبهذا المفهوم لا تكون الدراسة علماً طبيعياً ما لم تتوافر لها هذه الأركان : أن تتخذ الظواهر الجزئية المحسوسة موضوعاً لا تتجاوزها الى ما وراءها ، وأن يصطنع فيها منهج تجريبي يستند الى الملاحظة الحسية ، والتجربة العلمية ان كانت ممكنة ، وأن تستهدف هذه الدراسة التجريبية للظواهر الطبيعية وضع قانون عام يفسرها ، وقد اشتهر اهتمام المحدثين في الفترة الاخيرة من عصرنا الحاضر بصياغة القانون العلمى في صورة رياضية تتحول فيها الكيفيات الى كميات عددية ، تحقيقاً للدقة والضبط - وذلك أمر كثيراً ما يشق على أهله في العلوم الانسانية - وهذا الى جانب خصائص أساسية يقتضيها هذا المنهج العلمى ، منها موضوعية البحث ونزاهة الباحث ونحو ذلك .

فهل توافرت هذه الخصائص في دراسات الطب العربى ؟ ومتى وكيف كان ذلك ؟

لقد ظل الطب العربى حتى أواخر العصر الأموى وليد خبرة عملية يزاولها بعض الأفراد ويتوارثها بعدهم جيل بعد جيل ، كان مجرد

الى قسمين : قسم رقيق يصفى من مسام الشريان الرئوى ، وقسم غليظ يتبقى في الرئة لتغذيتها ، أما القسم الرقيق فانه يختلط بالهواء القادم الى الرئة عن طريق القصبة الهوائية ويدخل الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) عبر جداره النحيف وعله هذه النحافة اولا ضرورتها لتسمح بمرور الدم الرقيق ثم كثرة حركتها ، اذ انها كانت - في زعمه - نابضة تلقائياً ، بالإضافة الى أنها متحركة تبعاً لحركة الرئة ، ثم يصل الدم الرقيق المخلوط بالهواء الى التجويف الأيسر حيث تتكون الروح التى تخرج منه الى الأورطة فالشرايين فالانسجة ، أما غذاء القلب فيكون عن طريق أوعيه خاصة تمر في صميم عضلة القلب .

هكذا كتف ابن النفيس الدورة الدموية ، ولكن تعاليمه قد أهملت بعده ثلاثة قرون من الزمان ، ثم ظهر خلال واحد وستين عاماً من ترجمة كتابه الى اللاتينية (عام ١٥٤٧ م) ثلاثة من علماء أوروبا يصفون دورة الدم في الرئة بنفس الألفاظ التى استخدمها ابن نفيس ، هم : ميشيل سرفيتوس Servitus الأسبانى الذى نشر عام ١٥٥٣ كتابه : Christianismi restitutio وقد أعدم بسببه حرقاً ! وريالدو كولومبو استاذ التشريح في جامعة بادوا الذى نشر عام ١٥٥٩ م رأيه في كتابه De re Anatomica تم وليم هارفى Harvey (+ ١٦٥٨) - والذى نشر عام ١٦٢٢ كتابه De Motu Cardis ونسب اليه نظرية الدورة الدموية !

وقد أثبت البحث العلمى ان هؤلاء الرواد من الغربيين لم يهتدوا الى النظرية مستقلين عن ابن النفيس ، ولا مستقلاً أحدهم عن الآخر ، فان كتاب ابن النفيس قد ترجمه الى اللاتينية طبيب ايطالى هو « الباجو » ونشرت الترجمة

(٤٣) عولنا فيما كتبناه عن ابن نفيس بوجه خاص على د. بول غليونجى في كتابه ، ابن النفيس ، وبحته المنشور في العدد الاول من المجلد الاول من تراث الانسانية - القاهرة يناير ١٩٦٣ .

العباسيين ، قد اتجهوا الى ترجمة الكتب الطبية من اليونانية الى السريانية ، ومن السريانية الى العربية ، فكان طب اليونان وخاصة طب « ابقراط » و « جالينوس » أعظم نبع نهل منه أطباء العرب . وإذا كانت جند يسابور قد بدأت تفقد أهميتها كمدرسة للطب في عصر المأمون فقد كان خلفاء المسلمين وأمرأؤهم وأهل اليسار منهم يوفدون بعوتا الى مواطن الطب العلمي في اليونان خاصة لجمع المخطوطات الطبية وترجمتها الى العربية .

فماذا لاحظ قدماء مؤرخي العرب في ذلك ؟ وما الذي استرعى نظرهم مما كان غريبا على التراث العربي ؟ لاحظوا ما اشرنا اليه من قبل ، من أن هؤلاء كانوا يستخدمون المنهج العلمي الذي يمكن الباحث من أن يعلو فوق الوقائع الجزئية الى القانون العام . كانوا يتخطون الملاحظات التجريبية التي تؤدي اليها الحاجات العملية ، ويستهدفون المبادئ ويستندون الى البرهان .

يقول « حاجي خليفة » (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٨ م) في « كشف الظنون » أثناء حديثه عن النساطرة الذين أشرفوا على مدرسة جند يسابور : « ولم يل امرهم يقوى في العلم ويتزايدون فيه ويرتبون « قوانين » العلاج على مقتضى امزجة بلدانهم ، حتى برزوا في الفضائل وجماعة يفضلون علاجهم وطريقتهم على اليونانيين والهنود لأنهم اخذوا فضائل كل فرقة ، فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، فرتبوا لهم « دساتير وقوانين » وكتبوا جمعوا فيها كل حسنة » ولا نضيف الى هذا ما قاله الغريون في نشأة « العلم » عامة عند اليونان (٤٤) وربما أمكن الاستشهاد على صحة هذا بما لاحظته بعض المستشرقين عما يميز التأليف في العصر العباسي ، فمن ذلك أن

ملاحظات ومعلومات متفرقة حول أمثلة فردية معينة ، لا ترقى الى وضع قواعد عامة تدرج تحتها هذه الظواهر الفردية ، ولا يصطنع في دراستها منهج علمي تجريبي يمنع البحث فيما وراء الظواهر المحسوسة مما لا يدخل في نطاق العلم ، فلما انصل العرب بالطب الأجنبي الدخيل - ولا سيما ما كان منه عند اليونان في عصر بني العباس ، كان منهج الدراسة استقرائيا علميا ، وتحولت المعلومات الطبية - وكثير غيرها من المعارف - الى علوم لها مقوماتها وشرائطها ، وكثرت المؤلفات التي اصطنع فيها دارسوها المناهج العلمية ، فتجاوزوا عن طريقها الوقائع الجزئية الى وضع قواعد لتفسيرها ، وقد لفتت هذه الظاهرة انظار بعض القدماء من مؤرخي العرب ، ولو كان تقنين المعلومات المفرقة أو تفعيدها مما عرفه العرب ما استرعت هذه الظاهرة انظار هؤلاء المؤرخين القدماء ، ذلك أن اتصال العرب بالطب الأجنبي الدخيل قد بدأ بأطباء منهم درسوا في مدرسة جند يسابور في فارس - منهم « يوحنا بن ماسويه » الذي كان أول من شرّح جثث القردة في الاسلام ، و « حنين بن اسحاق » شيخ المترجمين ، كما بدا هذا الاتصال باستقدام أساتذة من هذه المدرسة الى بلاط الخلفاء ، منذ أيام المنصور ثاني خلفاء بني العباس - كأصرة بختيشوع التي استمرت نحو ثلاثة قرون - وقد اشرنا الى أن أساتذة هذه المدرسة كانوا من اليونان والهنود ، وأنهم جميعا كانوا يجيدون اليونانية حتى يتسنى لهم الاطلاع على كتب اليونان في صناعة الطب ، وأن مستشفاهما بما كان يمارس فيه من علاج ودراسة وتدريب للأطباء كان المثل الأعلى لأطباء العرب منذ مطلع العصر العباسي ، وفي هذه المدرسة تفاعل علم اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأن هذا كله كان له صداه في الطب العربي فيما بعد ، كما اشرنا الى أن المترجمين منذ القرن الأول من خلافة

المرض كظاهرة طبيعية تنشأ عن علل طبيعية ولا ترتد الى الشياطين أو الارواح الخبيثة، كما يتوهم عامة الناس في الشعوب المختلفة بوجه أخص ، ولا ترجع ظاهرة المرض الى عقاب من الآلهة فيستحيل علاجها الا بارضائها ، أو يحرم علاجها لأن علاجها مقاومة لارادة الله ، كما ظنت الكنيسة في أوروبا في عصورها الوسطى ، وقد تأدى المنهج العلمي بالعرب الى استبعاد الخوارق والقيبيات في تفسير الأمراض والكشف عن أسبابها ، ووضعت الدولة نظام الحسبة لمحاربة الدجالين والمشعوذين الذين يعتمدون على الأوهام ويستغلون سذاجة الدهماء ، وفرضت امتحانا يجتازه الطبيب ومنحت لزاولة المهنة ترخيصا .

وفي هذا الطب العربي تمزقت الصلات التي كانت تربطه بالفلسفة من ناحية وبالدين من ناحية أخرى ، وذلك من حيث أنه اعتمد على الملاحظة الحسية وليس على مجرد التأملات العقلية والاستدلالات المنطقية ، وكان الاسلام منذ البداية قد حارب طب الكهانة ولم يجعل الطب من عمل رجال الدين ، وجاهر المستنيرون من المسلمين - من أمثال ابن خلدون - بأن الطب النبوي نفسه ، لم يصدر عن وحي الهي ، وإنما هو من رأى النبي (ص) في شأن من شئون الدنيا ، ومن ثم تعرض للصواب والخطأ ، ولا يمنع هذا - عند ابن خلدون - من أن يستعمل « على جهة التبرك وصدق العقد الايماني ، فيكون له أثر عظيم النفع » وهذه ملاحظة طبية ، إذ أن المريض المؤمن الذي يستجيب لوصايا الطب النبوي ، يستعين على الشفاء بايمانه ، والملاحظ أن الطب الحديث في أيامنا الحاضرة يستعين في علاج المرض بطرق سيكولوجية تستند الى الايحاء .

« ماكس مايرهوف » يقول عن كتاب « دغل العين » الذي صنفه « يوحنا بن ماسويه » أنه أول كتاب عربي منظم في علم الرمد ، مع أن العرب والسريان وغيرهم قد كتبوا الكثير من الكتب في هذا المجال . وأوضح من هذا قوله عن كتاب « حنين بن اسحاق » « العشر مقالات في العين » : أنه أقدم مؤلف اصطنع المنهج العلمي في طب العيون » .

وإذا كان جالينوس قد استهدف تحويل الطب الى علم دقيق ، شبيه بعلم الفلك والعلوم الرياضية ، فإن « حنين بن اسحاق » هو الذي طبع اللغة العربية بطابع الاسلوب العلمي على عهد العباسيين . . . فيما يقول هذا المستشرق (٤٥) ، ويزيد « الدوميلي » فيقول عن الكتاب السالف الذكر ان أهميته مردها الى أنه أول كتاب وصل الينا في الرمد ، لا من الحضارة الاسلامية فحسب بل من العصر اليوناني القديم كذلك ، وليس أيضا لأنه يوضح لنا نظريات القدماء ، بل لأنه يزودنا بجميع الموضوعات المتصلة بالعين وأمراضها على وجه التقريب (٤٦) .

والناظر في المؤلفات الطبية في ذلك العصر ، وخاصة في مرحلة الانتاج الأصيل ، يجد فيها فيضا من الشواهد التي تشهد بصدق ما نقول ، وسنعرض بعض نماذج لهذه الظاهرة .

من هذا المنطلق بدأت دراسات العرب في الطب وغيره من مجالات المعرفة تتسم بطابع علمي ، باصطناعها منهجا تجريبيا يفرض قصر الدراسة على الوقائع الجزئية عن طريق الملاحظة الحسية ، ويستهدف وضع قاعدة عامة لتفسيرها ، وقد اقتضاهم هذا ان ينظروا الى

(٤٥) مقدمة ماكس مايرهوف لكتاب العشر مقالات العين وخاصة ص ٥٧ و ٦٢ و ٦٦ .

(٤٦) الدوميلي : العلم عند العرب ص ١٤١ .

ومن شواهد الكتابات العلمية التي تعالت على الحالات الجزئية المعينة ، واستهدفت تعقيد المعلومات المفرقة نقتبس هذين النموذجين اللذين احتفظا بصواب حقائقهما حتى اليوم :

يقول « الرازي » في احتباس البول : « البول يحتبس اما لان الكلى لا تجذبه ، وعلامته أن يكون البول محتبسا وليس في الظهر وجع تقيل ولا في الخصرة والحالب ، ولا المثانة متكورة ، ولا في عنق المثانة ضرب من ضروب السدة على ما نستبين ، وأن يكون مع ذلك البطن ليئا ، وقد حدث في البدن ترهل واستسقاء وكثرة عرق » .

« واما الذي يكون من الكلى فيكون محتبسا وفيها المرض ، وذلك اما لورم أو حجر أو علق دم أو مِدَّة ، ويعمُّه كله أن يكون الوجعُ في البطن مع فراغ المثانة ، الا أنه ان كان حصاة ظهرت دلائل الحصاة قبل ذلك ، وان كان ورما حارا كان مع الوجع شيء من ضربات » .

« وان كانت أوجاع الكلى فانما هي بغل فقط ، وان كان ورما صلبا لم يحتبس البول ضربة ، لكن قليلا قليلا وكان ثقل فقط ، وان كان علق دم ومِدَّة فيتقدمه قرحة ، وان كان احتباسه من أجل مجارى البول من الكلى فتكون المثانة فارغة ، والوجع في الحالب ، حيث هذا المجرى ، مع نخس ووخز ، فان وجع المجرى ناخس لا تقيل ، وعند ذلك استعمل سائر الدلائل في الكلى » .

« وان كان من قبل المثانة فاما ان يكون لضعفها عند دفع البول ، فعند ذلك فاغمر عليه والمثانة متكورة ، فان لم يدر فبالآفة في رقبة المثانة ، وحينئذ استعمل الدلائل المذكورة » .

« وان كان الورم حادا في هذه المواضع بيع ورم المثانة حمى موصوفة ، وورم الكلى حمى

ولم يقنع اطباء العرب باصطناع الملاحظة الحسية في دراساتهم الطبية ، وانما زادوا فأجروا التجارب العلمية فيما تيسر فيه أجراؤها ، ومن أمثلة ذلك : أن « ابن سينا » قد فطن الى ما نسميه اليوم بكيس الثلج ، اذ أصابه ذات يوم ألم في رأسه تصور معه أن مادة توشك أن تهبط الى حجاب رأسه ، وأنه لا مأمن من ورم يدركه ، فطلب كمية كبيرة من الثلج ، وقام بدقه ثم لفه في خرقة وغطى بها رأسه فامتنع الألم وعوفي مما أصابه .

وتوصل « ابن زهر » الى تجربة يسرت تعاطي المسهلات ، وذلك أن الخليفة عبد المؤمن كان في حاجة الى مسهل ، ولكنه كان يضيق بشرب الأدوية المسهلة ، فمضى « ابن زهر » الى كرمة في بستان ، وأكسب الماء الذى يسقيها قوة الدواء المسهل الذى وصفه له ، فلما انمرت عنبا كانت له قوة ذلك الدواء ، فاتاه بعنقود منها وطلب اليه أن يأكله ، فلما فعل قال له « ابن زهر » : حسبك هذا يا أمير المؤمنين ، فقد أكلت عشر حبات من العنب وهي تخدمك عترة مجالس ... وكان أن استراح الخليفة مما به .

وكان أطباء العرب فوق هذا كله يتوخون الصبر في ملاحظة الحالات التي درسوها ، ويحرصون على الدقة في تسجيلها ورصد نتائجها ، ويلتزمون موضوعية البحث ويتمسكون بنزاهة الباحث ، وفي ضوء هذا المنهج العلمي خلفوا لنا وثائق سريرية اكلينيكية مستمدة من ملاحظاتهم لمرضاهم وهم على أسرة المرض ، وذلك كله بالرغم من جهلهم بنوعية الآلات والأجهزة التي اخترعت بعدهم ، وقفرت بالطب العلمي الحديث في أيامنا الحاضرة قفزات واسعات (٤٧) .

موصوفة ، وقد ينضم مجرى رقبة المثانة من انضمام يقع له ، ويكون للبرد واليبس ، ومن ثولول يخرج فيه ، ويكون قليلا قليلا ، وقد تفسد هذه المجارى بخلط غليظ ، وعلاج ذلك التدبير الغليظ .

هذه كلها قواعد عامة توصل اليها الرازي من غير شك بمشاهدات وتجارب استغرقت جهدا بالغا ، أما عن مدى صحتها من الناحية الطبية فحسبنا أن نشير الى أن الدكتور محمد كامل حسين الأستاذ بطب القاهرة قد نقل هذا النص وهو في معرض القول بأن العرب قد ابتدعوا في الطب علم التشخيص المقارن الذي كان « الرازي » السباق اليه ، وعقب الدكتور على النص بقوله « وأكثر هذه الفقرة يفيد منه كل طبيب حتى الأطباء المعاصرون » (٤٨) .

ونسوق شاهدا آخر على « علمية » الدراسات الطبية العربية من « ابن سينا » ، اذ وصف في الجزء الثاني من قانونه حصى المثانة السريرية بعد أن اشار الى اختلاف الأعراض في الحصى الكلوية عنها في الحصى المثانية ، فقال :

« يجب أن نتأمل ما قلناه في حصاة الكلية ، ثم ننقل الى تأمل هذا الباب ، وقد علمت الفرق بين حصاة المثانة وحصاة الكلية في الكيفية والمقدار ، وبالفرق بين الحصاتين كانت الكلوية ألين يسيرا ، وأصفر وأقرب الى الحمرة ، والمثانية أصلب وأكبر جدا وأقرب الى الدكنة والرمادية والبياض ، وإن كان قد يتولد فيها حصاة متفتتة ، والمثانية تتميز في الأكثر بعد انفصال . وأكثر من تصيبه حصاة التانة نحيف ، وفي الكلية بالعكس ، والصبيان ومن يليهم تصيبهم حصاة المثانة » .

« ونقول ها هنا أيضا أن البول في حصاة المثانة الى بياض ورسوب ليس بأحمر ، بل الى بياض أو رمادية ، وربما كان بولا غليظا زيتي الثقل وأكثره يكون رقيقا وخصوصا في الابتداء ، ولا يكون ايجاع حصاة المثانة كايجاع حصاة الكلية ، لأن المثانة مخلاة في فضاء الا عند حبس الحصاة للبول ، فإن وجعه يشتد عند وقوعها في المجرى ، والخشونة في حصاة المثانة أكثر لأنها في فضاء يمكن أن يتركب عليها ما يخشنها ، ولذلك هي أعظم لأن مكانها أوسع ، وقد يتفق أن يكون في مثانة واحدة حصيتان أو أكثر من ذلك ، فيتساجح ويكثر تفتيت الرملية ، وقد يكون مع الرملية تخالي لانجراد سطحها عن الحصاة الخشنة ، ويدوم في حصاة المثانة الحكمة والوجع في الذكر ، وفي أصله وفي العانة مشاركة من القضيب للمثانة ، ويكثر صاحبه العبث بقضيبه خصوصا إذا كان صبيا ، ويدوم منه الانتشار ، وربما تأدى ذلك الى خروج المقعدة والى الحبس والعسر ، مع أن ما يخرج بقوه لانحفازه عن ضيق وعن حافز ثقيل وراءه . وربما بال في آخره بلا ارادة ، وكلما فرغ من بول يبوله ، انتهى أن يبول في الحال . والمتقاضي لذلك هو الحصاة المسندفة استدفاع البول المجتمع ، وكثيرا ما يبول الدم لخدش الحصاة خصوصا إذا كانت خشنة كبيرة ، وكثيرا ما تحبس ، فإذا استلقى المحصو وأشيل وركاه وهز ، زالت الحصاة عن المجرى ، وإذا غمز حينئذ في العانة انزرى البول ، وهذا دليل قوى على الحصاة . . . والحصاة الصغيرة أحبس للبول من الكبيرة لأنها تنشب في المجرى ، وأما الكبيرة فقد تروى عن المجرى بسرعة ، وأعلم أن حصاة المثانة تكثر في البلاد الشمالية وخصوصا في الصبيان » .

في كنفها ، إلا أن اتصاله بالطب الدخيل اليوناني والهندي والفارسي - في حركة الترجمة التي بدأت مع مطلع العصر العباسي - هو الذي أفاد أطباء العرب في اصطناع المنهج العلمي في دراساتهم ، ورفع معلوماتهم الطبية الى مرتبة العلم الدقيق ، ومكنهم من أن يتجاوزوا في دراساتهم الحالات الجزئية المفردة الى وضع قواعد عامة تدرج تحت كل منها مجموعة من الحالات المتشابهة .

ولكن بين المعاصرين من مؤلفينا من يظن أن هذا التحول في الطب العربي شأنه فيها شأنه في العلوم الدينية واللغوية ، كان وليد تطور طبيعي للفكر العربي دون تأثر بالثقافات الأجنبية الدخيلة (٥٠) ، ونبادر فنقول أنه لا خلاف بيننا وبين أصحاب تلك الدعوة في أن العلوم العربية - الدينية واللغوية بوجه أخص - قد نشأت ونمت في بيئتها قبل أن تؤثر الثقافات الأجنبية فيها - كما قلنا من قبل - ولكن الخلاف هو في « علمية » هذه العلوم ، بالمفهوم الذي شرحناه فيما سلف .

هذا الفيض من الحقائق العامة تجاوز فيه « ابن سينا » الأمثلة الفردية الى قواعد عامة ، استغرق التوصل اليها سيلا من المشاهدات التجريبية ، ويكفي في التدليل على دقتها الطبية البالغة أن يقول طبيب محدث وهو الدكتور خير الله تعليقاً على هذا النص « يصعب علينا في هذا العصر أن نضيف شيئاً جديداً الى هذا الوصف » (٤٩) .

ومثل هذين الشاهدين كثير ، وكلها شاهدة على أن أطباء العرب قد اصطنعوا المنهج العلمي في دراساتهم ، فاستندوا الى الملاحظة الحسية والتجربة العلمية ، وتوصلوا من دراسة الوقائع الفردية الى قواعد عامة تدرج تحتها الحالات الجزئية ، وتمكنوا بهذا من التوصل الى حقائق يشهد المتخصصون من المعاصرين بصوابها حتى اليوم .

وفي ضوء ما أسلفنا نستطيع أن نقول الآن أن الطب العربي وإن كان قد نشأ في بيئته العربية الإسلامية . واستقى من يثابعتها ونما

(٤٩) د. أمين أسعد خير الله : الطب العربي ص ١٥١ - ٥٢ .

(٥٠) فلننظر زميلنا الدكتور شوقي ضيف الذي يقول وهو يؤرخ لعلوم اللغة والدين (تاريخ الأدب العربي ج ٣ ط ٢ ص ١١٨ وما بعدها) : أن العرب قد أرسوا قواعد العلوم العربية والدينية بأصولها المستقرة ومناهجها الواضحة قبل أن يتصلوا بالثقافات الأجنبية . والدكتور محمد كامل حسين الذي يقول (أثر العرب في النهضة الأوروبية ص ٢٧ - ٧١) أن العرب قبل اتصالهم - بالثقافات الأجنبية « كانت لهم علومهم الخاصة بهم ، ساروا فيها شوطاً كبيراً ، ووضعوا لها أصولاً مستقرة ، ومناهج واضحة ، وكان هذا من عملهم وحدهم على غير مثال ... » ولتفنيد هذا الاتجاه نقبس من الدكتور شوقي نفسه ، قوله أن الخليل بن أحمد مؤسس النحو العربي ، كان « يتقن المنطق الذي ترجمه صديقه ابن المقفع وما يتصل به من القياس ... » ص ١٢٢ - ٢٣ وأن البصرة التي وضعت أصول النحو قد احتكمت في ذلك « احتكاماً شديداً الى القياس » ص ١٢٤ - ويقول أن الشافعي واضع علم أصول الفقه كان أول رائد « للاتجاه العلمي الذي لا يكاد يعنى بالجزئيات والفروع ... بل يعنى بفسط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها ، وذلك هو النظر الفلسفي » - وهو دخيل على العرب - وقد كان الشيخ الأكبر الأستاذ مصطفى عبد الرازق يستعرض أقوال المستشرقين (من أمثال كارادي فو ، وجولد تسيهر) ومؤداهان علم الفقه تأثر في تكوينه بعناصر أجنبية ، ثم يورد أقوال علماء الاسلام (من أمثال ابن خلدون وابن قيم الجوزية) في رد هذا العلم الى عناصر إسلامية دون ملاحظة التأثير الأجنبي فيها ، ثم يقول معقبا : « حتى لقد انتهى علم أصول الفقه بأن جمع من مسائل المنطق وإبحاث الفلسفة والكلام شيئاً غير قليل ... على أن هذا لا يمس ما قرناه من أن النظر العقلي نشأ أصلاً من أصول التشريع في الاسلام يؤيده ويحميه . » (التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٣٠ و ٢٤٥ ثم ١٢٤ - ١٣٥) وفيما قلناه في متن الكلام ما يكفي تعليقاً على هذا الهامش .

صقلية ، وبحركة اخرى في بلاد الأندلس كانت
أوسع مدى وأغزر مادة وأطول عمرا .

(١) في الحروب الصليبية

من الباحثين الغربيين من رد الى الحروب
الصليبية يقظة الغرب التي تلتها في المحيط
الاجتماعي والديني والسياسي والثقافي ،
وكان من هؤلاء «هن أم راين» Henne am Rhyn
وهانز بروتز Hans Brutz الذي رد الى
هذه الحروب وحدها تقدم أوروبا في الفترة
الواقعة بين عامي ١١٠٠ و ١٣٠٠ م (٥١) .

وحقيقة ان اتصال الغربيين بالشرق في
الحروب الصليبية قد اثار دهشتهم بازدهار
الحضارة العربية واعجابهم بتقدم العلوم ونضج
أهلها ، ومكن من تأثير العلم العربي في قلة من
المفكرين من أمثال أديلار أوف باث الذي كان
نشاطه بين سنتي ١١١٦ - ١١٤٢ م ونقل الى
اللاتينية الكثير من كتب العرب ، لكن الواقع
أن جمهرة المحاربين من هؤلاء الغربيين كان
همهم الانتصار على أعدائهم والاستحواذ على
بلادهم ، ثم هم كانوا في الأغلب والأعم من
أهل الحرف الذين تعوزهم الثقافة ، بل ان
هؤلاء الصليبيين لم يفكروا حتى في اقامة
مدارس يعلمون فيها أبناءهم ، برغم الأمد الطويل
الذي استغرقته حروبهم ! ومع انهم كانوا
يدهشون لبراعة أطباء العرب ، ويستدعون
منهم من يقوم بعلاج قادتهم ، فانهم لم يفيدوا
من ازدهار الطب العربي أكثر من ذلك .
وأقصى ما نستطيع افتراضه من تأثير الحروب
الصليبية في مجال الطب هو أن نقرن قيام
مدرسة الطب في مونبلييه بالتجارة التي تبودلت
بين جنوبي فرنسا وسواحل بحر الروم
الشرقي - فيما يقول باركر أستاذ السياسة

ونقول أخيرا : ما الضير في أن نعترف بأن
العرب في مطلع نهضتهم الفكرية قد تلقوا عن
غيرهم ، وافادوا مما أخذوا ؟ اننا نعلم أن
العرب في العصر الذهبي لنهضتهم قد سدوا
هذه الديون مضاعفة واعطوا أوروبا اضعاف
ما أخذوا عنها ، فانتقل التراث العربي الى
أوروبا في مطلع يقظتها منذ النصف الثاني من
القرن الحادي عشر - كما سنعرف عندما
نتحدث عن ((انتقال الطب العربي الى أوروبا))
وهذه هي طبيعة النهضة العالية ، يتفاعل
بعضها مع بعض ويعيش كلها بين أخذ وعطاء ،
تأثر وتأثير . . . واستقرأ تاريخها أعدل شاهد
على صدق ما نقول .

(ج) انتقال الطب العربي الى أوروبا .

اجتاحت القبائل الجرمانية المتوحشة روما
عاصمة الدولة الرومانية الغربية في أواخر
القرن الخامس ، فانطفا مشعل الحضارة في
أوروبا بضعة قرون من الزمان ، بينما ظهر
الاسلام في المشرق العربي ابان القرن السابع
للميلاد ، ونشر طيلسانه على صقلية وإسبانيا
وغيرهما في العالم الأوروبي ، ومنذ منتصف
القرن الثامن اتصل أهله في حركة الترجمة
بتراث بناء الحضارة من الأمم القديمة ،
وسرعان ما ازدهرت في ظله حضارة ناضجة
كانت مركز الاشعاع الفكري ومصدر النور في
العنينا كلها فترة طويلة من الزمن .

وقد عبرت الحضارة العربية الى أوروبا من
ثلاثة طرق : احتكاك الغرب بالشرق في الحروب
الصليبية ، وبحركة الترجمة التي نشأت في

(٥١) ياخذ المستشرق ارنست باركر E. Barker على اصحاب هذا القول (١) خطأ القول بعلة مفردة واحدة
تفسر كل ما أعقبها من أحداث مع اغفال تأثير صقلية وإسبانيا على النحو الذي سنعرفه بعد قليل . (٢) وخطأ القول بأن
حادثا سابقا هو بالضرورة علما ما بعده من أحداث - وذلك في فصل كتبه عن الحروب الصليبية في كتاب تراث الاسلام ،
وترجم الفصل د. على احمد عيسى .

جادة في أوروبا ! وتخصصت مدرسة سالرنو في الطب وأضحت كتب العرب الطبية مصادر دراسي الطب في أوروبا حتى مطلع العصور الحديثة .

وكانت صقلية تنهل من ينابيع عربية ولاينية ويونانية ، لكن الصدارة في العلوم عامة وفي الطب خاصة كانت لثقافة العرب .

وجاء أول تأثير للطب العربي في أوروبا أواسط القرن العاشر في مدرسة سالرنو (٥٢) السالفة الذكر - موطن ابقراط أبي الطب اليوناني القديم ، ومن الطريف أن الطب العربي قد عرف طريقه الى هذه المدرسة عن طريق تاجر عربي من قرطاجنة - بتونس - درس الطب العربي وجمع كثيرا من مخطوطاته ، وأبحر بها الى جنوبي إيطاليا واستقر في سالرنو ، بعد أن غرقت بعض مخطوطاته في عاصفة هاجمته اثناء رحلته ، واعتنق المسيحية وأسمى نفسه « قسطنطين الافريقي » + ١٠٨٧م (٥٣) واعتكف عام ١٠٥٦م في دير وانهمك في ترجمة مخطوطاته الطبية من العربية الى اللاتينية - لغة أوروبا العلمية اذ ذاك - فكانت ترجماته نواة مدرسة سالرنو وتخصصها في الطب .

وعلى هدى ذلك الرائد سار تلميذه يؤانس افلاكيوس + ١١٠٣م وغيره ممن حاولوا أن يمزجوا بين طب العرب والنصوص اليونانية الرومانية المتوارثة .

وانتشر خريجو سالرنو في أوروبا ، فخفف

بجامعة كمبردج - وسنعود الى الحديث عن هذه المدرسة عندما نتحدث عن حركة الترجمة في بلاد الأندلس .

حركة الترجمة في صقلية :

أخذ العرب في غزو صقلية منذ عام ٨٢٧م واستولوا على الجزيرة كلها عام ٨٧٨م وأخذوا ينشرون حضارتهم في ربوعها حتى انحسر عنها سلطانهم عام ١٠٩٢م على يد ملوك النورماندين الذين لم يكونوا أقل من حكام العرب تسامحا في الدين ، وكفالة للعلم ورعاية لأهله ، وفي مقدمة هؤلاء « روجار الثاني » الذي حكم بين سنتي ١١٣٠ و ١١٥٤م واقترن اسمه بأكبر جغرافي عربي هو « الشريف الإدريسي » ، ثم حفيده « فردريك الثاني » + ١٢٥٠ الذي استبد به الاعجاب بحضارة العرب فتشبه بهم في عاداته وأسايب حياته ، وكان يقرأ كتبهم في أصولها ، لأنه كان ملما بالعربية الى جانب الألمانية والفرنسية والإيطالية واللاتينية واليونانية ! وقد أنشأ عام ١٢٢٤م جامعة نابلي لنقل العلم العربي الى العالم الغربي وسرعان ما أضحت مركز الاهتمام بالثقافة العربية ، وفيها وضعت ترجمات مختلفة من العربية الى اللاتينية والعبرية ، وبتشجيعه زار « ميخائيل سكوت » طليطلة عام ١٢١٧م ونقل الكثير من الكتب العربية .

واهتم فردريك الثاني بمدرسة سالرنو التي سنشير اليها بعد قليل ، وسن لها لائحة تفرض على الطبيب ألا يزاول الطب في مملكته بغير ترخيص رسمي منها ، فكانت هذه أول لائحة

(٥٢) قيل انها نشأت على شاطئ صحن شمس ، وأن مستشفى قد أنشأه بها طائفة البندكت أوآخر القرن السابع ، وأن مدرسة للطب قد نشأت بها في منتصف القرن التاسع ، وأن لم يعرف الطب الحقيقي طريقة اليها قبل مطلع القرن الحادي عشر ، وتميزت مدينة سالرنو من غيرها من المدن الأوربية بحرية الفكر وعلمانية الدراسة والتحرر من قيود اللاهوت .

(٥٣) مع أن قسطنطين لم يكن عالما ولا ذا دراية كافية باللاتينية ، وكانت ترجماته أقرب الى التلخيص منها الى الترجمة الدقيقة ، وقد نفل من العربية قسما كبيرا من كامل الصناعة الطبية لعلى بن عباس ، وزاد المسافرين لابن الجزار ، وطب العيون لعنبن بن اسحاق ، وكثيرا من كتب اسحاق الاسرائيلي في البسول والحميات والأدوية المفردة وغيرها ، وترجم كذلك نصوصا عربية ترد الى اصول يونانية .

ملوك الأسبان - حين استردوا بلادهم - حذو العرب في كفالة التسامح مع من ليسوا من أهل ملتهم ، وكانوا يقاتلون العرب وهم يجلسون علماءهم ، ويكونون الاعجاب بحضارتهم .

وقد بدأ اتصالهم بتراث العرب برحلة قام بها الى قرطبة « جريرت » الذى ولي عرش البابوية باسم « سيلفستر الثاني » ، اذ قضى في اسبانيا ثلاث سنوات (٩٦٧ - ٩٧٠ م) استهوته خلالها اسرار العلوم العربية وكنوزها .

ومع ذلك فان المحدين من مؤرخي الأسبان ينكرون اثر التراث العربي في أسبانيا ، ويخطئون الرأي الذى شاع في أوائل القرن التاسع عشر وبالف في خطورة الدور الذى قام به العرب في بلاد الأندلس ، وكان من أسباب هذا ميل الباحثين - تحت تأثير الجامعات الفرنسية والأمريكية - الى الارتداد بكل شيء الى أصول لاتينية ما أمكن ذلك ، ولم يوفق الباحثون - من أمثال « ميشيل آسين » Miguel Asin « وچوليان ربيرا » Julian Rebera بكل دراساتهم القيمة الى تغيير هذا الموقف (٥٥) .

لكن يبدو ان الاسلام قد أثر في كل مرافق الحياة في أسبانيا ابان القرن العاشر ، وبسقوط طليطلة - وسنتحدث عنها بعد قليل - أخذ يشيع تأثيره في كل أوروبا ، اذ كانت طليطلة مركز الثقافة الاسلامية في القرن الحادى عشر بعد أن خرب البربر قرطبة أوائل ذلك القرن ، واحتفظت بمكانها حتى بعد أن غزاها « الفرنس السادس » عام ١٠٨٥ م فاصطبغ بلاطه بالثقافة الاسلامية كما كان بلاط « فردريك الثاني » في

فريق منهم عام ١١٦٠ م الى جنوبي فرنسا واستقر كثيرون منهم في مونبلييه التي خلفت سالرنو بفضل تحررها من سلطة الكنيسة ، ونزوعها العلماني ، ومنها تسلسل الطب الى باريس وغيرها من المدن الأوروبية .

وظلت مدرسة سالرنو قائمة حتى القرن الرابع عشر حين أخذ نجمها يأفل ، وفي مطلع القرن التاسع عشر أغلقها نابليون (٥٤) ، وخلفتها **پادوا** ، بفضل ما تميزت به من تسامح ديني وحرية فكرية فسيطرت على الطب في أوروبا ابان القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

وبدأ بذلك تأثير الطب العربي في توجيه الطب الأوروبي وتجديد مصطلحاته ، كما تمثل في كتب التشریح في مدرسة سالرنو بوجه اخص ، وكما لوحظ في الأدوية التي كان للعرب فضل انتقاؤها ، بل بدأ في غير هذا من مجالات الطب وفروعه ، فأثرت جهود قسطنطين ومدرسة سالرنو وآتت اكلها في أنحاء أوروبا كلها .

٣ - حركة الترجمة في بلاد الأندلس

عبر العرب الى أسبانيا عام ٧٠٩ ولم ينحسر سلطانهم عنها الا بسقوط آخر مملكة عربية في غرناطة عام ١٤٩٢ م - اى بعد خروج العرب من صقلية بأربعمائة عام تماما - وخلال هذه القرون الثمانية انتشرت حضارة العرب المزدهرة في ربوع البلاد ، وفرضت اللغة العربية نفسها على المفكرين بوجه خاص ، وكفل حكام العرب التسامح الديني ، وبسطوا رعايتهم على أهل العلم من جميع الملل ، وحذا

(٥٤) وكان من الكتب الطبية التي نقلت الى اللاتينية في حركة الترجمة في صقلية : كتاب الحاوي للرازي ، والطب النجيبى المنسوب الى جالينوس - وكان قد نقله الى العربية حنين بن اسحاق - وكتاب جراحة ماسويه وتقويم الأبدان في تدبير الانسان لابن جزله ، وابقراط في الطب البيطرى .

(٥٥) J. B. Trend في فصل عن اسبانيا والبرتغال في كتاب تراث الاسلام The Legacy of Islam الذى صدر عام ١٩٢٧ وترجمته الى العربية لجنة الجامعيين لنشر العلم بالقاهرة عام ١٩٣٦ - وهذا الفصل من ترجمة د. حسين مؤنس .

الجزار ، « والأقرباذين وتدبير الصحة والأخلاق المنحول » لجالينوس ، و « طب العيون » لعمار بن علي وغير ذلك كثير .

ونشأت في أوروبا مدارس طبية تقيم دراساتها على الكتب العربية المترجمة الى اللاتينية ، ويبدو هذا في **مدارس مونبلييه ، ونابلي ، وبولونيا ، وبادوا ، واكسفورد ، وكمبردج ،** وغيرها . وقد أسس أولها (مونبلييه) أطباء العرب المطرودون من أسبانيا ، وأصبحت معهدا للدراسات الطبية المؤسسة على تعاليم ابقراط وجالينوس ، وان كان المظنون ان النصوص التي رجعوا اليها كانت في البداية مترجمة عن نسخ عربية ، ولم تستخدم فيها كتب الطب العربي الا في بداية القرن الرابع عشر . ففي عام ١٣٠٤ ترجم كتاب « قوانين الأدوية المسهلة » لابن رشد عن نسخة عبرية ، وفي عام ١٣٤٠ أدخل الشطر الاول من قانون « ابن سينا » في المنهج الرسمي المقرر على المرشحين للدرجات العلمية في الطب ، وعندئذ تضمنت المحاضرات الدراسات الطبية عند العرب ، ولبت هذا حتى عام ١٥٦٧ حين استبعدت كتب الطب العربي من قائمة الكتب المفررة للامتحان في مدارس الطب ، على اثر شكوى تقدم بها الطلاب انفسهم ! وان كان المحاضرون قد ظلوا يعتمدون على قانون « ابن سينا » حتى عام ١٦٠٧م - فيما يروى ديلاسي أوليري O'Leary في كتابه عن « الفكر العربي ومكانه في التاريخ » .

وقريب من هذا يقال في أثر الطب العربي في المدارس التي نشأت في أوروبا وتشيعت للثقافة العربية وتأثرت بكتبها المترجمة عن العربية .

ومن طريف المفارقات أن يكون مقدرا للعلم العربي أن يسود أوروبا المسيحية على يد رجال دين من الكنيسة التي أشعلت في ذلك العصر

بالرمو بعد ذلك بقرنين ، بل أعلن الفونس هذا نفسه امبراطور العقيدتين ! ونشطت في طليطله حركة علمية جعلتها قبلة طلاب العلم في كل انحاء أوروبا .

ووضحت الحركة العلمية في طليطلة منذ أن استدعى رئيس أساقفتها المونسنيير « ريموند » (١١٢٦ - ١١٥١ م) العلماء والمهرة في اللغات ، وأنشأ ديوانا لترجمة التراث العربي ليكون في متناول طلاب العلم من الأوروبيين ، وجعل على رأس المدرسة كبير الشماسة أرشيدوق سيجوفيا « دومنيك جنديسالفوس » Dominic Gundisalvus وزاد فأدخل الدراسة بالمدارس ، واستمرت حركة الترجمة نشيطة من العربية الى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر حتى الرابع عشر ، بل الى ما بعده ، وفيها نقلت أوروبا كتب العرب التي كانت تتضمن التراث اليوناني مع شرحه والتعليق عليه ، وزاد النور توهجا في عهد « الفونس الخامس » (الحكيم) + ١٢٨٤ م ملك قشتالة واكبر دعاة الثقافة العربية في أسبانيا المسيحية ، وزاد فأغرى المترجمين بأن ينقلوا الى القشتالية التي أصبحت لغة أسبانيا الحديثة .

وكان أشهر المترجمين من العربية في طليطلة « جيرار الكويموني » + ١١٨٧م الذي خلف « جنديسالفوس » على رئاسة الديوان ، ويرجح « الدوميلي » أنه كان رئيسا معترفا به لمدرسة من المترجمين باشرت نشاطها في طليطلة تحت رعاية الحكومة ، وبهذه الجهود كلها أضحت طليطلة مدينة العلم والنور .

وفي ظل هذه الحركة التي اتسعت آفاقها وعمق نشاطها و طال أمدتها ترجمت من العربية الى اللاتينية كتب طبية كثيرة لابن ماسوية والرازي وابن سينا ، وأبي القاسم الزهراوى وعلي بن يونس المصرى وكثيرين غيرهم ، كما ترجمت من العربية الى العبرية أو القشتالية « زاد المسافرين » تم « الأقرباذين » لان

نفسه نيران الحروب الصليبية ، باسم
المسيحية التي كان أظهر وأسمى مافيه دعوتها
الى المحبة والمسالمة !!

وكان مرد حركة الترجمة عن العربية الى
أمرين : أولهما : ازدهار الحضارة العربية
وتفوقها على ماعداها في سائر أنحاء أوروبا في
ذلك العصر - وهو أمر كان من الواضح بحيث
لم يستطع ان تتنكر له الكنيسة نفسها ،
وكانت في ذلك الوقت ذات سلطان واسع
النطاق ، ممدود الرحاب . وثانيهما : تطلع
أوروبا الى احياء تراث أجدادهم من اليونان ،
وكانت اليونانية مجهولة في الغرب كله ، مع
استثناء صقلية ومدن في الدولة البيزنطية -
الرومانية الشرقية - الى أن استولى الأتراك
على عاصمة الدولة البيزنطية - القسطنطينية
عام ١٤٥٣ م ففر منها علماء اليونان الى شمالي
أوروبا متعورين ، ومعهم مخطوطاتهم اليونانية ،
وأخذوا يعلمون طلاب العلم اليونانية وثقافتها .

ومن الحق ان نقول مع « الفرد جيوم
A. Guillaume » لو أن العرب كانوا برابرة
كالمغول الذين أطفأوا جذوة العلم في الشرق
اطفاء لم ينبعث بعدهم أبدا ، وقد لا ينبعث
أبدا (٥٦) ، بسبب ضياع دور الكتب وفقدان
الآثار الأدبية ، لو أنهم كانوا كذلك لتأخر عصر
الاحياء في أوروبا عن مواعده بأكثر من قرن . . .
وسوف نرى عندما نخرج الى النور الكنوز
المودعة في دور الكتب الاوربية ان تأثير العرب
الخالد في حضارة العصور الوسطى ، كان أجل
شأنا وأكبر خطرا مما عرفناه حتى اليوم (٥٧) .

هذه لمحة الى أهم مظاهر النضج في الطب
العربي ابان عصوره الوسطى ، بكشفه
العلمية التي كان للعرب فضل السبق الى
ابتداعها ، وبالنزعة العلمية التي سرت في
دراساته ، في عصر لم تكن علمية العلم قد
استوفت شرائطها ، مما شد انتباه الغربيين
فجدوا في نقل كنوزه الى لفاتهم ، واتخذوا منه
زادا لترانيمهم ، وسراجا يضيء مسيرهم في
طريق التقدم .

(٥٦) خيب الله توقعات هذا المستشرق ، فالمغول أطفأوا مصباح العلم في الشرق عام ١٢٥٨م عند استيلائهم على بغداد
عاصمة الدولة الاسلامية حينذاك ، وشاء الله أن يظل مصباح العلم مضاء بعد ذلك في دمشق وفي القاهرة وفي كثير
من حواضر الشرق ، حتى استيقظ الشرق كله وأضيئت فيه مصابيح العلم ، في عصرنا الحديث .

(٥٧) في فصل عن الفلسفة والالهيات في كتاب تراث الاسلام - السالف الذكر - والفصل من ترجمة توفيق
الطويل .

مصادر البحث

- * ابن ابي اصيبعة (أبو العباس أحمد بن قاسم) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء - جزءان (نشرة ماكس ميلر - القاهرة ١٣٠٠ هـ) .
- * ابن جليل (سليمان بن حسان الأندلسي) : طبقات الأطباء والحكماء - تحقيق فؤاد السيد - مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة ١٩٥٥ .
- * القفطي (جمال الدين بن يوسف) : اخبار العلماء بأخبار الحكماء - الخانجي - القاهرة ١٣٢٦ هـ .
- * ابن النديم (محمد بن اسحاق) فهرست العلوم (طبعة فلوجل) القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- * ابن البيطار (ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي) : الجامع لفردات الأدوية والأغذية - ٤ أجزاء القاهرة ١٢٩١ .
- * حنين بن اسحاق : العشر مقالات في العين - نشره وترجمه الى الانجليزية ماكس مايرهوف - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٢٨ .
- * ثابت بن قرة : الذخيرة في علم الطب - نشرة د . جرجي صبحي - المطبعة الاميرية بالقاهرة - الجامعة المصرية ١٩٢٨ .
- * عبد اللطيف البغدادي - الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث الملائمة بارض مصر - القاهرة .
- * علي بن عباس الجوسي : كامل الصناعة الطبية (او الكناشة الملكية - جزءان القاهرة - ١٨٧٧ م) .
- * ابن سينا : القانون في الطب .
- * الرشيدى : عمدة المحتاج في علمى الأدوية والعلاج - ٤ أجزاء - القاهرة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م .
- * د . التجانى الماحى : مقدمة في تاريخ الطب العربى - مطبعة مصر بالخرطوم ١٩٥٩ .
- * A. A. Khairallah, Outline of the Arabic Contribution to Medicine and the Allied Sciences, Beirut, 1946.
- ترجمة د . مصطفى أبو عز الدين : الطب العربى - بيروت ١٩٤٦
- A. Issa, Histoire de la Bimaristan Islamique.
- والنسخة العربية : تاريخ اليمارستانات في الاسلام - جامعة فؤاد الاول - كلية الطب - القاهرة ١٩٤٤ .
- * الطب والاقرباذين للدكتور محمد كامل حسين في كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية - باشراف اليونسكو - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة ١٩٧٠ .
- * د . بول غليونجى : ابن النفيس (العدد ٣٧ من سلسلة كتب اعلام العرب - بالقاهرة) (بغير تاريخ) .
- الكتاب الذهبى للمهرجان الالفى لذكرى ابن سينا - جامعة الدول العربية الادارة الثقافية . القاهرة ١٩٥٢ .
- George Sarton, An Introduction to the History of Science (Cambridge Institution of Washington — London, 1931).

المجلد الثاني من الجزء الثاني .

Aldo Mieli, La Science Arabe et son role dans l'evolution Scientifique Mondiale (Leiden, 1934).

ترجمة د . عبد الحليم النجار ، د . محمد يوسف موسى : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي (القاهرة ١٩٦٢) .

ولعل هذين الكتابين (سارتون والدومييلي أفيم المصادر الأجنبية جميعها)

Will Durant, The Story of Civilization, Vol. IV (age of faith)

E. Browne, Arabian Medicine, University Press, Cambridge 1921.

وقد ترجمه الى الفرنسية H. P. J. Renaud تحت عنوان :

La Médecine Arabe, Paris, Larose, 1933.

D. Campbell, Arabian Medicine and its influence on the Middle ages, Kegan Paul, London, 1926.

Lucien Leclerc, Histoire de la Medicine Arabe, 2 Vols., Paris 1876.

Milton-Simpson, M. W., Arab Medicine and Surgery (Oxford University Press, London, 1922.

Castiglioni (Arturo), A History of Medicine

ترجمه عن الايطالية E. B. Krumbhaar طبعة ثانية لندن ١٩٤٧ .

Sigerist (H. E.), History of Medicine, N.Y. Oxford University Press Vol. I, 1951.

❖ ❖ ❖

ارنولد توينبي

مصدق عبث خطاب *

الكتب اهمها سفره الرائع « دراسة للتاريخ » وقد احصى الاستاذ السوفييتي كوسمينسكي في كتابه « فلسفة التاريخ عند الاستاذ توينبي » عدد صفحات المجلدات العشر الاولى من الكتاب فقال انها تبلغ ٦٢٩٠ صفحة فيها ٣٥٠٠٠ كلمة ، فاذا اضفنا الى هذه المجلدات المجلد الحادي عشر الذي اصدره في عام ١٩٥٩ بالتعاون مع ادوارد مايرز وعدد صفحاته يربو على ٢٥٠ صفحة والمجلد الثاني عشر (١٩٦١) الذي تزيد صفحاته على ٦٧٤ صفحة (عدا عن الفهارس والبيولوجرافيا) لوحدنا ان هذا الكتاب الضخم يربو عدد صفحاته على سبعة الاف صفحة .

لعل خير مفتاح لشخصية ارنولد توينبي هو بيت من الشعر للكاتب المسرحي الروماني تيرنس (١٩٥ - ١٥٩ م) في روايته « معذب نفسه » رده توينبي في كتابه « تجارب » ثلاث مرات في اماكن متفرقة من الكتاب وهو « انني انسان ، ومن تم فليس هناك شيء انساني لا اشعر انه يهمني » . والحقيقة ان توينبي - باجماع الآراء - بحر زاخر بالمعرفة الشاملة ، ومثل فريد في القرن العشرين ، قرر التخصص . ولا يقنصر الأمر في معرفة توينبي على الاطلاع الواسع وحده ، وانما هناك جانب آخر للمسألة وهي غزارة الانتاج . ولقد اصدر توينبي بضع عشرات من

* الاستاذ صدقي خطاب ، يعمل في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت . ترجم عددا من الكتب النقدية والمسرحية والمقالات .



ارنولد توينبي

مؤرخ لعصر متأزم « لرونالد سترومبيرج »
يقول في مقدمته :

« ان توينبي سسذكره الناس على اعتبار انه المؤرخ العظيم لعصرنا - حفة حروب القرن العشرين العاليه - وكما ان جيبون وماكولي وبوركهارت منلوا عصورهم ، فان توينبي سيمثل عصرنا للأجيال القادمة . . لس هناك من مؤرخ في هذا العصر بنافسه في المجال الواسع وفي الاسلوب وفي الموضوع وفي المنزله الرفيعة التي يحلها . ان انشغاله باصمحلل الحصارا ، ويمكنه المدهس من قدر كبير جدا من المعرفة ، حول جميع حضارات العالم جعل منه شخصه من شخصيات القرن العشرين حيث نقرن الكفاءة الفنية بالانهاار الاجتماعي . » (٢) ويرى باتريك جاردنر « ان نظام توينبي وهو فلسفته في دراسة التاريخ ، يمثل - بدون شك - اكبر اسهام قام به القرن العشرين في ميدان التأمل التاريخي . ومن بم فقد اصبح مركزا للجدل والنقاس ، ومركز فيه الكثير من المعارضة العامة للمشروعات والخطط التأملية التي برزت بشكل واضح في السنوات الاخيرة » (٣) .

لقد سفل توينبي - وما زال - المؤرخين وعلماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ كثيرا بما كتب (٤) ، ولقد كان سعيدا بكل ما كتب عنه من نقد ، فهو يقول في مقدمة كتاب صدر بعنوان « غاية تاريخ توينبي » ويضم عددا من الدراسات التي كتبها عدد من العلماء حول تاريخه « ان

ولقد لاقى ظهور هذا الكتاب وموجزه الذي وضعه سهر فيل حماسا كبيرا لدى جمهور المنفيين وان كان قد لقي - المؤلف - عنتا كثيرا من عدد من المؤرخين . يقول كوسمينسكي عن ظهور الكتاب :

« لقد قابل الصحافة البورجوازية ظهور « دراسة التاريخ » و « الموجز » بحماس ، واصبح توينبي نبي الاذاعة والصحافة . وائارت محاضراته التي القاها في الاذاعة البريطانية في برنامج « محاضرات ريب » عام ١٩٥٢ ضجة . وقام توينبي بعدد من الرحلات الى امريكا ليحاضر هناك . . واعتبرته مجلة لوك اعظم مؤرخ معاصر ، وان اسمه سمم قائمة المؤرخين التي بدأت بهيرودوتس . وفارن حواريو توينبي « مكتشفاته » بمكتشفات كوبرنيكس وجاليليو ونيوتن ودارون . وشبهوا منهجه في دراسة التاريخ باكتشاف نظرية الكم في الميكانيكا . واعتبر اليوم الذي نظهر فيه اية كتابات له « يوما متسهودا في تاريخ الحضارة الغربية » وقد حيي توينبي لا على انه مبدع فهم جديد تماما للتاريخ فحسب ، وانما ايضا على اعنباره نبيا عظيما يرشد البشرية الى الطريق المؤدية الى مستقبل افضل » . (١)

واذا كان هذا ما لاقاه توينبي من حماس في الثلاثينات وفي الاربعينات وفي الخمسينات ، فان المتحمسين له لم ينتهوا ، فقد صدر في عام ١٩٧٢ كتاب بعنوان « ارنولد ج. توينبي :

(١) Y. Kosminski, Professor Toynbee's Philosophy of History crisis, Moscow, 1965. pp. 3-4.

(٢) Ronald N. Stromberg, Arnold J Toynbee : Historian for an Age in Crisis, Southern Illinois University Press, 1972. p. XIII.

(٣) Patrick Gardner, "Speculative Systems of History", Encyclopedia of Philosophy (Collier-Macmillan, 1967) Vol. 7, p. 521.

(٤) خصص توينبي المجلد الثاني عشر من تاريخه - يقع في ٧٤٠ صفحة - لمناقشة نفاده ومراجعة آرائه . واورد في هذا المجلد الذي صدر في عام ١٩٦١ ببليوغرافيا كنب من نقد لكتابه الكبير تقع في ١١ صفحة . وصدرت في مجلة History and Theory العدد الرابع (١٩٦٤) ببليوغرافيا تضم عشرين صفحة عما كنب عن توينبي في اللغات الغربية ما بين ١٩٤٦ و ١٩٦٠ .

ولد ارنولد جوزيف توينبي في لندن في ١٤ أبريل (نيسان) ١٨٨٩ ، من اسرة تنتمي الى الطبقة الوسطى المثقفة ، فقد كان والده يعمل موظفا في شركة التتاي ، وامه حصلت على درجة البكالوريوس في التاريخ من جامعة كيمبرج . اما جده لاييه فقد كان اول طبيب في لندن بتخصص في الاذن والحنجرة ، واول طبيب يأخذ جنيهين للاستشارة الطبية بدلا من جنيه واحد . وقد كان رائدا في الصحة العامة وفي التخدير . وقد مات في شرح سبابه وهو يجري على نفسه نجارب التخدير ، ولم يترك وراءه مالا كبيرا . اما جده لأمه فقد كان مخترعا في مجال السكك الحديدية ، وحاول ان يجد مصدرا لتمويل مخترعاته ، الا انه فشل فاش ذلك عليه ومات مبكرا دون ان يترك مالا كثيرا . ويحمد ارنولد توينبي المقادير التي جعلته يلد لآباء غير اغنياء ، لان ذلك كان سبباً في بقاءه وبين الانتاج الغزير ، فالطبيعة البشرية - كما يقول توينبي - حتى ولو توفرت لها نزعة اصيلة نحو فن من الفنون او حرفة من الحرف لا تميل عادة الى بذل جهد كبير اذا عرفت ان لديها من الامكانيات المادية ما يجعلها تحيا حياة مريحة بدون مجهود . وصحيح ان الضمير والطموح قد يكونا حافزين بديلين ، ولكن لا بد من ان يكونا قوين اذا اريد لهما ان يكونا حافزين فعالين ، وهذه حالات نادرة . فان وخز الحاجة - كما يرى صاحبنا - حافز لا يمكن الاستغناء عنه عند معظمنا (٧) .

المؤلف مدبر لكل نافذ ، حتى الناقد الذي يهدف الى سلخ فروه الرأس ولا يريد ريادة المعرفة . ان مثل هذا الناقد الذي يسعى الى سلخ فروه الرأس يقدم لضحيته على الافل تحية عندما يعطي شيئا من وقته واهتمامه لعمل هذا المؤلف ، فليس سلخ فروه الرأس اسوأ مصير يمكن ان يلقاه المؤلف ، ان تجاهله اسوأ بكثير من هذا المصير (٥) .

وعرف الفارسي العربي توينبي من خلال مواقفه المشرفة في تأييد القضية الفلسطينية ، والتنديد بالصهيونية ، ومما رجم له من مؤلفات - وان كان عددها لا يتجاوز العشرة .

وسنحاول في هذا المقال اعطاء صورة عامة عن حياة توينبي ، وعن انجازاته الضخمة ، وعن مواقفه الانسانية .

بالرغم من اننا نجد تنافسا متناثرة عن حياة توينبي في كتبه الكثيرة ، الا ان هناك ثلاثه كتب منها تتحدث عن حياته : الاول من هذه الكتب هو المجلد العاشر من كتابه « دراسة للتاريخ » وهو بعنوان « الهامات المؤرخين » وفيه يتحدث عن المؤرخين الذين افاد منهم ، ومن هؤلاء ابن خلدون (٦) وابن الطقطقي من المؤرخين العرب . والكتاب الثاني هو كتاب « معارف » الذي صدر في عام ١٩٦٧ . والكتاب الثالث هو كتاب « تجارب » الذي صدر في عام ١٩٦٩ ، وهذان الكتابان الاخيران هما الاساس الذي اعتمدنا عليه في الترجمة لحياته .

Edward T. Gargan, ed., The Intent of Toynbee's History (Loyola University Press, Chicago 1961) p. iv. (٥)

(٦) يذكر توينبي ابن خلدون في مواضع كثيرة من كتابه « دراسة للتاريخ » ويعرّد له في المجلد الثالث سبع صفحات (٣٢١ - ٣٢٧) وفي المجلد العاشر اربع صفحات (٨٤ - ٨٧) ويرى ان ابن خلدون قد « تصور في مقدمته ووضع فلسفة للتاريخ هي بلا مراء اعظم عمل من نوعه ابتدعه عقل في أي مكان او زمان » المجلد الثالث صفحة ٣٢٢ .

Arnold J. Toynbee, Acquaintances (Oxford, 1967)

(٧) الصفحات ٣ ، ٤ ، ٥ .

للقى توينبي تعليمًا ممتازًا في الموضوعات الكلاسيكية (ونفصد بها التاريخ اليوناني القديم والتاريخ الروماني والفتن اليونانيه واللابينية وآدابهما) وتلمد على يد استاذ الادب اليوناني القديم **جلبرت مري** . وقد درس ارنولد اللابينية وهو في السابعة من العمر ولمدة خمسة عشر عاما ، ودرس اليونانية القديمة وهو في العاشره ولمدة اثني عشر عاما . وقد أنفن هابن اللفتين انفا ناما ، حى انه نظم فيهما قصائد اوردها في القسم الثالث من كتابه « تجارب » ، كما ان العبارات اللابينية واليونانية نرد كثيرا في كتابه « **دراسة للتاريخ** » دون ان يحاول ترجمتها (وقد اخذ عليه بعض النقاد ذلك) . واستطاع ان يتعلم في المدرسة وفي الجامعة اللغات الفرنسية والايطالية والايطالية واليونانية الحديثة ، وان يلم بالتركية (وبالعربية فيما بعد) .

ويتحدث ارنولد عن اثر هذه الثقافه

ويحدثنا توينبي عن فضل امه عليه ، التي جعلت منه مؤرخا عندما اذكب فيه حب التاريخ (٨) ، وكانت صاحبها له صحبة فكرية ساحره (٩) ، والفت كتابا مدرسيا في التاريخ . وكان نأثر عمه هارى عليه قونا بأرائه المنحرة وشخصيته القويه .

درس ارنولد في مدرسه داخلية في ويون كورت ، حيث قضى فيها ثلاث سنوات ، سم التحق بكلية وتنسستر ، حيث امضى فيها خمس سنوات (١٩٠٢ - ١٩٠٧) وفاز في نهاية دراسته الثانوية بمنحة دراسية ، مكنته من مواصلة دراسته الجامعية في جامعه اكسفورد (١٩٠٧ - ١٩١١) حيث درس التاريخ القديم ، وعين في تلك الجامعة بعد نخرجه ، وارسلته جامعة اكسفورد للدراسة في المدرسة البريطانية للآثار في اتيانا (١٩١١ - ١٩١٢) فبقى هناك عاما واحدا ورجع بعد ذلك الى جامعهه (١٠) .

(٨) M. F. Ashley Montagu, ed., Toynbee and History . Critical Essays and Reviews (Porter Sargent Publisher, Boston, 1956) p. 8

راجع ايضا المجلد العاشر من « دراسة للتاريخ » صفحة ٢١٣ .

(٩) Arnold Toynbee, Experiences (Oxford, 1969) p. 194.

(١٠) يعطى توينبي اهمية كبيرة لهذه الفترة الى فضاها في اليونان ، ويستخدم في تسميتها الكلمة الالمانية Wanderjahr - وتعنى سنه ينقها المتدرب مسافرا لتحصين مهاراته قبل ان يشرع في عمله - ويتحدث عنها طويلا في كتابه « تجارب » (من صفحة ١٨ الى صفحة ٢٩) ويرى انها كانت تكملة لثقافته الاغريقية ، وانها كانت سببا في نقله من عالم اليونان والرومان القديم الى عالم القرن العشرين . يقول توينبي :

« كنت أمشي من قرية لقرية ، وانفق الليل في قرية اخرى ، وامضى المساء - قبل ان آوى الى فراشي - في دكان القرية الذي كان بمثابة ناد للرجال يؤمونه بعدعودتهم الى منازلهم اثر عملهم نهار يومهم في الحقول او المراعى . وكنت اصغى مساء اثر مساء الى الاحاديث التي كانت تدور في دكان القرية ، وفي النهاية بدأت اشارك في هذه الاحاديث بعد ان ازدادت معرفتي بلفسة الفلاحين اليونانيه الحديثه تدريجا . وفي هذا المكان حصلت على ثقافتي اليونانية عبر المنتظرة المتصلة بسئون العالم المعاصر - وهي ثقافة حملتني بعد ذلك الى مؤتمرى السلام في باريس ، واهلنتني لمدة ثلاث وثلاثين سنة لان اكون أحد مؤلفين تعاوننا في اصدار مسح للشئون الدولية عن دار شانام » « تجارب » صفحة ٢٩) .

ولقد ظل حب السفر صفة ملازمة لتوينبي طوال حياته ، لانه يرى ان السفر يجب ان يسبق كل شيء عند من يدرس الشئون الانسانية . اذ ان الناس والمجتمعات البشرية لا يمكن فهمها بمعزل عن بيئاتها ، ولا يمكن فهم بيئاتها الجغرافية بطريق غير مباشر («تجارب» صفحة ٩٩) وهو يرى ان امتع وسيلة للسفر أبطوها ، اى ان الحمار خير وسيلة لمن يريد ان يعرف ما حوله من العالم ، وامتدح الدروب اوعرها ، ولقد قال أحدهم عن توينبي انه رحالة دربه المفضل شعاب الجبال التي تسلكها المائز . وقد ألف توينبي عددا من الكتب يصف فيها اسفاره ، وهي من امتع ادب الرحلات .

جدا ، **واجنهمنون** لاسخيلوس ، **وفاوست** لجبته (ومنه اسنوحى فكره النحدي والاستجابة في سيره التاريخ ونسوء الحضارات) كما تأثر بافلاطون وبسكسبير وملذون وشبلي ، وبالعالم النفساني يونج ، وبالفيلسوف الفرنسي بيرجسون ، ويفرد بوينبي في المجلد العاشر من تاريخه بلايين صفحة (٢١٣ - ٢٤٢) تحت عنوان « اعتراف بالفضل وشكر » . ورد فيها ذكر من استفاد منهم من المفكرين الكثيرين .

ولما نتسبب الحرب العالمية الاولى لم يلنحق بالجيش لعدم لياقته الطبية ، لاصابته بالذنتاريا في عام ١٩١٢ اتساء رحلة له في ريف اليونان (١٢) ، وهو لا ينفك يكرر في اكثر من كتاب من كتبه انه نجا من الموت بالصدفة ، ففد التهمت الحرب نصف اقرانه ، وكلمنا ذكر هؤلاء ابدى اسى وحسرة عليهم ، وبغضا للحرب وويلاتها . والتحق بدائرة الاستخبارات السياسية في وزارة الخارجية البريطانية ، وقد مكنته هذه الوظيفة من رؤية خلفية القرارات السياسية ، وتزوير الوثائق الرسمية التي يتلقفها المؤرخون وبكل سذاجة فيكتبون منها تاريخ الافراد والتسعوب (١٢) . كما اشترك في مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، واشترك في مؤتمر عام ١٩٤٦ الذي عقد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . وتحدث في كتابه « **تجارب** » (صفحة ٥٢) عن تجربته فيقول :

« وفي كل مؤتمر (من هذين المؤتمرين) ام تكن وظيفتي الا مانوية ولكنها كانت بوصلنى الى المقاعد الخلفية في قاعة المؤتمر ، وكنت

الكلاسيكيه عليه فيقول انها « منحتني موقعا غفليا خارج نطاق الزمان والمكان الذي صدف ان ولدت فيهما ، وقد انقذني هذا من الافراط في تقدير اهمية الحضارة الغربية الحديثة . كما اكتسبت من هذه التربية الكلاسيكية ايمانا دائما بان الشئون الانسانية لا تصبح مفهومة الا اذا نظر اليها كوحدة ومن تم كرسب حياتي كلها للوصول الى رؤية شاملة للشئون الانسانية » . . وبفضل تأثير هذا التعليم الكلاسيكي علي صار مذهب القرن التاسع عشر في التخصص لا يعنى لى شيئا . . وقد علمني تربيتي ان ارى الحضارة اليونانية الرومانية كوحدة ، وقد حاولت ان اوسع افقي التاريخي بانتظام . وحاولت ان ادخل ضمن رؤيتي وضمن عملي جميع المجتمعات الاخرى . . وحاولت مثل ذلك في الفلسفات وفي الادبان العليا (١١) » (نجارب ص ١٠٦ - ١١١) .

ويرى نعاد توينبي انه ينطلق في دراساته للحضارات الاخرى ، ووضعه القوانين لنموها وفنائها ، من ثقافته الكلاسيكية ومن تجربة الحضارتين اليونانية والرومانية ، وهي تجربة محدودة زمانيا وجغرافيا ومن ثم فانها لا تصلح لان نكون المقياس الذي يقيس به الحضارات الاخرى او يصدر بوحى منها الاحكام حولها . غير ان توينبي لم يستعرض في دراسته الحضارتين اليونانية والرومانية وحدهما ، وانما تناول احدى وعشرين حضارة كما سنأتي الى ذلك فيما بعد .

ومن الكتب التي اشرت في ثقافته توينبي « الكتاب المقدس » وقد اثر فيه تأثيرا عميقا

(١١) يفصد توينبي بالاديان العليا : المسيحية والاسلام والبوذية الماهايانية والهندوسية ، وقد اُضاف الى هذه الاديان الاربعة في المجلد الثاني عشر من « دراسة في التاريخ » ص ٢١٨ البهوية والزرادشتية .

(١٢) Ibid, pp. 37-38.

(١٣) Acquaintances, pp. 117-118.

قارن هذا مع ما يورده ليدل هارت عن تزوير التاريخ في كتابه

Why Don't We Learn from History (Allen & Unwin, London, 1971) pp. 27-30.

ويخرج توينبي من المؤتمر ويعود للعمل في الجامعة ، وفي هذه المرة يعرض عليه منصب استاذ في جامعة لندن لكرسي كوريس للدراسات البيزنطية واليونانية الحديثة ، وظل يعمل في هذا المنصب حتى اضطر الى الاستقالة منه في عام ١٩٢٤ . وسبب استقالة توينبي هو انه عندما انتهى مؤتمر الصلح كانت الاخطاء المتعمدة التي ارتكبها ساسة المؤتمر الكبار توحى بأن السلام لن يعمر كثيرا في بفاع كثيرة من العالم . وقد نسب الحرب فعلا بين اليونان وتركيا (١٩١٩ - ١٩٢٢) وارتكب اليونانيون جرائم كبيرة ضد الشعب التركي ، فلما ذهب توينبي في صيف عام ١٩٢١ لزيارة مناطق القتال كتب لجريدة المانتستر جارديان عن تلك الجرائم ، ولم يأبه توينبي لرد الفعل الذي اثارته مقالاته ضده لدى الاوساط الليبرالية البريطانية ولدى العالم الغربي ككل «حيث ظل التعصب المسحي ، ضد المسلمين حيا في عقول كثيرين ممن نبذوا المسيحية نفسها» ، («معارف» صفحة ٢٣٠) واصدر بعد ذلك كتابا بعنوان « المسألة الغربية في اليونان وتركيا » عام ١٩٢٢ ، ادان فيه الدبلوماسية الغربية والتسوية السلمية ، واتخذ موقفا محايدا من تركيا ومن اليونان ، ولكن هذا الموقف لم يرف ليونانيين المقيمين في لندن والذين يساهمون في تمويل الكرسي التي يحتلها ، فاضطروه الى الاستقالة .

وفي عام ١٩٢٤ عرضت عليه وظيفة مدير المعهد البريطاني للشئون الدولية (الذي سمي فيما بعد بالمعهد الملكي للشئون الدولية) او « دار شاتام » ليتولى اصدار حولية « مسح للشئون الدولية » فقبلها ، وحتى ذلك الحين كان احسن ما يعرفه توينبي من التاريخ هو التاريخ اليوناني والروماني ، وان كانت أسفاره في بلاد اليونان واعماله المتصلة بالحرب قد

امسك بأوراق قد تلزم وقد لا تلزم المندوبين الجالسين في الصف الامامي ، ولما كانت مسؤوليتي بالفعل ضئيلة فان فرصتي للمراقبة كانت جيدة . ان الساعات الكبيرة التي انفقناها في المؤتمرين مصفيا أصبحت جزءا قيما جدا من بقايتي » .

ويسرد توينبي في كتابه « معارف » (٢١١ - ٢١٢) القصة التالية التي توضح لنا أبعاد المؤامرة الاستعمارية على بلادنا ابان مؤتمر السلام عام ١٩١٩ :

« ذات يوم كان على ان اسلم بعض الاوراق الى **لويدي جورج** (رئيس وزراء بريطانيا حينئذ) على اثر انتهاء أحد الاجتماعات الخاصة بالشرق الاوسط . انني كثيرا ما رايت لويدي جورج وسمعتة يتكلم ، ولكن هذه كانت هي المناسبة الوحيدة التي قابلته فيها ، ولقائي هذا معه لم يستمر اكر من دقيقة او دقيقتين ، ولكنه كان كاشفا بشكل غير متوقع ، اذ انه عندما اخذ الاوراق وبدأ في تفحصها نسي وجودي - وهذا أسرني - وبدأ يفكر بصوت مرتفع . (ما بين النهرين .. نعم .. نفط .. رى .. يجب ان نأخذ ما بين النهرين ، فلسطين .. نعم .. الارض المقدسة .. الصهيونية .. يجب ان نأخذ فلسطين .. سوريا .. ها .. ماذا في سوريا ؟ ليأخذها الفرنسيون) .. ويعلق توينبي على هذه الواقعة فيقول : « ان حوار لويدي جورج الذاتي اللاواعي قد كشف عن معرفة ذكية لمزانا الاقطار العربية العثمانية ، السياسية والاقتصادية ، ولكن لم يكن هناك ذكر مسموع للعامل الانساني الذي كان موضوع تحري وتقرير **لجنة كنج وكرين** . ان لويدي جورج عندما عدد « النقاط » في الدول العربية اهمل حقوق العرب انفسهم وامانيهم » .

ضمنت له موطيء قدم في التاريخ المعاصر ، ولكن هذا الموطيء ألقى عليه مهمة خطيرة وهى كتابة مسح شامل للشئون الدولية الجارية (١٤) . وقد امتاز هذا « المسح » بالموضوعية والدقة العلمية والبحث الرصين ، حتى ان هملر استقبل توينبى في عام ١٩٣٦ لمدة ساعة ونصف الساعة ، وألقى عليه محاضره في السياسة وذلك لان هملر كان يدرك قيمة هذا « المسح » (١٥) . وقد استطاع توينبى ان يكمل عمله بالمشح بعمل آخر ألا وهو كتابه الضخم (دراسة للتاريخ) . ويقول توينبى ان عمله ارضاه فكريا واخلاقيا . ويفسر هذا الارضاء الاخلاقي على النحو التالي :

« كيف يمكن ان يكون هناك ارضاء اخلاقي في عمل قصد به ان يكون « علميا » بمعنى تناول دراسة الاحداث الدولية بطريقه موضوعية غير شخصية ؟ اننى في كتابتى « للمسح » بذلت اقصى ما استطيت لكى احول دون آمالى الشخصية واحكامي بالخطا وبالصواب ، ودون تلون سردي لهذه الاحداث ، وعندما كنت اشعر باننى لم احقق هذه الغاية كنت ابذل قصارى جهدى فى كشف اوراقى امام القارئ لأساعده على ملاحظه اهوائى واسقاطها » (١٦) .

وقد ظل توينبى يعمل فى « دار شانام » ثلاثة وثلاثين عاما ، وكانت تساعده فى تحرير « المسح » السيدة فيرونكا بولتر التى تزوجها عام ١٩٤٦ بعد ان طلق زوجته الاولى روزلند ابنة جيلبرت مري (من اولاده منها الناقد الادبي فيليب توينبى) . كما ظل يعمل حتى عام ١٩٥٥ استاذاً باحثاً للتاريخ فى جامعة لندن .

ان العمل الذى اقترن « بالمشح » - كما قلنا - « هو دراسة للتاريخ » ، وبينما كان

الاول بحثافى الحاضر كان الثاني بحثا فى الماضى . وقد استفاد العملان من بعضهما البعض . ويروى لنا توينبى ان فكرة الكتاب قد جاءه كتعليق على الجسوقة الثانية فى مسرحية « انتيجونه » لسوفوكليس ، وانه كتب اناء سفره بالقطار من اسامبول الى لندن فى ١٧ ايلول ١٩٢١ على نصف ورقة قائمة تضم نحو اننى عشر عنوانا ، وقد ظلت هذه العناوين - مع تغيير طفيف جدا - عناوين الاقسام الثلاثة عشرة فى كتابه « الدراسة » ، وبدأ يكسو هذه الدراسة لحما فى عام ١٩٢٧ ، غير ان البداية الجدية كانت فى عام ١٩٣٠ . وفى عام ١٩٣٤ اصدر المجلدات الثلاثة الاولى من كتابه ، وقبل الحرب العالمية الثانية باحدى واربعين يوما اصدر ثلاثة مجلدات اخرى ، واستطاع ان يحتفظ بمذكراته الخاصة بالكتاب فى نيويورك اثناء الحرب العالمية الثانية ، وسفل بالحرب فلم يبدأ بالعمل على اتمام كتابه الا فى عام ١٩٤٧ . وفى عام ١٩٥٤ اصدر اربعة مجلدات اخرى هي تمة الكتاب . وعاد واصدر فى عام ١٩٥٩ المجلد الحادى عشر بعنوان « اطلس تاريخي ومعجم جغرافي » بالتعاون مع ادوارد مايرز ، وفى عام ١٩٦١ اصدر المجلد الثانى عشر تحت عنوان « مراجعات » واصدر سمر فيل موجزا للاجزاء الستة الاولى فى عام ١٩٤٧ ، وموجزا للاجزاء من ٧ - ١٠ فى عام ١٩٥٧ . وقد ترجم هذا الموجز ونشر فى القاهرة . واصدر توينبى طبعة جديدة مختصرة ومنقحة ومصورة لكتابه ، بالتعاون مع جين كابلان فى مجلد واحد عام ١٩٧٢ .

يقول البرت حوراني : « كان واضحا منذ البداية ان الكتاب رائع ، حتى عندما ينظر اليه من ناحية سطحية جدا كمخزن للحقائق .

Experiences, p. 75.

(١٤)

Acquaintances

(١٥) راجع الصفحات من ٢٧٦ - ٢٩٥

Experiences, p. 80.

(١٦)

دراسته ثمانى نفايات او حضارات وانتهى في تحليله الى ان الحضارة الغربية محكوم عليها بالانقراض ، وان حضارات من الشرف ستحل محلها .

والى جانب تأثير اسبنجلر ، ابارت الحرب العالمية الاولى في نفسه ما ابارت الحرب البيلوبونيسية (٤٣١ - ٤٠٤ م) التي قامت بين اينا واسبرطة وحلفائهما في نفس مؤرخ هذه الحرب نوسيدديز ، وهو الذى كان قد درس نوسيدديز لطلبته في كلية باليول في اكسفورد عام ١٩١٤ ، فرجع الى نوسيدديز واذا به يجد الكتاب مليئا بالمعاني الجديدة ، وانه ينطبق الى درجة مذهتة على الصراع المعاصر في اوروبا . وقد كتب توينبي نفسه بتحدث عن هذه التجربة فقال :

« .. وفجأة انير فهمي . ان التجربة التي سمر بها الآن في عالمنا هي نفس التجربة التي مر بها نوسيدديز في عالمه . . . وقد بدا الآن ان نوسيدديز كان فوق هذه الارض من قبل . وقد سبقني وسبق جيلي هو وجيله في مرحلة التجربة التاريخية التي قد وصلنا اليها بعده . . . ومهما ثقل التواريخ فقد اثبت عصر نوسيدديز وعصرى انهما متعاصران فلسفيا . واذا كانت هذه هي العلاقة الصحيحة بين الحضارة الرومانية اليونانية والحضارة الغربية ، أفلا يمكن ان تكون العلاقة بين جميع الحضارات المعروفة لدينا هي على هذا الحال » (١٩) .

وتمرد توينبي على منهج المؤرخين الغربيين حين اعتبر الوحدة الصالحة لدراسة التاريخ هي المجتمع او الحضارة . وقد احصى توينبي

فهو يضم الوانا مختلفه من الحقائق الغربية والمشوقة حول العالم الانساني ، بل ان اكثر القراء عرضية اذا نظر الى صفحة هنا او هناك في السريير او اثناء رحلة سبخرج منها وقد زادت حصيلته من المعرفة ، وقد تعمق احساسه بفراغة الحياة البشرية . واذا كان بعض الحقائق غير دقيق نستطيع ان نقول عنه ما قاله توينبي نفسه عن كتاب « **الموجز في التاريخ** » **توينبي** : « مثل هذه الاخطاء شيء لا مفر منه ، ويمكن اغتفارها بسهولة في كتاب ، حاول ان يحيا من جديد البشرية كلها كتجربة خيالية واحدة » (١٧) .

واذا كان اى عمل فكرى هو وليد العصر الذى كتب فيه ، فان كتاب « **الدراسة** » هو وليد العقدين الثانى والثالث من هذا القرن ، حيث طرحت الحرب العالمية الاولى تساؤلات قوية وملحة حول مستقبل الحضارة ، قام الشاعر الانجليزى **اليوت** (كان امريكا حينئذ واخذ الجنسية البريطانية عام ١٩٢٧) والف فصيدته « الارض الخراب » عام ١٩٢٢ في تعليق قائم على الحضارة الغربية ، واتى **اوزفالد اسبنجلر** الالماني فنشر في عام ١٩١٨ كتابه « **سقوط الحضارة** » . ورأى اسبنجلر ان التاريخ يتألف من وحدات ثقافية مستقلة بداتها . وان كل ثقافة كالنبته ، لها دورة حيث تزدهر هذه الثقافة وتنمو ثم يصيبها الانحلال ثم تندثر . وقد فرأ توينبي كتاب اسبنجلر عام ١٩٢٠ وتساءل في كتابه « **الحضارة على المحك** » (١٨) . اذا كان منهجه في النظر الى ان اصغر وحدات البحث التاريخى هي المجتمعات او الحضارات وليست الدول القومية ، وان هناك معاصره بين هذه الحضارات ، لم يتأثر برأى اسبنجلر . وكان اسبنجلر قد تناول في

Albert Hourani, *A Vision of History* (Khayats, Beirut, 1961) p. 1. (١٧)

A. Toynbee, *Civilization on Trial and the World and the West* (Meridian Book, New York, 1958) pp. 20-21. (١٨)

Ibid pp. 18-19.

(١٩) انظر المجلد العاشر من دراسة للتاريخ صفحة ٩٤

التاريخ ، مستقبل الحضارة الغربية ، الهامات المؤرخين . ونلاحظ انه قد عدل في هذا التقسيم في موجزه الذي اصدره في نهاية عام ١٩٧٢ . اذ ضم الموجز احد عشر قسما هي : شكل التاريخ ، وتكوين الحضارات ، ونمو الحضارات ، وانهيار الحضارات ، والدول العالمية ، والكنائس (الاديان) العالمية ، وعصور البطولات ، والاتصالات بين الحضارات مكانيا ، والاتصالات بين الحضارات زمانيا ، ولماذا بدرس التاريخ .

ولعل اشمئ تلخيص موجز لنظام توينبي - فيما قرأت - هو ما بسطه البرت حوراني في كتابه الذي اشرنا اليه فيما سبق . يقول الاسناد حوراني (٢٠) :

« ونطلق هذه النظرية من مميزات بين حالتين انسانييتين يرمز لهما عند توينبي بالمصطلحين الصينيين Yin (السلب) و Yang (الايجاب) (٢١) : حالة من الخمود والمحافظة السلبية على تماثل مدرك ، وحالة من التقدم الابداعي الى المجهول ، وتحول عن عادات السلف الى اسلوب في الحياة جديد ، وغير رسمي ولم يرسم بعد . وهذه هي الازدواجية النهائية في الحياة الانسانية ، والمبدأ الاول في التفكير التاريخي . ان مسيرات التاريخ نابع من انتقال مجموعة من الناس من السلب الى الايجاب . وكل ما يستطيع التفكير التاريخي

في تاريخه احدى وعشرين حضارة درسها واستنتج قوانينه منها . وهذه الحضارات هي : المصرية والسومرية والبابلية والحيثية والسيرانية والمينوية والهيلينية والارمانية والعربية والهندوسية والهندية والصينية وحضارة الشرق الاقصى والانديا واليوكاتيكة والمايانية والمكسيكية والمسيحية الارثوذكسية البيزنطية والاورثوذكسية الروسية ، وقسم حضارة الشرق الاقصى الى حضارة صينية وحضارة كورية يابانية ، ثم الحضارة الغربية . وقد ابتلعت مسيرته التحضير جميع هذه الحضارات الا سبع حضارات هي : الاورثوذكسية المسيحية ، والارثوذكسية الروسية ، والاسلامية (التي يضم الحضارين اليرانية القديمة والعربية) والهندوسية والصينية والكورية اليابانية والغربية . وبالرغم من ان توينبي يتفق مع اشبنجلر في ان الحضارة الغربية تمر في ازمة حرجة ، الا انه يختلف معه في انه يرى ان بالامكان انقاذها بسلوك السبيل الروحي .

وقد قسم توينبي كتابه الى ثلاثة عشر قسما هي : المقدمة ، تكوين الحضارات ، نمو الحضارات ، انهيار الحضارات ، انحلال الحضارات ، الدول العالمية ، والكنائس (الاديان) العالمية ، عصور البطولة ، الاتصالات بين الحضارات مكانيا (المجابهات بين الحضارات المعاصرة) والاتصالات بين الحضارات زمانيا (عصور النهضة) ، القانون والحرية في

Op. Cit. pp. 4-7.

(٢٠)

وقد نشرت مقالة الاستاذ حوراني "Toynbee's Vision of History" لأول مرة في مجلة The Dublin Review المجلد ٢٢٩ العدد (٧٠) لندن - ديسمبر ١٩٥٥ من ص ٣٧٥ - ٤٠١ .

(٢١) الين واليانج - في الفلسفة الصينية - مبدآن للسلب والايجاب على التوالي في الكون ، او دور الانثى السلبى ودور الذكر الايجابى وهما متناقضان دائما ولكنهما متكاملان . وهما موجودان ايضا وممثلان في السماء والارض ، وفي الرجل والمرأة ، وفي الشمس والمطر ، وفي الخير والشر . (ص . ح)

M. Rosenthal and P. Xudin, eds., A Dictionary of Philosophy,
(Moscow, 1967)

راجع

D. D. Runes, ed., Dictionary of Philosophy (Peter Owen, London, 1970).

و

يصدر عن المحاكاة غير ثابت لانه ليس تلقائيا . ويتضح هذا بشكل خاص في مجتمع متحرك حيث لم يعد رباط السحر يوثقه رباط العاده . وقد يحدث « انهيار » ان عاجلا او آجلا : اى فقدان الانسجام - بشكل او بآخر - بين مؤسسات المجتمع القديمة وبين افكارها الجديدة مثلا ، او بين الاكثرية والاقلية . وقد نسحب هذه الفئة الاخيرة من مسئوليتها نحو المجتمع الى حياة سرية غامضة ، او ربما فعلت عكس ذلك ، ففرضت ارادتها بكل فوه حتى تفسد بذلك المجتمع كله . فاذا سلكت احد السبيلين ربما اصبحت عاجزة عن الاستجابة المبدعة للتحديات الجديدة ، بل ان نجاحها نفسه في مواجهة تحد قد يجعلها عاجزة عن معالجة التحدى التالى .

« فاذا حدث هذا (ونقول « اذا » لانه ليست هناك اشارة الى ان العملية كلها يجب ان تحدث بل ان الامر على عكس ذلك ، فهناك اصرار على ان الانسان يستطيع دائما - اذا اراد - ان يحطم الاغلال الذى يبدو انها يفيد) فان الحضارة ستنتقل من « الانهيار » الى « الانحلال » . ونفس هذا التحدى الذى لا يجابه بنجاح ابدا ، ومن تم بعيد نفسه مرات ومرات بنفس (الرنابة الفاسية) يصير التنافر الى شرخ وهوة تتسع ببطء فى جسم الجماعة . وقد تظهر هذه الهوة بين الجماعات المحدودة التى تقسم اليها الحضارة (كالجماعات القومية التى تكون الحضارة الفريية) ، وقد تكون هوة بين « العناصر » المختلفة او « الطبقات » التى تكون الحضارة . وتقسّم الحضارة الى ثلاث طبقات مستقلة ، تصبح الاقلية المبدعة فيها - بعد ان توقفت عن الاستجابة المبدعة للتحديات - اقلية مهيمنة ، تظن ان مركزها فى القيادة هو امتياز لها ، وتتشبث به بطرق لا تساعد الحضارة على التغلب على مشاكلها ،

ان بفعله هو متابعه الظروف التى حصل فيها التغيير والنتائج التى تمخضت عنه ، اما لماذا حصل هذا التغير فى هذه الظروف فهو لغز يختفى فى حرية الاستجابة الانسانية (يمكن ان نلاحظ بشكل عابر ان هذه الازدواجية - السلب والايجاب - التى تعبر عن نفسها بصور متعددة - فى الانسحاب والعودة ، وفى التحدى والاستجابة ، وفى التبدد والحشد - هى مثل واحد على ولع توينبي بالازدواجية » .

« وتنمو الحضارات بمثل هذا الانتفال ، ويعني النمو نقل ميراث العمل والتحدي من التحدى الخارجى الى الداخلى ، وهو تقدم نحو تقرير المصير ، واتجاه تصبح فيه شخصية الحضارة هى مبدان عملها . ويحدث هذا عندما نواجه الحضارة تحديا فتعابله باستجابة ناجحة ، وهى عندما تفعل هذا لا تقتصر على امتصاص ذلك العنصر الذى يتسكل عدم امتصاصه نفسه تحديا ، وانما نولد فى نفسها طاقة لمجابهة تحد آخر . ولكن كيف تستجيب احدى الحضارات للتحدي بينما تعجز حضارة اخرى عن ذلك ؟ الجواب على ذلك هو وجود اقلية مبدعة فى الحضارة الناجحة - فرد او نفر قليل من الناس او جماعة كاملة - وعندما تتحمل هذه الاقلية عبء التحدى اثناء مزلة انسحابها من المجتمع تعود الى صميمه وقد حلت المشكلة ومن ثم تجر وراءها كل الجماهير غير المبدعة بقوة التقليد او المحاكاة .

« ولكن قوه المحاكاة هذه التى تيسر نقل الافكار او المهارات الجديدة من الاقلية الى الاكثرية ، ومن ثم تعطي قوتها للمجتمع النامي ، هى ايضا نقطة الضعف فى الحضارات كلها ، اذ لا يمكن زعزعة الاكثرية غير المبدعة من حالة السلب الا بقوة السحر ، فاذا ما انتهى مفعول السحر انحلت حالة التعايش ، ان كل عمل

وتبرز مقابلها بروليتاريا (٢٢) داخلية ، وهى جماهير لم تعد مرتبطة بالاقلية بالحاكاة ، وقد قامت بعمل انفصالي ، ولا تعتبر نفسها منتمة للحضارة ، تم بروليتاريا خارجية مكونة من عناصر جذبتها قوة الى نحوم الحضارة ابان نمو هذه الحضارة ، ولكنها لم تعد تقبل الدور الذى خصصته لها الحضارة .

وبتقدم الانحلال . . تتحول العلاقات بين هذه العناصر من الانسجام الى القوة ، وبذل الاقلية محاولة يائسة للمحافظة على مركزها فتدعمليها البروليتاريا بالعنف . وليست هذه هي كل القصة : اذ فى اللحظة التى تدمر فيها الطبقات الثلاث انفسها ، ودمر الحضارة ككل نتيجة صراعها العنيف ، تنفتق الطبقات الثلاث عن اعمال ابداعية تضيء العالم المحتضر . وقد نتج الاقلية المسيطرة - وهى فى الرمق الاخير - دولة عالمية ، وتنتج البروليتاريا الداخلية كنيسة عالمية (٢٣) ، وتمخض البروليتاريا الخارجية عن دول بربرية وآلهه حرب وبطولات وتسر حماسي .

« والكنيسة العالمية هى الوحيد من بين هذه ، هي « المتطلعة الى الامام » وهى شرنقة حضارة جديدة ، وهى ايضا الطريق الذى يستطيع ان ينقل الناس به انفسهم من موت الشيوخوخة . لقد خلقت الكنيسة من قبل اقلية جديدة ظهرت فى صفوف البروليتاريا ، وهى اقلية من نوع جديد ، ان نجربة الحياة فى

مجتمع متداعى تلقى امام الروح الفردية تحديا . ان الانقسام فى المجتمع يؤدى الى انقسام فى الروح ، وقد يبرز قائد من طراز جديد بين كيف يداوى هذا الانقسام ، وهو المنفذ الذى يقود من يتبعه ويخرجه من مجتمع محكوم عليه بالهلاك . اما من يتخلف عن هذا القائد ، فان مصيره التردى فى سراك الانحلال الى تأخذ الشكل التالى : تبديد - حشد - انهيار . وعند حافة الهزيمة يحاول المجتمع المنهار ان يضم صفوفه ، ويبدو وكأنه قد استعاد قوته ، ولكنه سرعان ما بسمع اصرار التحدى العائد القاسي . ومن اقوى محاولات خداع هذا الموت تلك المحاولة التى تتمخض عنها الدولة العالمية ، وعندما تتداعى الدولة العالمية تموت الحضارة اما بالعناء فى حضارة اخرى واما بالذوبان فى الفوضى ، وقد ننتأ عنها فى الوقت المناسب حضارة جديدة » .

وهكذا فان الحضارة فى رأى توينبى تنسأ عندما يواجه شعب تحديا فيستجيب لهذا التحدى بقوة اكثر من التحدى نفسه ، ويرى توينبى ان افضل تحد هو الذى لا يقتصر على دفع التحدى الى تحقيق اسنجابة ناجحه واحدة ، وانما يدفعه ايضا الى الوصول الى حركة ندفعه الى الامام فستقل من الانجاز الى كفاح جديد ، ومن حل مشكلة الى طرح مشكلة اخرى ، ومن راحة آنية الى حركة متكررة (٢٤) . ومن شروط هذا التحدى ان لا يكون مفرطا فى قوته ، والا فقد يؤدى الى

(٢٢) ان استخدام توينبى لكلمة بروليتاريا هو استخدام خاص ، ويعني بها جميع الذين يشعرون بانهم لا ينتمون الى المجتمع المرتبطين به عضويا . وتتسم هذه الطبقة بسخطها وبشعورها بحرمانها من المكان الطبيعى فى مجتمعها . وتميش « البروليتاريا الداخلية » ضمن المجتمع اما « البروليتاريا الخارجية » فتعيش خارجه وان كانت ضمن نطاق اشعاعه . وتظل المجتمعات البربرية ضمن نطاق حضارة معينة وتحت التأثير الروحى لتلك الحضارة ما دامت هذه المجتمعات فى حالة نمو . وعندما يبدأ الانهيار تفقد الحضارة سحرها وبصبح البرابرة اعداء لها ويشكلون بروليتاريا خارجية . (ص . ح)

(٢٣) كلمة كنيسة عالمية « يعنى بها توينبى ديناعاليا ، وليس الاستعمال مقصورا على الكنيسة المسيحية وحدها » . (ص . ح .)

وهاجمه المؤرخ الهولندي بينرجيل ، واتهمه بانتخاب التواهد التي تناسب حجته ، أو بعرض هذه الحجج بالطريقة التي يروق له : ورأى أن نظامه لافائدة منه ، فإن المفارقات يجب ألا يعتمد عليها ، لأن لكل واقعه ظروفها التي تحول دون تكرارها بالصورة التي سميت فيها . وسلم جيل بتاعريه توينبي وغرارة معرفته ولكنه ينكر عليه منهجه التاريخي (٢٥) .

وبعد أن أنكر ولش على توينبي أن يكون مؤرخاً في كتابه « **الدراسة** » نسأله هل سيوجد هنك من سيفراً « **دراسة للتاريخ** » بعد خمسين سنة ؟ وإن كان قد اعترف ولش بفضل توينبي باحراجه المؤرخين من حظيرة التخصص الضيق إلى أفق أوسع . « إن المؤرخين المحنرفين غالباً ما يكونون على حق في نفده ، ولكن كثيراً منهم بحاجة إلى شيء من كبر عقله » (٢٦) .

ويسلكه باتربك جاردنر في عداد فلاسفة التاريخ التأمليين في المقال الذي كتبه -ته في « **موسوعة الفلسفة** » في المجلد الخامس (١٥١ - ١٥٣) ، وكذلك في مادة « أنظمة تأملية للتاريخ » في المجلد السابع من الموسوعة .

وأنكر عليه المؤرخون فرضه قوانينا لتفسير التاريخ تفسيراً حتمياً ، ورأوا أن هذه القوانين ليست سوى فرضيات حلاً لتوينبي أن يختارها ، وقالوا أنه اتخذ الحضارة اليونانية الرومانية المعيار الذي قاس به حضارات العالم كلها ، ووضع بوحى من تجربة هذه

الموت ، وإن لا تكون مفرطاً في ضعفه وإلا فإنه لن يستخلص الاستجابة الفعالة . وهكذا يطرح توينبي قانون الوسط الذهبي في مبدأ التحدى والاستجابة . ويظل المجتمع متماسكاً ما دام في حالة نمو ، ويتميز بأقلية مبدعة تقود هذا المجتمع ، ونجابه التحديات بنجاح ، ونبدأ الحضارة في الانهيار عندما تعجز الأقلية المبدعة عن مجابهة التحديات وتحول إلى أقلية حاكمة ، ومن ثم لا يعود هنك مثل أعلى تغلده الجماهير ، فتتفطر لذلك وحدة المجتمع .

لقد هاجم المؤرخون توينبي هجوماً شديداً على اختلاف المدارس والمذاهب التي ينتمون إليها ، فالاستاذ الماركسي كوسمنسكي الذي اشترنا إليه فيما سبق - أنكر على توينبي ما سماه بالجانب الصوفى - أو الخرافى - في فلسفته ، واعتبر توينبي أحد المفكرين الغربيين الذين وضعوا نظماً أو فلسفات لمحاربة « **الاستراكية العلمية** » ، وأنكر على توينبي رجوعه إلى الأساطير في دعم فلسفته وهو - أى توينبي - الذي يزعم أنه اتخذ لنفسه مبدأ التجريبية في بحنه ودراسته .

وأنكر على توينبي منهجه في اعتبار الأفراد العظام ، ولست الشعوب ، القوى الرئيسية المحركة في تطور المجتمع ، وفي أن الصانع الحففى للتاريخ هو الشخصية الفردية المبدعة ، وأن تجربة هؤلاء الأفراد الداخلية هي مصدر طافهم الإبداعية ، سواء أكان هؤلاء الرجال صوفيين أم أنبياء أم شعراء أم رجال سياسة أم قادة عسكريين أم مؤرخين أم فلاسفة .

Pieter Geyl, *Debates with Historians* (Fontana Library, London, 1970). (٢٥)

راجع الصفحات ١١٩ ، ١٦٩ ، ١٧٠ . فرد جيل في هذا الكتاب نحو مائة صفحة لمناقشة نظام توينبي .

W. H. Walsh, *An Introduction to Philosophy of History* (London, 1970) pp. 160-165 (٢٦)

الحضارة قانونا فسر فيه أو رسم به مسار الحضارات الاخرى ، وان كان هناك من النقاد من دافع عن توينبي ونفى عنه الحتمية (٢٧) . ويرد توينبي على هذا الاتهام بقوله عن نفسه « انه ليس حتميا في قراءاته لالغاز الحياة البشرية . فهو يعتقد انه حيث توجد حياة يوجد أمل ، وأن الانسان - بعون الله - سيد مصيره ، او على الاقل الى حد ما في بعض الاعتبارات (٢٨) .

ويأخذون على توينبي غيبيته ، ويرون فيها ضبابية في التفكير . ونحن نلاحظ ان تأثير الدين عليه لم يكن ضعيفا في يوم من الايام ، وان كان قد زاد في الاجزاء الاربعة التي اصدرها عام ١٩٥٤ ، كما اصدر في عام ١٩٥٦ كتابا بعنوان « سبيل مؤرخ الى الدين » . وفي عام ١٩٥٧ كتابا آخر بعنوان « المسيحية بين اديان العالم » . وهو يردد - وفي أكثر من موضع في كتبه - ان طريق الحضارة الغربية سيؤدي بها الى التهلكة مالم ترجع الى الله نادمة وتائبه .

ان الاديان - في رأي توينبي - قد ولدت من تلاقى او تجابه الحضارات . « ومستقبل البشرية - اذا قدر للبشرية ان يكون لها مستقبل في هذا العالم - هو - كما اعتقد - في هذه الاديان العليا .. وليس في الحضارات التي وفر تلاقياها الفرض لميلاد الاديان العليا « الحضارة على المحك » صفحة (١٤٣-١٤٤)

ويرفض توينبي رأي المؤرخين الذين يرون ان كل ما في التاريخ صدفة ، هذا الرأي الذي ولد في اقرن التاسع عشر ، وعبر عنه في القرن

العشرين المؤرخ فيشر في مقدمته لكتابه « تاريخ أوروبا » الذي قال - وبتواضع العلماء - انه لم يستطع ان يرى في التاريخ نسقا مطردا ، وان كان قد رأى هذا النسق رجال اكثر منه علما واغرر حكمة . ويناقش توينبي رأي فيشر « دراسة للتاريخ » المجلد الخامس (٤١٤ - ٤١٥) ولا يسلم به .

وناصب النقاد اليهود توينبي العداء ، لمواقفه العادلة من قضية فلسطين ، فمثلا بدأ خصام المؤرخ الصهيوني لويس نامير له في عام ١٩٢٩ وكان سبب هذا الخصام كما يروي توينبي في كتابه (معارف) صفحة ٦٩ - ٧١ :

« وكان خصام لويس معي حول ما كنت اكتبه في مسح دار شانام حول تاريخ فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وقد عارض معالجاتي لهذا الموضوع التناك والمثير للجدل ، لانه كان قد اصبح في ذلك الوقت صهيونيا متحمسا ، بينما اصبحت انا اناء تكشف الاحداث في فلسطين ازداد شكا في امكانية نجاح السلطة المنتدبة في التوفيق بين التزاماتها نحو الفلسطينيين العرب ونحو التزاماتها في فلسطين مع اليهود . وقد ختسيت من ان العرب سيلاقون معاملة ظالمة ، ومن ثم جعلت همي التأكد من ان أسجل في سردي الحقائق التي بدت لي وكأنها تعطي للعرب سببا معقولا للقلق ومن ثم للسخط » . ولم يحفل توينبي بهذه المعارضة واستمر في موقفه النزيه . ولما صدر الجزء الثامن من كتابه « دراسة للتاريخ » (٢٩٨ - ٣١٣) في عام ١٩٥٤ أدان بشدة وحزم الغرب والصهيونية في جريمتها في

Oscar Halecki, "The Validity of Toynbee's Conception of the Prospects of Western Civilization," The Intent of Toynbee's History, p. 202. (٢٧)

Civilization on Trial, p. 38. (٢٨)

نمت في الولايات المتحدة ما بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٣٨ عندما سلبت اراضي السكان الاصليين (لخمس ولايات وبمساندة الجيش الامريكي) لقد كان هذا الاستعمار الامريكي في القرن التاسع عتر جريمة ، والاستعمار الاسرائيلي الذي ينفذ الان في وقت كتابة هذه السطور (عام ١٩٦٩) هو جريمة ومفارقة تاريخية اخلاقية .

وتحدث عن القضية في كتابه « بين النيجر والنيل Between Neger and Nile » الذي صدر عام ١٩٦٥ (٨٦ - ٩٠) . وكان من آخر ما نشر توينبي حول القضية الفلسطينية حوار جرى بينه وبين الصحفي البريطاني **لويس ايكس** ونشر في مجلة Palestine Studies **دراسات فلسطينية** عدد الربيع لعام ١٩٧٣ وكان مما قاله لما سأله **ايكس** : « هل تعتقد ان **بلفور** كان اعمى عن رؤية مرامي التصريح ؟ »

توينبي : كلا . لقد كان يفهمها . وهناك مذكرة منه الى زملائه في الوزارة يقول فيها : « لا يستطيع ان افهم لماذا جعلتم هذا انتداب حرف « ا » ، الذي يعني حق تقرير المصير ، اذ اننا لا ننوي ان نعطي هؤلاء حق تقرير المصير » (وهو يعنى « هؤلاء » الفلسطينيين العرب) . واذن فقد كان يعرف ما يفعل . انني اقولها لك صريحة : لقد كان **بلفور** رجلا

فلسطين . وقام اليهود والصهاينة يردون على توينبي اما بالدفاع عن الصهيونية واليهود . واما بتحريف آرائه (٢٩) . وجرت بينه وبين السفير الصهيوني ناكوف هيرنزوج في كندا في ٣١ يناير ١٩٦١ محاوره انتقد فيها سياسة اسرائيل وندد بها .

وفي كتابه « **نجارب** » يتحدث في اكسر من موضع عن قضيه فلسطين ، يقول في صفحة (١٣٥ - ١٣٦) :

« لسبب أؤمن ان اليهود شعب الله المختار . ان اعتقاد المرء بأن قبيلته هي شعب الله المختار هو خطأ القومية . انه خطأ اخلاقي وفكري » . ويدافع في الصفحات من ٢٤٤ الى ٢٦٤ عن حق الفلسطينيين في وطنهم ، ويندد بجريمته اسرائيل ومواقفها اللااخلاقية ، ويقول في موضع آخر من الكتاب (صفحة ٢٦٦) :

« ان الاستعمار الاسرائيلي منذ انشاء دوله اسرائيل هو أحد اسوأ حالتين في جميع تاريخ الاستعمار في العصر الحديث ، ويزيد من سده سواد الصورة تاريخها . ان الصهاينة من اوربا الشرقية يزاولون الاستعمار في فلسطين على شكل طرد السكان العرب المواطنين ، وسلبهم ممتلكاتهم في الوقت الذي ترك فيه الاوروبيون الغربيون حكمهم المؤقت للشعوب غير الاوروبية . (والصورة الثانية من الاستعمار

(٢٩) من الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب :

M. Samuel, The Professor and the Fossil (New York, A. Knopf, 1956).

وهو رد على اتهام توينبي لليهود بانهم شعب متحجر . ومقالة ابا ابان بعنوان « هرطقة توينبي » (المنشورة في كتاب Toynbee and History) من صفحة ٣٢ - ٣٣٧ .

كما يحتوى هذا الكتاب على مقالة بعنوان « المتحجر والاستاذ » لفردريك روبن من صفحة ٣١٦ - ٣١٩ . ويقول سنرومبيرج في كتابه عن توينبي (صفحة ٥١) « ان رفا كبيرا يمكن ان يعلا بما كنبه اليهود في الهجوم على توينبي .

ترييرا» . . . كان بلفور يعرف (كل التعبيرات) الغامضة مثل تعبير وطن قومي - وكانت هذه متعمدة في تصريح بلفور . وكذلك قوله « الحقوق المدنية والدينية » وليست « الحقوق السياسية » للجماعات غير اليهودية الاخرى في فلسطين » . انني اعتقد ان كل كلمة قد كتبت بعناية لتكون غامضة . وهذا امر سيء جدا » .

ان موقف توينبي من القضية الفلسطينية نابع من ايمانه بالحق العربي فيها ، ومن كراهيته للحركة الصهيونية المتمثلة في احياء قومية بغيضة لديه ، بل انه يرى ان الصهيونية خيانة لليهودية الحقبة ، ويرى المؤرخ الصهيوني **نامير** في كتابه Avenues of History ان كراهية توينبي للصهيونية لا تنطوي على كراهية لليهود ، ويعزو هذه الكراهية الى موقف توينبي المتسايع للاسلام منذ عام ١٩١٩ . ويرى لويس مفورد ان تناول توينبي لليهود هو « زلته الكبرى » .

وليس من شك في أن محاولة استعراض جميع القضايا الهامة التي تناولها توينبي في كتبه الكثيرة في مقال واحد عمل مستحيل ، فلقد كان انماجه غزيرا واهتماماته واسعة ومتسعة ، وما اظنه وهو يتحدث في المجلد العاشر من كتابه « **دراسة للتاريخ** » عن المفكرين الذين أنتجوا كثيرا الا يتحدث عن نفسه :

« النظام - في الحقيقة - هو مفتاح حياة جميع هؤلاء الرجال الناجحين من ذوى العمل الفكرى ، ويظهر هذا في ابلغ صورة في استخدامهم المنظم لآقاتهم . فقد اظهروا مقدرة على الثابرة في متابعة أهداف فكرية طويلة المدى في فترات تبلغ نصف أو ثلاثة أرباع حياتهم العملية العادية ، وفي هذه الانتفاء انزعوا من الحياة العملية - التي كانت

مشغولة بصورة رئيسية بواجبات - جريا من الفراغ لاستغلاله في الاقتراب من هدف فكرى بعيد ، وذلك بتعليم أنفسهم كيف يقصدون في وقتهم ، وكيف يخططون له على أحسن وجه في مجرى حياتهم اليومية » (المجلد العاشر صفحة ١٥٣ - ١٥٤) أو ليس من بين هؤلاء الرجال مؤرخنا العظيم الذي يضع في عام ١٩٢١ مخططا لسفره الضخم ، ويظل منصبا على انجازه قرابة اربعين عاما ، دون أن ينحرف عن الخطوط الأولى التي وضعها للكتاب ، بل وانه ليشير في المجلدات الأولى الى موضوعات سيتطرق اليها في مجلداته التالية محسدا مكانها ، وكأن هذه المجلدات ستصدر غدا أو بعد ، وكأنه فرغ لتوه من كتابتها . وهو الذي يقول عن نفسه (الاوبرفر اللندنية ١٢ مارس ١٩٧٢) وقد بلغ الثمانين « الآن - وفجأة - بدأت الشيخوخة تتطلب منى أن اسرخصى » وبدأ يستيقظ في النامنه والربع صباحا بدلا من السادسة الا ربعا .

وسنخار بعض هذه القضايا ، ونمر بها مرا سريعا ، بلا استقصاء أو تفصيل ، ولعل اكثر كتبه تناولا للقضايا العامة كتبه « **تجارب** » ، و « **الحضارة على المحك** » و « **العالم والغرب** » « **البقاء في المستقبل** » (٣٠) « **انشغال الانسان بالموت** » (٣١) (شارك توينبي بذلك مادة هذا الكتاب) .

ليس هناك امر أبغض الى نفس توينبي من الحرب ، ومن الفومية باعتبارها سببا رئيسيا من أسباب الحروب . فالحرب عند توينبي هي أم الكبائر ، وهي احدى أعراض ونتائج قتل الانسان الخلقى ، وقد بدأت مع بداية حضارة الانسان ، ولعلها بدأت عند السومريين ، وقد ولدت الحروب عندما أصبح لدى الانسان فائض من الوقت ومن الطاقة ومن الانماج فوفى ما يحتاجه ليقم اوده ، « وعندما استطاع أن

Surviving the Future, London, 1971.

Man's Concern with Death, London, 1968

للاحساس فحسب ، وانما يجعله متحجر القلب » (انشغال الانسان بالموت ص ١٤٩) .

وطريق الخلاص عند توينبي هو أن نفبل بعدد من التغيرات الاقتصادية والسياسية التى لن يستسيغها الكثيرون ، ومنها خضوع جميع دول العالم لحكومة واحدة لديها القود لكبح جماح الدول من اللجوء الى الحرب . ومنها توزيع جذرى لخيرات العالم بين الاقطار الفنية ، والاقطار الفقيرة ، بل وتوزيع الخيرات فى البلدان الفنية بين الاكثرية الفنية والاقلية الفقيرة . ويتساءل توينبي : « هل يستطيع اى نظام ان يحقق هذه الاصلاحات الضرورية دون سلطة ديكتاتورية مسلحة ؟ » ويعترف بأن هذه مسألة سياسية كبيرة تواجهنا الآن (**البقاء فى المستقبل** صفحة ١١١) ولكن ليس من المستحيل ايجاد هذه الحكومة بالاتفاق المتبادل دون ان تلجأ اقلية الى فرض حكم ديكتاتورى على اكثرية سكان هذا العالم ، نتيجة لما تمتلكه هذه الاقلية من المعرفة التقنية (**البقاء فى المستقبل** صفحة ١٣٩) ويتطلع توينبي الى الزمن الذى يصبح فيه كل انسان عضواً فى ثلاث مجتمعات ، فهو عضو فى مجتمع عالمي ، ومواطن فى دولة عالمية ، وهو عضو فى جماعته المحلية ، وهو عضو فى جماعة صغيرة متفرقة فى أرجاء العالم تشاركه فى التفكير وتبادلها الراى (**البقاء فى المستقبل** ١٤٣ - ١٤٤) . ويرى توينبي ان هذا المجتمع الفاضل يحتاج حتى يتحقق الى ثورة روحية عالمية (**البقاء فى المستقبل** ص ٦٦) ، كما يحتاج الى تربية جديدة نبذ التعصب القومى ، وتواخى بين الناس (المصدر السابق صفحة ٩٦) ، والى نقافة عالمية تختار أفضل ما فى الثقافات المحلية وتجعله ملكاً مشتركاً لجميع الناس (المصدر السابق صفحة ١٤٩) ، ويمكن ان تستخدم التكنولوجيا لتحقيق بعض هذه الغايات ، كما ان الشباب والاحيال الصاعدة هى التى عقد عليها توينبي آماله فروح الشباب هى روح الكرم والاستعداد للتغيير والتالية والنزاهة والتفتح العقلى ، ومن ثم فهو يطالبهم بتحمل مسئوليتهم التاريخية فى احداث هذا التغيير المنشود ،

بحصل على مايكفيه من قوة التنظيم والادارة والمذهبة لتدريب أعداد من الناس على العمل ، متكاتفين لقتل أناس آخرين بشكل منظم ، وكذلك لتكييف هؤلاء لمحاولة ان يقتلوا (بفتح الياء) والتعرض لأن يقتلوا (بضم الياء) دون ان ترتعد فرائصهم من هذه المحنة المزدوجة . واخترعت الحرب لها تقاليداً كان منها ألا تسترك المرأة الا فى حالات محدودة فى الحروب ، وان كان ذلك لم يعفها من نتائج الحروب وويلاتها . ومن تقاليد الحروب الزى الذى يتخذ لها ، ويرى توينبي ان هذا الرى « الصبىانى » له وظيفتان الأولى نفسية اذ انه يمثل نقض التحريم العادى لقتل الانسان لأخيه الانسان ليحل محله واجب قتله ، والوظيفة الثانية لتمييز الجنود عن المدنيين . ويلاحظ توينبي ان ويلات الحروب تزداد بالرغم من ادعاء الانسان بانه اكثر مدنية وحضارة من اجداده ، بل ان احساس هذا الانسان وتورته عليها أضعف من ذى قبل ، بل ان اهتمامه بها محدود مالم تكن وسائل العنف فيها جديده . ويعلق توينبي على جرائم الولايات المتحدة فى فيتنام فيقول : « وتشاهد بانتظام فى برامج التلفاز فى الولايات المتحدة اليوم مشاهد من الحياة الواقعية ، حيث الجنود يقتلون ويجرحون بعضهم بعضاً فى فيتنام . وقد تعود الاطفال الصغار عليها . وكان يجب ان يكون رد الفعل على هذه المشاهدة المباشرة لوقائع الحرب الشنيعة اصراراً من الأمة كلها على ايقاف الحرب فوراً فى فيتنام . ولكنه قيل لى ان مشاهدة وقائع الحرب على شاشة التلفاز بدلا من ان تقرب الناس من هذه الوقائع ، جعلتهم يشعرون انها غير حقيقية ، وذلك لربط العقل الباطن هذه المشاهد التلفازية بالتمثيل وليس بالحياة الحقيقية . فمشاهد المعارك التى ينقلها التلفاز تتحول فى عقول المشاهدين وقلوبهم من واقع الى وهم . فكل طفل يعلم ان القتل عند « الغريبيين » غر حقيقى ، ومن هنا يصبح القتل الحقيقى - عندما يقدم كغريبى - وكأنه ايضا غير حقيقى ، وهذا لايجعل المشاهد فاقدا

ويرفض توينبي نظرية التفوق العرقي ، ويقول انه ليس هناك اى دليل علمي على أن الفروق الجسميه فى لون البشرة مثلا او فى شكل الشعر او الانف مرتبطة بالقدرات والصفات . فلعل جميع الاجناس متساوية فى نسبة من فيها من عباقرة وبلهاء ومجرمين وقديسين (**تجارب** ص ٢٥٠) . ولا يتردد توينبي فى نعته الغرب بانه المعتدي الاول فى العصور الحديثه ، وأن الغرب اذا كان قد بدأ يقاسى على يد الأمم الاخرى ، فلطالما قاست أمم العالم منه قرونا عديدة (**الحضارة على المحك** ٢٣٥ - ٢٣٧) .

ويتحدث توينبي عن الآثار العميقة التي تنجم عن استعارة شعب من الشعوب للتكنولوجيا الغربية . فيقول ان التكنولوجيا تعمل على سطح الحياة ، ومن ثم يبدو ان من المناسب علميا تبني تكنولوجيا اجنبية دون ان يتعرض (الشعب) لخطر فقدان روحه . ولكن هذا خطأ فى التقدير ، اذ ان العناصر المختلفة فى اية ثقافة مترابطة ترابطا داخليا ، فاذا هجر الشعب ما لديه من تكنولوجيا ، واصطنع بدلا منها تكنولوجيا اجنبية ، فإن أثر التغير هذا على سطح الحياة التكنولوجية لن يظل محصورا فى السطح ، بل سيبدأ فى التسرب تدريجيا الى الاعماق حتى تصدع جميع ثقافة هذا الشعب التقليدية وتدخل اليه جميع الثقافة الاجنبية شيئا فشيئا عبر الثغرة التي صنعها أسفين التكنولوجيا الاجنبية فى حصون ثقافة الشعب . ان لكل اطار ثقافى تاريخي وحدته العضوية الكاملة تستند اجزاؤها الى بعضها البعض ، فاذا فصل اى جزء عن مكانه فان الجزء المفصول والكل المشوه يسلكان سلوكا مفايرا لسلوكهما يوم أن كانا فى اطار متماسك . ان دمارا عظيما يمكن ان ينشأ عن نزع فكرة او تنظيم أو أسلوب ، من مواطنها الاصليه وزرعها فى بيئة اجتماعية اخرى

وهو يسألهم ان يتحلوا بالصبر وان يجتنبوا اللجوء الى العنف ، وان يقتدوا برجال الاديان الكبرى والفلسفات العظيمة . (المصدر السابق ١٥٢ - ١٥٤) . وهو يعتقد ان الجنس البشرى يواجه اختيارين وكلاهما سئ : الاول افناء نفسه بحرب ذرية ، والثانى - وقد يكون أهون الشرين - تجنب الحرب بتوحيد العالم تحت حكم ديكتاتورى عالمي ، حيث تخضع فيه أقلية قوية وغنية اكثرية فقيرة ومتأخرة ، ودور الشباب هو فى محاولة الخروج من هذا المأزق بايجاد وحدة عالمية تمكن الجنس البشرى من البقاء ومن الازدهار دون اضطهاد واستعباد .

وقد تنبأ توينبي فى كتابه « **التغير والعادة** » (صفحة ١٥٨) بأن الصين وليست الولايات المتحدة أو روسيا هى التى ستكون نواة وحدة سياسية على مستوى عالمي ، ويسندها فى ذلك وحدتها الداخلية وكثرة عدد سكانها وتاريخها .

ويقف توينبي فى كتابه « **العالم والغرب** » عند الوحدة الاسلامية ، ويعيب على الاتراك والعرب وغيرهم من الشعوب الاسلامية ، تبنيهم للقومية الغربية تلك « المتل الأعلى السياسى الغربى الضيق القلب » رغم ان لهم براتا يجعل من جميع المسلمين اخوة بفضل دينهم المشترك ، بالرغم من اختلاف اجناسهم ولغاتهم واطنائهم . ويرى ان هذا التراث الاسلامي ، الذى يعتبر المسلمين اخوة ، أفضل كمثل أعلى فى تلبية حاجات العصور الاجتماعية من التراث الغربى الذى ينادى باستقلال عدد من القوميات . ويرجو توينبي ان يتوقف انتشار هذا الوباء السياسى الغربى فى العالم الاسلامي على الاقل - بفضل الشعور الاسلامي التقليدى بالوحدة . (**الحضارة على المحك والعالم والغرب** ٢٥٣ - ٢٥٥) . وتسترمى اهتمام توينبي جامعة الازهر حيث الثقافة الاسلامية الواحدة ، التي تقدم باللغة العربية لجميع الطلاب على اختلاف اجناسهم ولغاتهم (**البقاء فى المستقبل** ص ٩٧) .

التمييز بين ما هو حقيقي وبين ما هو غير حقيقي ، وأقل حرية في اختيار ما يريد من القارئ ، فهو مكيف (بفتح الياء) لأن يسلم بكل ما تريد المؤسسة التي وراء التلفاز منه ان يسلم به . ويروي ان من الاشياء التي كان بعض الفرنسيين ينكرونها في نظام ديفول ان الحكومة قد احتكرت التلفاز ، ومن ثم فهم لا يستطيعون ان يروا الا ما يريد ديفول ان يروه ، ومن ثم حرموا من رؤية الوقائع بأنفسهم وبالتالي حرموا من ان يقرروا بأنفسهم ما يريدون ان يفعلوه . وقد أوردنا من قبل اثر التلفاز على الجمهور الأمريكي . غير ان توينبي في بحثه عن وسائل لتحقيق الحكومة العالمية يفتن الى التلفاز فيعتبره أداة قيمة - ولكنه يفضيها - لتحقيق قبول من يكرهون احتمال الخضوع لحكومة ديكتاتورية عالمية ، بل انه اكثر قيمة في ترويض الجماهير لتقبل النظام الذي يمكن ان تفرضه مثل هذه الحكومة العالمية عليهم . (البقاء في المستقبل ٧١ - ٧٢ ، ١١٥ - ١١٦) .

والعقل الاليكتروني لا يقل خطرا عن التلفاز في تحطيم مبدأ « اعمله بنفسك » التربوي . لقد خطا العقل الاليكتروني خطوات سريعة في السيطرة على العالم ، بما يقدمه من حلول لمشكلة معالجة الكميات والحجوم ، التي يتسم بها مجتمعنا المعاصر . فهو يستطيع ان يتناول كميات هائلة من المعلومات بسرعة البرق ، ومن ثم يعدّها ويضعها في متناول الاداريين والمدراء والحكومات . بل انه يستطيع ان ينظم العلاقات البشرية على نطاق هائل ، ولكن ذلك على حساب سلب الانسان انسانيته . ويعترف توينبي انه (وقد بلغ الثمانين) في هذه السن لا يحب التلفاز او العقل الاليكتروني لانهما يقيدان حرية الانسان في الاختيار ، ولكنه يعترف بأنه قد يكون متحاملا ضد اختراعات جديدة ، وقد يكون باخسا لقيمة هاتين الوسيلتين بالنسبة للمجتمع . (البقاء في المستقبل ١١٧) .

تعارض فيها مع الاطار المحلى التاريخي للحياة الاجتماعية . واذا أخذ جزء من نقافة ما ، وادخل في جسم اجتماعي اجنبي ، فان هذا الجزء سيسحب وراءه عناصر أخرى من النظام الاجتماعي الذي جاء منه هذا الجزء . (الحضارة على المحك ، الصفحات ٢٧٠ ، ٢٨٢ و ٢٨٣) .

ومن الامثلة الطريفة التي يقدمها توينبي على هذا الغزو الثقافي ، القصة التالية : لما أراد محمد علي ان ينشئ اسطولا بحريا قويا ، رأى انه لا بد من ان يصنع سفنه بأيدي مصرية وفي أحواض مصرية . ومن ثم أعلن عن حاجته الى خبراء غربيين ، فاشترط هؤلاء الغربيون احضار عائلاتهم معهم ، كما اشترطوا توفير رعاية طبية لهم ، ومن ثم تعاقد محمد علي مع عدد من هؤلاء الخبراء الغربيين ، وكذلك مع بعض الاطباء الغربيين . وفي عام ١٨٣٩ انشئ مستشفى للولادة الى جانب دار الصناعة البحرية في الاسكندرية ، غير ان علاج هؤلاء الاطباء لم يقتصر على زوجات الموظفين الاجانب ، وانما امتد ليشمل ايضا عددا من السيدات المصريات . وقد لا يكون هذا الامر مثيرا لنا في الوقت الحاضر ، ولكنه في ذلك الحين كان خروجاً على تقاليد كانت تفصل المرأة فصلالكلها عن أي رجل اجنبي ، ومن ثم كانت له آثاره العميقة على اطار حياة المجتمع المصري التقليدية . (المصدر السابق ٢٨٣ - ٢٨٥) .

ويتحدث توينبي عن آثار التكنولوجيا في العالم وعن تغييرها لكثير من الانماط التقليدية ، وبعض هذه الآثار قد يكون ضررها اكبر من نفعها . ومن الامثلة التي يعطيها التلفاز والعقل الاليكتروني وآثارهما السلبية على عملية التربية والتعليم . فمشاهدة التلفاز - عند توينبي - نشاط سلبي يعارض مبدأ « اعمله بنفسك » وهذا المبدأ هو - في رأيه - أساس التربية ، كما ان المشاهد اقل قدرة على

لقد مكنت التكنولوجيا الانسان من السيطرة على الطبيعة ، ولكن ذلك جعل منه عبدا لبيئة جديدة مصطنعة ومن صنعه . وهذه البيئة أكثر استبداداً ، وأقل ملائمة ، وأقوى ازعاجاً نفسياً من بيئته القديمة ، وهو بهذا الاستبدال اضحى وكأنه قد فتح غطاء صندوق بندوقاً ، الذى تزعم الاسطورة الاغريقية انه كان مليئاً بكل شرور الدنيا ، وهذا ما نراه من عدم استقرار وعنف وصراع . (**البقاء فى المستقبل** صفحة ٣٠) .

وكان من نتائج هذا التقدم التكنولوجي ان اختل توازن التروية فى العالم ، كما لم يخل منله فى اى وقت من الاوقات فى التاريخ . ان أغنى البلدان الصناعية اليوم الولايات المتحدة ، ولكن عشر سكانها وربما خمسهم يعيشون عيشة ضئيلة ، وحظهم من الرعاية ضئيل . كما ان البلدان التى استغنى جزء من سكانها لا تشكل الا اقلية بين بلدان العالم كله . وما زال ثلاثة أرباع سكان العالم فلاحين ، يعيشون فى مستوى لا يفوق كثيراً مستوى انسان العصر الحجرى الحديث . (**البقاء فى المستقبل** صفحة ٣١) . بل ان هذه الاقلية التى أصبحت غنية قد حققت ذلك على حساب فقدانها لحريتها ولسعادتها . وقد أصبح الانسان سجيناً للانجازات والخطوات التقنية التى خطاها . وانفصل العمل فى حياته عن الحماس له ، ولم يعد يجد فيه ما كان يجد من رضا روحى .

وفى محاولة العلم والتكنولوجيا الحلول محل الدين فشلا فى اسعاد الانسان . ان العلم لم يحل فى يوم من الايام محل الدين ، ويعتقد توينبى انه لن يحل محل الدين فى المستقبل ، وذلك لأن العلم يتطلب أجوبة محددة ولا نفيل الجدل ، ولكن الاسئلة التى تهم البشر كثيراً جداً لا يمكن ان تجاب اجابة يقينية . ولعل سر نجاح العلم فى الاجابة على اسئلته ان هذه

الاسئلة ليست هى أهم الاسئلة . وبالرغم من ان نجاح العلم والتكنولوجيا كان مذهشاً ، الا ان هناك حدوداً لما يمكن ان يقدمه للانسان . ان حاجتنا الكبرى هى لتحسين روحى فى انفسنا وفى علاقاتنا باخواننا من بنى البشر ، وهذه حاجة لا يمكن ان يليها العلم او التكنولوجيا . ان من المعروف ان الطبيعة لا تقبل الفراغ المادى ، ومثل هذا يصدق عن الجانب الروحى فى هذا العالم . ان العلم والتكنولوجيا قد يخلقان فراغاً روحياً عندما يكذبان الأديان السابقة ، ولكنهما لا يستطيعان ملء هذا الفراغ ، فلا بد من ملء هذا الفراغ بأديان من نوع ما . ان الشعور بالتقديس والرهبة غرائز فطرية فى الانسان ، وان الانسان الذى لا يشعر بدينه فى الظروف العادية يشعر بالحاجة اليه عندما يمر بأزمات فى حياته . (**البقاء فى المستقبل** ٤٤ - ٤٥ ، ٤٧) .

ومن الموضوعات الشيقة التى يتطرق لها توينبى ابحاث اكتشاف الفضاء ، وهو لا يشارك المتحمسين فى حماسهم لهذه الاكتشافات ، لأنه يرى ان اتخاذ اى قرار يحدد بالاولويات هو قرار اخلاقى ، ومن ثم فان اعطاء الاولوية لباحث الفضاء هو قرار اخلاقى ، ولكنه قرار لا يمكن الدفاع عنه لأن ابحاث الفضاء أعطيت الاولوية على اطعام واسكان وكساء الغالبية الفقيرة من سكان هذا العالم . ويرى توينبى ان هذه الحاجة الصارخة يجب ان تحتل المركز الاول فى الاستفادة من مصادر البشرية وطاقاتها ومهارتها . ثم يقول « وأشك فى أن حكومتي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ما كانتا ستنفقان على برنامج الفضاء هذه المواد الطائلة النسي انفاقها فعلاً عليه لو لم تكونا سنافسان على الارتقاء السياسى والعسكرى فوق هذا الكوكب . اننى اعتقد ان المنافسة صبيانية فى حد ذاتها ، وعمل غير اخلاقى فى عصر معظم

من الجنس البشرى فوق سطح هذا الكوكب
الى مستوى الاقلية الفنية « (البقاء للمستقبل
١٣٨ - ١٣٩) .

لقد شغل توينبي نفسه بكل ما يهم الانسان،
وانتج انتاجا غزيرا جدا ، تناول فيه جوانب
كبيرة من المعرفة ، وكتب بوحى من مسؤوليته
كمؤرخ وكانسان .

فتحية لمؤرخنا العظيم في عيد ميلاده
الخامس والثمانين الذى يصادف صدور هذا
العدد من مجله عالم الفكر .

الناس فيه فقراء ، وهو عمل اجرامى فى زمن
تسلحت فيه الدولتان الكبيرتان المتنافستان
بالاسلحة الذرية . ولهذه الاسباب فاننى لو
كنت حاكما ديكتاتوريا لهذا العالم ، ولدى قوة
لا تقاوم - وهذا لحسن الحظ غير محتمل -
لاوقفت جميع برامج الفضاء الحالية فورا .
اننى لن احذف هذه البرامج عن جدول اعمالى،
ولكنى سأعطيها مكانا متأخرا جدا فى قائمة
الاولويات عندى . . . ولنؤخر برنامج الفضاء
الى ان نرفع مستوى الاكثرية الساحقة الفقيرة

مراجع مختارة

أشرنا في المقالة الى عدد من الكتب والمقالات ، وقد رجعنا الى كتب ومقالات لم ندر اليها ومنها :

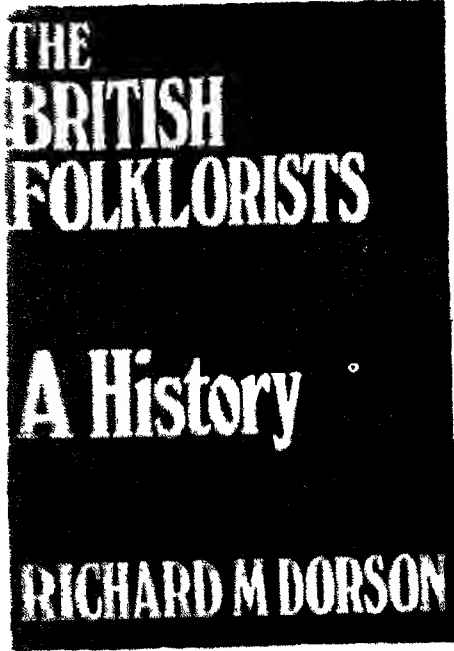
1. Arnold Toynbee The Impact of the Russian Revolution 1917—1967 (London, 1967).
2. — — The Economy of the Western Hemisphere (London, 1962).
3. — — America and the World Revolution, (London, 1962).
4. — — „Technical Advance and the Morality of Power”, Can We Survive Our Future ? A Symposium edited by G. R. Urban, London, 1971.
5. — — Cities on the Move, London, 1970.
6. — — East to West, London, 1956.
7. — — Between Oxus and Jumna, London, 1961.
8. — — Hellenism, London, 1959.

(٩) محاضرات آرنولد توينبي - نص المحاضرات التي ألقاها آرنولد توينبي للجمهورية العربية المتحدة في ابريل عام ١٩٦٤ .

10. “The Argument between Arabs and Jews : An Exchange between Arnold Toynbee and J. L. Talmon”. The Israel-Arab Reader edited by Walter Laques, New York 1968 pp. 260-272.
11. H. E. Barnes, An Intellectual and Cultural History of the Western World, Vol. 3, New York, 1965.
12. — — (ed.) An Introduction to the History of Sociology, Chicago, 1965.
13. E. H. Carr, What is History, London, 1962.
14. R. G. Collingwood, The Idea of History, London, 1946.
15. Mark Krug, History and the Social Sciences, Walthaw, Mass., 1967.
16. P. W. Martin, Experiments in Depth : A Study of the Works of Jung, Eliot and Toynbee, London, 1955.
17. Ved Mehta, Fly and the Fly-Bottle (Penguin, Middlesex, 1965)
18. George E. Mosse, The Culture of Western Europe ; the Nineteenth & Twentieth Centuries, London, 1963.

(١٩) الدكتور حسين مؤنس « آرنولد توينبي ونظرية التحدى والاستجابة » مجلة العربي يناير ١٩٧٤ ، ص ٩٩ - ١٠٥ .

عرض الكتب



الفولكلوريون البريطانيون دراسة تاريخية

عرض وتحليل: الأستاذ صفوت كمال

البريطانيين تناول الأستاذ ريتشارد دورسون تاريخ حركة الفولكلور البريطانية منذ بداية الاهتمام العلمي بمواد المآثورات في العصر الفيكتوري إلى الحرب العالمية الأولى . متتبعا في دراسته الجهود العلمية والاهتمامات الادبية بمواد التراث الثقافي الشفاهي للمجتمع باعتبار ان مواد التراث الثقافي الشعبي هي جانب مكمل لدراسة التراث الثقافي لأي مجتمع . .

فدراسة الفولكلور ، كمادة . . وعلم ، ارتبطت في بداياتها بالدراسات التاريخية ،

منذ أن استخدم الاثرى البريطاني وليام جون تومز William John Toms (١٨٠٣ - ١٨٨٥) مصطلح فولكلور Folk-lore (١) ليدل على مواد التراث الثقافي الشفاهي . شاع استخدام هذا المصطلح ليدل على المآثورات الشعبية التي تتناقل شفاهة عبر الاجيال ، وتؤثر في أنماط الممارسات اليومية وكوامن التفكير ، وتشكل حكمة الشعب The Lore of the People

وفي هذه الدراسة التاريخية للفولكلوريين

* Richard M. Dorson, the British Folklorists A History, Routledge & Kegan Paul, London 1968.

(١) استخدم تومز هذا المصطلح في مقال نشره في مجلة الاثنيوم

The Athenaeum, No. 982 (August 22, 1846), 826—63.

ووقعه باسم مستعار هو امبروز ميرتون Ambrose Merton

التي تحتويها هذه المكتبة ، ثم تابع بعد ذلك زيارته لانجلترا خلال عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٦٣ . تم عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ - بهدف استكمال جمع مادة هذا الكتاب الذي نشر عام ١٩٦٨ .

الكتاب :

والكتاب يقع في ٥١٨ صفحة من القطع الكبير وينقسم الى أحد عشر فصلا غير المقدمة والخاتمة والفهرس التفصيلي والبليوجرافيا التي تشغل وحدها ١٩ صفحة .

والفصل الاول يخصه المؤلف لمجموعة الاثريين الذين اهتموا بجمع مواد من المأثورات الشعبية وسجلوها في دراساتهم التاريخية عن الحياة القديمة قبل حياة التمدين والمدنية . ومن بين هؤلاء **وليام كامدن** William Camden (١٥٥١ - ١٦٢٣) الذي جمع خلال جولاته العلمية نماذج عديدة من عادات وتقاليده الايرلنديين القدامى ، ومعتقداتهم الشعبية وكذلك بعض الممارسات الطقوسية التي يمارسونها خلال حياتهم اليومية لجلب الحظ ، او لدرء الشر وكف الحسد .

وبعد وفاة كامدن بنلاث سنوات ولد **جون أوبري** John Aubrey (١٦٢٦ - ١٦٩٧) الذي أكد أهمية الجانب الشفاهي في دراسة التراث ، ونظر الى الناس باعتبارهم مركز حفظ التقاليد وحفظ التراث . . وربط أوبري في دراساته أواصر الصلة بين دراسة الموروثات القديمة وعلم التاريخ الطبيعي . . كما اهتم بعادات وتقاليده الجنائز والدفن ، من حيث انها أشد العادات احتفاظا بالآثار التقليدية ، كما اهتم بالحكايات الخرافية بما تحمل من تصورات وأوهام قديمة .

والاهتمام بالموروثات القديمة والعادات المتوارثة ، قبل أن ترتبط بدراسة ثقافة الشعوب والاهتمام بالاساطير ودراسة العناصر الأسطورية التي عانت عبر العصور في الممارسات الطقوسية والحكايات الشعبية .

ومؤلف هذا الكتاب ، الاستاذ ريتشارد

دورسون هو أحد أساتذة الفولكلور الأمريكيين المعاصرين ، ممن لهم مكانة علمية دولية . فهو أستاذ للتاريخ ، والفولكلور ، ومدير معهد الفولكلور في جامعة انديانا ، الذي يعتبر من أنشط المعاهد العلمية المتخصصة في الدراسات الفولكلورية . كما يشغل الاستاذ دورسون منصب رئيس جمعية الفولكلور الأمريكية ، ونائب رئيس هيئة الاثنولوجي والفولكلور الدولية . . كما أنه يتصرف على سلسلة الكتب التي تنشرها دار روتلج وكيجان بول Routledge & Kegan Paul عن الحكايات الشعبية ، والتي يختص كل عدد منها بدراسة عن حكايات بلد من البلاد . . كما يدرس نحت انرافه حاليا عدد من الدارسين العرب الذين يستكملون دراساتهم العليا في الفولكلور .

وقد نشر الاستاذ دورسون في نفس تاريخ صدور هذا الكتاب كتابا آخر يعتبر مكملا لهذا الكتاب يتناول فيه عادات الفلاحين واساطير البدائيين (٢) اقتبس مادته العلمية من دراسات الفولكلوريين البريطانيين الذين تناولهم في دراسته التاريخية هذه عن الفولكلوريين البريطانيين وقد بدأت فكرة تأليف هذا الكتاب كما يقول المؤلف ، في صيف عام ١٩٤٨ حينما زار انجلترا زيارة شخصية لشقيقته التي تقيم في لندن . . وفي أثناء زيارته لها زار مكتبة جمعية الفولكلور ، فتعرف على غزارة المادة العلمية

المبرزين في هذه المجموعة حينما نشر عام ١٨٢٥ مجلدا عن الخرافات والحكايات الخيالية والتقاليد في جنوب أيرلندا (٥) . وقد صدر هذا الكتاب بدون اسم مؤلفه ولاقى نجاحا كبيرا . فطلب الناشر (Murray) من كروكر ان يجمع مادة أخرى من أيرلنده . وفي سنة ١٨٢٨ نشر كتابين آخرين وقد ترجم الاخوان جريم (Wilhelm & Jacob Grimm) هذا العمل الى الألمانية بعد صدوره بعام واحد . . كما ترجم الى الفرنسية ايضا بعد ثلاث سنوات . وقد كتب وليهام جريم خطابا رقيقا الى كروكر وجهه الى « الرجل صاحب المجموعة القيمة من الحكايات والاساطير الأيرلندية ، الذى شغلنا بعمله عدة شهور . . . » وتابع **كروكر** جمع الحكايات والاساطير الأيرلندية ولكن **توماس كيتلى** " Thomas Keightley " (١٧٨٩ - ١٨٧٢) انتقد عمله فقد افترض ان بعض الحكايات التى أوردها كروكر هي حكايات مزيفة غير أصيلة مما اضطر كروكر بعد ذلك الى اختصار الحكايات التي نشرها من خمسين حكاية خرافية الى أربعين . وععاون مع كيتلى Keightley في جمع ودراسة الاساطير والحكايات الخرافية . وأصدر كيتلى كتابين هامين هما الاساطير الخيالية (١٨٢٦) ، وحكايات وروايات شعبية (١٨٣٤) The Fairy Mythology و Tales and Popular Fictions

ثم تحدث المؤلف بعد عرض جهود كروكر وكيتلى عن **فرانسييس دوس** Francis Douce (١٧٥٧ - ١٨٤٣) الذى كان ، رغم انتاجه

وقبل وفاة أوبرى بثلاث سنوات ولد **هنرى بون** Henry Bone (١٦٩٤ - ١٧٣٣) الذى اهتم ايضا بحياة الناس العاديين وما تتضمنه من موروثة ثقافية (٣) وعاداتهم وتقاليدهم بجانب اهتمامه الاصلى بالتاريخ ، ويتابع المؤلف في هذا **الفصل الاول** من كتابه ذكر جهود هذا الجيل من الرواد الذين اهتموا بالتقاليد الشعبية والمتوارثة بين الناس مثل **جون براند** John Brand (١٧٤٤ - ١٨٠٦) الذى اهتم بالأعراف السائدة في التجارة وتقاليد البيع والشراء والعادات ، وطقوس الحصاد التى وضع لها **جيمس فريزر** James Frazer فيما بعد نظرية خاصة عنها في كتابه الفصن الذهبى The Golden Bough .

وقد جمع براند مادة غزيرة ، اوضحت الكثير من جوانب الحياة البريطانية . كما اوضح المؤلف جهود **فرانسييس جروس** (١٧٣١ ؟ - ١٧٩١) Francis Grose واهتمامه باللهجات الشعبية (٤) ودراساته عن تاريخ الجيش البريطاني وتاريخ انجلترا وويلز وكذلك عن اسكتلندا وأيرلنده . . كما ذكر المؤلف الباحثين الآخرين الذين اهتموا بجمع مواد الحياة القديمة وذكريات الأسلاف والموروثات الباقية من عصور سابقة وما زالت حية في الحياة اليومية يمارسها الناس نلفائيا . .

وفي الفصل الثانى ، قدم المؤلف مجموعة أخرى من جامعى الموروثات القديمة الفولكلوريين **توماس كروفتون كروكر** Thomas Crofton Croker (١٧٩٨ - ١٨٥٤) أحد الاعلام

Henry Bone, *Antiquitates Vulgares, or the Antiquities of the Common People* (Newcastle : J. White, 1725). (٢)

Francis Grose, *A Provincial Glossary*, London, 1970. (٤)
Francis Grose, *A Classical Dictionary of the Vulgar Tongue* (1785)

Fairy Legends and Traditions of the South of Ireland, (John Murray, 1825). (٥)

لل كلمات العامية ، وعددا من الكتب عن الاغانى القصصية ، والنوادر ، والمعتقدات الخيالية . كما نثر دراسة أعدها لجمعية شكسبير سنة ١٨٤٥ عن التصورات الاسطورية في حلم ليلة صيف *Illustrations of the Fairy Mythology of Midsummer Night's Dream* والتي أورد فيها ٣٩ فقرة مقتطفة من الآداب الشعبية الشائعة في عصر شكسبير أو سابقة له .

وفي نهاية هذا الفصل الذى أفرد له الاستاد **دورسون** عن الاثريين الفولكلوريين ، قدم لنا عالم الآثار الانجليزى **وليام جون تومز** *William John Thoms* (١٨٠٣ - ١٨٨٥) صاحب مصطلح الفولكلور ، والذى فرق فيه بين الموضوعات التى تناولها المؤرخون بالدراسة من حياة الشعوب . . فقد اهتم وليام تومز بالخرافات والمعتقدات وما تتضمنه الاغنيات الشعبية وأغانى الاطفال من عناصر اسطورية ومعتقدات خرافية . كما أن باب « ملاحظات واستفسارات » الذى اشرف عليه لمدة خمسة وعشرين عاما في مجلة الاينيوم (٩) كان له أهميته في جمع مواد فولكلورية مفيدة للدارسين ، كما ساعد على نشر مصطلح *Folklore* .

وجهود تومز العلمية كان لها أكبر الأثر في تنمية وتنشيط حركة الفولكلور العلمية والاهتمام بالمأثورات الشعبية ، داخل انجلترا وخارجها . . حتى أصبح الفولكلور علما قائما بذاته له مادة دراسته ، وطرق ومناهج بحثه العلمية مستقلة عن العلوم الانسانية التى ارتبط

القليل ، مرشدا لكثير من الدارسين ، فمعلوماته الموسوعية الغزيرة ساعدت كثيرا من الباحثين في التعرف على مصادر مواد بحوثهم . كما أن ملاحظات دوس على أعمال شكسبير كانت لها أهمية بالغة في القضاء الضوء على المؤثرات الثقافية التقليدية التى تأثر بها شكسبير في أعماله (٦) . كما يعتبر دوس من أوائل الذين اهتموا برمزىة الرقص الشعبي ودلالاته الفولكلورية .

بعد فرانسيس دوس تناول المؤلف حياة وأعمال **توماس رايت** *Thomas Wright* (١٨١٠ - ١٨٧٧) الذى يعتبر واحدا من الثقاة في أدب العصور الوسطى ومن شاركوا العالمين الالمانيين الأخوين جريم ، يعقوب (١٧٨٥ - ١٨٦٣) وويلهيلم (١٧٨٦ - ١٨٥٩) في اهتماماتهما بالتقاليد والآداب الشعبية .

وأهم أعمال رايت ، كتابه عن موضوعات ترتبط بالآداب والخرافات الشعبية ، وتاريخ انجلترا في العصور الوسطى (٧) . . الذى يتناول في حوالى ٢٠ مقالا من مقالاته التقاليد الشعبية الشائعة في ذلك الوقت وردا الى أصولها التاريخية التى ترجع الى القرنين الثانى والثالث عشر .

كما له غير ذلك عديد من المؤلفات ذكرها الكاتب وعرض لها في ايجاز .

ومن الذين تعاونوا مع رايت جيمس أورشارد هاليويل فيلبس *James Orchard Halliwell Phillipps* الذى اهتم بجمع أغانى تهنين الاطفال (٨) كما نشر قاموسا

Illustrations of Shakespeare, and of Ancient Manners.

(٦) .

Thomas Wright, Essays on Subjects Connected with the Literature, Popular Superstitions, and History of England in the Middle Ages, London : John Russell Smith, 1846.

(٧)

James Orchard Halliwell, The Nursery Rhymes of England, 4th edition (London : John Russell Smith, 1846).

(٨)

(٩) مجلة اسبوعية تختص بالآداب والعلوم والفنون .

أوروبا كما ساعدت دراسات الأخوين جريم في ألمانيا على نشر الاهتمام بالموروثات الثقافية والأدب الشعبي ، وشاعت هذه الحركة الأدبية الرومانسية القومية في كثير من البلدان وبخاصة في ألمانيا والنرويج وفنلندا والمجر والصرب . . ومن الشعراء الذين اهتموا بالآغاني الشعبية وجمعها **يوهان جوتفريدفون هيردر** Johann Gottfried Von Herder .

هذا الاتجاه الرومانسي أثر على الاتجاه العقلي والمنهج الوضعي في مناهج البحث ، فأنجبه الاهتمام العلمي بالمواد الفولكلورية وجهة أدبية ، كما أن ظهور مجموعات من الحكايات الشعبية وخاصة مجموعة الحكايات التي جمعها الأخوان جريم ، أثرت في اتجاه الكتاب الروائيين من **أوفيد** Ovid إلى **بوكاتشييو** Boccaccio (١٠) كما أنار هذا الاتجاه اتجاهها آخراً فرعياً أعطى لجامع الحكايات الشعبية حق إعادة صياغة المادة الشفاهية بأسلوبه الشخصي .

مع هذا الاتجاه ظهرت مجموعة من الأدباء الذين يهتمون بالتراث الشعبي الذين يسميهم دورسون الفولكلوريين الأدباء The Literary Folklorists ، مثل **روبرت سوزي** Robert Southy (١٧٧٤ - ١٨٤٣) والروائية **آننا براي** Anna Eliza Bray (١٧٩٠ - ١٨٨٣) التي كتب لها **سوزي** في إحدى رسائله قائلاً ، أنه كان يود أن يحفظ كل ما كان يرويهِ أقاربه المسنون من ذكريات عن حياتهم وتقاليدهم ، وما كانوا يقصونه من قصص وسوالف عن أقاربهم وأسلافهم ، تصف حياتهم القديمة وعاداتهم ، وما كان شائعاً في زمانهم السابق والازمان التي سبقتهم .

بها في بداياته . . مثل علم التاريخ . . وعلم دراسة الانسان . . وعلم الاجتماع . . وان كان مازال وثيق الصلة بطرق ومناهج بحث علم الاتنولوجيا والدراسات الميدانية الانوجرافية .

ولا يذكر مصطلح فولكلور في أى لغة الا ويذكر اسم تومز ، كما يرجع لتومز فضل تأسيس جمعية الفولكلور الانجليزية التي تعتبر من أقدم الجمعيات الفولكلورية في العالم . . ودوريتها التي أصدرتها في أول عام من تكوينها ١٨٧٨ مازالت تصدر الآن وتعتبر مرجعاً علمياً للدارسين والباحثين الفولكلوريين .

ومنذ تكوين هذه الجمعية Folklore Society وصدور دوريتها Folklore ١٨٧٨ اخذ مصطلح فولكلور ينتشر الى ان اصبح مصطلحاً علمياً عالمياً متعارف على دلالاته العلمية ومادته .

وفي الفصل الثالث يتناول المؤلف مجموعة أخرى من رواد الحركة الفولكلورية البريطانية . . يسميهم الفولكلوريين الأدباء . . ففي أوائل القرن التاسع عشر حينما أخذت روح الاهتمام بالتراث الشعبي تنتشر أخذ الرومانسيون أيضاً ، وخاصة الشعراء ، بحكم اهتمامهم وميلهم وحُبهم لحياة الريف وبساطة الفطرة الطبيعية ، يتجهون أيضاً الى إبداع الفلاحين البسطاء ، ويهتمون بأغانيهم وفنونهم وعاداتهم وتقاليدهم التي توارثوها . . واهتم الشعراء الرومانسيون مثل وردزورث Wordsworth وكوليرج Coleridge بالحياة الريفية .

هذا الاتجاه الرومانسي الذي ارتبط في نفس الوقت بالروح القومية ، شاع في مختلف بلدان

(١٠) لم يشر المؤلف الى اثر حركة ترجمة التراث العربي مثل ألف ليلة وليلة والمقامات في هذا الاتجاه الروائي وخاصة عند بوكاتشييو في عمله Decameron وكانديد Candid لقولتير وظهور فن الرواية المسمى اصطلاحاً Novels Picaresque .

من بين مجموعة الفولكلوريين الاسكتلنديين الذي أشار اليهم **دورسون** في هذا الفصل من كتابه ، هـ . **ميلر** Hugh Miller (١٨٠٢ - ١٨٥٦) الذي لم يكن مجرد جامع أو مسجل للسوالف والعادات ، بل كان يتمتع بقدرة كبيرة على تمثيل هذه المأثورات الشعبية ، وقدرة ملاحظة واستيعاب لكل ما يحوطه من موروثة نفاية قديمة ، وقد نشر دراسات عن الخرافات الشائعة في شمال اسكتلندا Scenes and legends of the North of Scotland (١٨٣٥) كما نشر ترجمة ذاتية لحياته .

ومن بين هذه المجموعة من جامعي المأثورات القديمة الباحثة **آن جرانت** Anne MacVicar Grant (١٧٥٥ - ١٨٣٨) التي أصدرت دراسة عن الخرافات الشعبية في مرتفعات اسكتلندا Essays on the Superstitions of the Highlanders of Scotland **ووليام جرانت ستيوات** (١٢) .

ووليام جون جراهام داليل John Graham Dalyell (١٧٧٥ - ١٨٥١) الذي اهتم بجمع الخرافات الشعبية من الكتب القديمة والمخطوطات وكذلك من خلال الممارسات اليومية .

The Darker Superstitious of Scotland
Illustrated from History and Practice (1834)

• • •

وبعد أن تناول المؤلف في هذا الفصل من كتابه اعمال أهم الفولكلوريين الاسكتلنديين مع برحة موجزة لحياتهم واهتماماتهم قدم في **الفصل الخامس** جماعة الفولكلوريين الذين

وقد أصدرت السيدة **براي** كتابا من ثلاثة أجزاء (١٨٣٦) اشتهر بعد ذلك (١٨٧٦) بعنوان The Borders of the Tamar and the Tavy يتضمن وصفا للتاريخ الطبيعي والعادات وأنماط السلوك والخرافات والموروثات الثقافية في ديفونشير Devonshire مع ترجمة لبعض الشخصيات الهامة الفاطنة هذه المنطقة التي تقع بالقرب من تاماروتاقى .

هذا الاتجاه الادبي ، في رصد الظواهر الفولكلورية استمر عند **جون روبى** John Roby (١٧٩٣ - ١٨٥٠) الذي وضع ١٨٢٩ كتابا عن تقاليد لانكشير Lancashire (١١) ، وغير ذلك من مجموعات قصصية ، كما سار **صمويل لفر** Samuel Lover (١٧٩٧ - ١٨٦٨) على نهج خطى روبى ، وأصدر مجموعات من القصص الشعبي الايرلندي .

أما الفصل الرابع من الكتاب : فيخصصه المؤلف للفولكلوريين الاسكتلنديين الاوائل مثل **والتر سكوت** Walter Scott (١٧٧١ - ١٨٣٢) الذي اهتم بالمعتقدات الخرافية والأشباح وأنواع الجنيات وشخصيات الساحرات التي ترد في الحكايات والمعتقدات الشعبية . كما اترك **ألان كنجهام** Allan Cunningham مع سكوت في دراسة الخرافات الشعبية وجمع الاشعار الشعبية ، وعلى نهج سكوت سار ايضا **روبرت تشامبرز** Robert Chambers (١٨٧١ - ١٨٠٢) الذي جمع مادة عن التراث الثقافي في ادنبرج Traditions of Edinburgh (١٨٢٤) وكذلك أشعارا غنائية من اسكتلندا Popular Rhymes of Scotland (١٨٢٦) وحكايات ونوادير اسكتلندية (١٨٣٢) .

John Roby, Popular Traditions of Lancashire, 3 Vols. (3rd edition, London, (١١) Henry G. Bohn, 1843.

Stewart, William Grant, The Popular Superstitions and Festive Amusements (١٢) of the Highlanders of Scotland (1823).

بوعى اكبر الى ما وفد اليهم من شواطئ الفرات والنيل (١٣) وكما حاول مولر أن يبين الصلة بين آلهة اليونان وآلهة الهند كما ورد في نصوص الفيدا ، فقد حاول براون المتخصص في التراث المصرى والآشورى أن يربط اليونان بثقافة واساطير الشرق الأدنى .

والواقع ان المدرسة الاسطورية في الفولكلور لعبت دورا كبيرا في موضوعات الدراسات الفولكلورية ، وأوجدت نوعا من العلاقة بين دراسة الحكايات الشعبية والخرافية منها بخاصة والاساطير . فكثير من الحكايات الشعبية تحمل في مكوناتها عناصر اسطورية ، كما تداخلت عناصر من الاساطير والتصور الاسطوري مع بعض عناصر المعتقدات الدينية . ورغم الاستقلال العلمى الذى يتميز به علم الفولكلور - حاليا - بوجد صلة وطيدة بين علم الاساطير ومباحث الحكايات الشعبية والممارسات الطقوسية . فالباحث الفولكلورى يجد نفسه دائما في حاجة الى معاونة تفسيرات علماء الاساطير (١٤) مثل حاجته الى معاونة الدراسات الانثولوجية . (١٥)

وكما طالب مولر دارسى الاساطير بمعرفة السنسكريتية ، وطالب لانج دراسة الانثولوجى ، فان براون طالب بضرورة ان يتعرف الدارسون للاساطير على آخر الدراسات عن الحضارات الكلدانية والآشورية والفينيقية والعربية والفارسية ، والمصرية . فالتقافات

اهتموا بالجانب الاسطورى في التراث الشعبى . وهو في تتبعه التاريخى لمختلف المراحل التى مرت بها حركة الفولكلور البريطانية يتابع في نفس الوقت الاتجاهات العلمية التى ساعدت على تحديد مفهوم الفولكلور .

ومن اهم اعلام المدرسة الفولكلورية الاسطورية **ماكس مولر** Max Müller و**اندرولانج** Andrew Lang وقد ولد مولر في ألمانيا عام ١٨٢٣ ، ثم انتقل الى إنجلترا ١٨٤٦ . وعمل استاذاً في جامعة أكسفورد منذ ١٨٤٦ الى ان مات سنة ١٩٠٠ . ودراسات مولر في علم الاساطير المغارن، وتاريخ الاديان والمعتقدات عديدة . . وعرض المؤلف لآعمال مولر العديدة في ايجاز . ونظرياته التى وضعها عن الاساطير الهندية واليونانية والاساطير الهند - أوروبية . كما عرض المؤلف للنقد الذى وجهه مولر للانج ، وكذلك نقد لانج لمولر . . كما تناول في هذا الفصل علماء الاساطير الآخرين المعاصرين لكل من مولر ولانج مثل العالم الالماني **ادلبرت كُون** Adalbert Kuhn و**وليام جل** William Wyatt Gill و**ولتر كيللى** Walter K. Kelly وغيرهم من أسانده علم الأساطير مثل **روبرت براون «الصفير»** Robert Brown, "Junior" (١٨٤٤ - ١٩١٢) الذى بين أنر الثقافات السامية القديمة على الاساطير الهلينية الدينية . وفد أشار براون الى انه يجب على هؤلاء المشغولين بميدان الدراسات الآرية أن ينبهوا

(١٣) Robert Brown, The Great Dionysiac Myth, 2 Vols. (London 1877 — 78) 1—162.

(١٤) راجع ، الدكتور عبد الحميد يونس ، الفولكلور والميثولوجيا ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٢ ، الكويت ، ص ١٥ - ٥٤ .

(١٥) Smith Thompson, Advances in Folklore Studies, in Anthropology Today, An Encyclopedic Inventory, The University of Chicago Press, 1953.

انظر ترجمه هذه الدراسة (التقدمة في دراسات الفولكلور) للكاتب - مجلة « المجلة » القاهرة - سبتمبر ١٩٦٤ .

السامية الاسيوية قد اضافت آلهة عديدة الى آلهة اليونان القديمة التي كان أصلها هندياً آرياً (١٦) .

ثم في **الفصل السادس** يتناول المؤلف الفولكلوريين الذين اهتموا بالحياة البدائية . ورائد هذه الجماعة هو **ادوارد برنت تايلور** Edward Burnet Taylor الذي يعتبر أباً لعلم الانسان Anthropology وعرباً Godfathre مدرسة الفولكلوريين الانثروبولوجيين . فدراسات تايلور الرائدة عن التاريخ المبكر للانسان : (١٨٦٥) Researches into the Early History of Mankind اوجدت الحد بين الفولكلور وعلم الاساطير . كما أن تايلور وضع تعريفاً او تفسيراً جديداً للفولكلور بمعنى « الثقافة الحية » وقد استلهم هذا التعريف من ملاحظاته ودراساته لثقافة الشعوب البدائية .

وقد عرض المؤلف أعمال تايلور ونظرياته بتوسع أكثر من غيره من العلماء ، نظراً لاهمية تايلور في تحديد المفهوم الثقافي للفولكلور . كما اوضح جهود الذين عاونوا تايلور في دراساته مثل **جون لوبوك** John Lobbock الذي نشر عام ١٨٦٥ كتاباً نفذ فور صدوره Pre Historic Times, as Illustrated by Ancient Remains and the Manners and Customs of Modern Savages.

وفي **الفصل السابع** ، يقدم المؤلف المجموعة العظيمة من الفولكلوريين مثل أندرو لانج (١٨٤٤ - ١٩١٢) احد اعلام المدرسة الفولكلورية الاسطورية التي سبق الإشارة الى جهوده مع ماكس مولر في دراسة

الاساطير والذي حدد مناهج البحث الفولكلورية في كتابه الذي تضمن مقالات عن العادة والاسطورة Custom and Myth (١٨٨٤) . وقد تناول الاستاذ دورسون حياة وأعمال اندرو لانج لا باعتباره عالماً من علماء الانثروبولوجيا بل كعالم انثروبولوجي فولكلوري ، وكذلك موقف لانج من الحكايات والقصص الفنائى . كما ان اهتمام لانج بالحكايات والقصص الشعبية قد وجه تفكيره نحو « دراسة الطابع القومى في الحكايات الشعبية » ، كما انه رفض فكرة نبعية الفولكلور للدراسات اللغوية ، وربط الفولكلور بالدراسات الانثولوجية (١٧) .

أما اول من نادى بأن الفولكلور هو علم قائم بذاته فهو **جورج لورانس جوم** George Laurence Gomme (١٨٥٣-١٩١٦) الذي يعتبر الرجل المنظم لمجموعة الفولكلوريين الانجليز ، والذي لعب دوراً فعالاً في نشاط جمعية الفولكلور الانجليزية ، ونشر عدة دراسات عن تاريخ لندن . وهو الذي نبه الى ان الحكايات الشعبية تحتوى على عناصر تاريخية ، وعناصر أسطورية ، كما تتضمن الحكايات أيضاً نماذج من النظم السياسية البدائية . كما أصدر دراسات عن الامثال والعادات والتقاليد . وحث جمعية الفولكلور على المشاركة في جمع مواد الماثورات الشعبية ونشرها . . واول كتاب أصدره عن الفولكلور كان عن المجالس التي تعقد خارج البيت في بريطانيا (١٨) .

ومن العلماء الذين شاركوا بجهودهم في جمعية الفولكلور الانجليزية **الفردنت** Alfred Nutt (١٨٥٦ - ١٩١٢) فهو بجانب انه

Robert Brown, op, cit 1. Vi ; II 334.

(١٦)

(١٧) ص ٢١٧ من الكتاب .

Primitive Folk-Moots, or Open Air Assemblies in Britain, London 1880.

(١٨)

1. Ethnology in Folklore 1892)

ومن مؤلفاته ايضاً :

2. Folklore as an Historical Science (1908).

أولاً : المعتقدات الخرافية والممارسات الطفوسية والسحر .

ثانياً : الاحتفالات التقليدية والالعاب .

ثالثاً : المرويات التقليدية وتتضمن الحكايات الشعبية وقصص الأبطال وحكايات الحيوان والقصص الغنائية .

رابعاً : الأقوال السائرة وتحتوى على أغاني نهين الأطفال والأمثال والألفاظ والأسماء المستعارة .

وقسم هذه الأقسام إلى أقسام فرعية ، كما احتوى الكتاب على ٧٨٤ سؤالاً حول هذه الموضوعات تساعد الجامع على جمع مادة بحثه بدقة وترتيب ، كما تضمن الكتاب فصلاً عن تعريف الفولكلور « الفولكلور ما هو » ، و « السبيل إلى جمع الفولكلور » و « العمل في المكتبة » . وقد أثمر هذا الكتاب في تكوين مجموعة من الباحثين الميدانيين ، الذين جمعوا مواداً من المآثورات الشعبية الشعبية جمعاً أكثر منهجية . . وقد أورد الأستاذ دورسون في هذا الفصل قائمة بأسماء هؤلاء الباحثين الميدانيين وأعمالهم (٢٠) . وتحدث عن بعض هذه الأعمال بإيجاز بنفس الطريقة التي انتهجها في مختلف فصول هذا الكتاب في عرضه التاريخي لتطور حركة الفولكلور البريطانية ومؤثراتها وتأثرها بحركات الفولكلور في بلدان أخرى وخاصة في ألمانيا .

ثم في الفصل قبل الأخير تناول المؤلف حركة الفولكلور عبر البحار . . والفولكلوريين الذين

أحد العلماء الاتنولوجيين العظام ، ينضم أيضاً إلى جماعة الفولكلوريين العظام الذين دفعوا بحركة الفولكلور إلى مجالها المتميز في الدراسات الإنسانية . . وقد تناول المؤلف أعمال هذه الجماعة العظيمة The Great Team of Folklorists الذين تعاونوا معاً في الكشف عن الموروث الثقافي الإنساني وبلورة الدراسات الفولكلورية مثل هارتلاند (١٨٤٨ - ١٩٢٧) Edwin Sidney Hartland وادوارد كلودد (١٨٤٠ - ١٩٣٠) William Alexander Clouston ووليام كلوستون (١٨٤٣ - ١٨٩٦) السدي نسر مجموعة من الأسعار العربية سنة ١٨٨١ (١٩) وقصة سندباد .

كما تناول المؤلف حياة وأعمال غير هؤلاء من الفولكلوريين الرواد ، وأعضاء جمعية الفولكلور الانجليزية .

وقد خصص المؤلف الفصل الثامن من كتابه لعرض جهود هذه الجمعية وما تناولته من دراسات ، ودوريتها التي مازالت تصدر للآن ربع سنوية تضمن دراسات فولكلورية .

بعد ذلك تناول المؤلف عمليات الجمع الميداني التي قام بها الباحثون الفولكلوريون في الأرباب . والتي يرجع إلى جوم Gomme فضل الريادة في وضع الأساس المنهجي لها حينما أعد كتاب « دليل الفولكلور » Hand Book of Folklore لجمعية الفولكلور عام ١٨٩٠ ونعاون معه مجموعة من الباحثين الفولكلوريين . وقد أوضح جوم في هذا الكتاب الموضوعات التي تتكون منها المآثورات الحية التي تسمى Folklore والتي تقسم إلى :

جميعوا مادتهم من الدول التي استعمرتها
الامبراطورية البريطانية .. في الهند وافريقيا
.. وكذلك لحركة الفولكلور في أوروبا والمواد
التي جمعت منها ..

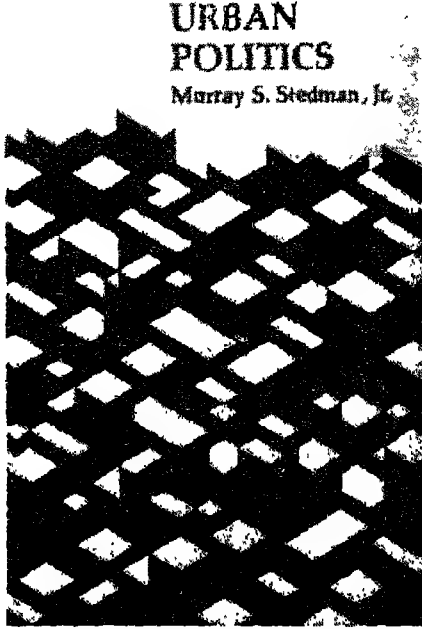
ثم في الفصل الحادى عشر والاخير ، تناول
الفولكلوريين الكلتيين The Celtic
Folklorists واستهل حديثه في هذا الفصل
بعبارة للفردنت قالها عن كامبل J. F. Campbell
الذى تعلم منه الفردنت حب التراث الكلتى .

وتناول المؤلف الحركة الفولكلورية في
اسكتلندا وايرلنده ثم اختتم كتابه بخاتمة
مختصرة عن اثر الحرب العالمية الاولى في توقف
النمو الطبيعى لهذه الجهود العلمية .. ففى
١٩١٤ توفى اندرو لانج والفردنت وجوم ،
وهاجر جوزيف يعقوب الى امريكا احد مؤسسى
جمعية الفولكلور ، وساد الاهتمام بالدراسات
الانثروبولوجية أكثر من الاهتمام بالفولكلور ..

ولكن منذ أوائل الخمسينات في هذا القرن
بدأ الاهتمام الجاد بالمأثورات الشعبية يظهر من
جديد وبشكل أكاديمى .. وصدرت عدة
دراسات عن أغاني الاطفال وعن الحكايات
الشعبية .

وفي الواقع ان هذا الكتاب رغم غزاره مادنه
وتنوعها قد قدمه المؤلف في أسلوب ونهج
واضحين .. كما ان المنهج الذى اتبعه في وضع
كتابه يعتبر نموذجا يحتذى به في تاريخ حركة
الفولكلور العربية .. في مختلف اقطار الوطن
العربى . فرغم ان حركة الفولكلور العربية لم
تنخذ شكلها الرسمى تحت هذا المصطلح الا في
بداية النصف الثانى من هذا القرن ، فان
الجهود العلمية العديدة والمتنوعة لجمع مواد
التراث الشفاهى العربى تمتد في عمر الزمان
الى عشر قرون خلت حينما سجل الرحالة
والمؤرخون العرب مشاهداتهم عن الحياة
اليومية للمجتمع العربى ، وأنماط السلوك
والاعراف الشائعة والعادات والتقاليد بجانب
رصدهم لمختلف الظواهر الفنية في مختلف
العصور .

والاستاذ دورسون بطبيعة تكوينه العلمى
كاستاذ للتاريخ .. واستاذ للفولكلور قد أمكنه
بطواعية شديدة وضع تاريخ دقيق وواضح
لحركة الفولكلور البريطانية ، كما حدد في
نفس الوقت التطور العلمى لعلم الفولكلور
كمادة ، وموضوع بحث .



السياسة الحضرية

عرض وتحليل: الدكتور عبد الباسط محمد حسن

اختلاف تخصصاتهم - الى دراسة ظواهر الحياة السائدة في المجتمعات الحضرية ، والكشف عن المشكلات التي تواجهها ، والوقوف على الصلات التي تقوم بينها وبين غيرها من المجتمعات المحلية في اطار المجتمع القومي العام .

والكتاب الذي نعرض له في هذا المجال واحد من الكتب التي تتخذ من المجتمع الحضري ميداناً للدراسة ، وتجعل من النظام السياسي موضوعاً للبحث ، فيناقش المؤلف الأسس النظرية لفلسفة الحكم في الولايات المتحدة ، والمبادئ العامة التي ترتكز عليها الديمقراطية الأمريكية ، ويركز على مبدئين أساسيين هما : مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلي ، ومبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى أي منها من غير قهر أو اكراه ، ثم يعالج قضايا الديمقراطية في مجال التطبيق العملي ،

تميز العصر الحديث بزيادة عدد المدن في العالم ، ونموها مساحة وسكاناً ، ووصول كثير منها الى مرتبة المدينة المتروبوليتانية (المائة ألفية) ، ثم المدينة العملاقة التي تضم عدة ملايين من البشر ، وقد ترتب على ذلك نمو التجمعات الحضرية الكبيرة بصورة لم تكن مألوفاً من قبل ، وزيادة معدل التحضر ، وانتشار الحضرية كأسلوب للحياة ، ونمط للمعيشة يؤثر في سلوك الناس وتفكيرهم ، ويطبعمهم بطابع خاص متميز .

ولما كانت عملية التحضر في المجتمعات المختلفة تصاحبها تغيرات في البناء الاجتماعي ، وتنشأ عنها أنماط مستحدثة ، وقيم اجتماعية جديدة ، وترتبط بها مشكلات اقتصادية وسياسية واجتماعية وحضارية متعددة ، فقد اتجهت جهود الباحثين والمفكرين - على

فيه الاقتصاد القومي يعتمد على الانتاج الزراعى ، كانت الولايات المتحدة تنقسم الى مناطق لزراعة القطن والذرة والقمح ، وكانت أعداد كبيرة من السكان نشغل في الزراعة أو فى الاعمال الاستخراجية البسيطة ، غير أنه بعد حدوث الثورة الحضرية ، ونمو المراكز الصناعية ، ظهرت وحدات ايكولوجية جديدة ، ووجدت طبقات جديدة لم تكن معروفة من قبل ، واصبح العمال ينتظمون فى نقابات تدافع عن مصالحهم المشتركة بغض النظر عن المناطق الجغرافية التى يعملون فيها ، كما تغير الاساس الطبقي للتنظيمات السياسية ، فأصبحت الاحزاب تعتمد على تأييد فئات جديدة غير الفئات التى كانت تساندها من قبل ، وليس ادل على ذلك من أن الحزب الديموقراطى أصبح يعتمد اعتمادا أساسيا على سكان الحضر بعد أن تزايدت هجرة الزنوج وأهل بورتوريكو الى المدن الكبيرة ، كما اصبح لقادة الحزب الديموقراطى فى المدن الصناعية مثل نيويورك وبوسطن وشيكاغو دور كبير فى تصريف أمور الحزب على المستوى القومى .

وبالنسبة للاتجاه النظرى الذى يتبناه « ستيدمان » فى دراسته يقول :

لقد كان الاتجاه السائد بين المؤرخين فى الولايات المتحدة هو تصوير التاريخ الأمريكى كما لو كان يسير نحو خلق وحدة داخلية بين الجماعات غير المتجانسة .

وكان الشعاع السائد هو : من الكثير الى الواحد (١) .

وقد أخذ علماء السياسة هذا المفهوم عن المؤرخين الأمريكىين فى تفسيرهم لاتجاهات التطور السياسى ، فكان ينظر الى عمليات المنافسة والصراع السياسى على أنها وسائل للوصول الى قدر من الاتفاق ، وليست غايات

والممارسة الفعلية ، ويظهر بوضوح أن « جماعات المصالح Interest Groups » تدخل فى دائرة الصراع ، وتؤثر على بناء القوة فى المجتمعات الحضرية ، ويصبح لها الدور الرئيسى فى صنع القرارات ، وصياغة المستقبل ، بحيث تنحرف الديموقراطية عن مسارها الطبيعى ، وتتحول من حكم الاغلبية الى « احتكار القلّة Oliopoly » ومن نظام يقوم على التوفيق بين المصالح المتعارضة Compromise الى نظام يجعل من « الصراع Conflict » ركيزته الاساسية فى السياسة والحكم .

ومؤلف هذا الكتاب هو « مرى ستيدمان » استاذ العلوم السياسية بجامعة « تمبل » بفيلا دلفيا بولاية « بنسلفانيا » . وله مؤلفات كثيرة فى مجال تخصصه ، من أهمها :

— الدين والسياسة فى أمريكا .

— تصدير الاسلحة .

— عدم الرضا أمام صناديق الاقتراع (بالاشتراك) .

— ديناميات الحكم الحديث (بالاشتراك) .

— تحديث الحكومة الأمريكية : متطلبات التغير الاجتماعى .

وقد اختار « ستيدمان » المجتمع الحضرى بالذات ليكون ميدانا لدراسته لاحساسه بتعاظم الدور الذى تقوم به المجتمعات الحضرية فى المجالات السياسية والاقتصادية والحضارية ، ولادراكه مدى التأثير الذى تحدثه تلك المجتمعات على غيرها من البيئات المحلية فى اطار المجتمع الكبير . وفى رأيه ان النظام السياسى فى الولايات المتحدة كان من أكثر النظم تأثرا بعملية التحضر . ففى الوقت الذى كان

تعريف للسياسة الجديدة ، تم محاولة تحديد خصائصها المميزة .

فبالنسبة للنقطة الأولى ، يمكن تعريف السياسة الجديدة بأنها « سياسة لا تعتمد على التكيف Accomodation الذى يتم عن طريق المساومة أو الوساطة أو السمسرة ، وإنما تعتمد على الصراع بين قوى متعددة بحيث يستطيع صاحب القوة الأكبر ان يفرض رأيه ، ويملى قراراته على الآخرين دون أن يتمسك كثيرا بالمبادئ والقيم الاخلاقية (٢) » .

أما من ناحية الخصائص ، فيمكن تحديد معالم السياسة الجديدة فيما يلى :

١ - اتساع نطاق الصراع السياسى ، وامتداده الى كثير من مجالات الحياة .

٢ - تزايد حدة الصراع السياسى ونفله فى كثير من المسائل التى لم تكن تلقى اهتماما سياسيا كبيرا .

٣ - زيادة عدد الافراد والجماعات الذين دخلوا دائرة الصراع السياسى .

٤ - اتساع دائرة المشاركة فى المسائل السياسية نتيجة لتزايد عدد المشتركين فى النشاط السياسى .

٥ - اخضاع القوانين والاجراءات الحكومية للمناقشة للتأكد من مدى التزامها بمبدأ الشرعية ، بعد أن كانت القوانين تطاغ وتنفذ فى الماضى من غير مناقشة أو اعتراض (٤) .

ويقع الكتاب فى ثلاثمائة وتسع وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، منها ثلاثمائة

فى ذاتها . وهذه النظرة كان يطلق عليها فى مفهوم الفلسفة السياسية « اصطلاح التعدد Pluralism » ، وكان يطلق عليها - فى مجال المنافسة الحزبية - اصطلاح « سياسة المساومة أو السمسرة Brokerage Politics » . غير أنه فى السنوات الاخيرة أثرت تساؤلات كثيرة - من جانب المؤرخين وعلماء السياسة - حول صحة هذا الاتجاه ، وظهرت نظرية جديدة تركز على « الصراع » كعملية أساسية فى توجيه السياسة الأمريكية (٢) .

والاتجاه الذى يتبناه المؤلف هو : تقدير أهمية الصراع كعنصر أساسى فى فهم السياسة الأمريكية لاعتقاده فى فشل مفهوم « التوفيق Compromise » أو « الإجماع Consensus » فى تفسير العلاقات والاضاع السياسية السائدة .

ويذهب « ستيدمان » الى أن نموذج الصراع الذى يستخدمه فى تفسير السياسة الحضرية له جذوره فى الفكر القديم ، كما أنه يعتمد - الى حد ما - على آراء كارل ماركس التى تؤكد دور الصراع الطبقي بين القوى الاقتصادية والاجتماعية القائمة فى المجتمع ، غير أنه فى أساسه مستمد من واقع الخبرة بأساليب السياسة الحضرية فى المجتمع الأمريكى خلال العشرين عاما الماضية .

ويقول « ستيدمان » :

قد يتساءل البعض : لكن ما هو الجديد فى هذا التفسير لمعالم السياسة الحضرية ؟ وردا على هذا التساؤل فأننى أقول : ان الجديد هنا ينلخص فى نقطتين هما : محاولة الوصول الى

Ibid., p. 12.

(٢)

Ibid, p. 12.

(٣)

(٤) الكتاب : ص ١٢ .

واحدى عشرة صفحة للمتن ، وثمانى عشره صفحة للتعليقات والتذييلات . وينقسم الكتاب الى مدخل وخمسة أقسام وخاتمة ، تضم اثنى عشر فصلا يعالج فيها المؤلف موضوعات لها أهميتها من الناحيتين النظرية والتطبيقية .

ففى مدخل الكتاب - الذى يشتمل على فصل واحد - يتحدث المؤلف عن الوضع الحضري فى العالم بصفة عامة ، وفى الولايات المتحدة بصفة خاصة . فيعرض لنشأة المدن فى العالم وتطورها ، ثم يعرض لنشأة المدن الأمريكية والمراحل التى مرت بها ، والمشكلات التى اعترضت سبيلها منذ منتصف القرن التاسع عشر ، والعوامل التى أدت الى فشلها فى مواجهة تلك المشكلات ، وما ترتب على ذلك من انتشار التشاؤمية لدى جماهير الشعب الأمريكى التى أصبحت أقل ثقة فى مستقبل مدنها مما كانت عليه منذ ستين عاما مضت . ومن أهم النقاط التى ناقشها المؤلف فى هذا الفصل التأثيرات التى أحدثها النمو الحضري السريع فى الولايات المتحدة من حيث زيادة معدلات الهجرة الى المدن المتروبوليتانية ، وظهور جماعات المصالح ، وتغير الاساس الطبقي للتنظيمات السياسية، وظهور متغيرات جديدة لها وزنها فى العمل السياسى ، مثل التركيب العمرانى والنوعى والعنصرى للسكان، وارتفاع مستوى التعليم ، وتنوع المهن ، وارتفاع متوسط الدخل الفردى ، وحدوث التفاوت الكبير بين الطبقات الاجتماعية ، وعدم التجانس الشديد فى بناء المجتمع .

وفى ختام هذا الفصل يناقش المؤلف

الاتجاهات الجديدة فى السياسة الحضرية ، والتي تركز فى أساسها على الصراع بدلا من المساومة والتوفيق ، كما يعمد الى تحديد المصطلحات التى يستخدمها بكثرة فى دراسته وهي : العلوم السياسيه ، والصراع السياسى ، والشرعية ، والمنطقة الحضرية ، والمدينة ، والمنطقة المتروبوليتانية ، والسياسه الحضرية .

وفى القسم الاول من الكتاب - الذى يشتمل على فصلين - يعرض المؤلف للوضع الحضري العام فى الولايات المتحدة ، ويبدأ بتحديد الخصائص المميزة للحياة الحضرية ، وينتقل الى تحديد مصطلح « الايكولوجيا » ، ويعتمد فى تحديده للمفهوم على قاموس التراث الأمريكى الذى يعرف الايكولوجيا بأنها « العلم الذى يدرس العلاقة بين الكائنات العضوية وبين الظروف البيئية المختلفة » (٥) ، ثم يعرض لنظريات ثلاث تفسر النمو العمرانى فى المدينة وهى « نظرية النموذج الدائرى المتمركز Concentric Zone Theory » التى ترى ان المدينة تنمو بفعل حركة الطرد المركزية من الداخل الى الخارج فى شكل حلقات دائرية حول المركز بحيث تختص كل دائرة بنوع معين من انواع النشاط ، « ونظرية القطاع Sector Theory » التى تقول بأن المدينة لا تنمو فى شكل دائرى وانما تنمو فى شكل قطاعات تبدأ من الداخل وتتجه نحو الخارج ، « ونظرية النوايا المتعددة Multiple Nuclear Theory » التى تقول بوجود عدد من المراكز فى كل مدينة بخلاف النظريتين السابقتين (٦) . وبعد ذلك يعرض المؤلف لنمو المناطق المتروبوليتانية فى المجتمع الأمريكى ، ثم يوضح العلاقة بين الجانب الايكولوجى والجانب السياسى .

(٥) الكتاب : ص ٢٢ .

(٦) الكتاب : ص ٢٢ - ٢٣٤ .

مستمدة من علم النفس والاجتماع . فلما قامت الحرب العالمية الثانية ، اهتمت هذه العلوم بالجوانب التطبيقية ، وبدأت تستخدم أساليبها واجراءاتها المنهجية في الصناعة والحرب وفي غيرها من مجالات الحياة . وكان للناتج العملية التي توصلت اليها اثر كبير في تقدم علم السياسة الذي كان يمر في تلك الآونة بمرحلة حاسمة من مراحل تطوره ، فكان عليه ان يكيف نفسه لنمط التفكير الذي تأخذ به العلوم السلوكية . وخلال حقبتين من الزمان بدا واضحا ان علماء السياسة تأثروا بالعلوم السلوكية تأثرا كبيرا . وكانت « نظرية العمل السياسي The Theory of Political Action » التي عرفت باسم « نظرية الجماعة في المجال السياسي Group Theory of Politics » من النظريات التي تركت بصمات واضحة في مجال العلوم السياسية . وتذهب هذه النظرية الى أن العلاقات السياسية الرئيسية هي التي تنشأ داخل الجماعة ، او تقوم بين الجماعات بعضها وبعض . ويعنى هذا أن ما يحصل عليه الفرد انما يتم عن طريق تفاعله مع غيره من الناس . ويتطلب هذا وجود نوع من التنظيم . ولذا فان دراسة سلوك الافراد يمكن ان تتم من خلال الأنشطة التي تمارسها الجماعات . ويهتم عالم السياسة بالدرجة الاولى بالجماعات التي لها تأثير حقيقى أو فعال في العملية السياسية ، وهى التي تعرف باسم « جماعات المصالح » ، وهى جماعات يجمع بين أفرادها مشاعر واتجاهات مشتركة ، وتسعى الى فرض سيطرتها، واملأ رغباتها واتجاهاتها على غيرها من الجماعات الموجودة بالمجتمع (٩) .

ونظرا لأهمية الجانب السياسي في هذه الدراسة ، فان المؤلف يخصص فصلا كاملا يعالج فيه النظم والعمليات السياسية في البيئات الحضرية ، فيعرض بالتفصيل للاطار القانونى للحكم المحلى ، ولأشكال الحكم فى المدينة ، والتي تتمثل فى أشكال ثلاثة هى : نظام حكومة المحافظ والمجلس ، ونظام المجلس والمدير ، ونظام اللجنة ، ويناقش مزايا وعيوب كل نوع ، ثم يعرض للعلاقات المتبادلة بين حكومات المدن ، ومدى تدخل الدولة فى شئون الحكم المحلى .

والقسم الثانى من الكتاب عبارة عن فصل واحد ، يعتبر من أهم فصول الكتاب . يعرض فيه المؤلف لتطور النظرية السياسية فى الولايات المتحدة ، ويحاول ان يستفيد من فكرة اقامة « النماذج Models » فى تأصيل نموذج نمطى للسياسة الأمريكية .

أما عن تطور النظرية السياسية فى الولايات المتحدة فيقول :

« لقد كان هناك شبه اتفاق بين علماء السياسة حول طبيعة الديمقراطية الأمريكية ، والخصائص المميزة لها ، ولما نشر مكيفر - عالم الاجتماع الأمريكى (٧) - كتاب « تكوين الدولة » فى سنة ١٩٤٧ ، وعرض فيه للصلة بين الدولة والمجتمع المحلى ، والخصائص التى تتميز بها النظام الديموقراطى عن غيره من النظم السياسية ، زاد اتفاق المجتمع الأكاديمى حول مفهوم وخصائص الديمقراطية الأمريكية (٨) .

ومما هو جدير بالذكر أن الكتابات السياسية فى الولايات المتحدة - قبل الأربعينيات - كانت تعتمد على تفسيرات مستمدة من التاريخ والقانون والفلسفة ، ولم تكن هناك نظريات

(٧) وهو من أصل اسكتلندى .

(٨) الكتاب : ص ٧٩ .

(٩) الكتاب : ص ٨٤ .

منها من غير قهر او اكراه . ومن شأن المبدأ الاخير أن يضيق نطاق الصراع السياسي ، ويحصره في دائرة محدودة .

وقد ناقش « ستيدمان » هذا النموذج ، وأبدى بعض التحفظات على المبادئ والأسس النظرية التي يستند إليها .

أما القسم الثالث من الكتاب ، فيشتمل على فصول ثلاثة ، يعالج فيها المؤلف الاسلوب التقليدي في الحكم ، وقد اتخذ له مصطلحا خاصا هو « أسلوب الوساطة او السمسرة Brokerage Style » . وقد عرض « ستيدمان » في الفصل الخامس للأسس التي يقوم عليها هذا الاسلوب ولانماطه الرئيسية ، ويحددها في نمطين هما : النمط الآلي Machine Type ، والنمط الاصلاحي Reform Type . وقد ناقش مزايا وعيوب كل نمط ، ثم حاول تطبيق النموذج الديمقراطي على اساليب الحكم التي كانت سائدة في البيئات الحضرية في المراحل التاريخية السابقة . وكان هدفه من وراء ذلك ان يختبر مدى صحة النموذج وصلاحيته من الناحية العملية .

وفي الفصل السادس من الكتاب عرض للاتهامات التي وجهت الى أسلوب الوساطة ، وأوضح انه فشل في تحقيق العدالة بين المواطنين ، وفي ترتيب أولويات العمل ، وفي الاعتماد على التخطيط العلمي في تحديد الاحتياجات الفعلية للمواطنين ، وتعبئة امكانياتهم ومواردهم وفقا لاستراتيجية واضحة المعالم ، محددة القسمات ، كما انه فشل في ايجاد فلسفة تعبر عن المصالح المشتركة للمواطنين (١١) .

وفي سنة ١٩٥١ نشر « ترومان » كتابا بعنوان « العملية الحكومية » ، وقد اعتبر انجيلا لأصحاب نظرية الجماعة ، ومرجعا أساسيا للمستقلين بالعلوم السياسية . ويمكن القول بأن نظرية الجماعة ساعدت على ظهور وتدعيم الاتجاهات الامبريقية في علم السياسة ، كما ساعدت على فهم وتفسير الصراع السياسي ، ومن ثم أصبحت نظرية الجماعة جزءا من النظرية الرسمية للسياسة الأمريكية .

أما عن النموذج النمطي للسياسة الأمريكية ، فيقول « ستيدمان » : « من المفيد في العلوم الاجتماعية والطبيعية بناء نماذج تفيد في تحليل وفهم العمليات التي تدور داخل الانساق الكبيرة . وقد حاول افلاطون في جمهوريته ان يضع نموذجا لدولة مثالية ، كما قدّم « هوبز » نموذجا آخر في كتابه « Leviathan » ، وبالمثل يمكن بناء نموذج لدولة شيوعية مستمد من كتابات « ماركس وانجلز ولينين » ، ونماذج أخرى لدول دكتاتورية وأوليغاركية وديموقراطية (١٠) .

والنموذج الأمريكي يمكن تأصيله بالرجوع الى القرارات الحاسمة التي اتخذها القادة الكبار الذين ساهموا في ارساء دعائم الديمقراطية الأمريكية ، والى الكتابات التي تناولت هذه القرارات بالدراسة والتحليل ، بالإضافة الى ما كتبه « الصفوة المفكرة » في هذا المجال .

ويشير « ستيدمان » الى أن النموذج الأمريكي في الحكم الديمقراطي يعتمد على مبدئين أساسيين أشار اليهما مكينفر هما : مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلي ، ومبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى أي

(١٠) الكتاب : ص ٨٥ .

(١١) الكتاب : ص ١٤٧ .

أما عوامل الجذب فتتمثل في الرغبة في امتلاك مسكن تحيط به أرض فضاء ، وفي الحصول على خدمات تعليمية وصحية كافية ، بالإضافة الى أن هناك شيئا آخر يغري الناس بترك المدينة ، وهو - على حد تعبير ممفورد - أن تتوافر لهم الحرية في أن يفعلوا ما يشاؤون وهذه هي النعمة الحقيقية لصوت الضاحية ، ويمكن تلخيصها في أن يعتزل المرء الناس كراهب ، ويعيش كأمر .

وقد ركز « ستيدمان » بعد ذلك على دراسة جوانب السلوك السياسي في الضواحي ، وحاول الإجابة على السؤالين التاليين :

١ - هل الإقامة في الضواحي تساعد على الاحتفاظ بعنصر المنافسة الذي يقوم عليه النموذج التعددي في السياسة ؟

٢ - هل تختلف نظم الحكم وأساليب السياسة في الضواحي عن النظم والأساليب المستخدمة في المدن المركزية ؟

وانتهى من دراسته الى وجود اختلافات أساسية في أساليب العمل السياسي بين الضواحي والمدن المركزية . ففي الضواحي تسود سياسة التوفيق والاجماع ، كما أن عنصر المنافسة يكاد ينعدم نتيجة لتجانس السكان من النواحي الاقتصادية والاجتماعية ، بعكس الحال في المدن المركزية ، بالإضافة الى أن سكان الضواحي يتعاونون فيما بينهم ليواجهوا الضغوط التي تقابلهم ، ويحصلوا على أكبر قدر ممكن من الخدمات من جانب الهيئات الحكومية والاهلية ، وليحققوا لانفسهم نوعا من الاستقلال الذاتي (١٢) .

وفي القسم الرابع من الكتاب- الذي يشتمل على فصل واحد - يناقش المؤلف بناء القوة في المجتمع المحلي باعتباره موضوعا أساسيا في السياسة الحضرية ، ويطرح تساؤلات كثيرة

وفي الفصل السابع من الكتاب ناقش المؤلف أساليب الحكم والسياسة في « الضواحي Suburbs » ، على أساس أنها أصبحت مركزا لتجمعات سكانية كبيرة ، فوفقا لتعداد السكان لسنة ١٩٧٠ ظهر أن أكثر من نصف سكان المناطق المتروبوليتانية بالولايات المتحدة يعيشون في ضواحي ، بالإضافة الى أن سكان تلك المناطق لهم خصائص اقتصادية واجتماعية وثقافية تميزهم عن سكان المدن المركزية .

وقد أشار « ستيدمان » الى أن الفكرة الشائعة عن الضواحي أنها مجرد أماكن لسكنى المديرين الاغنياء الذين يعملون في المدينة المركزية ، وأنها لا تزيد عن كونها أماكن للمبيت ، أو حسب التعبير الشائع « مجتمعات غرف النوم Bedroom Communities » غير أنه يعارض هذه الفكرة ، معتمدا على النتائج التي أسفرت عنها البحوث السوسيولوجية الحديثة والتي تقول بتعدد أنماط الضواحي واختلافها فيما بينها من حيث التركيب الاقتصادي والاجتماعي ، ومن حيث الأساليب المعيشية السائدة .

وقد عرض للعوامل التي تدفع الناس الى الانتقال الى الضواحي ، وأشار الى وجود عوامل طاردة وأخرى جاذبة . فعوامل الطرد تتمثل في ارتفاع معدلات الجريمة في المدن المركزية ، وفي عجز المؤسسات والهيئات القائمة في المدينة عن تقديم الخدمات المتعلقة بالسكان والتعليم والصحة ، بالإضافة الى أن المدينة المركزية - كما يقول ممفورد - تفتقر الى الأرض الفضاء التي تلزم لإقامة الحدائق العامة وساحات الألعاب . فالإنسان لا يرى فيها سوى حركة العمل ولا يشعر إلا بزعامة الحياة ، ولا يسمع إلا ضجيج الآلة ، أما ضوء الشمس ونور القمر ، فلا يراه الإنسان إلا من خلال ناطحات السحاب والمباني العالية .

طبقات . وليس ثمة شك في أن نوع النشاط الاقتصادي في المجتمع له صلة بتوزيع النفوذ في المجتمع . ففي المدن الصناعية مثلاً يزداد عنصر المنافسة بين أصحاب المصانع بحيث يحاول كل منهم أن يكون له التأثير الكامل في مختلف السياسات والقرارات التي تتخذ على المستوى المحلي . أما المدن التي تعتمد على التجارة أو الخدمات فإن توزيع القوة يأخذ نمطاً مغايراً . ويمكن القول أيضاً بأن اختلاف المناهج والأساليب التي استخدمها الباحثون في دراساتهم كان لها أثر كبير في اختلاف النتائج التي توصلوا إليها (١٤) .

أما القسم الخامس من الكتاب فيشتمل على فصول ثلاثة يناقش فيها المؤلف قضايا : التعليم ، والاسكان ، والقانون والنظام ، وكان يهدف من وراء دراسته إلى اختبار أحد المبادئ الأساسية التي يتألف منها « النموذج التعددي للديموقراطية » ، وهو مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلي . وقد توصل إلى أن هذا المبدأ لا وجود له من الناحية العملية ، ذلك لأن عنصر « الصراع » هو الذي يؤثر في رسم السياسات المتعلقة بالتعليم والاسكان والأمن ، وأن هناك اتجاهًا متزايدًا نحو « تسييس Politicization » هذه القطاعات (١٥) .

أما خاتمة الكتاب ، فقد اشتملت على فصل واحد ، جعله بعنوان : نحو أسلوب سياسي جديد ، حاول فيه أن يقدم نموذجًا سياسيًا يتمشى مع التغيرات الجديدة التي يشهدها المجتمع الأمريكي المعاصر ، ويهدف إلى تحقيق الديمقراطية الكاملة ، ويكون قادرًا في الوقت نفسه على تحديد الاحتياجات ، وترتيب الأولويات ، واقتراح السياسات وتنفيذها ، مع ضمان المشاركة الكاملة من جانب المواطنين في اتخاذ القرارات ورسم السياسات .

تتعلق بطبيعة القوة السياسية وأهدافها وتوزيعها في المجتمعات المحلية . وقد عرض لنظريات « الصفوة Elite » التي تقول بأن كل مجتمع يشتمل على فئتين أساسيتين : فئة حاكمة قليلة العدد ، وأخرى محكومة كبيرة العدد . وبمقتضى ذلك تتولى الفئة الأولى مقاليد القوة في المجتمع بحيث تصبح صاحبة السلطة النهائية في إصدار القرارات الأساسية ، بينما تنحصر مهمة الفئة المحكومة في طاعة الفئة الحاكمة وتنفيذ قراراتها . وقد عرض للنظرية الماركسية التي تقول بأن علاقات الإنتاج تمثل الأساس الضروري لفهم كل الجوانب السياسية في المجتمع ، كما عرض لنظرية « ماكس فيبر » التي تفسر بناء القوة في التنظيم البيروقراطي ، تم عرض لكثير من الدراسات التي اهتمت بدراسة بناء القوة في المجتمعات المحلية . وأشار إلى أن دراسات « دومهوف Domhoff » و « ليند Lynd » و « هنتر Hunter » تؤكد وجود طبقة تمتلك مقاليد القوة في المجتمع ، وتتمتع بالهيبة Prestige ، والمكانة Status ، وتستأثر بالسيادة والسيطرة Dominance ولها القدرة على التأثير Influence (١٣) . وفي الجانب المقابل توجد دراسات أخرى تقول بتعدد مراكز القوى والتأثير ، ونرفض القول بوجود فئة واحدة تسيطر على الحكم في المجتمع .

ويختتم « ستيدمان » مناقشته لهذا الموضوع بقوله :

« إن بناء القوة ليس واحدًا في كل المجتمعات . ففي الوقت الذي تسيطر فيه طبقة واحدة على مقاليد الأمور في مجتمع ما ، نجد مجتمعًا آخر تتوزع فيه القوة بين عدة

(١٣) الكتاب : ص ١٨٧ .

(١٤) الكتاب : ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(١٥) الكتاب : ص ٢٩٠ .

نرايدا مستمرا في عدد السكان منذ سنة ١٩١٠ باستثناء الفترة ما بين ١٩٣٠ ، ١٩٤٠ حيث كانت نسبة الزيادة متساوية بين سكان المناطق الريفية والمناطق الحضرية (١٧) .

وليس من شك في أن ارتفاع معدلات التحضر في المجتمع تؤثر الى حد كبير في خصائصه البنائية والوظيفية . وقد اهم « ستيدمان » بتحديد الخصائص المميزة للحياة الحضرية ، فأشار الى أن نمط العلاقات الاجتماعية في البيئة الحضرية يأخذ طابعا جديدا ، اذ تحل العلاقات الثانوية محل العلاقات الاولى . ويحدث ذلك نتيجة لكثره التحركات الجغرافية والمهنية في المدينة ، بحيث لا يجد الفرد وقتا كافيا ليدخل في علاقات دائمة مع كل الناس الذين يتصل بهم او يتعامل معهم ، سواء في محيط العمل او في نطاق الجيرة . كما أنسار الى ضعف الضوابط الاجتماعية غير الرسمية ، وتحرر الأفراد من سيطرة القيم الجماعية التي كانت تفرضها المعايير الثقافية في المجتمعات التقليدية ، وإلى ضعف الروابط القرابية . وهذا من شأنه ان يؤدي الى احساس الانسان في المدينة بالفردية ، والاغتراب ، وعدم الانتماء الى المجتمع (١٨) . ومن الخصائص الاخرى للحياة الحضرية - وبخاصة في المدن الامريكية - انفصال أماكن العمل عن مناطق الاقامة . وقد ساعد على ذلك سهولة المواصلات وسرعتها مما أدى الى نزوح السكان من وسط المدينة الى الضواحي بعيدا عن حركة العمل ، وزحمة الحياة . وتتميز حياة المدينة ايضا بكتسرة الحراك

وقد ناقش اساليب المشاركة في الجماعات والتنظيمات القائمة في المجتمع ، ولم يتمكن من وضع نموذج سياسى محدد . فاكتمى بتحديد بعض الخصائص والانجاهات الموقعة ، وأشار الى أن اساليب العمل السياسي في المستقبل سوف تتركز حول الفضايا السياسية ، ويعوم على مبدأ الصراع ، وتعتمد على القواعد الشعبية في التنظيمات الحزبية ، وسوف ينسج نطاق الحركات المطالبة بحق تقرير المصير والحكم الذاتي داخل المدن (١٦) .

ونعرض فيما يلي لبعض القضايا والافكار الرئيسية التي عالجه المؤلف ، والى نحتاج الى مزيد من المناقشة .

١ - الوضع الحضري العام في الولايات المتحدة وعلاقته بالوضع السياسي :

اذا رجعنا الى الاحصائيات المختلفة - التي تنشر عن التوزيعات السكانية في الولايات المتحدة ، وعن نسب سكان المناطق الحضرية الى جملة السكان ، فائنا نجد ان عدد السكان في الولايات المتحدة قد تضاعف في الفترة ما بين ١٨٧٠ ، ١٩٠٠ تم تضاعف مرة أخرى فيما بين عامي ١٩٠٠ ، ١٩٥٠ . وقد اظهر احصاء ١٩٧٠ أن العدد الكلي لسكان الولايات المتحدة بلغ ٢٠٤٧٦٥٧٠٠ نسمة ، ومن المتوقع أن يصل العدد الى ٣٠٠ مليون نسمة في نهاية هذا القرن .

وتشير الاحصاءات المختلفة الى أن نسبة السكان في المناطق الريفية قد انخفضت من ٥٤ر٣٪ في سنة ١٩١٠ الى ٢٥٪ في سنة ١٩٧٠ . وبالنسبة لسكان الحضر ، فان هناك

(١٦) الكتاب : ص ٣١٠ .

(١٧) الكتاب : ص ٩ .

(١٨) الكتاب : ص ٢٠ .

الجغرافي مما تتسبب عنه مشكلات شخصية واجتماعية .

ويتساءل « ستيدمان » : ما هي الهمية السياسية للخصائص الاجتماعية التي تميز أسلوب الحياة في البيئات الحضرية عن أسلوب الحياة في البيئات الريفية ؟

ويجب على هذا التساؤل بقوله : ان من الصعب أن نعطي إجابة دقيقة على هذا السؤال ، فما تزال الحاجة ماسة الى مزيد من الدراسة والبحث ، غير ان من الممكن القول بأن مثل هذه الاختلافات من شأنها ان تؤدي الى تغير نظرة الناس الى الحياة السياسية ، والى تغير اتجاهاتهم وأفكارهم وطريقة تصرفهم في المواقف المختلفة (١٩) .

وبالنسبة للعلاقات بين الجانب الايكولوجي والجانب السياسي يقول ستيدمان :

ان دراسة ايكولوجيا المدينة تفيد من الناحية السياسية ، حيث أن كثيرا من جوانب الصراع السياسي في البيئات الحضرية تتسبب عن الارض وتوزيعها وطرق استخدامها ، ولا يقتصر الامر على الافراد ، وانما يتسع ليشمل الجماعات العنصرية والعرقية والاقتصادية ، وفي كل مرة يحدث فيها صراع بين هذه الجماعات تجد الهيئات الحكومية نفسها في دائرة الصراع (٢٠) .

وبالنسبة لنمو المناطق المتروبوليتانية وتأثيرها على الجوانب السياسية يقول ستيدمان :

ان أى دراسة للنمو الحضري في الولايات المتحدة ، وانعكاساته السياسية ينبغي أن تأخذ في الاعتبار نمو المناطق المتروبوليتانية وتوزيعها (٢١) . ولعل من أهم النتائج التي تربت على نشأة هذا النوع من المناطق الحضرية تركيز الزواج والطبقات الفقيرة في المناطق المركزية ، ونزوح اصحاب الدخول المرتفعة - وغالبيتهم من البيض - الى الضواحي والمدن التابعة . ويشير الجدول التالي الى هذا التوزيع :

المدن المركزية		
الزواج	البيض	
٨٠ مليون	٧٥٣ مليون	١٩٦٠
١٠٨ مليون	٣٣٨ مليون	١٩٧٠

الضواحي		
الزواج	البيض	
١٨ مليون	٤١٦ مليون	
٢٦ مليون	٥٤١ مليون	

ويقول « ستيدمان » : لقد ترتب على حركة الهجرة الداخلية الى المدن أن أصبح غالبية السكان في المدن الكبيرة من الزواج ، بينما بقي العنصر الابيض متفوقا في الضواحي . وتشير الاحصاءات الى أنه من بين المدن الكبرى الخمسين في الولايات المتحدة يمثل الزواج أكثر من ٥٠٪ من نسبة السكان في ثلاث مدن كبرى هي : واشنطن ، وأطلنطا ، ونيويورك ، كما أن مدينة جارى باندانا بها أغلبية سوداء .

(١٩) الكتاب ص ٢١ .

(٢٠) الكتاب : ص ٢٤ .

(٢١) الكتاب : ص ٢٤ .

٢ - أشكال الحكم في المدينة :

نوجد ثلاثة أشكال لحكومة المدينة في الولايات المتحدة . وهذه الاشكال هي :

أ - حكومة المحافظ والمجلس Mayor-Council

ب - اللجنة Commission

ج - حكومة المجلس والمدير Council-Manager (٢٢) .

ونعرض فيما يلي لهذه الاشكال الثلاثة بشيء من التفصيل .

أ - حكومة المحافظ والمجلس :

يعتبر هذا الشكل اقدم الاشكال لحكومة المدينة واكثرها انتشارا في الولايات المتحدة ، وبالرغم من منافسة الاشكال الجديدة ، الا أن ما يزيد على نصف المدن - التي يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة - تستخدم هذا النظام . وهو في أساسه مقتبس من النظام الانجليزي ، غير أن تطورا بالغ الاهمية قد حدث بالنسبة لهذا النظام في الولايات المتحدة بحيث أصبح يختلف كليا عن النظام الانجليزي . فبينما نجد أن منصب المحافظ فخرى في النظام الانجليزي ، نجد أن المحافظ في الولايات المتحدة يتمتع بسلطات ضخمة ، بحيث فقد المجلس أهميته الى المدى الذي أصبح فيه المحافظ أكثر أهمية من المجلس في كثير من المدن . ويلاحظ أن بعض المدن أعطت محافظيها سلطات تشريعية أوسع من غيرها من المدن ، بحيث أصبح من المعتاد ترتيب المدن على

ويختتم ستيدمان عرضه لاتجاهات التطور العمراني في المناطق المتروبوليتانية بقوله : إن السياسة في المناطق المتروبوليتانية يمكن النظر إليها على أنها مجموعة من المشكلات التي تتعلق بصنع القرارات . وفي داخل هذا الإطار تتور تساؤلات كثيرة أهمها :

١ - من الذي يقوم بصنع القرارات في المنطقة المتروبوليتانية ؟

٢ - هل تتمسك الجماعات التي تقوم بصنع القرارات بمبدأ الشرعية ؟

٣ - ما هي الجماعة أو الجماعات التي تمسك في يدها زمام السلطة في المنطقة المتروبوليتانية ؟

٤ - كيف تحل الخلافات والصراعات التي تنشأ بين مختلف الجماعات في المنطقة المتروبوليتانية ؟

ثم يقول : إن كثيرا من الدراسات التي أجريت في المجتمعات المحلية المختلفة تشير الى أن التنظيمات السياسية في تلك المجتمعات تسيطر عليها صفوة من الناس . وهذه الصفوة قادرة على توجيه تلك التنظيمات لتحقيق أغراضها الخاصة . ويقول أيضا : إن ثمة اعتبارا آخر ينبغي الإشارة اليه وهو أنه حينما تحدث خلافات محلية حول اتخاذ القرارات المتعلقة بالمشكلات المتروبوليتانية ، فإن الحكومة المركزية تتخذ القرارات التي تراها مناسبة لحل المشكلة (٢٢) .

(٢٢) الكتاب : ص ٣٩ .

(٢٣) الكتاب : ص ٤٦ .

أساس أنها مدن لها محافظ قوى Strong Mayor Type ، او مدن لها محافظ ضعيف Weak Mayor Type (٢٤) .

ويتم اختيار المحافظين في الولايات المتحدة بواسطة الناخبين لمدة سنتين او أربع سنوات ، ومن المفروض ان يتم انتخاب المحافظ دون التقيد بانتماؤه الحزبي ، غير ان القاعده العامة في أغلب المدن هي انتخاب المحافظ على أساس انتمائه لأحد الحزبين الرئيسيين في الولايات المتحدة .

وتختلف وظائف المحافظ باختلاف المدن ، ففي المدن الصغيرة تكون مسئوليات المحافظ ومهامه محدودة ، بعكس الحال في المدن الكبيرة حيث تنوع اختصاصاته ، وتكثر الاعمال والواجبات الملقاة على عاتقه . وللمحافظ عادة سلطات تشريعية وأخرى تنفيذية ، وهو يتمتع في أغلب المدن بحق الفيتو في مجال السلطة التشريعية (٢٥) غير أن من الممكن ان يبطل المجلس اعتراضاته بأغلبية ثلثي الاصوات . وفي أغلب المدن يقوم المحافظ بتعيين رؤساء الاجهزة الادارية وأجهزة الخدمات (البوليس والحريق والصحة العامة) .

اما مجالس المدن فتقوم باصدار اللوائح الخاصة بتنظيم الصحة العامة والأمن والآداب العامة في المدينة ، كما تقوم بفرض الضرائب ، وتخصيص الأموال لمختلف المشروعات . وإذا لم توجد نصوص رسمية تحدد حق الانتفاع بالملكيات العامة فان المجالس يكون لها الحق في منح امتيازات الى شركات المنافع العامة التي ترغب في استخدام الشوارع او الملكيات العامة الاخرى ، كذلك العفود الخاصة باقامة المباني وتمهيد الطرق وتعييدها .

ب - نظام اللجنة :

يعتمد هذا النظام على مجموعة من الاعضاء يتراوح عددهم ما بين ثلاثة أعضاء وسبعة ، ويتم تعيينهم بالانتخاب لمدة سنتين أو أربع سنوات ، ويختار منهم واحد لتفعل منصب المحافظ ، وان لم يكن لهذا المنصب في ظل نظام اللجنة اهمية حقيقية .

ويقوم أعضاء اللجنة كمجموعة بوضع السياسة العامة ، وفرض الضرائب ، واعداد الميزانية ، وتعيين الموظفين وفصلهم ، واصدار اللوائح التنفيذية كما ان لهم الحق في الاعتراف على الادارات المختلفة بالمدينة .

وقد ظهرت عيوب هذا النظام واضحة خلال السنوات الاخيرة ، فتقسيم المسئولية بين أعضاء اللجنة كان يمنع اتخاذ قرارات موحدة ، يضاف الى ذلك ان غالبية الأعضاء ليست لديهم الخبرة الادارية اللازمة لممارسة العمل في الاقسام المختلفة . ومن الملاحظ ان الأخذ بهذا النظام بدأ يقل بشكل ملحوظ ، واصبح الانجاء الآن نحو الأخذ بأحد النظامين الآخرين (٢٦) .

ج - حكومة المجلس والمدير :

استخدم هذا النظام في أوائل القرن الحالى في كثير من المدن للتغلب على نقاط الضعف الموجودة في نظام اللجنة ، وأصبح يحتل المركز الثانى بعد نظام حكومة المحافظ والمجلس .

ويشبه هذا النظام التنظيم الموجود في الشركات الخاصة ، ويعطى أهمية خاصة للعلاقة الوثيقة بين الأقسام التشريعية والتنفيذية ، فبينما يقوم المجلس بالجوانب

(٢٤) الكتاب : ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢٥) الكتاب : ص ٤٨ .

(٢٦) الكتاب : ص ٥٠ .

مكييفر في كتابه « تكوين الدولة » ، وهذا المبدأان هما :

١ - مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلي .

٢ - مبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى أى منها ، من غير ضغط أو إكراه (٢٨) .

وقد ركز مكييفر في فرقته بين الدولة والمجتمع المحلي على النقاط التالية :

١ - يبنى الانسان لنفسه عالما غير مرئي من النظم والمؤسسات ينقل عبرها تراث ماضيه الى حاضره ، ولولاها لكانت حياته فوضى وفراغا ، ولظلت محصورة في المستوى الحيوانى .

٢ - المجتمع المحلي وليس الدولة هو الكيان الكامل الذى نعيش ونتحرك فى إطاره . والانسان يقضى حياته كلها داخل مجتمعات محلية . والمجتمع المحلي تنشأ فيه أشكال للقرابة ليست كلها أشكالا حكومية ، وتتكون فيه تجمعات ليست كلها تجمعات سياسية ، وتتواتر فيه أعراف ومستويات للسلوك ليست كلها من خلق الدولة ، وليست كل قوانين المجتمع المحلي من صنع الدولة ، بل ان للمجتمع المحلي قانونا ينمو وراء قانون الدولة ، وتكون له حرمانه قبل ان تنشأ الدولة ، ونظرا له هذه الحرمات بعد ان تنشأ الدولة .

٣ - الديمقراطية وحدها هى التى تعترف به أشكال الحكم الأخرى اعترافا ضمنا .

٤ - الديمقراطية وحدها هى النظام الذى يجعل من الحكومة وكلاء ، ومن الشعب سيذا يسأل وكيله الحساب ، والمجتمع المحلي يراقب

التشريعية ، يقوم المدير بتنفيذ القرارات ، ويتولى اختيار رؤساء الأقسام ويشرف على إجراءات التنفيذ .

والمدير هو الذى يقوم بالإشراف على الجوانب الإدارية للحكومة ، كما يحدث بالنسبة لمدير الشركة ، فهو يراقب كل مرحلة من مراحل العمل ، ويعين رؤساء الوكالات الإدارية ، ويقوم بالتنسيق بين مختلف الوكالات والأقسام .

وفى ظل هذا النظام يقوم المجلس بوضع السياسة العامة ، والمدير الحق فى تقديم مقترحاته وتوصياته الى المجلس ، وهو يشترك عادة فى مناقشة السياسة العامة مع المجلس بالرغم من عدم وجود صوت له بالمجلس . ويقوم المدير بتقديم تقارير الى المجلس عن سير العمل فى الإدارات المختلفة ، كما يعد الميزانية ويعرضها على المجلس ، ومتى وافق عليها يقوم بالإشراف على عمليات التنفيذ .

وقد ثبت ان لهذا النظام مزايا عديدة . فهو يتجمع على وجود مدير واحد توضع فى يده المسئولية ، ويكون مسئولا بمفرده عن إجراءات التنفيذ ، وهذا من شأنه ان يوفر الوقت والجهد بعكس ما هو موجود فى نظام اللجنة . ومن عيوب هذا النظام انه نظام غير ديمقراطي . كما انه لا يسمح بقيادة سياسية على مستوى عال من الكفاءة كما هو الحال فى منصب المحافظ (٢٧) .

٣ - النموذج الرسمي للسياسة الحضرية :

يقوم النموذج الرسمي للسياسة الحضرية على تطبيق « النموذج التعددى للديموقراطية Pluralistic Model » ، ويعتمد هذا النموذج على مبدأين أساسيين أشار إليهما

(٢٧) الكتاب : ص ٥٢ .

(٢٨) الكتاب : ص ٧٩ .

الحكومة في النظام الديموقراطي ، ولكن هذا لا يعنى ان الشعب يمارس بكليته هذه الرقابة ، ولا سبيل للشعب بكامله لأن يقرر من هم حكامه الا بالاعتماد على الراى العام والاعتماد على صناديق الاقتراع . والديموقراطية تقوم على حكم الراى ولا تفضل ابدا اصطناع القوة ضد الراى .

٥ - تقوم الديموقراطية على الاستجابة الحرة بين الدولة والمجتمع المحلى .

٦ - القانون الاساسي في الدولة الديموقراطية يجعل المجتمع المحلى في وضع أعلى من الدولة .

٧ - الديموقراطية هي روح للحكم بقدر ما هي شكل له ، واذا كانت الديموقراطية تعرف بشكلها لثلا تلتبس خصائصها بخصائص أشكال الحكم الاخرى ، فانها في الاساس نسق للحياة ، والاطار التى تهددها تنهدد شكلها وروحها .

٨ - تتشابه كل أنظمة الحكم الدكتاتورية من حيث انها لا تفرق بين الدولة والمجتمع المحلى ، وحينما يسود نظام دكتاتورى فانه يقضي نهائيا على كل ما من شأنه ان يميز بين ما هو من اختصاص الدولة وما هو من اختصاص المجتمع المحلى (٢٩) .

وبالنسبة لمبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى أى منها ، فاننا نجد أن الدولة الدكتاتورية تقضي على الشخصية الخاصة التى تتميز بها الجماعات ، بحيث تصبح هيئات حكومية أو شبه حكومية ، ولذا فان الجماعات المتعددة التى تعتنق قيما متنوعة تجد نفسها

في النظام الدكتاتورى تتبنى قيما واحدة . . هي قيم الدولة . والديموقراطية تقوم على مبدأ التنوع القسمى والاخلاقي والاعتفادي ، واتاحة الفرصة لكل جماعة ولكل عقيدة لأن تقوى اجتماعيا بدون أن ترتبط بالدولة ، فتظل بذلك حياة الافراد متنوعة تنوعا عضويا ، واذا اقترنت اية ديموقراطية بأخلاقية معينة فان مرجع ذلك الى آتشار هذه الاخلاقية بين مختلف الجماعات لا الى صدورهما عن الدولة .

ويضع « سنيدمان » بعض التحفظات على هذا النموذج ، ويحددها فيما يلي :

١ - النموذج مشتق من نظرية يتسببها الغموض في بعض المواضع ، ولذا يصبح موضعاً للشك ، فحكم الاغلبية لا يتحقق في عالم الواقع وكثيرا ما يحدث ان تسيطر احدى الجماعات على مفايلد الامور في المجتمع ، كما ان القرارات تتخذ بعد مساومات طويلة (٣٠) .

٢ - يفشل النموذج في وضع الحدود القاطعة بين الدولة والمجتمع المحلى ، وكثيرا ما يوسع كل منهما دائرة نفوذه على حساب الآخر (٣١) .

٣ - يصور النموذج وجود حرية في الراى ومنافسة حرة بين الافراد والجماعات ، غير أن هذا لا يحدث في عالم الواقع ، وغالبا ما يتحول الامر الى احتكار القلة لمجال العمل السياسي . . . ان المنافسة الحرة تستلزم وجود تكافؤ بين القوى المتنافسة من النواحي الاقتصادية والسياسية ، غير ان هذا لا يتحقق في المجال التطبيقي .

(٢٩) الكتاب : ص ٨٠ ، ٨١ .

(٣٠) الكتاب : ص ٨٧ .

(٣١) الكتاب ص ٨٨ ، ٨٩ .

وهذا النمط الآلى على افتراض مؤداه أنه ليس نمة معارض بين مصلحة التنظيم ومصلحة الافراد . ولذا فان اقرارات التى يتخذها الفائد أو الرئيس تحقق مصالح الافراد بطريقة آليه ، ومن هنا نترك السلطة كلها للقائد ليتصرف بالطريقة التى يراها مناسبة. ويذهب « ستيدمان » الى أن هذا النمط يشبه الى حد كبير النمط البيروقراطى الذى يقوم على مبدأ تسلسل السلطة ، والذى يعطى للرئيس الحق فى الاشراف على مرؤوسيه واصدار الاوامر اليهم . (٢٢)

ومن الواضح أن هذا النظام من شأنه أن يخلق الوحدة ويحقق التكامل بين فئات وعناصر التنظيم ، الا أنه يمنع الافراد من المشاركة فى اتخاذ القرارات ولا يساعد على تنمية المهارات والقدرات الفردية .

أما النمط الاصلاحى فيهدف الى تحويل السلطة الى الشعب ، ويعتمد على عناصر المشاركة على أساس أن كافة الفئات والهيئات ينبغى أن تشارك فى صنع مستقبلها وتقرير مصيرها .

وقد طالب المصلحون منذ سنة ١٨٩٤ بتطبيق هذا النمط ، وكانت لهم مطالب محددة أهمها: تكوين مجالس للمواطنين ، وأحزاب محلية مستقلة ، ونواد اصلاحية ، ويذهب « ستيدمان » الى أن النظام الآلى يجد مساندة من جانب الطبقات الفقيرة ، على حين أن النظام الاصلاحى يجد المساندة والتأييد من جانب الطبقات المتوسطة .

ولذا فان أى تغير فى البناء الطبقي فى

٤ - يقوم النموذج على افتراضات اقتصادية لم يعد لها وجود فى الوقت الحالى . للمنافسة التى كانت قائمة فى القرن التاسع عشر بين جماعات ومنظمات متكافئة لم يعد لها وجود نتيجة لتغير الوضع الاقتصادى ، وبعد أن كان مجتمع الطبقة الوسطى يحافظ على توازن القوى أصبح اليوم أداة فى يد الدولة .

٥ - يعتمد النموذج الأمريكى للديموقراطية على سياسة لبرالية تفترض أن النموذج يصحح نفسه بدون تدخل من جانب الدولة ، غير أن هذا ليس له أساس من الصحة (٢٢) .

٤ - أسلوب الوساطة أو السمسرة :

استعار ستيدمان هذا الاصطلاح من المجال الاقتصادى، فكما يقوم الوسيط أو «السمسار» Broker بتنظيم عمليات البيع والشراء وفقا لقواعد واجراءات متعارف عليها ، يقوم الحزب أو التنظيم السياسى بالتدخل لدى الهيئات المختلفة لتحقيق مصالح الافراد والجماعات ، ويكون دوره فى هذه الحالة كدور الوسيط تماما . فهو الذى ينظم عمليات بيع واستغلال الاراضى ، وهو الذى يخلق المناخ المناسب للمهاجرين الجدد ليستقروا فى البيئات الجديدة، وهو الذى يساعد الفئات العرقية والطبقات الفقيرة على الحصول على احتياجاتها ، وذلك عن طريق الانصال بالهيئات المسئولة التى تملك زمام الامور .

وهذا الأسلوب له نمطان هما : النمط الآلى والنمط الاصلاحى .

(٢٢) الكتاب : ص ٩٢ .

(٢٣) الكتاب : ص ١٢٠ .

يجد له صدى كبيرا في الكتابات الاجتماعية المعاصرة .

وقد حاول المؤلف أن يقدم نموذجا سياسيا يتمشى مع التغيرات الجديدة التي يشهدها المجتمع الأمريكي المعاصر ، غير أنه لم يستطع أن يقدم نموذجا واضح المعالم ، محدد القسّمات ، واكتفى بتحديد بعض الخصائص والاتجاهات المتوقعة في مجال العمل السياسي . وقد يكون له بعض العذر في ذلك نظرا لتضارب النتائج التي تسفر عنها البحوث الاجتماعية ، ولصعوبة وضع نموذج نمطي - يتسم بسوء من الثبات - في عالم دائم التغير .

وقد لمس المؤلف بنفسه هذه النقطة في أكثر من موضع ، وأشار الى أن الهدف من الكتاب هو وصف التحول العظيم في أساليب السياسة الحضرية ، ومحاولة تفسيرها بقدر الامكان ، ويتضح ذلك فيما كتبه في مقدمة الكتاب اذ يقول: وقد كنت أحاول أن أقدم تقييما للموقف كلما دعت الضرورة ، أو كلما وجدت ذلك ممكنا ومناسبا ، كما كنت أقوم بصياغة بعض الفروض على أمل أن يكون ذلك دافعا لباحثين آخرين لأن يتناولوها بالتحقيق والدراسة العلمية المتعمقة .

والكتاب في جملته جهد علمي قيم ، جدير بالقراءة المعمقة ، والدراسة الجادة .

المجتمعات المحلية كفيل بأن يحدث تغيرات مماثلة في اتجاهات الافراد نحو النمط السائد . (٢٤)

خاتمة :

يتضح من العرض السابق لأقسام الكتاب وفصوله وموضوعاته أن المؤلف ركز على دراسة النظام السياسي في البيئات الحضرية معتمدا على المنهج التحليلي ، ومرتكزا على النتائج التي أسفرت عنها البحوث المعاصرة في علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة ، مستفيدا بالاستقراء التاريخي في شرح وتفسير الظواهر السياسية السائدة في المجتمع الحضري الأمريكي . والواقع أن هذا المنهج لا غنى عنه لأي باحث يقوم بدراسة نظام سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي معين ، لما بين ظواهر الحياة الاجتماعية - بصورها المتعددة - من روابط وثيق ، واعتماد متبادل .

وهذا الكتاب اذ يحلل الأسلوب القديم في السياسة الحضرية ، ويظهر تخلفه عن تحقيق الديمقراطية الصحيحة ، انما يبرز فتيل أسلوب المساومة والتوفيق في حل المشكلات بطريقة جذرية ، وفي مواجهة التغيرات التي يمر بها العالم في النصف الثاني من القرن العشرين .

وليس تمة شك في أن الاتجاه الذي يتبناه المؤلف - وهو الذي يركز على مبدأ الصراع -



من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة، وسوف نعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة



- (1) A bell, Peter, **Model Building in Sociology**, Weidenfeld and Nicolson, London 1971.
- (2) Ford, E. B., **Ecological genetics**, Chapman and Hall Ltd. London 1971 3rd edition)
- (3) Evans & Smith, **Psychology for a changing world**, John Wiley & sons, Inc., U.S.A. 1970.
- (4) Gurr, Ted Robert, **Politimetrics, An Introduction to Quantitative Macropolitics**, Prentice-Hall, Inc. N.J. 1972.
- (5) Morton, John, **Man, Science and God**, Collins, London and Auckland, 1972.



مطبعة حكومت الكويت

العدد التالى من المجلد

العدد الثانى - المجلد الخامس

يوليو أغسطس سبتمبر ١٩٧٤

قسم خاص عن الطاقة والحياة

بالإضافة الى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	المتاهرة	٢٥٠	ملياً
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	ملياً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مستقط	٤٠٠	بايك
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلساً	المغرب	٥	درهم

مطبعة حكمة الكتب